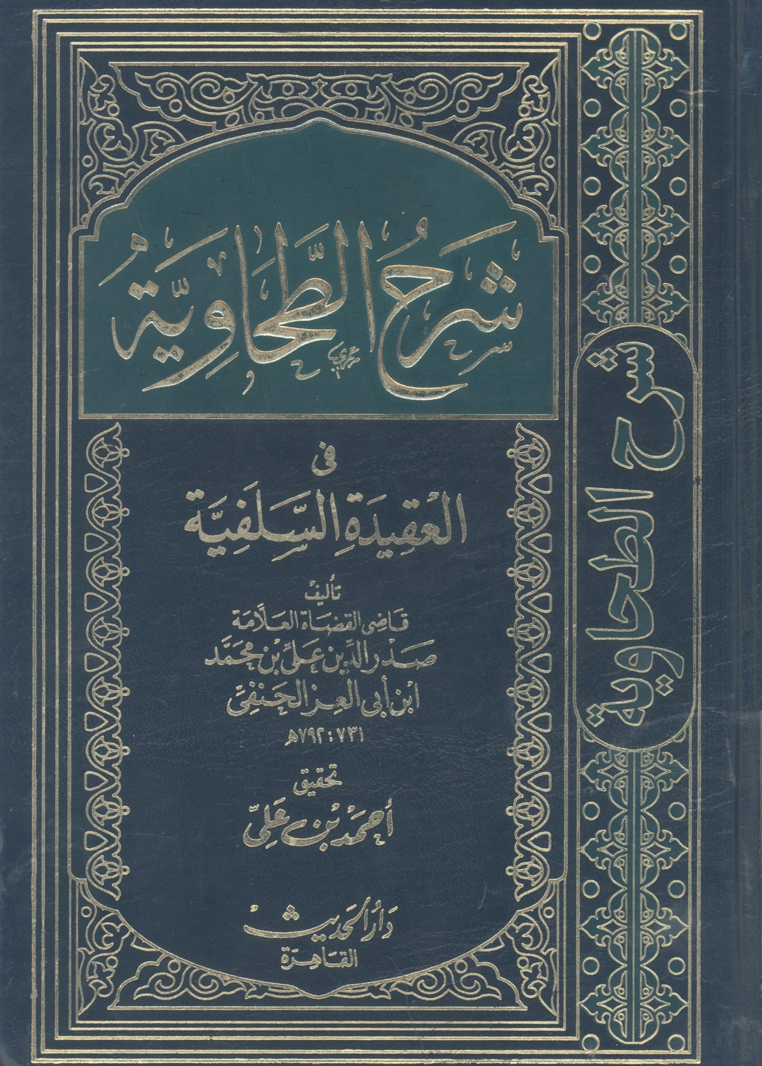
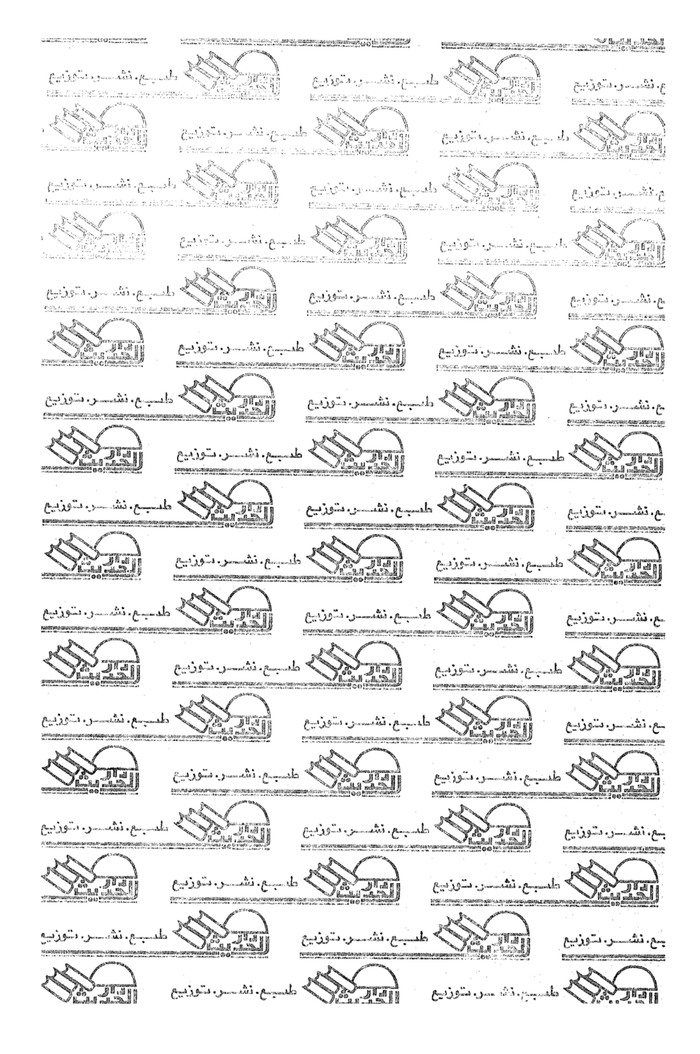

شرح الطحاوية
في
العقيدة السلفية
تأليف
قاضي القضاة العلامة
صدر الدين علي بن محمد
ابن أبي العز الحنفي
٧٣١ : ٧٩٢هـ
تحقيق
أحمد بن علي
دار الحديث
القاهرة
شرح الطحاوية



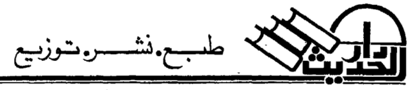
طبع . نشر . توزيع


طبع . نشر . توزيع


شرح الطحاوية
في
العقيدة السلفية

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر

١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م



١٤٠ شارع جوهر القائد أمام جامعة الأزهر تليفون ٥١١٣٠٣٦/ ٥٩١٨٧١٩/ ٥٩١٩٦٩٧ فاكس ٥٩١٩٦٩٧

شرح الطحاوية

في

العقيدة السلفية

تأليف

قاضي القضاة العلامة

صدر الدين علي بن محمد

ابن أبي العز الحنفي

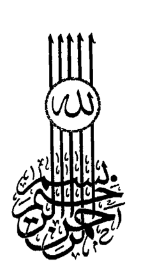
٧٣١ : ٧٩٢هـ

تحقيق

أحمد بن علي

دار الحديث

القاهرة



مقدمة التحقيق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواسع الجود والعطا، الذى شهد بوجوب وجوده ووحدانيته وعظيم جلاله ووجوب افتقار الكائنات كلها إليه فى الأرض والسما، والعزيز الذى عز فى ملكه عن أن يكون له شريك فى تدبير شىء ما، فتعالى جل وعز عن الشركاء والوزراء، الرحيم الرحمن الذى عمت نعمه العوالم كلها، فلا مخلص لكائن عن تلك النعما، الواسع الكريم المنفرد بالإيجاد، فلا يستطاع شكر نعمته إلا بما هو من نعمه الجمًّا، فلا وصول إلى شىء من فضله إلا بمحض فضله، تعالى ربنا جل وعز عن الأغراض والأعوان والوكلاء والوزراء.

نحمده سبحانه على نعم لا تحصى ونشكره تبارك وتعالى، هو الرءوف الرحيم الذى بسط بفضله منقبض القلوب والألسنة والجوارح بما شاء من جميل الثناء.

ونشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، شهادة نشأت عن محض اليقين فلا يطرق ساحتها بفضل الله تعالى ضروب الشكوك والامتراء.

ونشهد أن سيدنا ونبينا ومولانا محمدًا ﷺ عبده ورسوله، شهادة ندخرها بفضل الله تعالى وجميل عونه لما قصم الظهور وأذاب الأكباد من أهوال الموت والقبر، وما يتفاقم من المعضلات فى يوم البعث والجزاء، ونحوذ بها بفضل الله تعالى مع الآباء والأمهات والذرية والإخوة والأخوات والأحبة فى أعلى الفردوس غاية السمو والارتقاء.

وبعد . . .

فأهم ما يشتغل به العاقل اللبيب فى هذا الزمان الصعب أن يسعى فيما ينقذ مهجته من الخلود فى النار، وليس ذلك إلا بإتقان عقائد التوحيد على الوجه الذى قرره أئمة أهل السنة والجماعة العارفون الأخيار، وما أندر من تيقن ذلك فى هذا الزمان الذى فاض فيه بحر الجهالة

وانتشر فيه الباطل أى انتشار، ورمى فى كل ناحية من الأرض بأمواج إنكار الحق وبغض أهله وتزيين الباطل بالزخرف الغار، وما أسعد من اليوم وُفّق لتحقيق عقائد إيمانه ثم عرف بعد ذلك ما يضطر إليه من فروع دينه فى ظاهره وباطنه، حتى ابتهج سره بنور الحق واستنار، ثم اعتزل الخلق طاويًا عنهم شره إلى أن ينتقل قريبًا بالموت عن فساد هذه الدار، فهنيئًا له بما يرى إثر الموت من نعيم وسرور، صبر قليلا ففاز كثيرًا، فسبحان من يختص بفضله من يشاء من عباده، ويقرب من يشاء ويبعد من يشاء.

ثم أما بعد . . .

فإننا بفضل الله تعالى نقدم للإخوة الكرام اليوم كتابًا من أهم الكتب فى مجال العقيدة ألا وهو: "**شرح العقيدة الطحاوية**" لعلى بن على بن محمد بن أبى العز الحنفى، رحمه الله تعالى.

وقد بذلنا فيه جهدًا نسأل الله تبارك وتعالى أن يتقبله عنده خالصًا لوجهه الكريم، آمين.

وقد جاء هذا الجهد المتواضع ممثلا فى النقاط التالية:

١ـ ضبط نص الكتاب على عدة نسخ منها:

(أ) طبعة الشيخ أحمد شاكر، رحمه الله تعالى.

(ب) طبعة الشيخ محمد ناصر الدين الألبانى، رحمه الله تعالى.

(حـ) طبعة الشيخ شعيب الأرناؤوط.

فأتت بفضل الله تعالى من أفضل نسخ الكتاب ضبطًا، إن لم تكن أفضلها، والحمد لله.

٢ـ تخريج الآيات القرآنية.

٣ـ تخريج الأحاديث النبوية، والحكم على كل حديث بما يناسبه، حسب القواعد الحديثية، حيث إن الحكم على الحديث هو الغاية من تخريج الحديث، فما الفائدة من بسط التخريج ثم بعد جهد طويل تخرج وأنت لا تعرف ما إذا كان الحديث مقبولا أو مردودًا، وخاصة أن كثرة المخارج لا تدل قطعًا على صحة الحديث، فكم من حديث خُرِّج من أكثر من عشرين مصدرًا وهو مردود ولا تقوم به حجة، يعلم ذلك من اشتغل بهذا الفن الشريف.

وللشيخ الألبانى كلمة عظيمة فى هذا المجال حيث قال، رحمه الله:

"فإن مما لا يخفى على العلماء أن تخريج الحديث وسيلة لمعرفة مرتبته، فإذا وقف المخرج عند التخريج، ولم يتعده إلى بيان ثمرته من الصحة أو الضعف فلا فائدة تذكر منه بالنسبة للمتن، وما مثله عندى إلا كمن يتوضأ ولا يصلى".

انظر "صحيح الأدب المفرد" ص: ٢٩.

٤ــ عمل ترجمة موجزة لكثير من الأعلام.

٥ــ كنت فى بداية هذا العمل أعزو كلام المصنف إلى مصادره الأصلية التى نقل عنها، ولكن بعد القراءة المتأنية للكتاب تبين لى أنه، رحمه الله تعالى، قد اعتمد فى هذا الكتاب على كتب شيخ الإسلام ابن تيمية مثل "الفتاوى" و "درء تعارض العقل والنقل" وكتب شيخ الإسلام ابن القيم والحافظ ابن كثير، رحمهم الله تعالى.

ولما كان الأمر كذلك اكتفيت بالإشارة إليه فى المقدمة توفيرا للجهد، وأخذا للفائدة من أقرب الطرق الموصلة إليها.

وفى الختام، نعوذ بالله من السلب بعد العطاء، ومن الغضب الذي لا يطاق، ومن أن تلحقنا بأهل الخيبة والحرمان، اللهم أكرم نزلنا، واغفر برحمتك ذنوبنا. . . آمين.

كتبه

أبو الفضل الدمياطى

عفا الله عنه

آمين

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد . . . فإنه لما كان علم أصول الدين أشرف العلوم(١)، إذ شرف العلم بشرف المعلوم، وهو الفقه الأكبر بالنسبة إلى فقه الفروع، ولهذا سمى الإمام أبو حنيفة(٢) رحمه الله تعالى ما قاله وجمعه فى أوراق من أصول الدين "الفقه الأكبر"(٣) وحاجة العباد إليه فوق كل حاجة وضرورتُهم إليه فوق كل ضرورة، لأنه لا حياة للقلوب ولا نعيم ولا طمأنينة إلا بأن تعرف ربَّها ومعبودها وفاطرها بأسمائه وصفاته وأفعاله، ويكون مع ذلك كله أحب إليها مما سواه، ويكون سعيها فيما يقربُها إليه دون غيره من سائر خلقه.

---

(١) قال فخر الإسلام، على البوذوى فى أصول الفقه وما نقله عنه أبو المنتهى فى "شرح الفقه الأكبر" لأبى حنيفة:

العلم نوعان: علم التوحيد والصفات، وعلم الشرائع والأحكام.

والأصل فى النوع الأول التمسك بالكتاب والسنة ومجانبة الهوى والبدعة ولزوم طريق أهل السنة والجماعة الذى كان عليه الصحابة والتابعون ومضى عليه الصالحون، وهو الذى أدركنا عليه مشايخنا، وكان على ذلك سلفنا".

"أبو المنتهى شرح الفقه الأكبر" ص: ١ مخطوط.

(٢) هو: الإمام فقيه الأمة عالم العراق أبو حنيفة النعمان بن ثابت بن زوطى التيمى، الكوفى، ولد سنة ٨٠ فى حياة صغار الصحابة، ورأى أنس بن مالك، وروى عن عطاء بن أبى رباح والشعبى وعدى بن ثابت وأبى سفيان طلحة بن نافع، ونافع مولى ابن عمر، وحدث عنه الكثير، منهم: إبراهيم بن طهمان، عالم خراسان، وأبيض بن الأغر، وداود الطائى، وغيرهم خلق كثير، وكان أبو حنيفة ورعًا تقيًّا مفضلا على إخوانه، طويل الصمت، كثير العقل، كثير الصلاة والبكاء والتضرع، وكان كثير القراءة لكتاب الله حتى روى أنه ختم القرآن سبعة آلاف مرة، توفى، رحمه الله تعالى، سنة ١٥٠ هـ.

(٣) **قلت**: هى رسالة صنفها الإمام أبو حنيفة، رحمه الله تعالى، وهى على مذهب أهل السنة والجماعة، وقد اعتنى بها كثير من من العلماء بالشرح والتعليقات المفيدة.

ومن المحال أن تستقل العقول بمعرفة ذلك وإدراكه على التفصيل فاقتضت رحمة العزيز الرحيم أن بعث الرسل به معرفين وإليه داعين ولمن أجابهم مبشرين، ولمن خالفهم منذرين[(١)] وجعل مفتاح دعوتهم وزبدة رسالتهم معرفة المعبود سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله إذ على هذه المعرفة تبنى مطالب الرسالة كلها من أولها إلى آخرها.

ثم يتبع ذلك أصلان عظيمان:

أحدهما: تعريف الطريق الموصل إليه وهى شريعته المتضمنة لأمره ونهيه.

والثانى: تعريف السالكين ما لهم بعد الوصول إليه من النعيم المقيم.

فأعرف الناس بالله عز وجل اتبعهم للطريق الموصل إليه وأعرفهم بحال السالكين عند القدوم عليه، ولهذا سمى الله ما أنزله على رسوله روحًا لتوقف الحياة الحقيقية عليه ونورًا لتوقف الهداية عليه فقال الله تعالى: ﴿ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾[(٢)] وقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا[(٣)] مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ۝ ﴾[(٤)] ولا روح إلا فيما جاء به الرسول، ولا نور إلا فى الاستضاءة به، وسماه الشفاء كما قال الله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾[(٥)] فهو وإن كان هدى وشفاء مطلقا لكن لما كان المنتفع بذلك هم المؤمنين خُصوا بالذكر.

---

(١) قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝ ﴾ [الزمر:٦٥].

(٢) سورة غافر الآية: ١٥.

(٣) قال ابن عباس: روحا من أمرنا: القرآن.

أخرجه البخارى فى كتاب التفسير (٨/ ٦٩٢) تفسير سورة الشورى.

وقال ابن حجر: وصله ابن أبى حاتم من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس بهذا.

وروى عن الحسن: روحا من أمرنا قال: رحمة، وقال السدى: روحا من أمرنا: وحيا، وقال الضحاك: هو القرآن، وهو قول مالك بن دينار.

قال القرطبى: سماه روحا لأن فيه حياة من موت الجهل.

(٤) سورة الشورى الآيتان: ٥٢، ٥٣.

(٥) سورة فصلت الآية: ٤٤.

والله تعالى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق، فلا هدى إلا فيما جاء به.

ولا ريب أنه يجب على كل أحد أن يؤمن بما جاء به الرسول إيمانًا عامًّا مجملا، ولا ريب أن معرفة ما جاء به الرسول على التفصيل فرضٌ على الكفاية،فإن ذلك داخل فى تبليغ ما بعث الله به رسوله، وداخل فى تدبر القرآن وعقله وفهمه وعلم الكتاب والحكمة وحفظ الذكر والدعاء إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والدعاء إلى سبيل الرب بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتى هى أحسن، ونحو ذلك مما أوجبه الله على المؤمنين فهو واجب على الكفاية منهم.

وأما ما يجب على أعيانهم فهذا يتنوع بتنوع قُدَرِهم وحاجتهم ومعرفتهم، وما أُمر به أعيانُهم، ولا يجب على العاجز عن سماع بعض العلم أو عن فهم دقيقه ما يجب على القادر على ذلك، ويجب على من سمع النصوص وفهمها من علم التفصيل ما لا يجب على من لم يسمعها، ويجب على المفتى والمحدث والحاكم ما لا يجب على من ليس كذلك.

وينبغى أن يُعرف أن عامة من ضل فى هذا الباب أو عجز فيه عن معرفة الحق فإنما هو لتفريطه فى اتباع ما جاء به الرسول وترك النظر والاستدلال الموصل إلى معرفته فلما أعرضوا عن كتاب الله ضلوا كما قال تعالى: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [1].

قال ابن عباس رضى الله عنهما: تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة، ثم قرأ هذه الآيات، وكما فى الحديث الذى رواه الترمذى وغيره عن على ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ "إنَّها ستكون فتن" قلت: فما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: "كتاب الله: فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم هو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله وهو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسن ولا تنقضى عجائبه

---

(١) سورة طه الآيات: ١٢٣ : ١٢٦.

ولا تشبع منه العلماء من قال به صدق ومن عمل به أجر ومن حكم به عدل ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم"[1] إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث الدالة على مثل هذا المعنى.

ولا يقبل الله من الأولين والآخرين دينا يدينون به إلا أن يكون موافقا لدينه الذى شرعه على ألسنة رسله.

وقد نزه الله تعالى نفسه عما يصفه العباد، إلا ما وصفه به المرسلون بقوله سبحانه: ﴿ سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾[2] فنزه نفسه سبحانه عما يصفه به الكافرون ثم سلم على المرسلين لسلامة ما وصفوه به من النقائص والعيوب ثم حمد نفسه على تفرده بالأوصاف التى يستحق عليها كمال الحمد[3].

ومضى على ما كان عليه الرسول ﷺ خير القرون، وهم الصحابة والتابعون لهم بإحسان يوصى به الأول الآخر، ويقتدى فيه اللاحق بالسابق وهم فى ذلك كله بنبيهم ﷺ مقتدون وعلى منهاجه سالكون كما قال تعالى فى كتابه العزيز: ﴿ قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ

---

(١) أخرجه الترمذى (٥/ ١٧٢) رقم (٢٩٠٦) والدارمى (٢/ ٢٩٤) رقم (٣٣٢٦، ٣٣٢٧) والبغوى فى "شرح السنة" (٤/ ٤٣٧).

قال الترمذى: هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإسناده مجهول، وفى الحارث مقال.

قلت: رواه الترمذى والبغوى من طريق عبد بن حميد: حدثنا حسين بن على الجعفى قال: سمعت حمزة الزيات عن أبى المختار الطائى عن ابن أخى الحارث الأعور، عن الحارث. . . وذكر الحديث.

قلت: وهذا إسناد به أكثر من علة:

١) أبو المختار الطائى، قال ابن المدينى: لا يعرف، وقال أبو زرعة: لا أعرفه، وقال الذهبى: حديثه فى فضائل القرآن العزيز منكر.

٢) ابن أخى الحارث الأعور، قال الذهبى: ابن أخى الحارث الأعور عن عمه عن على رضي الله عنه لا يدرى من هو، وعنه أبو المخارق الطائى.

٣) الحارث الأعور، كذبه على بن المدينى والشعبى، وقال جرير بن عبد الحميد: كان زيفا، وقال الدارقطنى: ضعيف، وابن حيان مع تساهله قال: كان الحارث غاليا فى التشيع، واهيا فى الحديث.

وكان ابن سيرين يرى أن عامة ما يروى عن على باطل.

وأخرجه أيضا الدارمى، كما تقدم، ومداره أيضا على الحارث الأعور، فهو آفة هذا الحديث.

قال الشيخ الألبانى، رحمه الله: هذا حديث جميل المعنى، ولكن إسناده ضعيف.

(٢) سورة الصافات الآيات: ١٨٠: ١٨٢.

(٣) انظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣/ ٨٧) ، (٦/ ٢٥)

بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ [(١)] فإن كان قوله: ﴿ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ معطوفا على الضمير فى ﴿ أَدْعُوٓا۟ ﴾ فهو دليل على أن أتباعه هم الدعاة إلى الله، وإن كان معطوفًا على الضمير المنفصل فهو صريح أن أتباعه هم أهل البصيرة، فما جاء به دون غيرهم، وكلا المعنيين حق.

وقد بلغ الرسول ﷺ البلاغ المبين وأوضح الحجة للمستبصرين وسلك سبيله خير القرون.

ثم خلف من بعدهم خلف اتبعوا أهواءهم وافترقوا فأقام الله لهذه الأمة من يحفظ عليها أصول دينها كما أخبر الصادق ﷺ بقوله: "لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم"[(٢)].

وممن قام بهذا الحق من علماء المسلمين الإمام أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الأزدى الطحاوى، تغمده الله برحمته، بعد المائتين، فإن مولده سنة تسع وثلاثين ومائتين، ووفاته سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة.

فأخبر رحمه الله عما كان عليه السلف ونقل عن الإمام أبى حنيفة النعمان بن ثابت الكوفى وصاحبيه أبى يوسف يعقوب بن إبراهيم الحميرى الأنصارى ومحمد بن الحسن الشيبانى[(٣)] رضي الله عنهم ما كانوا يعتقدون من أصول الدين ويدينون به رب العالمين.

---

(١) سورة يوسف الآية: ١٠٨.

(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم فى "كتاب الإمارة" حديث (١٩٢٠) وقال وأبو داود فى "كتاب الفتن والملاحم" حديث (٤٢٥٢) والترمذى فى "كتاب الفتن" حديث (٢٢٢٩) وقال: "هذا حديث حسن صحيح" وابن ماجه فى "المقدمة" حديث (١٠) وأبو عوانة فى "كتاب الجهاد" حديث (٧٥٠٩) وأحمد فى "المسند" حديث (٢٢٣٠٢) وأبو نعيم فى "حلية الأولياء" (٢/ ٣٢٨) حديث (٢٤٥٣) والبيهقى فى "كتاب السير" (٩/ ١٨١) والحاكم فى "كتاب الفتن والملاحم" (٤/ ٤٤٩) وقال: "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه بهذه السياقة، وإنما أخرج مسلم حديث معاذ بن هشام، عن قتادة، عن أبى أسماء الرحبى، عن ثوبان مختصرًا" ووافقه الذهبى: وقال: وأخرج مسلم بعضه من طريق هشام الدستوائى عن يحيى" وجاء هذا الحديث عن جمع من الصحابة بلغ حد التواتر أذكر منهم: جابر بن عبد الله، وجابر ابن سمرة، وأبو هريرة، وعمر بن الخطاب، ومعاوية بن أبى سفيان، وأبو أمامة الباهلى، والمغيرة بن شعبة، والنواس بن سمعان، ومعاذ بن جبل، وشرحبيل بن السمط الكندى، وعمران بن حصين، وقرة بن إياس، وسلمة بن نفيل وغيرهم.

(٣) **أبو يوسف**، هو: أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن حبيش بن سعد الأنصارى الكوفى، ولد سنة (١١٣هـ) وسمع من هشام بن عروة، ويحيى بن سعيد الأنصارى، وعطاء بن السائب، وحدث عنه: يحيى بن معين، وأحمد بن حنبل، وعلى بن الجعد، وأسد بن الفرات وغيرهم, قال ابن معين: ما رأيت-

وكلما بَعُدَ العهد ظهرت البدع وكثر التحريف الذى سماه أهله تأويلا ليُقبل، وقل من يهتدى إلى الفرق بين التحريف والتأويل إذ قد يسمى صرف الكلام عن ظاهره إلى معنى آخر يحتمله اللفظ فى الجملة تأويلا وإن لم يكن ثَمَّ قرينة توجب ذلك ومن هنا حصل الفساد فإذا سموه تأويلا قُبل وراج على من لا يهتدى إلى الفرق بينهما.

فاحتاج المؤمنون بعد ذلك إلى إيضاح الأدلة ودفع الشبه الواردة عليها وكثر الكلام والشغب، وسبب ذلك إصغاؤهم إلى شبه المبطلين وخوضهم فى الكلام المذموم الذى عابه السلف ونَهوا عن النظر فيه والاشتغال به والإصغاء إليه امتثالا لأمر ربِّهم حيث قال: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ﴾(١) فإن معنى الآية يشملهم.

وكل من التحريف والانحراف على مراتب فقد يكون كفرا وقد يكون فسقا وقد يكون معصية وقد يكون خطئا.

فالواجب اتباع المرسلين واتباع ما أنزله الله عليهم، وقد ختمهم الله بمحمد ﷺ فجعله آخر الأنبياء، وجعل كتابه مهيمنا على ما بين يديه من كتب السماء، وأنزل عليه الكتاب والحكمة، وجعل دعوته عامة لجميع الثقلين الجن والإنس باقية إلى يوم القيامة، وانقطعت به حجة العباد على الله، وقد بيَّن الله به كل شيء، وأكمل له ولأمته الدين خبرًا وأمرًا، وجعل طاعته طاعة له، ومعصيته معصية له، وأقسم بنفسه أنَّهم لا يؤمنون حتى يُحكموه فيما شجر بينهم، وأخبر أن المنافقين يريدون أن يتحاكموا إلى غيره، وأنَّهم إذا دُعوا إلى الله والرسول، وهو الدعاء إلى كتاب الله وسنة رسوله، صدوا صدودًا، وأنَّهم يزعمون أنَّهم إنما أرادوا إحسانًا وتوفيقًا، كما يقوله كثير من المتكلمة والمتفلسفة وغيرهم: إنما نريد أن نحس الأشياء بحقيقتها،

-فى أصحاب الرأى أثبت فى الحديث ولا أحفظ ولا أصح رواية من أبى يوسف، ومات رحمه الله سنة (١٨٢هـ).

والشيبانى هو: محمد بن الحسن بن فرقد العلامة فقيه العراق، أبو عبد الله الشيبانى الكوفى، صاحب أبى حنيفة ولد سنة (١٣٢هـ) وسمع من أبى حنيفة بعض الفقه وتمم الفقه على القاضى أبى يوسف، وأخذ عنه الشافعى فأكثر جدًا، وأبو عبيد، وهشام بن عبيد الله، ولى القضاء للرشيد بعد القاضى أبى يوسف، وكان يضرب بذكائه المثل، وتوفى رحمه الله سنة (١٨٩هـ).

(١) سورة الأنعام الآية: ٦٨.

أى ندركها ونعرفها، ونريد التوفيق بين الدلائل التى يسمونها العقليات، وهى فى الحقيقة جهليات، وبين الدلائل النقلية المنقولة عن الرسول،أو نريد التوفيق بين الشريعة والفلسفة، وكما يقوله كثير من المبتدعة من المتنسكة والمتصوفة: إنما نريد الأعمال، بالعمل الحسن، والتوفيق بين الشريعة وبين ما يدعونه من الباطل، الذى يسمونه حقائق، وهى جهل وضلال، وكما يقوله كثير من المتملكة والمتأثرة: إنما نريد الإحسان بالسياسة الحسنة والتوفيق بينها وبين الشريعة ونحو ذلك.

فكل من طلب أن يحكم فى شىء من أمر الدين غير ما جاء به الرسول ويظن أن ذلك حسن وأن ذلك جمع بين ما جاء به الرسول وبين ما يخالفه فله نصيب من ذلك، بل ما جاء به الرسول كاف كامل يدخل فيه كل حق.

وإنما وقع التقصير من كثير من المنتسبين إليهفلم يعلم ما جاء به الرسول فى كثير من الأمور الكلامية الاعتقادية ولا فى كثير منالأحوال العبادية ولا فى كثير من الإمارة السياسية أو نسبوا إلى شريعة الرسول بظنهم وتقليدهم ما ليس منها وأخرجوا عنها كثيرا مما هو منها.

فبسبب جهل هؤلاء وضلالهم وتفريطهم وبسبب عدوان أولئك وجهلهم ونفاقهم كثر النفاق ودرس كثير من علم الرسالة.

بل إنما يكون البحث التام والنظر القوى والاجتهاد الكامل فيما جاء به الرسول ﷺ ليعلم ويعتقد ويعمل به ظاهرا وباطنا فيكون قد تلى حق تلاوته وأن لا يهمل منه شىء.

وإن كان العبد عاجزا عن معرفة بعض ذلك أو العمل به فلا ينهى عما عجز عنه مما جاء به الرسول، بل حسبه أن يسقط عنه اللوم لعجزه لكن عليه أن يفرح بقيام غيره به ويرضى بذلك ويود أن يكون قائما به وأن لا يؤمن ببعضه ويترك بعضه بل يؤمن بالكتاب كله وأن يصان عن أن يدخل فيه ما ليس منه من رواية أو رأى أو يتبع ما ليس من عند الله اعتقادا أو عملا كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾[(١)].

وهذه كانت طريقة السابقين الأولين وهى طريقة التابعين لهم بإحسان إلى يوم القيامة وأولهم السلف القديم من التابعين الأولين ثم من بعدهم، ومن هؤلاء أئمة الدين المشهود لهم عند الأمة الوسط بالإمامة.

---

(١) سورة البقرة الآية: ٤٢.

فعن أبي يوسف رحمه الله تعالى أنه قال لبشر المريسى[١]: العلم بالكلام هو الجهل، والجهل بالكلام هو العلم، وإذا صار الرجل رأسا فى الكلام قيل: زنديق، أو رمى بالزندقة، أراد بالجهل به اعتقاد عدم صحته فإن ذلك علم نافع أو أراد به الإعراض عنه أو ترك الالتفات إلى اعتباره فإن ذلك يصون علم الرجل وعقله فيكون علما بهذا الاعتبار[٢] والله أعلم.

وعنه أيضا أنه قال: من طلب العلم بالكلام تزندق، ومن طلب المال بالكيميا أفلس، ومن طلب غريب الحديث كذب[٣].

وقال الإمام الشافعى[٤] رحمه الله تعالى: حكمى فى أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال ويطاف بهم فى العشائر والقبائل ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام.

وقال أيضا رحمه الله تعالى شعرا:

كل العلوم سوى القرآن مشغلة

إلا الحديث وإلا الفقه فى الدين

---

(١) قال الإمام الذهبى: المريسى المتكلم البارع أبو عبد الرحمن بشر بن غياث ابن أبى كريمة العدوى مولاهم البغدادى المريس. . . نظر فى الكلام فغلب عليه وانسلخ من الورع والتقوى وجرد القول بخلق القرآن ودعا إليه حتى كان عين الجهمية فى عصره بدعائهم فمقته أهل العلم وكفره عدة، ولم يدرك جهم بن صفوان، بل تلقف مقالاته من أتباعه. "السير" (٨/ ٤٨٢).

(٢) وعن زكريا الساجى: سمعت محمد بن إسماعيل، سمعت حسين بن على الكرابيسى يقول: شهدت الشافعى ودخل عليه بشر المريسى فقال لبشر: أخبرنى عما تدعو إليه، أكتاب ناطق، وفرض مفترض، وسنة قائمة، ووجدت عن السلف البحث فيه والسؤال؟ فقال بشر: لا، إلا أنه لا يسعنا خلافه، فقال الشافعى: أقررت بنفسك على الخطأ، فأين الكلام فى الفقه والأخبار، يواليك الناس وتترك هذا؟ قال: لنا نهمة فيه، فلما خرج بشر قال الشافعى: لا يفلح.

ويروى عن الربيع: سمعت الشافعى يقول فى كتاب "الوصايا": لو أن رجلا أوصى بكتبه من العلم لآخر، وكان فيها كتب الكلام، لم تدخل فى الوصية، لأنه ليس من العلم "سير أعلام النبلاء" (٨/ ٣٨٦ /٣٨٧).

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٥/ ١٦١).

(٤) هو: الإمام محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع، عالم العصر، ناصر الحديث، فقيه الملة، أبو عبد الله القرشى ثم المطلبى الشافعى المكى.

قال المزنى: ما رأيت أحسن من الشافعى، رحمه الله، وكان ربما قبض على لحيته فلا يفضل عن قبضته.

وقال أبو عبيد: ما رأيت أحدا أعقل من الشافعى.

ولد سنة ١٥٠ وتوفى سنة ٢٠٤هـ، فرحمه الله وأسكنه فردوسه الأعلى.

العلم ما كان فيه قال حدثنا

ما سوى ذاك وسواس الشياطين

وذكر الأصحاب فى الفتاوى أنه لو أوصى لعلماء بلده لا يدخل المتكلمون وأوصى إنسان أن يوقف من كتبه ما هو من كتب العلم فأفتى السلف أن يباع ما فيها من كتب الكلام[1] ذكر ذلك بمعناه فى الفتاوى الظهيرية.

فكيف يرام الوصول إلى علم الأصول بغير اتباع ما جاء به الرسول، ولقد أحسن القائل:

أيها المغتدى ليطلب علما

كل علم عبد لعلم الرسول

تطلب الفرع كى تصحح أصلا

كيف أغفلت علم أصل الأصول

ونبينا ﷺ أوتى فواتح الكلم وخواتمه وجوامعه، فبعث بالعلوم الكلية والعلوم الأولية والأخروية على أتم الوجوه، ولكن كلما ابتدع شخص بدعة اتسعوا فى جوابها، فلذلك صار كلام المتأخرين كثيرا قليل البركة، بخلاف كلام المتقدمين فإنه قليل كثير البركة لا كما يقوله ضلال المتكلمين وجهلتهم أن طريقة القوم أسلم وأن طريقتنا أحكم وأعلم، ولا كما يقوله من لم يقدرهم من المنتسبين إلى الفقه أنهم لم يتفرغوا لاستنباط الفقه وضبط قواعده وأحكامه اشتغالا منهم بغيره والمتأخرون تفرغوا لذلك فهم أفقه.

فكل هؤلاء محجوبون عن معرفة مقادير السلف وعمق علومهم وقلة تكلفهم وكمال بصائرهم وتالله ما امتاز عنهم المتأخرون إلا بالتكلف والاشتغال بالأطراف التى كانت همة القوم مراعاة أصولها وضبط قواعدها وشد معاقدها وهممهم مشمرة إلى المطالب العالية فى كل شيء فالمتأخرون فى شأن والقوم فى شأن آخر وقد جعل الله لكل شيء قدرا.

وقد شرح هذه العقيدة غير واحد من العلماء، ولكن رأيت بعض الشارحين قد أصغى إلى أهل الكلام المذموم واستمد منهم وتكلم بعباراتهم.

---

(١) تقدم ذكر كلام الإمام الشافعى فى هذه المسألة.

والسلف لم يكرهوا التكلم بالجوهر والجسم والعرض ونحو ذلك لمجرد كونه اصطلاحا جديدا على معان صحيحة كالاصطلاح على ألفاظ العلوم الصحيحة ولا كرهوا أيضا الدلالة على الحق والمحاجة لأهل الباطل.

بل كرهوه لاشتماله على أمور كاذبة مخالفة للحق، ومن ذلك مخالفتها الكتاب والسنة ولهذا لا تجد عند أهلها من اليقين والمعرفة ما عند عوام المؤمنين فضلا عن علمائهم ولاشتمال مقدماتهم على الحق والباطل كثر المراء والجدال وانتشر القيل والقال وتولد لهم عنها من الأقوال المخالفة للشرع الصحيح والعقل الصريح ما يضيق عنه المجال وسيأتى لذلك زيادة بيان عند قوله: فمن رام علم ما حظر عنه علمه.

وقد أحببت أن أشرحها سالكا طريق السلف فى عباراتهم وأنسج على منوالهم متطفلا عليهم، لعلّى أن أُنظم فى سلكهم وأدخل فى عدادهم وأُحشر فى زمرتهم ﴿ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ﴾[(١)] ولما رأيت النفوس مائلة إلى الاختصار آثرته على التطويل والإسهاب ﴿ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾[(٢)] وهو حسبنا ونعم الوكيل.

(١) سورة النساء الآية: ٦٩.

(٢) سورة هود الآية: ٨٨.

قوله: نقول في توحيد الله معتقدين بتوفيق الله أن الله واحد لا شريك لـــه:

ش: اعلم أن التوحيد أول دعوة الرسل وأول منازل الطريق وأول مقام يقوم فيه السالك إلى الله عز وجل، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ [(١)] وقال هود عليه السلام لقومه: ﴿ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ [(٢)] وقـــال صالح عليه السلام لقومه: ﴿ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ [(٣)] وقال شعيب عليه الســـلام لقومه: ﴿ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ [(٤)] وقال تعـــالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [(٥)] وقال تعـــالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [(٦)].

وقال ﷺ "أمرت أن اقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله"[(٧)].

ولهذا كان الصحيح أن أول واجب يجب على المكلف شهادة أن لا إله إلا الله، لا النظر ولا القصد إلى النظر ولا الشك كما هي أقوال لأرباب الكلام المذموم، بل أئمة الســـلف كلـــهم متفقون على أن أول ما يؤمر به العبد الشهادتان ومتفقون على أن من فعل ذلك قبل البلـــوغ لم

(١) سورة الأعراف الآية: ٥٩.
(٢) سورة الأعراف الآية: ٦٥.
(٣) سورة الأعراف الآية: ٧٣.
(٤) سورة الأعراف الآية: ٨٥.
(٥) سورة النحل الآية: ٣٦.
(٦) سورة الأنبياء الآية: ٢٥.
(٧) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب الإيمان" حديث (٢٥) ومسلم فى "كتاب الإيمان" حديـــث (٢٢) عن ابن عمر.
وهو حديث متواتر، كما نص على ذلك السيوطى فى متن جامعه، والعراقى فى كلامه علـــى "الإحيـــاء" والمناوى فى "فيض القدير".
وهذا الحديث رواه خمسة عشر صحابيًا، وفى "شرح الإحياء": رواه ستة عشر من الصحابة، كمـــا قالـــه العراقى، ثم سردهم.
وانظر "نظم المتناثر من الحديث المتواتر" (ص: ٥٠، ٥١) للكتانى، و "السلسلة الصحيحـــة" (ج١ ق٢: ٧٦٤) حديث (٤٠٧: ٤٠٩) فإن الشيخ الألبانى، رحمه الله تعالى بحثه بحثًا ممتازًا، فراجعه هناك.

يؤمر بتجديد ذلك عقيب بلوغه بل يؤمر بالطهارة والصلاة إذا بلغ أو ميز عند من يرى ذلـك، ولم يوجب أحد منهم على وليه أن يخاطبه حينئذ بتجديد الشهادتين وإن كان الإقرار بالشهادتين واجبا باتفاق المسلمين ووجوبه يسبق وجوب الصلاة لكن هو أدى هذا الواجب قبل ذلك.

وهنا مسائل تكلم فيها الفقهاء كمن صلى ولم يتكلم بالشهادتين(١) أو أتى بغير ذلك من خصائص الإسلام ولم يتكلم بهما، هل يصير مسلما أم لا؟ فالصحيح أنه يصير مسلما بكل ما هو من خصائص الإسلام فالتوحيد أول ما يدخل به فى الإسلام وآخر ما يخرج به من الدنيا كما قال النبى ﷺ "من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة"(٢) وهو أول واجب وآخر واجب.

فالتوحيد أول الأمر وآخره، أعنى توحيد الإلهية.

فإن التوحيد يتضمن ثلاثة أنواع:

أحدها: الكلام فى الصفات.

والثانى: توحيد الربوبية وبيان أن الله وحده خالق كل شىء.

والثالث: توحيد الإلهية وهو استحقاقه سبحانه وتعالى أن يعبد وحده لا شريك له.

---

(١) قال فى "الإنصاف": وإذا صلى الكافر حكم بإسلامه، هذا المذهب مطلقا، وعليه الأصحاب، وجزم به كثير منهم، وهو من مفردات المذهب، وذكر أبو محمد التميمى فى "شرح الإرشاد": إن صلى جماعة واحدة حكم بإسلامه، لا إن صلى منفردا، وقال فى الفائق: وهل الحكم للصلاة أو لتضمنها الشهادة؟ فيه وجهان، ذكرهما ابن الزاغونى.

وقال أيضا والمذهب أنه يسلم إذا أذن فى وقته ومحله، لا أعلم فيه نزاعا، ويحكم بإسلامه أيضا إذا أذن فى غير وقته ومحله. "الإنصاف فى معرفة الراجح من الخلاف" (١/ ٣٦٨، ٣٦٩).

قلت: ويؤيده قوله ﷺ: "من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا فله ما لنا وعليه ما علينا" وقوله: "بيننا وبينهم الصلاة".

(٢) **صحيح**: أخرجه أبو داود فى "كتاب الجنائز" حديث (٣١١٦) وابن حبان فى "صحيحه" (٤/ ٣) حديث (٣٠٠٠) وأحمد فى "المسند" (١٦/ ١٧٤) حديث (٢١٩٣٣).

وقال الشيخ الألبانى، رحمه الله تعالى فى حاشية الطحاوية: حديث حسن أو صحيح.

قلت: لكن الشيخ صححه فى "صحيح سنن أبى داود" (٢/ ٢٧٩) رقم (٣١١٦) وفى "إرواء الغليل" رقم (٦٨٧) وأيضا فى "مشكاة المصابيح" وفى أماكن أخرى.

أما الأول: فإن نفاة الصفات أدخلوا نفى الصفات فى مسمى التوحيد كجهم بن صفوان(١) ومن وافقه فإنهم قالوا: إثبات الصفات يستلزم تعدد الواجب وهذا القول معلوم الفساد بالضرورة فإن إثبات ذات مجردة عن جميع الصفات لا يتصور لها وجود فى الخارج وإنما الذهن قد يفرض المحال ويتخيله وهذا غاية التعطيل وهذا القول قد أفضى بقوم إلى القول بالحلول والاتحاد وهو أقبح من كفر النصارى فإن النصارى خصوه بالمسيح وهؤلاء عموا جميع المخلوقات ومن فروع هذا التوحيد أن فرعون وقومه كاملو الإيمان عارفون بالله على الحقيقة.

ومن فروعه أن عباد الأصنام على الحق والصواب وأنهم إنما عبدوا الله لا غيره.

ومن فروعه أنه لا فرق فى التحريم والتحليل بين الأم والأخت والأجنبية، ولا فرق بين الماء والخمر، والزنا والنكاح، والكل من عين واحدة لا بل هو العين الواحدة، ومن فروعه أن الأنبياء ضيقوا على الناس، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا.

وأما الثانى وهو توحيد الربوبية كالإقرار بأنه خالق كل شيء وأنه ليس للعالم صانعان متكافئان فى الصفات والأفعال وهذا التوحيد حق لا ريب فيه وهو الغاية عند كثير من أهل النظر والكلام وطائفة من الصوفية وهذا التوحيد لم يذهب إلى نقيضه طائفة معروفة من بنى آدم، بل القلوب مفطورة على الإقرار به أعظم من كونها مفطورة على الإقرار بغيره من الموجودات كما قالت الرسل فيما حكى الله عنهم: ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (٢).

وأشهر من عرف تجاهله وتظاهره بإنكار الصانع فرعون وقد كان مستيقنًا به فى الباطن كما قال له موسى: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (٣) وقال تعالى عنه وعن قومه: ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ (٤) ولهذا لما قال: ﴿ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ على وجه الإنكار له تجاهل العارف قال له موسى: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

(١) هو: جهم بن صفوان، أبو مُحرز الراسبى، الكاتب المتكلم، أُس الضلالة، ورأس الجهمية، كان منكرًا للصفات، وينزه البارى عنها بزعمه، ويقول بخلق القرآن، ويقول: إن الله فى الأمكنة كلها.
قيل: إن سلم بن أحوز قتل الجهم لإنكاره أن الله كلم موسى.
مات جهم سنة ١٢٨هـ. "سير أعلام النبلاء" (٦/ ٢٧٢).

(٢) سورة إبراهيم الآية: ١٠.

(٣) سورة الإسراء الآية: ١٠٢.

(٤) سورة النمل الآية: ١٤.

وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾[1].

وقد زعم طائفة أن فرعون سأل موسى مستفهما عن الماهية وأن المسئول عنه لما لم تكن له ماهية عجز موسى عن الجواب، وهذا غلط وإنما هذا استفهام إنكار وجحد كما دل سائر آيات القرآن على أن فرعون كان جاحدا لله نافيا له، لم يكن مثبتا له طالبا للعلم بماهيته، فلهذا بين لهم موسى أنه معروف وأن آياته ودلائل ربوبيته أظهر وأشهر من أن يسأل عنه بما هو، بل هو سبحانه أعرف وأظهر وأبين من أن يجهل، بل معرفته مستقرة فى الفطر أعظم من معرفة كل معروف، و لم يعرف عن أحد من الطوائف أنه قال: إن العالم له صانعان متماثلان فى الصفات والأفعال، فإن الثنوية من المجوس والمانوية القائلين بالأصلين: النور والظلمة وأن العالم صدر عنهما متفقون على أن النور خير من الظلمة وهو الإله المحمود وأن الظلمة شريرة مذمومة وهم متنازعون فى الظلمة هل هى قديمة أو محدثة فلم يثبتوا ربين متماثلين.

وأما النصارى القائلون بالتثليث فإنهم لم يثبتوا للعالم ثلاثة أرباب ينفصل بعضهم عن بعض بل متفقون على أن صانع العالم واحد ويقولون باسم الابن والآب وروح القدس إله واحد، وقولهم فى التثليث متناقض فى نفسه، وقولهم فى الحلول أفسد منه، ولهذا كانوا مضطربين فى فهمه وفى التعبير عنه لا يكاد واحد منهم يعبر عنه بمعنى معقول ولا يكاد اثنان يتفقان على معنى واحد فإنهم يقولون هو واحد بالذات ثلاثة بالأقنوم والأقانيم يفسرونها تارة بالخواص وتارة بالصفات وتارة بالأشخاص، وقد فطر الله العباد على فساد هذه الأقوال بعد التصور التام، وبالجملة فهم لا يقولون بإثبات خالقين متماثلين.

والمقصود هنا أنه ليس فى الطوائف من يثبت للعالم صانعين متماثلين مع أن كثيرا من أهل الكلام والنظر والفلسفة تعبوا فى إثبات هذا المطلوب وتقريره، ومنهم من اعترف بالعجز عن تقرير هذا بالعقل وزعم أنه يتلقى من السمع.

---

(١) سورة الشعراء الآيات: ٢٤: ٢٨.

والمشهور عند أهل النظر إثباته بدليل التمانع وهو أنه لو كان للعالم صانعان فعند اختلافهما مثل أن يريد أحدهما تحريك جسم وآخر تسكينه أو يريد أحدهما إحياءه والآخر إماتته فإما أن يحصل مرادهما أو مراد أحدهما أو لا يحصل مراد واحد منهما، والأول ممتنع لأنه يستلزم الجمع بين الضدين، والثالث ممتنع لأنه يلزم خلو الجسم عن الحركة والسكون وهو ممتنع، ويستلزم أيضا عجز كل منهما، والعاجز لا يكون إلها، وإذا حصل مراد أحدهما دون الآخر كان هذا هو الإله القادر والآخر عاجزًا لا يصلح للإلهية.

وتمام الكلام على هذا الأصل معروف فى موضعه وكثير من أهل النظر يزعمون أن دليل التمانع هو معنى قوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾(١) لاعتقادهم أن توحيد الربوبية الذى قرروه هو توحيد الإلهية الذى بينه القرآن ودعت إليه الرسل عليهم السلام وليس الأمر كذلك بل التوحيد الذى دعت إليه الرسل ونزلت به الكتب هو توحيد الإلهية المتضمن توحيد الربوبية وهو عبادة الله وحده لا شريك له فإن المشركين من العرب كانوا يقرون بتوحيد الربوبية وأن خالق السموات والأرض واحد كما أخبر تعالى عنهم بقوله: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾(٢) ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝ ﴾(٣) ومثل هذا كثير فى القرآن.

ولم يكونوا يعتقدون فى الأصنام أنها مشاركة لله فى خلق العالم بل كان حالهم فيها كحال أمثالهم من مشركى الأمم من الهند والترك والبربر وغيرهم تارة يعتقدون أن هذه تماثيل قوم صالحين من الأنبياء والصالحين ويتخذونهم شفعاء ويتوسلون بهم إلى الله وهذا كان أصل شرك العرب.

قال تعالى حكاية عن قوم نوح: ﴿ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ۝ ﴾(٤).

---

(١) سورة الأنبياء الآية: ٢٢.
(٢) سورة لقمان الآية: ٢٥.
(٣) سورة المؤمنون الآيتان: ٨٤، ٨٥.
(٤) سورة نوح الآية: ٢٣.

وقد ثبت فى صحيح البخارى وكتب التفسير وقصص الأنبياء وغيرها عن ابن عباس رضى الله عنهما وغيره من السلف أن هذه أسماء قوم صالحين فى قوم نوح فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم وأن هذه الأصنام بعينها صارت إلى قبائل العرب، ذكرها ابن عباس رضى الله عنهما قبيلة قبيلة[(١)].

وقد ثبت فى صحيح مسلم عن أبى الهياج الاسدى قال: قال لى على بن أبى طالب ﷺ ألا أبعثك على ما بعثنى رسول الله ﷺ أمرنى أن لا أدع قبرا مشرفا إلا سويته ولا تمثالا إلا طمسته[(٢)].

وفى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال فى مرض موته: "لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد" يحذر ما فعلوا، قالت عائشة رضى الله عنها: ولولا ذلك لأبرز قبره ولكن كره أن يتخذ مسجدا[(٣)].

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب التفسير" حديث (٤٩٢٠) وقال بعضهم: إن هذا الحديث منقطع بحجة أنه من رواية ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس، وأن ابن جريج لم يسمع التفسير من عطاء هذا، وإنما سمعه من ابنه عثمان بن عطاء، وأن عطاء هذا هو الخراسانى.

لكن قال ابن حجر عقب هذا الكلام المتقدم: "وهذا مما أستعظم على البخارى أن يخفى عليه، لكن الذى قوى عندى أن هذا الحديث بخصوصه عن ابن جريج عن عطاء الخراسانى وعن عطاء بن أبى رباح، جميعًا، ولا يلزم امتناع عطاء بن أبى رباح من التحديث بالتفسير أن لا يحدث بهذا الحديث فى باب آخر من الأبواب، أو فى المذكرة، وإلا فكيف يخفى على البخارى ذلك مع تشدده فى شرط الاتصال واعتماده غالبًا فى العلل على علىّ بن المدينى، شيخه، وهو الذى نبه على هذه القصة، ومما يؤيد ذلك أنه لم يكثر من تخريج هذه النسخة، وإنما ذكر بهذا الإسناد موضعين: هذا، وآخر فى النكاح، ولو كان خفى عليه لاستكثر من إخراجها، لأن ظاهرها أنها على شرطه. اهـ. (فتح البارى ٨/ ٨٢١، ٨٢٢).

(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم فى "كتاب الجنائز" حديث (٩٦٩) وأبو داود فى "كتاب الجنائز" حديث (٣٢١٨) والترمذى فى "كتاب الجنائز" حديث (١٠٤٩) وأحمد فى "المسند" حديث (٧٤١، ١٢٨٣).

قال الترمذى: حديث علىّ حديث حسن، والعمل عليه عند بعض أهل العلم، يكرهون أن يرفع القبر فوق الأرض.

قال الشافعى: أكره أن يرفع القبر إلا بقدر ما يُعرف أنه قبر، لكيلا يوطأ ولا يُجلس عليه.

(٣) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب الجنائز" حديث (١٣٣٠) ومسلم فى "كتاب المساجد" حديث (٥٢٩) وأحمد فى "المسند" حديث (١٨٨٤).

وفى الصحيحين أنه ذكر فى مرض موته كنيسة بأرض الحبشة وذكر من حسنها وتصاوير فيها فقال: "إن أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك التصاوير أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة"(١).

وفى صحيح مسلم عنه ﷺ أنه قال قبل أن يموت بخمس: "إن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإنى أنهاكم عن ذلك"(٢).

ومن أسباب الشرك عبادة الكواكب واتخاذ الأصنام بحسب ما يظن أنه مناسب للكواكب من طباعها.

وشرك قوم إبراهيم عليه السلام كان فيما يقال من هذا الباب وكذلك الشرك بالملائكة والجن واتخاذ الأصنام لهم.

وهؤلاء كانوا مقرين بالصانع وأنه ليس للعالم صانعان ولكن اتخذوا هؤلاء الوسائط شفعاء كما أخبر عنهم تعالى بقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ ﴾(٣) ﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝١٨ ﴾(٤).

وكذلك كان حال الامم السالفة المشركين الذين كذبوا الرسل كما حكى الله تعالى عنهم فى قصة صالح عليه السلام عن التسعة الرهط الذين تقاسموا بالله ــ أى تحالفوا بالله ــ لنبيتنه وأهله، فهؤلاء المفسدون المشركون تحالفوا بالله على قتل نبيهم وأهله وهذا بيّن أنهم كانوا مؤمنين بالله إيمان المشركين.

---

(١) صحيح: أخرجه البخارى فى "كتاب الصلاة" حديث (٤٢٧) وأطرافه (٤٣٤، ١٣٤١، ٣٨٧٨).
فى "كتاب المساجد" حديث (٥٢٨).

فعلم أن التوحيد المطلوب هو توحيد الإلهية الذى يتضمن توحيد الربوبية، قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ إلى قوله: ﴿ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾(١) وقال تعالى: ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾(٢) وقال ﷺ: "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه"(٣) ولا يقال إن معناه يولد ساذجا لا يعرف توحيدا ولا شركا كما قال بعضهم لما تلونا، ولقوله ﷺ فيما يروى عن ربه عز وجل: "خلقت عبادى حنفاء فاجتالتهم الشياطين"(٤) الحديث، وفى الحديث المتقدم ما يدل على ذلك حيث قال: يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ولم يقل يسلمانه، وفى رواية: يولد على الملة، وفى أخرى: على هذه الملة.

وهذا الذى أخبر به ﷺ هو الذى تشهد الأدلة العقلية بصدقه.

منها: أن يقال: لا ريب أن الإنسان قد يحصل له من الاعتقادات والإرادات ما يكون حقا وتارة ما يكون باطلا وهو حساس متحرك بالإرادات ولا بد له من أحدهما ولا بد له من مرجح لأحدهما ونعلم أنه إذا عرض على كل أحد أن يصدق وينتفع وأن يكذب ويتضرر مال بفطرته إلى أن يصدق وينتفع وحينئذ فالاعتراف بوجود الصانع الإيمان به هو الحق أو نقيضه، والثانى

---

(١) سورة الروم الآيات: ٣٠، ٣٦.

(٢) سورة إبراهيم الآية: ١٠.

(٣) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "الجنائز" حديث (١٣٨٥).

(٤) **صحيح**: أخرجه مسلم فى "كتاب الجنة" حديث (٢٨٦٥) وتمامه "ألا إن ربى أمرنى أن أعلمكم ما جهلتم مما علمنى يومى هذا، كل مال نحلته عبدا حلال، وإنى خلقت عبادى حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطانا، وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم، عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب، وقال: إنما بعثتك لأبتليك وأبتلى بك، وأنزلت عليك كتابا لا يغسله الماء، تقرؤه نائما ويقظان، وإن الله أمرنى أن أحرق قريشا، فقلت: رب إذا يثلغوا رأسى فيدعوه خبزة، قال: استخرجهم كما استخرجوك، واغزهم نغزك، وأنفق فسننفق عليك، وابعث جيشا نبعث خمسة مثله، وقاتل بمن أطاعك من عصاك، قال: وأهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط متصدق موفق، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذى قربى، ومسلم عفيف متعفف ذو عيال، قال: وأهل النار خمسة: الضعيف الذى لا زبر له، الذين هم فيكم تبعا، لا يتبغون أهلا ولا مالا، والخائن الذى لا يخفى له طمع، وإن دق، إلا خانه، ورجل لا يصبح ولا يمسى إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك، وذكر البخل أو الكذب، والشنظير الفحاش".

فاسد قطعا فتعين الاول فوجب أن يكون فى الفطرة ما يقتضى معرفة الصانع والإيمان به، وبعد ذلك إما ان يكون فى فطرته محبته أنفع للعبد أو لا، والثانى فاسد قطعا فوجب أن يكون فى فطرته محبة ما ينفعه.

ومنها: أنه مفطور على جلب المنافع ودفع المضار بحسه، وحينئذ لم تكن فطرة كل واحد مستقلة بتحصيل ذلك بل يحتاج إلى سبب معين للفطرة كالتعليم ونحوه فإذا وجد الشرط وانتفى المانع استجابت لما فيها من المقتضى لذلك.

ومنها: أن يقال من المعلوم أن كل نفس قابلة للعلم وإرادة الحق ومجرد التعليم والتحضيض لا يوجب العلم والإرادة لولا أن فى النفس قوة تقبل ذلك وإلا فلو علم الجهال والبهائم وحضضا لم يقبلا، ومعلوم أن حصول إقرارها بالصانع ممكن من غير سبب منفصل من خارج وتكون الذات كافية فى ذلك، فإذا كان المقتضى قائما فى النفس وقدر عدم المعارض فالمقتضى السالم عن المعارض يوجب مقتضاه فعلم أن الفطرة السليمة إذا لم يحصل لها ما يفسدها كانت مقرة بالصانع عابدة له.

ومنها: أن يقال إنه إذا لم يحصل المفسد الخارج ولا المصلح الخارج كانت الفطرة مقتضية للصلاح لأن المقتضى فيها للعلم والإرادة قائم والمانع منتف.

ويحكى عن أبى حنيفة رحمه الله أن قوما من أهل الكلام أرادوا البحث معه فى تقرير توحيد الربوبية فقال لهم أخبرونى قبل أن نتكلم فى هذه المسألة عن سفينة فى دجلة تذهب فتمتلئ من الطعام والمتاع وغيره بنفسها وتعود بنفسها فترسى بنفسها وتفرغ وترجع، كل ذلك من غير أن يدبرها أحد، فقالوا: هذا محال، لا يمكن أبدا، فقال لهم إذا كان هذا محالا فى سفينة فكيف فى هذا العالم كله علوه وسفله، وتحكى هذه الحكاية أيضا عن غير أبى حنيفة.

فلو أقر رجل بتوحيد الربوبية الذى يقر به هؤلاء النظار ويفنى فيه كثير من أهل التصوف ويجعلونه غاية السالكين كما ذكره صاحب منازل السائرين وغيره وهو مع ذلك إن لم يعبد الله وحده ويتبرأ من عبادة ما سواه كان مشركا من جنس أمثاله من المشركين، والقرآن مملوء من تقرير هذا التوحيد وبيانه وضرب الأمثال له، ومن ذلك أنه يقرر توحيد الربوبية ويبين أنه لا خالق إلا الله وأن ذلك مستلزم أن لا يعبد إلا الله فيجعل الأول دليلا على الثانى إذ كانوا يسلمون فى الأول وينازعون فى الثانى فيبين لهم سبحانه أنكم إذا كنتم تعلمون أنه لا خالق إلا

الله وحده وأنه هو الذى يأتى العباد بما ينفعهم ويدفع عنهم ما يضرهم لا شريك له فى ذلك فلم تعبدون غيره وتجعلون معه آلهة أخرى؟!.

كقوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾(١) أى أإله مع الله فعل هذا؟ وهذا استفهام إنكار يتضمن نفى ذلك، وهم كانوا مقرين بأنه لم يفعل ذلك غير الله فاحتج عليهم بذلك وليس المعنى أنه استفهام هل مع الله إله كما ظنه بعضهم لأن هذا المعنى لا يناسب سياق الكلام والقوم كانوا يجعلون مع الله آلهة أخرى كما قال تعالى: ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ ﴾(٢) وكانوا يقولون: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ ﴾(٣) لكنهم ما كانوا يقولون إن معه إلها جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزا، بل هم مقرون بأن الله وحده فعل هذا، وهكذا سائر الآيات، وكذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ﴾(٤) وكذلك قوله فى سورة الأنعام: ﴿ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ﴾(٥) وأمثال ذلك.

وإذا كان توحيد الربوبية الذى يجعله هؤلاء النظار ـ ومن وافقهم من الصوفية ـ هو الغاية فى التوحيد داخلا فى التوحيد الذى جاءت به الرسل ونزلت به الكتب فليعلم أن دلائله متعددة

---

(١) سورة النمل الآيتان: ٥٩، ٦٠.

(٢) سورة الأنعام الآية: ١٩.

(٣) سورة ص الآية: ٥.

(٤) سورة البقرة الآية: ٢١.

(٥) سورة الأنعام الآية: ٤٦.

كدلائل إثبات الصانع ودلائل صدق الرسول، فإن العلم كلما كان الناس إليه أحوج كانت أدلته أظهر رحمة من الله بخلقه.

والقرآن قد ضرب الله للناس فيه من كل مثل وهى المقاييس العقلية المفيدة للمطالب الدينية لكن القرآن يبين الحق فى الحكم والدليل، فماذا بعد الحق إلا الضلال! وما كان من المقدمات معلومة ضرورية متفقا عليها استدل بها و لم يحتج إلى الاستدلال عليها.

والطريقة الفصيحة فى البيان أن تحذف وهى طريقة القرآن بخلاف ما يدعيه الجهال الذين يظنون أن القرآن ليس فيه طريقة برهانية بخلاف ما قد يشتبه ويقع فيه نزاع فإنه يبينه ويدل عليه.

ولما كان الشرك فى الربوبية معلوم الامتناع عند الناس كلهم باعتبار إثبات خالقين متماثلين فى الصفات والأفعال وإنما ذهب بعض المشركين إلى أن ثم خالقا خلق بعض العالم كما يقوله الثنوية فى الظلمة وكما يقوله القدرية فى أفعال الحيوان وكما يقوله الفلاسفة الدهرية فى حركة الأفلاك أو حركات النفوس أو الأجسام الطبيعية، فإن هؤلاء يثبتون أمورا محدثة بدون إحداث الله إياها، فهم مشركون فى بعض الربوبية، وكثير من مشركى العرب وغيرهم قد يظن فى آلهته شيئا من نفع أو ضر بدون أن يخلق الله ذلك.

فلما كان هذا الشرك فى الربوبية موجودا فى الناس بين القرآن بطلانه كما فى قوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ﴾[1] فتأمل هذا البرهان الباهر بهذا اللفظ الوجيز الظاهر، فإن الإله الحق لا بد أن يكون خالقا فاعلا يوصل إلى عابده النفع ويدفع عنه الضر، فلو كان معه سبحانه إله آخر يشركه فى ملكه لكان له خلق وفعل، وحينئذ فلا يرضى تلك الشركة بل إن قدر على قهر ذلك الشريك وتفرده بالملك والإلهية دونه فعل، وإن لم يقدر على ذلك انفرد بخلقه وذهب بذلك الخلق كما ينفرد ملوك الدنيا بعضهم عن بعض بملكه إذا لم يقدر المنفرد منهم على قهر الآخر والعلو عليه، فلا بد من أحد ثلاثة أمور: إما أن يذهب كل إله بخلقه وسلطانه، وإما أن يعلو بعضهم على بعض.

(١) سورة المؤمنون الآية: ٩١.

وإما أن يكونوا تحت قهر ملك واحد يتصرف فيهم كيف يشاء ولا يتصرفون فيه، بل يكون وحده هو الإله وهم العبيد المربوبون المقهورون من كل وجه.

وانتظام أمر العالم كله وإحكام أمره من أدل دليل على أن مدبره إله واحد وملك واحد ورب واحد لا إله للخلق غيره ولا رب لهم سواه كما قد دل دليل التمانع على أن خالق العالم واحد لا رب غيره ولا إله سواه فذلك تمانع فى الفعل والإيجاد وهذا تمانع فى العبادة والإلهية فكما يستحيل أن يكون للعالم ربان خالقان متكافئان كذلك يستحيل أن يكون لهم إلهان معبودان.

فالعلم بأن وجود العالم عن صانعين متماثلين ممتنع لذاته مستقر فى الفطر معلوم بصريح العقل بطلانه، فكذا تبطل إلهية اثنين، فالآية الكريمة موافقة لما ثبت واستقر فى الفطر من توحيد الربوبية دالة مثبتة مستلزمة لتوحيد الالهية.

وقريب من معنى هذه الآية قوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾[1] وقد ظن طوائف أن هذا دليل التمانع الذى تقدم ذكره وهو أنه لو كان للعالم صانعان إلخ وغفلوا عن مضمون الآية فإنه سبحانه أخبر أنه لو كان فيهما آلهة غيره ولم يقل أرباب[2]، وأيضا فإن هذا إنما هو بعد وجودهما وأنه لو كان فيهما وهما موجودتان آلهة سواه لفسدتا.

وأيضا فإنه قال: ﴿لَفَسَدَتَا﴾ وهذا فساد بعد الوجود ولم يقل لم يوجدا ودلت الآية على أنه لا يجوز أن يكون فيهما آلهة متعددة بل لا يكون الإله إلا واحدا وعلى أنه لا يجوز أن يكون هذا الإله الواحد إلا الله سبحانه وتعالى وأن فساد السموات والأرض يلزم من كون الآلهة فيهما متعددة ومن كون الإله الواحد غير الله وأنه لا صلاح لهما إلا بأن يكون الإله فيهما هو الله وحده

---

(١) سورة الأنبياء الآية: ٢٢.

قال العلامة القارى: "ودليل التمانع فى قوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ قطعى إجماعى لا ظنى إقناعى كما توهم بعضهم". اهـ. ضوء المعانى لوحة (٢) مخطوط.

(٢) قال العلامة القارى: "وزعمت المجوس والوثنية أن الصناع اثنان: أحدهما خالق الخير، والآخر خالق الشر، ورد بقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ وزعم الطبائعيون أن الصناع أربعة: الرطوبة واليبوسة والحرارة والبرودة، وزعم الأفلاكيون أنهم سبعة: زحل والمشترى والمريخ والزهرة وعطارد والشمس والقمر، وبطلانهما ظاهر عقلا ونقلا". اهـ. "ضوء المعالى شرح بدء الأمالى" لوحة (٢، ٣).

لا غيره، فلو كان للعالم إلهان معبودان لفسد نظامه كلهفإنقيامه إنما هو بالعدل وبه قامت السموات والأرض.

وأظلم الظلم على الإطلاق الشرك وأعدل العدل التوحيد.

وتوحيد الإلهية متضمن لتوحيد الربوبية دون العكس فمن لا يقدر على أن يخلق يكون عاجزا والعاجز لا يصلح أن يكون إلها، قال تعالى: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾[1] وقال تعالى: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[2] وقال تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾[3].

وفيها للمتأخرين قولان:

أحدهما: لاتخذوا سبيلا إلى مغالبته.

والثانى: وهو الصحيح المنقول عن السلف كقتادة[4] وغيره وهو الذى ذكره ابن جرير[5] ولم يذكر غيره: لاتخذوا سبيلا بالتقرب إليه، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴾[6] وذلك أنه قال: ﴿ لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ ﴾ وهم لم يقولوا: إن العالم له صانعان بل جعلوا معه آلهة اتخذوهم شفعاء وقالوا: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾[7] بخلاف الآية الأولى.

---

(١) سورة الأعراف الآية: ١٩١.

(٢) سورة النحل الآية: ١٧.

(٣) سورة الإسراء الآية: ٤٢.

(٤) هو: قتادة بن دعامة بن قتادة بن عزيز، حافظ عصره، قدوة المفسرين والمحدثين، أبو الخطاب السدوسى البصرى الضرير الأكمه، كان من أوعية العلم، وممن يُضرب به المثل فى قوة الحفظ.
قص ابن سيرين قال: قتادة أحفظ الناس، أو من أحفظ الناس.
توفى، رحمه الله تعالى، سنة ١١٧هـ.

(٥) هو: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير، الإمام العلم المجتهد، أبو جعفر الطبرى، ولد سنة ٢٢٤هـ، وطلب العلم وأكثر الترحال، ولقى نبلاء الرجال، وكان من أفراد الدهر علمًا وذكاءً وكثرة تصانيف، قل أن ترى العيون مثله، وكان، رحمه الله تعالى، ثقة صادقًا حافظا رأسًا فى التفسير، إمامًا فى الفقه والإجماع والخلاف، علامة فى التاريخ وأيام الناس، عارفًا بالقراءات وباللغة وغير ذلك.
توفى، رحمه الله تعالى، سنة ٣١٠هـ.

(٦) سورة الإنسان الآية: ٢٩.

(٧) سورة الزمر الآية: ٣.

أنواع التوحيد الذى دعت إليه الرسل:

ثم التوحيد الذى دعت إليه رسل الله ونزلت به كتبه نوعان: توحيد فى الإثبات والمعرفة وتوحيد فى الطلب والقصد.

فالأول: هو إثبات حقيقة ذات الرب تعالى وصفاته وأفعاله وأسمائه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ فى ذلك كله كما أخبر به عن نفسه، وكما أخبر رسوله ﷺ وقد أفصح القرآن عن هذا النوع كل الإفصاح كما فى أول الحديد وطه وآخر الحشر وأول الم تنزيل السجدة وأول آل عمران وسورة الإخلاص بكمالها وغير ذلك.

والثانى: وهو توحيد الطلب والقصد مثل ما تضمنته سورة قل يا أيها الكافرون و ﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾[1] وأول سورة تنزيل الكتاب وآخرها وأول سورة يونس وأوسطها وآخرها وأول سورة الأعراف وآخرها وجملة سورة الأنعام.

وغالب سور القرآن متضمنة لنوعى التوحيد بل كل سورة فى القرآن فالقرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وهو التوحيد العلمى الخبرى، وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له وخلع ما يعبد من دونه فهو التوحيد الإرادى الطلبى، وإما أمر ونهى وإلزام بطاعته فذلك من حقوق التوحيد ومكملاته، وإما خبر عن إكرامه لأهل توحيده وما فعل بهم فى الدنيا وما يكرمهم به فى الآخرة فهو جزاء توحيده، وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم فى الدنيا من النكال وما يحل بهم فى العقبى من العذاب، فهو جزاء من خرج عن حكم التوحيد.

فالقرآن كله فى التوحيد وحقوقه وجزائه وفى شأن الشرك وأهله وجزائهم فـ "الحمد لله رب العالمين" توحيد "الرحمن الرحيم" توحيد "مالك يوم الدين" توحيد "إياك نعبد وإياك نستعين" توحيد "اهدنا الصراط المستقيم" توحيد متضمن لسؤال الهداية إلى طريق أهل التوحيد "الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين" الذين فارقوا التوحيد.

وكذلك شهد الله لنفسه بهذا التوحيد وشهدت له به ملائكته وأنبياؤه ورسله، قال تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ

---

(١) سورة آل عمران الآية: ٦٤.

ٱلْحَكِيمُ ۝ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾[١] فتضمنت هذه الآية الكريمة إثبات حقيقة التوحيد والرد على جميع طوائف الضلال فتضمنت أجل شهادة وأعظمها وأعدلها وأصدقها من أجل شاهد بأجل مشهود به.

وعبارات السلف فى "شهد" تدور على الحكم والقضاء والإعلام والبيان والإخبار، وهذه الأقوال كلها حق لا تنافى بينها، فإن الشهادة تتضمن كلام الشاهد وخبره وتتضمن إعلامه وإخباره وبيانه.

فلها أربع مراتب:

فأول مراتبها: علم ومعرفة واعتقاد لصحة المشهود به وثبوته.

وثانيها: تكلمه بذلك وإن لم يعلم به غيره بل يتكلم بها مع نفسه ويتذكرها وينطق بها أو يكتبها.

وثالثها: أن يعلم غيره بما يشهد به ويخبره به ويبينه له.

ورابعها: أن يلزمه بمضمونها ويأمره به.

فشهادة الله سبحانه لنفسه بالوحدانية والقيام بالقسط تضمنت هذه المراتب الأربع: علمه بذلك سبحانه وتكلمه به وإعلامه وإخباره لخلقه به وأمرهم وإلزامهم به، فأما مرتبة العلم فإن الشهادة تضمنتها ضرورة وإلا كان الشاهد شاهدا بما لا علم له به، قال تعالى: ﴿ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝ ﴾[٢] وقال ﷺ "على مثلها فاشهد"[٣] وأشار إلى الشمس.

---

(١) سورة آل عمران الآيتان: ١٨، ١٩.

(٢) سورة الزخرف الآية: ٨٦.

(٣) **ضعيف**: أخرجه الحاكم (٤/ ٩٨) والبيهقى فى "شعب الإيمان" (٧/ ٤٥٥) رقم (١٠٩٧٤) وابن عدى فى "الكامل" (٧/ ٤٢٩) والعقيلى فى "الضعفاء" (٤/ ٧٠) وأبو نعيم فى "حلية الأولياء" (٤/ ١٩) رقم (٤٦٢٣) قال أبو نعيم: غريب من حديث طاوس، تفرد به عبيد الله بن سلمة عن أبيه، وقال الحاكم: صحيح الإسناد، وقال الشيخ الألبانى: ضعيف.

قلت: وهو كما قال، فإن فيه:

١) عبيد الله بن مسلمة بن وهرام، قال على بن المدينى: لا أعرف عبيد الله بن مسلمة بن وهرام هذا، وروى الكتانى عن أبى حاتم تليينه، وقال الأزدى: منكر الحديث.

وأما مرتبة التكلم والخبر فقال تعـالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾(١) فجعل ذلـك منـهم شـهادة وإن لم يتلفظوا بلفظ الشهادة و لم يؤدوها عند غيرهم.

وأما مرتبة الإعلام والاخبار فنوعان:

إعلام بالقول وإعلام بالفعل.

وهذا شأن كل معلم لغيره بأمر تارة يعلمه به بقوله وتارة بفعله، ولهذا كان من جعل داره مسجدا وفتح بابها وأفرزها بطريقها وأذن للناس بالدخول والصلاة فيها معلما أنها وقف وإن لم يتلفظ به، وكذلك من وجد متقربا إلى غيره بأنواع المسار يكون معلما له ولغيره أنه يحبه وإن لم يتلفظ بقوله وكذلك بالعكس، وكذلك شهادة الرب عز وجل وبيانه وإعلامه يكون بقوله تارة وبفعله أخرى، فالقول ما أرسل به رسله وأنزل به كتبه، وأما بيانه وإعلامه بفعله فكما قال ابن كيسان(٢): شهد الله بتدبيره العجيب وأموره المحكمة عند خلقه أنه لا إله إلا هو، وقال آخر:

وفى كل شيء له آية تدل على أنه واحـد

ومما يدل على أن الشهادة تكون بالفعل قولـه تعـالى: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ ﴾(٣) فهذه شهادة منهم على أنفسهم بما يفعلونـه، والمقصود أنه سبحانه يشهد بما جعل آياته المخلوقة دالة عليه ودلالتها إنما هى بخلقه وجعله.

---

٢) محمد بن سليمان بن مشمول، قال النسائى: مكى ضعيف، وقال أبو حاتم: ضعيف الحديث، وقـال ابن عدى: عامة ما يرويه لا يتابع عليه متنا أو إسنادا، وذكر له هذا الحديث، وقال العقيلى، بعدما سـاق هذا الحديث: ولا يعرف إلا به.

قلت: وتصحيح الحاكم للحديث رده غير واحد من أهل العلم مثل الذهبى، قال: "قلت: بل واه، فعمـرو ابن مالك البصرى قال ابن عدى: كان يسرق الحديث، وابن مشمول ضعفه غير واحد"

وقال ابن حجر: أخرجه ابن عدى بإسناد ضعيف، وصححه الحاكم فأخطأ.

(١) سورة الزخرف الآية: ١٩.

(٢) هو: أبو الحسن محمد بن أحمد بن كيسان البغدادى، النحوى، صاحب التصانيف فى القراءات، والغريـب فى النحو، كان أحد المذكورين والموصوفين بالفهم، وكان يحفظ مذهب البصريين والكوفيين، أخذ عـن المبرد وثعلب، وتوفى سنة ٢٩٩هـ.

(٣) سورة التوبة الآية: ١٧.

وأما مرتبة الأمر بذلك والإلزام به وأن مجرد الشهادة لا يستلزمه لكن الشهادة فى هذا الموضع تدل عليه وتتضمنه فإنه سبحانه شهد به شهادة من حكم به وقضى وأمر وألزم عباده به كما قال تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾(١) وقال الله تعالى: ﴿ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾(٢) وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾(٣) ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ﴾(٤) وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾(٥) وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾(٦) والقرآن كله شاهد بذلك.

ووجه استلزم شهادته سبحانه لذلك أنه إذا شهد أنه لا إله إلا هو فقد أخبر وبين وأعلم وحكم وقضى أن ما سواه ليس بإله، أو آلهية ما سواه باطلة فلا يستحق العبادة سواه كما لا تصلح الإلهية لغيره وذلك يستلزم الأمر باتخاذه وحده إلها والنهى عن اتخاذ غيره معه إلها، وهذا يفهمه المخاطب من هذا النفى والإثبات كما إذا رأيت رجلا يستفتى رجلا أو يستشهده أو يستطبه وهو ليس أهلا لذلك ويدع من هو أهل له فتقول هذا ليس بمفت ولا شاهد ولا طبيب، المفتى فلان والشاهد فلان والطبيب فلان، فإن هذا أمر منه ونهى.

وأيضا فالآية دلت على أنه وحده المستحق للعبادة فإذا أخبر أنه هو وحده المستحق للعبادة تضمن هذا الإخبار أمر العباد وإلزامهم بأداء ما يستحق الرب تعالى عليهم وأن القيام بذلك هو خالص حقه عليهم.

وأيضا فلفظ الحكم والقضاء يستعمل فى الجملة الخبرية ويقال للجملة الخبرية قضية وحكم، وقد حكم فيها بكذا، قال تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ۝ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ۝ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝ ﴾(٧) فجعل هذا الإخبار المجرد منهم حكما وقال تعالى: ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝ ﴾(٨) لكن هذا حكم لا إلزام معه.

---

(١) سورة الإسراء الآية: ٢٣.
(٢) سورة النحل الآية: ٥١.
(٣) سورة البينة الآية: ٥.
(٤) سورة التوبة الآية: ٣١.
(٥) سورة الإسراء الآية: ٣٩.
(٦) سورة القصص الآية: ٨٨.
(٧) سورة الصافات الآيات: ١٥١: ١٥٤.
(٨) سورة القلم الآيتان: ٣٥، ٣٦.

والحكم والقضاء بأنه لا إله إلا هو متضمن الإلزام ولو كان المراد مجرد شهادة لم يتمكنوا من العلم بها و لم ينتفعوا بها و لم تقم عليهم بها الحجة بل قد تضمنت البيان للعباد ودلالتهم وتعريفهم بما شهد به كما أن الشاهد من العباد إذا كانت عنده شهادة و لم يبينها بل كتمها لم ينتفع بها أحد و لم تقم بها حجة.

وإذا كان لا ينتفع بها إلا ببيانها فهو سبحانه قد بينها غاية البيان بطرق ثلاثة: السمع والبصر والعقل.

أما السمع فبسمع آياته المتلوة المبينة لما عرفنا إياه من صفات كماله كلها الوحدانية وغيرها غاية البيان لا كما يزعمه الجهمية ومن وافقهم من المعتزلة ومعطلة بعض الصفات من دعوى احتمالات توقع فى الحيرة تنافى البيان الذى وصف الله به كتابه العزيز ورسوله الكريم كما قال تعالى: ﴿ حمٓ ۝ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝ ﴾[1] ﴿ الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝ ﴾[2] ﴿ الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ۝ ﴾[3] ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ﴾[4] ﴿ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ۝ ﴾[5] ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝ ﴾[6].

وكذلك السنة تأتى مبينة أو مقررة لما دل عليه القرآن، لم يحوجنا ربنا سبحانه وتعالى إلى رأى فلان ولا إلى ذوق فلان ووجده فى أصول ديننا.

ولهذا نجد من خالف الكتاب والسنة مختلفين مضطربين، بل قد قال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ ﴾[7] فلا يحتاج إلى تكميله إلى أمر خارج عن الكتاب والسنة.

وإلى هذا المعنى أشار الشيخ أبو جعفر الطحاوى فيما يأتى من كلامه من قوله: لا ندخل فى ذلك متأولين بآرائنا ولا متوهمين بأهوائنا، فإنه ما سلم فى دينه إلا من سلم لله عز وجل ولرسوله ﷺ.

---

(١) سورة الزخرف الآيتان: ١، ٢.
(٢) سورة يوسف الآية الأولى.
(٣) سورة الحجر الآية الأولى.
(٤) سورة آل عمران الآية: ١٣٨.
(٥) سورة المائدة الآية: ٩٢.
(٦) سورة النحل الآية: ٤٤.
(٧) سورة المائدة الآية: ٣.

وأما آياته العيانية الخلقية فالنظر فيها والاستدلال بها يدل على ما تدل عليه آياته القولية السمعية والعقل يجمع بين هذه وهذه ويجزم بصحة ما جاءت به الرسل فتتفق شهادة السمع والبصر والعقل والفطرة.

فهو سبحانه لكمال عدله ورحمته وإحسانه وحكمته ومحبته للعذر وإقامة الحجة لم يبعث نبيا إلا ومعه آية تدل على صدقه فيما أخبر به، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾(١) وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ﴾ (٢) وقال تعالى: ﴿ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ ﴾(٣) وقال تعالى: ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ۝ ﴾(٤) وقال تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ ﴾(٥) حتى إن من أخفى آيات الرسل آيات هود حتى قال له قومه: ﴿ يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ﴾(٦) ومع هذا فبينته من أوضح البينات لمن وفقه الله لتدبرها، وقد أشار إليه بقوله: ﴿ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ ﴾(٧) فهذا من أعظم الآيات أن رجلا واحدا يخاطب أمة عظيمة بهذا الخطاب غير جزع ولا فزع ولا خوار بل هو واثق بما قاله جازم به، فأشهد الله أولا على براءته من دينهم وما هم عليه إشهاد واثق به معتمد عليه معلم لقومه أنه وليه وناصره وغير مسلط لهم عليه، ثم أشهدهم إشهاد مجاهر لهم بالمخالفة أنه برىء من دينهم وآلهتهم التي يوالون عليها ويعادون عليها ويبذلون دماءهم وأموالهم في نصرتهم لها، ثم أكد ذلك عليهم بالاستهانة لهم واحتقارهم وازدرائهم ولو يجتمعون كلهم على كيده وشفاء غيظهم منه ثم يعاجلونه ولا يمهلونه لم يقدروا على ذلك إلا ما كتبه الله عليه، ثم قرر

---

(١) سورة الحديد الآية: ٢٥.
(٢) سورة النحل الآيتان: ٤٣، ٤٤.
(٣) سورة آل عمران الآية: ١٨٣.
(٤) سورة آل عمران الآية: ١٨٤.
(٥) سورة الشورى الآية: ١٧.
(٦) سورة هود الآية: ٥٣.
(٧) سورة هود الآيات: ٥٤: ٥٦.

دعوتهم أحسن تقرير وبين أن ربه تعالى وربهم الذى نواصيهم بيده هو وليه ووكيله القائم بنصره وتأييده وأنه على صراط مستقيم فلا يخذل من توكل عليه وأقر به ولا يشمت به أعداءه.

فأى آية وبرهان أحسن من آيات الأنبياء عليهم السلام وبراهينهم وأدلتهم وهى شهادة من الله سبحانه لهم بينها لعباده غاية البيان.

ومن أسمائه تعالى "المؤمن" وهو فى أحد التفسيرين المصدق الذى يصدق الصادقين بما يقيم لهم من شواهد صدقهم[١] فإنه لا بد أن يرى العباد من الآيات الأفقية والنفسية ما يبين لهم أن الوحى الذى بلغه رسله حق، قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾[٢] أى القرآن فإنه هو المتقدم فى قوله: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾[٣] ثم قال: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾[٤] فشهد سبحانه لرسوله بقوله أن ما جاء به حق ووعد أنه يرى العباد من آياته الفعلية الخلقية ما يشهد بذلك أيضا ثم ذكر ما هو أعظم من ذلك كله وأجل وهو شهادته سبحانه بأنه على كل شىء شهيد، فإن من أسمائه "الشهيد"[٥] الذى لا يغيب عنه شىء ولا يعزب عنه، بل هو مطلع على كل شىء مشاهد له عليم بتفاصيله، وهذا استدلال بأسمائه وصفاته، والأول استدلال بقوله وكلماته واستدلاله بالآيات الأفقية والنفسية استدلال بأفعاله ومخلوقاته.

فإن قلت: كيف يستدل بأسمائه وصفاته فإن الاستدلال بذلك لا يعهد فى الاصطلاح.

فالجواب: أن الله تعالى قد أودع فى الفطرة التى لم تتنجس بالجحود والتعطيل ولا بالتشبيه والتمثيل أنه سبحانه الكامل فى أسمائه وصفاته وأنه الموصوف بما وصف به نفسه ووصفه به رسله وما خفى عن الخلق من كماله أعظم وأعظم مما يعرفونه منه ومن كماله المقدس شهادته

(١) حكاه القرطبى فى "الجامع للأحكام القرآن" (٩/ ٤٢) من تفسير سورة الحشر، والرازى فى "التفسير الكبير" (١٥/ ٢٩٤) والطبرى فى "جامع البيان" (١٤/ ٧٠) وذكر مثل هذا عن قتادة وابن زيد.

(٢) سورة فصلت الآية: ٥٣.

(٣) سورة فصلت الآية: ٥٢.

(٤) سورة فصلت الآية: ٥٣.

(٥) انظر "تحفة الأحوذى" (٧/ ٣٨٨).

على كل شيء واطلاعه عليه بحيث لا يغيب عنه ذرة فى السموات ولا فى الأرض باطنا وظاهرا ومن هذا شأنه كيف يليق بالعباد أن يشركوا به وأن يعبدوا غيره ويجعلوا معه إلها آخر؟ وكيف يليق بكماله أن يقر من يكذب عليه أعظم الكذب ويخبر عنه بخلاف ما الأمر عليه ثم ينصره على ذلك ويؤيده ويعلى شأنه ويجيب دعوته، ويهلك عدوه ويظهر على دينه من الآيات والبراهين ما يعجز عن مثله قوى البشر وهو مع ذلك كاذب غير مفتر.

ومعلوم أن شهادته سبحانه على كل شيء وقدرته وحكمته وعزته وكماله المقدس يأبى ذلك، ومن جوز ذلك فهو من أبعد الناس عن معرفته، والقرآن مملوء من هذه الطريق وهى طريق الخواص يستدلون بالله على أفعاله وما يليق به أن يفعل ولا يفعله قال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ ۝ ﴾(١) وسيأتى لذلك زيادة بيان إن شاء الله تعالى.

ويستدل أيضا بأسمائه وصفاته على وحدانيته وعلى بطلان الشرك كما فى قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ ﴾(٢) وأضعاف ذلك فى القرآن، وهذه الطريق قليل سالكها لا يهتدى إليها إلا الخواص، وطريقة الجمهور الاستدلال بالآيات المشاهدة لأنها أسهل تناولا وأوسع، والله سبحانه يفضل بعض خلقه على بعض.

فالقرآن العظيم قد اجتمع فيه ما لم يجتمع فى غيره فإنه الدليل والمدلول عليه والشاهد والمشهود له، قال تعالى لمن طلب آية تدل على صدق رسوله: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝ ﴾(٣).

وإذا عرف أن توحيد الإلهية هو التوحيد الذى أرسلت به الرسل وأنزلت به الكتب، كما تقدمت إليه الإشارة، فلا يلتفت إلى قول من قسم التوحيد إلى ثلاثة أنواع وجعل هذا النوع توحيد العامة، والنوع الثانى توحيد الخاصة وهو الذى يثبت بالحقائق، والنوع الثالث توحيد قائم

---

(١) سورة الحاقة الآيات: ٤٤ ٤٧.

(٢) سورة الحشر الآية: ٢٣.

(٣) سورة العنكبوت الآية: ٥١.

بالقدم وهو توحيد خاص الخاصة فإن أكمل الناس توحيدا الأنبياء صلوات الله عليهم، والمرسلون منهم أكمل فى ذلك، وأولو العزم من الرسل أكملهم توحيدا وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد، صلى الله عليهم أجمعين، وأكملهم توحيدا الخليلان محمد وإبراهيم صلوات الله عليهما وسلامه، فإنهما قاما من التوحيد بما لم يقم به غيرهما علما ومعرفة وحالا ودعوة للخلق وجهادا، فلا توحيد أكمل من الذى قامت به الرسل ودعوا إليه وجاهدوا الأمم عليه، ولهذا أمر سبحانه نبيه أن يقتدى بهم فيه كما قال تعالى بعد ذكر مناظرة إبراهيم قومه فى بطلان الشرك وصحة التوحيد وذكر الأنبياء من ذريته: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ ﴾[(١)] فلا أكمل من توحيد من أمر رسول الله ﷺ أن يقتدى بهم، وكان ﷺ يعلم أصحابه إذا اصبحوا أن يقولوا: "أصبحنا على فطرة الإسلام وكلمة الاخلاص ودين نبينا محمد وملة أبينا إبراهيم حنيفا مسلما وما كان من المشركين"[(٢)] فملة إبراهيم التوحيد ودين محمد ﷺ ما جاء به من عند الله قولا وعملا واعتقادا، وكلمة الإخلاص هى شهادة أن لا إله إلا الله وفطرة الإسلام هى ما فطر عليه عباده من محبته وعبادته وحده لا شريك له والاستسلام له عبودية وذلا وانقيادا وإنابة.

فهذا توحيد خاصة الخاصة الذى من رغب عنه فهو من أسفه السفهاء، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٣٠ إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٣١ ﴾[(٣)] وكل من له حس سليم وعقل يميز به لا يحتاج فى الاستدلال إلى أوضاع أهل الكلام والجدل واصطلاحهم وطرقهم البتة بل ربما يقع بسببها فى شكوك وشبه يحصل له بها الحيرة والضلال والريبة فإن

---

(١) سورة الأنعام الآية: ٩٠.

(٢) صحيح: أخرجه أحمد فى "المسند" (١٢/ ١٤٤) رقم (١٥٢٩٦) والدارمى (٢/ ٧٤٦) رقم (٢٥٨٨) وابن السنى فى "عمل اليوم والليلة" رقم (٣٣) وابن أبى شيبة فى "المصنف" (٦/ ٢٤٣) رقم (١) قال الحافظ العراقى: سنده صحيح "المغنى عن حمل الأسفار" (١/ ٣٠١) رقم (١١٥٠) وصححه الشيخ الألبانى فى حاشية "شرح الطحاوية" (ص: ٩٧).

(٣) سورة البقرة الآيتان: ١٣٠، ١٣١.

التوحيد إنما ينفع إذا سلم قلب صاحبه من ذلك، وهذا هو القلب السليم الذى لا يفلح إلا من أتى الله به ولا شك أن النوع الثانى والثالث من التوحيد الذى ادعوا أنه توحيد الخاصة وخاصة الخاصة ينتهى إلى الفناء الذى يشمر إليه غالب الصوفية، وهو درب خطر يفضى إلى الاتحاد، انظر إلى ما أنشد شيخ الإسلام أبو إسماعيل الأنصارى، رحمه الله تعالى، حيث يقول:

ما وحد الواحد من واحد
إذ كل من وحده جاحد
توحيد من ينطق عن نعته
عارية أبطلها الواحد
توحيده إياه توحيده
ونعت من ينعته لاحد

وإن كان قائله، رحمه الله، لم يرد به الاتحاد لكن ذكر لفظا مجملا محتملا جذبه به الاتحادى إليه وأقسم بالله جهد أيمانه أنه معه ولو سلك الألفاظ الشرعية التى لا إجمال فيها كان أحق مع أن المعنى الذى حام حوله لو كان مطلوبا منا لنبه الشارع عليه ودعا الناس إليه وبينه فإن على الرسول البلاغ المبين، فأين قال الرسول هذا توحيد العامة وهذا توحيد الخاصة وهذا توحيد خاصة الخاصة أو ما يقرب من هذا المعنى أو أشار إلى هذه النقول والعقول خطرة.

فهذا كلام الله المنزل على رسوله ﷺ وهذه سنة الرسول وهذا كلام خير القرون بعد الرسول وسادات العارفين من الأئمة هل جاء ذكر الفناء فيها وهذا التقسيم عن أحد منهم، وإنما حصل هذا من زيادة الغلو فى الدين المشبه لغلو الخوارج بل لغو النصارى فى دينهم وقد ذم الله تعالى الغلو فى الدين ونهى عنه فقال: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ ﴾[1] ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ۝٧٧ ﴾[2] وقال

(١) سورة النساء الآية: ١٧١.

(٢) سورة المائدة الآية: ٧٧.

ﷺ "لا تشددوا فيشدد الله عليكم فإن من كان قبلكم شددوا فشدد الله عليهم فتلك بقاياهم فى الصوامع والديارات رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم"[١] رواه أبو داود.

قوله: ولا شيء مثله:

ش: اتفق أهل السنة على أن الله ليس كمثله شيء لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله ولكن لفظ التشبيه قد صار فى كلام الناس لفظا مجملا يراد به المعنى الصحيح وهو ما نفاه القرآن ودل عليه العقل من أن خصائص الرب تعالى لا يوصف بها شيء من المخلوقات ولا يماثله شيء من المخلوقات فى شيء من صفاته ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ رد على الممثلة المشبهة ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[٢] رد على النفاة فمن جعل صفات الخالق مثل صفات المخلوق فهو المشبه المبطل المذموم ومن جعل صفات المخلوق مثل صفات الخالق فهو نظير النصارى فى كفرهم ويراد به أنه لا يثبت لله شيء من الصفات فلا يقال له قدرة ولا علم ولا حياة لأن العبد موصوف بهذه الصفات ولازم هذا القول أنه لا يقال له حى عليم قدير لأن العبد يسمى بهذه الأسماء وكذلك كلامه وسمعه وبصره وإرادته وغير ذلك، وهم يوافقون أهل السنة على أنه موجود عليم قدير حى والمخلوق يقال له موجود حى عليم قدير ولا يقال هذا تشبيه يجب نفيه وهذا مما دل عليه الكتاب والسنة وصريح العقل ولا يخالف فيه عاقل فإن الله سمى نفسه بأسماء وسمى بعض عباده بها وكذلك سمى صفاته بأسماء وسمى ببعضها صفات خلقه وليس المسمى كالمسمى فسمى نفسه حيا عليما قديرا رءوفا رحيما عزيزا حكيما سميعا بصيرا ملكا مؤمنا جبارا متكبرا وقد سمى بعض عباده بهذه الأسماء فقال: ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ ﴾[٣]

---

(١) **ضعيف:** أخرجه أبو داود (٤/ ٢٩٩) رقم (٤٩٠٤) والطبرانى فى "الكبير" (٦/ ٧٣) رقم (٥٥٥١) و "الأوسط" (٤/ ٧٨) رقم (٣١٠٢) والبيهقى فى "شعب الإيمان" (٣/ ٤٠١) رقم (٣٨٨٤) وابن حجر فى "المطالب العالية" (٢/ ٣١٩) رقم (٤٩٧) وأبو يعلى فى "المسند" ونقله عنه الحافظ ابن كثير فى "تفسير سورة الحشر" (٤/ ٣١٦) قال ابن القيم: هذا مما تفرد به ابن أبى العمياء، وهو شبه المجهول، والأحاديث الصحيحة عن أنس كلها تخالفه، ثم قال: فلو صح حديث ابن أبى العمياء، وهو بعيد عن الصحة. "عون المعبود" (١٣/ ٢٠٤، ٢٠٥) وضعفه الشيخ الألبانى فى "سنن أبى داود" (ص: ٤٠١) رقم (٤٩٠٤) وفى "الضعيفة" رقم (٣٤٦٨) وفى حاشية "شرح الطحاوية" رقم (٣٣) وهو كما قالا، فإن علة هذا الحديث ابن أبى العمياء هذا، فإنه مجهول، و لم يوثقه سوى ابن حبان، وقال الحافظ فى "التقريب": مقبول.

(٢) سورة الشورى الآية: ١١.

(٣) سورة الأنعام الآية: ٩٥.

﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴾[١] ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴾[٢] ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[٣] ﴿ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾[٤] ﴿ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ﴾[٥] ﴿ وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ ﴾[٦] ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا ﴾[٧] ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾[٨] ومعلوم أنه لا يماثل الحى الحى ولا العليم العليم ولا العزيز العزيز، وكذلك سائر الأسماء، وقال تعالى: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ ﴾[٩] ﴿ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ﴾[١٠] ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ﴾[١١] ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾[١٢] ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾[١٣] وعن جابر ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة فى الأمور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن يقول: "إذا همَّ أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل اللهم إنى أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى — أو قال عاجل أمرى وآجله — فاقدره لى ويسره لى ثم بارك لى فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى — أو قال: عاجل أمرى وآجله — فاصرفه عنى واصرفنى عنه واقدر لى الخير حيث كان ثم رضنى به" قال: ويسمى حاجته[١٤]. رواه البخارى.

وفى حديث عمار بن ياسر الذى رواه النسائى وغيره عن النبى ﷺ أنه كان يدعو بهذا الدعاء: "اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحينى ما كانت الحياة خيرًا لى، وتوفنى إذا

---

(١) سورة الذاريات الآية: ٢٨.
(٢) سورة الصافات الآية: ١٠١.
(٣) سورة التوبة الآية: ١٢٨.
(٤) سورة الإنسان الآية: ٢.
(٥) سورة يوسف الآية: ٥١.
(٦) سورة الكهف الآية: ٧٩.
(٧) سورة السجدة الآية: ١٨.
(٨) سورة غافر الآية: ٣٥.
(٩) سورة البقرة الآية: ٢٥٥.
(١٠) سورة النساء الآية: ١٦٦.
(١١) سورة فاطر الآية: ١١.
(١٢) سورة الذاريات الآية: ٥٨.
(١٣) سورة فصلت الآية: ١٥.
(١٤) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب الدعوات" حديث (٦٣٨٢) وأبو داود فى "كتاب الصلاة" حديث (١٥٣٨) والترمذى فى "كتاب الصلاة" حديث (٤٨٠) وابن ماجه فى "كتاب إقامة الصلاة" حديث (١٣٨٣) والبخارى فى "الأدب المفرد" حديث (٧٠٣) قال الترمذى: وفى الباب عن عبد الله بن مسعود وأبى أيوب، وقال أيضًا: حديث جابر حديث حسن صحيح غريب.

كانت الوفاة خيرًا لى، اللهم إنى أسألك خشيتك فى الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق فى الغضب والرضا، وأسألك القصدَ فى الغنى والفقر، وأسألك نعيمًا لا ينفد، وقرة عين لا تنقطع، وأسألك الرضا بعد القضا، وأسألك برد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم، والشوق إلى لقائك فى غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة، اللهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين"[١] فقد سمى الله ورسوله صفات الله علما وقدرة وقوة، وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ ﴾[٢] ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ ﴾[٣] ومعلوم أنه ليس العلم كالعلم ولا القوة كالقوة، ونظائر هذا كثيرة، وهذا لازم لجميع العقلاءفإن من نفى صفة من صفاته التى وصف الله بها نفسه كالرضا والغضب والحب والبغض ونحو ذلك وزعم أن ذلك يستلزم التشبيه والتجسيم قيل له فأنت تثبت له الإرادة والكلام والسمع والبصر مع أن ما تثبته له ليس مثل صفات المخلوقين فقل فيما نفيته وأثبته الله ورسوله مثل قولك فيما أثبته إذ لا فرق بينهما.

فإن قال: أنا لا أثبت شيئا من الصفات.

قيل له: فأنت تثبت له الأسماء الحسنى مثل عليم حى قادر والعبد يسمى بهذه الأسماء وليس ما يثبت للرب من هذه الأسماء مماثلا لما يثبت للعبد فقل فى صفاته نظير قولك فى مسمى أسمائه.

فإن قال: وأنا لا أثبت له الأسماء الحسنى بل أقول هى مجاز وهى أسماء لبعض مبتدعاته كقول غلاة الباطنية والمتفلسفة.

قيل له: فلا بد أن تعتقد أنه موجود وحق قائم بنفسه والجسم موجود قائم بنفسه وليس هو مماثلا له.

فإن قال: أنا لا أثبت شيئا بل أنكر وجود الواجب.

---

(١) **صحيح:** أخرجه النسائى "كتاب السهو" رقم (١٣٠٥) وأحمد فى "المسند" حديث (١٨٢٤١) وابن حبان فى "صحيحه" رقم (٥٠٩) "موارد" والحاكم فى "المستدرك" (١/ ٥٢٤، ٥٢٥) قال الحاكم: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبى، وقال الشيخ الألبانى، رحمه الله تعالى: حديث صحيح، انظر "حاشية شرح العقيدة الطحاوية" (ص: ١٠٠) و "ظلال الجنة فى تخريج السنة" (ص: ٥٨، ١٦٦، ١٨٥) رقم (١٢٨، ٣٧٩، ٤٢٥) و "صحيح الجامع" رقم (١٣٠١).

(٢) سورة الروم الآية: ٥٤.

(٣) سورة يوسف الآية: ٦٨.

قيل له: معلوم بصريح العقل أن الموجود إما واجب بنفسه وإما غير واجب بنفسه وإما قديم أزلى وإما حادث كائن بعد أن لم يكن وإما مخلوق مفتقرإلى خالق وإما غير مخلوق ولا مفتقر إلى خالق وإما فقير إلى ما سواه وإما غنى عما سواه وغير الواجب بنفسه لا يكون إلا بالواجب بنفسه والحادث لا يكون إلا بقديم والمخلوق لا يكون إلا بخالق والفقير لا يكون إلا بغنى عنه فقد لزم على تقدير النقيضين وجود موجود واجب بنفسه قديم أزلى خالق غنى عما سواه وما سواه بخلاف ذلك، وقد علم بالحس والضرورة وجود موجود حادث كائن بعد أن لم يكن والحادث لا يكون واجبا بنفسه ولا قديما أزليا ولا خالقا لما سواه ولا غنيا عما سواه، فثبت بالضرورة وجود موجودين أحدهما واجب والآخر ممكن أحدهما قديم والآخر حادث أحدهما غنى والآخر فقير أحدهما خالق والآخر مخلوق وهما متفقان فى كون كل منهما شيئا موجودا ثابتا، ومن المعلوم أيضا أن أحدهما ليس مماثلا للآخر فى حقيقته إذ لو كان كذلك لتماثلا فيما يجب ويجوز ويمتنع وأحدهما يجب قدمه وهو موجود بنفسه والآخر لا يجب قدمه ولا هو موجود بنفسه وأحدهما خالق والآخر ليس بخالق وأحدهما غنى عما سواه والآخر فقير.

فلو تماثلا للزم أن يكون كل منهما واجب القدم ليس بواجب القدم موجودا بنفسه غير موجود بنفسه خالقا ليس بخالق غنيا غير غنى، فيلزم اجتماع الضدين على تقدير تماثلهما، فعلم أن تماثلهما منتف بصريح العقل كما هو منتف بنصوص الشرع.

فعلم بهذه الأدلة اتفاقهما من وجه واختلافهما من وجه فمن نفى ما اتفقا فيه كان معطلا قائلا بالباطل ومن جعلهما متماثلين كان مشبها قائلا بالباطل، والله أعلم وذلك لأنهما وان اتفقا فى مسمى ما اتفقا فيه فالله تعالى مختص بوجوده وعلمه وقدرته وسائر صفاته والعبد لا يشركه فى شيء من ذلك والعبد أيضا مختص بوجوده وعلمه وقدرته والله تعالى منزه عن مشاركة العبد فى خصائصه.

وإذا اتفقا فى مسمى الوجود والعلم والقدرة فهذا المشترك مطلق كلى يوجد فى الأذهان لا فى الأعيان والموجود فى الأعيان مختص لا اشتراك فيه.

وهذا موضع اضطرب فيه كثير من النظار حيث توهموا أن الاتفاق فى مسمى هذه الأشياء يوجب أن يكون الوجود الذى للرب كالوجود الذى للعبد.

وطائفة ظنت أن لفظ الوجود يقال بالاشتراك اللفظي وكابروا عقولهم فإن هذه الأسماء عامة قابلة للتقسيم كما يقال الموجود ينقسم إلى واجب وممكن وقديم وحادث ومورد التقسيم مشترك بين الأقسام واللفظ المشترك كلفظ المشترى الواقع على المبتاع والكوكب لا ينقسم معناه ولكن يقال لفظ المشترى يقال على كذا أو على كذا وأمثال هذه المقالات التي قد بسط الكلام عليها فى موضعه.

وأصل الخطأ والغلط توهمهم أن هذه الأسماء العامة الكلية يكون مسماها المطلق الكلى هو بعينه ثابتا فى هذا المعين وهذا المعين وليس كذلك فإن ما يوجد فى الخارج لا يوجد مطلقا كليا بل لا يوجد إلا معينا مختصا وهذه الأسماء اذا سمى الله بها كان مسماها معينا مختصا به فإذا سمى بها العبد كان مسماها مختصا به فوجود الله وحياته لا يشاركه فيها غيره بل وجود هذا الموجود المعين لا يشركه فيه غيره فكيف بوجود الخالق، ألا ترى أنك تقول هذا هو ذاك، فالمشار إليه واحد لكن بوجهين مختلفين.

وبهذا ومثله يتبين لك أن المشبهة أخذوا هذا المعنى وزادوا فيه على الحق فضلوا وأن المعطلة أخذوا نفى المماثلة بوجه من الوجوه وزادوا فيه على الحق حتى ضلوا وأن كتاب الله دل على الحق المحض الذى تعقله العقول السليمة الصحيحة وهو الحق المعتدل الذى لا انحراف فيه.

فالنفاة أحسنوا فى تنزيه الخالق سبحانه عن التشبيه بشيء من خلقه ولكن أساءوا فى نفى المعانى الثابتة لله تعالى فى نفس الأمر والمشبهة أحسنوا فى إثبات الصفات ولكن أساءوا بزيادة التشبيه.

واعلم أن المخاطب لا يفهم المعانى المعبر عنها باللفظ إلا أن يعرف عينها أو ما يناسب عينها ويكون بينها قدر مشترك ومشابهة فى أصل المعنى وإلا فلا يمكن تفهيم المخاطبين بدون هذا قط حتى فى أول تعليم معانى الكلام بتعليم معانى الألفاظ المفردة مثل تربية الصبى الذى يعلم البيان واللغة ينطق له باللفظ المفرد ويشار له إلى معناه إن كان مشهودا بالإحساس الظاهر أو الباطن فيقال له لبن، خبز، أم، أب، سماء، أرض، شمس، قمر، ماء، ويشار له مع العبارة إلى كل مسمى من هذه المسميات، وإلا لم يفهم معنى اللفظ ومراد الناطق به، وليس أحد من بنى آدم يستغنى عن التعليم السمعى، كيف وآدم أبو البشر وأول ما علمه الله تعالى أصول الأدلة السمعية وهى الأسماء كلها وكلمه وعلمه بخطاب الوحى ما لم يعلمه بمجرد العقل.

فدلالة اللفظ على المعنى هى بواسطة دلالتة على ما عناه المتكلم وأراده وإرادته وعنايته فى قلبه فلا يعرف باللفظ ابتداء ولكن لا يعرف المعنى بغير اللفظ حتى يعلم أولا أن هذا المعنى المراد هو الذى يراد بذلك اللفظ ويعنى به فإذا عرف ذلك ثم سمع اللفظ مرة ثانية عرف المعنى المراد بلا إشارة إليه وإن كانت الإشارة إلى ما يحس بالباطن مثل الجوع والشبع والرى والعطش والحزن والفرح فإنه لا يعرف اسم ذلك حتى يجده من نفسه فإذا وجده أشير له إليه وعرف أن اسمه كذا والإشارة تارة تكون إلى جوع نفسه أو عطش نفسه مثل أن يراه أنه قد جاع فيقول له جعت أنت جائع فيسمع اللفظ ويعلم ما عينه بالإشارة أو ما يجرى مجراها من القرائن التى تعين المراد مثل نظر أمه إليه فى حال جوعه وإدراكه بنظرها أو نحوه أنَّها تعنى جوعه أو يسمعهم يعبرون بذلك عن جوع غيره.

إذا عرف ذلك فالمخاطب المتكلم إذا أراد بيان معان فلا يخلو إما أن يكون مما أدركها المخاطب المستمع بإحساسه وشهوده أو بمعقوله وإما أن لا يكون كذلك، فإن كانت من القسمين الأولين لم يحتج إلا إلى معرفة اللغة بأن يكون قد عرف معانى الألفاظ المفردة ومعنى التركيب، فإذا قيل له بعد ذلك: ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝ ﴾[1] أو قيل له: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝ ﴾[2] ونحو ذلك فهم المخاطب بما أدركه بحسه وإن كانت المعانى التى يراد تعريفه بها ليست مما أحسه وشهده بعينه ولا بحيث صار له معقول كلى يتناولها حتى يفهم به المراد بتلك الألفاظ بل هى مما لا يدركه بشىء من حواسه الباطنة والظاهرة فلا بد من تعريفه من طريق القياس والتمثيل والاعتبار بما بينه وبين معقولات الأمور التى شاهدها من التشابه والتناسب وكلما كان التمثيل أقوى كان البيان أحسن والفهم أكمل.

فالرسول صلوات الله وسلامه عليه لما بين لنا أمورا لم تكن معروفة قبل ذلك وليس فى لغتهم لفظ يدل عليها بعينها أتى بألفاظ تناسب معانيها تلك المعانى وجعلها أسماء لها فيكون بينها قدر مشترك كالصلاة والزكاة والصوم والإيمان والكفر وكذلك لما أخبرنا بأمور تتعلق بالإيمان

(١) سورة البلد الآيتان: ٨، ٩.

(٢) سورة النحل الآية: ٧٨.

بالله وباليوم الآخر وهم لم يكونوا يعرفونها قبل ذلك حتى يكون لهم ألفاظ تدل عليها بعينها أخذ من اللغة الألفاظ المناسبة لتلك بما تدل عليه من القدر المشترك بين تلك المعانى الغيبية والمعانى الشهودية التى كانوا يعرفونها وقرن بذلك من الإشارة ونحوها ما يعلم به حقيقة المراد كتعليم الصبى كما قال ربيعة بن أبى عبد الرحمن[١]: الناس فى حجور علمائهم كالصبيان فى حجور آبائهم.

وأما ما يخبر به الرسول من الأمور الغائبة فقد يكون مما أدركوا نظيره بحسهم وعقلهم كإخبارهم بأن الريح قد أهلكت عاداً، فإن عاداً من جنسهم والريح من جنس ريحهم وإن كانت أشد وكذلك غرق فرعون فى البحر وكذا بقية الأخبار عن الأمم الماضية ولهذا كان الإخبار بذلك فيه عبرة لنا كما قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[٢] وقد يكون الذي يخبر به الرسول ما لم يدركوا مثله الموافق له فى الحقيقة من كل وجه لكن فى مفرداته ما يشبه مفرداتهم من بعض الوجوه كما إذا أخبرهم عن الأمور الغيبية المتعلقة بالله واليوم الآخر فلا بد أن يعلموا معنًى مشتركا وشبها بين مفردات تلك الألفاظ وبين مفردات ما علموه فى الدنيا بحسهم وعقلهم، فإذا كان ذلك المعنى الذي فى الدنيا لم يشهدوه بعد ويريد أن يجعلهم يشهدونه مشاهدة كاملة ليفهموا به القدر المشترك بينه وبين المعنى الغائب أشهدهم إياه وأشار لهم إليه وفعل قولا يكون حكاية له وشبها به يعلم المستمعون أن معرفتهم بالحقائق المشهودة هى الطريق التى يعرفون بها الأمور الغائبة.

فينبغى أن يعرف هذه الدرجات: أولها: إدراك الإنسان المعانى الحسية المشاهدة، وثانيها: عقله لمعانيها الكلية، وثالثها: تعريف الألفاظ الدالة على تلك المعانى الحسية والعقلية، فهذه

---

(١) هو: ربيعة بن أبى عبد الرحمن فروخ الإمام مفتى المدينة . . . أبو عثمان، المشهور بربيعة الرأى، كان من أوعية العلم، وثقه أحمد بن حنبل وأبو حاتم وجماعة، وكان مالك يقول: ذهبت حلاوة الفقه منذ مات ربيعة، وكلام ربيعة هذا مذكور فى "سير أعلام النبلاء" وتمامه: محمد بن كثير المصيصى، عن ابن عيينة قال: بكى ربيعة يومًا فقيل: ما يبكيك؟ قال: رياء حاضر، وشهوة خفية، والناس عند علمائهم كصبيان فى حجور أمهاتهم، إن أمروهم ائتمروا، وإن نهوهم انتهوا.

(٢) سورة يوسف الآية: ١١١.

المراتب الثلاث لا بد منها فى كل خطاب، فإذا أخبرنا عن الأمور الغائبة فلا بد مـــن تعريفنـــا المعانى المشتركة بينها وبين الحقائق المشهودة والاشتباه الذى بينهما وذلك بتعريفنـــــا الأمــور المشهودة، ثم إن كانت مثلها لم يحتج إلى ذكر الفارق كما تقدم فى قصص الأمم وإن لم يكـــن مثلها بين ذلك بذكر الفارق بأن يقال ليس ذلك مثل هذا ونحو ذلك، وإذا تقرر انتفاء المماثلـة كانت الإضافة وحدها كافية فى بيان الفارق وانتفاء التساوى لا يمنع وجود القدر المشترك الذى هو مدلول اللفظ المشترك وبه صرنا نفهم الأمور الغائبة ولولا المعنى المشترك ما أمكن ذلك قط.

قوله: ولا شيء يعجزه:

ش: لكمال قدرته، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾(١) قال تعالى: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾(٢) ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾(٣) ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾(٤) "لا يئوده" أى لا يكرثه ولا يثقله ولا يعجزه فهذا النفى لثبوت كمال ضده وكذلك كل نفى يأتى فى صفات الله تعالى فى الكتاب والسنة إنما هو لثبوت كمال ضده كقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾(٥) لكمال عدله ﴿ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾(٦) لكمال علمه، وقوله تعالى: ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾(٧) لكمال قدرته ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾(٨) لكمال حياته وقيوميته ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾(٩) لكمال جلاله وعظمته وكبريائه، وإلا فالنفى الصرف لا مدح فيه، ألا ترى أن قول الشاعر:

قُبَيِّلَةٌ لا يغدرون بذمة ... ولا يظلمون الناس حبةَ خردل

لما اقترن بنفى الغدر والظلم عنهم ما ذكره قبل هذا البيت وبعده وتصغيرهم بقوله "قبيلة" عُلم أن المراد عجزهم وضعفهم لا كمال قدرتهم، وقول الآخر:

لكن قومى وإن كانوا ذوى عدد ... ليسوا من الشر فى شيء وإن هانا

لما اقترن بنفى الشر عنهم ما يدل على ذمهم عُلم أن المراد عجزهم وضعفهم أيضا، ولهذا يأتى الإثبات للصفات فى كتاب الله مفصلا والنفى مجملا، عكس طريقة أهل الكلام المذموم فإنّهم يأتون بالنفى المفصل والإثبات المجمل يقولون: ليس بجسم ولا شبح ولا جثة ولا صورة ولا لحم ولا دم ولا شخص ولا جوهر ولا عرض ولا بذى لون ولا رائحة ولا طعم ولا مجسة ولا بذى حرارة ولا برودة ولا رطوبة ولا يبوسة ولا طول ولا عرض ولا عمق ولا اجتماع

---

(١) سورة البقرة الآية: ٢٠.
(٢) سورة الكهف الآية: ٤٥.
(٣) سورة فاطر الآية: ٤٤.
(٤) سورة البقرة الآية: ٢٥٥.
(٥) سورة الكهف الآية: ٤٩.
(٦) سورة سبأ الآية: ٣.
(٧) سورة ق الآية ٣٨.
(٨) سورة البقرة الآية: ٢٥٥.
(٩) سورة الأنعام الآية: ١٠٣.

ولا افتراق ولا يتحرك ولا يسكن ولا يتبعض وليس بذى أبعاض وأجزاء وجوارح وأعضاء وليس بذى جهات ولا بذى يمين ولا شمال وأمام وخلف وفوق وتحت ولا يحيط به مكان ولا يجرى عليه زمان ولا يجوز عليه المماسة ولا العزلة ولا الحلول فى الأماكن ولا يوصف بشيء من صفات الخلق الدالة على حدوثهم ولا يوصف بأنه متناه ولا يوصف بمساحة ولا ذهاب فى الجهات وليس بمحدود ولا والد ولا مولود ولا تحيط به الأقدار ولا تحجبه الأستار. . . إلى آخر ما نقله أبو الحسن الأشعرى(١) رحمه الله عن المعتزلة.

وفى هذه الجملة حق وباطل ويظهر ذلك لمن يعرف الكتاب والسنة وهذا النفى المجرد مع كونه لا مدح فيه فيه إساءة أدب فإنك لو قلت للسلطان أنت لست بزبال ولا كساح ولا حجام ولا حائك لأدّبك على هذا الوصف، وإن كنت صادقا، وإنما تكون مادحا إذا أجملت النفى فقلت أنت لست مثل أحد من رعيتك أنت أعلى منهم وأشرف وأجلُّ، فإذا أجملت فى النفى أجملت فى الأدب.

والتعبير عن الحق بالألفاظ الشرعية النبوية والإلهية هو سبيل أهل السنة والجماعة، والمعطلة يعرضون عما قاله الشارع من الأسماء والصفات ولا يتدبرون معانيها ويجعلون ما ابتدعوه من المعانى والألفاظ هو المحكم الذى يجب اعتقاده واعتماده، وأما أهل الحق والسنة والإيمان فيجعلون ما قاله الله ورسوله هو الحق الذى يجب اعتقاده واعتماده، والذى قاله هؤلاء إما أن يعرضوا عنه إعراضا جمليًا أو يبينوا حاله تفصيلا، ويُحكم عليه بالكتاب والسنة لا يحكم به على الكتاب والسنة.

والمقصود: أن غالب عقائدهم السلوب "ليس بكذا" وأما الإثبات فهو قليل وهى أنه عالم قادر حى، وأكثر النفى المذكور ليس متلقى عن الكتاب والسنة ولا عن الطرق العقلية التى سلكها غيرهم من مثبتة الصفات فإن الله تعالى قال: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝ ﴾(٢) ففى هذا الإثبات ما يقرر معنى النفى، ففهم أن المراد انفراده سبحانه بصفات

---

(١) هو: أبو الحسن على بن إسماعيل بن أبى بشر إسحاق بن سالم، الأشعرى اليمانى البصرى ولد سنة (٢٦٠ وقيل ٢٧٠هـ) وكان عجبًا فى الذكاء وقوة الفهم، ولما برع فى الاعتزال كرهه وتبرأ منه وصعد للناس فتاب إلى الله تعالى منه، ثم أخذ يرد المعتزلة ويهتك عورتهم، توفى سنة (٣٢٤هـ).

(٢) سورة الشورى الآية: ١١.

الكمال فهو سبحانه وتعالى موصوف بما وصف به نفسه ووصفه به رسله ليس كمثله شىء فى صفاته ولا فى أسمائه ولا فى أفعاله مما أخبرنا به من صفاته، وله صفات لم يطلع عليها أحد من خلقه كما قال رسوله الصادق ﷺ فى دعاء الكرب: "اللهم إنى أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته فى كتابك أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به فى علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبى ونور صدرى وجلاء حزنى وذهاب همى وغمى"[(١)] وسيأتى التنبيه على فساد طريقتهم فى الصفات إن شاء الله تعالى.

وليس قول الشيخ رحمه الله تعالى: ولا شىء يعجزه من النفى المذموم، فإن الله تعالى قال: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾[(٢)] فنبه سبحانه وتعالى فى آخر الآية على دليل انتفاء العجز وهو كمال العلم والقدرة فإن العجز إنما ينشأ إما من الضعف عن القيام بما يريده الفاعل وإما من عدم علمه به، والله تعالى لا يعزب عنه مثقال ذرة وهو على كل شىء قدير وقد علم ببدائه العقول والفطر كمال قدرته وعلمه فانتفى العجز لما بينه وبين القدرة من التضاد، ولأن العاجز لا يصلح أن يكون إلها، تعالى الله عن ذكر ذلك علوا كبيرا.

قوله: ولا إله غيره:

ش: هذه كلمة التوحيد التى دعت اليها الرسل كلهم كما تقدم ذكره وإثبات التوحيد بهذه الكلمة باعتبار النفى والإثبات المقتضى للحصر فإن الإثبات المجرد قد يتطرق إليه الاحتمال، ولهذا والله أعلم لما قال تعالى: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ قال بعده: ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد فى "المسند" حديث (٣٧١٢) وابن أبى شيبة (١٠/ ٢٥٣) والحاكم فى "المستدرك" حديث (١٨٧٧) والطبرانى فى "الكبير" حديث (١٠٣٥٢) وابن السنى فى "عمل اليوم والليلة" حديث (٣٤٢) وابن حبان فى "الصحيح" حديث (٢٣٧٢) قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم إن سلم من إرسال عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه فإنه مختلف فى سماعه من أبيه، وقال الهيثمى بعدما عزاه لأحمد وأبى يعلى والبزار: "ورجال أحمد وأبى يعلى رجال الصحيح غير أبى سلمة الجهنى، وقد وثقه ابن حبان" وقال الحافظ ابن حجر: حسن، وصححه العلامة أحمد شاكر فى "تخريج أحاديث المسند" وتابعه العلامة الألبانى فى "السلسلة الصحيحة" (١٩٩) وهو كما قالوا.

(٢) سورة فاطر الآية: ٤٤.

﴿ ٱلرَّحِيمُ ﴾[1] فإنه قد يخطر ببال أحد خاطر شيطانى، هب أن إلهنا واحد، فلغيرنا إله غيره، فقال تعالى: ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

وقد اعترض صاحب المنتخب على النحويين فى تقدير الخبر فى "لا إله إلا هو" فقالوا: تقديره لا إله فى الوجود إلا الله، فقال يكون ذلك نفيا لوجود الإله ومعلوم أن نفى الماهية أقوى فى التوحيد الصرف من نفى الوجود فكان إجراء الكلام على ظاهره والإعراض عن هذا الإضمار أولى.

وأجاب أبو عبد الله محمد بن أبى الفضل المرسى[2] فى رى الظمآن فقال هذا كلام من لا يعرف لسان العرب، فإن إله فى موضع المبتدأ على قول سيبويه وعند غيره اسم "لا" وعلى التقديرين فلا بد من خبر للمبتدأ وإلا فما قاله من الاستغناء عن الإضمار فاسد، وأما قوله اذا لم يضمر يكون نفيا للماهية فليس بشىء لأن نفى الماهية هو نفى، الوجود لا تتصور الماهية إلا مع الوجود، فلا فرق بين لا ماهية ولا وجود، وهذا مذهب أهل السنة خلافا للمعتزلة فإنهم يثبتون ماهية عارية عن الوجود و "إلا الله" مرفوع بدلا من "لا إله" لا يكون خبرا لـ "لا" ولا للمبتدأ وذكر الدليل على ذلك.

وليس المراد هنا ذكر الإعراب بل المراد رفع الإشكال الوارد على النحاة فى ذلك وبيان أنه من جهة المعتزلة وهو فاسد، فإن قولهم نفى الوجود ليس تقييدا لأن العدم ليس بشىء، قال تعالى: ﴿ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـًٔا ﴾[3] ولا يقال ليس قوله غيره كقوله إلا الله لأن غير تعرب بإعراب الاسم الواقع بعد إلا فيكون التقدير للخبر فيهما واحدا فلهذا ذكرت هذا الإشكال وجوابه هنا.

---

(١) سورة البقرة الآية: ١٦٣.

(٢) هو: الإمام العلامة القدوة المفسر المحدث النحوى ذو الفنون شرف الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن أبى الفضل السلمى المرسى الأندلسى قال أبو شامة: كان متفننا محققا، كثير الحج، مقتصدا فى أموره، كثير الكتب محصلا لها، وكان قد أعطى قبولا فى البلاد وهو أيضا: فقيه مناظر نحوى من أهل السنة، مات سنة (٦٥٥هـ).

(٣) سورة مريم الآية: ٩.

قوله: قديم بلا ابتداء دائم بلا انتهاء:

ش: قال الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ ﴾(١) وقال ﷺ "اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء"(٢) فقول الشيخ: قديم بلا ابتداء دائم بلا انتهاء هو معنى اسمه الأول والآخر والعلم

بثبوت هذين الوصفين مستقر فى الفطر، فإن الموجودات لا بد أن تنتهى إلى واجب الوجود لذاته قطعا للتسلسل فإنا نشاهد حدوث الحيوان والنبات والمعادن وحوادث الجو كالسحاب والمطر وغير ذلك، وهذه الحوادث وغيرها ليست ممتنعة فإن الممتنع لا يوجد، ولا واجبة الوجود بنفسها فإن واجب الوجود بنفسه لا يقبل العدم، وهذه كانت معدومة ثم وجدت فعدمها ينفى وجودها ووجودها ينفى امتناعها، وما كان قابلا للوجود والعدم لم يكن وجوده بنفسه كما قال تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾(٣) يقول سبحانه أحدثوا من غير محدث أم هم أحدثوا أنفسهم، ومعلوم أن الشيء المحدث لا يوجد نفسه، فالممكن الذى ليس له من نفسه وجود ولا عدم لا يكون موجودا بنفسه، بل إن حصل ما يوجده وإلا كان معدوما وكل ما أمكن وجوده بدلا عن عدمه وعدمه بدلا عن وجوده فليس له من نفسه وجود ولا عدم لازم له، وإذا تأمل الفاضل غاية ما يذكره المتكلمون والفلاسفة من الطرق العقلية وجد الصواب منها يعود إلى بعض ما ذكر فى القرآن من الطرق العقلية بأفصح عبارة وأوجزها، وفى طرق القرآن من تمام البيان والتحقيق ما لا يوجد عندهم مثله، قال تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾(٤).

ولا نقول لا ينفع الاستدلال بالمقدمات الخفية والأدلة النظرية فإن الخفاء والظهور من الامور النسبية فربما ظهر لبعض الناس ما خفى على غيره ويظهر للإنسان الواحد فى حال ما خفى عليه فى حال أخرى، وأيضا فالمقدمات وإن كانت خفية فقد يسلمها بعض الناس

---

(١) سورة الحديد الآية: ٣.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم فى "كتاب الذكر والدعاء" حديث (٢٧١٣) وأبو داود فى "الأدب" حديث (٥٠٥١) والترمذى فى "الدعوات" حديث (٣٤٨١) وابن ماجه فى "كتاب الدعاء" حديث (٣٨٧٣) وأحمد فى "المسند" حديث (٨٩٤٠) وإسناده عند أحمد صحيح.

(٣) سورة الطور الآية: ٣٥.

(٤) سورة الفرقان الآية: ٣٣.

وينازع فيما هو أجلى منها، وقد تفرح النفس بما علمته من البحث والنظر ما لا تفرح بما علمته من الأمور الظاهرة، ولا شك أن العلم بإثبات الصانع ووجوب وجوده أمر ضرورى فطرى وإن كان يحصل لبعض الناس من الشبه ما يخرجه إلى الطرق النظرية.

وقد أدخل المتكلمون فى أسماء الله تعالى القديم وليس هو من الأسماء الحسنى فإن القديم فى لغة العرب التى نزل بها القرآن هو المتقدم على غيره فيقال هذا قديم للعتيق وهذا حديث للجديد ولم يستعملوا هذا الاسم إلا فى المتقدم على غيره لا فيما لم يسبقه عدم كما قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾[1] والعرجون القديم الذى يبقى إلى حين وجود العرجون الثانى، فإذا وجد الجديد قيل للأول قديم، وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾[2] أى متقدم فى الزمان، وقال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴾[3] فالأقدم مبالغة فى القديم، ومنه القول القديم[4] والجديد[5] للشافعى رحمه الله تعالى، وقال تعالى: ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ﴾[6] أى يتقدمهم ويستعمل منه الفعل لازما ومتعديا كما يقال أخذت ما قدم وما حدث، ويقال هذا قدم هذا وهو يقدمه، ومنه سميت القدم قدما لأنها تقدم بقية بدن الإنسان، وأما إدخال القديم فى أسماء الله تعالى فهو مشهور عند أكثر أهل الكلام وقد أنكر ذلك كثير من السلف والخلف منهم ابن حزم، ولا ريب أنه إذا كان مستعملا فى نفس التقدم فإن ما تقدم على الحوادث كلها فهو أحق بالتقدم من غيره، لكن أسماء الله تعالى هى الأسماء الحسنى التى تدل على خصوص ما يمدح به والتقدم فى اللغة مطلق لا يختص بالتقدم على الحوادث كلها فلا يكون من الأسماء الحسنى، وجاء الشرع باسمه "الأول" وهو أحسن من القديم لأنه يشعر بأن ما بعده آيل إليه وتابع له بخلاف القديم، والله تعالى له الأسماء الحسنى.

---

(١) سورة يس الآية: ٣٩.

(٢) سورة الأحقاف الآية: ١١.

(٣) سورة الشعراء الآيتان: ٧٥، ٧٦.

(٤) القديم: ما قاله الشافعى بالعراق أو قبل انتقاله إلى مصر أو قاله بالعراق تصنيفا، وهو الحجة، أو أفتى به وروى عنه الجماعة، وأشهرهم الإمام أحمد وأبو ثور، وقد رجع الشافعى عنه وقال: لا أجعل فى حل من رواه عنى.

(٥) أما الجديد: فهو ما قاله الشافعى بمصر، والمفتى به هو المذهب الجديد إلا فى أربع عشرة مسألة ذكرها السيوطى فى "الأشباه والنظائر" فالعمل فيها على المذهب القديم.

(٦) سورة هود الآية: ٩٨.

قوله: لا يفنى ولا يبيد:

ش: إقرار بدوام بقائه سبحانه وتعالى، قال عز من قائل: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝ ﴾[1] والفناء والبيد متقاربان فى المعنى والجمع بينهما فى الذكر للتأكيد وهو أيضا مقرر ومؤكد لقوله: دائم بلا انتهاء.

قوله: ولا يكون إلا ما يريد:

ش: هذا رد لقول القدرية والمعتزلة فإنهم زعموا أن الله أرادالإيمان من الناس كلهم والكافر أراد الكفر وقولهم فاسد مردود لمخالفته الكتاب والسنة والمعقول الصحيح، وهى مسألة القدر المشهورة، وسيأتى لها زيادة بيان إن شاء الله تعالى.

وسموا قدرية لانكارهم القدر، وكذلك تسمى الجبرية المحتجون بالقدر قدرية أيضا، والتسمية على الطائفة الأولى أغلب، أماأهل السنة فيقولون إن الله وأن كان يريد المعاصى قدرا فهو لا يحبها ولا يرضاها ولا يأمر بها بل يبغضها ويسخطها ويكرهها وينهى عنها، وهذا قول السلف قاطبة فيقولون: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ولهذا اتفق الفقهاء على أن الحالف لو قال: والله لأفعلن كذا إن شاء الله لم يحنث إذا لم يفعله، وإن كان واجبا أو مستحبا، ولو قال: إن أحب الله حنث إذا كان واجبا أو مستحبا.

والمحققون من أهل السنة يقولون: الإرادة فى كتاب الله نوعان: إرادة قدرية كونية خلقية، وإرادة دينية أمرية شرعية، فالإرادة الشرعية هى المتضمنة للمحبة والرضا، والكونية هى المشيئة الشاملة لجميع الموجودات.

وهذا كقوله تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ ﴾[2] وقوله تعالى، عن نوح عليه السلام: ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝ ﴾[3] وقوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ۝ ﴾[4].

---

(١) سورة الرحمن الآيتان: ٢٦، ٢٧.

(٢) سورة الأنعام الآية: ١٢٥.

(٣) سورة هود الآية: ٣٤.

(٤) سورة البقرة الآية: ٢٥٣.

وأما الإرادة الدينية الشرعية الأمرية فكقوله تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾(١) وقوله تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا ۝ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ۝ ﴾(٢) وقوله تعالى: ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ ﴾(٣) وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ۝ ﴾(٤).

فهذه الإرادة هى المذكورة فى مثل قول الناس لمن يفعل القبائح: هذا يفعل ما لا يريده الله، أى لا يحبه ولا يرضاه ولا يأمر به.

وأما الإرادة الكونية فهى الإرادة المذكورة فى قول المسلمين ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

والفرق ثابت بين إرادة المريد أن يفعل وبين إرادته من غيره أن يفعل، فإذا أراد الفاعل أن يفعل فعلا فهذه الإرادة معلقة بفعله وإذا أراد من غيره أن يفعل فعلا فهذه الإرادة لفعل الغير، وكلا النوعين معقول للناس، والأمر يستلزم الإرادة الثانية دون الأولى، فالله تعالى إذا أمر العبد بأمر فقد يريد إعانة المأمور على ما أمر به وقد لا يريد ذلك وإن كان مريدا منه فعله.

وتحقيق هذا مما يبين فصل النزاع فى أمر الله تعالى هل هو مستلزم لإرادته أم لا، فهو سبحانه أمر الخلق على ألسن رسله عليهم السلام بما ينفعهم ونهاهم عما يضرهم، ولكن منهم من أراد أن يخلق فعله فأراد سبحانه أن يخلق ذلك الفعل ويجعله فاعلا له، ومنهم من لم يرد أن يخلق فعله، فجهة خلقه سبحانه لأفعال العباد وغيرها من المخلوقات غير جهة أمره للعبد على وجه البيان لما هو مصلحة للعبد أو مفسدة، وهو سبحانه إذ أمر فرعون وأبا لهب وغيرهما بالإيمان كان قد بين لهم ما ينفعهم ويصلحهم إذا فعلوه ولا يلزم إذا أمرهم أن يعينهم بل قد يكون فى خلقه لهم ذلك الفعل وإعانتهم عليه وجه مفسدة من حيث هو فعل له، فإنه يخلق ما

(١) سورة البقرة الآية: ١٨٥.
(٢) سورة النساء الآيات: ٢٦: ٢٨.
(٣) سورة المائدة الآية: ٦.
(٤) سورة الأحزاب الآية: ٣٣.

يخلق لحكمة، ولا يلزم إذا كان الفعل المأمور به مصلحة للمأمور إذا فعله أن يكون مصلحة للأمر إذا فعله هو أو جعل المأمور فاعلا له، فأين جهة الخلق من جهة الأمر فالواحد من الناس يأمر غيره وينهاه مريدا النصيحة ومبينا لما ينفعه، وإن كان مع ذلك لا يريد أن يعينه على ذلك الفعل، إذ ليس كل ما كان مصلحتى فى أن آمر به غيرى وأنصحه يكون مصلحتى فى أن أعاونه أنا عليه بل قد تكون مصلحتى إرادة ما يضاده فجهة أمره لغيره نصحا غير جهة فعله لنفسه وإذا أمكن الفرق فى حق المخلوقين فهو فى حق الله أولى بالإمكان.

والقدرية تضرب مثلا بمن أمر غيره بأمره فإنه لا بد أن يفعل ما يكون المأمور أقرب إلى فعله كالبشر والطلاقة وتهيئة المساند والمقاعد ونحو ذلك.

فيقال لهم: هذا يكون على وجهين:

أحدهما: أن تكون مصلحة الآمر تعود إلى الأمر، كأمر الملك جنده بما يؤيد ملكه وأمر السيد عبده بما يصلح ملكه وأمر الإنسان شريكه بما يصلح الأمر المشترك بينهما ونحو ذلك.

الثانى: أن يكون الآمر يرى الإعانة للمأمور مصلحة له كالأمر بالمعروف، وإذا أعان المأمور على البر والتقوى فإنه قد علم أن الله يثيبه على إعانته على الطاعة وأنه فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه، فأما إذا قدر ان الآمر انما أمر المأمور لمصلحة المأمور لا لنفع يعود على الآمر من فعل المأمور كالناصح المشير وقد رأى أنه اذا أعانه لم يكن ذلك مصلحة للآمر وأن فى حصول مصلحة المأمور مضرة على الآمر، مثل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى وقال لموسى عليه السلام: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾[1] فهذا مصلحته فى أن يأمر موسى عليه السلام بالخروج لا فى أن يعينه على ذلك إذ لو أعانه لضره قومه، ومثل هذا كثير.

وإذا قيل: إن الله أمر العباد بما يصلحهم لم يلزم من ذلك أن يعينهم على ما أمرهم به لا سيما وعند القدرية لا يقدر أن يعين أحدا على ما به يصير فاعلا، وإذا عللت أفعاله بالحكمة فهى ثابتة فى نفس الأمر، وإن كنا نحن لا نعلمها فلا يلزم إذا كان نفس الأمر له حكمة فى الأمر أن يكون فى الإعانة على فعل المأمور به حكمة، بل قد تكون الحكمة تقتضى أن لا يعينه

---

(١) سورة القصص الآية: ٢٠.

على ذلك، فإنه إذا أمكن فى المخلوق أن يكون مقتضى الحكمة والمصلحة أن يأمر لمصلحة المأمور وأن تكون الحكمة والمصلحة للآمر أن لا يعينه على ذلك فإمكان ذلك فى حق الرب أولى وأحرى.

والمقصود أنه يمكن فى حق المخلوق الحكيم أن يأمر غيره بأمره ولا يعينه عليه، فالخالق أولى بإمكان ذلك فى حقه مع حكمته، فمن أمره وأعانه على فعل المأمور كان ذلك المأمور به قد تعلق به خلقه وأمره إنشاءه خلقا ومحبة فكان مرادا بجهة الخلق ومرادا بجهة الأمر، ومن لم يعنه على فعل المأمور كان ذلك المأمور قد تعلق به أمره ولم يتعلق به خلقه لعدم الحكمة المقتضية لتعلق الخلق به ولحصول الحكمة المقتضية لخلق ضده، وخلق أحد الضدين ينافى خلق الضد الآخر، فإن خلق المرض الذى يحصل به ذل العبد لربه ودعاؤه وتوبته وتكفير خطاياه ويرق به قلبه ويذهب عنه الكبرياء والعظمة والعدوان يضاد خلق الصحة التى لا تحصل معها هذه المصالح، ولذلك كان خلق ظلم الظالم الذى يحصل به للمظلوم من جنس ما يحصل بالمرض يضاد خلق عدله الذى لا يحصل به هذه المصالح وإن كانت مصلحته هو فى أن يعدل.

وتفصيل حكمة الله عز وجل فى خلقه وأمره يعجز عن معرفته عقول البشر، والقدرية دخلوا فى التعليل على طريقة فاسدة مثلوا الله فيها بخلقه ولم يثبتوا حكمة تعود إليه.

قوله: لا تبلغه الأوهام ولا تدركه الأفهام:

ش: قال الله تعالى: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾[1] قال فى الصحاح: توهمت الشيء ظننته، وفهمت الشيء علمته، فمراد الشيخ رحمه الله أنه لا ينتهى إليه وهم ولا يحيط به علم، قيل الوهم ما يرجى كونه أى يظن أنه على صفة كذا والفهم هو ما يحصله العقل ويحيط به، والله تعالى لا يعلم كيف هو إلا هو سبحانه وتعالى، وإنما نعرفه سبحانه بصفاته وهو أنه أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[2] ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عمَّا

(١) سورة طه الآية: ١١٠.
(٢) سورة البقرة الآية: ٢٥٥.

يُشْرِكُونَ ۝ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ ﴾[(١)].

قوله: ولا يشبه الأنام:

ش: هذا رد لقول المشبهة الذين يشبهون الخالق بالمخلوق سبحانه وتعالى، قال عز وجل: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝ ﴾[(٢)] وليس المراد نفى الصفات كما يقول أهل البدع، فمن كلام أبى حنيفة رحمه الله فى الفقه الأكبر: لا يشبه شيئا من خلقه ولا يشبهه شىء من خلقه، ثم قال بعد ذلك: وصفاته كلها خلاف صفات المخلوقين يعلم لا كعلمنا ويقدر لا كقدرتنا ويرى لا كرؤيتنا. انتهى. وقال نعيم بن حماد[(٣)]: من شبه الله بشىء من خلقه فقد كفر ومن أنكر ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه، وقال إسحاق ابن راهويه[(٤)] من وصف الله فشبه صفاته بصفات أحد من خلق الله فهو كافر بالله العظيم، وقال: علامة جهم وأصحابه دعواهم على أهل السنة والجماعة ما أولعوا به من الكذب أنهم مشبهة، بل هم المعطلة وكذلك قال خلق كثير من أئمة السلف علامة الجهمية تسميتهم أهل السنة مشبهة فإنه ما من أحد من نفاة شىء من الأسماء والصفات إلا يسمى المثبت لها مشبها، فمن أنكر أسماء الله بالكلية من غالية الزنادقة القرامطة والفلاسفة وقال إن الله لا يقال له عالم ولا قادر يزعم أن من سماه بذلك فهو مشبه لأن الاشتراك فى الاسم يوجب الاشتباه فى معناه، ومن أثبت الاسم وقال هو مجاز كغالية الجهمية يزعم أن من قال إن الله عالم حقيقة قادر حقيقة فهو مشبه، ومن أنكر الصفات وقال إن الله ليس له علم ولا قدرة ولا كلام ولا محبة ولا

---

(١) سورة الحشر الآيتان: ٢٣، ٢٤.

(٢) سورة الشورى الآية: ١١.

(٣) هو: نعيم بن حماد بن معاوية بن الحارث بن همام بن سلمة بن مالك، الإمام العلامة الحافظ أبو عبد الله الخزاعى المروزى، قال أحمد: أول من عرفناه يكتب المسند نعيم بن حماد، وقال أيضا: كان نعيم كاتبا لأبى عصمة ــ يعنى نوحا ــ وكان شديد الرد على الجهمية وأهل الأهواء، ومنه تعلم نعيم، وتوفى سنة ٢٢٨هـ.

(٤) هو: إسحاق بن راهويه الإمام الكبير شيخ المشرق سيد الحفاظ أبو يعقوب، قال وهب بن جرير: جزى الله إسحاق بن راهويه، وصدقة بن الفضل عن الإسلام خيرا، أحيوا السنة بالمشرق، وعن محمد بن عبد الوهاب الفراء: رحم الله إسحاق، ما كان أفقهه وأعلمه، توفى سنة ٢٣٨هـ.

إرادة قال لمن أثبت الصفات إنه مشبه وإنه مجسم، ولهذا كتب نفات الصفات من الجهمية والمعتزلة والرافضة ونحوهم كلها مشحونة بتسمية مثبتة الصفات مشبهة ومجسمة ويقولون فى كتبهم إن من جملة المجسمة قوما يقال لهم المالكية ينسبون إلى رجل يقال له مالك بن أنس، وقوما يقال لهم الشافعية ينسبون إلى رجل يقال له محمد بن إدريس، حتى الذين يفسرون القرآن منهم كعبد الجبار[1] والزمخشرى[2] وغيرهما يسمون كل من أثبت شيئا من الصفات وقال بالرؤية مشبها، وهذا الاستعمال قد غلب عند المتأخرين من غالب الطوائف.

ولكن المشهور من استعمال هذا اللفظ عند علماء السنة المشهورين أنهم لا يريدون بنفى التشبيه نفى الصفات، ولا يصفون به كل من أثبت الصفات بل مرادهم أنه لا يشبه المخلوق فى أسمائه وصفاته وأفعاله، كما تقدم من كلام أبى حنيفة رحمه الله أنه تعالى يعلم لا كعلمنا ويقدر لا كقدرتنا ويرى لا كرؤيتنا، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[3] فنفى المثل وأثبت الصفة.

وسيأتى فى كلام الشيخ إثبات الصفات تنبيها على أنه ليس نفى التشبيه مستلزما لنفى الصفات.

ومما يوضح هذا أن العلم الإلهى لا يجوز أن يستدل فيه بقياس تمثيلى يستوى فيه الأصل والفرع ولا بقياس شمولى يستوى أفراده فإن الله سبحانه ليس كمثله شىء فلا يجوز أن يمثل بغيره ولا يجوز أن يدخل هو وغيره تحت قضية كلية يستوى أفرادها، ولهذا لما سلكت طوائف من المتفلسفة والمتكلمة مثل هذه الأقيسة فى المطالب الإلهية لم يصلوا بها إلى اليقين بل تناقضت أدلتهم وغلب عليهم بعد التناهى الحيرة والاضطراب لما يرونه من فساد أدلتهم أو تكافيها.

---

(١) هو: القاضى عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار بن أحمد بن خليل العلامة المتكلم شيخ المعتزلة، أبو الحسن الهمذانى، صاحب التصانيف، من كبار فقهاء الشافعية، ولى قضاء الرى، وتصانيفه كثيرة، تخرج به خلق فى الرأى الممقوت، مات سنة ٤١٥هـ.

(٢) هو: العلامة كبير المعتزلة، أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد الزمخشرى الخوارزمى النحوى، من مصنفاته: "الفائق" و"ربيع الأبرار" و"أساس البلاغة" و"مشتبه أسامى الرواة" و"النصائح" و"المنهاج" و"الكشاف" وغيرها كثير، مات سنة ٥٣٨هـ.

(٣) سورة الشورى الآية: ١١.

ولكن يستعمل فى ذلك قياس الأولى سواء كان تمثيلا أو شمولا كما قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾(١) مثل أن يعلم أن كل كمال ثبت للممكن أو للمحدث لا نقص فيه بوجه من الوجوه، وهو ما كان كمالا للوجود غير مستلزم للعدم بوجه، فالواجب القديم أولى به، وكل كمال لا نقص فيه بوجه من الوجوه ثبت نوعه للمخلوق والمربوب المدبر فانما استفاده من خالقه وربه ومدبره وهو أحق به منه، وأن كل نقص وعيب فى نفسه وهو ما تضمن سلب هذا الكمال إذا وجب نفيه عن شيء من أنواع المخلوقات والممكنات والمحدثات فإنه يجب نفيه عن الرب تعالى بطريق الأولى.

ومن أعجب العجب أن من غلاة نفاة الصفات الذين يستدلون بهذه الآية الكريمة على نفي الصفات والأسماء ويقولون واجب الوجود لا يكون كذا ولا يكون كذا، ثم يقولون: أصل الفلسفة هي التشبيه بالإله على قدر الطاقة ويجعلون هذا غاية الحكمة ونهاية الكمال الإنساني، ويوافقهم على ذلك بعض من يطلق هذه العبارة، ويروى عن النبى ﷺ أنه قال "تخلقوا بأخلاق الله"(٢) فإذا كانوا ينفون الصفات فبأى شيء يتخلق العبد على زعمهم، وكما أنه لا يشبه شيئا من مخلوقاته تعالى لا يشبهه شيء من مخلوقاته، ولكن المخالف فى هذا النصارى والحلولية والاتحادية لعنهم الله تعالى ونفى مشابهة شيء من مخلوقاته له مستلزم لنفى مشابهته لشيء من مخلوقاته فلذلك اكتفى الشيخ رحمه الله بقوله ولا يشبه الأنام والأنام الناس، وقيل كل ذى روح، وقيل الثقلان، وظاهر قوله تعالى: ﴿ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝ ﴾(٣) يشهد للأول أكثر من الباقى، والله أعلم.

قوله: حى لا يموت قيوم لا ينام:

ش: قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾(٤) فنفي السنة والنوم دليل على كمال حياته وقيوميته، وقال تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ

(١) سورة النحل الآية: ٦٠.
(٢) لا يعرف له أصل فى كتب السنة
(٣) سورة الرحمن الآية: ١٠.
(٤) سورة البقرة الآية: ٢٥٥.

ٱلْقَيُّومُ ۝ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾(١) وقال تعالى: ﴿ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ﴾(٢) وقال تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ﴾(٣) وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾(٤) وقال ﷺ، "إن الله لا ينام ولا ينبغى له أن ينام . ."(٥) الحديث.

لما نفى الشيخ رحمه الله التشبيه أشار إلى ما تقع به التفرقة بينه وبين خلقه بما يتصف به تعالى دون خلقه، فمن ذلك أنه حى لا يموت لأن صفة الحياة الباقية مختصة به تعالى دون خلقه فإنّهم يموتون، ومنه أنه قيوم لا ينام إذ هو مختص بعدم النوم والسنة دون خلقه، فإنّهم ينامون، وفى ذلك إشارة إلى أن نفى التشبيه ليس المراد منه الصفات بل هو سبحانه موصوف بصفات الكمال لكمال ذاته، فالحى بحياة باقية لا يشبه الحى بحياة زائلة، ولهذا كانت الحياة الدنيا متاعا ولهوا ولعبا ﴿ وإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ﴾(٦) فالحياة الدنيا كالمنام والحياة الآخرة كاليقظة ولا يقال فهذه الحياة الآخرة كاملة وهى للمخلوق لأنّا نقول الحى الذى الحياة من صفات ذاته اللازمة لها هو الذى وهب المخلوق تلك الحياة الدائمة فهى دائمة بإدامة الله لها لا أن الدوام وصف لازم لها لذاتها بخلاف حياة الرب تعالى، وكذلك سائر صفاته، فصفات الخالق كما يليق به وصفات المخلوق كما يليق به.

واعلم أن هذين الاسمين، أعنى الحى القيوم، مذكوران فى القرآن معا فى ثلاث سور، **كما** تقدم، وهما من أعظم أسماء الله الحسنى حتى قيل: إنّهما الاسم الاعظم، فإنّهما يتضمنان إثبات صفات الكمال أكمل تضمن وأصدقه، ويدل القيوم على معنى الأزلية والأبدية ما لا يدل عليه

---

(١) سورة آل عمران الآيات: ١: ٣.

(٢) سورة طه الآية: ١١١.

(٣) سورة الفرقان الآية: ٥٨.

(٤) سورة غافر الآية: ٦٥.

(٥) **صحيح**: أخرجه مسلم فى "كتاب الإيمان" حديث (١٧٩) وابن ماجه فى "المقدمة" حديث (١٩٥، ١٩٦) وأحمد فى "المسند" حديث (١٩٤٧٧-١٩٤٢٢) والآجرى فى "الشريعة" رقم (٢٩١-٣٠٤) والبغوى فى "شرح السنة" (١٧٣/١) والساعاتى فى "منحة المعبود" (٦) و"المشكاة" (٩١) وابن حبان فى "الصحيح" (٢٦٦) وانظر "جمع الجوامع" رقم (٥١٤) والسنة لابن أبى عاصم (٢٧٢/١) و"تاريخ جرجان" (١٣١).

(٦) سورة العنكبوت الآية: ٦٤.

صفات الكمال أكمل تضمن وأصدقه، ويدل القيوم على معنى الأزلية والأبدية ما لا يدل عليه لفظ القديم، ويدل أيضا على كونه موجودا بنفسه وهو معنى كونه واجب الوجود، والقيوم أبلغ من القيام لأن الواو أقوى من الألف ويفيد قيامه بنفسه باتفاق المفسرين وأهل اللغة، وهو معلوم بالضرورة وهل تفيد إقامته لغيره وقيامه عليه؟ فيه قولان أصحهما أنه يفيد ذلك، وهو يفيد دوام قيامه وكل قيامه، لما فيه من المبالغة، فهو سبحانهلا يزول ولا يأفل فإن الأفل قد زال قطعك أى لا يغيب ولا ينقص ولا يفنى ولا يعدم بل هو الدائم الباقى الذي لم يزل ولا يزال موصوفا بصفات الكمال، واقترانه بالحى يستلزم سائر صفات الكمال ويدل على دوامها وبقائها، وانتفاء النقص والعدم عنها أزلا وأبدا، ولهذا كان قوله: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ ﴾[1] أعظم آية فى القرآن كما ثبت ذلك فى الصحيح عن النبى ﷺ، فعلى هذين الاسمين مدار الأسماء الحسنى كلها وإليهما ترجع معانيها، فإن الحياة مستلزمة لجميع صفات الكمال فلا يتخلف عنها صفة منها إلا لضعف الحياة، فإذا كانت حياته تعالى أكمل حياة وأتمها استلزم إثباتها إثبات كل كمال يضاد نفيه كمال الحياة، وأما القيوم فهو متضمن كمال غناه وكمال قدرته، فإنه القائم بنفسه فلا يحتاج إلى غيره بوجه من الوجوه، المقيم لغيره فلا قيام لغيره إلا بإقامته، فانتظم هذان الاسمان صفات الكمال أتم انتظام.

قوله: خالق بلا حاجة رازق بلا مؤنة:

ش: قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ۝ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ۝ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ۝ ﴾[2] ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ۝ ﴾[3] ﴿ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ ﴾[4] ﴿ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ ﴾[5] وقال ﷺ من حديث أبى ذر ﷺ "يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب

(١) سورة البقرة الآية: ٢٥٥.
(٢) سورة الذاريات الآيات: ٥٦: ٥٨.
(٣) سورة فاطر الآية: ١٥.
(٤) سورة محمد الآية: ٣٨.
(٥) سورة الأنعام الآية: ١٤.

رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئا، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك فى ملكى شيئا، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر . . ."[1] الحديث رواه مسلم، وقوله: بلا مؤنة: بلا ثقل ولا كلفة.

قوله: مميت بلا مخافة باعث بلا مشقة:

ش: الموت صفة وجودية خلافا للفلاسفة ومن وافقهم، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾[2] والعدم لا يوصف بكونه مخلوقا، وفى الحديث أنه "يؤتى بالموت يوم القيامة على صورة كبش أملح فيُذبح بين الجنة والنار"[3] وهو وإن كان عرضا فالله تعالى يقلبه عينا، كما ورد فى العمل الصالح أنه يأتى صاحبه فى صورة الشاب الحسن، والعمل القبيح على أقبح صورة، وورد فى القرآن "أنه يأتى على صورة الشاب الشاحب اللون"[4] الحديث، أى قراءة القارئ، وورد فى الأعمال أنّهاتوضع فى الميزان، والأعيان هى التى تقبل الوزن دون الأعراض، وورد فى سورة البقرة وآل عمران أنّهما يوم القيامة "يظلان

(١) **صحيح:** أخرجه مسلم فى "كتاب البر والصلة" حديث (٢٥٧٧) والترمذى فى "كتاب صفة القيامة" حديث (٢٤٩٥) وابن ماجه فى "كتاب الزهد" حديث (٤٢٥٧) والحاكم فى "المستدرك" (٤/ ٢٤١) وأحمد فى "المسند" حديث (٢١٣١٤) قال الترمذى: هذا حديث حسن، وروى بعضهم هذا الحديث عن شهر بن حوشب عن معدى كرب عن أبى ذر عن النبى ﷺ نحوه، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه، ولكن تعقبه الذهبى فقال: وهو فى مسلم، وهو كما قال.

(٢) سورة الملك الآية: ٢.

(٣) **صحيح:** أخرجه البخارى فى: "كتاب التفسير" حديث (٤٧٣٠) ومسلم فى "كتاب الجنة" حديث (٢٨٤٩) والترمذى فى "كتاب تفسير القرآن" حديث (٣١٥٦) وأحمد فى "المسند" (٣٧٧/٢) وأبو نعيم فى "حلية الأولياء" حديث (٤٣٧١) وانظر "تقريب البغية" (٣/ ٤٦٣) قال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح.

(٤) حسن: أخرجه أحمد فى "المسند" حديث (٢٢٨٤٦، ٢٢٤٧١) وابن ماجه (٣٧٨١) والدارمى (٣٣٨٦) والحاكم (١/ ٥٦٠) البغوى فى "شرح السنة" (٤/ ٤٥٣) وابن أبى شيبة (١٠/ ٤٩٢: ٤٩٣) قال البصيرى: رجاله ثقات، وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم، وقال الشيخ الألبانى: حسن.

قلت: وهو كما قال رحمه الله فإن فيه "بشير بن المهاجر" صدوق لين الحديث، ووثقه يحيى بن معين وضعفه بعضهم.

صاحبهما كأنَّهما غمامتان أو غيابتان أو فِرْقان من طير صواف"[١] وفى الصحيح أن أعمال العباد تصعد إلى السماء[٢] وسيأتى الكلام على البعث والنشور إن شاء الله تعالى.

❁ **قوله: ما زال بصفاته قديما قبل خلقه لم يزدد بكونهم شيئًا لم يكن قبلهم من صفته وكما كان بصفاته أزليًا كذلك لا يزال عليها أبديًّا:**

ش: إى أن الله سبحانه وتعالى لم يزل متصفًا بصفات الكمال، صفات الذات وصفات الفعل، ولا يجوز أن يعتقد أن الله وُصف بصفة بعد أن لم يكن متصفًا بها لأن صفاته سبحانه صفات كمال وفقدها صفة نقص، ولا يجوز أن يكون قد حصل له الكمال بعد أن كان متصفًا بضده، ولا يرد على هذه صفات الفعل والصفات الاختيارية ونحوها كالخلق والتصوير والإحياء والإماتة والقبض والبسط والطى والاستواء والإتيان والمجىء والنزول والغضب والرضى ونحو ذلك مما وصف به نفسه ووصفه به رسوله، وإن كنا لا ندرك كنهة وحقيقته الّتي هى تأويله، ولا ندخل فى ذلك متأولين بآرائنا ولا متوهمين بأهوائنا، ولكن أصل معناه معلوم لنا كما قال الإمام مالك ﷺ لما سئل عن قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾[٣] وغيرها، كيف استوى؟ فقال: الاستواء معلوم والكيف مجهول، وإن كانت هذه الأحوال تحدث فى وقت دون وقت كما فى حديث الشفاعة: إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، لأن هذا الحدوث بهذا الاعتبار غير ممتنع ولا يطلق عليه أنه حدث بعد أن لم يكن، ألا ترى أن من تكلم اليوم وكان متكلما بالأمس لا يقال إنه حدث له الكلام، ولو كان غير متكلم لأنه لآفة كالصغر والخرس، ثم تكلم يقال: حدث له الكلام، فالساكت لغير آفة يسمى متكلما بالقوة بمعنى أنه يتكلم إذا شاء وفى حال تكلمه يسمى متكلما بالفعل، وكذلك الكاتب فى حال الكتابة هو كاتب بالفعل ولا يخرج عن كونه كاتبا فى حال عدم مباشرته الكتابة.

وحلول الحوادث بالرب تعالى المنفى فى علم الكلام المذموم لم يرد نفيه ولا إثباته فى كتاب ولا سنة، وفيه إجمال فإن أريد بالنفى أنه سبحانه لا يحل فى ذاته المقدسة شىء من مخلوقاته

---

(١) صحيح: تقدم تخريجه.

(٢) صحيح: أخرجه البخارى فى "كتاب الأذان" حديث (٧٩٩) وأبو داود فى "كتاب الصلاة" حديث (٧٧٠) والترمذى فى "أبواب الصلاة" حديث (٤٠٤) وحسنه فى بعض النسخ وصححه فى بعضها.

(٣) سورة الأعراف الآية: ٥٤.

المحدثة أو لا يحدث له وصف متجدد لم يكن فهذا نفى صحيح، وإن اريد به نفى الصفات الاختيارية من أنه لا يفعل ما يريد ولا يتكلم بما شاء إذا شاء ولا أنه يغضب ويرضى لا كأحد من الورى ولا يوصف بما وصف به نفسه من النزول والاستواء والإتيان كما يليق بجلاله وعظمته فهذا نفى باطل.

وأهل الكلام المذموم يطلقون نفى حلول الحوادث، فيسلم السنى للمتكلم ذلك على ظن أنه نفى عنه سبحانه ما لا يليق بجلاله، فإذا سلم له هذا النفى ألزمه نفى الصفات الاختيارية وصفات الفعل، وهو غير لازم له، وإنما أتى السنى من تسليم هذا النفى المجمل، وإلا فلو استفسر واستفصل لم ينقطع معه.

وكذلك مسألة الصفة هل هى زائدة على الذات أم لا لفظها مجمل، وكذلك لفظ الغير فيه إجمال، فقد يراد به ما ليس هو إياه وقد يراد به ما جاز مفارقته له.

ولهذا كان أئمة السنة، رحمهم الله تعالى، لا يطلقون على صفات الله وكلامه أنه غيره ولا أنه ليس غيره لأن إطلاق الإثبات قد يشعر أن ذلك مباين له، وإطلاق النفى قد يشعر بأنه هو هو اذا كان لفظ الغير فيه إجمال فلا يطلق إلا مع البيان والتفصيل فإن أريد به أن هناك ذاتا مجردة قائمة بنفسها منفصلة عن الصفات الزائدة عليها فهذا غير صحيح، وإن أريد به أن الصفات زائدة على الذات التى يفهم من معناها غير ما يفهم من معنى الصفة، فهذا حق ولكن ليس فى الخارج ذات مجردة عن الصفات، بل الذات الموصوفة بصفات الكمال الثابتة لها لا تنفصل عنها، وإنما يفرض الذهن ذاتا وصفة، كلا وحده، ولكن ليس فى الخارج ذات غير موصوفة فإن هذا محال، ولو لم يكن إلا صفة الوجود فإنها لا تنفك عن الموجود وإن كان الذهن يفرض ذاتا ووجودا يتصور هذا وحده وهذا وحده لكن لا ينفك أحدهما عن الآخر فى الخارج.

وقد يقول بعضهم الصفة لا عين الموصوف ولا غيره، هذا له معنى صحيح وهو أن الصفة ليست عين ذات الموصوف التى يفرضها الذهن مجردة بل هى غيرها، وليست غير الموصوف بل الموصوف بصفاته شيء واحد غير متعدد.

فإذا قلت: أعوذ بالله فقد عذت بالذات المقدسة الموصوفة بصفات الكمال المقدسة الثابتة التي لا تقبل الانفصال بوجه من الوجوه.

وإذا قلت: أعوذ بعزة الله فقد عذت بصفة من صفات الله تعالى و لم تعذ بغير الله، وهذا المعنى يفهم من لفظ الذات فإن "ذات" فى أصل معناها لا تستعمل إلا مضافة، أى ذات وجود ذات قدرة ذات عز ذات علم ذات كرم إلى غير ذلك من الصفات، فذات كذا بمعنى صاحبة كذا تأنيث ذو، هذا أصل معنى الكلمة، فعلم أن الذات لا يتصور انفصال الصفات عنها بوجه من الوجوه وإن كان الذهن قد يفرض ذاتا مجردة عن الصفات كما يفرض المحال، وقد قال ﷺ : "أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر"[١] وقال ﷺ : " أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق"[٢] ولا يعوذ ﷺ بغير الله، وكذا قال ﷺ : "اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك"[٣] وقال ﷺ : " ونعوذ بعظمتك أن نغتال من تحتنا"[٤] وقال ﷺ : " أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات"[٥].

وكذلك قولهم الاسم عين المسمى أو غيره؟ وطالما غلط كثير من الناس فى ذلك وجهلوا الصواب فيه، فالاسم يراد به المسمى تارة ويراد به اللفظ الدال عليه أخرى، فاذا قلت قال الله

(١) صحيح: أخرجه مسلم فى "السلام" حديث (٢٢٠٢) وأبو داود فى "الطب" حديث (٣٨٩١) والترمذى فى "كتاب الطب" حديث (٢٠٨٠) وأحمد فى "المسند" حديث (١٦٢٢١، ١٧٨٣٢) وابن ماجه فى "كتاب الطب" حديث (٣٥٢٢) ومالك (٢/ ٩٤٢) والحاكم (١/ ٣٤٣) قال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح، وقال الحاكم: صحيح الإسناد.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم فى "كتاب الذكر والدعاء" حديث (٢٧٠٨) وأبو داود فى "كتاب الطب" حديث (٣٨٩٨) والترمذى فى "كتاب الدعوات" حديث (٣٤٣٧) وابن ماجه فى "كتاب الطب" حديث (٣٥٤٧) قال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح غريب.

(٣) صحيح: أخرجه مسلم فى "كتاب الصلاة" حديث (٤٨٦) وأبو داود فى "كتاب الصلاة" حديث (٨٧٩) والترمذى فى "كتاب الدعوات" حديث (٤٣٩٣) وابن ماجه فى "كتاب الدعاء" حديث (٣٨٤١) وأحمد فى "المسند" رقم (٧٥١، ٩٥٧، ١٢٩٤، ٢٥٥٣١) قال الترمذى: هذا حديث حسن، وقد روى من غير وجه عن عائشة.

(٤) صحيح: أخرجه أبو داود فى "كتاب الأدب" حديث (٥٠٧٤) وابن ماجه فى "كتاب الدعاء" حديث (٣٨٧١) وأحمد فى "المسند" حديث (٤٧٨٥) وانظر "صحيح أبى داود" (٣/ ٢٤٨) حديث (٥٠٧٤).

(٥) ضعيف: قال الشيخ الألبانى: رواه ابن إسحاق بسند ضعيف معضل، وقد رواه بعضهم عنه بإسناده موصولا، لكن فيه عنعنة.

كذا أو سمع الله لمن حمده ونحو ذلك فهذا المراد به المسمى نفسه، وإذا قلت الله اسـم عـربى والرحمن اسم عربى والرحيم من أسماء الله تعالى ونحو ذلك فالاسم ههنا هو المراد لا المسـمى، ولا يقال غيره لما فى لفظ الغير من الإجمال فإن أريد بالمغايرة أن اللفظ غير المعنى فحق وإن أريد أن الله سبحانه كان ولا اسم له حتى خلق لنفسه أسماء أو حتى سماه خلقه بأسماء من صنعـهم فهذا من أعظم الضلال والإلحاد فى أسماء الله تعالى.

والشيخ رحمه الله أشار بقوله: ما زال بصفاته قديما قبل خلقه. . . إلى آخر كلامه، إلى الرد على المعتزلة والجهمية ومن وافقهم من الشيعة فإنَّهمقالوا إنه تعالى صار قـادرا علـى الفعـل والكلام بعد أن لم يكن قادرا عليه-لكونه صار الفعل والكلام ممكنا بعد أن كان ممتنعـا وأنـه انقلب من الامتناع الذاتى إلى الإمكان الذاتى، وابن كلاب والأشعرى ومن وافقهما فإنَّهم قالوا إن الفعل صار ممكنا له بعد أن كان ممتنعا منه، وأما الكلام عندهم فلا يدخل تحـت المشـيئة والقدرة بل هو شىء واحد لازم لذاته.

وأصل هذا الكلام من الجهمية فإنَّهمقالوا إن دوام الحوادث ممتنع وإنه يجـب أن يكـون للحوادث مبدأ لامتناع حوادث لا أول لها فيمتنع أن يكون البارئ عز وجل لم يـزل فـاعلا متكلما بمشيئة بل يمتنع أن يكون قادرا على ذلك لأن القدرة على الممتنع ممتنعة وهذا فاسد فإنـه يدل على امتناع حدوث العالم وهو حادث والحادث إذا حدث بعد أن لم يكن محدثا فلا بد أن يكون ممكنا، والإمكان ليس له وقت محدود وما من وقت يقدر إلا والإمكان ثابت فيه وليـس لإمكان الفعل وجوازه وصحته مبدأ ينتهى إليه فيجب أنه لم يزل الفعل ممكنًا جائزًا صحيحًـا فيلزم أنه لم يزل الرب قادرا عليه فيلزم جواز حوادث لا نهاية لأولها.

قالت الجهمية ومن وافقهم: نحن لا نسلم أن إمكان الحوادث لا بداية له لكن نقـول: إمكان الحوادث بشرط كونِها مسبوقة بالعدم لا بداية له، وذلك لأن الحوادث عندنا تمتنـع أن تكون قديمة النوع بل يجب حدوث نوعها، ويمتنع قدم نوعها لكن لا يجب الحدوث فى وقـت بعينه، فإمكان الحوادث بشرط كونِها مسبوقة بالعدم لا أول له بخلاف جنس الحوادث.

فيقال لهم: هب أنكم تقولون ذلك لكن يقال: إمكان جنس الحوادث عندكم له بداية فإنه صار جنس الحدوث عندكم ممكنا بعد أن لم يكن ممكنًا، وليس لهذا الامكان وقت معين بل مـا

من وقت يفرض إلا والإمكان ثابت قبله فيلزم دوام الإمكان وإلا لزم انقلاب الجنس من الامتناع إلى الإمكان من غير حدوث شيء، ومعلوم أن انقلاب حقيقة جنس الحدوث أو جنس الحوادث أو جنس الفعل أو جنس الأحداث أو ما أشبه هذا من العبارات من الامتناع إلى الإمكان وهو مصير ذلك ممكنًا جائزًا بعد أن كان ممتنعًا من غير سبب تجدد، وهذا ممتنع فى صريح العقل، وهو أيضا انقلاب الجنس من الامتناع الذاتى إلى الإمكان الذاتى، فإن ذات جنس الحوادث عندهم تصير ممكنة بعد أن كانت ممتنعة، وهذا الانقلاب لا يختص بوقت معين، فإنه ما من وقت يقدر إلا والإمكان ثابت قبله، فيلزم أنه لم يزل هذا الانقلاب ممكنًا، فيلزم أنه لم يزل الممتنع ممكنًا وهذا أبلغ فى الامتناع من قولنا لم يزل الحادث ممكنًا فقد لزمهم فيما فروا إليه أبلغ مما لزمهم فيما فروا منه، فإنه يعقل كون الحادث ممكنا ويعقل أن هذا الإمكان لم يزل، وأما كون الممتنع ممكنا فهو ممتنع فى نفسه، فكيف إذا قيل لم يزل إمكان هذا الممتنع، وهذا مبسوط فى موضعه.

فالحاصل: أن نوع الحوادث هل يمكن دوامها فى المستقبل والماضى أم لا أو فى المستقبل فقط أو الماضى فقط؟ فيه ثلاثة أقوال معروفة لأهل النظر من المسلمين وغيرهم:

أضعفها قول من يقول: لا يمكن دوامها لا فى الماضى ولا فى المستقبل كقول جهم بن صفوان وأبى الهذيل العلاف.

وثانيها قول من يقول: يمكن دوامها فى المستقبل دون الماضى كقول كثير من أهل الكلام ومن وافقهم من الفقهاء وغيرهم.

والثالث قول من يقول يمكن دوامها فى الماضى والمستقبل كما يقوله أئمة الحديث، وهى من المسائل الكبار، ولم يقل أحد يمكن دوامها فى الماضى دون المستقبل.

ولا شك أن جمهور العالم من جميع الطوئف يقولون ان كل ما سوى الله تعالى مخلوق كائن بعد أن لم يكن، وهذا قول الرسل وأتباعهم من المسلمين واليهود والنصارى وغيرهم.

ومن المعلوم بالفطرة أن كون المفعول مقارنًا لفاعله لم يزل ولا يزال معه ممتنع محال، ولما كان تسلسل الحوادث فى المستقبل لا يمنع أن يكون الرب سبحانه هو الآخر الذى ليس بعده شيء فكذا تسلسل الحوادث فى الماضى لا يمنع أن يكون سبحانه وتعالى هو الأول الذى ليس

قبله شيء، فإن الرب سبحانه وتعالى لم يزل ولا يزال يفعل ما يشاء ويتكلم إذا يشاء، قال تعالى: ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾[1] وقال تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾[2] وقال تعالى: ﴿ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ۝ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾[3] وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ﴾[4] وقال تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾[5].

والمثبت إنما هو الكمال الممكن الوجود، وحينئذ فإذا كان النوع دائما فالممكن والأكمل هو التقدم على كل فرد من الأفراد بحيث لا يكون فى أجزاء العالم شيء يقارنه بوجه من الوجوه.

وأما دوام الفعل فهو أيضا من الكمال، فإن الفعل إذا كان صفة كمال فدوامه دوام كمال.

قالوا: والتسلسل لفظ مجمل لم يرد بنفيه ولا إثباته كتاب ولا سنة ليجب مراعاة لفظه وهو ينقسم إلى واجب وممتنع وممكن، فالتسلسل فى المؤثرين محال ممتنع لذاته وهو أن يكون مؤثرون كل واحد منهم استفاد تأثيره مما قبله لا إلى غاية.

والتسلسل الواجب ما دل عليه العقل والشرع من دوام أفعال الرب تعالى فى الأبد، وأنه كلما انقضى لأهل الجنة نعيم أحدث لهم نعيما آخر لا نفاد له، وكذلك التسلسل فى أفعاله سبحانه من طرف الأزل وأن كل فعل مسبوق بفعل آخر فهذا واجب فى كلامه فإنه لم يزل متكلما إذا شاء و لم تحدث له صفة الكلام فى وقت وهكذا أفعاله التى هى من لوازم حياته فإن كل حى فعال والفرق بين الحى والميت الفعل، ولهذا قال غير واحد من السلف: الحى الفعال، وقال عثمان بن سعيد: كل حى فعال و لم يكن ربنا تعالى قط فى وقت من الأوقات معطلا عن كماله من الكلام والإرادة والفعل.

---

(١) سورة آل عمران الآية: ٤٠.

(٢) سورة البقرة الآية: ٢٥٣.

(٣) سورة البروج الآيتان: ١٥، ١٦.

(٤) سورة لقمان الآية: ٢٧.

(٥) سورة الكهف الآية: ١٠٩.

وأما التسلسل الممكن فالتسلسل فى مفعولاته من هذا الطرف كما تتسلسل فى طرف الأبد فإنه إذا لم يزل حيًّا قادرًا مريدًا متكلمًا وذلك من لوازم ذاته فالفعل ممكن له بموجب هذه الصفات له وأن يفعل أكمل من أن لا يفعل، ولا يلزم من هذا أنه لم يزل الخلق معه فإنه سبحانه متقدم على كل فرد من مخلوقاته تقدما لا أول له، فلكل مخلوق أول، والخالق سبحانه لا أول له، فهو وحده الخالق وكل ما سواه مخلوق كائن بعد أن لم يكن.

قالوا: وكل قول سوى هذا فصريح العقل يرده ويقضى ببطلانه، وكل من اعترف بأن الرب تعالى لم يزل قادرًا على الفعل لزمه أحد أمرين لا بد له منهما:

إما أن يقول بأن الفعل لم يزل ممكنًا، وإما أن يقول لم يزل واقعًا، وإلا تناقض تناقضًا بيِّنًا حيث زعم أن الرب تعالى لم يزل قادرا على الفعل، والفعل محال ممتنع لذاته لو أراده لم يمكن وجوده بل فرض ارادته عنده محال وهو مقدور له وهذا قول ينقض بعضه بعضًا.

والمقصود: أن الذى دل عليه الشرع والعقل أن كل ما سوى الله تعالى محدث كائن بعد أن لم يكن، أما كون الرب تعالى لم يزل معطلا عن الفعل ثم فعل فليس فى الشرع ولا فى العقل ما يثبته، بل كلاهما يدل على نقيضه.

وقد أورد أبو المعالى فى إرشاده وغيره من النظار على التسلسل فى الماضى فقالوا: إنك لو قلت: لا أعطيك درهمًا إلا أعطيك بعده درهمًا كان هذا ممكنًا، ولو قلت: لا أعطيك درهمًا حتى أعطيك قبله درهمًا كان هذا ممتنعًا.

وهذا التمثيل والموازنة غير صحيحة بل الموازنة الصحيحة أن تقول: ما أعطيتك درهمًا إلا أعطيتك قبله درهمًا فتجعل ماضيًا قبل ماضٍ، كما جعلت هناك مستقبلا بعد مستقبل، وأما قول القائل: لا أعطيك حتى أعطيك قبله فهو نفى للمستقبل حتى يحصل فى المستقبل، ويكون قبله فهو نفى المستقبل حتى يوجد المستقبل، وهذا ممتنع، أما نفى الماضى حتى يكون قبله ماض فإن هذا ممكن، والعطاء المستقبل إيتاؤه من المعطى المستقبل الذى له ابتداء وانتهاء لا يكون قبله ما لا نهاية له، فإن ما لا نهاية له فيما يتناهى ممتنع.

❁ **قوله: ليس بعد خلق الخلق استفاد اسم "الخالق" ولا بإحداثه البريـــة اســتفاد اســم "البارى":**

ش: ظاهر كلام الشيخ رحمه الله أنه يمنع تسلسل الحوادث فى الماضى ويأتى فى كلامه مـا يدل على أنه لا يمنعه فى المستقبل، وهو قوله: "والجنة والنار مخلوقتان لا تفنيان أبدا ولا تبيـدان" وهذا مذهب الجمهور، كما تقدم، ولا شك فى فساد قول من منع ذلك فى الماضى والمســتقبل كما ذهب إليه الجهم وأتباعه وقال بفناء الجنة والنار، لما يأتى من الأدلة إن شاء الله تعالى.

وأما قول من قال بجواز حوادث لا أول لها من القائلين بحوادث لا آخر لها فأظهر فى الصحة من قول من فرق بينهما، فإنه سبحانه لم يزل حيا والفعل من لوازم الحياة، فلم يزل فاعلا لمـا يريد كما وصف بذلك نفسه حيث يقول: ﴿ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ۝ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝ ﴾[1].

والآية تدل على أمور:

أحدها: أنه تعالى يفعل بإرادته ومشيئته.

الثانى: أنه لم يزل كذلك لأنه ساق ذلك فى معرض المدح والثناء على نفسه وأن ذلك مـن كماله سبحانه ولا يجوز أن يكون عادما لهذا الكمال فى وقت من الأوقات، وقد قال تعـــالى: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝ ﴾[2] ولما كان مـــن أوصــاف كمالـــه ونعوت جلاله لم يكن حادثا بعد أن لم يكن.

الثالث: أنه إذا أراد شيئا فعله فإن "ما" موصولة عامة، أى يفعل كل ما يريد أن يفعلـــه، وهذا فى إرادته المتعلقة بفعله، وأما إرادته المتعلقة بفعل العبد فتلك لها شأن آخر، فإن أراد فعـل العبد و لم يرد من نفسه أن يعينه عليه ويجعله فاعلا لم يوجد الفعل، وإن أراده حتى يريد من نفسه أن يجعله فاعلا، وهذه هى النكتة التى خفيت على القدرية والجبرية وخبطوا فى مسألة القـــدر لغفلتهم عنها، وفرق بين إرادته أن يفعل العبد وإرادة أن يجعله فاعلا، وسيأتى الكــلام علــى مسألة القدر فى موضعه إن شاء الله تعالى.

---

(١) سورة البروج الآيتان: ١٥، ١٦.

(٢) سورة النحل الآية: ١٧.

الرابع: أن فعله وإرادته متلازمان، فما أراد أن يفعل فَعل، وما فعله فقد أراده، بخلاف المخلوق فإنه يريد ما لا يفعل، وقد يفعل ما لا يريده، فما ثَمَّ فعال لما يريد إلا الله وحده.

الخامس: إثبات إرادات متعددة بحسب الأفعال، وأن كل فعل له إرادة تخصه، هذا هو المعقول فى الفطر، فشأنه سبحانه أنه يريد على الدوام ويفعل ما يريد.

السادس: أن كل ما صح أن تتعلق به إرادته جاز فعله، فإذا أراد أن ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا، وأن يجيء يوم القيامة لفصل القضاء، وأن يرى عباده نفسه، وأن يتجلى لهم كيف شاء، ويخاطبهم ويضحك إليهم، وغير ذلك مما يريد سبحانه لم يمتنع عليه فعله، فإنه تعالى فعال لما يريد، وإنما يتوقف صحة ذلك على إخبار الصادق به، فإذا أخبر وجب التصديق، وكذلك محو ما يشاء وإثبات ما يشاء، كل يوم هو فى شأن سبحانه وتعالى.

والقول بأن الحوادث لها أول يلزم منه التعطيل قبل ذلك وأن الله سبحانه وتعالى لم يزل غير فاعل ثم صار فاعلا، ولا يلزم من ذلك قدم العالم لأن كل ما سوى الله تعالى محدث ممكن الوجود موجود بإيجاد الله تعالى له، ليس له من نفسه إلا العدم والفقر والاحتياج وصف ذاتى لازم لكل ما سوى الله تعالى، والله تعالى واجب الوجود لذاته غنى لذاته، والغِنى وصف ذاتى لازم له سبحانه وتعالى.

والناس قولان فى هذا العالم هل هو مخلوق من مادة أم لا واختلفوا فى أول هذا العالم ما هو وقد قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾[1].

وروى البخارى وغيره عن عمران بن حصين ﷺ قال: قال أهل اليمن لرسول الله ﷺ: جئناك لنتفقه فى الدين، ولنسألك عن أول هذا الأمر فقال: "كان الله و لم يكن شيء قبله"[2] وفى رواية: "و لم يكن شيء معه" وفى رواية: "غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب فى الذكر

---

(١) سورة هود الآية: ٧.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب التوحيد" حديث (٤٧١٨) وأحمد فى "المسند" حديث (١٩٧٦٢) والطبرانى فى "الكبير" (١٨/ ٢٢١) حديث (٥٥٢) والترمذى فى "كتاب المناقب" حديث (٣٩٥١) بدون اللفظ المذكور، والتبريزى فى "مشكاة المصابيح" حديث (٥٦٩٨) والطبرى فى "التاريخ" (١/ ٣٨) والبيهقى فى "الأسماء والصفات" حديث (٢٣١ ، ٣٧٥).

كل شيء، وخلق السموات والأرض" وفى لفظ: "ثم خلق السموات والأرض" فقوله: "كتب فى الذكر" يعنى اللوح المحفوظ، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ ﴾[1] يسمى ما يكتب فى الذكر ذكرًا، كما يسمى ما يكتب فى الكتاب كتابًا.

والناس فى هذا الحديث على قولين:

منهم من قال: إن المقصود إخباره بأن الله كان موجودًا وحده ولم يزل كذلك دائمًا، ثم ابتدأ إحداث جميع الحوادث، فجنسها وأعيانها مسبوقة بالعدم، وأن جنس الزمان حادث لا فى زمان، وأن الله صار فاعلا بعد أن لم يكن يفعل شيئًا من الأزل إلى حين ابتداء الفعل، ولا كان الفعل ممكنًا.

والقول الثانى: المراد إخباره عن مبدأ خلق هذا العالم المشهود الذى خلقه الله فى ستة أيام ثم استوى على العرش كما أخبر القرآن بذلك فى غير موضع، وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما عن النبى ﷺ أنه قال: "قدَّر الله تعالى مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء"[2] فأخبر ﷺ أن تقدير هذا العالم المخلوق فى ستة أيام كان قبل خلقه الأرض والسموات بخمسين ألف سنة وأن عرش الرب تعالى كان حينئذ على الماء.

دليل صحة هذا القول الثانى من وجوه:

أحدها: أن قول أهل اليمن: جئناك لنسألك عن أول هذا الأمر، وهو إشارة إلى حاضر مشهود موجود، والأمر هنا بمعنى المأمور، أى الذى كوَّنه الله بأمره، وقد أجابهم النبى ﷺ عن بدء هذا العالم الموجود لا عن جنس المخلوقات، لأنَّهم لم يسألوه عنه، وقد أخبرهم عن خلق السموات والأرض حال كون عرشه على الماء ولم يخبرهم عن خلق العرش وهو مخلوق قبل خلق السموات والأرض، وأيضًا فإنه قال: "كان الله ولم يكن شيء قبله" وقد روى "معه" وروى "غيره" والمجلس كان واحدًا، فعلم أنه قال أحد الألفاظ والآخران رُويا بالمعنى، ولفظ القبل ثبت

(١) سورة الأنبياء الآية: ١٠٥.

(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم فى "كتاب القدر" حديث (٢٦٥٣) والترمذى فى "كتاب القدر" حديث (٢١٥٦) وأحمد فى "المسند" حديث (٦٥٧٩) والبيهقى فى "الأسماء والصفات" (٣٧٤) قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب.

عنه فى غير هذا الحديث، ففى حديث مسلم عن أبى هريرة ﷺ عن النبى ﷺ أنه كان يقول فى دعائه: "اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء . . ."[(١)] الحديث، واللفظان الآخران لم يثبت واحد منهما فى موضع آخر، ولهذا كان كثير من أهل الحديث إنما يرويه بلفظ القبل كـــالحميدى[(٢)] والبغوى[(٣)] وابن الأثير[(٤)]، وإذا كان كذلك لم يكن فى هذا اللفظ تعرض لابتداء الحـــوادث ولا لأول مخلوق، وأيضا فإنه يقال: كان الله ولم يكن شيء قبله أو معه أو غيره، وكان عرشه علـــى الماء، وكتب فى الذكر كل شيء فأخبر عن هذه الثلاث بالواو وخلق الســـموات والأرض روى بالواو وبـــ "ثم" فظهر أن مقصوده إخباره إياهم ببدء خلق السموات والأرض وما بينهما، وهى المخلوقات التى خلقت فى ستة أيام لا ابتداء خلق ما خلقه الله قبل ذلك، وذكـــر الســـموات والأرض بما يدل على خلقهما وذكر ما قبلهما بما يدل على كونه ووجوده، ولم يتعرض لابتداء خلقه له، وأيضا فإنه إذا كان الحديث قد ورد بهذا وهذا فلا يجزم بأحدهما إلا بدليل، فإذا رجح أحدهما فمن جزم بأن الرسول أراد المعنى الآخر فهو مخطئ قطعا، ولم يأت فى الكتـــاب ولا فى السنة ما يدل على المعنى الآخر، فلا يجوز إثباته بما يظن أنه معنى الحديث، ولم يـــرد كـــان الله ولا شيء معه مجردا، وإنما ورد على السياق المذكور فلا يظن أن معناه الإخبار بتعطيل الـــرب تعالى دائما عن الفعل حتى خلق السموات والأرض، وأيضا فقوله ﷺ: كان الله ولا شيء قبله أو معه أو غيره وكان عرشه على الماء، لا يصح أن يكون المعنى أنه تعـــالى موجـــود وحـــده

(١) تقدم تخريجه.

(٢) هو: عبد الله بن الزبير بن عيسى بن عبيد الله بن أسامة بن عبد الله بن حميد.
قال يعقوب الفسوى: حدثنا الحميدى، وما لقيت أنصح للإسلام وأهله منه.
توفى سنة ٢١٩هـــ.

(٣) هو: العلامة القدوة الحافظ، شيخ الإسلام، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بـــن الفـــراء البغـــوى الشافعى المفسر، صاحب التصانيف مثل "شرح السنة" و "معالم التنـــزيل" و "المصابيح" وغيرها، مـــات سنة ٥١٦هـــ.

(٤) هو: القاضى الرئيس العلامة البارع الأوحد البليغ مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بـــن محمـــد صاحب "جامع الأصول" و "غريب الحديث" قال العلامة أبو شامة: قرأ الحديث والعلم والأدب، وكـــان رئيسا مشاورا.
مات سنة ٦٠٦هـــ.

لا مخلوق معه أصلا، لأن قوله: ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾ يرد ذلك فإن هـــذه الجملـــة وهى: ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾ إما حالية أو معطوفة، وعلى كلا التقديرين فهو مخلـــوق موجود فى ذلك الوقت، فعلم أن المراد ولم يكن شىء من هذا العالم المشهود.

❁ **قوله: له معنى الربوبية ولا مربوب ومعنى الخالق ولا مخلوق:**

ش: يعنى أن الله تعالى موصوف بأنه الرب قبل أن يوجد مربوب وموصوف بأنه خالق قبل أن يوجد مخلوق، قال بعض المشايخ الشارحين: وإنما قال له معنى الربوبية ومعنى الخـــالق دون الخالقية لأن الخالق هو المخرج للشىء من العدم إلى الوجود لا غير، والرب يقتضى معانى كثيرة وهى الملك والحفظ والتدبير والتربية وهى تبليغ الشىء كماله بالتدريج، فلا جرم أتـــى بلفـــظ يشمل هذه المعانى وهى الربوبية. انتهى. وفيه نظر لأن الخلق يكون بمعنى التقدير أيضا.

❁ **قوله: وكما أنه محيى الموتى بعدما أحيا استحق هذا الاسم قبل إحيائهم كذلك اســـتحق اسم الخالق قبل إنشائهم:**

ش: يعنى أنه سبحانه وتعالى موصوف بأنه محيى الموتى قبل إحيائهم فكذلك يوصف بأنـــه خالق قبل خلقهم إلزاما للمعتزلة ومن قال بقولهم، كما حكينا عنهم فيما تقدم، وتقدم تقرير أنه تعالى لم يزل يفعل ما يشاء.

❁ **قوله: ذلك بأنه على كل شىء قدير وكل شىء إليه فقير، وكل أمر عليه يسير، لا يحتاج إلى شىء، ليس كمثله شىء وهو السميع البصير:**

ش: ذلك إشارة إلى ثبوت صفاته فى الأزل قبل خلقه، والكلام على "كـــل" وشمولهـــا، وشمول "كل" فى كل مقام بحسب ما يحتف به من القرائن يأتى فى مسألة الكلام إن شـــاء الله تعالى.

وقد حرفت المعتزلة المعنى المفهوم من قوله تعـلى: ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[(١)]. فقالوا: إنه قادر على كل ما هو مقدور له، وأما نفس أفعال العباد فلا يقدر عليـــها عندهـــم، وتنازعوا هل يقدر على مثلها أم لا؟ ولو كان المعنى على ما قالوا لكان هذا بمنـــزلة أن يقـــال:

(١) سورة البقرة الآية: ٢٨٤.

هو عالم بكل ما يعلمه وخالق لكل ما يخلقه ونحو ذلك من العبارات التى لا فائدة فيها، فسلبوا صفة كمال قدرته على كل شيء.

وأما أهل السنة فعندهم أن الله على كل شىء قدير وكل ممكن فهو مندرج فى هذا وأما المحال لذاته مثل كون الشىء الواحد موجودا معدوما فى حال واحدة فهذا لا حقيقة له، ولا يتصور وجوده ولا يسمى شيئًا باتفاق العقلاء، ومن هذا الباب خلق مثل نفسه وإعدام نفسه، وأمثال ذلك من المحال.

وهذا الأصل هو الإيمان بربوبيته العامة التامة، فإنه لا يؤمن بأنه رب كل شىء إلا من آمن أنه قادر على تلك الأشياء، ولا يؤمن بتمام ربوبيته وكمالها إلا من آمن بأنه على كل شىء قدير، وانما تنازعوا فى المعدوم الممكن هل هو شىء أم لا والتحقيق أن المعدوم ليس بشىء فى الخارج ولكن الله يعلم ما يكون قبل أن يكون ويكتبه وقد يذكره ويخبر به كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴾[1] فيكون شيئا فى العلم والذكر والكتاب لا فى الخارج كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[2]، قال تعالى: ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴾[3] أى لم تكن شيئًا فى الخارج، وإن كان شيئًا فى علمه تعالى، وقال تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴾[4].

وقوله: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ رد على المشبهة، وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ رد على المعطلة، فهو سبحانه وتعالى موصوف بصفات الكمال وليس له فيها شبيه، فالمخلوق وإن كان يوصف بأنه سميع بصير فليس سمعه وبصره كسمع الرب وبصره ولا يلزم من إثبات الصفة تشبيه إذ صفات المخلوق كما يليق به وصفات الخالق كما يليق به.

ولا ننفى عن الله ما وصف به نفسه وما وصفه به أعرف الخلق بربه وما يجب له وما يمتنع عليه وأنصحهم لأمته وأفصحهم وأقدرهم على البيان فإنك إن نفيت شيئا من ذلك كنت كافرا

---

(١) الآية الأولى من سورة الحج.

(٢) سورة يس الآية: ٨٢.

(٣) سورة مريم الآية: ٩.

(٤) سورة الإنسان الآية الأولى.

بما أنزل على محمد ﷺ واذا وصفته بما وصف به نفسه فلا تشبهه بخلقه فليس كمثله شىء، فإذا شبهته بخلقه كنت كافرا به.

قال نعيم بن حماد الخزاعى، شيخ البخارى: من شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس ما وصف الله به نفسه ولا ما وصفه به رسوله تشبيها، وسيأتى فى كلام الشيخ الطحاوى، رحمه الله: ومن لم يتوق النفى والتشبيه زل ولم يصب التنزيه.

وقد وصف الله تعالى نفسه بأن له المثل الاعلى فقال تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾[1] وقال تعالى: ﴿ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[2] فجعل سبحانه مثل السوء المتضمن للعيوب والنقائص وسلب الكمال لاعدائه المشركين وأوثانهم، وأخبر أن المثل الأعلى المتضمن لإثبات الكمال كله لله وحده، فمن سلب صفة الكمال عن الله تعالى فقد جعل له مثل السوء ونفى عنه ما وصف به نفسه من المثل الأعلى، وهو الكمال المطلق المتضمن للأمور الوجودية والمعانى الثبوتية التى كلما كانت أكثر فى الموصوف وأكمل كان بها أكمل وأعلى من غيره.

ولما كانت صفات الرب سبحانه وتعالى أكثر وأكمل كان له المثل الأعلى وكان أحق به من كل ما سواه، بل يستحيل أن يشترك فى المثل الأعلى المطلق اثنان، لأنهما إن تكافآ من كل وجه لم يكن أحدهما أعلى من الآخر، وإن لم يتكافآ فالموصوف به أحدهما وحده، فيستحيل أن يكون لمن له المثل الأعلى مثل أو نظير.

واختلفت عبارات المفسرين فى المثل الأعلى ووفق بين أقوالهم بعض من وفقه الله وهداه فقال: المثل الأعلى يتضمن الصفة العليا وعلم العالمين بها ووجودها العلمى والخبر عنها وذكرها وعبادة الرب تعالى بواسطة العلم والمعرفة القائمة بقلوب عابديه وذاكريه.

فههنا أمور أربعة:

الأول: ثبوت الصفات العليا لله سبحانه وتعالى سواء علمها العباد أو لا وهذا معنى قول من فسرها بالصفة.

---

(١) سورة النحل الآية: ٦٠.

(٢) سورة الروم الآية: ٢٧.

الثانى: وجودها فى العلم والشعور، وهذا معنى قول من قال من السلف والخلف: إنه ما فى قلوب عابديه وذاكريـــه من معرفته وذكره ومحبته وجلاله وتعظيمه وخوفه ورجائه والتوكل عليه والإنابة إليه، وهذا الذي فى قلوبهم من المثل الأعلى لا يشركه فيه غيره أصلا بل يختص بــــه فى قلوبهم كما اختص به فى ذاته، وهذا معنى قول من قال من المفسرين: معناه أن أهل الســموات يعظمونه ويحبونه ويعبدونه، وأهل الأرض كذلك، وإن أشرك به من أشرك وعصاه من عصـــاه وجحد صفاته من جحدها فأهل الأرض معظمون له مجلون خاضعون لعظمته مستكينون لعزتـه وجبروته، قال تعالى: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾[1].

الثالث: ذكر صفاته والخبر عنها وتنــزيهها من العيوب والنقائص والتمثيل.

الرابع: محبة الموصوف بها وتوحيده والاخلاص له والتوكل عليه والإنابة إليه، وكلما كان الإيمان بالصفات أكمل كان هذا الحب والإخلاص أقوى.

فعبارات السلف كلها تدور على هذه المعانى الأربعة، فمن أضل ممن يعارض بين قوله تعالى: ﴿ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ وبين قوله: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ ويستدل بقولــه: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ على نفى الصفات ويعمى عن تمام الآية وهو قوله: ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ حــتى أفضى هذا الضلال ببعضهم وهو احمد بن ابى دؤاد القاضى الى أن اشار على الخليفة المـأمون أن يكتب على ستر الكعبة ليس كمثله شيء وهو العزيز الحكيم، حرف كلام الله لينفى وصفـــــه تعالى بأنه السميع البصير، كما قال الضال الآخر جهم بن صفـــوان: وددت أنى أحـــك مـــن المصحف قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ فنسأل الله العظيم السميع البصير أن يثبتنا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة بمنه وكرمه.

وفى إعراب ﴿ كَمِثْلِهِۦ ﴾ وجوه:

أحدها: أن الكاف صلة زيدت للتأكيد، قال أوس بن حجر:

ليس كمثل الفتى زهير   خلق يوازيه فى الفضائل

وقال آخر:

﴿ ما إن كمثلهم فى الناس من بشر ﴾

---

(١) سورة الروم الآية: ٢٦.

وقال آخر:

❁ ومثلى كمـــثل جـــذوع النخيل ❁

فيكون "مثله" خبر ليس واسمها "شيء" وهذا وجه قوى حسن تعرف العرب معنـــــاه فى لغتها ولا يخفى عنها إذا خوطبت به.

وقد جاء عن العرب أيضا زيادة الكاف للتأكيد فى قول بعضهم:

❁ وصاليـــات ككمـــا يؤثفيـــن ❁

وقول الآخر:

❁ فأصبحت مثل كعصف مأكول ❁

الوجه الثانى: أن الزائد "مثل" أى ليس كهو شيء، وهذا القول بعيد لأن "مثل" اســـــم، والقول بزيادة الحرف للتأكيد أولى من القول بزيادة الاسم.

الثالث: أنه ليس ثم زيادة أصلا بل هذا من باب قولهم مثلك لا يفعل كـــــذا، أى أنـــت لا تفعله، وأتى بـــ "مثل" للمبالغة، وقالوا فى معنى المبالغة هنا أى ليس كمثله مثل لو فرض المثل فكيف ولا مثل له، وقيل غير ذلك، والأول أظهر.

❁ **قوله: خلق الخلق بعلمه:**

ش: خلق أى أوجد وأنشأ وأبدع، ويأتى خلق أيضا بمعنى قدر، والخلق مصدر، وهو هنـــا بمعنى المخلوق، وقوله بعلمه فى محل نصب على الحال أى خلقهم عالما بهم، قال تعـــالى: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ﴾[2] وفى ذلك رد على المعتزلة.

---

(١) سورة الملك الآية: ١٤.

(٢) سورة الأنعام الآيتان: ٥٩، ٦٠.

قال الإمام عبد العزيز المكى[١] صاحب الإمام الشافعى، رحمه الله، وجليسه، فى كتاب الحيدة، الذى حكى فيه مناظرته بشرا المريسى عند المأمون حين سأله عن علمه تعالى فقال بشر: أقول: لا يجهل، فجعل يكرر السؤال عن صفة العلم تقريرا له، وبشر يقول: لا يجهل، ولا يعترف له أنه عالم بعلم، فقال الإمام عبد العزيز: نفى الجهل لا يكون صفة مدح، فإن هذه الاسطوانة لا تجهل، وقد مدح الله تعالى الأنبياء والملائكة والمؤمنين بالعلم لا بنفى الجهل، فمن أثبت العلم فقد نفي الجهل، ومن نفى الجهل لم يثبت العلم، وعلى الخلق أن يثبتوا ما أثبته الله تعالى لنفسه وينفوا ما نفاه ويمسكوا عما أمسك عنه.

والدليل العقلى على علمه تعالى أنه يستحيل ايجاده الأشياء مع الجهل، ولأن إيجاده الأشياء بإرادته والإرادة تستلزم تصور المراد، وتصور المراد هو العلم بالمراد، فكان الإيجاد مستلزما للإرادة، والإرادة مستلزمة للعلم، فالإيجاد مستلزم للعلم، ولا المخلوقات فيها من الإحكام والإتقان ما يستلزم علم الفاعل لها لأن الفعل المحكم المتقن يمتنع صدوره عن غير علم، ولأن من المخلوقات ما هو عالم، والعلم صفة كمال ويمتنع أن لا يكون الخالق عالما، وهذا له طريقان:

أحدهما: أن يقال: نحن نعلم بالضرورة أن الخالق أكمل من المخلوق وأن الواجب أكمل من الممكن، ونعلم ضرورة أنا لو فرضنا شيئين أحدهما عالم والآخر غير عالم كان العالم أكمل فلو لم يكن الخالق عالما لزم أن يكون الممكن أكمل منه، وهو ممتنع.

الثانى: أن يقال: كل علم فى الممكنات التى هى المخلوقات فهو منه، ومن الممتنع أن يكون فاعل الكمال ومبدعه عاريا منه، بل هو أحق به، والله تعالى له المثل الأعلى، ولا يستوى هو والمخلوقات لا فى قياس تمثيلى ولا فى قياس شمولى بل كل ما ثبت للمخلوق من كمال فالخالق به أحق وكل نقص تنزه عنه مخلوق ما فتنزيه الخالق عنه أولى.

---

(١) هو: العلامة المناظر عبد العزيز بن يحيى بن عبد العزيز، من أصحاب الإمام الشافعى، رحمه الله تعالى، كان يلقب بالغول لدمامة وجهه، مات سنة ٢٤٠هـ.

❁ **قوله: وقدر لهم أقدارا:**

ش: قال تعالى: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾[١] وقال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾[٢] وقال تعالى: ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴾[٣] وقال تعالى: ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۝ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾[٤].

وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما عن النبى ﷺ أنه قال: "قدر الله مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء"[٥].

❁ **قوله: وضرب لهم آجالا:**

ش: يعنى أن الله سبحانه وتعالى قدر آجال الخلائق بحيث اذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون قال تعالى: ﴿ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾[٦] وقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا ﴾[٧].

وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود قال: قالت أم حبيبة زوج النبى ﷺ ورضى عنها: اللهم أمتعنى بزوجى رسول الله، وبأبى أبى سفيان، وبأخى معاوية، قال: فقال النبى ﷺ: "قد سألت الله لآجال مضروبة وأيام معدودة وأرزاق مقسومة، لن يعجل شيئا قبل أجله، ولن يؤخر شيئا عن أجله، ولو كنت سألت الله أن يعيذك من عذاب فى النار وعذاب فى القبر كان خيرا وأفضل"[٨].

---

(١) سورة الفرقان الآية: ٢.

(٢) سورة القمر الآية: ٤٩.

(٣) سورة الأحزاب الآية: ٣٨.

(٤) سورة الأعلى الآيتان: ٢، ٣.

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) سورة يونس الآية: ٤٩.

(٧) سورة آل عمران الآية: ١٤٥.

(٨) **صحيح:** أخرجه مسلم فى "كتاب القدر" حديث (٢٦٦٣) وأحمد فى "المسند" (١/ ٣٩٠) وابن أبى عاصم فى "كتاب السنة" رقم (٢٦٢، ٤١٣، ٤٦٦) قال الشيخ الألبانى: إسناده صحيح، رجاله كلهم ثقات، رجال الشيخين، غير المغيرة بن أحمد اليشكرى فهو على شرط مسلم وحده.

فالمقتول ميت بأجله، فعلم الله تعالى وقدر وقضى أن هذا يموت بسبب المرض وهذا بسبب القتل وهذا بسبب الهدم وهذا بسبب الحرق وهذا بالغرق . . . إلى غير ذلك من الأسباب، والله سبحانه خلق الموت والحياة، وخلق سبب الموت والحياة، وعند المعتزلة المقتول مقطوع عليه أجله ولو لم يقتل لعاش إلى أجله، فكأن له أجلان، وهذا باطل، لأنه لا يليق أن ينسب إلى الله تعالى أنه جعل له أجلا يعلم أنه لا يعيش إليه البتة، أو يجعل أجله أحد الأمرين كفعل الجاهل بالعواقب ووجوب القصاص والضمان على القاتل لارتكابه المنهى عنه ومباشرته السبب المحظور، وعلى هذا يخرج قوله ﷺ: "صلة الرحم تزيد فى العمر"[١] أى سبب طول العمر، وقد قدر الله أن هذا يصل رحمه فيعيش بهذا السبب إلى هذه الغاية، ولولا ذلك السبب لم يصل إلى هذه الغاية، ولكن قدر هذا السبب وقضاه، وكذلك قدر أن هذا يقطع رحمه فيعيش إلى كذا، كما قلنا فى القتل وعدمه.

فإن قيل: هل يلزم من تأثير صلة الرحم فى زيادة العمر ونقصانه تأثير الدعاء فى ذلك أم لا؟

فالجواب: أن ذلك غير لازم لقوله ﷺ لأم حبيبة رضى الله عنها: "قد سألت الله تعالى لآجال مضروبة . . ." الحديث كما تقدم، فعلم أن الأعمار مقدرة لم يشرع الدعاء بتغييرها بخلاف النجاة من عذاب الآخرة فإن الدعاء مشروع له نافع فيه، ألا ترى أن الدعاء بتغيير العمر لما تضمن النفع الأخروى شرع، كما فى الدعاء الذي رواه النسائى من حديث عمار بن ياسر عن النبى ﷺ أنه قال: "اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحينى ما كانت الحياة خيرا لى، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيرا لى . . ."[٢] إلى آخر الدعاء، ويؤيد هذا ما رواه الحاكم فى صحيحه[٣] من حديث ثوبان رضي الله عنه عن النبى ﷺ "لا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد فى العمر إلا البر، وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه"[٤]، وفى الحديث رد على من يظن أن النذر

---

(١) صحيح: أخرجه القضاعى فى "مسند الشهاب" حديث (١٠٠) وأبو يعلى فى "المسند" وغيرهما بطرق فى كثير منها مقال، ولكن له شواهد صحيحة.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) هذا اللفظ لا يصح إطلاقه على مستدرك الحاكم، فإن فيه الصحيح والحسن والضعيف، بل والموضوع.

(٤) حسن: أخرجه الترمذى فى "كتاب القدر" حديث (٤١٣٩) وابن ماجه فى "كتاب الفتن" حديث (٤٠٢٢) وأحمد فى "المسند" (٥/ ٢٧٧، ٢٨٠، ٢٨٢) وابن حبان فى صحيحه حديث (١٠٩٠) وابن =

سبب فى دفع البلاء وحصول النعماء، وقد ثبت فى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه نهى عن النذر وقال: "إنه لا أتى بخير، وإنما يستخرج به من البخيل"(١).

واعلم أن الدعاء يكون مشروعًا نافعًا فى بعض الأشياء دون بعض، وكذلك هو، ولهذا لا يجيب الله المعتدين فى الدعاء، وكان الامام أحمد رحمه الله يكره أن يُدعَى له بطول العمر ويقول هذا أمر قد فرغ منه.

وأما قوله تعالى: ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ ﴾(٢) فقد قيل فى الضمير المذكور فى قوله تعالى: ﴿ مِنْ عُمُرِهِۦٓ ﴾ أنه بمنزلة قولهم عندى درهم ونصفه أى ونصف درهم آخر، فيكون المعنى لا ينقص من عمر معمر آخر، وقيل الزيادة والنقصان فى الصحف التى فى أيدى الملائكة، وحمل قوله تعالى: ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ۝٣٨ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ ۝٣٩ ﴾(٣) على أن المحو والإثبات من الصحف التى فى أيدى الملائكة، وأن قوله: ﴿ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ اللوح المحفوظ، ويدل على هذا الوجه سياق الآية وهو قوله: ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ ثم قال: ﴿ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ﴾(٤) أى من ذلك الكتاب ﴿ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ أى أصله وهو اللوح المحفوظ، وقيل: ﴿ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ من الشرائع وينسخه ﴿ وَيُثْبِتُ ﴾ ما يشاء فلا ينسخه، والسياق أدل على هذا الوجه من الوجه الأول وهو قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ۝٣٨ ﴾ فأخبر تعالى أن الرسول لا أتى بالآيات من قبل نفسه بل من عند الله، ثم قال: ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ۝٣٨ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ﴾ أى إن الشرائع لها أجل وغاية تنتهى

- أبى شيبة فى صحيحه (١٠/ ٤٤٢) و "جامع مسانيد أبى حنيفة" (١/ ١١٣) والبغوى فى "شرح السنة" (١٣/ ٦) والطحاوى فى "مشكل الآثار" (٤/ ١٦٩) قال فى "مجمع الزوائد": إسناده حسن، وقال الترمذى: هذا حديث حسن غريب، وحسنه الشيخ الألبانى فى الصحيحة حديث (١٥٤).

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب القدر" حديث (٦٦٠٨) ومسلم فى "كتاب النذر" حديث (١٦٣٩) وأبو داود (٣٢٨٧) وابن ماجه (٢١٢٢).

(٢) سورة فاطر الآية: ١١.

(٣) سورة الرعد الآيتان: ٣٨، ٣٩.

(٤) سورة الرعد الآية: ٣٩.

إليها ثم تنسخ بالشريعة الأخرى فينسخ الله ما يشاء من الشرائع عند انقضاء الأجل ويثبت ما يشاء، وفى الآية أقوال أخرى، والله أعلم بالصواب.

❁ قوله: ولم يخف عليه شيء قبل أن يخلقهم وعلم ما هم عاملون قبل أن يخلقهم:

ش: فإنه سبحانه يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن أن لو كان كيف يكون كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ ﴾[1] وإن كان يعلم أنّهم لا يُردون ولكن أخبر أنّهم لو رُدوا لعادوا كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾[2] وفى ذلك رد على الرافضة والقدرية والذين قالوا إنه لا يعلم الشيء قبل أن يخلقه ويوجده وهى من فروع مسألة القدر، وسيأتى لها زيادة بيان إن شاء الله تعالى.

❁ قوله: وأمرهم بطاعته ونهاهم عن معصيته:

ش: ذكر الشيخ الأمر والنهى بعد ذكره الخلق والقدر إشارة إلى أن الله تعالى خلق الخلق لعبادته كما قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[3] وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾[4].

❁ قوله: وكل شيء يجرى بتقديره ومشيئته، ومشيئته تنفذ، لا مشيئة للعباد إلا ما شاء لهم، فما شاء لهم كان وما لم يشأ لم يكن:

ش: قال تعالى: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾[5] وقال: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[6] وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾[7] وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ﴾[8] وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾[9] وقال: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ

---

(١) سورة الأنعام الآية: ٢٨.
(٢) سورة الأنفال الآية: ٢٣.
(٣) سورة الذاريات الآية: ٥٦.
(٤) سورة الملك الآية: ٢.
(٥) سورة الإنسان الآية: ٣٠.
(٦) سورة التكوير الآية: ٢٩.
(٧) سورة الأنعام الآية : ١١١.
(٨) سورة اللأنعام الآية: ١١٢.
(٩) سورة يونس الآية: ٩٩.

﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾(١) وقال تعالى حكاية عن نوح عليه السلام إذ قال لقومه: ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ﴾(٢) وقال تعالى: ﴿ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾(٣) إلى غير ذلك من الأدلة على أنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وكيف يكون فى ملكه ما لا يشاء، ومن أضل سبيلا وأكفر ممن يزعم أن الله شاء الإيمان من الكافر والكافر شاء الكفر فغلبت مشيئة الكافر مشيئة الله، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا.

فإن قيل: يشكل على هذا قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا ﴾(٤) الآية، وقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ﴾(٥) الآية، وقوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾(٦) فقد ذمهم الله تعالى حيث جعلوا الشرك كائنًا منهم بمشيئة الله، وكذلك ذم إبليس حيث أضاف الإغواء إلى الله تعالى إذ قال: ﴿ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾(٧).

قيل: قد أجيب على هذا بأجوبة من أحسنها أنه أنكر عليهم ذلك لأنهم احتجوا بمشيئته على رضاه ومحبته وقالوا: لو كره ذلك وسخطه لما شاءه فجعلوا مشيئته دليل رضاه فرد الله عليهم ذلك، أو أنه أنكر عليهم اعتقادهم أن مشيئة الله دليل على أمره به أو أنه أنكر عليهم بمعارضته شرعه وأمره الذى أرسل به رسله وأنزل به كتبه بقضائه وقدره فجعلوا المشيئة العامة دافعة للأمر فلم يذكروا المشيئة على جهة التوحيد وإنما ذكروها معارضين بها لأمره دافعين بها لشرعه كفعل الزنادقة والجهال إذا أُمروا أو نُهوا احتجوا بالقدر، وقد احتج سارق على عمر رضي الله عنه بالقدر فقال: وأنا أقطع يدك بقضاء الله وقدره، يشهد لذلك قوله تعالى فى الآية: ﴿ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ فعلم أن مرادهم التكذيب، فهو من قِبَل الفعل من أين له أن الله لم يقدره أطلع الغيب(٨).

---

(١) سورة الأنعام الآية: ١٢٥.
(٢) سورة هود الآية: ٣٤.
(٣) سورة الأنعام الآية: ٣٩.
(٤) سورة الأنعام الآية: ١٤٨.
(٥) سورة النحل الآية: ٣٥.
(٦) سورة الزخرف الآية: ٢٠.
(٧) سورة الحجر الآية: ٣٩.
(٨) سورة الأنعام الآية: ١٤٨.

فإن قيل: فما يقولون فى احتجاج آدم على موسى عليهما السلام بالقدر إذ قـــال لــه: أتــلومنى على أمر قد كتبه الله علىَّ قبل أن أُخلق بأربعين عامًا، وشهد النبى ﷺ أن آدم حـج موسى، أى غلب عليه بالحجة.

قيل: نتلقاه بالقبول والسمع والطاعة لصحته عن رســـول الله ﷺ ولا نتلقــاه بــالرد والتكذيب للرواية كما فعلت القدرية ولا بالتأويلات الباردة، بل الصحيـــح أن آدم لم يحتــج بالقضاء والقدر على الذنب، وهو كان أعلم بربه وذنبه، بل آحاد بنيه من المؤمنـــين لا يحتــج بالقدر فإنه باطل، وموسى عليه السلام كان أعلم بأبيه وبذنبه من أن يلوم آدم على ذنب قــد تاب منه وتاب الله عليه واجتباه وهداه، وإنما وقع اللوم على المصيبة التى أخرجت أولاده مـــن الجنة فاحتج آدم بالقدر على المصيبة لا على الخطيئة، فإن القدر يُحتج به عند المصائب لا عنــد المعائب، وهذا المعنى أحسن ما قيل فى الحديث، فما قُدر من المصائب يجب الاستسلام له فإنــه من تمام الرضا بالله ربًّا، وأما الذنوب فليس للعبد أن يذنب، وإذا أذنب فعليه أن يستغفر ويتوب فيتوب من المعائب ويصبر على المصائب، قال تعـــالى: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾[1] وقال تعالى: ﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ﴾[2].

وأما قول إبليس: ﴿ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى ﴾ إنما ذم على احتجاجه بالقدر لا على اعترافـــه بالمقدر وإثباته له، ألم تسمع قول نوح عليـــه الســـلام: ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾[3].

ولقد أحسن القائل[4]:

فما شئتَ كان وإن لم أشأ ... وما شئتُ إن لم تشأ لم يكن

---

(١) سورة غافر الآية: ٥٥.

(٢) سورة آل عمران الآية: ١٢٠.

(٣) سورة هود الآية: ٣٤.

(٤) القائل هو الإمام الشافعي، رحمه الله تعالى.

وعن وهب بن منبه[(١)] أنه قال: نظرت فى القدر فتحيرت ثم نظرت فيه فتحيرت ووجدت أعلم الناس بالقدر أكفهم عنه وأجهل الناس بالقدر أنطقهم به.

❁ قوله: يهدى من يشاء ويعصم ويعافى فضلا، ويضل من يشاء ويخذل ويبتلى عدلا:

ش: هذا رد على المعتزلة فى قولهم بوجوب فعل الأصلح للعبد على الله وهى مسألة الهدى والضلال، قالت المعتزلة: الهدى من الله بيان طريق الصواب والإضلال تسمية العبد ضالا وحكمه تعالى على العبد بالضلال عند خلق العبد الضلال فى نفسه، وهذا مبنى على أصلهم الفاسد أن أفعال العباد مخلوقة لهم، والدليل على ما قلناه قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾[(٢)] ولو كان الهدى بيان الطريق لما صح هذا النفى عن نبيه لأنه ﷺبين الطريق لمن أحب وأبغض، وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾[(٣)] ﴿ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾[(٤)] ولو كان الهدى من الله البيان وهو عام فى كل نفس لما صح التقييد بالمشيئة، وكذلك قوله: ﴿ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾[(٥)] وقوله: ﴿ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ ﴾[(٦)].

❁ قوله: وكلهم يتقلبون فى مشيئته بين فضله وعدله:

ش: فإنهم كما قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ﴾[(٧)] فمن هداه الله إلى الإيمان فبفضله وله الحمد، ومن أضله فبعدله وله الحمد، وسيأتى لهذا المعنى زيادة إيضاح إن شاء الله تعالى، فإن الشيخ رحمه الله لم يجمع الكلام فى القدر فى مكان واحد بل فرقه، فأتيت به على ترتيبه.

---

(١) هو: وهب بن منبه بن كامل بن سيج بن ذى كبار، العلامة الأخبارى القصصى، أبو عبد الله الأبناوى.
عن المثنى بن الصباح قال: لبث وهب بن منبه أربعين سنة لم يسب شيئا فيه الروح، ولبث عشرين سنة لم يجعل بين العشاء والصبح وضوءا.
توفى سنة ١١٠هـ.

(٢) سورة القصص الآية: ٥٦.
(٣) سورة السجدة الآية: ١٣.
(٤) سورة المدثر الآية: ٣١.
(٥) سورة الصافات الآية: ٥٧.
(٦) سورة الأنعام الآية: ٣٩.
(٧) سورة التغابن الآية: ٢.

❁ **قوله: وهو متعال عن الأضداد والأنداد:**

ش: الضد: المخالف، والند: المثل، فهو سبحانه لا معارض له، بل ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولا مثل له كما قال تعالى: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾[١] ويشير الشيخ رحمه الله بنفى الضد والند إلى الرد على المعتزلة فى زعمهم أن العبد يخلق فعله.

❁ **قوله: لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه ولا غالب لأمره:**

ش: أى لا يرد قضاء الله راد ولا يعقب أى لا يؤخر حكمه مؤخر ولا يغلب أمره غالب بل هو الله الواحد القهار.

قوله: آمنا بذلك كله وأيقنا أن كلا من عنده:

ش: أما الإيمان فسيأتى الكلام عليه إن شاء الله تعالى، والإيقان[٢]: والاستقرار، من قر الماء فى الحوض إذا استقر والتنوين فى "كلا" بدل الإضافة، أى كل كائن محدث من عند الله أى بقضائه وقدره وإرادته ومشيئته وتكوينه، وسيأتى الكلام على ذلك فى موضعه إن شاء الله تعالى.

❁ **قوله: وإن محمدا عبده المصطفى ونبيه المجتبى ورسوله المرتضى:**

ش: الاصطفاء والاجتباء والارتضاء متقارب المعنى، واعلم أن كمال المخلوق فى تحقيق عبوديته لله تعالى، وكلما ازداد العبد تحقيقا للعبودية ازداد كماله وعلت درجته، ومن توهم أن المخلوق يخرج عن العبودية بوجه من الوجوه وأن الخروج عنها أكمل فهو من أجهل الخلق وأضلهم، قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾[٣] إلى غير ذلك من الآيات، وذكر الله نبيه ﷺ باسم العبد فى أشرف المقامات فقال فى ذكر الإسراء: ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾[٤] وقال تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ ﴾[٥] وقال

(١) سورة الإخلاص الآية: ٤.
(٢) اليقين: العلم الذى ليس معه شك. "المعجم الوسيط" (٢/ ١٠٦٦).
(٣) سورة الأنبياء الآية: ٢٦.
(٤) سورة الإسراء الآية الأولى.
(٥) سورة الجن الآية: ١٩.

تعالى: ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾[(١)] وقال تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾[(٢)] وبذلك استحق التقديم على الناس فى الدنيا والآخرة، ولذلك يقول المسيح عليه السلام يوم القيامة إذا طلبوا منه الشفاعة بعد الأنبياء عليهم السلام: "اذهبوا إلى محمد، عبد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر"[(٣)] فحصلت له تلك المرتبة بتكميل عبوديته لله تعالى.

وقوله: وإن محمدا، بكسر الهمزة عطفا على قوله إن الله واحد لا شريك له، لأن الكل معمول القول، أعنى قوله: تقول فى توحيد الله. . .

والطريقة المشهورة عند أهل الكلام والنظر: تقرير نبوة الأنبياء بالمعجزات لكن كثير منهم لا يعرف نبوة الأنبياء إلا بالمعجزات، وقرروا ذلك بطرق مضطربة والتزم كثير منهم إنكار خرق العادات لغير الأنبياء حتى أنكروا كرامات الأولياء والسحر ونحو ذلك.

ولا ريب أن المعجزات دليل صحيح، لكن الدليل غير محصور فى المعجزات فإن النبوة إنما يدعيها أصدق الصادقين أو أكذب الكاذبين، ولا يلتبس هذا بهذا إلا على أجهل الجاهلين بل قرائن أحوالهما تعرب عنهما وتعرف بهما، والتمييز بين الصادق والكاذب له طرق كثيرة فيما دون دعوى النبوة فكيف بدعوة النبوة، وما أحسن ما قال حسان ﷺ:

لو لم يكن فيه آيات مبينة   كانت بديهته تأتيك بالخبر

وما من أحد ادعى النبوة من الكذابين إلا وقد ظهر عليه من الجهل والكذب والفجور واستحواذ الشيطان عليه ما ظهر لمن له أدنى تمييز، فإن الرسول لا بد أن يخبر الناس بأمور ويأمرهم بأمور، ولا بد أن يفعل أمورا يبين بها صدقه، والكاذب يظهر فى نفس ما يأمر به ويخبر عنه وما يفعله ما يبين به كذبه من وجوه كثيرة، والصادق ضده، بل كل شخصين ادعيا أمرا أحدهما صادق والآخر كاذب لا بد أن يظهر صدق هذا وكذب هذا ولو بعد مدة، إذ الصدق مستلزم للبر والكذب مستلزم للفجور كما فى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال: "عليكم

(١) سورة النجم الآية: ١٠.

(٢) سورة البقرة الآية: ٢٣.

(٣) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب التفسير" حديث (٤٤٧٦) ومسلم فى "كتاب الإيمان" حديث (١٩٣) وابن ماجه فى "كتاب الزهد" حديث (٤٣١٢) وابن أبى شيبة (١/ ٤٥٠) وابن خزيمة (ص: ٢٤٧) وابن أبى عاصم فى "السنة" (ص: ٣٥٩) رقم (٨٠٤).

بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البر، وإن البر يهدى إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عن الله صديقا، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدى إلى الفجور، وإن الفجور يهدى إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عن الله كذابا"[١] ولهذا قال تعالى: ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ۝ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ ۝ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ۝ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ۝ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ۝ ﴾[٢] فالكهان ونحوهم وإن كانوا أحيانا يخبرون بشيء من المغيبات ويكون صدقا فمعهم من الكذب والفجور ما يبين ان الذى يخبرون به ليس عن ملك وليسوا بأنبياء، ولهذا لما قال النبى ﷺ لابن صياد: "قد خبأت لك خبيئا" فقال: هو الدخ[٣]، قال له النبى ﷺ: "اخسأ فلن تعدو قدرك" يعنى إنما أنت كاهن، وقد قال للنبى ﷺ: "يأتينى صادق وكاذب"[٤] وقال: "أرى عرشا على الماء"[٥] وذلك هو عرش الشيطان، وبين أن الشعراء يتبعهم الغاوون، والغاوى الذى يتبع هواه وشهوته، وإن كان ذلك مضرا له فى العاقبة.

فمن عرف الرسول وصدقه ووفاءه ومطابقة قوله لعمله علم علما يقينا انه ليس بشاعر ولا كاهن.

والناس يميزون بين الصادق والكاذب بأنواع من الأدلة، حتى فى المدعى للصناعات والمقالات، كمن يدعى الفلاحة والنساجة والكتابة وعلم النحو والطب والفقه وغير ذلك، والنبوة مشتملة على علوم وأعمال لا بد أن يتصف الرسول بها وهى أشرف العلوم وأشرف

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم فى "كتاب الفضائل" حديث (٢٦٠٧) وأبو داود فى "كتاب الأدب" حديث (٤٩٨٩) والترمذى فى "كتاب البر والصلة" حديث (١٩٧١) وأحمد فى "المسند" حديث (٣٦٣٨) و (١٧) قال أبو عيسى: وفى الباب عن أبى بكر الصديق وعمر وعبد الله بن الشخير وابن عمر ﷺ، وقال أيضا: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) سورة الشعراء الآيات: ٢٢١ : ٢٢٦.

(٣) الدخ: الدخان. "المعجم الوسيط" (١/ ٢٧٤).

(٤) صحيح: أخرجه البخارى فى "كتاب الجنائز" حديث (١٣٥٤) وأطرافه (٣٠٥٥، ٦١٧٣، ٦٦١٨) ومسلم فى "كتاب الفتن" (٢٩٣٠) وأبو داود فى "كتاب الملاحم" حديث (٤٣٢٩) والترمذى فى "كتاب الفتن" حديث (٢٢٤٩) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٥) صحيح: أخرجه مسلم فى "كتاب الفتن" حديث (٢٩٢٥) والترمذى فى "كتاب الفتن" حديث (٢٢٤٧) وقال: وفى الباب عن عمر وحسين بن على وابن عمر وأبى ذر وابن مسعود وجابر.

الأعمال فكيف يشتبه الصادق فيها بالكاذب، ولا ريب أن المحققين على أن خبر الواحد والاثنين والثلاثة قد يقترن به من القرائن ما يحصل معه العلم ضرورى كما يعرف الرجل رضى الرجل وحبه وبغضه وفرحه وحزنه وغير ذلك مما فى نفسه بأمور تظهر على وجهه قد لا يمكن التعبير عنها، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ﴾[1] ثم قال: ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ﴾[2] وقد قيل: ما أسر أحد سريرة إلا أظهرها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه، فإذا كان صدق المخبر وكذبه يعلم بما يقترن من القرائن فكيف بدعوى المدعى أنه رسول الله كيف يخفى صدق هذا من كذبه وكيف لا يتميز الصادق فى ذلك من الكاذب بوجوه من الأدلة.

ولهذا لما كانت خديجة رضى الله عنها تعلم من النبى ﷺ أنه الصادق البار قال لها لما جاءه الوحى: "إنى قد خشيت على نفسى" فقالت: "كلا، والله لا يخزيك الله، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقرى الضيف، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق"[3]، فهو لم يخف من تعمد الكذب، فهو يعلم من نفسه ﷺ أنه لم يكذب وإنما خاف أن يكون قد عرض له عارض سوء، وهو المقام الثانى، فذكرت خديجة ما ينفى هذا وهو ما كان مجبولا عليه من مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وقد علم من سنة الله أن من جبله على الأخلاق المحمودة ونزهه عن الأخلاق المذمومة فإنه لا يخزيه.

وكذلك قال النجاشى لما استخبرهم عما يخبر به واستقرأهم القرآن فقرأوا عليه: "إن هذا والذى جاء به موسى عليه السلام ليخرج من مشكاة واحدة"[4] وكذلك ورقة بن نوفل لما أخبره النبى ﷺ بما رآه، وكان ورقة قد تنصر وكان يكتب الإنجيل بالعربية فقالت له خديجة:

---

(١) سورة محمد الآية: ٣٠.

(٢) سورة محمد الآية: ٣٠.

(٣) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب بدء الوحى" حديث (٣) وأطرافه فى (٣٣٩٢، ٤٩٥٣، ٤٩٥٥، ٤٩٥٦، ٤٩٥٧، ٦٩٨٢) ومسلم فى "كتاب الإيمان" حديث (١٦٠) والترمذى فى "كتاب المناقب" حديث (٣٦٣٦).

(٤) **حسن**: أخرجه ابن إسحاق فى "السيرة" (١/ ٣٥٧، ٣٦٣) وأحمد فى "المسند" (١/ ٢٠١) وحسنه الشيخ الألبانى، رحمه الله تعالى.

أى عم، اسمع من ابن أخيك ما يقول، فأخبره النبى ﷺ بما رأى فقال: "هذا هو الناموس الذى كان يأتى موسى"(١).

وكذلك هرقل ملك الروم فإن النبى ﷺ لما كتب إليه كتابا يدعوه فيه إلى الإسلام طلب من كان هناك من العرب، وكان أبو سفيان قد قدم فى طائفة من قريش فى تجارة إلى الشام وسألهم عن أحوال النبى ﷺ فسأل أبا سفيان وأمر الباقين إن كذب أن يكذبوه فصاروا بسكوتهم موافقين له فى الإخبار، سألهم هل كان فى آبائه من ملك فقالوا: لا، قال: هل قال هذا القول أحد قبله؟ فقالوا: لا، وسألهم أهو ذو نسب فيكم؟ فقالوا: نعم، وسألهم هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فقالوا: لا، ما جربنا عليه كذبا، وسألهم هل اتبعه ضعفاء الناس أم أشرافهم فذكروا أن الضعفاء اتبعوه، وسألهم هل يزيدون أم ينقصون فذكروا أنهم يزيدون، وسألهم هل يرجع أحد منهم عن دينه سخطة له بعد أن يدخل فيه فقالوا: لا، وسألهم هل قاتلتموه؟ قالوا: نعم؟ وسألهم عن الحرب بينهم وبينه فقالوا يدال علينا مرة وندال عليه أخرى، وسألهم هل يغدر فذكروا أنه لا يغدر، وسألهم بماذا يأمركم؟ فقالوا: يأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئا وينهانا عما كان يعبد آباؤنا، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة، وهذه أكثر من عشر مسائل.

ثم بين لهم ما فى هذه المسائل من الأدلة، فقال: سألتكم هل كان فى آبائه من ملك فقلتم: لا، قلت: لو كان فى آبائه من ملك لقلت رجل يطلب ملك أبيه، وسألتكم هل قال هذا القول فيكم أحد قبله فقلتم: لا، فقلت: لو قال هذا القول أحد قبله لقلت رجل ائتم بقول قيل قبله، وسألتكم هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال فقلتم: لا، فقلت: قد علمت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله تعالى، وسألتكم أضعفاء الناس يتبعونه أم أشرافهم فقلتم: ضعفاؤهم، وهم أتباع الرسل، يعنى فى أول أمرهم، ثم قال: وسألتكم هل يزيدون أم ينقصون فقلتم: بل يزيدون، وكذلك الإيمان حتى يتم، وسألتكم هل يرتد أحد منهم عن دينه سخطة له بعد أن يدخل فيه فقلتم: لا، وكذلك الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب لا يسخطه أحد، وهذا من أعظم علامات الصدق والحق، فإن الكذب والباطل لا بد أن ينكشف

(١) تقدم تخريجه.

فى آخر الأمر فيرجع عنه أصحابه ويمتنع عنه من لم يدخل فيه، والكذب لا يروج إلا قليلا ثم ينكشف، وسألتكم كيف الحرب بينكم وبينه فقلتم: إنها دول، وكذلك الرسل تبتلى وتكون العاقبة لها، قال: وسألتكم هل يغدر فقلتم: لا، وكذلك الرسل لا تغدر(١).

وهو لما كان عنده من علمه بعادة الرسل وسنة الله فيهم أنه تارة ينصرهم وتارة يبتليهم وأنهم لا يغدرون علم أن هذه علامات الرسل وأن سنة الله فى الأنبياء والمؤمنين أن يبتليهم بالسراء والضراء لينالوا درجة الشكر والصبر.

كما فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال: "والذى نفسى بيده لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له"(٢).

والله تعالى قد بين فى القرآن ما فى إدالة العدو عليهم يوم أحد من الحكمة فقال سبحانه: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾(٣) وقال تعالى: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ ﴾(٤) إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث الدالة على سنته فى خلقه وحكمته التى بهرت العقول.

قال: وسألتكم عما يأمر به فذكرتم أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف والصلة وينهاكم عما كان يعبد آباؤكم وهذه صفة نبى، وقد كنت أعلم أن نبيا يبعث ولم أكن أظنه منكم، ولوددت أنى أخلص إليه، ولولا ما أنا فيه من الملك لذهبت إليه، وإن يكن ما تقول حقا فسيملك موضع قدمى هاتين، وكان المخاطب بذلك أبو سفيان بن حرب، وهو حينئذ كافر من أشد الناس بغضا وعداوة للنبى ﷺ، قال أبو سفيان بن حرب: فقلت لأصحابى ونحن خروج: لقد أمر أمر ابن أبى كبشة، إنه ليعظمه ملك بنى الأصفر، وما زلت موقنا بأن أمر النبى ﷺ سيظهر حتى أدخل الله على الإسلام وأنا كاره.

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب بدء الوحى" حديث (٧).

(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم فى "كتاب الزهد" حديث (٢٩٩٩).

(٣) سورة آل عمران الآية: ١٣٩.

(٤) سورة العنكبوت الآيتان: ١، ٢.

ومما ينبغى أن يُعرف أن ما يحصل فى القلب بمجموع أمور قد لا يستقل بعضها به بل ما يحصل للإنسان من شبع ورى وشكر وفرح وغم فأمور مجتمعة لا يحصل ببعضها لكن ببعضها قد يحصل بعض الأمر.

وكذلك العلم بخبر من الأخبار فإن خبر الواحد يحصل للقلب نوع ظن ثم الآخر يقويه إلى أن ينتهى إلى العلم حتى يتزايد ويقوى، وكذلك الأدلة على الصدق والكذب ونحو ذلك.

وأيضا فإن الله سبحانه أبقى فى العالم الآثار الدالة على ما فعله بأنبيائه والمؤمنين من الكرامة وما فعله بمكذبيهم من العقوبة، كثبوت الطوفان وإغراق فرعون وجنوده، ولما ذكر سبحانه قصص الأنبياء نبيا بعد نبى فى سورة الشعراء كقصة موسى وإبراهيم ونوح ومن بعده يقول فى آخر كل قصة: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ ﴾[1].

وبالجملة فالعلم بأنه كان فى الأرض من يقول إنه رسول الله وأن أقوامًا اتبعوهم وأن أقوامًا خالفوهم، وأن الله نصر الرسل والمؤمنين وجعل العاقبة لهم، وعاقب أعداءهم هو من أظهر العلوم المتواترة وأجلاها، ونقل أخبار هذه الأمور أظهر وأوضح من نقل أخبار من مضى من الأمم من ملوك الفرس وعلماء الطب كبقراط وجالينوس وبطليموس وسقراط وأفلاطون وأرسطو وأتباعه.

ونحن اليوم إذا علمنا بالتواتر من أحوال الأنبياء وأوليائهم وأعدائهم علمنا يقينا أنّهم كانوا صادقين على الحق من وجوه متعددة منها أنّهم أخبروا الأمم بما سيكون من انتصارهم وخذلان أولئك وبقاء العاقبة لهم، ومنها ما أحدثه الله لهم من نصرهم وإهلاك عدوهم إذا عُرف الوجه الذى حصل عليه كغرق فرعون وغرق قوم نوح وبقية أحوالهم عُرف صدق الرسل، ومنها أن من عرف ما جاءت به الرسل من الشرائع وتفاصيل أحوالها تبين له أنّهم أعلم الخلق وأنه لا يحصل مثل ذلك من كذاب جاهل وأن فيما جاءوا به من المصلحة والرحمة والهدى والخير ودلالة الخلق على ما ينفعهم ومنع ما يضرهم ما يبين أنه لا يصدر إلا عن راحم بر يقصد غاية الخير والمنفعة للخلق.

---

(١) سورة الشعراء الآيتان: ٦٧، ٦٨.

ولذكر دلائل نبوة محمد ﷺ من المعجزات وبسطها موضع آخر، وقد أفردها الناس بمصنفات كالبيهقى[(١)] وغيره.

بل إنكار رسالته ﷺ طعن فى الرب تبارك وتعالى ونسبة له إلى الظلم والسفه، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا، بل جحد للرب بالكلية وإنكار.

وبيان ذلك أنه إذا كان محمد عندهم ليس بنبى صادق بل ملك ظالم فقد تهيأ له أن يفترى على الله ويتقوّل عليه ويستمر حتى يحلل ويحرم، ويفرض الفرائض ويشرع الشرائع وينسخ الملل ويضرب الرقاب ويقتل أتباع الرسل، وهم أهل الحق، ويسبى نساءهم ويغنم أموالهم وذراريهم وديارهم، ويتم له ذلك حتى يفتح الأرض وينسب ذلك كله إلى أمر الله له به ومحبته له، والرب تعالى يشاهده وهو يفعل بأهل الحق وهو مستمر فى الافتراء عليه ثلاثا وعشرين سنة وهو مع ذلك كله يؤيده وينصره ويعلى أمره ويمكن له من أسباب النصر الخارجة عن عادة البشر، وأبلغ من ذلك أنه يجيب دعواته ويهلك أعداءه ويرفع له ذكره هذا وهو عندهم فى غاية الكذب والافتراء والظلم فإنه لا أظلم ممن كذب على الله وأبطل شرائع أنبيائه وبدَّلها وقتل أولياءه واستمرت نصرته عليهم دائما، والله تعالى يقره على ذلك ولا يأخذ منه باليمين ولا يقطع منه الوتين، فيلزمهم أن يقولوا: لا صانع للعالم ولا مدبر، ولو كان له مدبر قدير حكيم لأخذ على يديه ولقابله أعظم مقابلة وجعله نكالا للصالحين إذ لا يليق بالملوك غير ذلك فكيف بملك الملوك وأحكم الحاكمين، ولا ريب أن الله تعالى قد رفع له ذكره وأظهر دعوته والشهادة له بالنبوة على رءوس الأشهاد فى سائر البلاد، ونحن لا ننكر أن كثيرا من الكذابين قام فى الوجود وظهرت له شوكة، ولكن لم يتم أمره ولم تطل مدته، بل سلط الله عليه رسله وأتباعهم وقطعوا دابره واستأصلوه، هذه سنة الله التى قد خلت من قبل حتى إن الكفار يعلمون ذلك، قال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ۝٣٠ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ۝٣١ ﴾[(٢)] أفلا تراه

(١) هو الحافظ العلامة الثبت، الفقيه شيخ الإسلام أبو بكر أحمد بن الحسين بن على بن موسى الخراسانى، صاحب التصانيف الرائعة، قال الحافظ ابن عبد الغافر بن إسماعيل فى تاريخه: كان البيهقى على سيرة العلماء، قانعًا باليسير، متجملا فى زهده وورعه.

مات سنة ٤٥٨هـ.

(٢) سورة الطور الآيتان: ٣٠، ٣١.

يخبر أن كماله وحكمته وقدرته تأبى أن يقر من تقول عليه بعض الأقاويل لا بد أن يجعله عبرة لعباده كما جرت بذلك سنته فى المتقولين عليه، وقال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ ﴾(١) وهنا انتهى جواب الشرط، ثم أخبر خبرا جازما غير معلق أنه يمحو الباطل ويحق الحق، وقال تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ۗ ﴾(٢) فأخبر سبحانه أن من نفى عنه الإرسال والكلام لم يقدره حق قدره .

وقد ذكروا فروقا بين النبى والرسول وأحسنها أن من نبأه الله بخبر السماء إن أمره أن يبلغ غيره فهو نبى رسول، وإن لم يأمره أن يبلغ غيره فهو نبى وليس برسول، فالرسول أخص من النبى، فكل رسول نبى وليس كل نبى رسولا، ولكن الرسالة أعم من جهة نفسها، فالنبوة جزء من الرسالة، إذ الرسالة تتناول النبوة وغيرها بخلاف الرسل فإنهم لا يتناولون الأنبياء وغيرهم بل الأمر بالعكس فالرسالة أعم من جهة نفسها وأخص من جهة أهلها.

وإرسال الرسل من أعظم نعم الله على خلقه وخصوصا محمد ﷺ كما قال تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾(٣) وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾(٤).

❁ **قوله: وإنه خاتم الأنبياء:**

ش: قال تعالى: ﴿ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّۦنَ ۗ ﴾(٥).

وقال ﷺ: "مثلى ومثل الأنبياء كمثل قصر أحسن بناؤه وترك منه موضع لبنة فطاف به النظار يتعجبون من حسن بنائه إلا موضع تلك اللبنة لا يعيبون سواها فكنت أنا سددت موضع تلك اللبنة، ختم بى البنيان وختم بى الرسل"(٦) أخرجاه فى الصحيحين.

---

(١) سورة الشورى الآية: ٢٤.

(٢) سورة الأنعام الآية: ٩١.

(٣) سورة آل عمران الآية: ١٦٤.

(٤) سورة الأنبياء الآية: ١٠٧.

(٥) سورة الأحزاب الآية: ٤٠.

(٦) **صحيح**: إلا أن هذه الرواية ليست رواية الصحيحين، وإنما أخرجه بهذا اللفظ ابن عساكر فى "تاريخ دمشق" وأصله عند البخارى فى "كتاب المناقب" حديث (٣٥٣٥) ومسلم فى "كتاب الفضائل" حديث (٢٢٨٦).

وقال ﷺ: "إن لى أسماء: أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحى يمحو الله بى الكفر، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى، وأنا العاقب والعاقب الذى ليس بعده نبى"(١).

وفى صحيح مسلم عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: "وإنه سيكون فى أمتى ثلاثون كذابون كلهم يزعم أنه نبى، وأنا خاتم النبيين لا نبى بعدى . . ."(٢) الحديث.

ولمسلم أن رسول الله ﷺ قال: "فضلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لى الغنائم، وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بى النبيون"(٣).

❁ **قوله: وإمام الأتقياء:**

ش: الإمام الذى يؤتم به أى يقتدون به، والنبى ﷺ إنما بعث للاقتداء به لقوله: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾(٤) وكل من اتبعه واقتدى به فهو من الأتقياء.

❁ **قوله: وسيد المرسلين:**

ش: قال ﷺ: "أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من ينشق عنه القبر وأول شافع وأول مشفع"(٥) رواه مسلم، وفى أول حديث الشفاعة: "أنا سيد الناس يوم القيامة"(٦) وروى مسلم

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب المناقب" حديث (٣٥٣٢) ومسلم فى "كتاب الفضائل" حديث (٢٣٥٤) والترمذى فى "كتاب الأدب" حديث (٢٨٤٠) وفى "الشمائل" رقم (٣٥٩) وأحمد فى "المسند" حديث: (١٦٦٨٠، ١٦٧١٦) والطيالسى فى "المسند" حديث (٩٤٢) قال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم فى "كتاب الفتن" حديث (٢٨٨٩) وأبو داود فى "كتاب الفتن" حديث (٤٢٥٢) واللفظ له، وأحمد فى "المسند" حديث (١٧٠٥١، ٢٢٢٩٤، ٢٢٣٥١).

(٣) **صحيح**: أخرجه مسلم فى "كتاب المساجد" حديث (٥٢٣) والترمذى فى "كتاب السير" حديث (١٥٥٣) وأحمد فى "المسند" حديث (٩٣٠٨) قال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح، وفى الباب عن على وأبى ذر وعبد الله بن عمرو وأبى موسى وابن عباس.

(٤) سورة آل عمران الآية: ٣١.

(٥) **صحيح**: أخرجه مسلم فى "كتاب الفضائل" حديث (٢٢٧٨) وأبو داود فى "كتاب السنة" حديث (٤٦٧٣) وأحمد فى "المسند" حديث (١٠٩٤١ ، ١٠٩٢٩).

(٦) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب أحاديث الأنبياء" حديث (٣٣٤٠) ومسلم فى "الإيمان" حديث (١٨٤) والترمذى فى "كتاب صفة القيامة" حديث (٢٤٣٤) وأحمد فى "المسند" حديث (٩٥٨٩) والحاكم فى "المستدرك" (٤/ ٥٧٣) والتبريزى فى "مشكاة المصابيح" حديث (٥٥٧٥) والبخارى فى =

والترمذى عن واثلة بن الأسقع ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشا من كنانة واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم"(١).

فإن قيل: يشكل على هذا قوله ﷺ: "لا تفضلونى على موسى فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فأجد موسى باطشا بساق العرش فلا أدرى هل أفاق قبلى أو كان ممن استثنى الله"(٢) خرجاه فى الصحيحين.

فكيف يجمع بين هذا وبين قوله: "أنا سيد ولد آدم ولا فخر"(٣).

فالجواب: أن هذا كان له سبب فإنه كان قد قال يهودى: لا والذى اصطفى موسى على البشر، فلطمه مسلم وقال: أتقول هذا ورسول الله ﷺ بين أظهرنا، فجاء اليهودى فاشتكى من المسلم الذى لطمه فقال النبى ﷺ هذا لأن التفضيل إذا كان على وجه الحمية والعصبية وهوى النفس كان مذموما، بل نفس الجهاد إذا قاتل الرجل حمية وعصبية كان مذموما فإن الله حرم الفخر، وقد قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾(٤) وقال: ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ﴾(٥) فعلم أن المذموم إنما هو التفضيل على وجه الفخر أو على وجه الانتقاص بالمفضول، وعلى هذا يحمل أيضا قوله ﷺ

- "التاريخ الكبير" (٧/ ٤٠٠) وابن عساكر فى "تاريخ دمشق" (٣/ ٢٧٣) مختصرا، والبغوى فى "شرح السنة" (١٥/ ١٥٣).

(١) **صحيح:** أخرجه مسلم فى "كتاب الفضائل" حديث (٢٢٧٦) والترمذى فى "كتاب المناقب" حديث (٣٦٠٥) وأحمد فى "المسند" حديث (١٦٩٢٣) والبغوى فى "شرح السنة" (٧/ ٢٩٧) والبخارى فى "التاريخ الكبير" (١/ ٤) والبيهقى فى "دلائل النبوة" (١/ ١٣٠).

(٢) **صحيح:** أخرجه البخارى فى "كتاب الخصومات" حديث (٢٤١١) وأطرافه فى (٣٤٠٨، ٣٤١٤، ٣٤٧٦، ٤٨١٣، ٥٠٦٣، ٦٥١٧، ٦٥١٨، ٧٤٢٨، ٧٤٧٧) ومسلم فى "كتاب الفضائل" حديث (٢٣٧٣) وأبو داود فى "كتاب السنة" حديث (٤٦٧١).

(٣) **صحيح:** أخرجه الترمذى فى "كتاب المناقب" حديث (٣٦١٨) وابن ماجه فى "كتاب الزهد" حديث (٤٣٠٨) وأحمد فى "المسند" حديث (١٠٩١٤، ١٠٩٢٩) انظر "الصحيحة" حديث (١٥٧١) قال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح، وقال الشيخ الألبانى: صحيح.

(٤) سورة الإسراء الآية: ٥٥.

(٥) سورة البقرة الآية: ٢٥٣.

"لا تفضلوا بين الأنبياء"(١) إن كان ثابتا، فإن هذا قد روى فى نفس حديث موسى وهو فى البخارى وغيره، لكن بعض الناس يقول إن فيه علة بخلاف حديث موسى فإنه صحيح لا علة فيه باتفاقهم.

وقد أجاب بعضهم بجواب آخر وهو أن قوله ﷺ: "لا تفضلونى على موسى" وقوله: "لا تفضلوا بين الأنبياء" نهى عن التفضيل الخاص، أى لا يفضل بعض الرسل على بعض بعينه بخلاف قوله: "أنا سيد ولد آدم ولا فخر" فإنه تفضيل عام، فلا يمنع منه، وهذا كما لو قيل فلان أفضل أهل البلد لا ينصب على أفرادهم بخلاف ما لو قيل لأحدهم فلان أفضل منك، ثم إنى رأيت الطحاوى رحمه الله قد أجاب بهذا الجواب فى شرح معانى الآثار.

وأما ما يروى أن النبى ﷺ قال: "لا تفضلونى على يونس بن متى" وأن بعض الشيوخ(٢) قال: لا يفسر لهم هذا الحديث حتى يعطى مالا جزيلا فلما أعطوه فسره بأن قرب يونس من الله وهو فى بطن الحوت كقربى من الله ليلة المعراج وعدوا هذا تفسيرا عظيما، وهذا يدل على جهلهم بكلام الله وبكلام رسوله لفظا ومعنى، فإن هذا الحديث بهذا اللفظ لم يروه أحد من

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب أحاديث الأنبياء" حديث (٣٤١٤) ومسلم فى "كتاب الفضائل" حديث (٢٣٢٧) وأبو داود فى "كتاب السنة" حديث (٤٦٦٨) بلفظ: "لا تخيروا بين الأنبياء" عند أبى داود، والطحاوى فى "مشكل الآثار" (١/ ٤٥٨) والبيهقى فى دلائل النبوة" (٥/ ٤٩٢، ٤٩٣) وغيرهم.

(٢) هو: أبو المعالى، عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجوينى، والقصة مذكورة فى "أحكام القرآن" لابن العربى.

قال أبو بكر بن العربى: "أخبرنى غير واحد من أصحابنا عن إمام الحرمين، أبى المعالى عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجوينى أنه سئل: هل البارى فى جهة؟ فقال: لا، هو يتعالى عن ذلك، قيل له: ما الدليل عليه؟ قال: الدليل عليه قوله ﷺ: "لا تفضلونى على يونس بن متى" قيل له: ما وجه الدليل فى هذا الخبر؟ قال: لا أقوله حتى يأخذ ضيفى ألف دينار يقضى بها دينه، فقام رجلان فقالا: هى علينا، فقال: لا يتبع بها اثنين لأنه يشق عليه، فقال واحد: هى على، فقال: إن يونس بن متى رمى بنفسه فى البحر فالتقمه الحوت، وصار فى قعر البحر فى ظلمات ثلاث، ونادى: ﴿لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين﴾ كما أخبر عنه، ولم يكن محمد ﷺ حين جلس على الرفرف الأخضر، وارتقى به، وصعد حتى انتهى به إلى موضع يسمع منه صرير الأقلام، وناجاه ربه بما ناجاه، وأوحى إلى عبده ما أوحى بأقرب من يونس بن متى فى بطن الحوت وظلمة البحر.

انظر "أحكام القرآن" (٤/ ١٠٩) ط دار إحياء الكتب العربية.

أهل الكتب التي يعتمد عليها، وإنما اللفظ الذى فى الصحيح: "لا ينبغى لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى"(١) وفى رواية: "من قال: إنى خير من يونس بن متى فقد كذب" وهذا اللفظ يدل على العموم، لا ينبغى لأحد أن يفضل نفسه على يونس بن متى ليس فيه نهى المسلمين أن يفضلوا محمدا على يونس وذلك لأن الله تعالى قد أخبر عنه أنه التقمه الحوت وهو مليم أى فاعل ما يلام عليه، وقال تعالى: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(٢) فقد يقع فى نفس بعض الناس أنه أكمل من يونس فلا يحتاج إلى هذا المقام، إذ لا يفعل ما يلام عليه، ومن ظن هذا فقد كذب، بل كل عبد من عباد الله يقول ما قال يونس أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين، كما قال أول الأنبياء وآخرهم، فأولهم آدم قد قال: ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾(٣) وآخرهم وأفضلهم وسيدهم محمد ﷺ قال فى الحديث الصحيح، حديث الاستفتاح من رواية على بن أبى طالب رضي الله عنه وغيره بعد قوله: وجهت وجهى . . ." آخره: "اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت، أنت ربى وأنا عبدك، ظلمت نفسى واعترفت بذنبى، فاغفر لى ذنوبى جميعا، لا يغفر الذنوب إلا أنت . . ."(٤) إلى آخر الحديث، وكذا قال موسى عليه السلام: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمۡتُ نَفۡسِى فَٱغۡفِرۡ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾(٥) وأيضا فيونس ﷺ لما قيل فيه: ﴿ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ ﴾(٦) فنهى نبينا ﷺ عن التشبه به وأمره بالتشبه بأولى العزم حيث قيل له:

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب أحاديث الأنبياء" حديث (٣٤١٢) ومسلم فى "كتاب الفضائل" حديث (٢٣٧٦) وأبو داود فى "كتاب السنة" حديث (٤٦٦٩) وأحمد فى "المسند" حديث ٣٧٠٣، ٤١٩٦، ٤١٩٧، ٢١٦٧، ٣٢٥٢، ٤٢٢٧، ٩٩٩٩) والزيلعى فى "نصب الراية" (١/ ٤٤).

(٢) سورة الأنبياء الآية: ٨٧.

(٣) سورة الأعراف الآية: ٢٣.

(٤) **صحيح**: أخرجه مسلم فى "كتاب الصلاة" حديث (٧٧١) والترمذى فى "كتاب الدعوات" حديث (٣٤٢١) وأبو داود فى "كتاب الصلاة" حديث (٧٦٠) قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.

(٥) سورة القصص الآية: ١٦.

(٦) سورة القلم الآية: ٤٨.

﴿ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾(١) فقد يقول من يقول: أنا خير مـــن يونـــس: للأفضل أن يفخر على من دونه فكيف إذا لم يكن أفضل فإن الله لا يحب كل مختال فخور.

وفى صحيح مسلم عن النبى ﷺ أنه قال: "أوحى إلىَّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد علـــى أحد، ولا يبغى أحد على أحد"(٢) فالله تعالى نَهى أن يفخر على عموم المؤمنين فكيف على نـــبى كريم، فلهذا قال: "لا ينبغى لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى" فهذا نَهى عام لكل أحـــد أن يتفضل ويفتخر على يونس، وقوله: "من قال إنى خير من يونس بن متى فقد كذب" فانه لـــو قدر أنه كان أفضل فهذا الكلام يصير نقصًا فيكون كاذبًا، وهذا لا يقوله نبى كريم بل هو تقدير مُطلق، أى من قال هذا فهو كاذب وإن كان لا يقوله نبى، كما قال تعـــالى: ﴿ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾(٣) وإن كان ﷺ معصومًا من الشرك، لكن الوعد والوعيد لبيـــان مقـــادير الأعمال.

وإنما أخبر ﷺ أنه سيد ولد آدم لأنَّا لا يمكننا أن نعلم ذلك إلا بخبره، إذ لا نبى بعده يخبرنـــا بعظيم قدْره عند الله، كما أخبرنا هو بفضائل الانبياء قبله صلى الله عليهم وسلم أجمعين، ولهـــذا أتبعه بقوله: "ولا فخر" كما جاء فى رواية: "وهل يقول من يؤمن بالله واليوم والآخر إن مقـــام الذى أسرى به إلى ربه، وهو مقرب معظم مكرم، كمقام الذى ألقى فى بطن الحوت وهو مليم، وأين المعظم المقرب من الممتحن المؤدب، فهذا فى غاية التقريب وهذا فى غاية التأديب" فانظر إلى هذا الاستدلال لأنه بهذا المعنى المحرف اللفظ لم يقله الرسول وهل يقاوم هذا الدليل على نفـــى علو الله تعالى عن خلقه الأدلة الصحيحة الصريحة القطعية على علو الله تعالى على خلقه التى تزيد

---

(١) سورة الأحقاف الآية: ٣٥.

(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم فى "كتاب صفات المنافقين" حديث (٢٨٦٥) وأبـــو داود فى "كتـــاب الأدب" حديث (٤٨٩٥) وابن ماجه فى "كتاب الزهد" حديث (٤١٧٩) والبيهقى (١٠/ ٢٣٤) والطـــبرانى فى "الكبير" (١٧/ ٣٦٥) والبخارى فى "الأدب المفرد" حديث (١٥٣) وأبو نعيـــم فى "الحليـــة" حديـــث (٢٨٢٨) تقريب البغية (٢/ ٤٩٤) وانظر الكلام على هذا الحديث فى "السلسلة الصحيحـــة" (٢/ ١١٣) حديث (٥٧٠).

(٣) سورة الزمر الآية: ٦٥.

على ألف دليل، كما يأتي الإشارة إليها عند قول الشيخ، رحمه الله: محيط بكل شيء وفوقه، إن شاء الله تعالى.

❁ **قوله: وحبيب رب العالمين:**

ش: ثبت له ﷺ أعلى مراتب المحبة وهي الخلة كما صح عنه ﷺ أنه قال: "إن الله اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا"[1] وقال: "ولو كنت متخذا من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ولكن صاحبكم خليل الرحمن"[2] والحديثان في الصحيح، وهما يبطلان قول من قال: الخلة لإبراهيم والمحبة لمحمد، فإبراهيم خليل الله ومحمد حبيبه، وفي الصحيح أيضا: "إني أبرأ إلى كل خليل من خلته"[3] والمحبة قد ثبتت لغيره، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝﴾[4] ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝﴾[5] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ۝﴾[6] فبطل قول من خص الخلة بإبراهيم والمحبة بمحمد، بل الخلة خاصة بهما والمحبة عامة، وحديث ابن عباس رضي الله عنهما الذي رواه الترمذي الذي فيه: "إن إبراهيم خليل الله، ألا وأنا حبيب الله ولا فخر"[7] لم يثبت.

والمحبة مراتب:

أولها: العلاقة، وهي تعلق القلب بالمحبوب.

والثانية: الإرادة، وهي ميل القلب إلى محبوبه وطلبه له.

---

(١) **صحيح:** أخرجه مسلم في "كتاب الصلاة" حديث (٢٣٥).

(٢) **صحيح:** أخرجه مسلم في "كتاب فضائل الصحابة" حديث (٣٨٣٢) والترمذي في "كتاب المناقب" حديث (٣٦٥٥) وابن ماجه في "المقدمة" حديث (٩٣) وأحمد في "المسند" حديث (٣٩٠٩، ٤٣٥٤، ٤١٨٢، ٤١٣٦، ١٦٠٥٧، ١٦٠٥٢) قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) انظر السابق.

(٤) سورة آل عمران الآية: ١٣٤.

(٥) سورة آل عمران الآية: ٧٦.

(٦) سورة البقرة الآية: ٢٢٢.

(٧) **ضعيف:** أخرجه الترمذي في "كتاب المناقب" حديث (٣٦١٦) والدارمي في "المقدمة" حديث (٤٨) والتبريزي في "المشكاة" حديث (٥٧٦٢) قال الترمذي: هذا حديث غريب، وقال الشيخ أحمد شاكر: ضعيف، وقال الشيخ الألباني: ضعيف.

قلت: وهو كما قالوا، رحمهم الله تعالى، فإن فيه: رفعة بن صالح، ضعيف، وسلمة بن وهرام، ضعيف أيضًا.

الثالثة: الصبابة، وهى انصباب القلب إليه بحيث لا يملكه صاحبه كانصباب الماء فى الحدور.

الرابعة: الغرام، وهى الحب اللازم للقلب ومنه الغريم لملازمته ومنه:

﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾(١).

الخامسة: المودة، والود وهى صفو المحبة وخالصها ولبها، قال تعالى:

﴿ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا ﴾(٢).

السادسة: الشغف، وهى وصول المحبة إلى شغاف القلب.

السابعة: العشق، وهو الحب المفرط الذى يخاف على صاحبه منه، ولكن لا يوصف به الرب تعالى ولا العبد فى محبة ربه، وإن كان قد أطلقه بعضهم، واختلف فى سبب المنع فقيل عدم التوقيف وقيل غير ذلك، ولعل امتناع إطلاقه أن العشق محبة مع شهوة.

الثامنة: التـيم، وهو بمعنى التعبد.

التاسعة: التعبد.

العاشرة: الخلة، وهى المحبة التى تخللت روح المحب وقلبه.

وقيل فى ترتيبها غير ذلك، وهذا الترتيب تقريب حسن لا يعرف حسنه إلا بالتأمل فى معانيه.

واعلم أن وصف الله تعالى بالمحبة والخلة هو كما يليق بجلال الله تعالى وعظمته كسائر صفاته تعالى وإنما يوصف الله تعالى من هذه الأنواع بالإرادة والود والمحبة والخلة حسبما ورد النص.

وقد اختلف فى تحديد المحبة على أقوال نحو ثلاثين قولا ولا تحد المحبة بحد أوضح منها، فالحدود لا تزيدها إلا خفاء، وهذه الأشياء الواضحة لا تحتاج إلى تحديد كالماء والهواء والتراب والجوع ونحو ذلك.

---

(١) سورة الفرقان الآية: ٦٥.

(٢) سورة مريم الآية: ٩٦.

❁ **قوله: وكل دعوى النبوة بعده فغي وهوى:**

ش: لما ثبت أنه خاتم النبيين علم أن من ادعى بعده النبوة فهو كاذب، ولا يقال: فلو جاء المدعى للنبوة بالمعجزات الخارقة والبراهين الصادقة كيف يقال بتكذيبه لأنا نقول: هذا لا يتصور أن يوجد وهو من باب فرض المحال، لأن الله تعالى لما أخبر أنه خاتم النبيين فمن المحال أن يأتى مدع يدعى النبوة ولا يظهر أمارة كذبه فى دعواه، والغى ضد الرشاد، والهوى عبارة عن شهوة النفس، أى إن تلك الدعوة بسبب هوى النفس لا عن دليل فتكون باطلة.

❁ **قوله: وهو المبعوث إلى عامة الجن وكافة الورى بالحق والهدى وبالنور والضياء:**

ش: أما كونه مبعوثا إلى عامة الجن فقال تعالى حكاية عن قول الجن: ﴿ يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ ﴾[1] وكذا سورة الجن تدل على أنه أرسل إليهم أيضا، قال مقاتل: لم يبعث الله رسولا إلى الإنس والجن قبله، وهذا قول بعيد، فقد قال تعالى: ﴿ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾[2] الآية، والرسل من الإنس فقط وليس من الجن رسول، كذا قال مجاهد وغيره من السلف والخلف، وقال ابن عباس رضى الله عنهما: الرسل من بنى آدم ومن الجن نذر وظاهر قوله تعالى حكاية عن الجن: ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ ﴾[3] الآية، تدل على أن موسى مرسل إليهم أيضا، والله أعلم.

وحكى ابن جرير عن الضحاك بن مزاحم أنه زعم أن فى الجن رسلا واحتج بهذه الآية الكريمة، وفى الاستدلال بها على ذلك نظر لأنها محتملة وليست بصريحة وهى والله أعلم كقوله: ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝ ﴾[4] والمراد من أحدهما.

---

(١) سورة الأحقاف الآية: ٣١.

(٢) سورة الأنعام الآية: ١٣٠.

(٣) سورة الأحقاف الآية: ٣٠.

(٤) سورة الرحمن الآية: ٢٢.

وأما كونه مبعوثا إلى كافة الورى، فقد قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾(١)، وقد قال: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾(٣) أى وأنذر من بلغه، وقال تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَـٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ ﴾(٤) وقال تعالى: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾(٥) الآية، وقال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴾(٦) وقد قال تعالى: ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ ﴾(٧) وقال ﷺ: "أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لى الغنائم و لم تحل لأحد قبلى، وأعطيت الشفاعة، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة"(٨) أخرجاه فى الصحيحين، وقال ﷺ : "لا يسمع بى رجل من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم لا يؤمن بى إلا دخل النار"(٩) رواه مسلم، وكونه ﷺ مبعوثا إلى الناس كافة معلوم من دين الإسلام بالضرورة.

وأما قول بعض النصارى: إنه رسول إلى العرب خاصة فظاهر البطلان فإنهم لما صدقوا بالرسالة لزمهم تصديقه فى كل ما يخبر به، وقد قال: إنه رسول الله إلى الناس عامة، والرسول

---

(١) سورة سبأ الآية: ٢٨.

(٢) سورة الأعراف الآية: ١٥٨.

(٣) سورة الأنعام الآية: ١٩.

(٤) سورة النساء الآية: ٧٩.

(٥) سورة يونس الآية: ٢.

(٦) سورة الفرقان الآية الأولى.

(٧) سورة آل عمران الآية: ٢٠.

(٨) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب التيمم" حديث (٣٣٥) ومسلم فى "كتاب المساجد" حديث (٥٢١) والترمذى فى "كتاب السير" حديث (١٥٥٣) وقال: حديث حسن صحيح.

(٩) **صحيح**: أخرجه مسلم فى "كتاب الإيمان" حديث (١٥٣) وأحمد فى "المسند" حديث (٨٥٩٤، ٨١٨٨) وأبو عوانة فى "كتاب الإيمان" حديث (٣٠٧) وابن منده فى "الإيمان" (٤٠١).

لا يكذب فلزم تصديقه حتما فقد أرسل رسله وبعث كتبه فى أقطار الأرض إلى كسرى وقيصر والنجاشى والمقوقس وسائر ملوك الأطراف يدعو إلى الإسلام.

وقوله: "وكافة الورى" فى جر كافة نظرفإنهمقالوا: لم تستعمل كافة فى كلام العرب إلا حالا، واختلفوا فى إعرابها فى قوله: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ ﴾(١) على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها حال من الكاف فى "أرسلناك" وهى اسم فاعل والتاء فيها للمبالغة أى إلا كافا للناس عن الباطل، وقيل هى مصدر "كف" فهى بمعنى "كفا" أى إلا أن تكف الناس كفا، ووقوع المصدر حالا كثير.

الثانى: أنها حال من "الناس" واعترض بأن حال المجرور لا يتقدم عليه عند الجمهور، وأجيب بأنه قد جاء عن العرب كثيرا فوجب قبوله وهو اختيار ابن مالك رحمه الله، أى وما أرسلناك إلا للناس كافة.

الثالث: أنها صفة لمصدر محذوف، أى رسالة كافة، واعترض بما تقدم أنها لم تستعمل إلا حالا.

وقوله: "بالحق والهدى وبالنور والضياء" هذه أوصاف ما جاء به رسول الله ﷺ من الدين والشرع المؤيد بالبراهين الباهرة من القرآن وسائر الأدلة، و "الضياء" أكمل من النور، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ ﴾(٢).

❁ قوله: وإن القرآن كلام الله منه بدا بلا كيفية قولا وانزله على رسوله وحيا، وصدقه المؤمنون على ذلك حقا، وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة، ليس بمخلوق ككلام البرية، فمن سمعه فزعم أنه كلام البشر فقد كفر وقد ذمه الله وعابه وأوعده بسقر، حيث قال تعالى: ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ ﴾(٣) فلما أوعد الله بسقر لمن قال: ﴿ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ ﴾(٤) علمنا وأيقنا أنه قول خالق البشر ولا يشبه قول البشر:

ش: هذه قاعدة شريفة وأصل كبير من أصول الدين ضل فيه طوائف كثيرة من الناس، وهذا الذى حكاه الطحاوى، رحمه الله، هو الحق الذى دلت عليه الأدلة من الكتاب والسنة لمن تدبرهما وشهدت به الفطرة السليمة التى لم تغير بالشبهات والشكوك والآراء الباطلة.

---

(١) سورة سبأ الآية: ٢٨.
(٢) سورة يونس الآية: ٥.
(٣) سورة المدثر الآية: ٢٦.
(٤) سورة المدثر الآية: ٢٥.

وقد افترق الناس فى مسألة الكلام على تسعة أقوال:

أحـــدها: أن كلام الله هو ما يفيض على النفوس من المعانى إما من العقل الفعـــال عنـــد بعضهم أو من غيره، وهذا قول الصابئة والمتفلسفة.

وثانيها: أنه مخلوق خلقه الله منفصلا عنه، وهذا قول المعتزلة.

وثالثـــها: أنه معنى واحد قائم بذات الله، هو الأمر والنهى والخبر والاستخبار، وإن عـــبر عنه بالعربية كان قرآنا، وإن عبر عنه بالعبرانية كان توراة، وهذا قول ابن كلاب ومن وافقــــه كالأشعرى وغيره.

ورابعها: أنه حروف وأصوات أزلية مجتمعة فى الأزل، وهذا قول طائفة من أهل الكـــــلام ومن أهل الحديث.

وخامسها: أنه حروف وأصوات لكن تكلم الله بها بعد أن لم يكن متكلما، وهذا قـــــول الكرامية وغيرهم.

وسادسها: أن كلامه يرجع إلى ما يحدثه من علمه وإرادته القائم بذاتـــه، وهـــذا يقولـــه صاحب المعتبر، ويميل إليه الرازى فى المطالب العالية.

وسابعها: أن كلامه يتضمن معنى قائما بذاته هو ما خلقه فى غيره، وهذا قول أبى منصـور الماتريدى.

وثامنها: أنه مشترك بين المعنى القديم القائم بالذات وبين ما يخلقه فى غيره من الأصـــوات، وهذا قول أبى المعالى ومن اتبعه.

وتاسعها: أنه تعالى لم يزل متكلما إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء وهو يتكلم به بصـــوت يسمع وأن نوع الكلام قديم وإن لم يكن الصوت المعين قديما، وهذا المأثور عن أئمة الحديــــث والسنة.

وقول الشيخ، رحمه الله: وإن القرآن كلام الله، إن بكسر الهمزة عطف على قولـــه: إن الله واحد لا شريك له، ثم قال: وإن محمدا عبده المصطفى، وكسر همزة إن فى المواضع الثلاثة لأنـــها معمول القول، أعنى قوله فى أول كلامه: نقول فى توحيد الله . . .

وقوله: كلام الله منه بدا بلا كيفية قولا، رد على المعتزلة وغيرهم، فان المعتزلة تزعم أن القرآن لم يبد منه، كما تقدم حكاية قولهم، قالوا: وإضافته إليه إضافة تشريف، كبيت الله وناقة الله، يحرفون الكلام عن مواضعه، وقولهم باطل، فإن المضاف إلى الله تعالى معان وأعيان، فإضافة الأعيان إلى الله للتشريف، وهى مخلوقة له، كبيت الله وناقة الله، بخلاف إضافة المعانى كعلم الله وقدرته وعزته وجلاله وكبريائه وكلامه وحياته وعلوه وقهره، فإن هذا كله من صفاته، لا يمكن أن يكون شيء من ذلك مخلوقا.

والوصف بالتكلم من أوصاف الكمال وضده من أوصاف النقص، قال تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ﴾[1] فكان عباد العجل، مع كفرهم، أعرف بالله من المعتزلة، فإنهم لم يقولوا لموسى: وربك لا يتكلم أيضا، وقال تعالى عن العجل أيضا: ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ ﴾[2] فعلم أن نفى رجوع القول ونفى التكلم نقص يستدل به على عدم ألوهية العجل.

وغاية شبهتهم أنهم يقولون يلزم منه التشبيه والتجسيم.

فيقال لهم: إذا قلنا: إنه تعالى يتكلم كما يليق بجلاله انتفت شبهتهم، ألا ترى أنه تعالى قال: ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم ﴾[3] فنحن نؤمن أنها تتكلم ولا نعلم كيف تتكلم، وكذا قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾[4] وكذلك تسبيح الحصا والطعام وسلام الحجر، كل ذلك بلا فم يخرج منه الصوت الصاعد من لديه المعتمد على مقاطع الحروف.

وإلى هذا أشار الشيخ رحمه الله بقوله: منه بدا بلا كيفية قولا، أى ظهر منه ولا ندرى كيفية تكلمه به، وأكد هذا المعنى بقوله: قولا، أتى بالمصدر المعرف للحقيقة كما أكد الله تعالى

(١) سورة الأعراف الآية: ١٤٨.

(٢) سورة طه الآية: ٨٩.

(٣) سورة يس الآية: ٦٥.

(٤) سورة فصلت الآية: ٢١.

التكليم بالمصدر المثبت النافى للمجاز فى قوله: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴾[١] فماذا بعد الحق إلا الضلال.

ولقد قال بعضهم لأبى عمرو بن العلاء — أحد القراء السبعة — أريد أن تقرأ كلم الله موسى بنصب اسم الله ليكون موسى هو المتكلم لا الله، فقال أبو عمرو: هب أنى قرأت هذه الآية كذا فكيف تصنع بقوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾[٢] فبهت المعتزلى.

وكم فى الكتاب والسنة من دليل على تكليم الله تعالى لأهل الجنة وغيرهم، قال تعالى: ﴿ سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ﴾[٣].

فعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "بينا أهل الجنة فى نعيمهم إذ سطع لهم نور فرفعوا أبصارهم فإذا الرب جل جلاله قد أشرف عليهم من فوقهم فقال: السلام عليكم يا أهل الجنة وهو قول الله تعالى: ﴿ سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ﴾ فلا يلتفتون إلى شيء مما هم فيه من النعيم ما داموا ينظرون اليه حتى يحتجب عنهم وتبقى بركته ونوره"[٤] رواه ابن ماجه وغيره، ففى هذا الحديث إثبات صفة الكلام وإثبات الرؤية وإثبات العلو، وكيف يصح مع هذا أن يكون كلام الرب كله معنًى واحدًا، وقد قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ ﴾[٥] فأهانهم بترك تكليمهم، والمراد أنه لا يكلمهم تكليم تكريم وهو الصحيح إذ قد أخبر فى الآية الاخرى أنه يقول لهم فى النار: ﴿ قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾[٦] فلو كان لا يكلم عباده المؤمنين لكانوا فى ذلك هم وأعداؤه سواء و لم يكن فى تخصيص أعدائه بأنه لا يكلمهم

---

(١) سورة النساء الآية: ١٦٤.

(٢) سورة الأعراف الآية: ١٤٣.

(٣) سورة يس الآية: ٥٨.

(٤) **ضعيف:** أخرجه ابن ماجه فى "المقدمة" حديث (١٨٤) وأبو نعيم فى "الحلية" حديث (٤٤٠٤) كما فى "تقريب البغية" (٣/ ٤٧٤) وابن عدى فى "الكامل" (٦/ ٢٠٣٩) والبزار فى "المسند" حديث (٢٢٥٣) قال الهيثمى: فيه الفضل بن عيسى الرقاشى، وهو ضعيف، وقال الشيخ الألبانى: ضعيف، وقال الذهبى: إسناده ضعيف.

(٥) سورة آل عمران الآية: ٧٧.

(٦) سورة المؤمنون الآية: ١٠٨.

فائدة أصلا، وقال البخارى فى صحيحه باب "كلام الرب تبارك وتعالى مع أهل الجنة" وساق فيه عدة أحاديث، فأفضل نعيم أهل الجنة رؤية وجهه تبارك وتعالى وتكليمه لهم، فإنكار ذلك إنكار لروح الجنة وأعلى نعيمها وأفضله الذى ما طابت لأهلها إلا به.

وأما استدلالهم بقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾[1] والقرآن شىء فيكون داخلا فى عموم "كل" فيكون مخلوقا فمن أعجب العجب وذلك أن أفعال العباد كلها عندهم غير مخلوقة لله تعالى وإنما يخلقها العباد جميعها لا يخلقها الله، فأخرجوها من عموم "كل" وأدخلوا كلام الله فى عمومها، مع أنه صفة من صفاته به تكون الأشياء المخلوقة، إذ بأمره تكون المخلوقات، قال تعالى: ﴿ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾[2] ففرق بين الخلق والأمر، فلو كان الأمر مخلوقا للزم أن يكون مخلوقا بأمر آخر والآخر بآخر إلى ما لا نهاية له فيلزم التسلسل وهو باطل، وطرد باطلهم أن تكون جميع صفاته تعالى مخلوقة كالعلم والقدرة وغيرهما وذلك صريح الكفر فإن علمه شىء وقدرته شىء وحياته شىء فيدخل ذلك فى عموم "كل" فيكون مخلوقا بعد أن لم يكن، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا، وكيف يصح أن يكون متكلما بكلام يقوم بغيره، ولو صح ذلك للزم أن يكون ما أحدثه من الكلام فى الجمادات كلامه وكذلك أيضا ما خلقه فى الحيوانات، ولا يفرق حينئذ بين نطق وأنطق، وإنما قالت الجلود: ﴿ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ﴾[3] ولم تقل: نطق الله، بل يلزم أن يكون متكلما بكل كلام خلقه فى غيره زورا كان أو كذبا أو كفرا أو هذيانا، تعالى الله عن ذلك، وقد طرد ذلك الاتحادية فقال ابن عربى:

وكل كلام فى الوجود كلامه ... سواء علينا نثره ونظامه

ولو صح أن يوصف أحد بصفة قامت بغيره لصح أن يقال للبصير أعمى وللأعمى بصير، لأن البصير قد قام وصف العمى بغيره، والأعمى قد قام وصف البصر بغيره، ولصح أن يوصف الله تعالى بالصفات التى خلقها فى غيره من الألوان والروائح والطعوم والطول والقصر ونحو ذلك.

---

(١) سورة الرعد الآية: ١٦.

(٢) سورة الأعراف الآية: ٥٤.

(٣) سورة فصلت الآية: ٢١.

وبمثل ذلك ألزم الإمام عبد العزيز المكى بشرا المريسى بين يدى المأمون بعد أن تكلم معه ملتزما أن لا يخرج عن نص التنزيل وألزمه الحجة، فقال بشر: يا أمير المؤمنين ليدع مطالبتى بنص التنزيل ويناظرنى بغيره، فإن لم يدع قوله ويرجع عنه ويقر بخلق القرآن الساعة وإلا فدمى حلال، قال عبد العزيز: تسألنى أم أسألك؟ فقال بشر: اسأل أنت، وطمع فىّ، فقلت له: يلزمك واحدة من ثلاث، لا بد منها: إما أن تقول إن الله خلق القرآن وهو عندى أنا كلامه فى نفسه، أو خلقه قائما بذاته ونفسه، أو خلقه فى غيره، قال: أقول: خلقه كما خلق الأشياء كلها، وحاد عن الجواب، فقال المأمون: اشرح أنت هذه المسألة ودع بشرًا فقد انقطع، فقال عبد العزيز: إن قال: خلق كلامه فى نفسه، فهذا محال لأن الله لا يكون محلا للحوادث المخلوقة ولا يكون فيه شىء مخلوق، وإن قال: خلقه فى غيره فيلزم فى النظر والقياس أن كل كلام خلقه الله فى غيره فهو كلامه، فهو محال أيضا لأنه يلزم قائله أن يجعل كل كلام خلقه الله فى غيره هو كلام الله، وإن قال: خلقه قائما بنفسه وذاته فهذا محال، لا يكون الكلام إلا من متكلم، كما لا تكون الإرادة إلا من مريد، ولا العلم إلا من عالم، ولا يعقل كلام قائم بنفسه يتكلم بذاته، فلما استحال من هذه الجهات أن يكون مخلوقا علم أنه صفة لله، هذا مختصر من كلام الإمام عبد العزيز فى الحيدة.

وعموم "كل" فى كل موضع بحسبه ويعرف ذلك بالقرائن، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ﴾[1] ومساكنهم شىء، ولم تدخل فى عموم كل شىء دمرته الريح، وذلك لان المراد تدمر كل شىء يقبل التدمير بالريح عادة وما يستحق التدمير وكذا قوله تعالى حكاية عن بلقيس: ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾[2] المراد من كل شىء يحتاج إليه الملوك وهذا القيد يفهم من قرائن الكلام، إذ مراد الهدهد أنها ملكة كاملة فى أمر المُلك غير محتاجة إلى ما يكمل به أمر ملكها، ولهذا نظائر كثيرة.

(١) سورة الأحقاف الآية: ٢٥.

(٢) سورة النمل الآية: ٢٣.

والمراد من قوله تعالى: ﴿ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ ﴾[(١)] أى كل شيء مخلوق وكل موجود سوى الله فهو مخلوق، فدخل فى هذا العموم أفعال العباد حتما ولم يدخل فى العموم الخالق تعالى، وصفاته ليست غيره لأنه سبحانه وتعالى هو الموصوف بصفات الكمال، وصفاته ملازمة لذاته المقدسة لا يتصور انفصال صفاته عنه، كما تقدم الإشارة إلى هذا المعنى عند قوله: ما زال قديما بصفاته قبل خلقه، بل نفس ما استدلوا به يدل عليهم، فإذا كان قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ ﴾ مخلوقا لا يصح أن يكون دليلا.

وأما استدلالهم بقوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا ﴾[(٢)] فما أفسده من استدلال فإن "جعل" إذا كان بمعنى خلق يتعدى إلى مفعول واحد كقوله: ﴿ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ﴾[(٣)] وقوله: ﴿ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ ۝ وَجَعَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمۡ وَجَعَلۡنَا فِيهَا فِجَاجٗا سُبُلٗا لَّعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ۝ وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ ﴾[(٤)] وإذا تعدى إلى مفعولين لم يكن بمعنى خلق قال تعالى: ﴿ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ ﴾[(٥)] وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةٗ لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ ﴾[(٦)] وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ ۝ ﴾[(٧)] وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾[(٨)] وقال: ﴿ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾[(٩)] وقال: ﴿ وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ ﴾[(١٠)] ونظائره كثيرة، فكذا قوله: ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا ﴾[(١١)].

وما أفسد استدلالهم بقوله تعالى: ﴿ نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾[(١٢)] على أن الكلام خلقه الله تعالى فى الشجرة فسمعه موسى منها، وعموا عما قبل هذه الكلمة وما بعدها، فإن الله تعالى قال: ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ ﴾ والنداء هو الكلام من بعد، فسمع موسى عليه السلام النداء من حافة الوادى ثم

---

(١) سورة الرعد الآية: ١٦.
(٢) سورة الزخرف الآية: ٣.
(٣) سورة الأنعام الآية الأولى.
(٤) سورة الأنبياء الآيات: ٣٠ : ٣٢.
(٥) سورة النحل الآية: ٩١.
(٦) سورة البقرة الآية: ٢٢٤.
(٧) سورة الحجر الآية: ٩١.
(٨) سورة الإسراء الآية: ٢٩.
(٩) سورة الإسراء الآية: ٣٩.
(١٠) سورة الزخرف الآية: ١٩.
(١١) سورة الزخرف الآية: ٣.
(١٢) سورة القصص الآية: ٣٠.

قال: ﴿ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ أى إن النداء كان فى البقعة المباركة من عند الشجرة، كما يقول سمعت كلام زيد من البيت، يكون "من البيت" لابتداء الغاية لا أن البيت هو المتكلم، ولو كان الكلام مخلوقا فى الشجرة لكانت الشجرة هى القائلة: ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾(١) وهل قال: ﴿ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ غير رب العالمين؟ ولو كان هذا الكلام بدا من غير الله لكان قول فرعون: ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾(٢) صدقا إذ كل من الكلامين عندهم مخلوق قد قاله غير الله، وقد فرقوا بين الكلامين على أصولهم الفاسدة أن ذاك كلام خلقه الله فى الشجرة وهذا كلام خلقه فرعون، فحرفوا وبدلوا واعتقدوا خالقا غير الله، وسيأتى الكلام على مسألة أفعال العباد إن شاء الله تعالى.

فإن قيل: فقد قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾(٣) وهذا يدل على أن الرسول أحدثه إما جبرائيل أو محمد.

قيل: ذكر الرسول معرف أنه مبلغ عن مرسله لأنه لم يقل إنه قول ملك أو نبى فعلم أنه بلغه عمن أرسله به لا أنه أنشأ من جهة نفسه، وأيضا فالرسول فى إحدى الآيتين جبرائيل وفى الأخرى محمد، فإضافته إلى كل منهما تبين أن الإضافة للتبليغ، إذ لو أحدثه أحدهما امتنع أن يحدثه وأيضا فقوله: "رسول أمين"(٤) دليل على أنه لا يزيد فى الكلام الذى أرسل بتبليغه ولا ينقص منه بل هو أمين على ما أُرسل به يبلغه عن مرسله، وأيضا فإن الله قد كفَّر من جعله قول البشر ومحمد ﷺ بشر، فمن جعله قول محمد بمعنى أنه أنشأه فقد كفر، ولا فرق بين أن يقول: إنه قول بشر أو جنى أو ملك، والكلام كلام من قاله مبتدئا لا من قاله مبلغا، ومن سمع قائلا يقول:

❁ قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ❁

---

(١) سورة القصص الآية: ٣٠.
(٢) سورة النازعات الآية: ٢٤.
(٣) سورة الحاقة الآية: ٤٠.
(٤) الآية التى ذكرها الشارح: **﴿إنه لقول رسول كريم﴾** جاءت مرتين: فى سورة الحاقة ٤٠، وليس بعدها الوصف بلفظ "أمين" والأخرى فى سورة التكوير: ١٩، ثم بعدها: **﴿ذى قوة عند ذى العرش مكين ❁ مطاع ثَمَّ أمين﴾** ٢٠، ٢١، فتعبير الشارح بقوله: "وأيضًا فقوله: رسول أمين" فيه شىء من التساهل، لم يرد به حكاية التلاوة، وإنما أراد المعنى فقط، ولو قال: "وأيضًا فوصف الرسول بأنه أمين" كان أدق وأجود.

قال: هذا شعر امرئ القيس، ومن سمعه يقول: "إنما الاعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى"(١) قال هذا كلام الرسول، وان سمعه يقول: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ﴾ قال: هذا كلام الله، إن كان عنده خبر ذلك، وإلا قال: لا أدرى كلام من هذا؟ ولو أنكر عليه أحد ذلك لكذب، ولهذا من سمع من غيره نظما أو نثرا يقول له: هذا كلام من؟ هذا كلامك أو كلام غيرك؟.

وبالجملة فأهل السنة كلهم من أهل المذاهب الأربعة وغيرهم من السلف والخلف متفقون على أن كلام الله غير مخلوق، ولكن بعد ذلك تنازع المتأخرون فى أن كلام الله هل هو معنى واحد قائم بالذات أو أنه حروف وأصوات تكلم الله بها بعد أن لم يكن متكلما أو أنه لم يزل متكلما اذا شاء ومتى شاء وكيف شاء وأن نوع الكلام قديم، وقد يطلق بعض المعتزلة على القرآن أنه غير مخلوق ومرادهم أنه غير مختلق مفترى مكذوب بل هو حق وصدق، ولا ريب أن هذا المعنى منتف باتفاق المسلمين.

والنزاع بين أهل القبلة انما هو فى كونه مخلوقا خلقه الله أو هو كلامه الذى تكلم به وقام بذاته، وأهل السنة إنما سئلوا عن هذا، وإلا فكونه مكذوبا مفترى مما لا ينازع مسلم فى بطلانه، ولا شك أن مشايخ المعتزلة وغيرهم من أهل البدع معترفون بأن اعتقادهم فى التوحيد والصفات والقدر لم يتلقوه لا عن كتاب ولا سنة ولا عن أئمة الصحابة والتابعين لهم بإحسان وإنما يزعمون أن عقلهم دلهم عليه وانما يزعمون أنّهم تلقوا من الأئمة الشرع.

ولو ترك الناس على فطرهم السليمة وعقولهم المستقيمة لم يكن بينهم نزال ولكن ألقى الشيطان إلى بعض الناس أغلوطة من أغاليطه فرق بها بينهم ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ۝ ﴾(٢) والذى يدل عليه كلام الطحاوى، رحمه الله: أنه تعالى لم يزل متكلما إذا شاء كيف شاء، وأن نوع كلامه قديم، وكذلك ظاهر كلام الإمام أبى حنيفة ﷺ فى

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب بدء الوحى" حديث (١) وأطرافه فى (٥٤، ٢٥٢٩، ٣٨٩٨) ومسلم فى "كتاب الإمارة" حديث (١٩٠٧) وأبو داود فى "كتاب الطلاق" حديث (٢٢٠١) والترمذى فى "كتاب فضل الجهاد" حديث (١٦٤٧) وابن ماجه فى "كتاب الزهد" حديث (٤٢٢٧) قال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) سورة البقرة الآية: ١٧٦.

الفقه الاكبر فإنه قال: والقرآن فى المصاحف مكتوب وفى القلوب محفوظ وعلى الألسن مقروء وعلى النبى ﷺ منزل، ولفظنا بالقرآن مخلوق والقرآن غير مخلوق وما ذكر الله فى القرآن عن موسى عليه السلام وغيره وعن فرعون وإبليس فان ذلك كلام الله إخبارا عنهم وكلام موسى وغيره من المخلوقين مخلوق، والقرآن كلام الله لا كلامهم، وسمع موسى عليه السلام كلام الله تعالى فلما كلم موسى كلمه بكلامه الذي هو من صفاته لم يزل، وصفاته كلها خلاف صفات المخلوقين، يعلم لا كعلمنا ويقدر لا كقدرتنا ويرى لا كرؤيتنا ويتكلم لا ككلامنا. انتهى.

فقوله: ولما كلم موسى كلمه بكلامه الذي هو من صفاته يعلم منه أنه حين جاء كلمه، لا أنه لم يزل ولا يزال أزلا وأبدا يقول يا موسى كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾[1] ففهم منه الرد على من يقول من أصحابه أنه معنى واحد قائم بالنفس لا يتصور أن يسمع وإنما يخلق الله الصوت فى الهواء، كما قال أبو منصور الماتريدى وغيره.

وقوله: الذى هو من صفاته لم يزل، رد على من يقول: إنه حدث له وصف الكلام بعد أن لم يكن متكلما.

وبالجملة فكل ما تحتج به المعتزلة مما يدل على أنه كلام متعلق بمشيئته وقدرته وأنه يتكلم إذا شاء وأنه يتكلم شيئا بعد شيء فهو حق يجب قبوله وما يقوله من يقول: إن كلام الله قائم بذاته وأنه صفة له والصفة لا تقوم إلا بالموصوف فهو حق يجب قبوله والقول به، فيجب الأخذ بما فى قول كل من الطائفتين من الصواب والعدول عما يرده الشرع والعقل من قول كل منهما.

فإذا قالوا لنا: فهذا يلزم أن تكون الحوادث قامت به، **قلنا**: هذا القول مجمل ومن أنكر قبلكم قيام الحوادث بهذا المعنى به تعالى من الأئمة، ونصوص القرآن والسنة تتضمن ذلك ونصوص الأئمة أيضا مع صريح العقل.

ولا شك أن الرسل الذين خاطبوا الناس وأخبروهم أن الله قال ونادى وناجى ويقول لم يفهموهم أن هذه مخلوقات منفصلة عنه، بل الذى أفهموهم إياه أن الله نفسه هو الذى تكلم والكلام قائم به لا بغيره وأنه هو الذى تكلم به وقاله، كما قالت عائشة رضى الله عنها فى حديث الإفك: ولشأنى فى نفسى كان أحقر من أن يتكلم الله فىّ بوحى يُتلى، ولو كان المراد

---

(١) سورة الأعراف الآية: ١٤٣.

من ذلك كله خلاف مفهومه لوجب بيانه، إذ تأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز، ولا يعرف فى لغة ولا عقل قائل متكلم لا يقوم به القول والكلام، وإن زعموا أنهم فروا من ذلك حذرا من التشبيه فلا يثبتوا صفة غيره.

فإنهم إذا قالوا: يعلم لا كعلمنا، قلنا: ويتكلم لا كتكلمنا، وكذلك سائر الصفات وهل يعقل قادر لا تقوم به القدرة أو حى لا تقوم به الحياة وقد قال ﷺ "أعوذ بكلمات الله التامات التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر"[١] فهل يقول عاقل: إنه ﷺ عاذ بمخلوق؟ بل هذا كقوله: "أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك"[٢] وكقوله: "أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر"[٣] وكقوله: "وأعوذ بعظمتك أن نغتال من تحتنا"[٤] كل هذه من صفات الله تعالى.

وهذه المعانى مبسوطة فى مواضعها، وإنما أشير إليها هنا إشارة، وكثير من متأخرى الحنفية على أنه معنى واحد، والتعدد والتكثر والتجزؤ والتبعض حاصل فى الدلالات لا فى المدلول، وهذه العبارات مخلوقة، وسميت كلام الله لدلالتها عليه وتأديه بها، فإن عبَّر بالعربية فهو قرآن وإن عبر بالعبرانية فهو توراة فاختلفت العبارات لا الكلام، قالوا وتسمى هذه العبارات كلام الله مجازا.

وهذا الكلام فاسد فإن لازمه أن معنى قوله: ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ﴾[٥] هو معنى قوله: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾[٦] ومعنى آية الكرسى هو معنى آية الدَّيْن، ومعنى سورة الإخلاص هو معنى تبت يدا أبى لهب، وكلما تأمل الإنسان هذا القول تبين له فساده وعلم أنه مخالف كلام السلف، والحق أن التوراة والإنجيل والزبور والقرآن من كلام الله حقيقة وكلام الله تعالى لا يتناهى، فإنه لم يزل يتكلم بما شاء إذا شاء كيف شاء ولا يزال كذلك، قال تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ

---

(١) **صحيح**: أخرجه أحمد فى "المسند" (٣/ ٤١٩) وابن السنى فى "عمل اليوم والليلة" حديث (٦٤٢) ومالك فى "الموطأ" (٢/ ٩٥١) مرسلا عن يحيى بن سعيد، قال البيهقى: "رواه الطبرانى وفيه المسيب بن وضاح، وقد وثقه غير واحد وضعفه جماعة، وكذلك الحسن بن على العمرى، وبقية رجاله رجال الصحيح" بمجمع الزوائد (١٠/ ١٢٩) وصححه العلامة أحمد شاكر، والعلامة الألبانى.

(٢) **صحيح**: تقدم تخريجه.

(٣) **صحيح**: تقدم تخريجه.

(٤) **صحيح**: تقدم تخريجه.

(٥) سورة الإسراء الآية: ٣٢.

(٦) سورة البقرة الآية: ٤٣.

مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ ولو كان ما فى المصحف عبارة عن كلام الله وليس هو كلام الله لما حرم على الجنب والمحدث مسه ولو كان ما يقرأه القارئ ليس كلام الله لما حرم على الجنب والمحدث قراءته بل كلام الله محفوظ فى الصدور مقروء بالألسن مكتوب فى المصاحف، كما قال أبو حنيفة فى الفقه الأكبر وهو فى هذه المواضع كلها حقيقة، وإذا قيل: فيه خط فلان وكتابته فهم منه معنى صحيح حقيقي، وإذا قيل: فيه مداد قد كتب به فهم منه معنى صحيح حقيقي، وإذا قيل: المداد فى المصحف كانت الظرفية فيه غير الظرفية المفهومة من قول القائل: فيه السموات والأرض، وفيه محمد وعيسى، ونحو ذلك، وهذان المعنيان مغايران لمعنى قول القائل: فيه كلام الله، ومن لم يتنبه للفروق بين هذه المعانى ضل ولم يهتد للصواب، وكذلك الفرق بين القراءة التي هى فعل القارئ والمقروء الذى هو قول البارئ، من لم يهتد له فهو ضال أيضا، ولو أن إنسانا وجد فى ورقة مكتوبا:

❁ ألا كل شيء ما خلا الله باطل ❁

من خط كاتب معروف لقال هذا من كلام لبيد حقيقة وهذا خط فلان حقيقة، وهذا كل شيء حقيقة، وهذا خبر حقيقة، ولا تشتبه هذه الحقيقة بالأخرى.

والقرآن فى الأصل مصدر فتارة يذكر ويراد به القراءة، قال تعالى: ﴿ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ ﴾[1] وقال ﷺ "زينوا القرآن بأصواتكم"[2] وتارة يذكر ويراد به المقروء قال تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾[3]

(١) سورة الإسراء الآية: ٧٨.

(٢) **صحيح**: أخرجه أبو داود فى "كتاب الصلاة" حديث (١٤٦٨) والنسائى فى "الافتتاح" (٢/ ١٧٩، ١٨٠) وابن ماجه فى "إقامة الصلاة" حديث (١٣٤٢) والدارمى فى "كتاب فضائل القرآن" حديث (٣٤٩٥) وأبو نعيم فى "حلية الأولياء" حديث (٢٥٨٧) كما فى "تقريب البغية" (٢/ ٤٠٨) وابن أبى شيبة فى "المصنف" (٢/ ٥٢٢) والحاكم فى "المستدرك" (١/ ٥٧١).

(٣) سورة النحل الآية: ٩٨.

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[1] وقال ﷺ: "إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف . . ."[2] إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث الدالة على كل من المعنيين المذكورين، فالحقائق لها وجود عيني وذهني ولفظي ورسمي، ولكن الأعيان تعلم ثم تذكر ثم تكتب، فكتابتها فى المصحف هى المرتبة الرابعة، وأما الكلام فإنه ليس بينه وبين المصحف واسطة، بل هو الذى يكتب بلا واسطة ولا لسان.

والفرق بين كونه فى زبر الأولين وبين كونه فى رق منشور أو لوح محفوظ أو فى كتاب مكنون واضح، فقوله عن القرآن: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[3] أى ذكره ووصفه، والإخبار عنه، كما أن محمدا مكتوب عندهم إذ القرآن أنزله الله على محمد لم ينزله على غيره أصلا ولهذا قال فى الزبر و لم يقل فى الصحف ولا فى الرق لأن الزبر جمع زبور، والزبر هو الكتابة والجمع، فقوله: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أى مزبور الأولين، ففي نفس اللفظ واشتقاقه ما يبين المعنى المراد ويبين كمال بيان القرآن وخلوصه من اللبس وهذا مثل قوله: ﴿ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ ﴾[4] أى ذكره بخلاف قوله: ﴿ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴾[5] و ﴿ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾[6] و ﴿ فِى كِتَـٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴾[7] لأن العامل فى الظرف إما أن يكون من الأفعال العامة مثل الكون والاستقرار والحصول ونحو ذلك، أو يقدر مكتوب فى كتاب أو فى رق، والكتاب تارة يذكر ويراد به محل الكتابة، وتارة يذكر ويراد به الكلام المكتوب، ويجب التفريق بين كتابة الكلام فى الكتاب وكتابة الأعيان الموجودة فى الخارج فيه، فإن تلك إنما يكتب ذكرها، وكلما تدبر الإنسان هذا المعنى وضح له الفرق.

---

(١) سورة الأعراف الآية: ٢٠٤.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب الخصومات" حديث (٢٤١٩) ومسلم فى "كتاب صلاة المسافرين" حديث (٨١٨) وأبو داود فى "كتاب الصلاة" حديث (١٤٧٥) والترمذى فى "كتاب القراءات" حديث (٢٩٤٣) وغيرهم.

(٣) سورة الشعراء الآية: ١٩٦.

(٤) سورة الأعراف الآية: ١٥٦.

(٥) سورة الطور الآية: ٣.

(٦) سورة البروج الآية: ٢٢.

(٧) سورة الواقعة الآية: ٧٨.

وحقيقة كلام الله تعالى الخارجية هو ما يسمع منه أو من المبلغ عنه، فإذا سمعه السامع علمه وحفظه، فكلام الله مسموع له معلوم محفوظ، فإذا قاله السامع فهو مقروء له متلو، فإن كتبه فهو مكتوب له مرسوم وهو حقيقة فى هذه الوجوه كلها لا يصح نفيه، والمجاز يصح نفيه، فلا يجوز أن يقال ليس فى المصحف كلام الله ولا ما قرأ القارئ كلام الله، وقد قال تعالى: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ﴾(١) وهو لا يسمع كلام الله من الله وإنما يسمعه من مبلغه عن الله، والآية تدل على فساد قول من قال: إن المسموع عبارة عن كلام الله وليس هو كلام الله، فإنه تعالى قال: ﴿ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ﴾ ولم يقل حتى يسمع ما هو عبارة عن كلام الله، والأصل الحقيقة، ومن قال: إن المكتوب فى المصاحف عبارة عن كلام الله أو حكاية كلام الله وليس فيها كلام الله فقد خالف الكتاب والسنة وسلف الأمة، وكفى بذلك ضلالا.

وكلام الطحاوى رحمه الله يرد قول من قال إنه معنى واحد لا يتصور سماعه منه وأن المسموع المنزل المقروء والمكتوب ليس كلام الله وإنما هو عبارة عنه فإن الطحاوى رحمه الله يقول كلام الله منه بدا، وكذلك قال غيره من السلف، ويقولون: منه بدا وإليه يعود، وإنما قالوا: منه بدا لأن الجهمية من المعتزلة وغيرهم كانوا يقولون: إنه خلق الكلام فى محل فبدأ الكلام من ذلك المحل، فقال السلف: منه بدا، أى: هو المتكلم به، فمنه بدا لا من بعض المخلوقات، كما قال تعالى: ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝ ﴾(٢) ﴿ وَلَـٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى ﴾(٣) ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾(٤) ومعنى قولهم: وإليه يعود، يرفع من الصدور والمصاحف فلا يبقى فى الصدور منه آية ولا فى المصاحف كما جاء ذلك فى عدة آثار.

وقوله: بلا كيفية أى لا تعرف كيفية تكلمه به قولا ليس بالمجاز، وأنزله على رسوله وحيا أى أنزله اليه على لسان الملك فسمعه المَلَك جبرائيل من الله وسمعه الرسول محمد ﷺ من الملك

---

(١) سورة التوبة الآية: ٦.
(٢) سورة الزمر الآية الأولى.
(٣) سورة السجدة الآية: ١٣.
(٤) سورة النحل الآية: ١٠٢.

وقرأ على النــاس، قــال تعــالى: ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾[١]، وقال تعــالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾[٢] وفى ذلك إثبات صفة العلو لله تعالى.

وقد أورد على ذلك أن إنزال القرآن نظير إنزال المطر أو إنزاله الحديد وإنزال ثمانيــة أزواج من الأنعام.

والجواب أن إنزال القرآن فيه مذكور أنه إنزال من الله، قــال تعــالى: ﴿حمٓ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾[٣] وقال تعــالى: ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾[٤] وقــال تعــالى: ﴿ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾[٥] وقال تعالى: ﴿ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾[٦] وقــال تعــالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾[٧] وقال تعالى: ﴿ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[٨] وقال تعــالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾[٩] وقال: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾[١٠] وإنــزال المطر مقيد بأنه منــزل من السماء، قال تعالى: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾[١١] والسماء العلو، وقد جاء فى مكان آخر أنه منــزل من المزن، والمزن السحاب، وفى مكان آخر أنه منــزل مــن المعصرات، وإنزال الحديد والأنعام مطلق، فكيف يشبه هذا الإنزال بهذا الإنزال؟ فالحديد إنمــا يكون من المعادن التى فى الجبال، وهى عالية على الأرض، وقد قيل: إنه كلما كان معدنه أعلى كان حديده أجود، والأنعام تخلق بالتوالد المستلزم إنزال الذكور الماء من أصلابها إلى أرحــام الإناث، ولهذا يقال: أنزل و لم يقل: نزل، ثم الأجنة تنــزل من بطون الأمهات إلى وجه الأرض.

(١) سورة الإسراء الآية: ١٠٦.
(٢) سورة الشعراء الآيات: ١٩٣ : ١٩٥.
(٣) سورة غافر الآيتان ١، ٢.
(٤) سورة الزمر الآية الأولى.
(٥) سورة فصلت الآية: ٢.
(٦) سورة فصلت الآية: ٤٢.
(٧) سورة الدخان الآيات: ٣ : ٥.
(٨) سورة القصص الآية: ٤٩.
(٩) سورة الأنعام الآية: ١١٤.
(١٠) سورة النحل الآية: ١٠٢.
(١١) سورة الرعد الآية: ١٧.

ومن المعلوم أن الأنعام تعلو فحولها إناثها عند الوطء وينـــزل ماء الفحل من علو إلى رحم الأنثى، وتلقى ولدها عند الولادة من علو إلى سفل وعلى هذا فيحتمل قوله: ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ ﴾(١) وجهين:

أحدهما: أن تكون "من" لبيان الجنس. **الثانى:** أن تكون "من" لابتداء الغاية.

وهذان الوجـــهان يحتمـــلان فى قولـــه: ﴿ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ أَزْوَٰجًا ﴾(٢).

وقوله: وصدقه المؤمنون على ذلك حقا، الإشارة إلى ما ذكره من التكلم على الوجه المذكور وإنزاله أى هذا قول الصحابة والتابعين لهم بإحسان وهم السلف الصالح وأن هذا حق وصدق.

وقوله: وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة ليس بمخلوق ككلام البرية رد على المعتزلة بهذا القول ظاهر، وفى قوله بالحقيقة رد على من قال: إنه معنى واحد قام بذات الله لم يسمع منه وإنما هو الكلام النفسانى، لأنه لا يقال لمن قام به الكلام النفسانى و لم يتكلم به: إن هذا كلام حقيقة وإلا للزم ان يكون الأخرس متكلما، ولزم أن لا يكون الذى فى المصحف عند الإطـــلاق هـــو القرآن ولا كلام الله، ولكن عبارة عنه ليست هى كلام الله، كما لو أشار أخرس إلى شـــخص بإشارة فهم بها مقصوده فكتب ذلك الشخص عبارته عن المعنى الذى أوحاه إليه ذلك الأخـــرس فالمكتوب هو عبارة ذلك الشخص عن ذلك المعنى، وهذا المثل مطابق غاية المطابقة لما يقولونـــه، وإن كان الله تعالى لا يسميه أحد "أخرس" لكن عندهم أن الملك فهم منه معنى قائما بنفســـه لم يسمع منه حرفا ولا صوتا بل فهم معنى مجردا ثم عبر عنه، فهو الذى أحدث نظم القرآن وتأليفه العربى وأن الله خلق فى بعض الأجسام كالهوى الذى هو دون الملك هذه العبارة.

ويقال لمن قال: إنه معنى واحد: هل سمع موسى عليه السلام جميع المعنى أو بعضه؟ فـــإن قال: سمعه كله فقد زعم أنه سمع جميع كلام الله، وفساد هذا ظاهر، وإن قال: بعضه، فقد قـــال يتبعض، وكذلك كل من كلمه الله أو أنزل إليه شيئا من كلامه.

---

(١) سورة الزمر الآية: ٦.

(٢) سورة الشورى الآية: ١١.

ولما قال تعالى للملائكة: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾[١] ولما قال لهم: ﴿ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ ﴾[٢] وأمثال ذلك هل هذا جميع كلامه أو بعضه فإن قال إنه جميعه فهذا مكابرة وإن قال بعضه فقد اعترف بتعدده.

وللناس فى مسمى الكلام والقول عند الاطلاق أربعة أقوال:

أحدها: أنه يتناول اللفظ والمعنى جميعا كما يتناول لفظ الإنسان الروح والبدن معا وهذا قول السلف.

الثانى: اسم "اللفظ" فقط، والمعنى ليس جزء مسماه، بل هو مدلول مسماه وهذا قول جماعة من المعتزلة وغيرهم.

الثالث: أنه اسم للمعنى فقط وإطلاقه على اللفظ مجاز لأنه دال عليه وهذا قول ابن كلاب ومن اتبعه.

الرابع: أنه مشترك بين اللفظ والمعنى وهذا قول بعض المتأخرين من الكلابية.

ولهم قول خامس يروى عن أبى الحسن أنه مجاز فى كلام الله حقيقة فى كلام الآدميين لأن حروف الآدميين تقوم بهم فلا يكون الكلام قائما بغير المتكلم بخلاف كلام الله فإنه لا يقوم عنده بالله فيمتنع أن يكون كلامه وهذا مبسوط فى موضعه.

وأما من قال: إنه معنى واحد واستدل عليه بقول الأخطل:

إن الكلام لفى الفؤاد وإنما ... جعل اللسان على الفؤاد دليلا

فاستدلال فاسد، ولو استدل مستدل بحديث فى الصحيحين لقالوا هذا خبر واحد ويكون مما اتفق العلماء على تصديقه وتلقيه بالقبول والعمل به فكيف وهذا البيت قد قيل إنه موضوع منسوب إلى الأخطل وليس هو فى ديوانه وقيل إنما قال:

۞ إن البيان لفى الفؤاد ۞

وهذا أقرب إلى الصحة، وعلى تقدير صحته عنه فلا يجوز الاستدلال به فإن النصارى قد ضلوا فى معنى الكلام وزعموا أن عيسى عليه السلام نفس كلمة الله واتحد اللاهوت بالناسوت

(١) سورة البقرة الآية: ٣٠.

(٢) سورة البقرة الآية: ٣٤.

أى شىء من الإله بشىء من الناس أفيستدل بقول نصرانى قد ضل فى معنى الكلام على معنى الكلام ويترك ما يعلم من معنى الكلام فى لغة العرب وأيضا فمعناه غير صحيح إذ لازمه أن الأخرس يسمى متكلما لقيام الكلام بقلبه وإن لم ينطق به ولم يسمع منه، والكلام على ذلك مبسوط فى موضعه وإنما أشير إليه إشارة.

وهنا معنى عجيب وهو أن هذا القول له شبه قوى بقول النصارى القائلين باللاهوت والناسوت فإنهم يقولون: كلام الله هو المعنى القائم بذات الله الذى لا يمكن سماعه وأما النظم المسموع فمخلوق.

فإفهام المعنى القديم بالنظم المخلوق يشبه امتزاج اللاهوت بالناسوت الذى قالته النصارى فى عيسى عليه السلام، فانظر إلى هذا الشبه ما أعجبه.

ويرد قول من قال بأن الكلام هو المعنى القائم بالنفس قوله ﷺ: "إن صلاتنا هذه لا يصلح فيها شىء من كلام الناس"[١] وقال: "إن الله يحدث من أمره ما يشاء، وإن مما أحدث أن لا تكلموا فى الصلاة"[٢]، واتفق العلماء على أن المصلى إذا تكلم فى الصلاة عامدا لغير مصلحتها بطلت صلاته واتفقوا كلهم على أن ما يقوم بالقلب من تصديق بأمور دنيوية وطلب لا يبطل الصلاة وإنما يبطلها التكلم بذلك فعلم اتفاق المسلمين على أن هذا ليس بكلام.

وأيضا ففى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال: "إن الله تجاوز لأمتى عما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم به أو تعمل به"[٣] فقد أخبر أن الله عفا عن حديث النفس إلا أن تتكلم، ففرق بين

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم فى "كتاب الصلاة" حديث (٥٣٧) وأبو داود فى "كتاب الصلاة" حديث (٩٣٠) والنسائى فى (٣/ ١٤) وأحمد فى "المسند" حديث (٢٣٦٥٢، ٢٣٦٥٥، ٢٣٦٥٦) وأبو عوانة فى "المسند" حديث (١٧٢٧) وأبو داود الطيالسى فى "المسند" حديث (١١٠٥).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب التوحيد" معلقا ولكن بصيغة الجزم، وأبو داود فى "كتاب الصلاة" حديث (٩٢٤) والنسائى (٣/ ١٩) وسنده حسن، والحميدى (٩٤) قال ابن حجر: هذا طرف من حديث أخرجه أبو داود واللفظ له، والنسائى وأحمد، وصححه ابن حبان. "الفتح" (١٣/ ٦٠٣).

(٣) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب العتق" حديث (٢٥٢٨) وأطرافه فى (٥٢٦٩، ٦٦٦٤) ومسلم فى "كتاب الإيمان" حديث (١٢٧) وأبو داود فى "كتاب الطلاق" حديث (٢٢٠٩) وابن ماجه فى "كتاب الطلاق" حديث (٢٠٤٠) والنسائى (٦/ ١٥٦).

حديث النفس وبين الكلام، وأخبر أنه لا يؤاخذ به حتى يتكلم به، والمراد حتى ينطق به اللسان باتفاق العلماء، فعلم أن هذا هو الكلام فى اللغة لأن الشارع إنما خاطبنا بلغة العرب.

وأيضا ففى السنن أن معاذاﷺ قال: يا رسول الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: "وهل يكب الناس فى النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم"(١) فبين أن الكلام إنما هو باللسان، فلفظ القول والكلام وما تصرف منهما من فعل ماض ومضارع وأمر واسم فاعل إنما يعرف فى القرآن والسنة وسائر كلام العرب، إذا كان لفظا ومعنى، ولم يكن فى مسمى الكلام نزاع بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان وإنما حصل النزال بين المتأخرين من علماء أهل البدع ثم انتشر.

ولا ريب أن مسمى الكلام والقول ونحوهما ليس هو مما يحتاج فيه إلى قول شاعر، فإن هذا مما تكلم به الأولون والآخرون من أهل اللغة وعرفوا معناه كما عرفوا مسمى الرأس واليد والرجل ونحو ذلك.

ولا شك أن من قال: إن كلام الله معنى واحد قائم بنفسه تعالى وأن المتلو المحفوظ المكتوب المسموع من القارئ حكاية كلام الله وهو مخلوق فقد قال بخلق القرآن وهو لا يشعر، فإن الله يقول: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ ﴾(٢) أفتراه سبحانه وتعالى يشير إلى ما فى نفسه أو إلى المتلو المسموع، ولا شك أن الإشارة إنما هى إلى هذا المتلو المسموع إذ ما فى ذات الله غير مشار إليه ولا منزل ولا متلو ولا مسموع.

وقوله: ﴿ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ ﴾ أفتراه سبحانه يقول لا يأتون بمثل ما فى نفسى مما لم يسمعوه ولم يعرفوه، وما فى نفس الله عز وجل لا حيلة إلى الوصول إليه ولا إلى الوقوف عليه.

فإن قالوا: إنما أشار إلى حكاية ما فى نفسه وعبارته وهو المتلو المكتوب المسموع فأما أن يشير إلى ذاته فلا، فهذا صريح القول بأن القرآن مخلوق بل هم فى ذلك أكفر من المعتزلة، فإن

(١) صحيح: أخرجه الترمذى فى "كتاب الإيمان" حديث (٢٦١٦) وأحمد فى "المسند" حديث (٢١٩١٥) وابن ماجه فى "كتاب الفتن" حديث (٣٩٧٣) قال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح.
قلت: وهو كما قال، رحمه الله تعالى، وإن كان فى سنده انقطاع عند الترمذى فهو صحيح بمجموع طرقه.

(٢) سورة الإسراء الآية: ٨٨.

حكاية الشيء بمثله وشبهه وهذا تصريح بأن صفات الله محكية ولو كانت هذه التلاوة حكاية لكان الناس قد أتوا بمثل كلام الله، فأين عجزهم؟ ويكون التالى فى زعمهم قد حكى بصوت وحرف ما ليس بصوت وحرف، وليس القرآن إلا سُوَرًا مسورة وآيات مسطرة فى صحف مطهرة، قال تعالى: ﴿ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ ﴾[1] ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[2] ﴿ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴾[3] ويكتب لمن قرأ بكل حرف عشر حسنات، قال ﷺ: "أما إنى لا أقول الم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف"[4] وهو المحفوظ فى صدور الحافظين المسموع من ألسن التالين.

قال الشيخ حافظ الدين النسفى، رحمه الله، فى المنار: إن القرآن اسم للنظم والمعنى، وكذا قال غيره من أهل الأصول، وما ينسب إلى أبى حنيفة رحمه الله أن من قرأ فى الصلاة بالفارسية أجزأه فقد رجع عنه وقال: لا يجوز القراءة مع القدرة بغير العربية، وقالوا: لو قرأ بغير العربية إما أن يكون مجنونا فيداوى، أو زنديقا فيقتل، لأن الله تكلم به بهذه اللغة والإعجاز حصل بنظمه ومعناه.

وقوله: ومن سمعه وقال: إنه كلام البشر فقد كفر، لا شك فى تكفير من أنكر أن القرآن كلام الله، بل قال: إنه كلام محمد أو غيره من الخلق، ملكا كان أو بشرا، وأما إذا أقر أنه كلام الله ثم أول وحرف فقد وافق قول من قال: ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴾[5] فى بعض ما به كفر، وأولئك الذين استزلهم الشيطان، وسيأتى الكلام عليه عند قول الشيخ: ولا نكفر أحدا من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله إن شاء الله تعالى.

---

(١) سورة هود الآية: ١٣.

(٢) سورة العنكبوت الآية: ٤٩.

(٣) سورة عبس الآيتان: ١٣، ١٤.

(٤) **صحيح**: أخرجه الترمذى فى "كتاب فضائل القرآن" حديث (٢٩١٠) وابن أبى شيبة فى "المصنف" (١٠/ ٤٦١) وأبو نعيم فى "حلية الأولياء" (٢٥٨٠) كما فى "تقريب البغية" (٢/ ٤٠٥) وابن عدى فى "الكامل" (٥/ ١٧٨٠) والطبرانى فى "الكبير" (١٨/ ٧٦) قال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه، وقال الشيخ الألبانى: صحيح.

(٥) سورة المدثر الآية: ٢٥.

وقوله: ولا يشبه قول البشر يعنى أنه أشرف وأفصح وأصدق.

قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾[١] وقال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ ﴾[٢] وقال تعالى: ﴿ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ ﴾[٣] وقال تعالى: ﴿ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ ﴾[٤].

فلما عجزوا وهم فصحاء العرب مع شدة العداوة عن الإتيان بسورة مثله تبين صدق الرسول ﷺ أنه من عند الله وإعجازه من جهة نظمه ومعناه لا من جهة أحدهما فقط، هذا مع أنه قرآن عربى غير ذى عوج بلسان عربى مبين، أى بلغة العربية، فنفى المشابَهة من حيث التكلم ومن حيث التكلم به، ومن حيث النظم والمعنى لا من حيث الكلمات والحروف، وإلى هذا وقعت الإشارة بالحروف المقطعة فى أوائل السور، أى إنه فى أسلوب كلامهم وبلغتهم التى يخاطبون بها، ألا ترى أنه يأتى بعد الحروف المقطعة بذكر القرآن، كما فى قوله: ﴿ الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾[٥] ﴿ الٓمٓ ۝ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾[٦] ﴿ الٓمٓصٓ ۝ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾[٧] ﴿ الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾[٨] وكذلك الباقى، ينبههم أن هذا الرسول الكريم لم يأتكم بما لا تعرفونه بل خاطبكم بلسانكم.

ولكن أهل المقالات الفاسدة يتذرعون بمثل هذا إلى نفى تكلم الله به وسماع جبرائيل منه كما يتذرعون بقوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾[٩] إلى نفى الصفات، وفى الآية ما يرد عليهم قولهم وهو قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝ ﴾ كما فى قوله تعالى: ﴿ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ ﴾[١٠] ما يرد على من ينفى الحرف فإنه قال: ﴿ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ ﴾ ولم يقل فأتوا بحرف أو بكلمة وأقصر سورة فى القرآن ثلاث آيات.

ولهذا قال أبو يوسف ومحمد: إن أدنى ما يجزئ فى الصلاة ثلاث آيات قصار، أو آية طويلة، لأنه لا يقع الإعجاز بدون ذلك، والله أعلم.

---

(١) سورة النساء الآية: ٨٧.
(٢) سورة الإسراء الآية: ٨٨.
(٣) سورة هود الآية: ١٣.
(٤) سورة يونس الآية: ٣٨.
(٥) سورة البقرة الآيتان: ١، ٢.
(٦) سورة آل عمران الآيات ١ : ٣.
(٧) سورة الأعراف الآيتان ١، ٢.
(٨) سورة يونس الآية الأولى.
(٩) سورة الشورى الآية: ١١.
(١٠) سورة يونس الآية: ٣٨.

❁ **قوله: ومن وصف الله بمعنى من معانى البشر فقد كفر، من أبصر هذا اعتبر وعـــن مثل قول الكفار انزجر علم أنه بصفاته ليس كالبشر:**

ش: لما ذكر فيما تقدم ان القرآن كلام الله حقيقة منه بدا نبه بعد ذلك على أنـــه تعـــالى بصفاته ليس كالبشر، نفيا للتشبيه عقيب الإثبات يعنى أن الله تعالى وإن وصف بأنه متكلم لكن لا يوصف بمعنى من معانى البشر التى يكون الإنسان بها متكلما، فإن الله ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

وما أحسن المثل المضروب للمثبت للصفات من غير تشبيه ولا تعطيل باللبن الخالص السائغ للشاربين يخرج من بين فرث التعطيل ودم التشبيه والمعطل يعبد عدما والمشبه يعبد صنما.

وسيأتى فى كلام الشيخ: ومن لم يتوق النفى والتشبيه زل ولم يصب التنـــزيه، وكذا قوله: وهو بين التشبيه والتعطيل، أى دين الاسلام ولا شك أن التعطيل شر من التشبيه بما سأذكره إن شاء الله تعالى وليس ما وصف الله به نفسه ولا ما وصفه به رسوله تشبيها بل صفات الخـــالق كما يليق به وصفات المخلوق كما يليق به.

وقوله: فمن أبصر هذا اعتبر، أى من نظر بعين بصيرته فيما قاله من إثبات الوصف ونفـــى التشبيه ووعيد المشبه اعتبر وانزجر عن مثل قول الكفار.

❁ **قوله: والرؤية حق لأهل الجنة بغير إحاطة ولا كيفية كما نطق به كتاب ربنـــا: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝ ﴾[1] وتفسيره على ما أراد الله تعالى وعلِمه، وكل ما جاء فى ذلك من الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ فهو كما قال، ومعنـــاه علـــى مـــا أراد، لا ندخل فى ذلك متأولين بآرائنا ولا متوهمين بأهوائنا، فإنه ما سلِم فى دينه إلا من سلَّم لله عز وجل ولرسوله ﷺ ورد علم ما اشتبه عليه إلى عالمه:**

ش: المخالف فى الرؤية الجهمية والمعتزلة ومن تبعهم من الخوارج والإمامية، وقولهم بـــاطل مردود بالكتاب السنة وقد قال بثبوت الرؤية الصحابة والتابعون وأئمة الإســـلام المعروفـــون بالامامة فى الدين وأهل الحديث وسائر طوائف اهل الكلام المنسوبون إلى السنة والجماعة.

---

(١) سورة القيامة الآيتان: ٢٢، ٢٣.

وهذه المسألة من أشرف مسائل أصول الدين وأجلها وهى الغاية التى شمر إليها المشـــمرون وتنافس المتنافسون وحُرمها الذين هم عن ربِّهم محجوبون وعن بابه مردودون.

وقد ذكر الشيخ رحمه الله من الأدلة قولـــه تعـــالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝ ﴾[1] وهى من أظهر الأدلة، وأما من أبى إلا تحريفها بما يسميه تأويلا فتأويل نصوص المعاد والجنة والنار والحساب أسهل من تأويلها على أرباب التأويل ولا يشاء مبطل أن يتـــأول النصوص ويحرفها عن مواضعها إلا وجد إلى ذلك من السبيل ما وجده متأول هذه النصوص.

وهذا الذى أفسد الدنيا والدين، وهكذا فعلت اليهود والنصـــارى فى نصـــوص التـــوراة والإنجيل وحذرنا الله أن نفعل مثلهم، وأبى المبطلون إلا سلوك سبيلهم وكم جنى التأويل الفاسد على الدين وأهله من جناية، فهل قُتل عثمان ﷺ إلا بالتأويل الفاسد، وكذا ما جرى فى يـــوم الجمل وصفين ومقتل الحسين والحرة، وهل خرجت الخوارج واعـــتزلت المعتزلـــة ورفضـــت الروافض وافترقت الأمة على ثلاث وسبعين فرقة إلا بالتأويل الفاسد.

وإضافة النظر إلى الوجه الذى هو محله فى هذه الآية وتعديته بأداة "إلى" الصريحة فى نظـــر العين وإخلاء الكلام من قرينة تدل على خلافه حقيقة موضوعة صريحة فى أن الله أراد بذلـــك نظر العين التى فى الوجه إلى الرب جل جلاله.

فإن النظر له عدة استعمالات بحسب صلاته وتعديه بنفسه، فإن عدى بنفســـه فمعنـــاه التوقف والانتظار كقوله: ﴿ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾[2] وإن عدى بـــ "فى" فمعنـــاه التفكر والاعتبار كقوله: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[3] وإن عدى بـــ "إلى" فمعناه المعاينة بالابصار كقوله: ﴿ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ ﴾[4] فكيف اذا أضيف إلى الوجه الذي هو محل البصر، وروى ابن مردويه[5] بسنده إلى ابن عمرو قال: قال رســـول الله ﷺ

(١) سورة القيامة الآيتان: ٢٢، ٢٣.
(٢) سورة الحديد الآية: ١٣.
(٣) سورة الأعراف الآية: ١٨٥.
(٤) سورة الأنعام الآية: ٩٩.
(٥) هو الحافظ المجود العلامة، محدث أصبهان، أبو بكر، أحمد بن موسى بن مردويه بـــن فـــورك، صـــاحب التصانيف العديدة، منها: التفسير الكبير والتاريخ وغيرهما، قال الذهبي: كان من فرسان الحديث، فهـــمًا –

فى قوله: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ ﴾ قال: من البهاء والحسن ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝ ﴾ قال: فى وجه الله عز وجل، عن الحسن قال: نظرت إلى ربِّها فنضرت بنوره، وقال أبو صالح عن ابن عباس رضى الله عنهما: ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝ ﴾ قال: تنظر إلى وجه ربِّها عز وجل، وقال عكرمة: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ ﴾ قال: من النعيم ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝ ﴾ قال: تنظر إلى ربِّها نظرا، ثم حكى عن ابن عباس مثله، وهذا قول المفسرين من أهل السنة والحديث، وقال تعالى: ﴿ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ۝ ﴾[(1)] قال الطبري: قال على بن أبى طالب وأنس بن مالك: هو النظر إلى وجه الله عز وجل، وقال: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾[(2)] فالحسنى الجنة والزيادة هى النظر إلى وجهه الكريم، فسرها بذلك رسول الله ﷺ والصحابة من بعده، كما روى مسلم فى صحيحه عن صهيب قال: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ قال: "إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى مناد: يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعدا يريد أن ينجزكموه فيقولون: ما هو؟ ألم يثقل موازيننا ويبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار، فيكشف الحجاب فينظرون إليه، فما أعطاهم شيئا أحب إليهم من النظر إليه، وهى الزيادة"[(3)] ورواه غيره بأسانيد متعددة وألفاظ أخر معناها أن الزيادة النظر إلى وجه الله عز وجل، وكذلك فسرها الصحابة ﷺ روى ابن جرير ذلك عن جماعة منهم أبو بكر الصديق ﷺ وحذيفة وأبو موسى الأشعرى وابن عباس ﷺ.

وقال تعالى: ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝ ﴾[(4)] احتج الشافعى رحمه الله وغيره من الأئمة بهذه الآية على الرؤية لأهل الجنة، ذكر ذلك الطبرى وغيره عن المزنى عن

= يقظا متقنا، كثير الحديث جدا، ومن نظر فى تواليفه عرف محله من الحفظ، توفى، رحمه الله تعالى، سنة ٤١٠هـ.

(١) سورة ق الآية: ٣٥.

(٢) سورة يونس الآية: ٢٦.

(٣) صحيح: أخرجه مسلم فى "كتاب الإيمان" حديث (١٨١) والترمذى فى "كتاب صفة الجنة" حديث (٢٥٥٥) وابن ماجه فى "المقدمة" حديث (١٨٧) وأحمد فى "المسند" حديث (٨٥١٦، ٨٨٩٧، ١٨٨٣٧، ١٨٨٤٣، ١١٠٠٨، ١١٤٧١، ٢٣٨٠٩) وأبو داود الطيالسى فى "المسند" حديث (١٣١٥) وابن أبى عاصم فى "كتاب السنة" حديث (٤٧٢) وابن حبان فى "صحيحه" حديث (٧٣٩٨) والشاشى فى "المسند" (٢/ ٣٨٧، ٣٨٨) حديث (٩٨٨، ٩٨٩، ٩٩٠، ٩٩١).

(٤) سورة المطففين الآية: ١٥.

الشافعى، وقال الحاكم: حدثنا الأصم حدثنا الربيع بن سليمان قال حضرت محمد إدريس الشافعى وقد جاءته رقعة من الصعيد فيها: ما تقول فى قول الله عز وجل: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ فقال الشافعى: لما أن حجب هؤلاء فى السخط كان فى هذا دليل على أن أولياءه يرونه فى الرضى.

وأما استدلال المعتزلة بقوله تعالى: ﴿ لَن تَرَىٰنِى ﴾[1] وبقوله تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾[2] فالآيتان دليل عليهم.

أما الآية الأولى فالاستدلال منها على ثبوت رؤيته من وجوه:

أحدها: أنه لا يظن بكليم الله ورسوله الكريم وأعلم الناس بربه فى وقته أن يسأل ما لا يجوز عليه بل هو عندهم من أعظم المحال.

الثانى: أن الله لم ينكر عليه سؤاله، ولما سأل نوح ربه نجاة ابنه أنكر سؤاله وقال: ﴿ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾[3].

الثالث: أنه تعالى قال: ﴿ لَن تَرَىٰنِى ﴾ ولم يقل: إنى لا أرى، أو لا تجوز رؤيتى، أو لست بمرئى، والفرق بين الجوابين ظاهر، ألا ترى أن من كان فى كمه حجر فظنه رجل طعاما فقال: أطعمنيه، فالجواب الصحيح أنه لا يؤكل، أما إذا كان طعاما صح أن يقال: إنك لن تأكله، وهذا يدل على أنه سبحانه مرئى ولكن موسى لا تحتمل قواه رؤيته فى هذه الدار لضعف قوى البشر فيها عن رؤيته تعالى.

يوضحه **الوجه الرابع:** وهو قوله: ﴿ وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ﴾[4] فأعلمه أن الجبل مع قوته وصلابته لا يثبت للتجلى فى هذه الدار فكيف بالبشر الذى خلق من ضعف.

الخامس: أن الله سبحانه قادر على أن يجعل الجبل مستقرا وذلك ممكن، وقد علق به الرؤية، ولو كان محالا لكان نظير أن يقول إن استقر الجبل فسوف آكل وأشرب وأنام، والكل عندهم سواء.

---

(١) سورة الأعراف الآية: ١٤٣.
(٢) سورة الأنعام الآية: ١٠٣.
(٣) سورة هود الآية: ٤٦.
(٤) سورة الأعراف الآية: ١٤٣.

السادس: قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا ﴾[١] فإذا جاز أن يتجلى للجبل الذى هو جماد لا ثواب له ولا عقاب فكيف يمتنع أن يتجلى لرسوله وأوليائه فى دار كرامته، ولكن الله أعلم موسى أن الجبل إذا لم يثبت لرؤيته فى هذه الدار فالبشر أضعف.

السابع: أن الله كلم موسى وناداه وناجاه، ومن جاز عليه التكلم والتكليم، وأن يسمع مخاطبه كلامه بغير واسطة، فرؤيته أولى بالجواز، ولهذا لا يتم إنكار رؤيته إلا بإنكار كلامه، وقد جمعوا بينهما.

وأما دعواهم تأييد النفى بـ "لن" وأن ذلك يدل على نفى الرؤية فى الآخرة ففاسد فإنها لو قيدت بالتأبيد لا يدل على دوام النفى فى الآخرة فكيف إذا أطلقت قال تعالى: ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا ﴾[٢] مع قوله: ﴿ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾[٣] ولأنها لو كانت للتأبيد المطلق لما جاز تحديد الفعل بعدها، وقد جاء ذلك قال تعالى: ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ ﴾[٤] فثبت أن "لن" لا تقتضى المنفى المؤبد.

قال الشيخ جمال الدين بن مالك رحمه الله:

ومن رأى النفى بلن مؤبدا   فقوله اردد وسواه فاعضدا

وأما الآية الثانية فالاستدلال بها على الرؤية من وجه حسن لطيف وهو أن الله تعالى إنما ذكرها فى سياق التمدح، ومعلوم أن المدح إنما يكون بالصفات الثبوتية، وأما العدم المحض فليس بكمال فلا يمدح به، وإنما يمدح الرب تعالى بالنفى إذا تضمن أمرا وجوديا كمدحه بنفى السنة والنوم المتضمن كمال القيومية، ونفى الموت المتضمن كمال الحياة، ونفى اللغوب والإعياء المتضمن كمال القدرة، ونفى الشريك والصاحبة والولد والظهير المتضمن كمال الربوبية والألوهية وقهره، ونفى الأكل والشرب المتضمن كمال صمديته وغناه، ونفى الشفاعة عنده إلا بإذنه المتضمن كمال توحده وغناه عن خلقه، ونفى الظلم المتضمن كمال عدله وعلمه وغناه ونفى النسيان وعزوب شيء عن علمه المتضمن كمال علمه واحاطته ونفى المثل المتضمن لكمال

(١) سورة الأعراف الآية: ١٤٣.

(٢) سورة البقرة الآية: ٩٥.

(٣) سورة الزخرف الآية: ٧٧.

(٤) سورة يوسف الآية: ٨٠.

ذاته وصفاته، ولهذا لم يمتدح بعدم محض لم يتضمن أمرا ثبوتيا فإن المعدم يشارك الموصوف فى ذلك العدم ولا يوصف الكامل بأمر يشترك هو والمعدوم فيه، فإن المعنى أنه يرى ولا يدرك ولا يحاط به، فقوله: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ (١) يدل على كمال عظمته وأنه أكبر من كل شيء وأنه لكمال عظمته لا يدرك بحيث يحاط به، فإن الإدراك هو الإحاطة بالشيء، وهو قدر زائد على الرؤية، كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝ قَالَ كَلَّآ ﴾ فلم ينف موسى الرؤية وإنما نفى الإدراك، فالرؤية والإدراك كل منهما يوجد مع الآخر وبدونه، فالرب تعالى يرى ولا يدرك كما يعلم ولا يحاط به علما، وهذا هو الذى فهمه الصحابة والأئمة من الآية، كما ذكرت أقوالهم فى تفسير الآية بل هذه الشمس المخلوقة لا يتمكن رائيها من إدراكها على ما هى عليه.

وأما الأحاديث عن النبى ﷺ وأصحابه الدالة على الرؤية فمتواترة رواها أصحاب الصحاح والمسانيد والسنن، فمنها حديث أبى هريرة أن ناسا قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: "هل تضارون فى رؤية القمر ليلة البدر" قالوا: لا يا رسول الله، قال: "هل تضارون فى الشمس ليس دونها سحاب؟" قالوا: لا، قال: "فإنكم ترونه كذلك . . ."(٢) الحديث، أخرجاه فى الصحيحين بطوله، وحديث أبى سعيد الخدرى أيضا فى الصحيحين(٣) نظيره وحديث جرير بن عبد الله البجلى قال: كنا جلوسا مع النبى ﷺ فنظر إلى القمر ليلة أربع عشرة فقال: "إنكم سترون ربكم عيانا كما ترون هذا، لا تضامون فى رؤيته . . ."(٤) الحديث أخرجاه فى الصحيحين، وحديث صهيب المتقدم رواه مسلم وغيره، وحديث أبى موسى عن النبى ﷺ قال: "وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب

---

(١) سورة الأنعام الآية: ١٠٣.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخارى فى :كتاب التوحيد" حديث (٧٤٣٧) ومسلم فى "كتاب الإيمان" حديث (١٨٢) وأبو داود فى "كتاب السنة" حديث (٤٧٣٠) والترمذى فى "كتاب صفة الجنة" حديث (٢٥٥٤).

(٣) **صحيح**: أخرجه البخارى فى كتاب التوحيد حديث (٧٤٣٩) ومسلم فى كتاب الإيمان حديث (١٨٣).

(٤) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب التوحيد" حديث (٧٤٣٤، ٧٤٣٥) ومسلم فى "كتاب المساجد" حديث (٦٣٣) وأبو داود فى "كتاب السنة" حديث (٤٧٢٩) والترمذى فى "كتاب صفة الجنة" حديث (٢٥٥١) وابن ماجه فى "المقدمة" حديث (١٧٧).

آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن يروا ربهم تبارك وتعالى إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن"[١] أخرجاه في الصحيحين، ومن حديث عدى بن حاتم: "وليلقين الله أحدكم يوم يلقاه وليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان يترجم له فيقول: ألم أبعث إليك رسولا فيبلغك؟ فيقول: بلى يا رب، فيقول: ألم أعطك مالا وأفضل عليك؟ فيقول بلى يا رب . . ."[٢] أخرجه البخارى في صحيحه.

وقد روى أحاديث الرؤية نحو ثلاثين صحابيا ومن أحاط بها معرفة يقطع بأن الرسول قالها، ولولا أني التزمت الاختصار لسقت ما في الباب من الأحاديث.

ومن أراد الوقوف عليها فليواظب سماع الأحاديث النبوية، فإن فيها مع إثبات الرؤية أنه يكلم من شاء إذا شاء، وأنه يأتي لفصل القضاء يوم القيامة، وأنه فوق العالم، وأنه يناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب، وأنه يتجلى لعباده، وأنه يضحك . . . إلى غير ذلك من الصفات التي سماعها على الجهمية بمنزلة الصواعق، وكيف تعلم أصول دين الإسلام من غير كتاب الله وسنة رسوله، وكيف يفسر كتاب الله بغير ما فسره به رسوله ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم الذين نزل القرآن بلغتهم، وقد قال ﷺ: "من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار"[٣] وفي رواية: "من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار"[٤] وسئل أبو بكر رضي الله عنه عن قوله تعالى: ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾[٥] ما الأب؟ فقال: أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم، وليس تشبيه رؤية الله تعالى برؤية الشمس

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى في "كتاب التوحيد" حديث (٧٤٤٤) ومسلم في "كتاب الإيمان" حديث (١٨٠) والترمذى في "كتاب صفة الجنة" حديث (٢٥٢٨) وابن ماجه في "المقدمة" حديث (١٨٥).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخارى في "كتاب الزكاة" حديث (١٤١٣) ومسلم في "كتاب الإيمان" حديث (٦٧) والترمذى في "كتاب صفة القيامة" حديث (٢٤١٥) وابن ماجه في "المقدمة" حديث (١٨٥).

(٣) **ضعيف**: أخرجه الترمذى في "كتاب التفسير" حديث (٢٩٥١) قال الترمذى: هذا حديث حسن، وقال العلامة الألباني: ضعيف.

قلت: وهو كما قال العلامة الألباني، فإن فيه: عبد الأعلى بن عامر الثعلبي، وهو ضعيف، فقد ضعفه أحمد ابن حنبل، ويحيى بن سعيد القطان، وعبد الرحمن بن مهدى، والدارقطني، وسفيان الثورى، وغيرهم.

(٤) **ضعيف**: أخرجه الترمذى في "كتاب تفسير القرآن" حديث (٢٩٥٠) وفيه عبد الأعلى، السابق ذكره في الحديث السابق.

(٥) سورة عبس الآية: ٣١.

والقمر تشبيها لله بل هو تشبيه الرؤية بالرؤية لا تشبيه المرئى بالمرئى ولكن فيه دليل على علو الله على خلقه، وإلا فهل تعقل رؤية بلا مقابلة؟ ومن قال: يرى لا فى جهة فليراجع عقله فإما أن يكون مكابرا لعقله وفى عقله شىء، وإلا فإذا قال يرى لا أمام الرائى ولا خلفه ولا عن يمينه ولا عن يساره ولا فوقه ولا تحته رد عليه كل من سمعه بفطرته السليمة.

ولهذا ألزم المعتزلة من نفى العلو بالذات بنفى الرؤية، وقالوا: كيف تعقل رؤية بلا مقابلة بغير جهة وإنما لم نره فى الدنيا لعجز أبصارنا لا لامتناع الرؤية، فهذه الشمس إذا حدق الرائى البصر فى شعاعها ضعف عن رؤيتها لا لامتناع فى ذات المرئى بل لعجز الرائى، فإذا كان فى الدار الآخرة أكمل الله قوى الآدميين حتى أطاقوا رؤيته، ولهذا لما تجلى الله للجبل خر موسى صعقا، فلما أفاق قال: سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين بأنه لا يراك حى إلا مات، ولا يلبس إلا تدهده، ولهذا كان البشر يعجزون عن رؤية الملك فى صورته إلا من أيده الله، كما أيد نبينا، قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ﴾(1) قال غير واحد من السلف: لا يطيقون أن يروا الملك فى صورته، فلو أنزلنا عليهم ملكا لجعلناه فى صورة بشر وحينئذ يشتبه عليهم هل هو بشر أو ملك ومن تمام نعمة الله علينا أن بعث فينا رسولا منا.

وما ألزمهم المعتزلة هذا الإلزام إلا لما وافقوهم على أنه لا داخل العالم ولا خارجه لكن قول من أثبت موجودا يرى لا فى وجهة أقرب إلى العقل من قول من أثبت موجودا قائما بنفسه لا يرى ولا فى جهة.

ويقال لمن قال بنفى الرؤية لانتفاء لازمها وهو الجهة: أتريد الجهة أمرا وجوديا أو أمرا عدميا، فإن أراد بها أمرا وجوديا كان التقرير كل ما ليس فى شىء موجود لا يرى، وهذه المقدمة ممنوعة ولا دليل على إثباتها، بل هى باطلة، فإن سطح العالم يمكن أن يرى وليس العالم فى عالم آخر، وإن أردت بالجهة أمرا عدميا فالمقدمة الثانية ممنوعة، فلا نسلم أنه ليس فى جهة بهذا الاعتبار، وكيف يتكلم فى أصول الدين من لا يتلقاه من الكتاب والسنة وإنما يتلقاه من قول فلان، وإذا زعم أنه يأخذه من كتاب الله لا يتلقى تفسير كتاب الله من أحاديث الرسول ولا ينظر فيها ولا فيما قاله الصحابة والتابعون لهم بإحسان المنقول إلينا عن الثقات النقلة الذين

---

(1) سورة الأنعام الآية: ٨.

تخيرهم النقاد فإنهم لم ينقلوا نظم القرآن وحده بل نقلوا نظمه ومعناه، ولا كانوا يتعلمون القرآن كما يتعلم الصبيان بل يتعلمونه بمعانيه، ومن لا يسلك سبيلهم فإنما يتكلم برأيه، ومن يتكلم برأيه وما يظنه دين الله و لم يتلق ذلك من الكتاب فهو مأثوم وإن أصاب، ومن أخذ من الكتاب والسنة فهو مأجور وإن أخطأ، لكن إن أصاب يضاعف أجره.

وقوله: والرؤية حق لأهل الجنة، تخصيص أهل الجنة بالذكر يفهم منه نفى الرؤية عن غيرهم، ولا شك فى رؤية أهل الجنة لربهم فى الجنة وكذلك يرونه فى المحشر قبل دخولهم الجنة كما ثبت ذلك فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ﴾(١)، واختلف فى رؤية أهل المحشر على ثلاث أقوال:

أحدها: أنه لا يراه إلا المؤمنون.

الثانى: يراه أهل الموقف مؤمنهم وكافرهم ثم يحتجب عن الكفار ولا يرونه بعد ذلك.

الثالث: يراه مع المؤمنين المنافقون دون بقية الكفار.

وكذلك الخلاف فى تكليمه لأهل الموقف.

واتفقت الأمة على أنه لا يراه أحد فى الدنيا بعينه و لم يتنازعوا فى ذلك إلا فى نبينا ﷺ خاصة منهم من نفى رؤيته بالعين ومنهم من أثبتها له ﷺ، وحكى القاضى عياض(٢) فى كتابه الشفا اختلاف الصحابة ومن بعدهم فى رؤيته ﷺ وإنكار عائشة رضى الله عنها أن يكون ﷺ رأى ربه بعين راسه، وأنها قالت لمسروق حين سألها هل رأى محمد ربه؟ فقالت: لقد قف شعرى مما قلت، ثم قالت: من حدثك أن محمدا رأى ربه فقد كذب(٣)، ثم قال: وقال جماعة بقول عائشة رضى الله عنها، وهو المشهور عن ابن مسعود وأبى هريرة، واختلف عنه، وقال بإنكار هذا وامتناع رؤيته فى الدنيا جماعة من المحدثين والفقهاء والمتكلمين، وعن ابن عباس

---

(١) سورة الأحزاب الآية: ٤٤.

(٢) هو: الإمام العلامة الحافظ الأوحد، شيخ الإسلام، القاضى أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن موسى اليحصبى الأندلسى، له كتاب "الشفاء" وهو من أشرف مصنفاته، وله "الإكمال" فى شرح مسلم، وكتاب "مشارق الأنوار".
توفى سنة: ٥٤٤هـ.

(٣) **صحيح:** أخرجه البخارى فى "كتاب التوحيد" حديث (٧٣٨٠) ومسلم فى "كتاب الإيمان" حديث (١٧٧) والترمذى فى "كتاب تفسير القرآن" (٣٠٦٧).

رضى الله عنهما أنه ﷺ رآه بعينه[١]، وروى عطاء عنه أنه رآه بقلبه، ثم ذكر أقوالا وفوائد، ثم قال: وأما وجوبه لنبينا ﷺ والقول بأنه رآه بعينه فليس فيه قاطع ولا نص والمعول فيه على آيتي النجم والتنازع فيهما مأثور والاحتمال لهما ممكن، وهذا القول الذي قاله القاضى عياض رحمه الله هو الحق، فإن الرؤية فى الدنيا ممكنة إذا لو لم تكن ممكنة لما سألها موسى عليه السلام لكن لم يرد نص بأنه ﷺ رأى ربه بعين رأسه بل ورد ما يدل على نفى الرؤية، وهو ما رواه مسلم فى صحيحه عن أبى ذر ﷺ قال: سألت رسول الله ﷺ هل رأيت ربك؟ فقال: "نور أنى أراه"[٢] وفى رواية: "رأيت نورا" وقد روى مسلم أيضا عن أبى موسى الاشعرى ﷺ أنه قال: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال: "إن الله لا ينام ولا ينبغى له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور" وفى رواية: "النار، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه"[٣] فيكون والله أعلم معنى قوله لابى ذر: "رأيت نورا" انه رأى الحجاب، ومعنى قوله: "نور أنى أراه" النور الذى هو الحجاب يمنع من رؤيته فـ "أنى أراه" أى فكيف أراه والنور حجاب بينى وبينه يمنعنى من رؤيته، فهذا صريح فى نفى الرؤية، والله أعلم.

وحكى عثمان بن سعيد الدارمى اتفاق الصحابة على ذلك ونحن إلى تقرير رؤيته لجبريل أحوج منا إلى تقرير رؤيته لربه تعالى، وإن كانت رؤية الرب تعالى أعظم وأعلى فإن النبوة لا يتوقف ثبوتها عليها البتة.

وقوله: بغير إحاطة ولا كيفية، هذا لكمال عظمته وبهائه سبحانه وتعالى لا تدركه الأبصار ولا تحيط به كما يعلم ولا يحاط به علما، قال تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾[٤] وقال تعالى: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ۝ ﴾[٥].

---

(١) صحيح: أخرجه البخارى فى "كتاب التفسير" حديث (٤٧١٦) والترمذى فى "كتاب تفسير القرآن" حديث (٣١٣٤) وابن حبان فى "صحيحه" حديث (٥٦).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم فى "كتاب الإيمان" حديث (١٧٨).

(٣) صحيح: أخرجه مسلم فى "كتاب الإيمان" حديث (١٧٩) وابن ماجه فى "المقدمة" حديث (١٩٥).

(٤) سورة الأنعام الآية: ١٠٣.

(٥) سورة طه الآية: ١١٠.

وقوله: وتفسيره على ما أراد الله وعلمه . . . إلى أن قال: لا ندخل فى ذلك متأولين بآرائنا ولا متوهمين بأهوائنا، أى كما فعلت المعتزلة بنصوص الكتاب والسنة فى الرؤية، وذلك تحريف لكلام الله وكلام رسوله عن مواضعه، فالتأويل الصحيح هو الذى يوافق ما جاءت به السنة، والفاسد المخالف له فكل تأويل لم يدل عليه دليل من السياق ولا معه قرينة تقتضيه فإن هذا لا يقصده المبين العادى بكلامه، إذ لو قصده لحف بالكلام قرائن تدل على المعنى المخالف لظاهره حتى لا يوقع السامع فى اللبس والخطأ، فإن الله أنزل كلامه بيانا وهدى، فإذا أراد به خلاف ظاهره ولم يحف به قرائن تدل على المعنى الذى يتبادر غيره إلى فهم كل أحد لم يكن بيانا ولا هدى، فالتأويل إخبار بمراد المتكلم لا إنشاء.

وفى هذا الموضع يغلط كثير من الناس فإن المقصود فهم مراد المتكلم بكلامه.

فإذا قيل: معنى اللفظ كذا وكذا كان إخبارا بالذى عنى المتكلم، فإن لم يكن الخبر مطابقا كان كذبا على المتكلم، ويعرف مراد المتكلم بطرق متعددة منها أن يصرح بارادة ذلك المعنى، ومنها أن يستعمل اللفظ الذى له معنى ظاهر بالوضع ولا يبين بقرينة تصحب الكلام أنه لم يرد ذلك المعنى فكيف إذا حف بكلامه ما يدل على أنه إنما أراد حقيقته وما وضع له كقوله: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ إنكم ترون ربكم عيانا كما ترون الشمس فى الظهيرة ليس دونها سحاب، فهذا مما يقطع به السامع له بمراد المتكلم فإذا أخبر عن مراده بما دل عليه حقيقة لفظه الذى وضع له مع القرائن المؤكدة كان صادقا فى إخباره وأما إذا تأول الكلام بما لا يدل عليه ولا اقترن به ما يدل عليه فإخباره بأن هذا مراده كذب عليه وهو تأويل بالرأى وتوهم بالهوى.

وحقيقة الأمر أن قول القائل: نحمله على كذا أو نتأوله بكذا إنما هو من باب دفع دلالة اللفظ عما وضع له، فإن منازعه لما احتج عليه به ولم يمكنه دفع وروده دفع معناه وقال أحمله على خلاف ظاهره.

فإن قيل: بل للحمل معنى آخر لم تذكروه وهو أن اللفظ لما استحال أن يراد به حقيقته وظاهره ولا يمكن تعطيله استدللنا بوروده وعدم إرادة ظاهره على أن مجازه هو المراد فحملناه عليه دلالة لا ابتداء.

قيل: فهذا المعنى هو الإخبار عن المتكلم أنه أراده، وهو إما صدق وإما كذب كما تقدم، ومن الممتنع أن يريد خلاف حقيقته وظاهره ولا يبين للسامع المعنى الذى أراده بل يعرف بكلامه ما يؤكد إرادة الحقيقة، ونحن لا نمنع أن المتكلم قد يريد بكلامه خلاف ظاهره إذا قصد التعمية على السامع حيث يسوغ ذلك، ولكن المنكر أن يريد بكلامه خلاف حقيقته وظاهره إذا قصد البيان والإيضاح وإفهام مراده، فكيف والمتكلم يؤكد كلامه بما ينفى المجاز ويكرره غير مرة ويضرب له الأمثال.

وقوله: فإنه ما سلم فى دينه إلا من سلم لله عز وجل ولرسوله ﷺ ورد علم ما اشتبه عليه إلى عالمه، أى سلم لنصوص الكتاب والسنة و لم يعترض عليها بالشكوك والشبه والتأويلات الفاسدة، أو بقوله العقل يشهد بضد ما دل عليه النقل، والعقل أصل النقل، فإذا عارضه قدمنا العقل، وهذا لا يكون قط، لكن إذا جاء ما يوهم مثل ذلك، فإن كان النقل صحيحا فذلك الذى يدعى أنه معقول إنما هو مجهول ولو حقق النظر لظهر ذلك وإن كان النقل غير صحيح فلا يصلح للمعارضة، فلا يتصور أن يتعارض عقل صريح ونقل صحيح أبدا، ويعارض كلام من يقول ذلك بنظيره فيقال: إذا تعارض العقل والنقل وجب تقديم النقل لأن الجمع بين المدلولين جمع بين النقيضين ورفعهما رفع النقيضين، وتقديم العقل ممتنع لأن العقل قد دل على صحة السمع ووجوب قبول ما أخبر به الرسول ﷺ فلو أبطلنا النقل لكنا قد أبطلنا دلالة العقل، ولو أبطلنا دلالة العقل لم يصلح أن يكون معارضا للنقل، لأن ما ليس بدليل لا يصلح لمعارضة شىء من الأشياء، فكان تقديم العقل موجبا عدم تقديمه فلا يجوز تقديمه، وهذا بين واضح، فإن العقل هو الذى دل على صدق السمع وصحته وأن خبره مطابق لمخبره، فإن جاز أن تكون الدلالة باطلة لبطلان النقل لزم أن لا يكون العقل دليلا صحيحا وإذا لم يكن دليلا صحيحا لم يجز أن يتبع بحال فضلا عن أن يقدم فصار تقديم العقل على النقل قدحا فى العقل.

فالواجب كمال التسليم للرسول ﷺ والانقياد لأمره وتلقى خبره بالقبول والتصديق دون أن نعارضه بخيال باطل نسميه معقولا أو نحمله شبهة أو شكا أو نقدم عليه آراء الرجال وزبالة أذهانهم فنوحده بالتحكيم والتسليم والانقياد والإذعان كما نوحد المرسل بالعبادة والخضوع والذل والانابة والتوكل.

فهما توحيدان لا نجاة للعبد من عذاب الله إلا بهما: توحيد المرسل وتوحيد متابعة الرسول فلا نحاكم إلى غيره ولا نرضى بحكم غيره ولا نوقف تنفيذ أمره وتصديق خبره على عرضه على قول شيخه وإمامه وذوى مذهبه وطائفته ومن يعظمه فإن أذنوا له نفذه وقبل خبره وإلا فإن طلب السلامة فوضه إليهم وأعرض عن أمره وخبره وإلا حرفه عن مواضعه وسمى تحريفه تأويلا وحملا فقال: نؤوله ونحمله فلأن يلقى العبد ربه بكل ذنب ما خلا الإشراك بالله خيرا له من أن يلقاه بهذه الحال، بل إذا بلغه الحديث الصحيح يعد نفسه كأنه سمعه من رسول الله ﷺ فهل يسوغ أن يؤخر قبوله والعمل به حتى يعرضه على رأى فلان وكلامه ومذهبه بل كان الفرض المبادرة إلى امتثاله من غير التفات إلى سواه ولا يستشكل قوله لمخالفته رأى فلان بل يستشكل الآراء لقوله ولا يعارض نصه بقياس بل نهدر الأقيسة ونتلقى نصوصه ولا نحرف كلامه عن حقيقته لخيال يسميه أصحابه معقولا نعم هو مجهول وعن الصواب معزول ولا يوقف قبول قوله على موافقة فلان دون فلان كائنا من كان.

قال الإمام أحمد: حدثنا أنس بن عياض حدثنا أبو حازم عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: لقد جلست أنا وأخي مجلسا ما أحب أن لى به حمر النعم: أقبلت أنا وأخى وإذا مشيخة من أصحاب رسول الله ﷺ جلوس عند باب من أبوابه فكرهنا أن نفرق بينهم فجلسنا حَجرة، إذ ذكروا آية من القرآن فتماروا فيها حتى ارتفعت أصواتُهم، فخرج رسول الله ﷺ مغضبا قد احمر وجهه يرميهم بالتراب ويقول: "مهلا يا قوم، بهذا أهلكت الأمم من قبلكم، باختلافهم على أنبيائهم وضربهم الكتب بعضها ببعض، إن القرآن لم ينزل يكذب بعضه بعضا، بل يصدق بعضه بعضا فما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه"[(١)].

ولا شك ان الله قد حرم القول عليه بغير علم، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا

---

(١) **صحيح**: أخرجه أحمد فى "المسند" حديث (٦٧٠٢) والبخارى فى "خلق أفعال العباد" (ص: ٧٨) وابن ماجه فى "المقدمة" حديث (٨٥) وعبد الرزاق فى "المصنف" حديث (٦٧٤١) قال فى "الزوائد": هذا إسناد صحيح ورجاله ثقات، وقال الشيخ أحمد شاكر: هذا حديث صحيح، وقال الشيخ الألبانى: صحيح.

﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾[١] وقال: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾[٢] فعلى العبد أن يجعل ما بعث الله به رسله وأنزل به كتبه هو الحق الذى يجب اتباعه فيصدق بأنه حق وصدق وما سواه من كلام سائر الناس يعرضه عليه فإن وافقه فهو حق وإن خالفه فهو باطل.

وإن لم يعلم هل خالفه أو وافقه يكون ذلك الكلام مجملا لا يعرف مراد صاحبه، أو قد عرف مراده لكن لم يعرف هل جاء الرسول بتصديقه أو بتكذيبه فإنه يمسك عنه ولا يتكلم إلا بعلم، والعلم ما قام عليه الدليل، والنافع منه ما جاء به الرسول، وقد يكون علم من غير الرسول لكن فى الأمور الدنيوية مثل الطب والحساب والفلاحة، وأما الأمور الإلهية والمعارف الدينية فهذه العلم فيها ما أخذ عن الرسول لا غيره.

❁ قوله: ولا تثبت قدم الاسلام إلا على ظهر التسليم والاستسلام:

ش: هذا من باب الاستعارة اذ القدم الحسى لا تثبت إلا على ظهر شىء أى لا يثبت إسلام من لم يسلم لنصوص الوحيين وينقد إليها ولا يعترض عليها ولا يعارضها برأيه ومعقوله وقياسه.

روى البخارى عن الإمام محمد بن شهاب الزهرى رحمه الله أنه قال: من الله الرسالة ومن الرسول البلاغ وعلينا التسليم، وهذا كلام جامع نافع.

وما أحسن المثل المضروب للنقل مع العقل وهو أن العقل مع النقل كالعامى المقلد مع العالم المجتهد، بل هو دون ذلك بكثير، فإن العامى يمكنه أن يصير عالما ولا يمكن العالم أن يصير نبيا رسولا، فإذا عرف العامى المقلد عالما فدل عليه عاميا آخر ثم اختلف المفتى والدال فإن المستفتى يجب عليه قبول قول المفتى دون الدال، فلو قال الدال: الصواب معى دون المفتى لأنى أنا الأصل فى علمك بأنك مفتٍ، فإذا قدمت قوله على قولى قدحت فى الأصل الذى به عرفت أنه مفت، فلزم القدح فى فرعه، فيقول له المستفتى: أنت لما شهدت له بأنه مفت ودللت عليه شهدت له بوجوب تقليده دونك فموافقتى لك فى هذا العلم المعين لا تستلزم موافقتك فى كل مسألة، وخطؤك فيما خالفت فيه المفتى الذى هو أعلم منك لا يستلزم خطأك فى علمك بأنه مفت، هذا

---

(١) سورة الأعراف الآية: ٣٣.

(٢) سورة الإسراء الآية: ٣٦.

مع علمه أن ذلك المفتى قد يخطئ والعاقل يعلم أن الرسول معصوم فى خبره عن الله تعالى لا يجوز عليه الخطأ فيجب عليه التسليم له والانقياد لأمره.

وقد علمنا بالاضطرار من دين الإسلام أن الرجل لو قال للرسول: هذا القرآن الذى تلقيه علينا والحكمة التى جئتنا بها قد تضمن كل منهما أشياء كثيرة تناقض ما علمناه بعقولنا، ونحن إنما علمنا صدقك بعقولنا، فلو قبلنا جميع ما تقوله مع أن عقولنا تناقض ذلك لكان قدحا فى ما علمنا به صدقك، فنحن نعتقد موجب الأقوال الناقضة لما ظهر من كلامك، وكلامك نعرض عنه، لا نتلقى منه هديا ولا علما، لم يكن مثل هذا الرجل مؤمنا بما جاء به الرسول ولم يرض منه الرسول بهذا، بل يعلم أن هذا لو ساغ لأمكن كل أحد أن يؤمن بشىء مما جاء به الرسول، إذ العقول متفاوتة والشبهات كثيرة، والشياطين لا تزال تلقى الوسواس فى النفوس، فيمكن كل أحد أن يقول مثل هذا فى كل ما أخبر به الرسول وما أمر به، وقد قال تعالى: ﴿ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾[1] وقال: ﴿ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾[2] وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾[3] ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴾[4] ﴿ حمٓ ۝ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾[5] ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾[6] ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[7] ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾[8] ونظائر ذلك كثيرة فى القرآن.

فأمر الإيمان بالله واليوم الآخر إما أن يكون الرسول تكلم فيه بما يدل على الحق أم لا، الثانى باطل، وإن كان قد تكلم بما يدل على الحق بألفاظ مجملة محتملة فما بلغ البلاغ المبين وقد شهد له خير القرون بالبلاغ وأشهد الله عليهم فى الموقف الأعظم فمن يدعى أنه فى أصول الدين لم يبلغ البلاغ المبين فقد افترى عليه ﷺ.

(١) سورة النور الآية: ٥٤.
(٢) سورة النحل الآية: ٣٥.
(٣) سورة إبراهيم الآية: ٤.
(٤) سورة المائدة الآية: ١٥.
(٥) سورة الدخان الآيتان: ١، ٢.
(٦) سورة يوسف الآية الأولى.
(٧) سورة يوسف الآية: ١١١.
(٨) سورة النحل الآية: ٨٩.

❁ **قوله: فمن رام علم ما حظر عنه علمه ولم يقنع بالتسليم فهمه حجبه مرامه عن خالص التوحيد وصافى المعرفة وصحيح الإيمان:**

ش: هذا تقرير للكلام الأول وزيادة تحذير أن يتكلم فى أصول الدين بل وفى غيرها بغير علم، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾(١) وقال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾(٢) وقال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾(٣) وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(٤) وقال تعالى: ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾(٥) إلى غير ذلك من الآيات الدالة على هذا المعنى.

وعن أبى أمامة الباهلى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل" ثم تلا: ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ﴾"(٦) رواه الترمذى وقال: حديث حسن(٧) وعن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: "إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم"(٨) خرجاه فى الصحيحين.

---

(١) سورة الإسراء الآية: ٣٦.
(٢) سورة الحج الآيتان: ٣، ٤.
(٣) سورة الحج الآيتان: ٨، ٩.
(٤) سورة القصص الآية: ٥٠.
(٥) سورة النجم الآية: ٢٣.
(٦) سورة الزخرف الآية: ٥٨.
(٧) **حسن:** أخرجه الترمذى فى "كتاب تفسير القرآن" حديث (٣٢٥٣) وابن ماجه فى "المقدمة" حديث (٤٨) وأحمد فى "المسند" حديث (٢٢٠٦٤) قال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح، وقال الألبانى: حسن.
قلت: هو كما قال الشيخ الألبانى، رحمه الله تعالى، فإن فيه شهاب بن خراش، عند أحمد، وهو حسن الحديث، وفيه حجاج بن دينار، عند الترمذى، وهو أيضا حسن الحديث.
(٨) **صحيح:** أخرجه البخارى فى "كتاب المظالم" حديث (٢٤٥٧) ومسلم فى "كتاب العلم" حديث (٢٦٦٨).

ولا شك أن من لم يسلم للرسول نقص توحيده، فإنه يقول برأيه وهواه ويقلد ذا رأى وهوى بغير هدى من الله فينقص من توحيده بقدر خروجه عما جاء به الرسول، فإنه قد اتخذه فى ذلك إلها غير الله، قال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾[1] أى عبد ما تهواه نفسه، وإنما دخل الفساد فى العالم من ثلاث فرق كما قال عبد الله بن المبارك[2] رحمة الله عليه:

رأيت الذنوب تميت القلوب وقد يورث الذل إدمانها
وترك الذنوب حياة القلوب وخير لنفسك عصيانها
وهل أفسد الدين إلا الملوك وأحبار سوء ورهبانها

فالملوك الجائرة يعترضون على الشريعة بالسياسات الجائرة ويعارضونها بها ويقدمونها على حكم الله ورسوله، وأحبار السوء وهم العلماء الخارجون عن الشريعة بآرائهم وأقيستهم الفاسدة المتضمنة تحليل ما حرم الله ورسوله وتحريم ما أباحه واعتبار ما ألغاه وإلغاء ما اعتبره وإطلاق ما قيده وتقييد ما أطلقه ونحو ذلك والرهبان وهم جهال المتصوفة المعترضون على حقائق الإيمان والشرع بالأذواق والمواجيد والخيالات والكشوفات الباطلة الشيطانية المتضمنة شرع دين لم يأذن به الله وإبطال دينه الذى شرعه على لسان نبيه ﷺ والتعوض عن حقائق الإيمان بخدع الشيطان وحظوظ النفس، فقال الأولون: إذا تعارضت السياسة والشرع قدمنا السياسة، وقال الآخرون: إذا تعارض العقل والنقل قدمنا العقل، وقال أصحاب الذوق: إذا تعارض الذوق والكشف وظاهر الشرع قدمنا الذوق والكشف.

ومن كلام أبى حامد الغزالى رحمه الله فى كتابه الذى سماه إحياء علوم الدين، وهو من أجل كتبه أو أجلها: فإن قلت: فعلم الجدل والكلام مذموم كعلم النجوم أو هو مباح أو مندوب إليه فاعلم أن للناس فى هذا غلوا وإسرافا فى أطراف، فمن قائل: إنه بدعة وحرام وإن العبد أن يلقى

---

(١) سورة الجاثية الآية: ٢٣.

(٢) هو: عبد الله بن المبارك بن واضح، الإمام الشيخ عالم زمانه وأمير الأتقياء فى وقته، أبو عبد الرحمن الحنظلى، مولاهم التركى، ثم المروزى، الحافظ الغازى، أحد الأعلام، وكانت أمه خوارزمية.
عن يحيى بن آدم قال: كنت إذا طلبت دقيق المسائل فلم أجده فى كتب ابن المبارك آيست منه، وقال شعيب بن حرب: ما لقى ابن المبارك رجلا إلا وابن المبارك أفضل منه.
توفى سنة ١٨١هـ، رحمه الله تعالى.

الله بكل ذنب سوى الشرك خير له من أن يلقاه بالكلام، ومن قائل إنه فرض إما على الكفاية وإما على الأعيان وأنه أفضل الأعمال وأعلى القربات فإنه تحقيق لعلم التوحيد ونضال عن دين الله، قال: وإلى التحريم ذهب الشافعي ومالك وأحمد بن حنبل وسفيان وجميع أئمة الحديث من السلف، وساق الألفاظ عن هؤلاء، قال: وقد اتفق أهل الحديث من السلف على هذا، لا ينحصر ما نقل عنهم من التشديدات فيه، قالوا: ما سكت عنه الصحابة مع أنهم أعرف بالحقائق وأفصح بترتيب الألفاظ من غيرهم الا لما يتولد منه من الشر، وكذلك قال ﷺ "هلك المتنطعون"[(١)] أي المتعمقون في البحث والاستقصاء، واحتجوا أيضا بأن ذلك لو كان من الدين لكان أهم ما يأمر به رسول الله ﷺ ويعلم طريقه ويثني على أربابه، ثم ذكر بقية استدلالهم، ثم ذكر استدلال الفريق الآخر إلى أن قال: فإن قلت: فما المختار عندك؟ فأجاب بالتفصيل فقال: فيه منفعة وفيه مضرة، فهو في وقت الانتفاع حلال أو مندوب أو واجب، كما يقتضيه الحال، وهو باعتبار مضرته في وقت الاستضرار ومحله حرام، قال: فأما مضرته فإثارة الشبهات وتحريك العقائد وإزالتها عن الجزم والتصميم، وذلك مما يحصل بالابتداء، ورجوعها بالدليل مشكوك فيه ويختلف فيه الأشخاص، فهذا ضرره في اعتقاد الحق، وله ضرر في تأكيد اعتقاد البدعة وتثبيتها في صدورهم بحيث تنبعث دواعيهم ويشتد حرصهم على الإصرار عليه، ولكن هذا الضرر بواسطة التعصب الذي يثور من الجدل، قال: وأما منفعته فقد يظن أن فائدته كشف الحقائق ومعرفتها على ما هي عليه وهيئتها.

فليس في الكلام وفاء بهذا المطلب الشريف ولعل التخبيط والتضليل أكثر من الكشف والتعريف، قال: وهذا إذا سمعته من محدث أو حشوي ربما خطر ببالك أن الناس أعداء ما جهلوا، فاسمع هذا ممن خبر الكلام، ثم قاله بعد حقيقة الخبرة وبعد التغلغل فيه إلى منتهى درجة المتكلمين، وجاوز ذلك إلى التعمق في علوم أخر سوى نوع الكلام، وتحقق أن الطريق إلى حقائق المعرفة من هذا الوجه مسدود، ولعمري لا ينفك الكلام عن الكشف وتعريف وإيضاح لبعض الأمور، ولكن على الندور. انتهى ما نقلته عن الغزالي رحمه الله.

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم في "كتاب العلم" حديث (٢٦٧٠) وأبو داود في "كتاب السنة" حديث (٤٦٠٨) والطبراني في "الكبير" (١٠/ ٢١٦) والتبريزي في "مشكاة المصابيح" حديث (٤٧٨٥) والبغوي في "شرح السنة" (١٢/ ٣٦٧).

وكلام مثله فى ذلك حجة بالغة والسلف لم يكرهوه لمجرد كونه اصطلاحا جديدا على معان صحيحة كالاصطلاح على ألفاظ العلوم الصحيحة، ولا كرهوا أيضا الدلالة على الحق والمحاجة لأهل الباطل بل كرهوه لاشتماله على أمور كاذبة مخالفة للحق، ومن ذلك مخالفتها للكتاب والسنة وما فيه من علوم صحيحة، فقد وعروا الطريق إلى تحصيلها وأطالوا الكلام فى إثباتها مع قلة نفعها، فهى لحم جمل غث على رأس جبل وعر لا سهل فيرتقى ولا سمين فينتقى، وأحسن ما عندهم فهو فى القرآن أصح تقريرا وأحسن تفسيرا، فليس عندهم إلا التكلف والتطويل والتعقيد، كما قيل:

لولا التنافس فى الدنيا لما وضعت ... كتب التناظر لا المغنى ولا العمد

يحللون بزعم منهم عقدا ... وبالذى وضعوه زادت العقد

فهم يزعمون أنهم يدفعون بالذى وضعوه الشبه والشكوك والفاضل الذى يعلم أن الشبه والشكوك زادت بذلك.

ومن المحال أن لا يحصل الشفاء والهدى والعلم اليقين من كتاب الله وكلام رسوله ويحصل من كلام هؤلاء المتحيرين، بل الواجب أن يجعل ما قاله الله ورسوله هو الأصل ويتدبر معناه ويعقله ويعرف برهانه ودليله العقلى والخبرى السمعى، ويعرف دلالته على هذا وهذا، ويجعل أقوال الناس آلتي توافقه وتخالفه متشابهة مجملة، فيقال لأصحابها: هذه الألفاظ تحتمل كذا وكذا، فإن أرادوا بها ما يوافق خبر الرسول قبل، وإن أرادوا بها ما يخالفه رد، وهذا مثل لفظ المركب والجسم والتحيز والجوهر والجهة والحيز والعرض، ونحو ذلك، فإن هذه الألفاظ لم تأت فى الكتاب والسنة بالمعنى الذي يريده أهل الاصطلاح، بل ولا فى اللغة، بل هم يخصون بالتعبير بها عن معان لم يعبر غيرهم عنها بها فتفسر تلك المعانى بعبارات أخر، وينظر ما دل عليه القرآن من الأدلة العقلية والسمعية، وإذا وقع الاستفسار والتفصيل تبين الحق من الباطل.

مثال ذلك فى "التركيب" فقد صار له معان:

أحدها: التركيب من متباينين فأكثر، ويسمى تركيب مزج، كتركيب الحيوان من الطبائع الأربع والأعضاء ونحو ذلك وهذا المعنى منفى عن الله سبحانه وتعالى ولا يلزم من وصف الله تعالى بالعلو ونحوه من صفات الكمال أن يكون مركبا بهذا المعنى المذكور.

والثانى: تركيب الجوار كمصراعى الباب ونحو ذلك، ولا يلزم أيضا من ثبوت صفاته تعالى إثبات هذا التركيب.

الثالث: التركيب من الأجزاء المتماثلة، وتسمى الجواهر المفردة.

الرابع: التركيب من الهيولى والصورة كالخاتم مثلا هيولاه الفضة وصورته معروفة، وأهل الكلام قالوا: إن الجسم يكون مركبا من الجواهر المفردة، ولهم كلام فى ذلك يطول، ولا فائدة فيه، وهو أنه هل يمكن التركيب من جزئين أو من أربعة أو ستة أو ثمانية أو ستة عشر، وليس هذا التركيب لازما لثبوت صفاته تعالى وعلوه على خلقه، والحق أن الجسم غير مركب من هذه الأشياء وإنما قولهم مجرد دعوى وهذا مبسوط فى موضعه.

الخامس: التركيب من الذات والصفات هم سموه تركيبا لينفوا به صفات الرب تعالى، وهذا اصطلاح منهم لا يعرف فى اللغة ولا فى استعمال الشارع، فلسنا نوافقهم على هذه التسمية ولا كرامة، ولئن سموا إثبات الصفات تركيبا فنقول لهم: العبرة للمعانى لا للألفاظ، سموه ما شئتم ولا يترتب على التسمية بدون المعنى حكم، فلو اصطلح على تسمية اللبن خمرا لم يحرم بهذه التسمية.

السادس: التركيب من الماهية ووجودها، وهذا يفرضه الذهن أنّهما غيران، وأما فى الخارج هل يمكن ذات مجردة عن وجودها ووجودها مجرد عنها؟ هذا محال، فترى أهل الكلام يقولون: هل ذات الرب وجوده أم غير وجوده؟ ولهم فى ذلك خبط كثير، وأمثلهم طريقة رأى الوقف والشك فى ذلك، وكم يزول بالاستفسار والتفصيل كثير من الأضاليل والأباطيل.

وسبب الإضلال الإعراض عن تدبر كلام الله وكلام رسوله والاشتغال بكلام اليونان والآراء المختلفة، وإنما سمى هؤلاء أهل الكلام لأنّهم لم يفيدوا علما لم يكن معروفا، وإنما أتوا بزيادة كلام قد لا يفيد وهو ما يضربونه من القياس لإيضاح ما علم بالحس، وإن كان هذا القياس وأمثاله ينتفع به فى موضع آخر ومع من ينكر الحس وكل من قال برأيه وذوقه وسياسته مع وجود النص أو عارض النص بالمعقول فقد ضاهى إبليس حيث لم يسلم لأمر ربه بل قال: ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾(١) وقال: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾(٢) وقال: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى

---

(١) سورة الأعراف الآية: ١٢. (٢) سورة النساء الآية: ٨٠.

يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾[١] وقال: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴾[٢] أقسم سبحانه بنفسه أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا نبيه ويرضوا بحكمه ويسلموا تسليما.

❁ قوله: فيتذبذب بين الكفر والايمان والتصديق والتكذيب والإقرار والإنكار موسوسا تائها شاكا لا مؤمنا مصدقا ولا جاحدا مكذبا:

ش: يتذبذب يضطرب ويتردد وهذه الحالة التي وصفها الشيخ رحمه الله حال كل من عدل عن الكتاب والسنة إلى علم الكلام المذموم أو أراد أن يجمع بينه وبين الكتاب والسنة، وعند التعارض يتأول النص ويرده إلى الرأى والآراء المختلفة فيئول أمره إلى الحيرة والضلال والشك، كما قال ابن رشد الحفيد[٣] وهو من أعلم الناس بمذاهب الفلاسفة ومقالاتهم فى كتابه تهافت التهافت: ومن الذى قال فى الإلهيات شيئا يعتد به، وكذلك الآمدى[٤] أفضل أهل زمانه، واقف فى المسائل الكبار حائر، وكذلك الغزالى، رحمه الله، انتهى آخر أمره إلى الوقف والحيرة فى المسائل الكلامية، ثم أعرض عن تلك الطرق وأقبل على أحاديث الرسول ﷺ فمات والبخارى على صدره، وكذلك أبو عبد الله محمد بن عمر الرازى قال فى كتابه الذى صنفه: أقسام اللذات:

نهاية إقدام العقول عقال ... وغاية سعى العالمين ضلال
وأرواحنا فى وحشة من جسومنا ... وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه: قيل وقالوا
فكم قد رأينا من رجال ودولة ... فبادوا جميعا مسرعين وزالوا
وكم من جبال قد علت شرفاتها ... رجال فزالوا والجبال جبال

---

(١) سورة آل عمران الآية: ٣١. (٢) سورة النساء الآية: ٦٥.

(٣) هو: ابن رشد الحفيد، العلامة، فيلسوف وقته، أبو الوليد محمد بن أبى القاسم أحمد، شيخ المالكية، أبى الوليد محمد بن أحمد بن أحمد بن رشد القرطبى، كان أوحد زمانه فى الفقه والخلاف وبرع فى الطب، قوى النفس، وله مؤلفات كثيرة جدا، توفى سنة ٥٩٤هـ.

(٤) هو: السيف العلامة المصنف، فارس الكلام، سيف الدين على بن أبى على بن محمد بن سالم التغلبى الآمدى، الحنبلى ثم الشافعى، له من المصنفات: "نهاية السول فى الأصول" و "أبكار الأفكار" وله نحو من عشرين تصنيفا، وكان أولاد العادل كلهم يكرهونه لما اشتهر عنه من علم الأوائل والمنطق، توفى سنة ٦٣١هـ.

لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفى عليلا ولا تروى غليلا ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، أقرأ فى الإثبات: ﴿ ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾(١) ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴾(٢) وأقرأ فى النفى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾(٣) ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾(٤) ثم قال: ومن جرب مثل تجربتى عرف مثل معرفتى.

وكذلك قال الشيخ أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم الشهرستانى: إنه لم يجد عند الفلاسفة والمتكلمين إلا الحيرة والندم، حيث قال:

لعمرى لقد طفت المعاهد كلها … وسيرت طرفى بين تلك المعالم

فلم أر إلا واضعا كف حائر … على ذقن أو قارعا سن نادم

وكذلك قال أبو المعالى الجوينى: يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام فلو عرفت أن الكلام يبلغ بى إلى ما بلغ ما اشتغلت به، وقال عند موته: لقد خضت البحر الخضم وخليت أهل الإسلام وعلومهم ودخلت فى الذى نهونى عنه والآن فإن لم يتداركنى ربى برحمته فالويل لابن الجوينى، وها أنا ذا أموت على عقيدة أمى، أو قال على عقيدة عجائز نيسابور.

وكذلك قال شمس الدين الخسرو شاهى وكان من أجل تلامذة فخر الدين الرازى لبعض الفضلاء وقد دخل عليه يوما فقال: ما تعتقده؟ قال: ما يعتقده المسلمون، فقال: وأنت منشرح الصدر لذلك مستيقن به، أو كما قال، فقال: نعم، فقال: اشكر الله على هذه النعمة، لكنى والله ما أدرى ما أعتقد، والله ما أدرى ما أعتقد، والله ما أدرى ما أعتقد، وبكى حتى أخضل لحيته.

ولابن أبى الحديد الفاضل المشهور بالعراق:

فيك يا أغلوطة الفكر … حار أمرى وانقضى عمرى

سافرت فيك العقول فما … ربحت إلا أذى السفر

فلحى الله الأولى زعموا … أنك المعروف بالنظر

كذبوا إن الذى ذكروا … خارج عن قوة البشر

(١) سورة طه الآية: ٥.

(٢) سورة فاطر الآية: ١٠.

(٣) سورة الشورى الآية: ١١.

(٤) سورة طه الآية: ١١٠.

وقال الخوفجى عند موته ما عرفت مما حصلته شيئا سوى أن الممكن يفتقر إلى المرجح، ثم قال: الافتقار وصف سلبى، أموت وما عرفت شيئا.

وقال آخر: أضطجع على فراشى وأضع اللحفة على وجهى وأقابل بين حجج هؤلاء وهؤلاء حتى يطلع الفجر و لم يترجح عندى منها شيء.

ومن يصل إلى مثل هذه الحال إن لم يتداركه الله برحمته وإلا تزندق كما قال أبو يوسف: من طلب الدين بالكلام تزندق، ومن طلب المال بالكيمياء أفلس، ومن طلب غريب الحديث كذب، وقال الشافعى، رحمه الله: حكمى فى أهل الكلام أن يضربوا بالجريدة والنعال ويطاف بهم فى القبائل والعشائر ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام، وقال: لقد اطلعت من أهل الكلام على شيء ما ظننت مسلما يقوله، ولأن يبتلى العبد بكل ما نهى الله عنه ما خلا الشرك بالله خير له من أن يبتلى بالكلام. انتهى.

وتجد أحد هؤلاء عند الموت يرجع إلى مذهب العجائز فيقر بما أقروا به ويعرض عن تلك الدقائق المخالفة لذلك التى كان يقطع بها، ثم تبين له فسادها أو لم يتبين له صحتها فيكونون فى نهاياتهم إذا سلموا من العذاب بمنزلة أتباع أهل العلم من الصبيان والنساء والأعراب.

والدواء النافع لمثل هذا المرض ما كان طبيب القلوب صلوات الله وسلامه عليه يقوله إذا قام من الليل يفتتح الصلاة: "اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم"(١) خرجه مسلم، توجه ﷺ إلى ربه بربوبية جبرائيل وميكائيل وإسرافيل أن يهديه لما اختلف فيه من الحق بإذنه، إذ حياة القلب بالهداية وقد وكل الله سبحانه هؤلاء الثلاثة بالحياة، فجبرائيل موكل بالوحى الذي هو سبب حياة القلوب، وميكائيل بالقطر الذي هو سبب حياة الأبدان وسائر الحيوان، وإسرافيل بالنفخ فى الصور الذي هو سبب حياة العالم وعود الأرواح إلى أجسادها فالتوسل إلى الله سبحانه بربوبية هذه الأرواح العظيمة الموكلة بالحياة له تأثير عظيم فى حصول المطلوب، والله المستعان.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم فى "كتاب صلاة المسافرين" حديث (٧٧٠) وأبو داود فى "كتاب الصلاة" حديث (٧٦٧) والترمذى فى "كتاب الدعوات" حديث (٣٤٢٠) والنسائى (٣/ ٢١٢) وابن ماجه فى "كتاب إقامة الصلاة" حديث (١٣٥٧).

❁ **قوله: ولا يصح الإيمان بالرؤية لأهل دار السلام لمن اعتبرها منهم بوهم أو تأولها بفهم إذ كان تأويل الرؤية وتأويل كل معنى يضاف إلى الربوبية بترك التأويل ولـزوم التسليم وعليه دين المسلمين، ومن لم يتوق النفي والتشبيه زل ولم يصب التنـزيه:**

ش: يشير الشيخ رحمه الله إلى الرد على المعتزلة، ومن يقول بقولهم، فى نفى الرؤية وعلى من يشبه الله بشيء من مخلوقاته، فإن النبيﷺ قال: "إنكم ترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر . . ."[١] الحديث، أدخل كاف التشبيه على "ما" المصدرية أو الموصولة بـ "ترون" التى تتأول مع صلتها إلى المصدر الذي هو الرؤية، فيكون التشبيه فى الرؤية لا فى المرئى، وهذا بين واضح فى أن المراد إثبات الرؤية وتحقيقها ودفع الاحتمالات عنها، وماذا بعد هذا البيان وهذا الإيضاح، فإذا سلط التأويل على مثل هذا النص كيف يستدل بنص من النصوص وهل يحتمل هذا النص أن يكون معناه: إنكم تعلمون ربكم كما تعلمون القمر ليلة البدر، ويستشهد لهذا التأويل الفاسد بقوله تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ ﴾ ونحو ذلك مما استعمل فيه "رأى" آلتي من أفعال القلوب، ولا شك أن "ترى" تارة تكون بصرية وتارة تكون قلبية وتارة تكون من رؤيا الحلم وغير ذلك، ولكن ما يخلو الكلام من قرينة تخلص أحد معانيه من الباقى، وإلا لو أخلى المتكلم كلامه من القرينة المخلصة لأحد المعانى لكان مجملا ملغزا لا مبينا موضحا وأى بيان وقرينة فوق قوله: "ترون ربكم كما ترون الشمس فى الظهيرة ليس دونها سحاب"[٢] فهل مثل هذا مما يتعلق برؤية البصر أو برؤية القلب؟ وهل يخفى مثل هذا إلا على من أعمى الله قلبه؟.

فإن قالوا: ألجأنا إلى هذا التأويل حكم العقل بأن رؤيته تعالى محال لا يتصور إمكانها.

فالجواب: أن هذه دعوى منكم خالفكم فيها أكثر العقلاء وليس فى العقل ما يحيلها، بل لو عرض على العقل موجود قائم بنفسه لا يمكن رؤيته لحكم بأن هذا محال.

---

(١) **صحيح:** تقدم تخريجه.

(٢) **صحيح:** تقدم تخريجه.

وقوله: لمن اعتبرها منهم بوهم أى توهم أن الله تعالى يُرى على صفة كذا فيتوهم تشبيها، ثم بعد هذا التوهم إن أثبت ما توهمه من الوصف فهو مشبه، وإن نفى الرؤية من أصلها لأجل ذلك التوهم فهو جاحد معطل، بل الواجب دفع ذلك الوهم وحده ولا يعم بنفيه الحق والباطل فينفيهما ردا على من أتيت الباطل بل الواجب رد الباطل وإثبات الحق.

وإلى هذا المعنى أشار الشيخ رحمه الله بقوله: ومن لم يتوق النفى والتشبيه زل ولم يصب التنزيه فإن هؤلاء المعتزلة يزعمون أنّهم ينزهون الله بِهذا النفى، وهل يكون التنزيه بنفى صفة الكمال، فإن نفى الرؤية ليس بصفة كمال إذ المعدوم لا يُرى، وإنما الكمال فى إثبات الرؤية ونفى إدراك الرائى له إدراك إحاطة كما فى العلم، فإن نفى العلم به ليس بكمال وإنما الكمال فى إثبات العلم ونفى الإحاطة به علما فهو سبحانه لا يحاط به رؤية كما لا يحاط به علما.

وقوله: أو تأولها بفهم أى ادعى أنه فهم لها تأويلا يخالف ظاهرها، وما يفهمه كل عربى من معناها فإنه قد صار اصطلاح المتأخرين فى معنى التأويل أنه صرف اللفظ عن ظاهره، وبهذا تسلط المحرفون على النصوص وقالوا: نحن نتأول ما يخالف قولنا فسموا التحريف تأويلا تزيينا له وزخرفة ليُقبل، وقد ذم الله الذين زخرفوا الباطل، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾[1] والعبرة للمعانى لا للألفاظ فكم من باطل قد أقيم عليه دليل مزخرف عورض به دليل الحق، وكلامه هنا نظير قوله فيما تقدم لا ندخل فى ذلك متأولين بآرائنا ولا متوهمين بأهوائنا.

ثم أكد هذا المعنى بقوله إذا كان تأويل الرؤية وتأويل كل معنى يضاف إلى الربوبية بترك التأويل ولزوم التسليم وعليه دين المسلمين ومراده ترك التأويل الذى يسمونه تأويلا وهو تحريف، ولكن الشيخ رحمه الله تأدب وجادل بالتى هى أحسن كما أمر الله تعالى بقوله: ﴿ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾[2] وليس مراده ترك كل ما يسمى تأويلا ولا ترك شىء من الظواهر لبعض الناس لدليل راجح من الكتاب والسنة، وإنما مراده ترك التأويلات الفاسدة المبتدعة المخالفة لمذهب السلف التى يدل الكتاب والسنة على فسادها، وترك القول على الله بلا علم.

---

(١) سورة الأنعام الآية: ١١٢.

(٢) سورة النحل الآية: ١٢٥.

فمن التأويلات الفاسدة تأويل أدلة الرؤية وأدلة العلو وأنه لم يكلم موسى تكليما و لم يتخذ إبراهيم خليلا.

ثم قد صار لفظ التأويل مستعملا فى غير معناه الأصلى.

فالتأويل فى كتاب الله وسنة رسوله هو الحقيقة التى يئول إليها الكلام فتأويل الخبر هو عين المخبر به وتأويل الأمر نفس الفعل المأمور به، كما قالت عائشة رضى الله عنها: كان رسول الله ﷺ يقول فى ركوعه: "سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لى" يتأول القرآن[١] وقال تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ﴾[٢] ومنه تأويل الرؤيا وتأويل العمل كقوله: ﴿ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ ﴾[٣] وقوله: ﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾[٤] وقوله: ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾[٥] وقوله: ﴿ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ إلى قوله: ﴿ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾[٦] فمن ينكر وقوع مثل هذا التأويل والعلم بما تعلق بالأمر والنهى منه؟ وأما ما كان خبرا كالإخبار عن الله واليوم الآخر فهذا قد لايعلم تأويله الذي هو حقيقته إذ كانت لا تعلم بمجرد الإخبار، فإن المخبر إن لم يكن قد تصور المخبر به أو ما يعرفه قبل ذلك لم يعرف حقيقته آلتى هى تأويله بمجرد الإخبار وهذا هو التأويل الذى لا يعلمه إلا الله، لكن لا يلزم من نفى العلم بالتأويل نفى العلم بالمعنى الذي قصد المخاطب إفهام المخاطب إياه، فما فى القرآن آية إلا وقد أمر الله بتدبرها، وما أنزل آية إلا وهو يحب أن يعلم ما عنى بها، وإن كان من تأويله ما لا يعلمه إلا الله فهذا معنى التأويل فى الكتاب والسنة وكلام السلف وسواء كان هذا التأويل موافقا للظاهر أو مخالفا له.

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب الأذان" حديث (٨١٧) ومسلم فى "كتاب الصلاة" حديث (٤٨٤) وأبو داود فى "كتاب الصلاة" حديث (٨٧٧) وابن ماجه فى "كتاب إقامة الصلاة" حديث (٨٨٩) والنسائى (٢/ ١٩٠).

(٢) سورة الأعراف الآية: ٥٣.

(٣) سورة يوسف الآية: ١٠٠.

(٤) سورة يوسف الآية: ٦.

(٥) سورة النساء الآية: ٥٩.

(٦) سورة الكهف الآيات: ٧٨ : ٨٢.

والتأويل فى كلام كثير من المفسرين كابن جرير ونحوه يريدون به تفسير الكلام وبيان معناه سواء وافق ظاهره أو خالف، وهذا اصطلاح معروف وهذا التأويل كالتفسير يحمد حقه ويرد باطله، وقوله تعالى: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ ﴾(١) الآية فيها قراءتان: قراءة من يقف على قوله: ﴿ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ ﴾ وقراءة من لا يقف عندها، وكلتا القراءتين حق، ويراد بالأولى المتشابه فى نفسه الذى استأثر الله بعلم تأويله، ويراد بالثانية المتشابه الإضافى الذى يعرف الراسخون تفسيره وهو تأويله، ولا يريد من وقف على قوله: ﴿ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ ﴾ أن يكون التأويل بمعنى التفسير للمعنى، فإن لازم هذا أن يكون الله أنزل على رسوله كلاما لا يعلم معناه جميع الأمة ولا الرسول، ويكون الراسخون فى العلم لا حظ لهم فى معرفة معناها سوى قولهم: ﴿ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ ﴾(٢) وهذا القدر يقوله غير الراسخ فى العلم من المؤمنين، والراسخون فى العلم يجب امتيازهم عن عوام المؤمنين فى ذلك، وقد قال ابن عباس رضى الله عنهما: أنا من الراسخين فى العلم الذين يعلمون تأويله، ولقد صدق ﷺ فإن النبى ﷺ دعا له وقال: "اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل"(٣) رواه البخارى وغيره، ودعاؤه ﷺ لا يرد، قال مجاهد(٤) عرضت المصحف على ابن عباس من أوله إلى آخره أقفه عند كل آية وأسأله عنها، وقد تواترت النقول عنه أنه تكلم فى جميع معانى القرآن و لم يقل عن آية إنها من المتشابه الذى لا يعلم أحد تأويله إلا الله.

وقول الأصحاب رحمهم الله فى الأصول المتشابه الحروف المقطعة فى أوائل السور، ويُروى هذا عن ابن عباس، مع أن هذه الحروف قد تكلم فى معناها أكثر الناس، فإن كان معناها معروفا فقد عرف معنى المتشابه وإن لم يكن معروفا وهى المتشابه كان ما سواها معلوم المعنى، وهذا المطلوب.

---

(١) سورة آل عمران الآية: ٧.

(٢) سورة آل عمران الآية: ٧.

(٣) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب الوضوء" حديث (١٤٣) بلفظ "اللهم فقه فى الدين" ومسلم فى "كتاب فضائل الصحابة" حديث (٢٤٧٧) بلفظ "اللهم فقه".

(٤) هو: مجاهد بن جبر، شيخ المفسرين، أبو الحجاج المكى الأسود، قال ابن سعد: مجاهد ثقة، فقيه، عالم، كثير الحديث، وقال يحيى بن معين: مجاهد ثقة.
توفى سنة ١٠٢ أو ١٠٣ أو ١٠٤هـ.

وأيضا فإن الله قال: ﴿ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾(١) وهـذه الحروف ليست آيات عند جمهور العادين.

والتأويل فى كلام المتأخرين من الفقهاء والمتكلمين هو صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدلالة توجب ذلك، وهذا هو التأويل الذى تنازع الناس فيه فى كثير من الأمور الخبرية والطلبية، فالتأويل الصحيح منه الذى يوافق ما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة، وما خالف ذلك فهو التأويل الفاسد، وهذا مبسوط فى موضعه وذكر فى التبصرة أن نصير بن يحيى البلخى روى عن عمرو بن إسماعيل بن حماد بن أبى يحيى بن محمد بن الحسن رحمهم الله أنه سئل عن الآيات والأخبار التى فيها من صفات الله تعالى ما يؤدى ظاهره إلى التشبيه فقال: نمرها كما جاءت ونؤمن بها ولا نقول: كيف وكيف، ويجب أن يعلم أن المعنى الفاسد الكفرى ليس هو ظاهر النص ولا مقتضاه، وأن من فهم ذلك منه فهو لقصور فهمه ونقص علمه، وإذا كان قد قيل فى قول بعض الناس:

وكم من عائب قولا صحيحا ... وآفته من الفهم السقيم

وقيل:

على نحت القوافى من مقاطعها ... وما على لهم أن تفهم البقر

فكيف يقال فى قول الله الذي هو أصدق الكلام وأحسن الحديث، وهو الكتاب الذى ﴿ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾(٢) أن حقيقة قولهم: إن ظاهر القرآن والحديث هو الضلال، وإنه ليس فيه بيان ما يصلح من الاعتقاد ولا فيه بيان التوحيد والتنزيه، هذا حقيقة قول المتأولين والحق أن ما دل عليه القرآن فهو حق وما كان باطلا لم يدل عليه، والمنازعون يدعون دلالته على الباطل الذى يتعين صرفه.

.فيقال لهم هذا الباب الذى فتحتموه وإن كنتم تزعمون أنكم تنتصرون به على إخوانكم المؤمنين فى مواضع قليلة خفية فقد فتحتم عليكم بابا لأنواع المشركين والمبتدعين لا تقدرون على سده فإنكم إذا سوغتم صرف القرآن عن دلالته المفهومة بغير دليل شرعى فما الضابط فيما يسوغ تأويله وما لا يسوغ.

(١) سورة آل عمران الآية: ٧.

(٢) سورة هود الآية الأولى.

فإن قلتم: ما دل القاطع العقلى على استحالته تأولناه وإلا أقررناه.

قيل لكم: وبأى عقل نزن القاطع العقلى، فإن القرمطى الباطنى يزعم قيام القواطع على بطلان ظواهر الشرع، ويزعم الفيلسوف قيام القواطع على بطلان حشر الأجساد، ويزعم المعتزلى قيام القواطع على امتناع رؤية الله تعالى وعلى امتناع قيام علم أو كلام أو رحمة به تعالى، وباب التأويلات التى يدعى أصحابها وجوبها بالمعقولات أعظم من أن تنحصر فى هذا المقام، ويلزم حينئذ محذوران عظيمان:

أحدهما: أن لا نقر بشىء من معانى الكتاب والسنة حتى نبحث قبل ذلك بحوثا طويلة عريضة فى إمكان ذلك بالعقل وكل طائفة من المختلفين فى الكتاب يدعون أن العقل يدل على ما ذهبوا إليه، فيئول الأمر إلى الحيرة المحذورة.

الثانى: أن القلوب تتخلى عن الجزم بشىء تعتقده مما أخبر به الرسول، إذ لا يوثق بأن الظاهر هو المراد والتأويلات مضطربة فيلزم عزل الكتاب والسنة عن الدلالة والإرشاد إلى ما أنبأ الله به العباد وخاصة النبى هى الإنباء، والقرآن هو النبأ العظيم.

ولهذا نجد أهل التأويل إنما يذكرون نصوص الكتاب والسنة للاعتضاد لا للاعتماد إن وافقت ما ادعوا أن العقل دل عليه قبلوه وإن خالفته أولوه، وهذا فتح باب الزندقة، نسأل الله العافية.

❁ قوله: ومن لم يتوق النفى والتشبيه زل ولم يصب التنزيه:

ش: النفى والتشبيه مرضان من أمراض القلوب، فإن أمراض القلوب نوعان: مرض شبهة ومرض شهوة، وكلاهما مذكور فى القرآن، قال تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾[1] فهذا مرض الشهوة، وقال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾[2] وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾[3] فهذا مرض الشبهة، وهو أردأ من مرض الشهوة، إذ مرض الشهوة يرجى له الشفاء بقضاء الشهوة، ومرض الشبهة لا شفاء له إن لم يتداركه الله برحمته.

---

(١) سورة الأحزاب الآية: ٣٢.

(٢) سورة البقرة الآية: ١٠.

(٣) سورة التوبة الآية: ١٢٥.

والشبهة التى فى مسألة الصفات نفيها وتشبيهها وشبه النفى أردأ من شبه التشبيه، فإن شبه النفى رد وتكذيب لما جاء به الرسول ﷺ وشبه التشبيه غلو ومجاوزة للحد فيما جاء به الرسول ﷺ وتشبيه الله بخلقه كفر، فإن الله تعالى يقول: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾[1] ونفى الصفات كفر، فان الله تعالى يقول: ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[2] وهذا أصل نوعى التشبيه، فإن التشبيه نوعان: تشبيه الخالق بالمخلوق، وهذا الذى يتعب أهل الكلام فى رده وإبطاله، وأهله فى الناس أقل من النوع الثانى الذين هم أهل تشبيه المخلوق بالخالق كعُبَّاد المشايخ وعُزَيْرٍ والشمس والقمر والأصنام والملائكة والنار والماء والعجل والقبور والجن وغير ذلك، وهؤلاء هم الذين أرسلت لهم الرسل يدعونهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له.

❁ قوله: فإن ربنا جل وعلا موصوف بصفات الوحدانية منعوت بنعوت الفردانية ليس فى معناه أحد من البرية:

ش: يشير الشيخ رحمه الله إلى تنزيه الرب تعالى بالذى هو وصفه كما وصف نفسه نفيا وإثباتا، وكلام الشيخ مأخوذ من معنى سورة الإخلاص فقوله: "موصوف بصفات الوحدانية" مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝ ﴾ وقوله: "منعوت بنعوت الفردانية" من قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ ﴾ وقوله: "ليس فى معناه أحد من البرية" من قوله تعالى: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝ ﴾ وهو أيضا مؤكد لما تقدم من إثبات الصفات ونفى التشبيه والوصف والنعت مترادفان وقيل متقاربان فالوصف للذات والنعت للفعل، وكذلك الوحدانية والفردانية.

وقيل فى الفرق بينهما: إن الوحدانية للذات والفردانية للصفات، فهو تعالى موحد فى ذاته منفرد بصفاته، وهذا المعنى حق ولم ينازع فيه أحد ولكن فى اللفظ نوع تكرير.

وللشيخ نظير هذا التكرير فى مواضع من العقيدة، وهو بالخطب والأدعية أشبه منه بالعقائد، والتسجيع بالخطب أليق، و﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ أكمل فى التنزيه من قوله ليس فى معناه أحد من البرية.

(١) سورة الشورى الآية: ١١.

(٢) سورة الشورى الآية: ١١.

❁ **قوله: وتعالى عن الحدود والغايات والأركان والأعضاء والأدوات، لا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات:**

ش: أذكر بين يدى الكلام على عبارة الشيخ رحمه الله مقدمة وهى أن الناس فى إطلاق مثل هذه الألفاظ ثلاثة أقوال: فطائفة تنفيها وطائفة تثبتها وطائفة تفصل وهم المتبعون للسلف فلا يطلقون نفيها ولا إثباتها إلا إذا تبين ما أثبت بها فهو ثابت، وما نفى بها فهو منفى.

لأن المتأخرين قد صارت هذه الألفاظ فى اصطلاحهم فيها إجمال وإبهام كغيرها من الألفاظ الاصطلاحية، فليس كلهم يستعملها فى نفس معناها اللغوى، ولهذا كان النفاة ينفون بها حقا وباطلا ويذكرون عن مثبتها ما لا يقولون به، وبعض المثبتين لها يدخل لها معنى باطلا مخالفا لقول السلف ولما دل عليه الكتاب والميزان، ولم يرد نص من الكتاب ولا من السنة بنفيها ولا إثباتها وليس لنا أن نصف الله تعالى بما لم يصف به نفسه ولا وصفه به رسوله، نفيا ولا إثباتا، وإنما نحن متبعون لا مبتدعون.

فالواجب أن ينظر فى هذا الباب، أعنى باب الصفات، فما أثبته الله ورسوله أثبتناه، وما نفاه الله ورسوله نفيناه، والألفاظ التى ورد بها النص يعتصم بها فى الإثبات والنفى، فنثبت ما أثبته الله ورسوله من الألفاظ والمعانى، وننفى ما نفته نصوصهما من الألفاظ والمعانى، وأما الألفاظ التى لم يرد نفيها ولا إثباتها فلا تطلق حتى ينظر فى مقصود قائلها، فإن كان معنى صحيحا قبل لكن ينبغى التعبير عنه بألفاظ النصوص دون الألفاظ المجملة إلا عند الحاجة مع قرائن تبين المراد، والحاجة مثل أن يكون الخطاب مع من لا يتم المقصود معه إن لم يخاطب بها ونحو ذلك.

والشيخ، رحمه الله، أراد الرد بهذا الكلام على المشبهة كداود الجواربى وأمثاله القائلين: إن الله جسم وأنه جثة وأعضاء وغير ذلك، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا، فالمعنى الذى أراده الشيخ رحمه الله من النفى الذى ذكره هنا حق، لكن حدث بعده من أدخل فى عموم نفيه حقا وباطلا فيحتاج إلى بيان ذلك وهو أن السلف متفقون على أن البشر لا يعلمون لله حدا، وأنهم لا يحدون شيئا من صفاته.

قال أبو داود الطيالسى: كان سفيان وشعبة وحماد بن زيد وحماد بن سلمة وشريك وابو عوانة لا يحدون ولا يشبهون ولا يمثلون، يروون الحديث ولا يقولون كيف، وإذا سئلوا قالوا

بالأثر، وسيأتى فى كلام الشيخ: وقد أعجز خلقه عن الإحاطة به، فعلم أن مراده أن الله يتعالى عن أن يحيط أحد بحده، لأن المعنى أنه متميز عن خلقه منفصل عنهم مباين لهم.

سئل عبد الله بن المبارك: بم نعرف ربنا؟ قال: بأنه على العرش بائن من خلقه، قيل: بحد؟ قال: بحد انتهى.

ومن المعلوم أن الحد يقال على ما ينفصل به الشيء ويتميز به عن غيره، والله تعالى غير حال فى خلقه ولا قائم بهم، بل هو القيوم القائم بنفسه المقيم لما سواه، فالحد بهذا المعنى لا يجوز أن يكون فيه منازعة فى نفس الأمر أصلا، فإنه ليس وراء نفيه إلا نفى وجود الرب ونفى حقيقته، وأما الحد بمعنى العلم والقول وهو أن يحده العباد فهذا منتف بلا منازعة بين أهل السنة.

قال أبو القاسم القشيرى(١) فى رسالته: سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى(٢) سمعت أبا منصور بن عبد الله سمعت أبا الحسن العنبرى سمعت سهل بن عبد الله التسترى يقول، وقد سئل عن ذات الله فقال: ذات الله موصوفة بالعلم غير مدركة بالإحاطة ولا مرئية بالأبصار فى دار الدنيا، وهى موجودة بحقائق الإيمان من غير حد ولا إحاطة ولا حلول، وتراه العيون فى العقبى ظاهرا فى ملكه وقدرته، وقد حجب الخلق عن معرفة كنه ذاته ودلهم عليه بآياته، فالقلوب تعرفه والعيون لا تدركه، ينظر إليه المؤمن بالأبصار من غير إحاطة ولا إدراك نهاية.

وأما لفظ الأركان والأعضاء والأدوات فيستدل بها النفاة على نفى بعض الصفات الثابتة بالأدلة القطعية كاليد والوجه، قال أبو حنيفة ﷺ فى الفقه الأكبر: له يد ووجه ونفس كما ذكر تعالى فى القرآن من ذكر اليد والوجه والنفس، فهو له صفة بلا كيف، ولا يقال: إن يده قدرته ونعمته لأن فيه إبطال الصفة. انتهى.

---

(١) هو: الإمام الزاهد القدوة، الأستاذ أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة القشيرى، ولد سنة ٣٧٥هـ، كان عديم النظير فى السلوك والتذكير، لطيف العبارة، طيب الأخلاق، غواصا على المعانى، صنف كتاب "نحو القلوب" و "لطائف الإشارات" و "الجواهر" و "كتاب أحكام السماع" وغيرها، توفى سنة ٤٦٥هـ.

(٢) هو: محمد بن الحسين بن محمد بن موسى، السلمى الأم، الإمام الحافظ المحدث، شيخ خراسان، وكبير الصوفية، أبو عبد الرحمن النيسابورى الصوفى، صاحب التصانيف، له كتاب "حقائق التفسير" توفى سنة ٤١٢هـ.

وهذا الذى قاله الإمام ﷺ ثابت بالأدلة القاطعة، قال تعـالى : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾(١) ﴿ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾(٢) وقال تعالى: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾(٣) ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾(٤) وقال تعالى: ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾(٥) وقال تعالى: ﴿ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ﴾(٦) وقال تعالى: ﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴾(٧) وقـال تعالى: ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾(٨).

وقال ﷺ فى حديث الشفاعة لما يأتى الناس آدم فيقولون: له خلقك الله بيده وأسجد لـك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء . . . الحديث ولا يصح تأويل من قال: إن المراد باليد: بالقدرة فإن قوله: ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ لا يصح أن يكون معناه بقدرتى مع تثنية اليد، ولو صح ذلك لقال إبليس: وأنا أيضا خلقتنى بقدرتك، فلا فضل له عليَّ بذلك، فإبليس مع كفره كان أعرف بربه من الجهمية، ولا دليل لهم فى قوله تعـالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴾(٩) لأنه تعالى جمع الأيدى لما أضافـها إلى ضمـير الجمـع ليتناسب الجمعان، فاللفظان للدلالة على الملك والعظمة، و لم يقل أيدى مضافا إلى ضمير المفـرد ولا يدينا بتثنية اليد مضافا إلى ضمير الجمع، فلم يكن قوله: ﴿ مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ ﴾ نظير قولـه: ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ وقال النبى ﷺ عن ربه عز وجل: "حجابه النور، ولو كشفه لأحرقـت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه"(١٠).

ولكن لا يقال لهذه الصفات إنها أعضاء أو جوارح أو أدوات أو أركان لأن الركن جـزء الماهية، والله تعالى هو الأحد الصمد لا يتجزأ سبحانه وتعالى والأعضاء فيها معـنى التفريـق والتعضيه تعالى الله عن ذلك.

---

(١) سورة ص الآية: ٧٥.
(٢) سورة الزمر الآية: ٦٧.
(٣) سورة القصص الآية: ٨٨.
(٤) سورة الرحمن الآية: ٢٧.
(٥) سورة المائدة الآية: ١١٦.
(٦) سورة الأنعام الآية: ٥٤.
(٧) سورة طه الآية: ٤١.
(٨) سورة آل عمران الآية: ٢٨.
(٩) سورة يس الآية: ٧١.
(١٠) تقدم تخريجه.

ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴾[١] والجوارح فيها معنى الاكتساب والانتفاع، وكذلك الأدوات هى الآلات التى ينتفع بها فى جلب المنفعة ودفع المضرة، وكل هذه المعانى منتفية عن الله تعالى، ولهذا لم يرد ذكرها فى صفات الله تعالى، فالألفاظ الشرعية صحيحة المعانى سالمة من الاحتمالات الفاسدة، فكذلك يجب أن لا يعدل عن الألفاظ الشرعية نفيا ولا إثباتا لئلا يثبت معنى فاسد أو ينفى معنى صحيح، وكل هذه الألفاظ المجملة عرضة للمحق والمبطل.

وأما لفظ الجهة فقد يُراد به ما هو موجود وقد يراد به ما هو معدوم ومن المعلوم أنه لا موجود إلا الخالق والمخلوق، فإذا أريد بالجهة أمر موجود غير الله تعالى كان مخلوقا، والله تعالى لا يحصره شىء ولا يحيط به شىء من المخلوقات تعالى الله عن ذلك، وإن أريد بالجهة أمر عدمى وهو ما فوق العالم فليس هناك إلا الله وحده.

فإذا قيل إنه فى جهة بهذا الاعتبار فهو صحيح، ومعناه أنه فوق العالم حيث انتهت المخلوقات، فهو فوق الجميع عال عليه، ونفاة لفظ الجهة الذين يريدون بذلك نفى العلو يذكرون من أدلتهم أن الجهات كلها مخلوقة وأنه كان قبل الجهات وأن من قال إنه فى جهة يلزمه القول بقدم شىء من العالم وأنه كان مستغنيا عن الجهة ثم صار فيها، وهذه الألفاظ ونحوها إنما تدل على أنه ليس فى شىء من المخلوقات سواء سمى جهة أو لم يسم، وهذا حق ولكن الجهة ليست أمرا وجوديا بل أمر اعتبارى ولا شك أن الجهات لا نهاية لها وما لا يوجد فيما لا نهاية له فليس بموجود.

وقول الشيخ، رحمه الله: لا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات هو حق باعتبار أنه لا يحيط به شىء من مخلوقاته بل هو محيط بكل شىء وفوقه، وهذا المعنى هو الذى أراده الشيخ رحمه الله لما يأتى فى كلامه أنه تعالى محيط بكل شىء وفوقه، فإذا جمع بين كلاميه وهو قوله: لا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات وقوله محيط بكل شىء وفوقه علم أن مراده أن الله تعالى لا يحويه شىء، ولا يحيط به شىء كما يكون لغيره من المخلوقات، وأنه تعالى هو المحيط بكل شىء العالى عن كل شىء.

---

(١) سورة الحجر الآية: ٩١.

لكن بقى فى كلامه شيئان:

أحدهما: أن إطلاق مثل هذا اللفظ مع ما فيه من الإجمال والاحتمال كان تركه أولى وإلا تسلط عليه وألزم بالتناقض فى إثبات الإحاطة والفوقية ونفى جهة العلو، وإن أجيب عنه بما تقدم من أنه إنما نفى أن يحويه شيء من مخلوقاته فالاعتصام بالألفاظ الشرعية أولى.

الثانى: أن قوله كسائر المبتدعات يفهم منه أنه ما من مبتدع إلا وهو محوى، وفى هذا نظر، فإنه ان أراد أنه محوى بأمر وجودى فممنوع فإن العالم ليس فى عالم آخر، وإلا لزم التسلسل، وإن أراد أمرا عدميا فليس كل مبتدع فى العدم، بل منها ما هو داخل فى غيره كالسموات والأرض فى الكرسى ونحو ذلك، ومنها ما هو منتهى المخلوقات كالعرش، فسطح العالم ليس فى غيره من المخلوقات قطعا للتسلسل، كما تقدم، ويمكن أن يجاب عن هذا الإشكال بأن "سائر" بمعنى البقية لا بمعنى الجميع، هذا أصل معناها، ومنه السؤر وهو ما يبقيه الشارب فى الإناء، فيكون مراده غالب المخلوقات لا جميعها إذ السائر على الغالب أدل منه على الجميع، فيكون المعنى أن الله تعالى غير محوى كما يكون أكثر المخلوقات محويا بل هو غير محوى بشيء، تعالى الله عن ذلك، ولا يظن بالشيخ رحمه الله أنه ممن يقول: إن الله تعالى ليس داخل العالم ولا خارجه بنفى التعيينين كما ظنه بعض الشارحين، بل مراده أن الله تعالى منزه عن أن يحيط به شيء من مخلوقاته وأن يكون مفتقرا إلى شيء منها، العرش أو غيره.

وفى ثبوت هذا الكلام عن الإمام أبى حنيفة ﷺ نظر فإن أضداده قد شنعوا عليه بأشياء أهون منه، فلو سمعوا مثل هذا الكلام لشاع عنهم تشنيعهم عليه به، وقد نقل أبو مطيع البلخى عنه إثبات العلو، كما سيأتى ذكره إن شاء الله تعالى، وظاهر هذا الكلام يقتضى نفيه، ولم يرد بمثله كتاب ولا سنة، فلذلك قلت: إن فى ثبوته عن الإمام نظرا وأن الأولى التوقف فى إطلاقه، فإن الكلام بمثله خطر بخلاف الكلام بما ورد عن الشارع كالاستواء والنزول ونحو ذلك، ومن ظن من الجهال أنه إذا نزل إلى سماء الدنيا كما أخبر الصادق ﷺ(١) يكون العرش فوقه ويكون محصورا بين طبقتين من العالم، فقوله مخالف لإجماع السلف مخالف للكتاب والسنة.

(١) **صحيح:** أخرجه البخارى فى "كتاب التهجد" حديث (١١٤٥) ومسلم فى "كتاب المسافرين" حديث (٧٥٨) وأبو داود فى "كتاب السنة" حديث (٤٧٣٤) والترمذى فى "كتاب الصلاة" حديث (٤٤٦) وابن ماجه فى "كتاب الصلاة" حديث (١٣٦٦) والدارمى حديث (١٤٥١) وأحمد فى "المسند" حديث (١٠٢٦٢، ٧٧٧٩).

وقال شيخ الإسلام أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن الصابونى: سمعت الأستاذ أبا منصور ابن حماد بعد روايته حديث النـــزول يقول: سئل أبو حنيفة ﷺ عنه فقال: ينـــزل بلا كيف. انتهى.

وإنما توقف من توقف فى نفى ذلك لضعف علمه بمعانى الكتاب والسنة وأقوال السـلف، لذلك ينكر بعضهم أن يكون فوق العرش بل يقول لا مباين ولا محـانب، لا داخـل العـالم ولا خارجه فيصفونه بصفة العدم والممتنع ولا يصفونه بما وصف به نفسه من العلو والاسـتواء على العرش، ويقول بعضهم بحلوله فى كل موجود، أو يقول هو وجود كل موجود ونحو ذلك، تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا، وسيأتى لإثبات صفة العلو لله تعالى زيـادة بيان عند الكلام على قول الشيخ، رحمه الله: محيط بكل شيء وفوقه، إن شاء الله تعالى.

❁ قوله: والمعراج حق وقد أسرى بالنبى ﷺ وعرج بشخصه فى اليقظة إلى السـماء ثم إلى حيث شاء الله من العلا، وأكرمه الله بما شاء، وأوحى إليه ما أوحى، ما كذب الفؤاد مـا رأى فصلى الله عليه وسلم فى الآخرة والأولى:

ش: المعراج مفعال من العروج، أى الآلة التى يعرج فيها أى يصعد، وهو بمنـزلة السـلم لكن لا يعلم كيف هو وحكمه كحكم غيره من المغيبات نؤمن به ولا نشتغل بكيفيته.

وقوله: وقد أسرى بالنبى ﷺ وعرج بشخصه فى اليقظة: اختلف الناس فى الإسراء فقيـل: كان الإسراء بروحه ولم يفقد جسده، نقله ابن إسحاق عن عائشة ومعاوية رضى الله عنـهما، ونقل عن الحسن البصرى نحوه، لكن ينبغى أن يعرف الفرق بين أن يقال: كان الإسراء منامـا وبين أن يقال: كان بروحه دون جسده، وبينهما فرق عظيم، فعائشة ومعاوية رضى الله عنـهما لم يقولا كان مناما، وإنما قالا: أسرى بروحه ولم يفقد جسده، وفرق ما بين الأمرين أن ما يراه النائم قد يكون أمثالا مضروبة للمعلوم فى الصورة المحسوسة فيرى كأنه قد عرج إلى السـماء وذُهب به إلى مكة وروحه لم تصعد ولم تذهب، وإنما ملَك الرؤيا ضرب له المثال، فمـا أراد أن الإسراء مناما وإنما اراد أن الروح ذاتـها أسرى بِها ففارقت الجسد ثم عادت إليه، ويجعلان هذا من خصائصه، فإن غيره لا تنال ذات روحه الصعود الكامل إلى السماء إلا بعد الموت.

وقيل: كان الإسراء مرتين: مرة يقظة ومرة مناما، وأصحاب هذا القــول كأنــهم أرادوا الجمع بين حديث شريك وقوله: "ثم استيقظت" وبين سائر الروايات، وكذلك منهم من قــال: بل كان مرتين: مرة قبل الوحى ومرة بعده، ومنهم من قال: بل ثلاث مرات: مرة قبل الوحــى ومرتين بعده، وكلما اشتبه عليهم لفظ زادوا مرة للتوفيق، وهذا يفعله ضعفاء أهل الحديث، وإلا فالذى عليه أئمة النقل أن الإسراء كان مرة واحدة بمكة بعد البعثة قبل الهجرة بسنة، وقيل: بسنة وشهرين، ذكره ابن عبد البر، قال شمس الدين ابن القيم: يا عجبا لهؤلاء الذين زعموا أنه كــان مرارا، كيف ساغ لهم أن يظنوا أنه فى كل مرة يفرض عليهم الصلوات خمسين ثم يتردد بين ربه وبين موسى حتى تصير خمسا، فيقول: أمضيت فريضتى وخففت عن عبادى، ثم يعيدها فى المــرة الثانية إلى خمسين ثم يحطها إلى خمس، وقد غلط الحفاظ شريكا فى ألفاظ من حديث الإســراء، ومسلم أورد المسند منه ثم قال: فقدم وأخر، وزاد ونقص، ولم يسرد الحديث، وأجاد رحمه الله. انتهى كلام الشيخ شمس الدين رحمه الله.

وكان من حديث الإسراء أنه ﷺ أسرى بجسده فى اليقظة، على الصحيح، من المســـجد الحرام إلى المسجد الأقصى، راكبا على البراق صحبة جبرائيل، عليه السلام، فنــزل هناك وصلى بالأنبياء إماما وربط البراق بحلقه باب المسجد، وقد قيل: إنه نزل بيت لحــم وصلــى فيــه، ولا يصح عنه ذلك البتة، ثم عرج من بيت المقدس تلك الليلة إلى السماء الدنيا فاســتفتح لــه جبرائيل ففتح لهما فرأى هناك آدم أبا البشر فسلم عليه فرحب به ورد عليه السلام وأقر بنبوته، ثم عرج به إلى السماء الثانية فاستفتح له فرأى فيها يحيى بن زكريا وعيسى ابن مريم فلقيــهما فسلم عليهما فردا عليه السلام ورحبا به وأقرا بنبوته، ثم عرج به إلى السماء الثالثة فرأى فيــها يوسف فسلم عليه ورحب به وأقر بنبوته، ثم عرج به إلى السماء الرابعة فرأى فيها إدريس فسلم عليه ورحب به وأقر بنبوته، ثم عرج به إلى السماء الخامسة فرأى فيها هارون بن عمران فســلم عليه ورحب به وأقر بنبوته، ثم عرج به إلى السماء السادسة فلقى فيها موسى فســلم عليــه ورحب به وأقر بنبوته، فلما جاوزه بكى موسى، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكى لأن غلامــا بعث بعدى يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتى، ثم عرج به إلى السماء السابعة فلقى فيها إبراهيم فسلم عليه ورحب به وأقر بنبوته، ثم رفع إلى سدرة المنتهى ثم رفــع لــه البيــت

المعمور، ثم عرج به إلى الجبار، جل جلاله وتقدست أسماؤه، فدنا منه حتى كان قاب قوسين أو أدنى، فأوحى إلى عبده ما أوحى، وفرض عليه خمسين صلاة، فرجع حتى مر على موسى فقال: بم أُمرت؟ قال: بخمسين صلاة، فقال: إن أمتك لا تطيق ذلك، ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، فالتفت إلى جبرائيل كأنه يستشيره فى ذلك، فأشار أن نعم، إن شئت، فعلا به جبرائيل حتى أتى به إلى الجبار تبارك وتعالى وهو فى مكانه.

هذا لفظ البخارى فى صحيحه.

وفى بعض الطرق: "فوضع عنه عشرا ثم نزل حتى مر بموسى فأخبره فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فلم يزل يتردد بين موسى وبين الله تبارك وتعالى حتى جعلها خمسا، فأمره موسى بالرجوع وسؤال التخفيف فقال: قد استحييت من ربى، ولكن أرضى وأسلم، فلما نفذ نادى مناد: قد أمضيت فريضتى وخففت عن عبادى"[١].

وقد تقدم ذكر اختلاف الصحابة فى رؤيته ﷺ ربه عز وجل بعين رأسه وأن الصحيح أنه رآه بقلبه ولم يره بعين رأسه وقوله: ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾[٢] و ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾[٣] صح عن النبى ﷺ أن هذا المرئى جبرائيل رآه مرتين على صورته التى خلق عليها.

وأما قوله تعالى فى سورة النجم: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ ﴾ فهو غير الدنو والتدلى المذكورين فى قصة الإسراء، فإن الذى فى سورة النجم هو دنو جبرائيل وتدليه كما قالت عائشة وابن مسعود رضى الله عنهما فإنه قال: ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ ﴾[٤] فالضمائر كلها راجعة إلى هذا المعلم الشديد القوى، وأما الدنو والتدلى الذى فى حديث الإسراء فذلك صريح فى أنه دنو الرب تعالى وتدليه،

---

(١) **صحيح:** أخرجه البخارى فى "كتاب بدء الوحى" حديث (٣٢٠٧) وأطرافه فى (٣٣٩٣، ٣٤٣٠، ٣٨٨٧) ومسلم فى "كتاب الإيمان" حديث (٢٦٤) والنسائى فى "كتاب الصلاة" (١/ ٢١٧) حديث (٤٤٨) وأحمد فى "المسند" حديث (١٧٧٦١، ١٧٧٦٣، ١٧٧٦٠) وابن حبان فى "صحيحه" حديث (٤٨).

(٢) سورة النجم الآية: ١١.

(٣) سورة النجم الآية: ١٣.

(٤) سورة النجم الآيات: ٥ : ٨.

وأما الذى فى سورة النجم أنه رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى فهذا هو جبرائيل، رآه مرتين: مرة فى الأرض ومرة عند سدرة المنتهى.

ومما يدل على أن الاسراء بجسده فى اليقظة قوله تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ﴾[1] والعبد عبارة عن مجموع الجسد والروح، كما أن الإنسان اسم لمجموع الجسد والروح هذا هو المعروف عند الإطلاق وهو الصحيح، فيكون الإسراء بهذا المجموع، ولا يمتنع ذلك عقلا، ولو جاز استبعاد صعود البشر لجاز استبعاد نزول الملائكة، وذلك يؤدى الى إنكار النبوة وهو كفر.

فإن قيل: فما الحكمة فى الإسراء إلى بيت المقدس أولا؟.

فالجواب والله أعلم: أن ذلك كان إظهارا لصدق دعوى الرسول ﷺ المعراج حين سألته قريش عن نعت بيت المقدس فنعته لهم وأخبرهم عن عيرهم التي مر عليها فى طريقه، ولو كان عروجه إلى السماء من مكة لما حصل ذلك، إذ لا يمكن اطلاعهم على ما فى السماء لو أخبرهم عنه، وقد اطلعوا على بيت المقدس فأخبرهم بنعته.

وفى حديث المعراج دليل على ثبوت صفة العلو لله تعالى من وجوه لمن تدبره، وبالله التوفيق.

❁ قوله: والحوض الذى أكرمه الله تعالى به غياثا لامته حق:

ش: الأحاديث الواردة فى ذكر الحوض تبلغ حد التواتر، رواها من الصحابة بضع وثلاثون صحابيا، ولقد استقصى طرقها شيخنا الشيخ عماد الدين ابن كثير، تغمده الله برحمته، فى آخر تاريخه الكبير المسمى بالبداية والنهاية، فمنها ما رواه البخارى رحمه الله تعالى عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "إن قدر حوضى كما بين أيلة إلى صنعاء من اليمن، وإن فيه من الأباريق كعدد نجوم السماء"[2] وعنه أيضا عن النبى ﷺ: "ليردن على ناس من أصحابى حتى إذا عرفتهم اختلجوا دونى فأقول: أصحابى، فيقول: لا تدرى ما أحدثوا بعدك"[3] رواه مسلم.

---

(١) سورة الإسراء الآية الأولى.

(٢) **صحيح:** أخرجه البخارى فى "كتاب الرقاق" حديث (٦٥٨٢) ومسلم فى "كتاب الفضائل" حديث (٢٣٠٤).

(٣) انظر المتقدم.

وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: أغفى رسول الله ﷺ إغفاءة فرفع رأسه مبتسما، إما قال لهم وإما قالوا له: لم ضحكت؟ فقال رسول الله ﷺ: "إنه أنزلت على آنفا سورة، فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝ ﴾ حتى ختمها، ثم قال لهم: هل تدرون ما الكوثر؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: "هو نَهر أعطانيه ربى عز وجل فى الجنة، عليه خير كثير، ترد عليه أمتى يوم القيامة، آنيته عدد الكواكب يختلج العبد منهم فأقول: يا رب إنه من أمتى، فيقال لى: إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك"[1] ورواه مسلم ولفظه: هو نَهر وعدنيه ربى عليه خير كثير، هو حوض ترد عليه أمتى يوم القيامة . . ." والباقى مثله، ومعنى ذلك أنه يشخب فيه ميزابان من ذلك الكوثر إلى الحوض، والحوض فى العرصات قبل الصراط، لأنه يختلج عنه ويمنع منه أقوام قد ارتدوا على أعقابِهم، ومثل هؤلاء لا يجاوزون الصراط.

وروى البخارى ومسلم عن جندب بن عبد الله البجلى قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "أنا فرطكم على الحوض"[2] والفرط الذى يسبق إلى الماء.

وروى البخارى عن سهل بن سعد الأنصارى قال: قال رسول الله ﷺ: "إنى فرطكم على الحوض، من مر علىَّ شرب، ومن شرب لم يظمأ أبدا، ليردن علىَّ أقوام أعرفهم ويعرفونى ثم يحال بينى وبينهم" قال أبو حازم فسمعنى النعمان بن أبى عياش فقال: هكذا سمعت من سهل؟ فقلت: نعم، فقال: أشهد على أبى سعيد الخدرى سمعته، وهو يزيد فيها: "فأقول: إنَّهم من أمتى، فقال: إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك فأقول: سحقا سحقا لمن غيَّر بعدى"[3] سُحقا أى بُعدا.

والذى يتلخص من الأحاديث الواردة فى صفة الحوض أنه حوض عظيم ومورد كريم يمد من شراب الجنة من نَهر الكوثر الذى هو أشد بياضا من اللبن وأبرد من الثلج وأحلى من العسل وأطيب ريحا من المسك، وهو فى غاية الاتساع، عرضه وطوله سواء، كل زاوية من زواياه

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم فى "كتاب الصلاة" حديث (٤٠٠) وأبو داود فى "كتاب السنة" حديث (٤٧٤٧) والنسائى فى "كتاب الصلاة" حديث (٩٠٤) وأحمد فى "المسند" (٣/ ١٠٢).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب الرقاق" حديث (٦٥٨٩) ومسلم فى "كتاب الفضائل" حديث (٢٢٨٩) وأحمد فى "المسند" رقم (٣٢٢٧، ٣٦٣٩، ٣٨٥٠، ٤٠٤٢، ٤١٨٠، ٤٣٣٢، ٤٣٥١، ١٥٠٠٨، ١٨٩٨٤، ١٨٩٨٥، ٢٠٣٠٠).

(٣) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب الفتن" حديث (٧٠٥٠) ومسلم فى "كتاب الفضائل" حديث (٢٢٩١).

مسيرة شهر، وفى بعض الأحاديث أنه كلما شُرب منه وهو فى زيادة واتساع، وأنه ينبــــت فى خلاله من المسك والرضراض من اللؤلؤ وقضبان الذهب ويثمر ألوان الجواهر، فسبحان الخـــالق الذى لا يعجزه شيء.

وقد ورد فى أحاديث أن لكل نبى حوضا وأن حوض نبينا ﷺ أعظمها وأحلاها وأكثرهـــا واردا، جعلنا الله منهم بفضله وكرمه.

قال العلامة أبو عبد الله القرطبى رحمه الله فى "التذكرة": واختُلف فى الميزان والحوض أيهما يكون قبل الآخر، فقيل: الميزان وقيل الحوض، قال أبو الحسن القابسى[1]: والصحيح أن الحوض قبل الميزان، قال القرطبى: والمعنى يقتضيه، فإن الناس يخرجون عطاشا من قبورهم، كما تقـــدم، فيقدم قبل الميزان والصراط.

قال أبو حامد الغزالى رحمه الله فى كتاب "كشف علم الآخرة": حكى بعض السلف مـــن أهل التصنيف أن الحوض يورد بعد الصراط وهو غلط من قائله.

قال القرطبى: هو كما قال.

ثم قال القرطبى: ولا يخطر ببالك أنه فى هذه الأرض بل فى الأرض المبدلة، أرض بيضـــاء كالفضة لم يسفك فيها دم ولم يظلم على ظهرها أحد قط، تظهر لنـــزول الجبار جل جلالـــه لفصل القضاء. انتهى. فقاتل الله المنكرين لوجود الحوض وأخلق بهم أن يحال بينهم وبين وروده يوم العطش الأكبر.

❁ قوله: والشفاعة التى ادخرها لهم حق كما روى فى الأخبار:

ش: الشفاعة أنواع، منها ما هو متفق عليه بين الأمة، ومنها ما خالف فيه المعتزلة ونحوهم من أهل البدع:

النوع الأول: الشفاعة الأولى وهى العظمى الخاصة بنبينا ﷺ من بين سائر إخوانه مـــن الأنبياء والمرسلين، صلوات الله عليهم أجمعين، فى الصحيحين وغيرهما عن جماعة من الصحابـــة رضى الله عنهم أجمعين أحاديث الشفاعة.

---

(١) هو: العلامة أبو الحسن على بن خلف بن بطال البكرى القرطبى، ويُعرف بابن اللجام، كان من أهل العلم والمعرفة، عنى بالحديث العناية التامة، شرح صحيح البخارى فى عدة أسفار، رواه الناس عنه، توفى ســـنة ٤٤٩هـــ.

منها: عن أبي هريرة ﷺ قال: أُتي رسول الله ﷺ بلحم فدفع إليه منها الذراع، وكانت تعجبه، فنهس منها نَهسة ثم قال: "أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون لم ذلك؟ يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد فيقول بعض الناس لبعض: ألا ترون إلى ما أنتم فيه؟ ألا ترون إلى ما قد بلغكم؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم، فيقول بعض الناس لبعض: أبوكم آدم، فيأتون آدم فيقولون: يا آدم، أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول آدم: إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، وإنه نَهانى عن الشجرة فعصيته، نفسى نفسى نفسى، اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى نوح، فيأتون نوحا فيقولون: يا نوح، أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وسماك الله عبدا شكورا، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول نوح: إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، وإنه كانت لى دعوة دعوت بِها على قومى، نفسى نفسى نفسى، اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى إبراهيم، فيأتون إبراهيم فيقولون: يا إبراهيم أنت نبى الله وخليله من أهل الأرض، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول: إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، وذكر كذباته، نفسى نفسى نفسى، اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى موسى، فيأتون موسى فيقولون: يا موسى أنت رسول الله، اصطفاك الله برسالاته وبتكليمه على الناس، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم موسى: إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، وإنى قتلت نفسا لم أومر بقتلها، نفسى نفسى نفسى، اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى عيسى، فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، قال: هكذا هو، وكلمت الناس فى المهد فاشفع لنا ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم عيسى: إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، ولم يذكر له ذنبا، اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى محمد ﷺ، فيأتونى فيقولون: يا محمد، أنت رسول الله وخاتم الأنبياء، غفر الله لك ذنبك ما تقدم منه وما تأخر، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فأقوم فآتى تحت العرش فأقع

ساجدا لربى عز وجل، ثم يفتح الله علىَّ ويلهمنى من محامده وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتحه على أحد قبلى، فيقال: يا محمد ارفع رأسك، سل تعطه، اشفع تشفع، فأقول: يا رب أمتى أمتى، يا رب أمتى أمتى، يا رب أمتى أمتى، فيقول: أدخل من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سواه من الأبواب، ثم قال: والذى نفسى بيده لما بين مصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وهجر، أو كما بين مكة وبصرى"[1] أخرجاه فى الصحيحين بمعناه واللفظ للإمام أحمد. (المسند: ٩٦٢١).

والعجب كل العجب من إيراد الأئمة لهذا الحديث من أكثر طرقه لا يذكرون أمر الشفاعة الأولى فى مأتى الرب سبحانه وتعالى لفصل القضاء كما ورد هذا فى حديث الصور، فإنه المقصود فى هذا المقام، ومقتضى سياق أول الحديث، فإن الناس إنما يستشفعون إلى آدم فمن بعده من الأنبياء فى أن يفصل بين الناس ويستريحوا من مقامهم، كما دلت عليه سياقاته من سائر طرقه، فإذا وصلوا الى الجزاء إنما يذكرون الشفاعة فى عصاة الأمة وإخراجهم من النار، وكان مقصود السلف فى الاقتصار على هذا المقدار من الحديث هو الرد على الخوارج ومن تابعهم من المعتزلة الذين أنكروا خروج أحد من النار بعد دخولها فيذكرون هذا القدر من الحديث الذى فيه النص الصريح فى الرد عليهم فيما ذهبوا إليه من البدعة المخالفة للأحاديث، وقد جاء التصريح بذلك فى حديث الصور ولولا خوف الإطالة لسقته بطوله لكن من مضمونه أنَّهم يأتون آدم ثم نوحا ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى ثم يأتون رسول الله محمدا ﷺ فيذهب فيسجد تحت العرش فى مكان يقال له: الفحص، فيقول الله: ما شأنك؟ وهو أعلم، قال رسول الله ﷺ فأقول: يا رب، وعدتنى الشفاعة فشفعنى فى خلقك فاقض بينهم، فيقول سبحانه وتعالى: شفعتك، أنا آتيكم فأقضى بينهم، قال فأرجع فأقف مع الناس، ثم ذكر انشقاق السموات وتنزل الملائكة فى الغمام، ثم يجيء الرب سبحانه وتعالى لفصل القضاء، والكروبيون والملائكة المقربون يسبحون بأنواع التسبيح، قال: فيضع الله كرسيه حيث شاء من أرضه ثم يقول: إنى أنصت لكم منذ خلقتكم إلى يومكم هذا، أسمع أقوالكم وأرى أعمالكم، فأنصتوا إلىَّ، فإنما هى أعمالكم وصحفكم تُقرأ عليكم، فمن وجد خيرا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن

(١) **صحيح**: تقدم تخريجه.

إلا نفسه . . . إلى أن قال: فإذا أفضى أهل الجنة إلى الجنة قالوا: من يشفع لنا إلى ربنا فندخل الجنة؟ فيقولون: من أحق بذلك من أبيكم، إنه خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه وكلمه قبلا، فيأتون آدم فيطلبون ذلك إليه، وذكر نوحا ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى ثم محمدا ﷺ، إلى أن قال رسول الله ﷺ فآتي الجنة فآخذ بحلقة الباب ثم أستفتح فيُفتح لى فأُحيَّا ويُرحب بى، فإذا دخلت الجنة فنظرت إلى ربى عز وجل خررت له ساجدا فيأذن لى من حمده وتمجيده بشيء ما أذن به لأحد من خلقه، ثم يقول الله لى: ارفع يا محمد واشفع تشفع وسل تعطه، فإذا رفعت رأسى، قال الله، وهو أعلم: ما شأنك؟ فأقول: يا رب وعدتنى الشفاعة فشفعنى فى أهل الجنة يدخلون الجنة، فيقول الله عز وجل: قد شفعتك وأذنت لهم فى دخول الجنة . . ."[1] الحديث رواه الأئمة ابن جرير فى تفسيره والطبرانى وأبو يعلى الموصلى والبيهقى وغيرهم.

النوع الثانى والثالث من الشفاعة: شفاعته ﷺ فى أقوام قد تساوت حسناتُهم وسيئاتُهم فيشفع فيهم ليدخلوا الجنة، وفى أقوام آخرين قد أُمِر بهم إلى النار، لا يدخلونها.

النوع الرابع: شفاعته ﷺ فى رفع درجات من يدخل الجنة فيها فوق ما كان يقتضيه ثواب أعمالهم.

وقد وافقت المعتزلة على هذه الشفاعة خاصة وخالفوا فيما عداها من المقامات مع تواتر الاحاديث فيها.

النوع الخامس: الشفاعة فى أقوام أن يدخلوا الجنة بغير حساب، ويحسن أن يستشهد لهذا النوع بحديث عكاشة بن محصن حين دعا له رسول الله ﷺ أن يجعله من السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب، والحديث مخرج فى الصحيحين.

النوع السادس: الشفاعة فى تخفيف العذاب عمن يستحقه كشفاعته فى عمه أبى طالب أن يخفف عنه عذابه.

---

(١) **ضعيف:** أخرجه الطبرانى فى "الكبير" (٢٥/ ٢٦٦) قال الطبرانى: اختلف عليه فى إسناد هذا الحديث على وجوه كثيرة، وأما سياقه فغريب جدًا، وقال الحافظ ابن كثير فى تفسيره (٢/ ١٥٢): هذا حديث مشهور وهو غريب جدًا، ولبعضه شواهد فى الأحاديث المتفرقة، وفى بعض ألفاظه نكارة، وتفرد به إسماعيل بن رافع، اختُلف فيه، فمنهم من ضعَّفه، ومنهم من وثّقه، ونص على نكارة حديثه غير واحد من الأئمة كأحمد بن حنبل وأبى حاتم الرازى، ومنهم من قال فيه: هو متروك، وقال ابن عدى: أحاديثه كلها فيها نظر، وقال الشيخ الألبانى: ضعيف.

ثم قال القرطبى فى التذكرة بعد ذكر هذا النوع: **فإن قيل:** فقد قال تعالى: ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَـٰعَةُ ٱلشَّـٰفِعِينَ ﴾[١] **قيل له:** لا تنفعه فى الخروج من النار كما تنفع عصاة الموحدين الذين يخرجون منها ويدخلون الجنة.

النوع السابع: شفاعته أن يؤذن لجميع المؤمنين فى دخول الجنة، كما تقدم، وفى صحيح مسلم عن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "أنا أول شفيع فى الجنة"[٢].

النوع الثامن: شفاعته فى أهل الكبائر من أمته ممن يدخل النار فيخرجون منها.

وقد تواترت بهذا النوع الأحاديث، وقد خفى علم ذلك على الخوارج والمعتزلة فخالفوا فى ذلك جهلا منهم بصحة الأحاديث وعنادا ممن علم ذلك واستمر على بدعته، وهذه الشفاعة تشاركه فيها الملائكة والنبيون والمؤمنون أيضا، وهذه الشفاعة تتكرر منه ﷺ أربع مرات.

ومن أحاديث هذا النوع حديث أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى"[٣] رواه الإمام أحمد رحمه الله.

وروى البخارى رحمه الله فى كتاب التوحيد: حدثنا سليمان بن حرب حدثنا حماد بن زيد حدثنا معبد بن هلال العنزى قال: اجتمعنا ناس من أهل البصرة فذهبنا إلى أنس بن مالك وذهبنا معنا بثابت البنانى إليه يسأله لنا عن حديث الشفاعة، فإذا هو فى قصره فوافقناه يصلى الضحى، فاستأذنا فأذن لنا وهو قاعد على فراشه، فقلنا لثابت: لا تسأله عن شيء أول من حديث الشفاعة، فقال: يا أبا حمزة، هؤلاء إخوانك من أهل البصرة جاءوك يسألونك عن حديث الشفاعة، فقال: حدثنا محمد ﷺ قال: "إذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم فى بعض

---

(١) سورة المدثر الآية: ٤٨.

(٢) **صحيح:** أخرجه مسلم فى "كتاب الإيمان" حديث (١٩٦) والدارمى فى "المقدمة" (١/ ٢٤) حديث (٥٢) والخطيب فى "الفوائد" حديث (١٢) وانظر "كنز العمال" حديث (٣١٩٦٧، ٣٢٠٥١) وأحمد فى "المسند" حديث (١٢٣٥٩) وانظر "الصحيحة" (٤/ ٩٨).

(٣) **صحيح بشواهده:** أخرجه أبو داود فى "كتاب السنة" حديث (٤٧٣٩) والترمذى فى "كتاب صفة القيامة" حديث (٢٤٣٥) وابن ماجه فى "كتاب الزهد" حديث (٤٣١٠) وأحمد فى "المسند" حديث (١٣١٥٥) والحاكم فى "المستدرك" (١/ ٦٩) والطبرانى فى "الكبير" حديث (١١٤٥٤) وأبو نعيم فى "الحلية" حديث (٤٣٤٠، ٤٣٤٢) كما فى "تقريب البغية" (٣/ ٤٥٤) قال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه، وقال الشيخ الألبانى: صحيح وبه طرق وشواهد.

فيأتون آدم فيقولون: اشفع لنا لى ربك فيقول: لست بها، ولكن عليكم بإبراهيم، فإنه خليل الرحمن، فيأتون إبراهيم فيقول: لست لها، ولكن عليكم بموسى، فإنه كليم الله، فيأتون موسى فيقول: لست لها، ولكن عليكم بعيسى، فإنه روح الله وكلمته، فيأتون عيسى فيقول: لست لها، ولكن عليكم بمحمد ﷺ، فيأتونى فأقول: أنا لها، فأستأذن على ربى فيؤذن لى، ويلهمنى محامد أحمده بها، لا تحضرنى الآن، فأحمده بتلك المحامد، وأخر له ساجدا، فيقال: يا محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع لك، واشفع تشفع، وسل تعط، فأقول: يا رب أمتى أمتى، فيقال: انطلق فأخرج منها من كان فى قلبه مثقال شعيرة من إيمان، فأنطلق فأفعل، ثم أعود فأحمده بتلك المحامد ثم أخر له ساجدا فيقال: يا محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع لك، واشفع تشفع، وسل تعط، فأقول: يا رب أمتى أمتى، فيقال: انطلق فأخرج منها من كان فى قلبه مثقال ذرة أو خردلة من إيمان، فأنطلق فأفعل، ثم أعود بتلك المحامد ثم أخر له ساجدا فيقال: يا محمد ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعط، واشفع تشفع، فأقول: يا رب أمتى أمتى، فيقول: انطلق فأخرج من كان فى قلبه أدنى أدنى مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه من النار فأنطلق فأفعل".

قال فلما خرجنا من عند أنس قلت لبعض أصحابنا: لو مررنا بالحسن، وهو متوار فى منزل أبى خليفة فحدثناه بما حدثنا به أنس بن مالك، فأتيناه فسلمنا عليه فأذن لنا، فقلنا له: يا أبا سعيد، جئناك من عند أخيك أنس بن مالك فلم نر مثل ما حدثنا فى الشفاعة، فقال: هيه، وحدثناه بالحديث، فانتهى إلى هذا الموضع، فقال: هيه، فقلنا: لم يزد لنا على هذا، فقال: لقد حدثنى وهو جميع منذ عشرين سنة، فما أدرى أنسى أم كره أن تتكلوا؟ فقلنا: يا أبا سعيد فحدثنا، فضحك وقال: خلق الإنسان عجولا، ما ذكرته إلا وأنا أريد أن أحدثكم، حدثنى كما حدثكم به، قال: ثم أعود الرابعة فأحمده بتلك المحامد ثم أخر له ساجدا فيقال: يا محمد ارفع رأسك، وقل يسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع، فأقول: يا رب ائذن لى فيمن قال: لا إله الا الله، فيقول: وعزتى وجلالى وكبريائى وعظمتى لأخرجن منها من قال: لا إله الا الله"[1] وهكذا رواه مسلم.

---

(١) **صحيح:** أخرجه البخارى فى "كتاب التوحيد" حديث (٧٥١٠) ومسلم فى "كتاب الإيمان" حديث (١٩٣) وابن ماجه فى "كتاب الزهد" حديث (٤٣١٢).

وروى الحافظ أبو يعلى عن عثمان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء"(١).

وفى الصحيح من حديث أبى سعيد ﷺ مرفوعا قال: "فيقول الله تعالى: شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوما لم يعملوا خيرا قط . . ."(٢) الحديث.

ثم إن الناس فى الشفاعة على ثلاثة أقوال: فالمشركون والنصارى والمبتدعون من الغلاة فى المشايخ وغيرهم يجعلون شفاعة من يعظمونه عند الله كالشفاعة المعروفة فى الدنيا، والمعتزلة والخوارج أنكروا شفاعة نبينا ﷺ وغيره فى أهل الكبائر، وأما أهل السنة والجماعة فيقرون بشفاعة نبينا ﷺ فى أهل الكبائر وشفاعة غيره لكن لا يشفع أحد حتى يأذن الله له ويحد له حدا كما فى الحديث الصحيح حديث الشفاعة إنهم يأتون آدم ثم نوحا ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى، فيقول لهم عيسى عليه السلام: اذهبوا إلى محمد فإنه عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فيأتونى فأذهب فإذا رأيت ربى خررت له ساجدا فأحمد ربى بمحامد يفتحها على لا أحسنها الآن، فيقول: أى محمد ارفع رأسك، وقل يسمع، واشفع تشفع، فأقول: ربى أمتى، فيحد لى حدا فأدخلهم الجنة، ثم انطلق فأسجد فيحد لى حدا . . . ذكرها ثلاث مرات.

وأما الاستشفاع بالنبى ﷺ وغيره فى الدنيا إلى الله تعالى فى الدعاء ففيه تفصيل، فإن الداعى تارة يقول بحق نبيك أو بحق فلان يقسم على الله بأحد من مخلوقاته فهذا محذور من وجهين:

أحدهما: أنه أقسم بغير الله.

والثانى: اعتقاده أن لأحد على الله حقا، ولا يجوز الحلف بغير الله وليس لأحد على الله حق إلا ما أحقه على نفسه كقوله تعالى: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾(٣).

---

(١) **موضوع**: أخرجه ابن ماجه فى "كتاب الزهد" حديث (٤٣١٣) والعقيلى فى "الضعفاء" (٣/ ٣٦٧) وانظر "الكنز" حديث (٣٩٠٧٢) قال الشيخ أحمد شاكر: حديث ضعيف جدًّا، وقال الشيخ الألبانى: موضوع.

قلت: وهو كما قال الشيخ الألبانى، رحمه الله تعالى، فإن فيه عنبسة بن عبد الرحمن، قال البخارى: تركوه، وقال أبو حاتم: كان يضع الحديث.

(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم فى "كتاب الإيمان" حديث (١٨٣).

(٣) سورة الروم الآية: ٤٧.

وكذلك ما ثبت فى الصحيحين من قوله ﷺ لمعاذ ﷺ وهو رديفه: "يا معاذ أتدرى ما حق الله على عباده؟" قلت: الله ورسوله أعلم، قال: "حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا، أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟" قلت: الله ورسوله أعلم، قال: "حقهم عليه أن لا يعذبهم"[(١)].

فهذا حق وجب بكلماته التامة ووعده الصادق لا أن العبد نفسه مستحق على الله شيئا كما يكون للمخلوق على المخلوق، فإن الله هو المنعم على العباد بكل خير وحقهم الواجب بوعده هو أن لا يعذبهم.

وترك تعذيبهم معنى لا يصلح أن يقسم به ولا أن يسأل بسببه ويتوسل به، لأن السبب هو ما نصبه الله سببا.

وكذلك الحديث الذى فى المسند من حديث أبى سعيد عن النبى ﷺ فى قول الماشى إلى الصلاة: أسألك بحق ممشاى هذا وبحق السائلين عليك، فهذا حق السائلين هو أوجبه على نفسه، فهو الذى أحق للسائلين أن يجيبهم وللعابدين أن يثيبهم، ولقد أحسن القائل:

ما للعباد عليه حق واجب كلا ولا سعى لديه ضائع

إن عذبوا فبعدله أو نعموا ففضله وهو الكريم الواسع

فإن قيل: فأى فرق بين قول الداعى بحق السائلين عليك وبين قوله بحق نبيك أو نحو ذلك؟.

فالجواب: أن معنى قوله: بحق السائلين عليك أنك وعدت السائلين بالإجابة وأنا من جملة السائلين فأجب دعائى، بخلاف قوله بحق فلان فإن فلانا وإن كان له حق على الله بوعده الصادق فلا مناسبة بين ذلك وبين إجابة دعاء هذا السائل، فكأنه يقول: لكون فلان من عبادك

---

(١) **صحيح:** أخرجه البخارى فى "كتاب الجهاد والسير" حديث (٢٨٥٦) وأطرافه فى (٥٩٦٧، ٦٢٦٧، ٦٥٠٠، ٧٣٧٣) ومسلم فى "كتاب الإيمان" حديث (٣٠) والترمذى فى "كتاب الإيمان" حديث (٢٦٤٣) وابن ماجه فى "كتاب الزهد" حديث (٤٢٩٦) وأحمد فى "المسند" حديث (٢١٩٨٢) وأبو نعيم فى "الحلية" كما فى "البغية" (١/ ٧١) حديث (١٠٧) والنسائى فى "الكبرى" حديث (٥٨٧٧) وعبد الرزاق فى "المصنف" حديث (٢٠٥٤٦) وابن أبى شيبة فى "مسنده" (٢/ ٦٧) والشاشى فى "مسنده" حديث (١٣٥٤، ١٣٥٥، ١٣٥٦).

الصالحين أجب دعاى، وأى مناسبة فى هذا وأى ملازمة، وإنما هذا من الإعتداء فى الدعاء، وقد قال تعالى: ﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾(١) وهذا ونحوه من الأدعية المبتدعة و لم ينقل عن النبى ﷺ ولا عن الصحابة ولا عن التابعين ولا عن أحد من الأئمة ﷺ وإنما يوجد مثل هذا فى الحروز والهياكل التى يكتب بها الجهال والطرقية، والدعاء من أفضل العبادات والعبادات مبناها على السنة والاتباع لا على الهوى والابتداع.

وإن كان مراده الإقسام على الله بحق فلان فذلك محذور أيضا لأن الإقسام بالمخلوق لا يجوز فكيف على الخالق وقد قال ﷺ: "من حلف بغير الله فقد أشرك"(٢) ولهذا قال أبو حنيفة وصاحباه ﷺ يكره أن يقول الداعى أسألك بحق فلان أو بحق أنبيائك ورسلك وبحق البيت الحرام والمشعر الحرام ونحو ذلك، حتى كره أبو حنيفة ومحمد رضى الله عنهما أن يقول الرجل: اللهم إنى أسألك بمعقد العز من عرشك، و لم يكرهه أبو يوسف رحمه الله لما بلغه الأثر فيه(٣)، وتارة يقول بجاه فلان عندك أو يقول نتوسل إليك بأنبيائك ورسلك وأوليائك ومراده أن فلانا عندك ذو وجاهة وشرف ومنزلة فأجب دعاءنا.

وهذا أيضا محذور فإنه لو كان هذا هو التوسل **الذى** كان الصحابة يفعلونه فى حياة النبى ﷺ لفعلوه بعد موته، وإنما كانوا يتوسلون فى حياته بدعائه يطلبون منه أن يدعو لهم وهم يؤمنون على دعائه، كما فى الاستسقاء وغيره، فلما مات ﷺ قال عمر ﷺ لما خرجوا يستسقون: "اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا"(٤) معناه بدعائه هو ربه وشفاعته وسؤاله، ليس المراد أنّا نقسم عليك به أو نسألك بجاهه عندك، إذ لو كان ذلك مرادا لكان جاه النبى ﷺ أعظم وأعظم من جاه العباس.

---

(١) سورة الأعراف الآية: ٥٥.

(٢) **صحيح**: أخرجه أبو داود فى "الأيمان والنذور" حديث (٣٢٥١) وأحمد فى "المسند" حديث (٤٩٠٤) والحاكم فى "المستدرك" (١/ ١٨).

(٣) **موضوع**: قال الشيخ الألبانى: هو حديث مرفوع موضوع، كما بينه الزيلعى فى "نصب الراية" (٤/ ٢٧٣).

(٤) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب الاستسقاء" حديث (١٠١٠) وطرفه فى (٣٧١٠) وابن حبان فى "صحيحه" حديث (٢٨٦١) والطبرانى فى "الكبير" حديث (٨٤).

وتارة يقول باتباعى لرسولك ومحبتى له وإيمانى به وسائر أنبيائك ورسلك وتصديقى لهم ونحو ذلك، فهذا من أحسن ما يكون فى الدعاء والتوسل والاستشفاع.

فلفظ التوسل بالشخص والتوجه به فيه إجمال غلط بسببه من لم يفهم معناه فإن أريد به التسبب به لكونه داعيا وشافعا وهذا فى حياته يكون أو لكون الداعى محبا له مطيعا لأمره مقتديا به وذلك أهل للمحبة والطاعة والاقتداء فيكون التوسل إما بدعاء الوسيلة وشفاعته وإما بمحبة السائل واتباعه أو يراد به الإقسام به والتوسل بذاته، فهذا الثانى هو الذى كرهوه ونهوا عنه.

وكذلك السؤال بالشيء قد يراد به التسبب به لكونه سببا فى حصول المطلوب، وقد يراد به الإقسام به.

ومن الأول حديث الثلاثة الذين أووا إلى الغار وهو حديث مشهور فى الصحيحين وغيرهما، فإن الصخرة انطبقت عليهم فتوسلوا إلى الله بذكر أعمالهم الصالحة الخالصة وكل واحد منهم يقول: فإن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون[1] فهؤلاء دعوا الله بصالح الأعمال لأن الأعمال الصالحة هى أعظم ما يتوسل به العبد إلى الله ويتوجه به إليه ويسأله به، لأنه وعد أن يستجيب للذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله.

فالحاصل: أن الشفاعة عند الله ليست كالشفاعة عند البشر فإن الشفيع عند البشر كما أنه شافع للطالب شفعة فى الطلب بمعنى أنه صار شفعا فيه بعد أن كان وترا فهو أيضا قد شفع المشفوع إليه وبشفاعته صار فاعلا للمطلوب، فقد شفع الطالب والمطلوب منه، والله تعالى وتر لا يشفعه أحد فلا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، فالأمر كله إليه فلا شريك له بوجه، فسيد الشفعاء يوم القيامة إذا سجد وحمد الله تعالى فقال له الله: ارفع رأسك وقل يسمع واسأل تعطه واشفع تشفع، فيحد له حدا فيدخلهم الجنة فالأمر كله لله كما قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ﴾[2] وقال: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ ﴾[3] وقال: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾[4].

---

(١) **صحيح:** أخرجه البخارى فى "كتاب البيوع" حديث (٢٢١٥) وأطرافه فى (٢٢٧٢، ٢٣٣٣، ٣٤٦٥، ٥٩٧٤) ومسلم فى "كتاب التوبة" حديث (٢٧٤٣).

(٢) سورة آل عمران الآية: ١٥٤.

(٣) سورة آل عمران الآية: ١٢٨.

(٤) سورة الأعراف الآية: ٥٤.

فإذا كان لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه لمن يشاء ولكن يكرم الشفيع بقبول شفاعته كما قال ﷺ: "اشفعوا تؤجروا ويقضى الله على لسان نبيه ما يشاء"[(١)].

وفى الصحيح أن النبى ﷺ قال: "يا بنى عبد مناف لا أملك لكم من الله شيئا، يا صفية يا عمة رسول الله ﷺ لا أملك لك من الله شيئا، يا عباس عم رسول الله لا أملك لك من الله شيئا"[(٢)] وفى الصحيح أيضا عن النبى ﷺ: "لا ألفين أحدكم يأتى يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء، أو شاة لها يعار، أو رقاع تخفق، فيقول: أغثنى أغثنى فأقول قد أبلغتك لا أملك لك من الله من شيء"[(٣)].

فإذا كان سيد الخلق وأفضل الشفعاء يقول لأخص الناس به لا أملك لكم من الله من شيء فما الظن بغيره؟ وإذا دعاه الداعى وشفع عنده الشفيع فسمع الدعاء وقبل الشفاعة لم يكن هذا هو المؤثر فيه كما يؤثر المخلوق فى المخلوق فإنه سبحانه وتعالى هو الذى جعل هذا يدعو ويشفع وهو الخالق لأفعال العباد، فهو الذى وفق العبد للتوبة ثم قبلها، وهو الذى وفقه للعمل ثم أثابه، وهو الذى وفقه للدعاء ثم أجابه، وهذا مستقيم على أصول أهل السنة المؤمنين بالقدر وأن الله خالق كل شيء.

❁ قوله: والميثاق الذى أخذه الله تعالى من آدم وذريته حق:

ش: قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴾[(٤)] أخبر سبحانه أنه استخرج ذرية بنى آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم

---

(١) **صحيح:** أخرجه البخارى فى "كتاب الزكاة" حديث (١٤٣٢) وأطرافه فى (٦٠٢٧، ٦٠٢٨، ٧٤٧٦) ومسلم فى "كتاب البر والصلة والآداب" حديث (٢٦٢٧) وأبو داود فى "كتاب الأدب" حديث (٥١٣١).

(٢) **صحيح:** أخرجه البخارى فى "كتاب الوصايا" حديث (٢٧٥٣) وأطرافه فى (٣٥٢٧، ٤٧٧١) ومسلم فى "كتاب الإيمان" حديث (٢٠٤).

(٣) **صحيح:** أخرجه البخارى فى "كتاب الجهاد والسير" حديث (٣٠٧٣) ومسلم فى "كتاب الإمارة" حديث (١٨٣١).

(٤) سورة الأعراف الآية: ١٧٢.

ومليكهم وأنه لا إله الا هو، وقد وردت أحاديث فى أخذ الذرية من صلب آدم عليه السلام وتمييزهم إلى أصحاب اليمين وإلى أصحاب الشمال، وفى بعضها الإشهاد عليهم بأن الله ربُّهم.

فمنها ما رواه الإمام أحمد عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال: "إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان يوم عرفة فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرها بين يديه ثم كلمهم قبلا قال: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ ﴾ إلى قوله: ﴿ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾"(١) ورواه النسائى أيضا وابن جرير وابن أبى حاتم والحاكم فى المستدرك وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وروى الإمام أحمد أيضا عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه سئل عن هذه الآية فقال سمعت رسول الله ﷺ سئل عنها فقال إن الله خلق آدم عليه السلام ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية قال خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية قال خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون، فقال رجل: يا رسول الله، ففيم العمل؟ قال رسول الله ﷺ : "إن الله عز وجل إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله به الجنة، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله به النار"(٢) ورواه ابو داود والترمذى والنسائى وابن ابى حاتم وابن جرير وابن حبان فى صحيحه.

وروى الترمذى عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ: "لما خلق الله آدم مسح على ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة، وجعل بين عينى كل إنسان منهم وبيصا من نور، ثم عرضهم على آدم فقال: أى رب من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك، فرأى

---

(١) **صحيح بطرقه وشواهده:** أخرجه أحمد فى "المسند" حديث (٢٤٥٥) وابن أبى عاصم فى "السنة" حديث (٢٠٢) والحاكم فى "المستدرك" (٢/ ٥٤٤) وابن جرير فى "التفسير" رقم (١٥٣٣٨) قال الشيخ أحمد شاكر: صحيح الإسناد، وقال الشيخ الألبانى: صحيح لطرقه وشواهده.

قلت: وهو كما قالا، انظر "السنة" لابن أبى عاصم، حديث (٢٠٢) و "الصحيحة" حديث (١٦٢٣).

(٢) **صحيح:** أخرجه أبو داود فى "كتاب السنة" حديث (٤٧٠٣) والترمذى فى "كتاب تفسير القرآن" حديث (٣٠٧٥) وابن حبان فى "صحيحه" حديث (٦١٣٣) والحاكم فى "المستدرك" (٢/ ٤٢٣) وابن جرير فى "التفسير" رقم (١٥٣٥٧) وأحمد فى "المسند" حديث (٣١١) قال الترمذى: هذا حديث حسن، وقال الشيخ أحمد شاكر: أسانيده صحاح، وإن كان ظاهره الانقطاع، وقال الشيخ الألبانى: صحيح لغيره، إلا مسح الظهر، فلم أجد له شاهدًا.

رجلا منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه فقال: أى رب، من هذا؟ قال: هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له: داود، قال رب: كم عمره؟ قال: ستون سنة، قال: أى رب، زده من عمرى أربعين سنة، فلما انقضى عمر آدم جاء ملك الموت، قال: أو لم يبق من عمرى أربعون سنة؟ قال: أو لم تعطها ابنك داود؟ قال: فجحد فجحدت ذريته، ونسى آدم فنسيت ذريته، وخطى آدم فخطيت ذريته"[١]، ثم قال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح، ورواه الحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

وروى الإمام أحمد أيضا عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال: يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتديا به؟ قال: فيقول: نعم، قال: فيقول: قد أردت أهون من ذلك، قد أخذت عليك فى ظهر آدم أن لا تشرك بى شيئا فأبيت إلا أن تشرك بى شيئا"[٢]، وأخرجاه فى الصحيحين أيضا.

وذكر أحاديث أخرى أيضا كلها دالة على أن الله استخرج ذرية آدم من صلبه وميز بين أهل النار وأهل الجنة، ومن هنا قال من قال إن الأرواح مخلوقة قبل الأجساد، وهذه الآثار لا تدل على سبق الأرواح والأجساد سبقا مستقرا ثابتا، وغايتها أن تدل على أن باريها وفاطرها سبحانه صور النسمة وقدر خلقها وأجلها وعملها واستخرج تلك الصور من مادتها ثم أعادها إليها وقدر خروج كل فرد من أفرادها فى وقته المقدر له، ولا يدل على أنها خلقت خلقا مستقرا واستمرت موجودة ناطقة كلها فى موضع واحد، ثم يرسل منها إلى الأبدان جملة بعد جملة، كما قاله ابن حزم، فهذا لا تدل الآثار عليه نعم الرب سبحانه يخلق منها جملة بعد جملة كما قاله على الوجه الذى سبق به التقدير أولا، فيجيء الخلق الخارجى مطابقا للتقدير السابق كشأنه سبحانه فى جميع مخلوقاته فإنه قدر لها أقدارا وآجالا وصفات وهيئات ثم أبرزها الى الوجود مطابقة لذلك التقدير السابق، فالآثار المروية فى ذلك إنما تدل على القدر السابق وبعضها

---

(١) **صحيح**: أخرجه الترمذى فى "كتاب تفسير القرآن" حديث (٣٠٧٨) والحاكم فى "المستدرك" (١/ ٦٤) وابن حبان فى "صحيحه" حديث (٦١٣٤) قال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح، وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبى، وقال الشيخ الألبانى: صحيح.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب أحاديث الأنبياء" حديث (٣٣٣٤) وطرفاه فى (٦٥٣٨، ٦٥٥٧) ومسلم فى "كتاب صفة القيامة" حديث (٢٨٠٥) وأحمد فى "المسند" حديث (١٢٢٥٢).

يدل على أنه سبحانه استخرج أمثالهم وصورهم وميز أهل السعادة من أهل الشقاوة، وأما الإشهاد عليهم هناك فإنما هو فى حديثين موقوفين على ابن عباس وعمر ﷺ، ومن ثم قال قائلون من السلف والخلف: إن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرتهم على التوحيد، كما تقدم كلام المفسرين على هذه الآية الكريمة فى حديث أبى هريرة ﷺ.

ومعنى قوله: ﴿ شَهِدْنَآ ﴾ أى قالوا: بلى شهدنا أنك ربنا، وهذا قول ابن عباس وأبى بن كعب، وقال ابن عباس أيضا: أشهد بعضهم على بعض.

وقيل: ﴿ شَهِدْنَآ ﴾ من قول الملائكة، والوقف على قوله: ﴿ بَلَىٰ ﴾ وهذا قول مجاهد والضحاك[1] والسدى[2].

وقال السدى أيضا هو خبر من الله تعالى عن نفسه وملائكته أنهم شهدوا على إقرار بنى آدم، والأول أظهر، وما عداه احتمال لا دليل عليه، وإنما يشهد ظاهر الآية للأول.

واعلم أن من المفسرين من لم يذكر سوى القول بأن الله استخرج ذرية آدم من ظهره وأشهدهم على أنفسهم ثم أعادهم، كالثعلبى والبغوى وغيرهما، ومنهم من لم يذكره، بل ذكر أنه نصب لهم الأدلة على ربوبيته ووحدانيته وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التى ركبها الله فيهم، كالزمخشرى وغيره، ومنهم من ذكر القولين كالواحدى والرازى والقرطبى وغيرهم، لكن نسب الرازى القول الأول إلى أهل السنة والثانى إلى المعتزلة.

ولا ريب أن الآية لا تدل على القول الأول، أعنى أن الأخذ كان من ظهر آدم، وإنما فيها أن الأخذ من ظهور بنى آدم، وإنما ذكر الأخذ من ظهر آدم والإشهاد عليهم هناك فى بعض الأحاديث، وفى بعضها الأخذ والقضاء بأن بعضهم إلى الجنة وبعضهم إلى النار، كما فى حديث عمر ﷺ، وفى بعضها الأخذ وإراء آدم اياهم من غير قضاء ولا إشهاد، كما فى حديث

---

(١) هو: الضحاك بن مزاحم الهلالى الخرسانى، أبو محمد، وقيل: أبو القاسم، صاحب التفسير، وله أخوان: محمد ومسلم، وكان من أوعية العلم، كان له مكتب كبير فيه ثلاثة آلاف صبى، وكان يعلم ولا يأخذ أجرا، وكان دأبه إذا سكت: لا حول ولا قوة إلا بالله، توفى سنة ١٠٢هـ، وقيل غير ذلك.

(٢) هو: إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبى كريمة، المعروف بالسدى، الإمام المفسر، أبو محمد الحجازى، ثم الكوفى، قيل: إنه أعلم بالقرآن من الشعبى، توفى سنة ١٢٧هـ.

أما السدى الصغير فهو محمد بن مروان الكوفى، أحد المتروكين، كان فى زمن وكيع.

أبى هريرة والذى فيه الإشهاد على الصفة التى قالها أهل القول الأول موقوف على ابن عباس وعمر[1] وتكلم فيه أهل الحديث و لم يخرجه أحد من أهل الصحيح غير الحاكم فى المستدرك على الصحيحين، والحاكم معروف التساهل رحمه الله.

والذى فيه القضاء بأن بعضهم إلى الجنة وبعضهم إلى النار دليل على مسألة القدر وذلك شواهده كثيرة، ولا نزاع فيه بين أهل السنة، وإنما يخالف فيه القدرية المبطلون المبتدعون.

وأما الأول فالنزاع فيه بين أهل السنة من السلف والخلف، ولولا ما التزمته من الاختصار لبسطت الأحاديث الواردة فى ذلك وما قيل من الكلام عليها وما ذكر فيها من المعانى المعقولة ودلالة ألفاظ الآية الكريمة.

قال القرطبى: وهذه الآية مشكلة، وقد تكلم العلماء فى تأويلها فنذكر ما ذكروه من ذلك حسب ما وقفنا عليه، فقال قوم: معنى الآية أن الله أخرج من ظهر بنى آدم بعضهم من بعض ومعنى: ﴿ أَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾[2] دلهم على توحيده لأن كل بالغ يعلم ضرورة أن له ربا واحدا سبحانه وتعالى، قال: فقام ذلك مقام الإشهاد عليهم، كما قال تعالى فى السموات والارض: ﴿ قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾[3] ذهب إلى هذا القفال وأطنب.

وقيل: إنه سبحانه وتعالى أخرج الأرواح قبل خلق الأجساد وأنه جعل فيها من المعرفة ما علمت به ما خاطبها ثم ذكر القرطبى بعد ذلك الأحاديث الواردة فى ذلك . . . إلى آخر كلامه.

وأقوى ما يشهد لصحة القول الأول حديث أنس المخرج فى الصحيحين الذى فيه: "قد أردت منك ما هو أهون من ذلك، قد أخذت عليك فى ظهر آدم أن لا تشرك بى شيئا فأبيت إلا أن تشرك بى" ولكن قد روى من طريق أخرى: "قد سألتك أقل من ذلك وأيسر فلم تفعل" فيرد إلى النار، وليس فيه "فى ظهر آدم" وليس فى الرواية الأولى إخراجهم من ظهر آدم على الصفة التى ذكرها أصحاب القول الأول.

---

(١) بل هما صحيحان، كما بينه غير واحد من أهل العلم، منهم: الحاكم، والشيخ أحمد شاكر، والشيخ الألبانى، وغيرهم، وهو كما قالوا.

(٢) سورة الأعراف الآية: ١٧٢.

(٣) سورة فصلت الآية: ١١.

بل القول الأول متضمن لأمرين عجيبين:

أحدهما: كون الناس تكلموا حينئذ وأقروا بالإيمان وأنه بهذا تقوم الحجة عليهم يوم القيامة.

والثانى: أن الآية دلت على ذلك.

والآية لا تدل عليه لوجوه:

أحدها: أنه قال: ﴿ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ ﴾ ولم يقل من آدم.

الثانى: أنه قال: ﴿ مِن ظُهُورِهِمۡ ﴾ ولم يقل: من ظهره، وهذا بدل بعض أو بدل اشتمال، وهو أحسن.

الثالث: أنه قال: ﴿ ذُرِّيَّتَهُمۡ ﴾ ولم يقل ذريته.

الرابع: أنه قال: ﴿ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ ﴾ ولا بد أن يكون الشاهد ذاكرا لما شهد به وهو إنما يذكر شهادته بعد خروجه إلى هذه الدار، كما تأتى الإشارة إلى ذلك، لا يذكر شهادة قبله.

الخامس: أنه سبحانه أخبر أن حكمته بهذا الإشهاد إقامةٌ للحجة عليهم لئلا يقولوا يوم القيامة: ﴿ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾[1] والحجة انما قامت عليهم بالرسل والفطرة التى فطروا عليها كما قال تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ ﴾[2].

السادس: تذكيرهم بذلك لئلا يقولوا يوم القيامة ﴿ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾ ومعلوم أنهم غافلون عن الإخراج لهم من صلب آدم كلهم وإشهادهم جميعًا ذلك الوقت، فهذا لا يذكره أحد منهم.

السابع: قوله تعالى: ﴿ أَوۡ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعۡدِهِمۡۖ ﴾[3] فذكر حكمتين فى هذا الإشهاد لئلا يدعوا الغفلة أو يدعوا التقليد، فالغافل لا شعور له، والمقلد متبع فى تقليده لغيره، ولا تترتب هاتان الحكمتان إلا على ما قامت به الحجة من الرسل والفطرة.

---

(١) سورة الأعراف الآية: ١٧٢.

(٢) سورة النساء الآية: ١٦٥.

(٣) سورة الأعراف الآية: ١٧٣.

الثامن: قوله: ﴿ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾[1] أى توعدهم بجحودهم وشركهم لما قالوا ذلك وهو سبحانه إنما يهلكهم بمخالفة رسله وتكذيبهم، وقد أخبر سبحانه أنه لم يكن ليهلك القرى بظلم وأهلها غافلون وإنما يهلكهم بعد الإعذار والإنذار بإرسال الرسل.

التاسع: أنه سبحانه اشهد كل واحد على نفسه أنه ربه وخالقه واحتج عليه بهذا فى غير موضع من كتابه كقوله: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾[2] فهذه هى الحجة التى أشهدهم على أنفسهم بمضمونها وذكرتهم بها رسله بقولهم: ﴿ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[3].

العاشر: أنه جعل هذا آية وهى الدلالة الواضحة البينة المستلزمة لمدلولها وهذا شأن آيات الرب تعالى، فقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[4] وإنما ذلك بالفطرة التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله، فما من مولود إلا يولد على الفطرة، لا يولد مولود على غير هذه الفطرة، هذا أمر مفروغ منه لا تبديل ولا تغيير، وقد تقدمت الإشارة إلى هذا، والله أعلم.

وقد تفطن لهذا ابن عطية[5] وغيره ولكن هابوا مخالفة ظاهر تلك الأحاديث التى فيها التصريح بأن الله أخرجهم وأشهدهم على أنفسهم ثم أعادهم وكذلك حكى القولين الشيخ أبو منصور الماتريدى فى شرح التأويلات ورجح القول الثانى وتكلم عليه ومال إليه.

ولا شك أن الإقرار بالربوبية أمر فطرى والشرك حادث طارئ والأبناء تقلدوه عن الآباء فإذا احتجوا يوم القيامة بأن الآباء أشركوا ونحن جرينا على عادتهم كما يجرى الناس على عادة آبائهم فى المطاعم والملابس والمساكن يقال لهم أنتم كنتم معترفين بالصانع مقرين بأن الله ربكم

---

(١) سورة الأعراف الآية: ١٧٣.

(٢) سورة لقمان الآية: ٢٥.

(٣) سورة إبراهيم الآية: ١٠.

(٤) سورة الأعراف الآية: ١٧٤.

(٥) هو: أبو محمد عبد الحق ابن الحافظ أبى بكر غالب بن عطية المحاربى الغرناطى، اعتنى به والده، ولحق به الكبار، وطلب العلم وهو مراهق، وكان يتوقد ذكاء، وكان إماما فى الفقه وفى التفسير وفى العربية، قوى الشوكة ذكيا فطنا مدركا، من أوعية العلم، توفى سنة ٥٤١هـ.

لا شريك له وقد شهدتم بذلك على أنفسكم فإن شهادة المرء على نفسه هى إقراره بالشيء ليس إلا، قال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ ﴾(١) وليس المراد أن يقول أشهد على نفسى بكذا بل من أقر بشيء فقد شهد على نفسه به فلم عدلتم عن هذه المعرفة والإقرار الذى شهدتم به على أنفسكم إلى الشرك، بل عدلتم عن المعلوم المتيقن إلى ما لا يعلم له حقيقة تقليدا لمن لا حجة معه بخلاف اتباعهم فى العادات الدنيوية، فإن تلك لم يكن عندكم ما يعلم به فسادها وفيه مصلحة لكم بخلاف الشرك فإنه كان عندكم من المعرفة والشهادة على أنفسكم ما يبين فساده وعدولكم فيه عن الصواب.

فإن الدين الذى يأخذه الصبى عن أبويه هو دين التربية والعادة وهو لأجل مصلحة الدنيا، فإن الطفل لا بد له من كافل، وأحق الناس به أبواه، ولهذا جاءت الشريعة بأن الطفل مع أبويه على دينهما فى أحكام الدنيا الظاهرة، وهذا الدين لا يعاقبه الله عليه على الصحيح حتى يبلغ ويعقل وتقوم عليه الحجة وحينئذ فعليه أن يتبع دين العلم والعقل، وهو الذى يعلم بعقله هو أنه دين صحيح فإن كان آباؤه مهتدين كيوسف الصديق مع آبائه قال: ﴿ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾(٢) وقال ليعقوب بنوه: ﴿ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ ﴾(٣) وإن كان الآباء مخالفين الرسل كان عليه أن يتبع الرسل كما قال تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ﴾(٤).

فمن اتبع دين آبائه بغير بصيرة وعلم بل يعدل عن الحق المعلوم إليه فهذا اتبع هواه كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾(٥).

---

(١) سورة النساء الآية: ١٣٥.

(٢) سورة يوسف الآية: ٣٨.

(٣) سورة البقرة الآية: ١٣٣.

(٤) سورة العنكبوت الآية: ٨.

(٥) سورة البقرة الآية: ١٧٠.

وهذه حال كثير من الناس من الذين ولدوا على الإسلام يتبع أحدهم أباه فيما كان عليه من اعتقاد ومذهب وإن كان خطأ ليس هو فيه على بصيرة بل هو من مسلمة الدار لا مسلمة الاختيار، وهذا إذا قيل له فى قبره: من ربك؟ قال: هاه هاه، لا أدرى، سمعت الناس يقولون شيئا فقلته.

فليتأمل اللبيب هذا المحل ولينصح نفسه وليقم معه ولينظر من أى الفريقين هو، والله الموفق، فإن توحيد الربوبية لا يحتاج إلى دليل فإنه مركوز فى الفطر وأقرب ما ينظر فيه المرء أمر نفسه لما كان نطفة وقد خرج من بين الصلب والترائب، والترائب عظام الصدر، ثم صارت تلك النطفة فى قرار مكين فى ظلمات ثلاث وانقطع عنها تدبير الأبوين وسائر الخلائق، ولو كانت موضوعة على لوح أو طبق واجتمع حكماء العالم على أن يصوروا منها شيئا لم يقدروا، ومحال توهم عمل الطبائع فيها، لأنها موات عاجزة ولا توصف بحياة، ولن يتأتى من الموات فعل وتدبير، فإذا تفكر فى ذلك وانتقال هذه النطفة من حال إلى حال علم بذلك توحيد الربوبية، فانتقل منه إلى توحيد الإلهية، فإنه إذا علم بالعقل أن له ربا أوجده كيف يليق به أن يعبد غيره؟ وكلما تفكر وتدبر ازداد يقينا وتوحيدا، والله الموفق لا رب غيره ولا إله سواه.

❁ **قوله: وقد علم الله تعالى فيما لم يزل عدد من يدخل الجنة وعدد من يدخل النار جملة واحدة فلا يزاد فى ذلك العدد ولا ينقص منه، وكذلك أفعالهم فيما علم منهم أن يفعلوه:**

ش: قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىۡءٍ عَلِيمٌۢ ﴾(١) ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىۡءٍ عَلِيمًا ﴾(٢) فالله تعالى موصوف بأنه بكل شيء عليم أزلا وأبدا لم يتقدم علمه بالأشياء جهالة ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾(٣).

وعن على بن أبى طالب ﷺ قال: كنا فى جنازة فى بقيع الغرقد فأتانا رسول الله ﷺ فقعد وقعدنا حوله، ومعه مخصرة، فنكس رأسه فجعل ينكت بمخصرته، ثم قال: "ما من نفس منفوسة إلا وقد كتب الله مكانَها من الجنة والنار، وإلا قد كُتبت شقية أو سعيدة" قال: فقال رجل:

---

(١) سورة الأنفال الآية: ٧٥.

(٢) سورة الأحزاب الآية: ٤٠.

(٣) سورة مريم الآية: ٦٤.

يا رسول الله، أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل؟ فقال: "من كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة" ثم قال: "اعملوا فكل ميسر لما خلق له، أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة" ثم قرأ ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۞ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۞ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۞ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۞ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۞ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۞ ﴾[1] خرجاه فى الصحيحين[2].

❁ قوله: وكلٌّ ميسر لما خُلق له، والأعمال بالخواتيم، والسعيد من سعد بقضاء الله، والشقى من شقى بقضاء الله:

ش: تقدم حديث على رضي الله عنه وقوله ﷺ: "اعملوا فكل ميسر لما خلق له" وعن زهير عن أبى الزبير عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال: جاء سراقة بن مالك بن جعشم فقال: يا رسول الله، بيِّن لنا ديننا كأنا خُلقنا الآن، فيم العمل اليوم؟ أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير، أم فيما يُستقبل؟ قال: "لا، بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير" قال: ففيم العمل؟ قال زهير: ثم تكلم أبو الزبير بشيء لم أفهمه، فسألت ما قال؟ فقال: "اعملوا فكل ميسر"[3] رواه مسلم.

وعن سهل بن سعد الساعدى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة، فيما يبدو للناس، وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار، فيما يبدو للناس، وهو من أهل الجنة" خرجاه فى الصحيحين، وزاد البخارى: "وإنما الأعمال بالخواتيم".

وفى الصحيحين أيضا عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق "إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما نطفة، ثم يكون علقة مثل

---

(١) سورة الليل الآيات: ٥ : ١٠.

(٢) **صحيح:** أخرجه البخارى فى "كتاب الجنائز" حديث (١٣٦٢) وأطرافه فى (٤٩٤٥، ٤٩٤٦، ٤٩٤٧، ٤٩٤٨، ٤٩٤٩، ٦٢١٧، ٦٦٠٥، ٧٥٥٢) ومسلم فى "كتاب القدر" حديث (٢٦٤٧) وأبو داود فى "كتاب السنة" حديث (٤٦٩٤) والترمذى فى "كتاب القدر" حديث (٢١٣٦) وابن ماجه فى "المقدمة" حديث (٧٨).

(٣) **صحيح:** أخرجه مسلم فى "كتاب القدر" حديث (٢٦٤٨).

ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد، فوالذى لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها"(١).

والأحاديث فى هذا الباب كثيرة وكذلك الآثار عن السلف، قال أبو عمر بن عبد البر فى التمهيد: قد أكثر الناس من تخريج الآثار فى هذا الباب، وأكثر المتكلمون من الكلام فيه وأهل السنة، مجتمعون على الإيمان بهذه الآثار واعتقادها وترك المجادلة فيها، وبالله العصمة والتوفيق.

❁ **قوله: وأصل القدَر سر الله تعالى فى خلقه، لم يطلع على ذلك ملك مقرب، ولا نبى مرسل، والتعمق والنظر فى ذلك ذريعة الخذلان وسلم الحرمان ودرجة الطغيان، فالحذر كل الحذر من ذلك، نظرا وفكرا ووسوسة، فإن الله تعالى طوى علم القدر عن أنامه، ونهاهم عن مرامه، كما قال تعالى فى كتابه: ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾(٢) فمن سأل لِمَ فعل فقد رد حكم الكتاب، ومن رد حكم الكتاب كان من الكافرين:**

ش: أصل القدر سر الله فى خلقه، وهو كونه أوجد وأفنى وأفقر وأغنى وأمات وأحيا وأضل وهدى، قال على كرم الله وجهه ورضى عنه: القدر سر الله فلا نكشفه، والنزاع بين الناس فى مسألة القدر مشهور.

والذى عليه أهل السنة والجماعة أن كل شيء بقضاء الله وقدره وأن الله تعالى خالق أفعال العباد، قال تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ ﴾(٣) وقال تعالى: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾(٤) وأن الله تعالى يريد الكفر من الكافر ويشاؤه ولا يرضاه ولا يحبه فيشاؤه كونا ولا يرضاه دينا.

---

(١) صحيح: أخرجه البخارى فى "كتاب بدء الخلق" حديث (٣٢٠٨) وأطرافه فى (٣٣٢٣، ٦٥٩٤، ٧٤٥٤) ومسلم فى "كتاب القدر" حديث (٢٦٤٣) وأبو داود فى "كتاب السنة" حديث (٤٧٠٨) والترمذى فى "كتاب القدر" حديث (٢١٣٨) وابن ماجه فى "المقدمة" حديث (٧٦) قال الترمذى: وفى الباب عن الأسود بن سريع.

(٢) سورة الأنبياء الآية: ٢٣.

(٣) سورة القمر الآية: ٤٩.

(٤) سورة الفرقان الآية: ٢.

وخالف فى ذلك القدرية والمعتزلة وزعموا أن الله شاء الإيمان من الكافر، ولكن الكافر شاء الكفر فردوا إلى هذا لئلا يقولوا: شاء الكفر من الكافر وعذبه عليه، ولكن صاروا كالمستجير من الرمضاء بالنار، فإنهم هربوا من شيء فوقعوا فيما هو شر منه، فإنه يلزم أن مشيئة الكافر غلبت مشيئة الله تعالى، فإن الله قد شاء الإيمان منه، على قولهم، والكافر شاء الكفر، فوقعت مشيئة الكافر دون مشيئة الله تعالى، وهذا من أقبح الاعتقاد، وهو قول لا دليل عليه، بل هو مخالف للدليل.

روى اللالكائى من حديث بقية عن الأوزاعى حدثنا العلاء بن الحجاج عن محمد بن عبيد المكى عن ابن عباس قال: قيل لابن عباس: إن رجلا قدم علينا يكذب بالقدر، فقال: دلونى عليه، وهو يومئذ قد عمى، فقالوا له: ما تصنع به؟ فقال: والذى نفسى بيده لئن استمكنت منه لأعضن أنفه حتى أقطعه، ولئن وقعت رقبته بيدى لأدقنها، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: "كأنى بنساء بنى فهم يطفن بالخزرج تصطفق ألياتهن مشركات".

هذا أول شرك فى الإسلام، والذى نفسى بيده لينتهين بهم سوء رأيهم حتى يخرجوا الله من أن يقدر الخير كما أخرجوه من أن يقدر الشر(١).

قوله: وهذا أول شرك فى الإسلام . . . إلى آخره، من كلام ابن عباس، وهذا يوافق قوله: القدر نظام التوحيد فمن وحد الله وكذب بالقدر نقض تكذيبه توحيده.

وروى عمرو بن الهيثم(٢) قال: خرجنا فى سفينة وصحبنا فيها قدرى ومجوسى، فقال القدرى للمجوسى: أسلم، قال المجوسى: حتى يريد الله، فقال القدرى: إن الله يريد ولكن الشيطان لا يريد، قال المجوسى: أراد الله وأراد الشيطان، فكان ما أراد الشيطان، هذا شيطان قوى، وفى رواية أنه قال: فأنا مع أقواهما.

---

(١) **ضعيف**: أخرجه ابن أبى عاصم فى "السنة" حديث (٧٩) وفيه محمد بن عبيد المكى وهو ضعيف، والعلاء ابن الحجاج ضعيف أيضا، ولم يصح هذا الحديث من أى طريق.

(٢) هو: عمرو بن عبيد الزاهد، العابد، القدرى كبير المعتزلة وأولهم، أبو عثمان البصرى، قال ابن مبارك: دعا إلى القدر فتركوه، توفى سنة (١٤٣هـ) وقيل غير ذلك.

ووقف أعرابى على حلقة فيها عمرو بن عبيد فقال: يا هؤلاء، إن ناقتى سرقت فادعوا الله أن يردها على، فقال عمرو بن عبيد: اللهم إنك لم ترد أن تسرق ناقته فسرقت، فارددها عليه، فقال الأعرابى: لا حاجة لى فى دعائك، قال: و لم، قال: أخاف كما أراد أن لا تسرق فسرقت أن يريد ردها فلا ترد.

وقال رجل لأبى عصام القسطلانى: أرأيت إن منعنى الهدى وأوردنى الضلال ثم عذبنى أيكون منصفا؟ فقال له أبو عصام: إن يكن الهدى شيئا هو له فله أن يعطيه من يشاء ويمنعه من يشاء.

وأما الأدلة من الكتاب والسنة فقد قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾(١) وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾(٢) وقال تعالى: ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾(٣) وقال تعالى: ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾(٤) وقال تعالى: ﴿ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾(٥) وقال تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ﴾(٦).

ومنشأ الضلال من التسوية بين المشيئة والإرادة، وبين المحبة والرضى، فسوى بينهما الجبرية والقدرية ثم اختلفوا، فقالت الجبرية: الكون كله بقضائه وقدره، فيكون محبوبا مرضيا، وقالت القدرية النفاة: ليست المعاصى محبوبة لله ولا مرضية له، فليست مُقدرة ولا مقضية فهى خارجة عن مشيئته وخلقه.

---

(١) سورة السجدة الآية: ١٣.

(٢) سورة يونس الآية: ٩٩.

(٣) سورة التكوير الآية: ٢٩.

(٤) سورة الإنسان الآية: ٣٠.

(٥) سورة الأنعام الآية: ٣٩.

(٦) سورة الأنعام الآية: ١٢٥.

وقد دل على الفرق بين المشيئة والمحبة الكتاب والسنة والفطرة الصحيحة.

أما نصوص المشيئة والإرادة من الكتاب فقد تقدم ذكر بعضها.

وأما نصوص المحبة والرضى فقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾[1] ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ﴾[2] وقال تعالى عقيب ما نهى عنه من الشرك والظلم والفواحش والكبر: ﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾[3].

وفى الصحيح عن النبى ﷺ: "إن الله كره لكم ثلاثا: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال"[4].

وفى المسند: "إن الله يحب أن يؤخذ برخصه كما يكره أن تؤتى معصيته"[5].

وكان من دعائه ﷺ اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك"[6].

فتأمل ذكر استعاذته بصفة الرضى من صفة السخط وبفعل المعافاة من فعل العقوبة، فالأول الصفة والثانى أثرها المرتب عليها، ثم ربط ذلك كله بذاته سبحانه وأن ذلك كله راجع إليه وحده لا إلى غيره، فما أعوذ منه واقع بمشيئتك وإرادتك، وما أعوذ به من رضاك ومعافاتك هو بمشيئتك وإرادتك إن شئت أن ترضى عن عبدك وتعافيه، وإن شئت أن تغضب عليه وتعاقبه، فإعاذتى مما أكره ومنعه أن يحل بى هى بمشيئتك أيضا، فالمحبوب المكروه كله بقضائك ومشيئتك، فعياذى بك منك وعياذى بحولك وقوتك ورحمتك مما يكون بحولك وقوتك وعدلك وحكمتك، فلا أستعيذ بغيرك من غيرك، ولا أستعيذ بك من شيء صادر عن غير مشيئتك، بل

(١) سورة البقرة الآية: ٢٠٥.

(٢) سورة الزمر الآية: ٧.

(٣) سورة الإسراء الآية: ٣٨.

(٤) **صحيح**: أخرجه البخارى فى: "كتاب الزكاة" حديث (١٤٧٧) ومسلم فى "كتاب البيوع" حديث (١٥٩٣).

(٥) **صحيح**: أخرجه أحمد فى "المسند" حديث (٥٨٦٦، ٦٨٧٣) والطبرانى فى "الكبير" (٨/ ١٨٠) وابن خزيمة فى "صحيحه" حديث (٩٥٠) والدولابى فى "الأسماء والكنى" (٢/ ٤٢) وانظر "نصب الراية" للزيلعى (١/ ١٦٩) و"إرواء الغليل" (٣/ ١٢).

(٦) **صحيح**: تقدم تخريجه.

هو منك فلا يعلم ما فى هذه الكلمات من التوحيد والمعارف والعبودية إلا الراسخون فى العلم بالله ومعرفته ومعرفة عبوديته.

فإن قيل: كيف يريد الله أمرا ولا يرضاه ولا يحبه، وكيف يشاؤه ويكونه، وكيف يجمع إرادته له وبغضه وكراهته؟.

قيل: هذا السؤال هو الذى افترق الناس لأجله فرقا وتباينت طرقهم وأقوالهم، فاعلم أن المراد نوعان: مراد لنفسه ومراد لغيره، فالمراد لنفسه مطلوب محبوب لذاته، وما فيه من الخير فهو مراد إرادة الغايات والمقاصد، والمراد لغيره قد لا يكون مقصودا لما يريد ولا فيه مصلحة له بالنظر إلى ذاته، وإن كان وسيلة إلى مقصوده ومراده فهو مكروه له من حيث نفسه وذاته مراد له من حيث قضاؤه وإيصاله إلى مراده، فيجتمع فيه الأمران: بغضه وإرادته، ولا يتنافيان لاختلاف متعلقهما، وهذا كالدواء الكريه إذا علم المتناول له أن فيه شفاءه، وقطع العضو المتآكل إذا علم أن فى قطعه بقاء جسده، وكقطع المسافة الشاقة إذا علم أنها توصل إلى مراده ومحبوبه، بل العاقل يكتفى فى إيثار هذا المكروه وإرادته بالظن الغالب، وإن خفيت عنه عاقبته فكيف ممن لا يخفى عليه خافية، فهو سبحانه يكره الشيء، ولا ينافى ذلك إرادته لأجل غيره وكونه سببا إلى أمر هو أحب إليه من فوقه، من ذلك أنه خلق إبليس **الذى** هو مادة لفساد الأديان والأعمال والاعتقادات والإرادات، وهو سبب لشقاوة كثير من العباد وعملهم بما يغضب الرب سبحانه تبارك وتعالى، وهو الساعى فى وقوع خلاف ما يحبه الله ويرضاه، ومع هذا فهو وسيلة إلى محاب كثيرة للرب تعالى ترتبت على خلقه ووجودها أحب إليه من عدمها منها: أنه يظهر للعباد قدرة الرب تعالى على خلق المتضادات المتقابلات، فخلق هذا الذات التى هى أخبث الذوات وشرها، وهى سبب كل شر، فى مقابلة ذات جبرائيل التى هى من أشرف الذوات وأطهرها وأزكاها، وهى مادة كل خير، فتبارك خالق هذا وهذا، كما ظهرت قدرته فى خلق الليل والنهار والدواء والداء والحياة والموت والحسن والقبيح والخير والشر، وذلك من أدل دليل على كمال قدرته وعزته وملكه وسلطانه فإنه خلق هذه المتضادات وقابلها بعضها ببعض وجعلها محال تصرفه وتدبيره، فخلو الوجود عن بعضها بالكلية تعطيل لحكمته وكمال تصرفه وتدبير ملكه.

ومنها ظهور آثار أسمائه القهرية مثل القهار والمنتقم والعدل والضار والشديد العقاب والسريع العقاب وذى البطش الشديد والخافض والمذل، فإن هذه الأسماء والأفعال كمال لا بد من وجود متعلقها، ولو كان الجن والإنس على طبيعة الملائكة لم يظهر أثر هذه الأسماء.

ومنها ظهور آثار أسمائه المتضمنة لحلمه وعفوه ومغفرته وستره وتجاوزه عن حقه وعتقه لمن شاء من عبيده، فلولا خلق ما يكرهه من الأسباب المفضية إلى ظهور آثار هذه الأسماء لتعطلت هذه الحكم والفوائد، وقد أشار النبى ﷺ إلى هذا بقوله: "لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون ويستغفرون فيغفر لهم"[١].

ومنها ظهور آثار أسماء الحكمة والخبرة فإنه الحكيم الخبير الذى يضع الأشياء مواضعها وينزلها منازلها اللائقة بها، فلا يضع الشيء فى غير موضعه، ولا ينزله فى غير منزلته التى يقتضيها كمال علمه وحكمته وخبرته، فهو أعلم حيث يجعل رسالاته، وأعلم بمن يصلح لقبولها ويشكره على انتهائها إليه، وأعلم بمن لا يصلح لذلك، فلو قدر عدم الأسباب المكروهة لتعطلت حكم كثيرة ولفاتت مصالح عديدة، ولو عطلت تلك الأسباب لما فيها من الشر لتعطل الخير الذى هو أعظم من الشر الذى فى تلك الأسباب، وهذا كالشمس والمطر والرياح التى فيها من المصالح ما هو أضعاف أضعاف ما يحصل بها من الشر.

ومنها حصول العبودية المتنوعة التى لولا خلق إبليس لما حصلت، فإن عبودية الجهاد من أحب أنواع العبودية إليه سبحانه، ولو كان الناس كلهم مؤمنين لتعطلت هذه العبودية وتوابعها من الموالاة لله سبحانه وتعالى والمعاداة فيه وعبودية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وعبودية الصبر ومخالفة الهوى وإيثار محاب الله تعالى وعبودية التوبة والاستغفار وعبودية الاستعاذة بالله أن يجيره من عدوه ويعصمه من كيده وأذاه إلى غير ذلك من الحكم التى تعجز العقول عن إدراكها.

فإن قيل: فهل كان يمكن وجود تلك الحكم بدون هذه الأسباب فهذا سؤال فاسد وهو فرض وجود الملزوم بدون لازمه، كفرض وجود الابن بدون الأب، والحركة بدون المتحرك والتوبة بدون التائب.

---

(١) **صحيح:** أخرجه مسلم فى "كتاب الرقاق" حديث (٢٩٤٧) والترمذى فى "كتاب صفة الجنة" حديث (٢٥٢٦).

فإن قيل: فإذا كانت هذه الأسباب مرادة لما تفضى إليه من الحكم فهل تكـــون مرضيـــة محبوبة من هذا الوجه أم هى مسخوطة من جميع الوجوه؟.

قيل: هذا السؤال يرد على وجهين:

أحدهما: من جهة الرب تعالى وهل يكون محبا لها من جهة إفضائها إلى محبوبه وإن كـــان يبغضها لذاتها.

والثانى: من جهة العبد وهو أنه هل يسوغ له الرضى بها من تلك الجهة أيضا فهذا سـؤال له شأن.

فاعلم أن الشر كله يرجع إلى العدم، أعنى عدم الخير وأسبابه المفضية إليه وهو من هـــذه الجهة شر، وأما من جهة وجوده المحض فلا شر فيه، مثاله أن النفوس الشريرة وجودها خير مـن حيث هى موجودة، وإنما حصل لها الشر بقطع مادة الخير عنها، فإنها خلقت فى الأصل متحركة فإن أعينت بالعلم وإلهام الخير تحركت به، وإن تركت تحركت بطبعها إلى خلافه وحركتها مـن حيث هى حركة خير، وإنما تكون شرا بالإضافة لا من حيث هى حركة، والشر كله ظلم وهو وضع الشيء فى غير محله فلو وضع فى موضعه لم يكن شرا فعلم أن جهة الشر فيه نسبية إضافية، ولهذا كانت العقوبات الموضوعة فى محالها خيرا من نفسها، وإن كانت شرا بالنسبة إلى المحـــل الذى حلت به لما أحدثت فيه من الألم الذى كانت الطبيعة قابلة لضده من اللذة مستعدة لـــه فصار ذلك الألم شرا بالنسبة إليها، وهو خير بالنسبة إلى الفاعل حيث وضعه فى موضعه فإنـــه سبحانه لم يخلق شرا محضا من جميع الوجوه والاعتبارات، فإن حكمته تأبى ذلك فلا يكـــون فى جناب الحق تعالى أن يريد شيئا يكون فسادا من كل وجه لا مصلحة فى خلقه بوجه ما، هذا من أبين المحال فإنه سبحانه الخير كله بيده والشر ليس إليه بل كل ما إليه فخير والشر إنما حصـــل لعدم هذه الإضافة والنسبة إليه، فلو كان إليه لم يكن شرا فتأمله، فانقطاع نسبته إليه هو الـذى صيره شرا.

فإن قيل: لم تنقطع نسبته إليه خلقا ومشيئة؟.

قيل: هو من هذه الجهة ليس بشر، فإن وجوده هو المنسوب إليه، وهو من هذه الجهة ليس بشر، والشر الذى فيه من عدم إمداده بالخير وأسبابه، والعدم ليس بشيء حتى ينسب إلى مـــن بيده الخير.

فإن أردت مزيد إيضاح لذلك فاعلم أن أسباب الخير ثلاثة: الإيجاد والإعداد والإمـــداد، فإيجاد هذا خير وهو إلى الله، وكذلك إعداده وإمداده، فإن لم يحدث فيه إعداد ولا إمداد حصل فيه الشر بسبب هذا العدم الذى ليس إلى الفاعل، وإنما إليه ضده.

فإن قيل: هلا أمده إذ أوجده؟.

قيل: ما اقتضت الحكمة إيجاده وإمداده وإنما اقتضت إيجاده وترك إمداده، فإيجـــاده خـــير والشر وقع من عدم إمداده.

فإن قيل: فهلا أمد الموجودات كلها؟ فهذا سؤال فاسد يظن مـــورده أن التســـوية بـــين الموجودات أبلغ فى الحكمة وهذا عين الجهل؟ بل الحكمة فى هذا التفاوت العظيم الـــذى بـــين الأشياء وليس فى خلق كل نوع منها تفاوت، فكل نوع منها ليس فى خلقه تفاوت، والتفـاوت إنما وقع لأمور عدمية لم يتعلق بها الخلق، وإلا فليس فى الخلق من تفاوت، فإن اعتاص عليـــك هذا و لم تفهمه حق الفهم فراجع قول القائل:

إذا لم تستطع شيئا فدعه ... وجاوزه إلى ما تستطيع

فإن قيل: كيف يرضى لعبده شيئا ولا يعينه عليه؟.

قيل: لأن إعانته عليه قد تستلزم فوات محبوب له أعظم من حصول تلك الطاعة التي رضيها له، وقد يكون وقوع تلك الطاعة منه يتضمن مفسدة هى أكره إليه سبحانه من محبتـــه لتلـــك الطاعة، وقد أشار تعالى إلى ذلك فى قولـــــه: ﴿ وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ ﴾[1] فأخبر سبحانه أنه كره انبعاثهم إلى الغزو مع رسوله، وهـــو طاعة، فلما كرهه منهم ثبطهم عنه، ثم ذكر سبحانه بعض المفاسد التي تترتب على خروجهم مع رسوله فقال: ﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴾ أى فســـادا وشـــرا ﴿ وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ ﴾ أى سعوا بينكم بالفساد والشـــر ﴿ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ﴾[2] أى قابلون منهم مستجيبون لهم فيتولد من سعى هؤلاء وقبول هؤلاء من الشر ما هو أعظـــم مـــن مصلحة خروجهم فاقتضت الحكمة والرحمة أن أقعدهم عنه فاجعل هذا المثال أصلا وقس عليه.

---

(١) سورة التوبة الآيتان: ٤٦، ٤٧.

(٢) سورة التوبة الآية: ٤٧.

وأما الوجه الثانى وهو الذى من جهة العبد فهو أيضا ممكن بل واقع، فإن العبد يسخط الفسوق والمعاصى ويكرهها من حيث هى فعل العبد واقعة بكسبه وإرادته واختياره، ويرضى بعلم الله وكتابه ومشيئته وإرادته وأمره الكونى، فيرضى بما من الله ويسخط ما هو منه فهذا مسلك طائفة من اهل العرفان وطائفة أخرى كرهتها مطلقا، وقولهم يرجع إلى هذا القول لأن إطلاقهم الكراهة لا يريدون به شموله لعلم الرب وكتابه ومشيئته، وسر المسألة أن الذى إلى الرب منها غير مكروه والذى إلى العبد مكروه.

فإن قيل: ليس إلى العبد شيء منها.

قيل: هذا هو الجبر الباطل الذى لا يمكن صاحبه التخلص من هذا المقام الضيق والقدرى المنكر أقرب إلى التخلص منه من الجبرى، وأهل السنة المتوسطون بين القدرية والجبرية أسعد بالتخلص من الفريقين.

فإن قيل: كيف يتأتى الندم والتوبة مع شهود الحكمة فى التقدير ومع شهود القيومية والمشيئة النافذة؟.

قيل: هذا هو **الذى** أوقع من عميت بصيرته فى شهود الأمر على غير ما هو عليه فرأى تلك الأفعال طاعات لموافقته فيها المشيئة والقدر وقال إن عصيت أمره فقد أطعت إرادته، وفى ذلك قيل:

أصبحت منفعلا لما يختاره　　　منى ففعلى كله طاعات

وهؤلاء أعمى الخلق بصائر وأجهلهم بالله وأحكامه الدينية والكونية فإن الطاعة هى موافقة الأمر الدينى الشرعى لا موافقة القدر والمشيئة ولو كان موافقة القدر طاعة لكان إبليس من أعظم المطيعين له، ولكان قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وقوم فرعون كلهم مطيعين، وهذا غاية الجهل، لكن إذا شهد العبد عجز نفسه ونفوذ الأقدار فيه وكمال فقره إلى ربه وعدم استغنائه عن عصمته وحفظه طرفة عين كان بالله فى هذه الحال لا بنفسه، فوقوع الذنب منه لا يتأتى فى هذه الحال البتة، فإن عليه حصنا حصينا، فبى يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يمشى، فلا يتصور منه الذنب فى هذه الحالة، فإذا حجب عن هذا المشهد وبقى بنفسه استولى

عليه حكم النفس، فهناك نصبت عليه الشباك والأشراك وأرسلت عليه الصيادون، فإذا انقشع عنه ضباب ذلك الوجود الطبعى فهنالك يحضره الندم والتوبة والإنابة فإنه كان فى المعصية محجوبا بنفسه عن ربه فلما فارق ذلك الوجودصار فى وجود آخر فبقى بربه لا بنفسه.

فإن قيل: إذا كان الكفر بقضاء الله وقدره ونحن مأمورون أن نرضى بقضاء الله فكيف ننكره ونكرهه.

فالجواب أن يقال أولا: نحن غير مأمورين بالرضى بكل ما يقضيه الله ويقدره ولم يرد بذلك كتاب ولا سنة، بل من المقضى ما يرضى به ومنه ما يسخط ويمقت كما لا يرضى به القاضى لأقضيته سبحانه، بل من القضاء ما يسخط كما أن من الأعيان المقضية ما يغضب عليه ويمقت ويلعن ويذم.

ويقال ثانيا: هنا أمران: قضاء الله، وهو فعل قائم بذات الله تعالى، ومقضى، وهو المفعول المنفصل عنه، فالقضاء كله خير وعدل وحكمة نرضى به كله، والمقضى قسمان: منه ما يرضى به ومنه ما لا يرضى به.

ويقال ثالثا: القضاء له وجهان:

أحدهما: تعلقه بالرب تعالى ونسبته اليه فمن هذا الوجه يرضى به.

والوجه الثانى: تعلقه بالعبد ونسبته إليه فمن هذا الوجه ينقسم إلى ما يرضى به وإلى ما لا يرضى به، مثال ذلك قتل النفس له اعتباران، فمن حيث قدره الله وقضاه وكتبه وشاءه وجعله أجلا للمقتول ونهاية لعمره يرضى به، ومن حيث صدر من القاتل وباشره وكسبه وأقدم عليه باختياره وعصى الله بفعله نسخطه ولا نرضى به.

وقوله: والتعمق والنظر فى ذلك ذريعة الخذلان . . . إلى آخره، التعمق هو المبالغة فى طلب الشيء، والمعنى أن المبالغة فى طلب القدر والغوص فى الكلام فيه ذريعة الخذلان الذريعة الوسيلة والذريعة والدرجة والسلم متقاربة المعنى، وكذلك الخذلان والحرمان والطغيان متقاربة المعنى أيضا، لكن الخذلان فى مقابلة النصر والحرمان فى مقابلةالظفر والطغيان فى مقابلة الاستقامة.

وقوله: فالحذر كل الحذر من ذلك نظرا وفكرا ووسوسة.

عن أبي هريرة ﷺ قال: جاء ناس من أصحاب النبي ﷺ إلى رسول الله ﷺ فسألوه: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به، قال: "وقد وجدتموه؟" قالوا: نعم، قال: "ذلك صريح الإيمان"[١] رواه مسلم.

الإشارة بقوله: ذلك صريح الإيمان إلى تعاظم أن يتكلموا به.

ولمسلم أيضا عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: سئل رسول الله ﷺ عن الوسوسة فقال: "تلك محض الإيمان"[٢].

وهو بمعنى حديث أبي هريرة، فإن وسوسة النفس أو مدافعة وسواسها بمنزلة المحادثة الكائنة بين اثنين، فمدافعة الوسوسة الشيطانية واستعظامها صريح الإيمان ومحض الإيمان، هذه طريقة الصحابة ﷺ والتابعين لهم بإحسان، ثم خلف من بعدهم خلف سودوا الأوراق بتلك الوساوس التي هي شكوك وشبه، بل وسودوا القلوب وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق، ولذلك أطنب الشيخ، رحمه الله، في ذم الخوض في الكلام في القدر والفحص عنه.

وعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت: قال رسول الله ﷺ : "أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم"[٣].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية حدثنا داود بن أبي هند عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم والناس يتكلمون في القدر، قال: فكأنما تفقأ في وجهه حب الرمان من الغضب، قال: فقال لهم: "ما لكم تضربون كتاب الله بعضه ببعض؟ بهذا هلك من كان قبلكم" قال: فما غبطت نفسي بمجلس فيه رسول الله لم أشهده بما غبطت نفسي بذلك المجلس أني لم أشهده[٤] ورواه ابن ماجه أيضا.

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم في "كتاب الإيمان" حديث (١٣٢) وأبو داود في "كتاب الأدب" حديث (٥١١١) وأحمد في "المسند" حديث (٩٦٥٥) وابن حبان في "صحيحه" حديث (١٤٥) وأبو عوانة في "المسند" حديث (٢٢٧، ٢٢٨، ٢٢٩).

(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم في "كتاب الإيمان" حديث (١٣٣) وانظر التخريج المتقدم.

(٣) **صحيح**: متفق عليه وتقدم تخريجه.

(٤) **صحيح**: أخرجه ابن ماجه في "المقدمة" حديث (٨٥) وأحمد في "المسند" حديث (٦٦٦٨) وعبد الرزاق في "مصنفه" حديث (٢٠٣٦٧) قال في الزوائد: هذا إسناد صحيح رجاله ثقات، وقال الشيخ أحمد شاكر: صحيح، وقال الشيخ الألباني: صحيح.

وقـال تعـالى: ﴿ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ﴾(١) الخلاق: النصيب، قال تعالى: ﴿ وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴾(٢) أي: استمتعتم بنصيبكم كما استمتع الذين من قبلكم بنصيبهم، وخضتم كالذى خـاضوا أى كالخوض الذى خاضوه، أو كالفوج أو الصنف أو الجيل الذى خاضوا، وجمع سبحانه بين الاستمتاع بالخلاق وبين الخوض لأن فساد الدين إما فى العمل وإما فى الاعتقاد، فالأول من جهة الشهوات، والثانى من جهة الشبهات.

وروى البخارى عن أبي هريرة ﷺ أن النبى ﷺ قال: "لتأخذن أمتى مأخذ القرون قبلها شبرا بشبر وذراعا بذراع" قالوا: فارس والروم؟ قال: "فمن الناس إلا أولئك"(٣).

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: "ليأتين على أمتى ما أتى على بنى اسرائيل حذو النعل بالنعل، حتى إن كان منهم من أتى أمه علانية كان من أمتى من يصنع ذلك، وإن بنى إسرائيل تفرقوا على اثنتين وسبعين ملة وتفترق أمتى على ثلاث وسبعين ملة، كلهم فى النار إلا ملة واحدة" قالوا: من هى يا رسول الله؟ قال: "ما أنا عليه وأصحابى"(٤) رواه الترمذى.

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: "تفرقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، أو اثنتين وسبعين فرقة، والنصارى مثل ذلك، وتفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة"(٥) رواه أبو داود وابن ماجه والترمذى وقال: حديث حسن صحيح.

---

(١) سورة التوبة الآية: ٦٩

(٢) سورة البقرة الآية: ٢٠٠.

(٣) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب الاعتصام" حديث (٧٣١٩) ومسلم فى "كتاب العلم" حديث (٢٦٦٩) وابن ماجه فى "كتاب الفتن" حديث (٣٩٩٤).

(٤) **حسن**: أخرجه الترمذى فى "كتاب الإيمان" حديث (٢٦٤١) انظر "صحيح الجامع" حديث (٥٢١٩) و"الصحيحة" حديث (١٣٤٨).

(٥) **صحيح**: أخرجه أبو داود فى "كتاب السنة" حديث (٤٥٩٦) والترمذى فى "كتاب الإيمان" حديث (٢٦٤٠) وابن ماجه فى "كتاب الفتن" حديث (٣٩٩١) والحاكم فى "المستدرك" (١/ ١٢٨) قال الترمذى: حديث أبي هريرة حديث حسن صحيح، وفى الباب عن سعد وعبد الله بن عمرو وعوف بن مالك وصححه الحاكم ووافقه الذهبى وصححه ابن حبان فى صحيحه وقال الشيخ الألبانى: صحيح، انظر "الصحيحة" حديث (٢٠٣).

وعن معاوية بن أبي سفيان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "إن أهل الكتـــابين افــترقوا فى دينهم على اثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة"[1] يعنى الأهـواء "كلها فى النار إلا واحدة" وهى الجماعة.

وأكبر المسائل التى وقع فيها الخلاف بين الأمة مسألة القدر، وقد اتسع الكلام فيها غايـــة الاتساع.

وقوله: فمن سأل لم فعل فقد رد حكم الكتاب ومن رد حكم الكتاب كان من الكافرين.

اعلم أن مبنى العبودية والإيمان بالله وكتبه ورسله على التسليم وعدم الأسئلة عن تفــاصيل الحكمة فى الأوامر والنواهى والشرائع، ولهذا لم يحك الله سبحانه عن أمة نبى صدقــت بنبيـــها وآمنت بما جاء به أنها سألته عن تفاصيل الحكمة فيما أمرها به ونهاها عنه وبلغها عن ربـــها، ولو فعلت ذلك لما كانت مؤمنة بنبيها، بل انقادت وسلمت وأذعنت وما عرفت من الحكمـــة عرفته، وما خفى عنها لم تتوقف فى انقيادها وتسليمها على معرفته، ولا جعلت ذلك من شأنها، وكان رسولها أعظم عندها من أن تسأله عن ذلك، كما فى الإنجيل: يا بنى اسرائيل لا تقولوا: لم أمر ربنا ولكن قولوا: بم أمر ربنا؟ ولهذا كان سلف هذه الأمة التى هى أكمل الأمـــم عقــولا ومعارف وعلوما لا تسأل نبيها لم أمر الله بكذا؟ ولم نهى عن كذا؟ ولم قدر كذا؟ ولم فعـــل كذا؟ لعلمهم أن ذلك مضاد للإيمان والاستسلام، وأن قدم الإسلام لا تثبت إلا على درجـــــة التسليم، فأول مراتب تعظيم الأمر والتصديق به ثم العزم الجازم على امتثاله ثم المســارعة إليـــه والمبادرة به والحذر عن القواطع والموانع ثم بذل الجهد والنصح فى الإتيان به على أكمل الوجـوه ثم فعله لكونه مأمورا بحيث لا يتوقف الإتيان به على معرفة حكمته فإن ظهرت له فعلـــه وإلا عطله فإن هذا ينافى الانقياد ويقدح فى الامتثال.

قال القرطبى ناقلا عن ابن عبد البر: فمن سأل مستفهما راغبا فى العلم ونفى الجهل عـــن نفسه باحثا عن معنى يجب الوقوف فى الديانة عليه فلا بأس به، فشفاء العى السؤال، ومن سـأل متعنتا غير متفقه ولا متعلم فهو الذى لا يحل قليل سؤاله ولا كثيره.

---

[1] **صحيح**: أخرجه أبو داود فى "كتاب السنة" حديث (٤٥٩٧) وابن ماجه فى "كتـــاب الفـــتن" حديـــث (٣٩٩٢) وأحمد فى "المسند" حديث (١٦٨٧٦).

قال ابن العربى(١): الذى ينبغى للعالم أن يشتغل به هو بسط الأدلة وإيضاح سبل النظر وتحصيل مقدمات الاجتهاد وإعداد الآلة المعينة على الاستمداد، قال: فإذا عرضت نازلة أتيت من بابها ونشدت من مظانها، والله يفتح وجه الصواب فيها. انتهى.

وقال ﷺ: "من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه"(٢) رواه الترمذى وغيره، ولا شك فى تكفير من رد حكم الكتاب ولكن من تأول حكم الكتاب لشبهة عرضت له بين له الصواب ليرجع إليه، فالله سبحانه وتعالى لا يسأل عما يفعل لكمال حكمته ورحمته وعدله لا لمجرد قهره وقدرته، كما يقول جهم وأتباعه، وسيأتى لذلك زيادة بيان عند قول الشيخ: ولا نكفر أحدا من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله.

❁ **قوله: فهذا جملة ما يحتاج اليه من هو منوَّرٌ قلبه من أولياء الله تعالى، وهى درجة الراسخين فى العلم، لأن العلم علمان: علم فى الخلق موجود، وعلم فى الخلق مفقود، فإنكار العلم الموجود كفر، وادعاء العلم المفقود كفر، ولا يثبت الإيمان إلا بقبول العلم الموجود وترك طلب العلم المفقود:**

ش: الإشارة بقوله: "فهذا" إلى ما تقدم ذكره مما يجب اعتقاده والعمل به مما جاءت به الشريعة، وقوله: وهى درجة الراسخين فى العلم، أى علم ما جاء به الرسول جملة وتفصيلا نفيا وإثباتا، ويعنى بالعلم المفقود علم القدر الذى طواه الله عن أنامه ونَهاهم عن مرامه، ويعنى بالعلم الموجود علم الشريعة أصولها وفروعها، فمن أنكر شيئا مما جاء به الرسول كان من الكافرين، ومن ادعى علم الغيب كان من الكافرين، قال تعالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾(٣) وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ

---

(١) هو: ابن العربى الإمام العلامة الحافظ القاضى أبو بكر، محمد بن عبد الله محمد بن عبد الله الإشبيلى المالكى، صاحب التصانيف، منها "عارضة الأحوذى" و"الأصناف" و"أمهات المسائل" و"حسم الداء فى الكلام على حديث السوداء" و"نزهة الناظر" توفى سنة (٥٤٣هـ).

(٢) **صحيح لغيره:** أخرجه الترمذى فى "كتاب الزهد" حديث (٢٣١٧، ٢٣١٨) وابن ماجه فى "كتاب الفتن" حديث (٣٩٧٦) وأحمد فى "المسند" حديث (١٧٣٧) قال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح وقال الشيخ الألبانى: صحيح.

(٣) سورة الجن الآيتان: ٢٦، ٢٧.

ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾ ﴾(١) ولا يلزم من خفاء حكمة الله علينا عدمها ولا من جهلنا انتفاء حكمته ألا ترى أن خفاء حكمة الله علينا فى خلق الحيات والعقارب والفأر والحشرات التى لا يعلم منها إلا المضرة لم ينف أن يكون الله تعالى خالقا لها، ولا يلزم أن لا يكون فيها حكمة خفيت علينا لأن عدم العلم لا يكون علما بالمعدوم.

❁ قوله: ونؤمن باللوح والقلم وبجميع ما فيه قد رُقِم:

ش: قال تعالى: ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾ ﴾(٢) وروى الحافظ أبو القاسم الطبرانى بسنده إلى النبى ﷺ أنه قال: "إن الله خلق لوحا محفوظا من درة بيضاء صفحاتُها ياقوتة حمراء، قلمه نور، وكتابه نور، لله فيه كل يوم ستون وثلاثمائة لحظة، وعرضه ما بين السماء والأرض، ينظر فيه كل يوم ستين وثلاثمائة نظرة، يخلق ويرزق ويميت ويحيى ويعز ويذل ويفعل ما يشاء"(٣).

اللوح المذكور هو الذى كتب الله مقادير الخلائق فيه، والقلم المذكور هو الذى خلقه الله وكتب به فى اللوح المذكور المقادير، كما فى سنن أبى داود عن عبادة بن الصامت قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب، قال: يا رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة"(٤).

واختلف العلماء: هل القلم أول المخلوقات، أو العرش؟ على قولين، ذكرهما الحافظ أبو العلاء الهمدانى، أصحهما: أن العرش قبل القلم، لما ثبت فى الصحيح من حديث عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: "كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض

---

(١) سورة لقمان الآية: ٣٤.

(٢) سورة البروج الآيتان: ٢١، ٢٢.

(٣) **ضعيف**: أخرجه الطبرانى فى "الكبير" (١٢/ ٧٢) حديث (١٢٥١١) وفيه: زياد بن عبد الله البكائى وليث بن أبى سليم، وكلاهما ضعيف، وانظر "ضعيف الجامع" (من: ٢٣٢) حديث (١٦٠٨).

(٤) **صحيح**: أخرجه أبو داود فى (٤/ ٥٣٢) حديث (٤٧٠٠) والترمذى فى (٤/ ٢٩) حديث (٢١٥٥) وأحمد فى "المسند" حديث (٢٢٦٠٤، ٢٢٦٠٦) وانظر "المسند الجامع" (٨، ٥٤) رقم (٥٥٣٤) و"صحيح الترمذى" (٢/٤٤٩) رقم (٢١٥٥) و"صحيح أبى داود" (٣/ ١٤٨) رقم (٤٧٠٠) و"الصحيحة" (١/ ٢٥٧) حديث (١٣٣).

بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه على الماء"[١] فهذا صريح أن التقدير وقع بعد خلق العرش، والتقدير وقع عند أول خلق القلم، بحديث عباده هذا، ولا يخلو قوله "أول ما خلق الله القلم" إلخ، إما أن يكون جملة أو جملتين، فإن كان جملة وهو الصحيح كان معناه: أنه عند أول خلقه قال له: "اكتب" كما فى اللفظ: "أول ما خلق الله القلم قال له اكتب" بنصب "أول" و"القلم" وإن كان جملتين وهو مروى برفع "أول" و"القلم" فيتعين حمله على أنه أول المخلوقات من هذا العالم، فيتفق الحديثان، إذ حديث عبد الله بن عمرو صريح فى أن العرش سابق على التقدير والتقدير مقارن لخلق القلم، وفى اللفظ الآخر "لما خلق الله القلم قال له اكتب" فهذا القلم أول الأقلام وأفضلها وأجلها.

وقد قال غير واحد من أهل التفسير: إنه القلم الذى أقسم الله به فى قوله تعالى: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾[٢] والقلم الثانى: قلم الوحى، وهو الذى يكتب به وحى الله إلى أنبيائه ورسله، وأصحاب هذا القلم هم الحكام على العالم، والأقلام كلها خدم لأقلامهم، وقد رفع النبى ﷺ ليلة أُسرى به إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام[٣]، فهذه الأقلام هى التى تكتب ما يوحيه الله تبارك وتعالى من الأمور التى يدبرها، أمر العالم، العلوى والسفلى.

❁ قوله: فلو اجتمع الخلق كلهم على شيء كتبه الله تعالى فيه إنه كائن ليجعلوه غير كائن لم يقدروا عليه، ولو اجتمعوا كلهم على شيء لم يكتبه الله تعالى فيه ليجعلوه كائنا لم يقدروا عليه، جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة:

ش: تقدم حديث جابر عن رسول الله ﷺ قال: جاء سراقة بن مالك بن جعشم فقال: يا رسول الله، بين لنا ديننا كأنا خلقنا الآن، ففيم العمل اليوم؟ أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير؟ أم فيما استقبل؟ قال: "لا، بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير"[٤].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) سورة القلم الآية الأولى.

(٣) جزء من حديث الإسراء الطويل وهو عند البخارى (٢/ ٤) حديث (٣٤٩) ومسلم فى (١/ ١٧٦) حديث (١٦٣).

(٤) **صحيح**: تقدم تخريجه.

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: كنت خلف رسول الله ﷺ يوما فقال: "يا غلام، ألا أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف"(١) رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح.

وفى رواية غير الترمذى: "احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا".

وقد جاءت الأقلام فى هذه الأحاديث وغيرها مجموعة فدل ذلك على أن للمقادير أقلاما غير القلم الأول الذى تقدم ذكره مع اللوح المحفوظ.

والذى دلت عليه السنة أن الأقلام أربعة، وهذا التقسيم غير التقسيم المقدم ذكره:

القلم الأول: العام الشامل لجميع المخلوقات وهو الذى تقدم ذكره مع اللوح.

القلم الثانى: خبر خلق آدم، وهو قلم عام أيضا، لكن لبنى آدم، ورد فى هذا آيات تدل على أن الله قدر أعمال بنى آدم وأرزاقهم وآجالهم وسعادتهم عقيب خلق أبيهم.

القلم الثالث: حين يرسل الملك إلى الجنين فى بطن أمه فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات بكتب "رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد"(٢) كما ورد ذلك فى الأحاديث الصحيحة.

القلم الرابع: الموضوع على العبد عند بلوغه الذى بأيدى الكرام الكاتبين الذين يكتبون ما يفعله بنو آدم كما ورد ذلك فى الكتاب والسنة.

---

(١) **صحيح:** أخرجه الترمذى فى (٤/ ٢٨٤) رقم (٢٥١٦) والطبرانى فى "الكبير" (٢١/ ٢٣٨) حديث (١٢٩٨٨) وأحمد فى "المسند" حديث (٢٦٦٩) والبيهقى فى "شعب الإيمان" (١/ ٢١٦) حديث (١٩٥) قال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح، وقال الشيخ أحمد شاكر: صحيح، وقال الشيخ الألبانى: صحيح، وانظر "صحيح سنن الترمذى" (٢/ ٦٠٩) رقم (٢٥١٦).

(٢) تقدم تخريجه.

وإذا علم العبد أن كلا من عند الله فالواجب إفراده سبحانه بالخشية والتقوى، قال تعالى: ﴿ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ ﴾(١) ﴿ وَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾(٢) ﴿ وَإِيَّـٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴾(٣) ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾(٤) ﴿ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾(٥) ونظائر هذا المعنى فى القرآن كثيرة، ولا بد لكل عبد أن يتقى أشياء فإنه لا يعيش وحده، ولو كان ملكا مطاعا، فلا بد أن يتقى أشياء يراعى بها رعيته، فحينئذ فلا بد لكل إنسان أن يتقى فإن لم يتق الله اتقى المخلوق، والخلق لا يتفق حبهم كلهم وبغضهم بل الذى يريده هذا يبغضه هذا فلا يمكن إرضاؤهم كلهم، كما قال الشافعى رضي الله عنه رضى الناس غاية لا تدرك فعليك بالأمر الذى يصلحك فالزمه ودع ما سواه فلا تعانه، فإرضاء الخلق لا مقدور ولا مأمور، وإرضاء الخالق مقدور ومأمور، وأيضا فالمخلوق لا يغنى عنه من الله شيئا، فإذا اتقى العبد ربه كفاه مؤنة الناس، كما كتبت عائشة إلى معاوية، روى مرفوعا وروى موقوفا عليها: "من أرضى الله بسخط الناس رضى الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن أرضى الناس بسخط الله عاد حامده من الناس له ذاما"(٦) فمن ارضى الله كفاه مؤنة الناس ورضى عنه ثم فيما بعد يرضون، إذ العاقبة للتقوى، ويحبه الله فيحبه الناس، كما فى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال: "إذا أحب الله العبد نادى: يا جبرائيل، إنى أحب فلانا فأحبه، فيحبه جبرائيل، ثم ينادى جبرائيل فى السماء: إن الله يحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول فى الأرض"(٧) وقال فى البغض مثل ذلك، فقد بيَّن أنه لا بد لكل مخلوق من أن يتقى، إما المخلوق وإما الخالق، وتقوى المخلوق

---

(١) سورة المائدة الآية: ٤٤.
(٢) سورة البقرة الآية: ٤٠.
(٣) سورة البقرة الآية: ٤١.
(٤) سورة النور الآية: ٥٢.
(٥) سورة المدثر الآية: ٥٦.
(٦) **صحيح**: أخرجه الترمذى (٤/ ٢١٣) حديث (٢٤١٣) وابن المبارك فى "الزهد" حديث (١٩٩) وابن حبان فى "صحيحه" (١/ ١٧٧) حديث (٢٧٧) والبغوى فى "شرح السنة" (٨/ ٢٦٤) رقم (٢١٢٤).
(٧) **صحيح**: أخرجه البخارى فى (٦/ ٤٤٧) حديث (٣٢٠٩) ومسلم فى (٨/ ١١٦) حديث (٢٦٣٧) والترمذى فى (٥/ ٢٢٤) رقم (٣١٦١) وأحمد فى "المسند (٩/ ٥٣٤) حديث (١٠٦٢٢) وعبد الرزاق فى "المصنف" (١٠/ ٤٥٠) حديث (١٩٦٧٣) وانظر "تحفة الأشراف (٩/ ٤١١) حديث (١٢٧٠٥).

ضررها راجح على نفعها من وجوه كثيرة، وتقوى الله هى التى يحصل بها سعادة الدنيا والآخرة، فهو سبحانه أهل التقوى، وهو أيضا أهل المغفرة، فإنه هو الذى يغفر الذنوب لا يقدر مخلوق على أن يغفر الذنوب ويجير من عذابها غيره، وهو الذى يجير ولا يُجار عليه، قال بعض السلف: ما احتاج تقى قط، لقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾[1] فقد ضمن الله للمتقين أن يجل لهم مخرجا مما يضيق على الناس، وأن يرزقهم من حيث لا يحتسبون، فإذا لم يحصل ذلك دل على أن فى التقوى خللا فليستغفر الله وليتب إليه، ثم قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾[2] أى فهو كافيه لا يحوجه إلى غيره.

وقد ظن بعض الناس أن التوكل ينافى الاكتساب وتعاطى الأسباب وأن الأمور إذا كانت مقدرة فلا حاجة إلى الأسباب، وهذا فاسد، فإن الاكتساب منه فرض ومنه مستحب ومنه مباح ومنه مكروه ومنه حرام، كما قد عرف فى موضعه، وقد كان النبى ﷺ أفضل المتوكلين، يلبس لأمة الحرب ويمشى فى الأسواق للاكتساب حتى قال الكافرون: ﴿ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾[3] ولهذا تجد كثيرا ممن يرى الاكتساب ينافى التوكل يرزقون على يد من يعطيهم، إما صدقة وإما هدية، وقد يكون ذلك من مكاس أو والى شرطة أو نحو ذلك، وهذا مبسوط فى موضعه لا يسعه هذا المختصر، وقد تقدمت الإشارة الى بعض الأقوال التى فى تفسير قوله تعالى: ﴿ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ۝ ﴾[4] وأما قوله تعالى: ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴾[5] فقال البغوى: قال مقاتل: نزلت فى اليهود حين قالوا: إن الله لا يقضى يوم السبت.

قال المفسرون: من شأنه أنه يحيى ويميت، ويرزق ويعز قوما ويذل آخرين، ويشفى مريضا، ويفك عانيا، ويفرج مكروبا، ويجيب داعيا، ويعطى سائلا، ويغفر ذنبا . . . إلى ما لا يحصى من أفعاله وإحداثه فى خلقه ما يشاء.

---

(١) سورة الطلاق الآيتان: ٢، ٣.

(٢) سورة الطلاق الآية: ٣.

(٣) سورة الفرقان الآية: ٧.

(٤) سورة الرعد الآية: ٣٩.

(٥) سورة الرحمن الآية: ٢٩.

❁ **قوله: وما أخطأ العبد لم يكن ليصيبه وما أصابه لم يكن ليخطئه:**

ش: هذا بناء على ما تقدم من أن المقدور كائن لا محالة، ولقد أحسن القائل حيث يقول:

ما قضــى الله كائن لا محاله ... والشقى الجهول من لام حاله

والقائل الآخر:

اقنع بما تــرزق يــا ذا الفتى ... فليــس ينــســى ربــنا نمله

إن أقبــل الدهــر فقم قائما ... وإن تولــى مدبــــرا نــم له

❁ **قوله: وعلى العبد أن يعلم أن الله قد سبق علمه فى كل كائن من خلقه فقدر ذلك تقديرا محكما مبرما، ليس فيه ناقض ولا معقب ولا مزيل ولا مغير ولا ناقص ولا زائد من خلقه فى سماواته وأرضه:**

ش: هذا بناء على ما تقدم من أن الله تعالى قد سبق علمه بالكائنات وأنه قدر مقاديرهـــا قبل خلقها، كما قال ﷺ: "قدر الله مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وعرشه على الماء"[(١)] فيعلم أن الله قد علم أن الأشياء تصير موجودة لأوقاتها على ما اقتضته حكمته البالغة فكانت كما علم، فإن حصول المخلوقات على ما فيها مـــن غرائـــب الحكـــم لا يتصور إلا من عالم قد سبق علمه على إيجادها، قال تعالى: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾[(٢)] وأنكر غلاة المعتزلة أن الله كان عالما فى الأزل وقالوا إن الله تعالى لا يعلم أفعـــال العباد حتى يفعلوا تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا.

قال الإمام الشافعى ﷺ ناظروا القدرية بالعلم فإن أقروا به خصموا وإن أنكروا كفـــروا، فإن الله تعالى يعلم أن هذا مستطيع يفعل ما استطاعه فيثيبه وهذا مستطيع لا يفعل ما اســتطاعه فيعذبه، فإنما يعذبه لأنه لا يفعل مع القدرة، وقد علم الله ذلك منه، ومن لا يستطيع لا يأمره ولا يعذبه على ما لم يستطعه.

وإذا قيل: فيلزم أن يكون العبد قادرا على تغيير علم الله لأن الله علم أنه لا يفعل، فإذا قدر على الفعل قدر على تغيير علم الله.

---

(١) **صحيح:** تقدم تخريجه.

(٢) سورة الملك الآية: ١٤.

قيل: هذه مغالطة، وذلك أن مجرد قدرته على الفعل لا تستلزم تغيير العلم، وإنما يظن من يظن تغيير العلم اذا وقع الفعل ولو وقع الفعل لكان المعلوم وقوعه لا عدم وقوعه، فيمتنع أن يحصل وقوع الفعل مع علم الله بعدم وقوعه، بل إن وقع كان الله علم أنه يقع، وإن لم يقع كان الله قد علم أنه لا يقع، ونحن لا نعلم علم الله إلا بما يظهر، وعلم الله مطابق للواقع فيمتنع أن يقع شيء يستلزم تغيير العلم، بل أى شيء وقع كان هو المعلوم، والعبد الذى لم يفعل لم يأت بما يغير العلم، بل هو قادر على فعل لم يقع ولو وقع لكان الله قد علم أنه يقع لا أنه لا يقع.

وإذا **قيل**: فمع عدم وقوعه يعلم الله أنه لا يقع فلو قدر العبد على وقوعه قدر على تغير العلم.

قيل: ليس الأمر كذلك بل العبد يقدر على وقوعه وهو لم يوقعه ولو أوقعه لم يكن المعلوم إلا وقوعه فمقدور العبد إذا وقع لم يكن المعلوم إلا وقوعه وهؤلاء فرضوا وقوعه مع العلم بعدم وقوعه وهو فرض محال وذلك بمنزلة من يقول: افرض وقوعه مع عدم وقوعه وهو جمع بين النقيضين.

فإن قيل: فإذا كان وقوعه مع علم الرب عدم وقوعه محالا لم يكن مقدورا.

قيل: لفظ المحال مجمل، وهذا ليس محالا لعدم استطاعته له ولا لعجزه عنه ولا لامتناعه فى نفسه، بل هو ممكن مقدور مستطاع، ولكن إذا وقع كان الله عالما بأنه سيقع، وإذا لم يقع كان عالما بأنه لا يقع، فإذا فرض وقوعه مع انتفاء لازم الوقوع صار محالا من جهة إثبات الملزوم بدون لازمه، وكل الأشياء بهذا الاعتبار هى محال مما يلزم هؤلاء أن لا يبقى أحد قادرا على شيء لا الرب ولا الخلق، فإن الرب إذا علم من نفسه أنه سيفعل كذا لا يلزم من علمه ذلك انتفاء قدرته على تركه، وكذلك إذا علم من نفسه أنه لا يفعله لا يلزم منه انتفاء قدرته على فعله، فكذلك ما قدره من أفعال عباده، والله تعالى أعلم.

❁ **قوله: وذلك من عقد الايمان وأصول المعرفة والاعتراف بتوحيد الله تعالى وربوبيته كما قال تعالى فى كتابه**: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ وقال تعالى: ﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾[1]:

ش: الإشارة إلى ما تقدم من الإيمان بالقدر وسبق علمه بالكائنات قبل خلقها، قال ﷺ فى جواب السائل عن الإيمان: "أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر

(١) سورة الأحزاب الآية: ٣٨.

خيره وشره" وقال ﷺ فى آخر الحديث: "يا عمر، أتدرى من السائل؟" قال: الله ورسوله أعلم، قال: "فإنه جبرائيل أتاكم يعلمكم دينكم"(١). رواه مسلم.

وقوله: والإقرار بتوحيد الله وربوبيته، أى لا يتم التوحيد والإقرار بالربوبية إلا بالإيمان بصفاته تعالى، فإن من زعم خالقا غير الله فقد أشرك، فكيف بمن يزعم أن كل أحد يخلق فعله؟ ولهذا كانت القدرية مجوس هذه الأمة، وأحاديثهم فى السنن، وروى أبو داود عن ابن عمر عن النبى ﷺ قال: "القدرية مجوس هذه الأمة، إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم"(٢)، وروى أبو داود أيضا عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "لكل أمة مجوس، ومجوس هذه الأمة الذين يقولون لا قدر، من مات منهم فلا تشهدوا جنازته، ومن مرض منهم فلا تعودوهم، وهم شيعة الدجال وحق على الله ان يلحقهم بالدجال"(٣)، وروى أبو داود أيضا عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال: "لا تجالسوا أهل القدر، ولا تفاتحوهم"(٤).

وروى الترمذى عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "صنفان من بنى آدم ليس لهم فى الإسلام نصيب: المرجئة والقدرية"(٥).

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى (٩/ ٤٦٦) حديث (٤٧٧٧) ومسلم (١/ ١٤٣) حديث (٩) وابن ماجه (١/ ٣٦) حديث (٦٣) وابن أبى عاصم فى "السنة" (١٢٠، ١٢٧).

(٢) **حسن**: أخرجه أبو داود (٤/ ٢٣١) حديث (٤٦٩١) وابن أبى عاصم فى "السنة" (ص: ١٦٢) حديث (٣٣٨) وانظر "صحيح سنن أبى داود" (٣/ ١٤٣) حديث (٤٦٩١) قال الشيخ الألبانى: حديث حسن، رجاله ثقات "الصحيحة" (٦/ ٥٦٤) "والمشكاة" (١/ ٣٨) حديث (١٠٧).

(٣) **ضعيف**: أخرجه أبو داود فى "سننه" (٤/ ٢٣١) حديث (٤٦٩٢) وأحمد فى "المسند" (٥/ ٧٠٤) حديث (٥٥٨٤) وابن أبى عاصم فى "السنة" حديث (٣٢٩) قال العلامة الألبانى: ضعيف، وانظر "ضعيف سنن أبى داود" حديث (٤٦٩٢) و"ظلال الجنة" (ص: ١٥٨).

قلت: وهو كما قال رحمه الله، فإن فيه راو مجهول، وعمر مولى عنزة ضعيف.

(٤) **ضعيف**: أخرجه أبو داود فى "سننه" (٤/ ٢٣٩) حديث (٤٧١٠) والحاكم فى "المستدرك" (١/ ١٥٩) حديث (٢٨٧) وابن حبان فى "صحيحه" حديث (١٨٢٥) وأحمد فى "المسند" (١/ ٢٥٢) قال الشيخ الألبانى: ضعيف، انظر "المشكاة" حديث (١٠٨) و"ضعيف سنن أبى داود" (ص: ٥٨٣) حديث (٤٧١٠).

(٥) **ضعيف**: أخرجه الترمذى (٢١٤٩) وقال حديث حسن غريب.

قلت: فيه على بن نزار، ونزار، والقاسم بن حبيب، كلهم ضعفاء، انظر ضعيف سنن الترمذى (ص: ٨٠٢) حديث (٢١٤٩).

لكن كل أحاديث القدرية المرفوعة ضعيفة وإنما يصح الموقوف منها، فعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: القدر نظام التوحيد، فمن وحد الله وكذب بالقدر نقض تكذيبه توحيده، وهذا لأن الإيمان بالقدر يتضمن الإيمان بعلم الله القديم، وما أظهر من علمه الذى لا يحاط به، وكتابة مقادير الخلائق، وقد ضل فى هذا الموضع خلائق من المشركين والصابئين والفلاسفة وغيرهم ممن ينكر علمه بالجزئيات أو بغير ذلك، فإن ذلك كله مما يدخل فى التكذيب بالقدر، وأما قدرة الله على كل شيء فهو الذى يكذب به القدرية جملة حيث جعلوه لم يخلق أفعال العباد فأخرجوها عن قدرته وخلقه.

والقدر الذى لا ريب فى دلالة الكتاب والسنة والإجماع عليه وأن الذى جحدوه هم القدرية المحضة بلا نزاع هو ما قدره الله من مقادير العباد، وعامة ما يوجد من كلام الصحابة والأئمة فى ذم القدرية يعنى به هؤلاء كقول ابن عمر رضى الله عنهما لما قيل له يزعمون أن لا قدر وأن الأمر أُنفٌ، أخبرهم أنى منهم برىء وأنهم منى برآء.

والقدر الذى هو التقدير المطابق للعلم يتضمن أصولا عظيمة:

أحدها: أنه عالم بالأمور المقدرة قبل كونها فيثبت علمه القديم، وفى ذلك الرد على من ينكر علمه القديم.

الثانى: أن التقدير يتضمن مقادير المخلوقات ومقاديرها هى صفاتُها المعينة المختصة بها، فإن الله قد جعل لكل شيء قدرا، قال تعالى: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾[1] فالخلق يتضمن التقدير تقدير الشيء فى نفسه بأن يجعل له قدراً وتقديره قبل وجوده، فإذا كان قد كتب لكل مخلوق قدره الذى يخصه فى كميته وكيفيته كان ذلك أبلغ فى العلم بالأمور الجزئية المعينة خلافا لمن أنكر ذلك وقال: إنه يعلم الكليات دون الجزئيات فالقدر يتضمن العلم القديم والعلم بالجزئيات.

الثالث: أنه يتضمن أنه أخبر بذلك وأظهره قبل وجود المخلوقات إخبارا مفصلا فيقضى أنه يمكن أن يعلم العباد الأمور قبل وجودها علمًا مفصلا فيدل ذلك بطريق التنبيه على أن الخالق أولى بهذا العلم فإنه إذا كان يعلم عباده بذلك فكيف لا يعلمه هو؟!.

---

(١) سورة الفرقان الآية: ٢.

الرابع: أنه يتضمن أنه مختار لما يفعله محدث له بمشيئته وإرادته ليس لازمًا لذاته.

الخامس: أنه يدل على حدوث هذا المقدور وأنه كان بعد أن لم يكن فإنه يقدره ثم يخلقه.

❁ قوله: فويل لمن صار لله تعالى فى القدر خصيمًا وأحضر للنظر فيه قلبًا سقيمًا، لقد التمس بوهمه فى فحص الغيب سرًّا كتيمًا وعاد بما قال فيه أفاكًا أثيمًا:

ش: اعلم أن القلب له حياة وموت ومرض وشفاء، وذلك أعظم مما للبدن، قال تعالى: ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾(١) أى كان ميتا بالكفر فأحييناه بالإيمان، فالقلب الصحيح الحى إذا عرض عليه الباطل والقبائح نفر منها بطبعه وأبغضها و لم يلتفت إليها بخلاف القلب الميت، فإنه لا يفرق بين الحسن والقبيح، كما قال عبد الله بن مسعود ﷺ "هلك من لم يكن له قلب يعرف به المعروف والمنكر"(٢).

وكذلك القلب المريض بالشهوة فإنه لضعفه يميل إلى ما يعرض له من ذلك بحسب قوة المرض وضعفه.

ومرض القلب نوعان، كما تقدم: مرض شهوة ومرض شبهة، وأردؤها مرض الشبهة، وأردأ الشبه ما كان من أمر القدر، وقد يمرض القلب ويشتد مرضه ولا يشعر به صاحبه لاشتغاله وانصرافه عن معرفة صحته وأسبابها بل قد يموت وصاحبه لا يشعر بموته، وعلامة ذلك أنه لا تؤلمه جراحات القبائح ولا يوجعه جهله بالحق وعقائده الباطلة، فإن القلب إذا كان فيه حياة تألم بورود القبيح عليه وتألم بجهله بالحق بحسب حياته.

❁ ما لجرح بميت إيلام ❁

وقد يشعر بمرضه ولكن يشتد عليه تحمل مرارة الدواء والصبر عليها فيؤثر بقاء ألمه على مشقة الدواء، فإن دواءه فى مخالفة الهوى، وذلك أصعب شيء على النفس وليس له أنفع منه،

---

(١) سورة الأنعام الآية: ١٢٢.

(٢) **صحيح**: أخرجه الطبرانى فى "الكبير" (٩/ ٧٠١) حديث (٨٥٦٤) قال فى "مجمع الزوائد" (٧/ ١٤٥) حديث (١٢١٧٥) رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح، وقال الشيخ الألبانى: لا أعرفه.

قلت: هو عند الطبرانى، كما تقدم، وتمامه عن طارق بن شهاب قال: جاء عتريس بن عرقوب الشيبانى إلى عبد الله فقال: هلك من لم يأمر بالمعروف وينه عن المنكر، فقال: بل هلك من لم يعرف قلبه المعروف، وينكر قلبه المنكر".

وتارة يوطن نفسه على الصبر ثم ينفسخ عزمه ولا يستمر معه لضعف علمه وبصيرته وصبره، كمن دخل فى طريق مخوف مُفْضٍ إلى غاية الأمن وهو يعلم أنه إن صبر عليه انقضى الخوف وأعقبه الأمن، فهو محتاج إلى قوة صبر وقوة يقين بما يصير إليه، ومتى ضعف صبره ويقينه رجع من الطريق ولم يتحمل مشقتها ولا سيما إن عدم الرفيق واستوحش من الوحدة وجعل يقول أين ذهب الناس؟ فلى أسوة بهم، وهذه حال أكثر الخلق، وهى التى أهلكتهم، فالصابر الصادق لا يستوحش من قلة الرفيق ولا من فقده إذا استشعر قلبه مرافقة الرعيل الأول ﴿ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴾(١).

وما أحسن ما قال أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل المعروف بأبى شامة فى كتاب الحوادث والبدع حيث جاء الأمر بلزوم الجماعة فالمراد لزوم الحق واتباعه وإن كان المتمسك به قليلا والمخالف له كثيرا لأن الحق هو الذى كانت عليه الجماعة الأولى من عهد النبى ﷺ وأصحابه ﷺ ولا ننظر إلى كثرة أهل الباطل بعدهم.

وعن الحسن البصرى رحمه الله أنه قال: السنة والذى لا إله إلا هو بين الغالى والجافى، فاصبروا عليها رحمكم الله، فإن أهل السنة كانوا أقل الناس فيما مضى وهم أقل الناس فيما بقى، الذين لم يذهبوا مع أهل الإتراف فى إترافهم ولا مع أهل البدع فى بدعتهم، وصبروا على سنتهم حتى لقوا ربهم، فكذلك فكونوا.

وعلامة مرض القلب عدوله عن الأغذية النافعة الموافقة إلى الأغذية الضارة، وعدوله عن دوائه النافع إلى دوائه الضار، فههنا أربعة أشياء: غذاء نافع ودواء شاف، وغذاء ضار ودواء مهلك، فالقلب الصحيح يؤثر النافع الشافى على الضار المؤذى، والقلب المريض بضد ذلك، وأنفع الأغذية غذاء الإيمان، وأنفع الأدوية دواء القرآن وكل منهما فيه الغذاء والدواء، فمن طلب الشفاء فى غير الكتاب والسنة فهو من أجهل الجاهلين وأضل الضالين، فإن الله تعالى يقول: ﴿ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَـٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ﴾(٢) وقال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ

(١) سورة النساء الآية: ٦٩.

(٢) سورة فصلت الآية: ٤٤.

﴿ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾(١) و "من" فى قولــه: ﴿ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ﴾ لبيان الجنس لا للتبعيض، وقـــال تعـــالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾(٢).

فالقرآن هو الشفاء التام من جميع الأدواء القلبية والبدنية وأدواء الدنيا والآخرة وما كـــل أحد يؤهل للاستشفاء به، وإذا أحسن العليل التداوى به ووضعه على دائه بصدق وإيمان وقبول تام واعتقاد جازم واستيفاء شروطه لم يقاوم الداءُ أبدا، وكيف تقاوم الأدواء كلام رب الأرض والسماء، الذى لو نزل على الجبال لصدعها، أو على الأرض لقطعها، فما من مرض من أمراض القلوب والأبدان إلا وفى القرآن سبيل الدلالة على دوائه وسببه والحمية منه لمن رزقه الله فهما فى كتابه.

وقوله: لقد التمس بوهمه فى فحص الغيب سرا كتيما، أى طلب بوهمه فى البحـــث عـــن الغيب سرا مكتوما إذ القدر سر الله فى خلقه فهو يروم ببحثه الاطلاع على الغيب، وقد قـــال تعـــالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾(٣) إلى آخر السورة.

وقوله: وعاد بما قال فيه، أى فى القدر، أفاكا كذابا، أثيما أى مأثوما.

❁ وقوله: والعرش والكرسى حق:

ش: كما بيَّن تعالى فى كتابه، قال تعـالى: ﴿ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ۝ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾(٤) ﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ ﴾(٥) ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾(٦) فى غير ما آية من القـــرآن ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾(٧) ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾(٨) ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾(٩) ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ

(١) سورة الإسراء الآية: ٨٢.
(٢) سورة يونس الآية: ٥٧.
(٣) سورة الجن الآيتان: ٢٦، ٢٧.
(٤) سورة البروج الآيتان: ١٥، ١٦.
(٥) سورة غافر الآية: ١٥.
(٦) سورة الأعراف الآية: ٥٤.
(٧) سورة طه الآية: ٥.
(٨) سورة المؤمنون الآية: ١١٦.
(٩) سورة النمل الآية: ٢٦.

رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾(١) ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴾(٢) ﴿ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾(٣).

وفى دعاء الكرب المروى فى الصحيح: "لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إلـه إلا هـو رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض رب العرش الكريم"(٤).

وروى الإمام أحمد فى حديث الأوعال عن العباس بن عبد المطلب ﷺ قال: قال رسـول الله ﷺ "هل تدرون كم بين السماء والأرض؟" قال: قلنا: الله ورسوله أعلم، قـال: "بينـهما مسيرة خمسمائة سنة ومن كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة، وكِثَف كل سمـاء مسـيرة خمسمائة، وفوق السماء السابعة بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض، ثم فوق ذلك ثمانية أوعال بين ركبهن وأظلافهن كما بين السماء والأرض ثم فوق ذلك العرش بين أسـفله وأعلاه كما بين السماء والأرض، والله فوق ذلك ليس يخفى عليه من أعمال بنى آدم شـىء"(٥) ورواه أبو داود والترمذى وابن ماجه.

وروى ابو داود وغيره بسنده إلى رسول الله ﷺ من حديث الأطيط أنه ﷺ قـال: "إن عرشه على سمواته لهكذا، وقال بأصابعه مثل القبة . . ."(٦) الحديث.

---

(١) سورة غافر الآية: ٧.

(٢) سورة الحاقة الآية: ١٧.

(٣) سورة الزمر الآية: ٧٥.

(٤) **صحيح:** أخرجه البخارى (١٢/ ٤٣٣) حديـث (٦٣٤٦) ومسـلم فى (٩/ ٤١) حديـث (٢٧٣٠) والترمذى (٥/ ٤٣٤) حديث (٣٤٣٥) وابن ماجه (٢/ ٤٥٥) حديث (٣٨٨٣) وأحمـد فى "المسـند" حديث (٢٠١٢) وأبو يعلى فى "مسنده" حديث (٢٥٤١) والبغوى فى "شرح السنة" حديـث (١٣٣١) وانظر "تحفة الأشراف" (٤/ ٤٨٣) حديث (٥٤٢٠).

(٥) **ضعيف:** أخرجه أبو داود (٤/ ٢٤٦) حديث (٤٧٢٣) وابن ماجه (١/ ٧٧) حديث (١٩٣) والتـبريزى فى "مشكاة المصابيح" حديث (٥٧٢٦) قال الشيخ الألبانى: ضعيف "ضعيف سـنن أبى داود" حديـث (٤٧٢٣٦).

قلت: وهو كما قال رحمه الله، فإن فيه عبد الله بن عميرة، قال البخارى: لا يعرف له سماع من الأحنـف ابن قيس.

(٦) **ضعيف:** أخرجه أبو داود فى "كتاب السنة" حديث (٤٧٢٦) و"المشكاة" حديث (٥٧٢٧) قال الشـيخ الألبانى: ضعيف انظر "ضعيف سنن أبى داود" حديث (٤٧٢٦) واستغرب ابن كثير هذا الحديث.

وفى صحيح البخارى عن رسول الله ﷺ أنه قال: "إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وفوقه عرش الرحمن"[(١)] يروى وفوقه بالنصب على الظرفية وبالرفع على الابتداء أى وسقفه.

وذهب طائفة من أهل الكلام إلى أن العرش فلك مستدير من جميع جوانبه محيط بالعالم من كل جهة، وربما سموه الفلك الأطلس والفلك التاسع، وهذا ليس بصحيح لأنه قد ثبت فى الشرع أن له قوائم تحمله الملائكة كما قال ﷺ "فإن الناس يصعقون فأكون أول من يفيق، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدرى أفاق قبلى أم جوزى بصعقة الطور"[(٢)].

والعرش فى اللغة عبارة عن السرير الذى للملك، كما قال تعالى عن بلقيس: ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾[(٣)] وليس هو فلكا، ولا تفهم منه العرب، ذلك والقرآن إنما نزل بلغة العرب فهو سرير ذو قوائم تحمله الملائكة، وهو كالقبة على العالم وهو سقف المخلوقات، فمن شعر أمية بن أبى الصلت:

مجدوا الله فهو للمجد أهل ... ربنا فى السماء أمسى كبيرا
بالبناء العالى الذى بهر النا ... س وسوى فوق السماء سريرا
شرجعا لا يناله بصر الـ ... ـعين ترى حوله الملائك صُورا

الصُّور هنا جمع أصْوَر، وهو المائل العنق لنظره إلى العلو، والشرجع هو العالى المنيف، والسرير هو العرش فى اللغة.

ومن شعر عبد الله بن رواحة رضي الله عنه الذى عرَّض به عن القراءة، لامرأته حين اتُّهمته بجاريته:

شهدت بأن وعد الله حق ... وأن النار مثوى الكافرينا
وأن العرش فوق الماء طاف ... وفوق العرش رب العالمينا
وتحمله ملائكة شداد ... ملائكة الإله مسومينا

ذكره ابن عبد البر وغيره من الأئمة.

وروى أبو داود عن النبى ﷺ أنه قال: "أُذن لى أن أحدث عن ملك من ملائكة الله عز وجل، من حملة العرش، إن ما بين شحمة أذنه على عاتقه مسيرة سبعمائة عام"[(٤)] ورواه ابن أبى حاتم ولفظه تخفق الطير سبعمائة عام.

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب التوحيد" حديث (٧٤٢٣).

(٢) **صحيح**: تقدم تخريجه. (٣) سورة النمل الآية: ٢٣.

(٤) **صحيح**: أخرجه أبو داود فى "كتاب السنة" (٤٧٢٧) و"المشكاة" حديث (٥٧٢٨) و"صحيح أبى داود" حديث (٤٧٢٧) و"الصحيحة" حديث (١٥١).

وأمـــا من حرف كلام الله وجعل العرش عبارة عن الملك كيف يصنـــع بقولـــه تعـــالى: ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴾(١) وقولـــه: ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾(٢) أيقول ويحمل: ملكه يومئذ ثمانية؟ وكان ملكه على الماء؟ ويكون موسى عليه الســـلام آخـــذا بقائمة من قوائم الملك؟ هل يقول هذا عاقل يدرى ما يقول.

وأما الكرسى فقال تعالى: ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾(٣) وقد قيل: هو العـــرش، والصحيح أنه غيره، نقل ذلك عن ابن عباس رضى الله عنهما وغيره، روى ابـــن أبى شـــيبة فى كتاب صفة العرش والحاكم فى مستدركه وقال: إنه على شرط الشيخين ولم يخرجاه، عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ أنه قال: "الكرسـى موضع القدمين، والعرش لا يقدر قدره إلا الله تعالى"(٤) وقد روى مرفوعـــا، والصـــواب أنـــه موقوف على ابن عباس.

وقال السدى: السموات والأرض فى جوف الكرسى بين يدى العرش.

وقال ابن جرير قال أبو ذر ﷺ سمعت رسول الله ﷺ يقول: "ما الكرسى فى العـــرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهرى فلاة من الأرض"(٥).

وقيل: كرسيه علمه، وينسب إلى ابن عباس، والمحفوظ عنه ما رواه ابن أبى شـــيبة، كمـــا تقدم.

ومن قال غير ذلك فليس له دليل إلا مجرد الظن والظاهر أنه من جراب الكلام المذمـــوم، كما قيل فى العرش، وإنما هو كما قال غير واحد من السلف بين يدى العرش كالمرقاة إليه.

---

(١) سورة الحاقة الآية: ١٧.

(٢) سورة هود الآية: ٧.

(٣) سورة البقرة الآية: ٢٥٥.

(٤) **صحيح**: أخرجه الحاكم فى :المستدرك" (٢/ ٣١٠) حديث (٣١١٦) والطبرانى فى "الكبـــير" (٢١/ ٣٩) حديث (١٢٤٠٤) قال الهيثمى: رواه الطبرانى، ورجاله رجال الصحيح، انظر "مجمع الزوائد" (٦/ ٣٢٣) وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه، ووافقه الذهبى، وقال الشـــيخ: أحمـــد شـــاكر: صحيح، وقال الشيخ الألبانى: صحيح موقوفًا وأما المرفوع فضعيف.

(٥) **صحيح**: أخرجه ابن أبى شيبة فى "كتاب العرش" (١/ ١١٤) وانظر "موارد الظمآن" (٩٤) وأبو الشـــيخ فى "العظمة" (ص: ١١٢) حديث (٢٢٢).

❁ **قوله: وهو مستغن عن العرش وما دونه، محيط بكل شيء وفوقه، وقد أعجز عن الإحاطة خلقه:**

ش: أما قوله: وهو مستغن عن العرش وما دونه فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[1] وقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾[2] وإنما قال الشيخ، رحمه الله، هذا الكلام هنا لأنه لما ذكر العرش والكرسى ذكر بعد ذلك غناه سبحانه عن العرش وما دون العرش ليبين أن خلقه العرش لاستوائه عليه ليس لحاجته إليه بل له فى ذلك حكمة اقتضته، وكون العالى فوق السافل لا يلزم أن يكون السافل حاويا للعالى محيطا به حاملا له، ولا أن يكون الأعلى مفتقرا إليه، فانظر إلى السماء كيف هى فوق الأرض وليست مفتقرة إليها، فالرب تعالى أعظم شأنا وأجل من أن يلزم من علوه ذلك، بل لوازم علوه من خصائصه، وهى حمله بقدرته للسافل وفقر السافل وغناه هو سبحانه عن السافل، وإحاطته عز وجل به فهو فوق العرش مع حمله بقدرته للعرش وحملته، وغناه عن العرش وفقر العرش إليه، وإحاطته بالعرش وعدم إحاطة العرش به، وحصره للعرش وعدم حصر العرش له، وهذه اللوازم منتفية عن المخلوق.

ونفاة العلو أهل التعطيل لو فصلوا بهذا التفصيل لهدوا إلى سواء السبيل وعلموا مطابقة العقل للتنزيل ولسلكوا خلف الدليل ولكن فارقوا الدليل فضلوا عن سواء السبيل، والأمر فى ذلك كما قال الإمام مالك رحمه الله لما سئل عن قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾[3] وغيرها كيف استوى؟ فقال: الاستواء معلوم والكيف مجهول، ويروى هذا الجواب عن أم سلمة رضى الله عنها موقوفا ومرفوعا إلى النبى ﷺ.

وأما قوله: محيط بكل شيء وفوقه، وفى بعض النسخ: محيط بكل شيء فوقه، بحذف الواو من قوله فوقه، والنسخة الأولى هى الصحيحة ومعناها أنه تعالى محيط بكل شيء وفوق كل شيء، ومعنى الثانية أنه محيط بكل شيء فوق العرش، وهذه والله أعلم إما أن يكون أسقطها بعض النساخ سهوا ثم استنسخ بعض الناس من تلك النسخة، أو أن بعض المحرفين الضالين

(١) سورة العنكبوت الآية: ٦.
(٢) سورة فاطر الآية: ١٥.
(٣) سورة الأعراف الآية: ٥٤.

أسقطها قصدا للفساد وإنكارا لصفة الفوقية، وإلا فقد قام الدليل على أن العرش فوق المخلوقات وليس فوقه شيء من المخلوقات، فلا يبقى لقوله محيط بمعنى محيط بكل شيء فوق العرش والحالة هذه معنى، إذ ليس فوق العرش من المخلوقات ما يحيط به فتعين ثبوت الواو ويكون المعنى أنه سبحانه محيط بكل شيء وفوق كل شيء.

أما كونه محيطا بكل شيء فقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ﴾(١) ﴿ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطُۢ ﴾(٢) ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴾(٣) وليس المراد من إحاطته بخلقه أنه كالفلك وأن المخلوقات داخل ذاته المقدسة تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، وإنما المراد إحاطة عظمته وسعة علمه وقدرته وأنها بالنسبة إلى عظمته كخردلة، كما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: "ما السموات السبع والأرضون السبع وما فيهن وما بينهن فى يد الرحمن إلا كخردلة فى يد أحدكم" ومن المعلوم، ولله المثل الأعلى، أن الواحد منا إذا كان عنده خردلة، إن شاء قبضها وأحاط قبضته بها، وإن شاء جعلها تحته، وهو فى الحالين مباين لها عال عليها فوقها من جميع الوجوه، فكيف بالعظيم الذي لا يحيط بعظمته وصف واصف، فلو شاء لقبض السموات والأرض اليوم وفعل بها كما يفعل بها يوم القيامة فإنه لا يتجدد به إذ ذاك قدرة ليس عليها الآن، فكيف يستبعد العقل مع ذلك أنه يدنو سبحانه من بعض أجزاء العالم وهو على عرشه فوق سمواته، أو يدنى إليه من يشاء من خلقه فمن نفى ذلك لم يقدره حق قدره.

وفى حديث أبى رزين المشهور الذى رواه عن النبى ﷺ فى رؤية الرب تعالى فقال له أبو رزين: كيف يسعنا يا رسول الله وهو واحد ونحن جميع؟ فقال: "سأنبئك بمثل ذلك فى آلاء الله، هذا القمر، آية من آيات الله، كلكم يراه مخليا به، والله أكبر من ذلك، وإذا أفل تبين أنه أعظم وأكبر من كل شيء" فهذا يزيل كل إشكال ويبطل كل خيال.

---

(١) سورة البروج الآية: ٢٠.

(٢) سورة السجدة الآية: ٥٤.

(٣) سورة النساء الآية: ١٢٦.

وأما كونه فوق المخلوقات فقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾[١] ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾[٢] وقال ﷺ فى حديث الأوعال المتقدم ذكره: "والعرش فوق ذلك والله فوق ذلك كله"[٣].

وقد أنشد عبد الله بن رواحة شعره المذكور بين يدى النبى ﷺ وأقره على ما قال وضحك منه.

وكذا أنشده حسان بن ثابت، رضى الله تعالى عنه قوله:

شهدت بإذن الله أن محمدا
رسول الذى فوق السموات من عل
وأن أبا يحيى ويحيى كلاهما
له عمل من ربه متقبل
وأن الذى عادى اليهود ابن مريم
رسول أتى من عند ذى العرش مرسل
وأن أخا الأحقاف إذ قام فيهم
يجاهد فى ذات الإله ويعدل

فقال ﷺ "وأنا أشهد".

وعن أبى هريرة ﷺ عن النبى ﷺ أنه قال: "لما قضى الله الخلق كتب فى كتاب فهو عنده فوق العرش: إن رحمتى سبقت غضبى"[٤]، وفى رواية "تغلب غضبى" رواه البخارى وغيره.

وروى ابن ماجه عن جابر يرفعه قال: بينا أهل الجنة فى نعيمهم إذ سطع لهم نور فرفعوا إليه رءوسهم فإذا الجبار جل جلاله قد أشرف عليهم من فوقهم وقال: يا أهل الجنة سلام عليكم ثم

(١) سورة الأنعام الآية: ١٨.

(٢) سورة النحل الآية: ٥٠.

(٣) **ضعيف**: تقدم.

(٤) **صحيح**: أخرجه البخارى فى (٦/ ٤٢٦) حديث (٣١٩٤) ومسلم فى "كتاب التوبة" حديث (٢٧٥١) وابن ماجه فى "كتاب الزهد" حديث (٤٢٩٥) والبغوى فى "شرح السنة" حديث (٤١٧٦) وأحمد فى "المسند" حديث (٧٤٩١).

قرأ قوله تعالى: ﴿ سَلَٰمٌ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ﴾[١] فينظر إليهم وينظرون إليه فلا يلتفتـــون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه[٢].

وروى مسلم عن النـــبى ﷺ فى تفســير قولــه تعــالى: ﴿ هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ ﴾[٣] بقوله:

أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء وأنت الظاهر فليس فوقـــك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء[٤].

والمراد بالظهور هنا العلو، ومنه قوله تعالى: ﴿ فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ ﴾[٥] أى يعلوه.

فهذه الأسماء الأربعة متقابلة، اسمان منها لأزلية الرب سبحانه وتعالى وأبديته، واسمان لعلوه وقربه.

وروى أبو داود عن جبير بن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عـــن جـــده قـــال: أتـــى رسول الله ﷺ أعرابى فقال: يا رسول الله، جهدت الأنفس وضاعت العيال ونهكت الأمـــوال وهلكت الأنعام فاستسق الله لنا، نستشفع بك على الله ونستشفع بالله عليك، فقال رســول الله ﷺ: "ويحك أتدرى ما تقول؟" وسبح رسول الله ﷺ فما زال يسبح حتى عـــرف ذلـــك فى وجوه أصحابه، ثم قال: "ويحك، إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه، شأن الله أعظم مـــن ذلك، ويحك أتدرى ما الله؟ إن الله فوق عرشه وعرشه فوق سمواته" وقال بأصابعه مثل القبـــة عليه "وإنه ليئط به أطيط الرحل بالراكب"[٦].

---

(١) سورة يس الآية: ٥٨.

(٢) **ضعيف**: تقدم تخريجه.

(٣) سورة الحديد الآية: ٣.

(٤) **صحيح**: أخرجه مسلم، وتقدم تخريجه.

(٥) سورة الكهف الآية: ٩٧.

(٦) **ضعيف**: تقدم تخريجه.

وفى قصة سعد بن معاذ يوم بنى قريظة لما حكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم وتسبى ذراريهم فقال النبى ﷺ: "لقد حكمت فيهم بحكم الملك من فوق سبع سموات"[١] وهو حديث صحيح أخرجه الأموى فى مغازيه وأصله فى الصحيحين، وروى البخارى عن زينب رضى الله عنها أنها كانت تفخر على أزواج النبى ﷺ وتقول: "زوجكن أهاليكن وزوجنى الله من فوق سبع سموات"[٢] وعن عمر ﷺ أنه مر بعجوز فاستوقفته فوقف معها يحدثها فقال رجل: يا أمير المؤمنين، حبست الناس بسبب هذه العجوز! فقال: ويلك، أتدرى من هذه؟ امرأة سمع الله شكواها من فوق سبع سموات، هذه خولة التي أنزل الله فيها: ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾[٣] أخرجه الدارمى، وروى عكرمة عن ابن عباس فى قوله: ﴿ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ﴾[٤] قال: ولم يستطع أن يقول من فوقهم لأنه قد علم أن الله سبحانه من فوقهم.

ومن سمع أحاديث الرسول ﷺ وكلام السلف وجد منه فى إثبات الفوقية ما لا ينحصر، ولا ريب أن الله سبحانه لما خلق الخلق لم يخلقهم فى ذاته المقدسة تعالى الله عن ذلك فإنه الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد فتعين أنه خلقهم خارجا عن ذلك ولو لم يتصف سبحانه بفوقية الذات مع أنه قائم بنفسه غير مخالط للعالم لكان متصفا بضد ذلك لأن القابل للشىء لا يخلو منه أو من ضده وضد الفوقية السفول وهو مذموم على الإطلاق لأنه مستقر إبليس وأتباعه وجنوده.

فإن قيل: لا نسلم أنه قابل للفوقية حتى يلزم من نفيها ثبوت ضدها.

---

(١) **صحيح:** أخرجه البخارى فى "كتاب الجهاد والسير" حديث (٣٠٤٣) ومسلم فى "كتاب الجهاد والسير" حديث (١٧٦٨) وأحمد فى "المسند" حديث (٢٤١٧٧) دون لفظ "فوق سبع سموات" فإنها مما تفرد به محمد بن صالح التمار، ومثله لا يقبل تفرده.

(٢) **صحيح:** أخرجه البخارى فى "كتاب التوحيد" حديث (٧٤٢٠) والترمذى فى "كتاب التفسير" حديث (٣٢١٣) والنسائى فى "كتاب النكاح" حديث (٣٢٥٢) وانظر "تحفة الأشراف" حديث (١٧٩٩٩).

(٣) سورة المجادلة الآية: ١.

(٤) سورة الأعراف الآية: ١٧.

قيل: لو لم يكن قابلا للعلو والفوقية لم يكن له حقيقة قائمة بنفسها فمتى أقررتم بأنه ذات قائم بنفسه غير مخالط للعالم وأنه موجود فى الخارج ليس وجوده ذهنيا فقط بل وجوده خارج الأذهان قطعا وقد علم العقلاء كلهم بالضرورة أن ما كان وجوده كذلك فهو إما داخل العالم وإما خارج عنه، وانكار ذلك انكار ما هو أجلى وأظهر من الأمور البديهيات الضرورية بلا ريب فلا يستدل على ذلك بدليل إلا كان العلم بالمباينة أظهر منه وأوضح وأبين، وإذا كان صفة العلو والفوقية صفة كمال لا نقص فيه ولا يستلزم نقصا ولا يوجب محذورا ولا يخالف كتابا ولا سنة ولا إجماعا فنفى حقيقته يكون عين الباطل والمحال الذى لا تأتى به شريعة أصلا، فكيف إذا كان لا يمكن الإقرار بوجوده وتصديق رسله والإيمان بكتابه وبما جاء به رسوله إلا بذلك، فكيف إذا انضم إلى ذلك شهادة العقول السليمة والفطر المستقيمة والنصوص الواردة المتنوعة المحكمة على علو الله على خلقه وكونه فوق عباده التى تقرب من عشرين نوعا:

أحدها: التصريح بالفوقية مقرونا بأداة "من" المعينة للفوقية بالذات، كقوله تعالى: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾(١).

الثانى: ذكرها مجردة عن الأداة كقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾(٢).

الثالث: التصريح بالعروج إليه نحو: ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾(٣) وقوله ﷺ "يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم"(٤).

الرابع: التصريح بالصعود إليه كقوله تعالى: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴾(٥).

الخامس: التصريح برفعه بعض المخلوقات إليه كقوله تعالى: ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ﴾(٦) وقوله: ﴿ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ ﴾(٧).

---

(١) سورة النحل الآية: ٥٠.
(٢) سورة الأنعام الآية: ١٨.
(٣) سورة المعارج الآية: ٤.
(٤) **صحيح:** أخرجه البخارى فى "كتاب الصلاة" حديث (٥٥٥) ومسلم فى "كتاب المساجد" حديث (٦٣٢) والبغوى فى "شرح السنة" حديث ٣٨٠.
(٥) سورة فاطر الآية: ١٠.
(٦) سورة النساء الآية: ١٥٨.
(٧) سورة آل عمران الآية: ٥٥.

السادس: التصريح بالعلو المطلق والدال على جميع مراتب العلو ذاتا وقدرا وشرفا كقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾(١) ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾(٢) ﴿ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾(٣).

السابع: التصريح بتنزيل الكتاب منه كقوله تعالى: ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾(٤) ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ ﴾(٥) ﴿ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾(٦) ﴿ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾(٧) ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾(٨) ﴿ حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ ﴾(٩).

الثامن: التصريح باختصاص بعض المخلوقات بأنَّها عنده وأن بعضها أقرب إليه من بعض كقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ ﴾(١٠) ﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ ﴾(١١) ففرق بين "من له" عموما وبين "من عنده" من ملائكته وعبيده خصوصا.

وقول النبى ﷺ فى الكتاب الذى كتبه الرب تعالى على نفسه "أنه عنده فوق العرش"(١٢).

التاسع: التصريح بأنه تعالى فى السماء وهذا عند المفسرين من أهل السنة على أحد وجهين:

إما أن تكون "فى" بمعنى "على" وإما أن يراد بالسماء العلو، لا يختلفون فى ذلك ولا يجوز الحمل على غيره.

العاشر: التصريح بالاستواء مقرونا بأداة "على" مختصا بالعرش الذى هو أعلى المخلوقات مصاحبا فى الأكثر لأداة "ثم" الدالة على الترتيب والمهلة.

---

(١) سورة البقرة الآية: ٢٥٥.
(٢) سورة سبأ الآية: ٢٣.
(٣) سورة الشورى الآية: ٥١.
(٤) سورة غافر الآية: ٢.
(٥) سورة الزمر الآية الأولى.
(٦) سورة فصلت الآية: ٢.
(٧) سورة فصلت الآية ٤٢.
(٨) سورة النحل الآية: ١٠٢.
(٩) سورة الدخان الآيات من: ١: ٥.
(١٠) سورة الأعراف الآية: ٢٠٦.
(١١) سورة الأنبياء الآية: ١٩.
(١٢) **صحيح**: تقدم تخريجه.

الحادى عشر: التصريح برفع الأيدى إلى الله تعالى كقوله ﷺ "إن الله يستحيى من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفرا"(١).

والقول بأن العلو قبلة الدعاء فقط باطل بالضرورة والفطرة، وهذا يجده من نفسه كل داع، كما يأتى إن شاء الله تعالى.

الثانى عشر: التصريح بنزوله كل ليلة إلى سماء الدنيا والنزول المعقول عند جميع الأمم إنما يكون من علو إلى سفل.

الثالث عشر: الإشارة إليه حسا إلى العلو، كما أشار إليه من هو أعلم بربه وبما يجب له ويمتنع عليه من جميع البشر، لما كان بالمجمع الأعظم الذى لم يجتمع لأحد مثله فى اليوم الأعظم فى المكان الأعظم قال لهم: "أنتم مسئولون عنى، فماذا أنتم قائلون؟" قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فرفع إصبعه الكريمة إلى السماء رافعا لها إلى من هو فوقها وفوق كل شىء قائلا: "اللهم اشهد"(٢).

فكأنا نشاهد تلك الأصبع الكريمة وهى مرفوعة إلى الله وذلك اللسان الكريم وهو يقول لمن رفع إصبعه إليه "اللهم اشهد" ونشهد أنه بلغ البلاغ المبين وأدى رسالة ربه كما أمر ونصح أمته غاية النصيحة فلا يحتاج مع بيانه وتبليغه وكشفه وإيضاحه إلى تنطع المتنطعين وحذلقة المتحذلقين، والحمد لله رب العالمين.

الرابع عشر: التصريح بلفظ الأين كقول أعلم الخلق به وأنصحهم لأمته وأفصحهم بيانا عن المعنى الصحيح بلفظ لا يوهم باطلا بوجه "أين الله" فى غير موضع.

---

(١) **صحيح**: أخرجه أبو داود فى "كتاب الصلاة" حديث (١٤٨٨) والترمذى فى "كتاب الدعوات" حديث (٣٥٥٦) وابن ماجه فى "كتاب الدعاء" حديث (٣٨٦٥) قال الترمذى: هذا حديث حسن غريب ورواه بعضهم و لم يرفعه وصححه ابن حبان والحاكم، وقال الشيخ الألبانى: صحيح.

قلت: وهو كما قالوا، انظر "صحيح الترمذى" (٣/ ٤٦٣) حديث (٣٥٥٦) و"صحيح سنن ابن ماجه" حديث (٣٩٣٤).

(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم فى "كتاب الحج" حديث (١٢١٨) وأبو داود فى "كتاب المناسك" حديث (١٩٠٥) وابن ماجه فى "كتاب المناسك" حديث (٣١٣٠) وابن خزيمة حديث (٢٨٠٩).

الخامس عشر: شهادته ﷺ لمن قال إن ربه فى السماء بالإيمان.

السادس عشر: إخباره تعالى عن فرعون أنه رام الصعود إلى السماء ليطلع إلى إله موسى فيكذبه فيما أخبره من أنه سبحانه فوق السموات فقال: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ۝ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا ﴾[1] فمن نفى العلو من الجهمية فهو فرعونى، ومن أثبته فهو موسوى محمدى.

السابع عشر: إخباره ﷺ أنه تردد بين موسى عليه السلام وبين ربه ليلة المعراج بسبب تخفيف الصلاة فيصعد إلى ربه ثم يعود إلى موسى عدة مرار[2].

الثامن عشر: النصوص الدالة على رؤية أهل الجنة له تعالى من الكتاب والسنة وإخبار النبى ﷺ أنهم يرونه كرؤية الشمس والقمر ليلة البدر ليس دونه سحاب فلا يرونه إلا من فوقهم كما قال ﷺ "بينا أهل الجنة فى نعيمهم إذ سطع لهم نور فرفعوا رءوسهم فإذا الجبار جل جلاله قد أشرف عليهم من فوقهم وقال: يا أهل الجنة سلام عليكم، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿ سَلَـٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾[3] ثم يتوارى عنهم وتبقى رحمته وبركته عليهم فى ديارهم"[4] رواه الإمام أحمد فى المسند وغيره من حديث جابر رضي الله عنه.

ولا يتم إنكار الفوقية إلا بإنكار الرؤية ولهذا طرد الجهمية الشقين وصدق أهل السنة بالأمرين معا وأقروا بهما، وصار من أثبت الرؤية ونفى العلو مذبذبا بين ذلك، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.

وهذه الأنواع من الأدلة لو بسطت أفرادها لبلغت نحو ألف دليل، فعلى المتأول أن يجيب عن ذلك كله، وهيهات له بجواب صحيح عن بعض ذلك.

وكلام السلف فى إثبات صفة العلو كثير جدًّا، فمنه ما روى شيخ الإسلام أبو إسماعيل الأنصارى فى كتابه الفاروق بسنده إلى مطيع البلخى أنه سأل أبا حنيفة عمن قال: لا أعرف

---

(١) سورة غافر الآيتان: ٣٦، ٣٧.

(٢) **صحيح:** متفق عليه.

(٣) سورة يس الآية: ٥٨.

(٤) **ضعيف:** تقدم تخريجه.

ربى فى السماء أم فى الأرض؟ فقال: قد كفر، لأن الله يقول: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾[(١)] وعرشه فوق سبع سمواته، قلت: فإن قال: إنه على العرش ولكن يقول: لا أدرى العرش فى السماء أم فى الأرض؟ قال هو كافر، لأنه أنكر أنه فى السماء، فمن أنكر أنه فى السماء فقد كفر.

وزاد غيره لأن الله فى أعلى عليين، وهو يدعى من أعلى لا من أسفل. انتهى.

ولا يلتفت إلى من أنكر ذلك ممن ينتسب إلى مذهب أبى حنيفة فقد انتسب إليه طوائف معتزلة وغيرهم مخالفون له فى كثير من اعتقاداته، وقد ينتسب إلى مالك والشافعى وأحمد من يخالفهم فى بعض اعتقاداتهم.

وقصة أبى يوسف فى استتابة بشر المريسى لما أنكر أن يكون الله عز وجل فوق العرش مشهورة، رواها عبد الرحمن بن أبى حاتم وغيره.

ومن تأول "فوق" بأنه خير من عباده وأفضل منهم وأنه خير من العرش وأفضل منه كما يقال الأمير فوق الوزير، والدينار فوق الدرهم، فذلك مما تنفر عنه العقول السليمة وتشمئز منه القلوب الصحيحة، فإن قول القائل ابتداء: الله خير من عباده وخير من عرشه من جنس قوله الثلج بارد والنار حارة والشمس أضوأ من السراج والسماء أعلى من سقف الدار والجبل أثقل من الحصى ورسول الله أفضل من فلان اليهودى والسماء فوق الأرض وليس فى ذلك تمجيد ولا تعظيم ولا مدح بل هو من أرذل الكلام وأسمجه وأهجنه، فكيف يليق بكلام الله الذى لو اجتمع الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لما أتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا، بل فى ذلك تنقص كما قيل فى المثل السائر:

ألم تر أن السيف ينقص قدره   إذا قيل إن السيف أمضى من العصا

ولو قال قائل: الجوهر فوق قشر البصل وقشر السمك لضحك منه العقلاء للتفاوت الذي بينهما فإن التفاوت الذي بين الخالق والمخلوق أعظم وأعظم بخلاف ما إذا كان المقام يقتضى ذلك بأن كان احتجاجا على مبطل كما فى قول يوسف الصديق عليه السلام: ﴿ ءَأَرْبَابٌ

---

(١) سورة طه الآية: ٥.

مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾[١] وقوله تعالى: ﴿ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[٢] ﴿ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾[٣].

وإنما يثبت هذا المعنى من الفوقية فى ضمن ثبوت الفوقية المطلقة من كل وجه، فله سبحانه وتعالى فوقية القهر وفوقية القدر وفوقية الذات، ومن أثبت البعض ونفى البعض فقد تنقص، وعلوه تعالى مطلق من كل الوجوه، فإن قالوا: بل علو المكانة لا المكان فالمكانة تأنيث المكان والمنزلة تأنيث المنزل فلفظ المكانة والمنزلة تستعمل فى المكانات النفسانية والروحانية كما يستعمل لفظ المكان والمنزل فى الأمكنة الجسمانية، فإذا قيل لك: فى قلوبنا منزلة ومنزلة فلان فى قلوبنا وفى نفوسنا أعظم من منزلة فلان كما جاء فى الأثر "إذا أحب أحدكم أن يعرف كيف منزلته عند الله فلينظر كيف منزلة الله فى قلبه، فإن الله ينزل العبد من نفسه حيث أنزله العبد من قلبه"[٤]، فقوله: منزلة الله فى قلبه هو ما يكون فى قلبه من معرفة الله ومحبته وتعظيمه وغير ذلك، فإذا عرف أن المكانة والمنزلة تأنيث المكان والمنزل والمؤنث فرع على المذكر فى اللفظ والمعنى وتابع له فعلو المثل الذى يكون فى الذهن يتبع علو الحقيقة إذا كان مطابقا كان حقا وإلا كان باطلا، فإن قيل: المراد علوه فى القلوب وأنه أعلى فى القلوب من كل شىء، قيل: وكذلك هو، وهذا العلو مطابق لعلوه فى نفسه على كل شىء، فإن لم يكن عاليا بنفسه على كل شىء كان علوه فى القلوب غير مطابق كمن جعل ما ليس بأعلى أعلى.

وعلوه سبحانه وتعالى كما هو ثابت بالسمع ثابت بالعقل والفطرة.

أما ثبوته بالعقل فمن وجوه:

أحدها: العلم البديهى القاطع بأن كل موجودين إما أن يكون أحدهما ساريا فى الآخر قائما به كالصفات، وإما أن يكون قائما بنفسه بائنا من الآخر.

---

(١) سورة يوسف الآية: ٣٩.

(٢) سورة النمل الآية: ٥٩.

(٣) سورة طه الآية: ٧٣.

(٤) **ضعيف:** أخرجه الحاكم فى "المستدرك" (١/ ٤٩٤) قال الشيخ الألبانى: ضعيف.

قلت: وهو كما قال، فإن فيه عمر بن عبد الله مولى غفرة، قال فى "التقريب": ضعيف وكان كثير الإرسال.

الثاني: أنه لما خلق العالم فإما أن يكون خلقه فى ذاته أو خارجا عن ذاته، والأول باطل، أما أولا فبالاتفاق، وأما ثانيا فلأنه يلزم أن يكون محلا للخسائس والقاذورات، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، والثانى يقتضى كون العلم واقعا خارج ذاته فيكون منفصلا فتعينت المباينة، لأن القول بأنه غير متصل بالعالم وغير منفصل عنه غير معقول.

الثالث: أن كونه تعالى لا داخل العالم ولا خارجه يقتضى نفى وجوده بالكلية لأنه غير معقول، فيكون موجودا إما داخله وإما خارجه، والأول باطل فتعين الثانى فلزمت المباينة.

وأما ثبوته بالفطرة فإن الخلق جميعا بطباعهم وقلوبهم السليمة يرفعون أيديهم عند الدعاء ويقصدون جهة العلو بقلوبهم عند التضرع الى الله تعالى.

وذكر محمد بن طاهر المقدسى أن الشيخ أبا جعفر الهمدانى حضر مجلس الأستاذ أبى المعالى الجوينى، المعروف بإمام الحرمين، وهو يتكلم فى نفى صفة العلو ويقول: كان الله ولا عرش وهو الآن على ما كان، فقال الشيخ أبو جعفر: أخبرنا يا أستاذ عن هذه الضرورة التى نجدها فى قلوبنا، فإنه ما قال عارف قط يا الله إلا وجد فى قلبه ضرورة طلب العلو لا يلتفت يمنة ولا يسرة فكيف ندفع بهذه الضرورة عن أنفسنا؟ قال: فلطم أبو المعالى على رأسه ونزل، وأظنه قال: وبكى، وقال: حيرنى الهمدانى حيرنى، أراد الشيخ أن هذا أمر فطر الله عليه عباده من غير أن يتلقوه من المرسلين، يجدون فى قلوبهم طلبا ضروريا يتوجه إلى الله ويطلبه فى العلو.

وقد اعترض على الدليل العقلى بإنكار بداهته لأنه أنكره جمهور العقلاء، فلو كان بديهيا لما كان مختلفا فيه بين العقلاء بل هو قضية وهمية خيالية، والجواب عن هذا الاعتراض مبسوط فى موضعه ولكن أشير إليه هنا إشارة مختصرة، وهو أن يقال: إن العقل إن قبل قولكم فهو لقولنا أقبل، وإن رد العقل قولنا فهو لقولكم أعظم ردا، فإن كان قولنا باطلا فى العقل فقولكم أبطل وإن كان قولكم حقا مقبولا فى العقل فقولنا أولى أن يكون مقبولا فى العقل، فإن دعوى الضرورة مشتركة، فإنا نقول: نعلم بالضرورة بطلان قولكم وأنتم تقولون كذلك، فإذا قلتم: تلك الضرورة التى تحكم ببطلان قولنا هى من حكم الوهم لا من حكم العقل قابلناكم بنظير قولكم، وعامة فطر الناس ليسوا منكم ولا منا موافقون لنا على هذا، فإن كان حكم فطر بنى

آدم مقبولا ترجحنا عليكم وإن كان مردودا غير مقبول بطل قولكم بالكلية، فإنكم إنما بنيتم قولكم على ما تدعون أنه مقدمات معلومة بالفطرة الآدمية، وبطلت عقلياتنا أيضا وكان السمع الذى جاءت به الأنبياء معنا لا معكم، فنحن مختصون بالسمع دونكم والعقل مشترك بيننا وبينكم.

فإن قلتم: أكثر العقلاء يقولون بقولنا.

قيل: ليس الأمر كذلك، فإن الذين يصرحون بأن صانع العالم شىء موجود ليس فوق العالم وأنه لا مباين للعالم ولا حال فى العالم طائفة من النظار وأول من عرف عنه ذلك فى الإسلام جهم بن صفوان وأتباعه.

واعترض على الدليل الفطرى أن ذلك إنما لكون السماء قبلة للدعاء كما أن الكعبة قبلة للصلاة ثم هو منقوض بوضع الجبهة على الأرض مع أنه ليس فى جهة الأرض.

وأجيب على هذا الاعتراض من وجوه:

أحدها: أن قولكم إن السماء قبلة للدعاء لم يقله أحد من سلف الأمة ولا أنزل الله به من سلطان، وهذا من الأمور الشرعية الدينية، فلا يجوز أن يخفى على جميع سلف الأمة وعلمائها.

الثانى: أن قبلة الدعاء هى قبلة الصلاة فإن يستحب للداعى أن يستقبل القبلة، وكان النبى ﷺ يستقبل القبلة فى دعائه فى مواطن كثيرة، فمن قال: إن للدعاء قبلة غير قبلة الصلاة أو أن له قبلتين: إحداهما الكعبة والأخرى السماء فقد ابتدع فى الدين وخالف جماعة المسلمين.

الثالث: أن القبلة هى ما يستقبله العابد بوجهه كما تستقبل الكعبة فى الصلاة والدعاء والذكر والذبح، وكما يوجه المحتضر والمدفون ولذلك سميت وجهة، والاستقبال خلاف الاستدبار فالاستقبال بالوجه والاستدبار بالدبر، فأما ما حاذاه الإنسان برأسه أو يديه أو جنبه فهذا لا يسمى قبلة، لا حقيقة ولا مجازا فلو كانت السماء قبلة الدعاء لكان المشروع أن يوجه الداعى وجهه إليها، وهذا لم يشرع، والموضع الذى ترفع اليد اليه لا يسمى قبلة لا حقيقة ولا مجازا، ولأن القبلة فى الدعاء أمر شرعى تتبع فيه الشرائع ولم تأمر الرسل أن الداعى يستقبل السماء بوجهه بل نهوا عن ذلك، ومعلوم أن التوجه بالقلب واللجأ والطلب الذى يجده الداعى من نفسه أمر فطرى يفعله المسلم والكافر والعالم والجاهل، وأكثر ما يفعله المضطر والمستغيث

بالله كما فطر على أنه إذا مسه الضر يدعو الله مع أن أمر القبلة مما يقبل النسخ والتحويل، كما تحولت القبلة من الصخرة إلى الكعبة، وأمر التوجه فى الدعاء إلى الجهة العلوية مركوز فى الفطر، والمستقبل للكعبة يعلم أن الله تعالى ليس هناك بخلاف الداعى فإنه يتوجه إلى ربه وخالقه ويرجو الرحمة أن تنـــزل من عنده.

وأما النقض بوضع الجبهة فما أفسده من نقض، فإن واضع الجبهة إنما قصده الخضوع لمـــن فوقه بالذل له لا أن يميل إليه إذ هو تحته، هذا لا يخطر فى قلب ساجد، لكن يحكى عن بشـــــر المريسى أنه سُمع وهو يقول فى سجوده: سبحان ربى الأسفل، تعالى الله عما يقول الظـــالمون والجاحدون علوا كبيرا، وإن من أفضى به النفى إلى هذه الحال حرى أن يتزندق إن لم يتداركـه الله برحمته، وبعيد من مثله الصلاح، قال تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾(١) وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾(٢) فمن لم يطلب الاهتداء من مظانه يعاقب بالحرمان، نسأل الله العفو والعافية.

وقوله: وقد أعجز عن الإحاطة خلقه، أى لا يحيطون به علما ولا رؤية ولا غير ذلك مـــن وجوه الإحاطة بل هو سبحانه محيط بكل شىء، ولا يحيط به شىء.

❁ **قوله: ونقول: إن الله اتخذ ابراهيم خليلا وكلم الله موسى تكليمـــا، إيمانـــا وتصديقـــا وتسليما:**

ش: قال الله تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾(٣) وقال تعـالى: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾(٤) الخلة كمال المحبة، وأنكرت الجهمية حقيقة المحبة من الجانبين زعما منهم أن المحبـة لا تكون إلا لمناسبة بين المحب والمحبوب وأنه لا مناسبة بين القديم والمحدث توجب المحبة، وكذلك أنكروا حقيقة التكليم، كما تقدم، وكان أول من ابتدع هذا فى الإسلام هو الجعد بن درهـم فى

---

(١) سورة الأنعام الآية: ١١٠.

(٢) سورة الصف الآية: ٥.

(٣) سورة النساء الآية: ١٢٥.

(٤) سورة النساء الآية: ١٦٤.

أوائل المائة الثانية فضحى به خالد بن عبد الله القسرى[1] أمير العراق والمشرق بواسط، خطب الناس يوم الأضحى فقال: أيها الناس، ضحوا، تقبل الله ضحاياكم، فإنى مضح بالجعد بن درهم، إنه زعم أن الله لم يتخذ ابراهيم خليلا و لم يكلم موسى تكليما، ثم نزل فذبحه، وكان ذلك بفتوى أهل زمانه من علماء التابعين ﷺ فجزاه الله عن الدين وأهله خيرا.

وأخذ هذا المذهب عن الجعد الجهم بن صفوان فأظهره وناظر عليه، وإليه أضيف قول الجهمية فقتله مسلم بن أحوز أمير خراسان بها، ثم انتقل ذلك الى المعتزلة أتباع عمرو بن عبيد وظهر قولهم فى أثناء خلافة المأمون حتى امتحن أئمة الإسلام ودعوهم إلى الموافقة لهم على ذلك، وأصل هذا مأخوذ عن المشركين والصابئة وهم ينكرون أن يكون إبراهيم خليلا وموسى كليما لأن الخلة هى كمال المحبة المستغرقة للمحب، كما قيل:

قد تخللت مسلك الروح منى ولذا سمى الخليل خليلا

ولكن محبته وخلته كما يليق به تعالى كسائر صفاته، ويشهد لما دلت عليه الآية الكريمة ما ثبت فى الصحيح عن أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ قال: "لو كنت متخذا من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا، ولكن صاحبكم خليل الله"[2] يعنى نفسه، وفى رواية: "إنى أبرأ إلى كل خليل من خلته، ولو كنت متخذا من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا" وفى رواية: "إن الله اتخذنى خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا".

فبين ﷺ أنه لا يصلح له أن يتخذ من المخلوقين خليلا، وأنه لو أمكن ذلك لكان أحق الناس به أبو بكر الصديق، مع أنه ﷺ قد وصف نفسه بأنه يحب أشخاصا كقوله لمعاذ "والله إنى لأحبك"[3]، وكذلك قوله للأنصار، وكان زيد بن حارثة حب رسول الله ﷺ وابنه أسامة حبه، وأمثال ذلك، وقال له عمرو بن العاص: أى الناس أحب إليك؟ قال: "عائشة" قال: فمن

(١) هو: خالد بن عبد الله بن أسد البجلى القسرى الدمشقى.

(٢) **صحيح**: تقدم تخريجه.

(٣) **صحيح**: أخرجه أبو داود فى "كتاب الصلاة" حديث (١٥٢٢) والنسائى فى "كتاب السهو" حديث (١٣٠٣) وانظر "صحيح سنن أبى داود" حديث (١٥٢٢) و"صحيح سنن النسائى" (١/ ٤١٧) حديث (١٣٠٣).

الرجال، قال: "أبوها"(١) فعلم أن الخلة أخص من مطلق المحبة والمحبوب بها لكمالها يكون محبا لذاته لا لشيء آخر، إذ المحبوب لغيره هو مؤخر فى الحب عن ذلك الغير، ومن كمالها لا تقبل الشركة ولا المزاحمة، لتخللها المحبة، ففيها كمال التوحيد وكمال الحب، ولذلك لما اتخذ الله إبراهيم خليلا وكان إبراهيم قد سأل ربه أن يهب له ولدا صالحا فوهب له إسماعيل فأخذ هذا الولد شعبة من قلبه فغار الخليل على قلب خليله أن يكون فى مكان لغيره فامتحنه به بذبحه ليظهر سر الخلة فى تقديمه محبة خليله على محبة ولده، فلما استسلم لأمر ربه وعزم على فعله فظهر سلطان الخلة فى الإقدام على ذبح الولد إيثارا لمحبة خليله على محبته نسخ الله ذلك عنه وفداه بالذبح العظيم، لأن المصلحة فى الذبح كانت ناشئة من العزم وتوطين النفس على ما أمر، فلما حصلت هذه المصلحة عاد الذبح نفسه مفسدة فنسخ فى حقه وصارت الذبائح والقرابين من الهدايا والضحايا سنة فى أتباعه إلى يوم القيامة، وكما أن منزلة الخلة الثابتة لإبراهيم صلوات عليه قد شاركه فيها نبينا ﷺ كما تقدم، كذلك منزلة التكليم الثابتة لموسى صلوات الله عليه قد شارك فيها نبينا ﷺ كما ثبت ذلك فى حديث الإسراء.

وهنا سؤال مشهور وهو أن النبى ﷺ أفضل من إبراهيم عليه السلام فكيف طلب له من الصلاة مثل ما لإبراهيم مع أن المشبه به أصله أن يكون فوق المشبه وكيف الجمع بين هذين الأمرين المتنافيين؟ وقد أجاب عنه العلماء بأجوبة عديدة يضيق هذا المكان عن بسطها وأحسنها أن آل ابراهيم فيهم الأنبياء الذين ليس فى آل محمد مثلهم، فإذا طلب للنبى ﷺ ولآله من الصلاة مثل ما لإبراهيم وآله وفيهم الأنبياء حصل لآل محمد ما يليق بهم لأنهم لا يبلغون مراتب الأنبياء، وتبقى الزيادة التي للأنبياء وفيهم إبراهيم لمحمد ﷺ فيحصل له من المزية ما لم يحصل لغيره، وأحسن من هذا أن النبى ﷺ من آل إبراهيم، بل هو أفضل آل ابراهيم، فيكون قولنا: كما صليت على آل ابراهيم متناولا الصلاة عليه وعلى سائر النبيين من ذرية إبراهيم، وهو متناول لإبراهيم أيضا كما فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب فضائل أصحاب النبى ﷺ" حديث (٣٦٦٢) و(٤٣٥٨) ومسلم فى "كتاب فضائل الصحابة" حديث (٢٣٨٤) والترمذى فى "كتاب المناقب" حديث (٣٨٨٥) وانظر "تحفة الأشراف" حديث (١٠٧٣٨).

عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[١] فإبراهيم وعمران دخلا فى آل ابراهيم وآل عمران، وكما فى قوله تعالى: ﴿ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴾[٢] فإن لوطا داخل فى آل لوط، وكما فى قوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ ﴾[٣] وقوله: ﴿ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴾[٤] فإن فرعون داخل فى آل فرعون.

ولهذا والله أعلم أكثر روايات حديث الصلاة على النبى ﷺ إنما فيها كما صليت على آل إبراهيم، وفى كثير منها كما صليت على إبراهيم، ولم يرد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إلا فى قليل من الروايات، وما ذلك إلا لأن فى قوله: كما صليت على إبراهيم يدخل آله تبعا، وفى قوله: كما صليت على آل إبراهيم هو داخل فى آل إبراهيم، وكذلك لما جاء أبو أوفى ﷺ بصدقة إلى النبى ﷺ دعا له النبى ﷺ وقال: "اللهم صل على آل أبى أوفى"[٥]، ولما كان بيت إبراهيم، عليه السلام، أشرف بيوت العالم على الإطلاق خصهم الله بخصائص منها: أنه جعل فيه النبوة والكتاب، فلم يأت بعد إبراهيم نبى إلا من أهل بيته، ومنها: أنه سبحانه جعلهم أئمة يهدون بأمره إلى يوم القيامة، فكل من دخل الجنة من أولياء الله بعدهم، فإنما دخل من طريقهم وبدعوتهم، ومنها: أنه سبحانه اتخذ منهم الخليلين، كما تقدم ذكره، ومنها: أنه جعل صاحب هذا البيت إماما للناس، قال تعالى: ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[٦]، ومنها: أنه أجرى على يديه بناء بيته الذى جعله قياما للناس ومثابة للناس وأمنا، وجعله قبلة لهم وحجا، فكان ظهور هذا البيت فى الأكرمين، ومنها: أنه أمر عباده أن يصلوا على أهل البيت . . . إلى غير ذلك من الخصائص.

---

(١) سورة آل عمران الآية: ٣٣

(٢) سورة القمر الآية: ٣٤.

(٣) سورة البقرة الآية: ٤٩.

(٤) سورة غافر الآية: ٤٦.

(٥) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب الزكاة: حديث (١٤٩٧) وأطرافه فى (٤١٦٦، ٦٢٣٢) ومسلم فى "كتاب الزكاة" حديث (١٠٧٨) وأبو داود فى "كتاب الزكاة" (١٩٥٠) وابن ماجه فى "كتاب الزكاة" حديث (١٧٩٦).

(٦) سورة البقرة الآية: ١٢٤.

❁ قوله: ونؤمن بالملائكة والنبيين والكتب المنزلة على المرسلين، ونشهد أنهم كانوا على الحق المبين:

ش: هذه الأمور من أركان الإيمان، قال تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ﴾[1] الآيات، وقال تعالى: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾[2] الآية، فجعل الله سبحانه وتعالى الإيمان هو الإيمان بهذه الجملة، وسمى من آمن بهذه الجملة مؤمنين، كما جعل الكافرين من كفر بهذه الجملة بقوله: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴾[3].

وقال ﷺ في الحديث المتفق على صحته حديث جبرائيل وسؤاله للنبي ﷺ عن الإيمان فقال: "أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره" فهذه الأصول التي اتفقت عليها الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم وسلامه، ولم يؤمن بها حقيقة الإيمان إلا أتباع الرسل.

وأما أعداؤهم ومن سلك سبيلهم من الفلاسفة وأهل البدع فهم متفاوتون في جحدها وإنكارها، وأعظم الناس لها إنكارا الفلاسفة المسمون عند من يعظمهم بالحكماء فإن من علم حقيقة قولهم علم أنهم لم يؤمنوا بالله ولا رسله ولا كتبه ولا ملائكته ولا باليوم الآخر، فإن مذهبهم أن الله سبحانه موجود لا ماهية له ولا حقيقة فلا يعلم الجزئيات بأعيانها، وكل موجود في الخارج فهو جزئي ولا يفعل عندهم بقدرته ومشيئته وإنما العالم عندهم لازم له أزلا وأبدا وإن سموه مفعولا له، فمصانعة ومصالحة للمسلمين في اللفظ وليس عندهم بمفعول ولا مخلوق ولا مقدور عليه، وينفون عنه سمعه وبصره وسائر صفاته، فهذا إيمانهم بالله.

وأما كتبه عندهم فإنهم لا يصفونه بالكلام، فلا يكلم ولا يتكلم، ولا قال ولا يقول، والقرآن عندهم فيض فاض من العقل الفعال على قلب بشر زاكي النفس طاهر متميز عن النوع

---

(١) سورة البقرة الآية: ٢٨٥.

(٢) سورة البقرة الآية: ١٧٧.

(٣) سورة النساء الآية: ١٣٦.

الإنسانى بثلاث خصائص: قوة الإدراك وسرعته لينال من العلم أعظم ما يناله غيره وقوة النفس ليؤثر بها فى هيولى العالم يقلب صورة إلى صورة وقوة التخييل ليخيل بها القوى العقلية فى أشكال محسوسة، وهى الملائكة عندهم وليس فى الخارج ذات منفصلة تصعد وتنزل وتذهب وتجىء وترى وتخاطب الرسول، وإنما ذلك عندهم أمور ذهنية لا وجود لها فى الأعيان.

وأما اليوم الآخر فهم أشد الناس تكذيبا وإنكارا له فى الأعيان، وعندهم أن هذا العالم لا يخرب ولا تنشق السموات ولا تنفطر ولا تنكدر النجوم ولا تكور الشمس والقمر ولا يقوم الناس من قبورهم ويبعثون إلى جنة ونار، كل هذا عندهم أمثال مضروبة لتفهيم العوام لا حقيقة لها فى الخارج، كما يفهم منها أتباع الرسل.

فهذا إيمان هذه الطائفة الذليلة الحقيرة بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وهذه هى أصول الدين الخمسة.

وقد أبدلتها المعتزلة بأصولهم الخمسة التى هدموا بها كثيرا من الدين فإنهم بنوا أصل دينهم على الجسم والعرض الذى هو الموصوف والصفة عندهم، واحتجوا بالصفات التى هى الأعراض على حدوث الموصوف الذى هو الجسم وتكلموا فى التوحيد على هذا الأصل فنفوا عن الله كل صفة تشبيها بالصفات الموجودة فى الموصوفات التى هى الأجسام، ثم تكلموا بعد ذلك فى أفعاله التى هى القدر وسموا ذلك العدل، ثم تكلموا فى النبوة والشرائع والأمر والنهى والوعد والوعيد وهى مسائل الأسماء والأحكام التى هى المنزلة بين المنزلتين، ومسألة إنفاذ الوعيد، ثم تكلموا فى إلزام الغير بذلك الذى هو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وضمنوه جواز الخروج على الأئمة بالقتال.

فهذه أصولهم الخمسة التى وضعوها بإزاء أصول الدين الخمسة التى بعث بها الرسول ﷺ.

والرافضة المتأخرون جعلوا الأصول أربعة: التوحيد والعدل النبوة والإمامة.

وأصول أهل السنة والجماعة تابعة لما جاء به الرسول، وأصل الدين الإيمان بما جاء به الرسول، كما تقدم بيان ذلك.

ولهذا كانت الآيتان من آخر سورة البقرة لما تضمنتا هذا الأصل لهما شأن عظيم ليس لغيرهما، ففى الصحيحين عن أبى مسعود عقبة بن عمروعن النبى ﷺ قال: "من قرأ الآيتين من

آخر سورة البقرة فى ليلة كفتاه"[١]، وفى صحيح مسلم عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: بينا جبرائيل قاعد عند النبى ﷺ سمع نقيضا من فوقه فرفع رأسه فقال: هذا باب من السماء فُتح اليوم لم يُفتح قط إلا اليوم، فنزل منه ملك فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم، فسلم وقال: أبشر بنوريْن أُوتيتهما لم يؤتَهما نبى قبلك: فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منها إلا أوتيته[٢].

وقال أبو طالب المكى: أركان الإيمان سبعة، يعنى هذه الخمسة والإيمان بالقدر، والإيمان بالجنة والنار.

وهذا حق، والأدلة عليه ثابتة محكمة قطعية، وقد تقدمت الإشارة إلى دليل التوحيد والرسالة.

وأما الملائكة فهم الموكلون بالسموات والأرض فكل حركة فى العالم فهى ناشئة عن الملائكة كما قال تعالى: ﴿ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ۝ ﴾[٣] ﴿ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ﴾[٤] وهم الملائكة عند أهل الإيمان وأتباع الرسل، وأما المكذبون بالرسل المنكرون للصانع فيقولون: هى النجوم.

وقد دل الكتاب والسنة على أصناف الملائكة وأنّها موكلة بأصناف المخلوقات، وأنه سبحانه وكل بالجبال ملائكة، ووكل بالسحاب والمطر ملائكة، ووكل بالرحم ملائكة تدبر أمر النطفة حتى يتم خلقها، ثم وكل بالعبد ملائكة لحفظ ما يعمله وإحصائه وكتابته، ووكل بالموت ملائكة، ووكل بالسؤال فى القبر ملائكة، ووكل بالأفلاك ملائكة يحركونها، ووكل بالشمس والقمر ملائكة، ووكل بالنار وإيقادها وتعذيب أهلها وعمارتها ملائكة، ووكل بالجنة وعمارتها

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى فى: "كتاب البخارى" حديث (٤٠٠٨) وأطرافه فى (٥٠٠٨، ٥٠٠٩، ٥٠٤٠، ٥٠٥١) ومسلم فى "كتاب صلاة المسافرين" حديث (٨٠٨) وأبو داود فى "كتاب الصلاة" حديث (١٣٩٧) والترمذى (٢٨٨١) وابن ماجه (١٣٦١) والنسائى فى "عمل اليوم والليلة" (٧١٨، ٧١٩).

(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم فى "كتاب صلاة المسافرين" حديث (٨٠٦) والطبرانى فى "الكبير" حديث (١٢٢٥٥).

(٣) سورة النازعات الآية: ٥.

(٤) سورة الذاريات الآية: ٤.

وغرسها وعمل آلاتها ملائكة، فالملائكة أعظم جنود الله ومنهم: المرسلات عرفا، والناشرات نشرا، والفارقات فرقا، والملقيات ذكرا، ومنهم النازعات غرقا، والناشطات نشطا، والسابحات سبحا، فالسابقات سبقا، ومنهم الصافات صفا، فالزاجرات زجرا، فالتاليات ذكرا، ومعنى جمع التأنيث فى ذلك كله الفرق والطوائف والجماعات التى مفردها فرقة وطائفة وجماعة، ومنهم ملائكة الرحمة وملائكة العذاب وملائكة قد وكلوا بحمل العرش وملائكة قد وكلوا بعمارة السموات بالصلاة والتسبيح والتقديس، إلى غير ذلك من أصناف الملائكة التى لا يحصيها إلا الله، ولفظ المَلَك يشعر بأنه رسول منفذ لأمر مرسله فليس لهم من الأمر شيء بل الأمر كله للواحد القهار وهم ينفذون أمره ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴾[1] ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾[2] ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴾[3] ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[4] فهم عباد مكرمون منهم الصافون ومنهم المسبحون ليس منهم إلا له مقام معلوم ولا يتخطاه وهو على عمل قد أُمر به لا يقصر عنه ولا يتعداه، وأعلاهم الذين عنده ﴿ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝ ﴾[5] ورؤساؤهم الأملاك الثلاثة جبرائيل وميكائيل وإسرافيل الموكلون بالحياة، فجبرائيل موكل بالوحى الذى به حياة القلوب والأرواح، وميكائيل موكل بالقطر الذى به حياة الأرض والنبات والحيوان، وإسرافيل موكل بالنفخ فى الصور الذى به حياة الخلق بعد مماتهم فهم رسل الله فى خلقه وأمره وسفراؤه بينه وبين عباده ينزلون الأمر من عنده فى أقطار العالم ويصعدون إليه بالأمر، قد أطت السموات بهم وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك قائم أو راكع أو ساجد لله، ويدخل البيت المعمور منهم كل يوم سبعون ألفا لا يعودون إليه آخر ما عليهم، والقرآن مملوء بذكر الملائكة وأصنافهم ومراتبهم، فتارة يقرن الله تعالى اسمه باسمهم وصلاته بصلاتهم ويضيفهم إليه فى مواضع

(١) سورة الأنبياء الآية: ٢٧.
(٢) سورة البقرة الآية: ٢٥٥.
(٣) سورة الأنبياء الآية: ٢٨.
(٤) سورة النحل الآية: ٥٠.
(٥) سورة الأنبياء الآية: ١٩، ٢٠.

التشريف، وتارة يذكر حفهم بالعرش وحملهم له ومراتبهم من الدنو وتارة يصفهم بـــالإكرام والكرم والتقريب والعلو والطهارة والقوة والإخلاص، قال تعالى: ﴿ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ﴾(١) ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ ﴾(٢) ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾(٣) ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾(٤) ﴿ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾(٥) ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾(٦) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ﴾(٧) ﴿ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴾(٨) ﴿ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴾(٩) ﴿ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾(١٠) ﴿ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾(١١) ﴿ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾(١٢) وكذلك الأحاديث النبوية طافحة بذكرهم، فلـــهذا كان الإيمان بالملائكة أحد الأصول الخمسة التي هي أركان الإيمان.

وقد تكلم الناس في المفاضلة بين الملائكة وصالحي البشر، وينسب إلى أهل السنة تفضيـــل صالحي البشر والأنبياء فقط على الملائكة، وإلى المعتزلة تفضيل الملائكة، وأتباع الأشعري علـــى قولين: منهم من يفضل الأنبياء والأولياء ومنهم من يقف ولا يقطع في ذلك قولا، وحكى عـــن بعضهم ميلهم إلى تفضيل الملائكة، وحكى ذلك عن غيرهم من أهل السنة وبعض الصوفيـــة، وقالت الشيعة: إن جميع الأئمة أفضل من جميع الملائكة، ومن الناس من فصل تفصيلا آخـــر ولم يقل أحد ممن له قول يؤثر إن الملائكة أفضل من بعض، الأنبياء دون بعض وكنت تـــرددت في الكلام على هذه المسألة لقلة ثمرتها وأنها قريب مما لا يعني و "من حسن إسلام المرء تركه مـــا

---

(١) سورة البقرة الآية: ٢٨٥.
(٢) سورة آل عمران الآية: ١٨.
(٣) سورة الأحزاب الآية: ٤٣.
(٤) سورة غافر الآية: ٧.
(٥) سورة الزمر الآية: ٧٥.
(٦) سورة الأنبياء الآية: ٢٦.
(٧) سورة الأعراف الآية: ٢٠٦.
(٨) سورة فصلت الآية: ٣٨.
(٩) سورة الانفطارالآية: ١١.
(١٠) سورة عبس الآية: ١٦.
(١١) سورة المطففين الآية: ٢١.
(١٢) سورة الصافات الآية: ٨.

لا يعنيه"[1] والشيخ رحمه الله لم يتعرض إلى هذه المسألة بنفى ولا إثبات ولعله يكون قد تـرك الكلام فيها قصدًا فإن الإمام أبا حنيفة ﷺ وقف فى الجواب عنها على ما ذكره فى مآل الفتاوى فإنه ذكر مسائل لم يقطع أبو حنيفة فيها بجواب، وعد منها التفضيل بين الملائكة والأنبياء، وهذا هو الحق فإن الواجب علينا الإيمان بالملائكة والنبيين وليس علينا أن نعتقد أى الفريقين أفضـل، فإن هذا لو كان من الواجب لبين لنا نصا وقد قال تعـالى: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ ﴾[2] ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾[3] وفى الصحيح "إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، وحد حدودا فلا تعتدوها، وحرم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فـلا تسـألوا عنها"[4] فالسكوت عن الكلام فى هذه المسألة نفيا وإثباتا والحالة هذه أولى.

ولا يقال: إن هذه المسألة نظير غيرها من المسائل المستنبطة من الكتاب والسنة لأن الأدلـة هنا متكافئة على ما أشير إليه إن شاء الله تعالى، وحملنى على بسط الكلام هنا أن بعض الجاهلين يسيئون الأدب بقولهم كان الملك خادما للنبى ﷺ أو أن بعض الملائكة خدام بنى آدم، يعنـون الملائكة الموكلين بالبشر، ونحو ذلك من الألفاظ المخالفة للشرع المجانبة للأدب، والتفضيـل إذا كان على وجه التنقص أو الحمية والعصبية للجنس لا شك فى رده وليس هذه المسـألة نظـير المفاضلة بين الأنبياء، فإن تلك قد وجد فيها نص وهو قولـه تعـالى: ﴿ تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ ﴾[5] وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖ ﴾[6] وقـد تقدم الكلام فى ذلك عند قول الشيخ وسيد المرسلين يعنى النبى ﷺ والمعتبر رجحان الدليـل ولا يجهر القول لأن بعض أهل الأهواء وافق عليه بعد أن تكون المسألة مختلفا فيها بين أهل السـنة،

---

(١) **صحيح**: تقدم أخرجه.

(٢) سورة المائدة الآية: ٣.

(٣) سورة مريم الآية: ٦٤.

(٤) **حسن**: أخرجه الدارقطنى فى "كتاب الرضاع" (٤٣٥٠) والبيهقى فى "السنن الكبرى" حديث (١٩٧٢٥) وأبو نعيم فى "الحلية" حديث (١٢٨٩٧) وانظر "المطالب العالية" حديث (٣٢٢٣) و"المشكاة" حديـث (١٩٧) قال الشيخ الألبانى: حسن لغيره.

(٥) سورة البقرة الآية: ٢٥٣.

(٦) سورة الإسراء الآية: ٥٥.

وقد كان أبو حنيفة ﷺ يقول أولا بتفضيل الملائكة على البشر ثم قال بعكسه، والظاهر أن القول بالتوقف أحد أقواله، والأدلة فى هذه المسألة من الجانبين إنما تدل على الفضل لا على الأفضلية، ولا نزاع فى ذلك، وللشيخ تاج الدين الفزارى رحمه الله مصنف سماه الإشارة فى البشارة فى تفضيل البشر على الملك، قال فى آخره: اعلم أن هذه المسألة من بدع علم الكلام التى لم يتكلم فيها الصدر الأول من الأمة ولا من بعدهم من أعلام الأئمة ولا يتوقف عليها أصل من أصول العقائد ولا يتعلق بها من الأمور الدينية كبير من المقاصد، ولهذا خلا عنها طائفة من مصنفات هذا الشأن وامتنع من الكلام فيها جماعة من الأعيان، وكل متكلم فيها من علماء الظاهر بعلمه لم يخل كلامه عن ضعف واضطراب. انتهى والله الموفق للصواب.

فمما استدل به على تفضيل الأنبياء على الملائكة أن الله أمر الملائكة أن يسجدوا لآدم وذلك دليل على تفضيله عليهم ولذلك امتنع إبليس واستكبر وقال: ﴿ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ ﴾[1] قال الآخرون: إن سجود الملائكة كان امتثالا لأمر ربهم وعبادة وانقيادا وطاعة له وتكريما لآدم وتعظيما ولا يلزم من ذلك الأفضلية كما لم يلزم من سجود يعقوب لابنه عليهما السلام تفضيل ابنه عليه، ولا تفضيل الكعبة على بنى آدم بسجودهم إليها امتثالا لأمر ربهم، وأما امتناع إبليس فإنه عارض النص برأيه وقياسه الفاسد بأنه خير منه، وهذه المقدمة الصغرى والكبرى محذوفة تقديرها والفاضل لا يسجد للمفضول، وكلتا المقدمتين فاسدة، أما الأولى فإن التراب يفوق النار فى أكثر صفاته ولهذا خان إبليس عنصره فأبى واستكبر، فإن من صفات النار طلب العلو والخفة والطيش والرعونة وإفساد ما تصل إليه ومحقه وإهلاكه وإحراقه، ونفع آدم عنصره فى التوبة والاستكانة والانقياد والاستسلام لأمر الله والاعتراف وطلب المغفرة، فإن من صفات التراب الثبات والسكون والرصانة والتواضع والخضوع والخشوع والتذلل، وما دنا منه ينبت ويزكو وينمى ويبارك فيه ضد النار، وأما المقدمة الثانية وهى أن الفاضل لا يسجد للمفضول فباطلة فإن السجود طاعة لله وامتثال لأمره، ولو أمر الله عباده أن يسجدوا لحجر لوجب عليهم الامتثال والمبادرة، ولا يدل ذلك على أن المسجود له أفضل من الساجد وإن

(١) سورة الإسراء الآية: ٦٢.

كان فيه تكريمه وتعظيمه وإنما يدل على فضله، قالوا وقد يكون قولـــه: ﴿ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ ﴾(١) بعد طرده لامتناعه عن السجود له لا قبله فينتفى الاستدلال به.

ومنه أن الملائكة لهم عقول وليست لهم شهوات والأنبياء لهمعقول وشهوات فلما نـــهوا أنفسهم عن الهوى ومنعوها عما تميل إليه الطباع كانوا بذلك أفضل، وقال الآخرون يجـــوز أن يقع من الملائكة من مداومة الطاعة وتحمل العبادة وترك الونى والفتور فيها ما يفـــى بتجنـــب الأنبياء شهواتهم مع طول مدة عبادة الملائكة، ومنه أن الله تعالى جعل الملائكة رسلا إلى الأنبياء وسفراء بينه وبينهم، وهذا الكلام قد اعتل به من قال إن الملائكة أفضل واستدلالهم به أقوى فإن الأنبياء المرسلين إن ثبت تفضيلهم على المرسل إليهم بالرسالة ثبت تفضيل الرسل من الملائكـــة إليهم عليهم فإن الرسول الملكى يكون رسولا إلى الرسول البشرى.

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾(٢) الآيات، قال الآخرون وهذا دليل على الفضل لا على التفضيل، وآدم والملائكة لا يعلمون إلا ما علمهم الله، وليس الخضر أفضل مـــن موسى بكونه علم ما لم يعلمه موسى، وقد سافر موسى وفتاه فى طلب العلم إلى الخضر وتـــزود لذلك وطلب موسى منه العلم صريحا وقال له الخضر إنك على علم من علم الله. . . إلى آخـــر كلامه، ولا الهدهد أفضل من سليمان عليه السلام بكونه أحاط بما لم يحط به ســـليمان عليـــه السلام علما.

ومنه قوله تعالى: ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾(٣) قال الآخرون: هذا دليـــل الفضل لا الأفضلية وإلا لزم تفضيله على محمد ﷺ فإن قلتم هو من ذريته فمن ذريتـــــه الـــبر والفاجر، بل يوم القيامة إذا قيل لآدم ابعث من ذريتك بعثا إلى النار "يبعث من كـــــل ألـــف تسعمائة وتسعة وتسعين إلى النار وواحدا إلى الجنة"(٤) فما بال هذا التفضيل ســـرى إلى هـــذا الواحد من الألف فقط.

---

(١) سورة الإسراء الآية: ٦٢.

(٢) سورة البقرة الآية: ٣١.

(٣) سورة ص الآية: ٧٥.

(٤) أخرجه البخارى فى "كتاب أحاديث الأنبياء" حديث (٣٣٤٨) وأطرافه فى (٤٧٤١، ٦٥٣٠) ومسلم فى "كتاب الإيمان" حديث (٢٢٢).

ومنه قول عبد الله بن سلام ﷺ "ما خلق الله خلقا أكرم عليه من محمد ﷺ"[(١)] الحديث فالشأن فى ثبوته وإن صح عنه فالشأن فى ثبوته فى نفسه فإنه يحتمل أن يكون من الإسرائيليات.

ومنه حديث عبد الله بن عمرو ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "إن الملائكة قالت يا ربنا أعطيت بنى آدم الدنيا يأكلون فيها ويشربون ويلبسون ونحن نسبح بحمدك ولا نأكل ولا نشرب ولا نلهو، فكما جعلت لهم الدنيا فاجعل لنا الآخرة، قال: لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدى كمن قلت له كن فكان" أخرجه الطبرانى، وأخرجه عبد الله بن أحمد بن محمد بن حنبل عن عروة بن رويم أنه قال أخبرنى الأنصارى عن النبى ﷺ أن الملائكة قالوا. . . الحديث وفيه "وينامون ويستريحون فقال الله تعالى لا، فأعادوا القول ثلاث مرات، كل ذلك يقول لا".

والشأن فى ثبوتها فإن فى سنديهما مقالا وفى متنهما شيئا، فكيف يظن بالملائكة الاعتراض على الله مرات عديدة، وقد أخبر الله تعالى عنهم أنهم لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون، وهل يظن بهم أنهم متبرمون بأحوالهم متشوفون الى ما سواها من شهوات بنى آدم، والنوم أخو الموت فكيف يغبطونهم به وكيف يظن بهم أنهم يغبطونهم باللهو، وهو من الباطل[(٢)] قالوا: بل

---

(١) **صحيح**: أخرجه الحاكم فى "المستدرك" (٤/ ٥٦٨) وصححه ووافقه الذهبى.

(٢) هكذا أعل الشارح الحديث إسنادا ومتنا، وما أصاب فى ذلك السداد، إذ قصر فى تخريجه، أما رواية الطبرانى، فإنها ضعيفة حقا، بل غاية فى الضعف، فقد نقلها ابن كثير فى التفسير ٥: ٢٠٦ إسنادها من المعجم الكبير، وتقلها الهيثمى فى مجمع الزوائد ١: ٨٢، وقال "رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط، وفيه إبراهيم بن عبد الله بن خالد المصيصى، وهو كذاب متروك، وفى إسناد الأوسط طلحة بن زيد، وهو كذاب أيضا" فهذان إسنادان لا نعبأ بهما، ولكن الحديث رواه الإمام عثمان بن سعيد الدارمى فى كتابه الرد على المريسى ص٣٤، بإسناد صحيح، مطولا: رواه عن عبد الله بن صالح، عن الليث بن سعد، عن هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، وهذا إسناد لا مغمز فيه، وقد أشار إليه الحافظ ابن كثير فى التاريخ ١: ٥٥، مختصرا، من رواية عثمان بن سعيد، وأشار إلى صحته.

وأما رواية عبد الله بن أحمد بن حنبل: فإنها من زياداته فى "كتاب السنة" الذى رواه عن أبيه (ص: ١٤٨ من طبعة السلفية بمكة) فقال عبد الله: "حدثنى الهيثم بن خارجة، حدثنا عثمان بن علاق، وهو عثمان بن حصن بن علاق وكتب فى المطبوعة: محصن! خطأ، سمعت عروة بن رويم يقول: أخبرنى الأنصارى، عن النبى ﷺ . . ." فهذا إسناد ظاهره الصحة أيضا، وإن لم أستطع أن أجزم بذلك، لأن عروة بن رويم لم يصرح فيه بأن "الأنصارى" الذي حدثه به صحابى، فجهالة الصحابى لا تضر، وهو يروى عن أنس بن مالك الأنصارى، فإن يكنه يكن الإسناد صحيحا، وهذا محتمل جدا، وإن كنت لا أقطع به، فإن الحديث =

الأمر بالعكس فإن إبليس إنما سوس إلى آدم ودلاه بغرور إذ أطمعه فى أن يكون ملكا بقولـــه: ﴿ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴾[١] فدل أن أفضلية الملك أمر معلوم مستقر فى الفطرة، يشهد لذلك قوله تعالى حكاية عن النسوة اللاتى قطعن أيديهن عند رؤية يوسف: ﴿ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾[٢]، وقـــال تعـــالى: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ﴾[٣] قال الأولون: إن هذا إنما كان لما هو مركوز فى النفس أن الملائكة خلق جميل عظيـــم مقتدر على الأفعال الهائلة خصوصا العرب فإن الملائكة كانوا فى نفوسهم من العظمـــة بحيـــث قالوا: إن الملائكة بنات الله، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا، ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[٤]، قال الآخرون: قد يذكر العـــالمون ولا يقصد به العموم المطلق بل فى كل مكان بحسبه، كما فى قوله تعـــالى: ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾[٥] ﴿ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[٦] ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[٧] ﴿ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[٨].

= ذكره ابن كثير فى التفسير ٥: ٢٠٦، ٢٠٧، نقلا عن ابن عساكر، بإسناده إلى عثمان بن علاق: "سمعت عروة بن رويم اللخمى، حدثنى أنس بن مالك، عن النبى ﷺ . . ." فهذا قد يرجـــح أن "الأنصـــارى" فى رواية عبد الله بن أحمد: هو "أنس بن مالك الأنصارى" ولكن إسناد ابن عساكر لم يتبين لى صحته مـــن ضعفه.

وأيا ما كان، فرواية عبد الله بن أحمد، ورواية ابن عساكر تصلحان للاستشهاد، وتؤيدان صحة حديـــث عبد الله بن عمرو، بإسناد الدارمى.

أما إعلاله من جهة المتن والمعنى، فإنه غير جيد، ولا مقبول، فإن الملائكة لم يعترضوا بهذا على ربِّـــهم، ولم يتبرموا بأحوالهم، وإنما سألوا ربَّهم، وهم عباد مطيعون، يرضون بما أمرهم الرب تبـــارك وتعـــالى، إذا لم يستجب دعاءهم، ومثال ذلك الآيات فى خلق آدم فى أول سورة البقـــرة: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ الآيات من ٣٠: ٣٣.

(١) سورة الأعراف الآية: ٢٠.
(٢) سورة يوسف الآية: ٣١.
(٣) سورة الأنعام الآية: ٥٠.
(٤) سورة آل عمران الآية: ٣٣.
(٥) سورة الفرقان الآية الأولى.
(٦) سورة الحجر الآية: ٧٠.
(٧) سورة الشعراء الآية: ١٦٥.
(٨) سورة الدخان الآية: ٣٢.

ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ﴾(١) والبرية مشتقة من البرء بمعنى الخلق فثبت أن صالحى البشر خير الخلق، قال الآخرون: إنما صاروا خير البرية لكونهم آمنوا وعملوا الصالحات، والملائكة فى هذا الوصف أكمل، فإنَّهم لا يسأمون ولا يفترون، فلا يلزم أن يكونوا خيرًا من الملائكة، هذا على قراءة من قرأ "البريئة" بالهمز، وعلى قراءة من قرأ بالياء إن قلنا: إنَّها مخففة من الهمزة، وإن قلنا إنَّها نسبة إلى البر، وهو التراب، كما قاله الفراء فيما نقله عنه الجوهرى فى الصحاح، يكون المعنى أنَّهم خير من خلق من التراب، فلا عموم فيها، إذ الغير من خلق من التراب.

قال الأولون: إنما تكلمنا فى تفضيل صالحى البشر إذا كملوا ووصلوا إلى غايتهم وأقصى نهايتهم، وذلك إنما يكون إذا دخلوا الجنة ونالوا الزلفى وسكنوا الدرجات العلى وحباهم الرحمن بمزيد قربه وتجلى لهم ليستمتعوا بالنظر إلى وجهه الكريم.

وقال الآخرون: الشأن فى أنهم هل صاروا إلى حالة يفوقون فيها الملائكة أو يساوونهم فيها، فإن كان قد ثبت لهم أنهم يصيرون إلى حال يفوقون فيها الملائكة سلم المدعى وإلا فلا.

ومما استدل به على تفضيل الملائكة على البشر قوله تعالى: ﴿ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ ﴾(٢) وقد ثبت من طريق اللغة أن مثل هذا الكلام يدل على أن المعطوف أفضل من المعطوف عليه، لأنه لا يجوز أن يقال: لن يستنكف الوزير أن يكون خادما للملك ولا الشرطى أو الحارس، وإنما يقال: لن يستنكف الشرطى أن يكون خادما للملك ولا الوزير، ففى مثل هذا التركيب يترقى من الأدنى إلى الأعلى، فإذا ثبت تفضيلهم على عيسى، عليه السلام، ثبت فى حق غيره إذ لم يقل أحد: أنهم أفضل من بعض الأنبياء دون بعض، أجاب الآخرون بأجوبة أحسنها، أو من أحسنها: أنه لا نزاع فى فضل قوة الملك وقدرته وشدته وعظم خلقه، وفى العبودية خضوع وذل وانقياد، وعيسى، عليه السلام، لا يستنكف عنها، ولا من هو أقدر منه وأقوى وأعظم خلقا، ولا يلزم من مثل هذا التركيب الأفضلية المطلقة من كل وجه.

---

(١) سورة البينة الآية: ٧.

(٢) سورة النساء الآية: ١٧٢.

ومنه قوله تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ ﴾(١) ومثل هذا يقال بمعنى أني لو قلت ذلك لادعيت فوق منزلتي ولست ممن يدعى ذلك، أجاب الآخرون أن الكفار كانوا قد قالوا: ﴿ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ ﴾(٢) فأُمر أن يقول لهم إني بشر مثلكم أحتاج إلى ما يحتاج اليه البشر من الاكتساب والأكل والشرب لست من الملائكة الذين لم يجعل الله لهم حاجة الى الطعام والشراب فلا يلزم حينئذ الأفضلية المطلقة.

ومنه ما روى مسلم بإسناده عن أبي هريرةﷺ قال: قال رسول الله ﷺ "المؤمن القوى خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف، وفى كلٍّ خير"(٣) ومعلوم أن قوة البشر لا تدانى قوة الملك ولا تقاربُها.

قال الآخرون: الظاهر أن المراد المؤمن من البشر، والله أعلم، فلا تدخل الملائكة فى هذا العموم.

ومنه ما ثبت فى الصحيح عن أبي هريرةﷺ عن النبى ﷺ أنه قال فيما يروى عن ربه عز وجل قال: "يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدى بى، وأنا معه إذا ذكرنى، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى، وإن ذكرنى فى ملإ ذكرته فى ملأ خير منهم . . ."(٤) الحديث، وهذا نص فى الأفضلية، قال الآخرون يحتمل أن يكون المراد خيرا منه للمذكور لا الخيرية المطلقة.

ومنه ما رواه إمام الأئمة محمد بن خزيمة(٥) بسنده فى كتاب التوحيد عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ "بينا أنا جالس إذ جاء جبرائيل فوكز بين كتفى فقمت إلى شجرة مثل

---

(١) سورة الأنعام الآية: ٥٠.

(٢) سورة الفرقان الآية: ٧.

(٣) **صحيح**: أخرجه مسلم فى "كتاب القدر" حديث (٢٦٦٤).

(٤) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب التوحيد" حديث (٧٤٠٥) وطرفاه فى (٧٥٠٥، ٧٥٣٧) ومسلم فى "كتاب الذكر والدعاء" حديث (٢٦٧٥) والترمذى فى "كتاب الزهد" حديث (٢٣٨٨).

(٥) هو: محمد بن إسحاق بن خزيمة بن المغيرة بن صالح بن بكر، الحافظ الحجة الفقيه، شيخ الإسلام، إمام الأئمة، ولد سنة ٢٢٣هـ، قال الحافظ أبو على النيسابورى: لم أر أحدا مثل ابن خزيمة، توفى سنة ٣١٠هـ.

وكرى الطير، فقعد فى إحداها، وقعدت فى الأخرى، فسمت وارتفعت حتى سدت الخـــافقين، وأنا أقلب بصرى ولو شئت أن أمس السماء مسست، فنظرت إلى جبرائيل كأنه حلس لاطـئ فعرفت فضل علمه بالله على . . ."[١] الحديث، قال الآخرون: فى سنده مقـــال فـــلا نسـلم الاحتجاج به إلا بعد ثبوته.

وحاصل الكلام أن هذه المسألة من فضول المسائل ولهذا لم يتعرض لها كثير مــــن أهــل الأصول، وتوقف أبو حنيفة ﷺ فى الجواب عنها، كما تقدم، والله أعلم بالصواب.

وأما الأنبياء والمرسلون فعلينا الإيمان بمن سمى الله تعالى فى كتابه من رسله، والإيمان بأن الله تعالى أرسل رسلا سواهم وأنبياء لا يعلم أسماءهم وعددهم إلا الله تعالى الذى أرسلهم، فعلينـــا الإيمان بهم جملة لأنه لم يأت فى عددهم نص، وقد قال تعـالى: ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾[٢] وقال تعـالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾[٣] وعلينا الإيمان بأنهم بلغوا جميــــع مـــا أرسلوا به على ما أمرهم الله به، وأنهم بينوه بيانا لا يسع أحدا ممن أرسلوا إليه جهله ولا يحـل خلافه، قال تعالى: ﴿ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾[٤] ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ ﴾[٥] ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾[٦] ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ﴾[٧].

---

(١) **ضعيف**: أخرجه ابن خزيمة فى "كتاب التوحيد" (ص: ١٣٧) قال الشيخ أحمد شاكر: وإسناده صحيـــح، وقال الشيخ الألبانى: ضعيف.
قلت: وهو كما قال الشيخ الألبانى، وعلته الحارث بن عبيد الأيادى، ضعفه يحيى بن معين، وقال أحمـــد: مضطرب الحديث، وقال أبو حاتم والنسائى وابن عبد البر والذهبى: ليس بالقوى.

(٢) سورة النساء الآية: ١٦٤.

(٣) سورة غافر الآية: ٧٨.

(٤) سورة النحل الآية: ٣٥.

(٥) سورة النحل الآية: ٨٢.

(٦) سورة النور الآية: ٥٤.

(٧) سورة التغابن الآية: ١٢.

وأما أولو العزم من الرسل فقد قيل فيهم أقوال أحسنها ما نقله البغوى وغيره عن ابن عباس وقتادة أنهم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد، صلوات الله وسلامه عليهم، قال: وهم المذكورون فى قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ﴾[1] وفى قوله تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ﴾[2].

وأما الإيمان بمحمد ﷺ فتصديقه واتباع ما جاء به من الشرائع إجمالا وتفصيلا.

وأما الإيمان بالكتب المنزلة على المرسلين فنؤمن بما سمى الله تعالى منها فى كتابه من التوراة والإنجيل والزبور ونؤمن بأن لله تعالى سوى ذلك كتبا أنزلها على أنبيائه لا يعرف أسماءها وعددها إلا الله تعالى.

وأما الإيمان بالقرآن فالإقرار به واتباع ما فيه وذلك أمر زائد على الإيمان بغيره من الكتب، فعلينا الإيمان بأن الكتب المنزلة على رسل الله أتتهم من عند الله وأنها حق وهدى ونور وبيان وشفاء، قال تعالى: ﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا ﴾ إلى قوله: ﴿ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ ﴾[3] ﴿ الٓمٓ ۞ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۞ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾[4] ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ ﴾[5] ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴾[6] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تكلم بها وأنها نزلت من عنده، وفى ذلك إثبات صفة الكلام والعلو، وقال تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾[7] ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ ۞

---

(١) سورة الأحزاب الآية: ٧.

(٢) سورة الشورى الآية: ١٣.

(٣) سورة البقرة الآية: ١٣٦.

(٤) سورة آل عمران الآيات: ١: ٤.

(٥) سورة البقرة الآية: ٢٨٥.

(٦) سورة النساء الآية: ٨٢.

(٧) سورة البقرة الآية: ٢١٣.

﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾(١) ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ ﴾(٢) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾(٣) ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾(٤) ﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ﴾(٥) وأمثال ذلك فى القرآن كثيرة.

❁ **قوله: ونسمى أهل قبلتنا مسلمين مؤمنين ما داموا بما جاء به النبى ﷺ معترفين وله بكل ما قاله وأخبر مصدقين:**

ش: قال رسول الله ﷺ "من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فهو المسلم له ما لنا، وعليه ما علينا"(٦) ويشير الشيخ رحمه الله بهذا الكلام إلى أن الإسلام والإيمان واحد وأن المسلم لا يخرج من الإسلام بارتكاب الذنب ما لم يستحله.

والمراد بقوله: أهل قبلتنا من يدعى الإسلام ويستقبل الكعبة وإن كان من أهل الأهواء أو من أهل المعاصى ما لم يكذب بشىء مما جاء به الرسول ﷺ وسيأتى الكلام على هذين المعنيين عند قول الشيخ: ولا نكفر أحدا من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله، وعند قوله: والإسلام والإيمان واحد وأهله فى أصله سواء.

❁ **قوله: ولا نخوض فى الله ولا نمارى فى دين الله:**

ش: يشير الشيخ رحمه الله إلى الكف عن كلام المتكلمين الباطل وذم علمهم فإنهم يتكلمون فى الإله بغير علم وغير سلطان أتاهم ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾(٧) وعن أبى حنيفة رحمه الله أنه قال: لا ينبغى لأحد أن ينطق فى ذات الله بشىء بل يصفه بما وصف به نفسه، وقال بعضهم: الحق سبحانه يقول من ألزمته القيام مع

---

(١) سورة فصلت الآيتان: ٤١، ٤٢.
(٢) سورة سبأ الآية: ٦.
(٣) سورة يونس الآية: ٥٧.
(٤) سورة فصلت الآية: ٤٤.
(٥) سورة التغابن الآية: ٨.
(٦) **صحيح:** أخرجه البخارى فى "كتاب الصلاة" حديث (٣٩١).
(٧) سورة النجم الآية: ٢٣.

أسمائى وصفاتى ألزمته الأدب، ومن كشفت له حقيقة ذاتى ألزمته العطب، فـــاختر الأدب أو العطب، ويشهد لهذا أنه سبحانه لما كشف للجبل عن ذاته ساخ الجبل وتدكدك و لم يثبت على عظمة الذات.

قال الشبلى: الانبساط بالقول مع الحق ترك الأدب.

وقوله: ولا نمارى فى دين الله معناه لا نخاصم أهل الحق بإلقاء شبهات أهل الأهواء عليــهم التماسا لامترائهم وميلهم لأنه فى معنى الدعاء إلى الباطل وتلبيس الحق وإفساد دين الإسلام.

❁ قوله: ولا نجادل فى القرآن ونشهد أنه كلام رب العالمين، نزل به الروح الأمين، فعلمــه سيد المرسلين محمد ﷺ وهو كلام الله تعالى لا يساويه شىء مــــن كــلام المخلوقــين، ولا نقول بخلقه ولا نخالف جماعة المسلمين:

ش: فقوله: ولا نجادل فى القرآن يحتمل أنه أراد أنا لا نقول فيه كما قـــال أهـــل الزيـــغ واختلفوا وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق، بل نقول: إنه كلام رب العالمين نزل به الـــروح الأمين . . . إلى آخر كلامه، ويحتمل أنه أراد أنا لا نجادل فى القراءة الثابتة، بل نقرؤه بكل مـــا ثبت وصح، وكل من المعنيين حق، ويشهد بصحة المعنى الثانى ما روى عن عبد الله بن مســعود ﷺ أنه قال: سمعت رجلا قرأ آية سمعت رسول الله ﷺ يقرأ خلافها فأخذت بيده فانطلقت به إلى رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له فعرفت فى وجهه الكراهة وقـــال: "كلاكمـــا محســـن، لا تختلفوا، فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا"[(١)] رواه مسلم، نهى رســـول الله ﷺ عـــن الاختلاف الذى فيه جحد كل واحد من المختلفين ما مع صاحبه من الحق لأن كلا القــــارئين كان محسنا فيما قرأه، وعلل ذلك بأن من كان قبلنا اختلفوا فهلكوا ولهذا قـــال حذيفـــة ﷺ لعثمان ﷺ: أدرك هذه الأمة لا تختلف كما اختلفت الأمم قبلهم، فجمع الناس على حـــرف واحد اجتماعا سائغا، وهم معصومون أن يجتمعوا على ضلالة، و لم يكن فى ذلك ترك لواجـــب ولا فعل لمحظور إذ كانت قراءة القرآن على سبعة أحرف جائزة لا واجبة رخصة من الله تعـــالى،

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب الخصومات" حديث (٢٤١٠) وأحمد فى "المسند" حديـث (٤٣٦٤، ٣٩٠٧، ٣٧٢٤) ونسبة الكتاب لمسلم خطأ.

وقد جعل الاختيار إليهم فى أى حرف اختاروه، كما أن ترتيب السور لم يكن واجبا عليهم منصوصا، ولهذا كان ترتيب مصحف عبد الله على غير ترتيب المصحف العثمانى وكذلك مصحف غيره، وأما ترتيب آيات السور فهو ترتيب منصوص عليه، فلم يكن لهم أن يقدموا آية على آية بخلاف السور فلما رأى الصحابة أن الأمة تفترق وتختلف وتتقاتل إن لم تجتمع على حرف واحد جمعهم الصحابة عليه، هذا قول جمهور السلف من العلماء والقراء، قال ابن جرير وغيره: منهم من يقول إن الترخص فى الأحرف السبعة كان فى أول الإسلام لما فى المحافظة على حرف واحد من المشقة عليهم أولا فلما تذللت ألسنتهم بالقراءة وكان اتفاقهم على حرف واحد يسير عليهم وهو أوفق لهم أجمعوا على الحرف الذى كان فى العرضة الأخيرة وذهب طوائف من الفقهاء وأهل الكلام إلى أن المصحف يشتمل على الأحرف السبعة لأنه لا يجوز أن يهمل شىء من الأحرف السبعة، وقد اتفقوا على نقل المصحف العثمانى وترك ما سواه وقد تقدمت الإشارة إلى الجواب وهو أن ذلك كان جائزا لا واجبا أو أنه صار منسوخا، وأما من قال عن ابن مسعود إنه كان يجوز القراءة بالمعنى فقد كذب عليه وإنما قال قد نظرت إلى القراءة فرأيت قراءتهم متقاربة، وإنما هو كقول أحدكم هلم وأقبل وتعال، فاقرءوا كما علمتم، أو كما قال، والله تعالى قد أمرنا أن لا نجادل أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم فكيف بمناظرة أهل القبلة، فإن أهل القبلة من حيث الجملة خير من أهل الكتاب فلا يجوز أن يناظر من لم يظلم منهم إلا بالتى هى أحسن، وليس إذا أخطأ يقال إنه كافر قبل أن تقام عليه الحجة التى حكم الرسول بكفر من تركها والله تعالى قد عفا لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان، ولهذا ذم السلف أهل الأهواء وذكروا أن آخر أمرهم السيف، وسيأتى لهذا المعنى زيادة بيان إن شاء الله تعالى عند قول الشيخ: ونرى الجماعة حقا وصوابا والفرقة زيغا وعذابا.

وقوله: ونشهد أنه كلام رب العالمين، قد تقدم الكلام على هذا المعنى عند قوله: وأن القرآن كلام الله منه بدا بلا كيفية قولا.

وقوله: نزل به الروح الأمين، هو جبرائيل عليه السلام، سمى روحا لأنه حامل الوحى الذى به حياة القلوب إلى الرسل من البشر، صلوات الله عليهم أجمعين، وهو أمين حق أمين، صلوات

الله عليه، قال تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ۝ ﴾[1] وقال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۝ ﴾[2] وهذا وصف جبرائيل، بخلاف قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ﴾[3] الآيات، فإن الرسول هنا هو محمد ﷺ.

وقوله: فعلمه سيد المرسلين تصريح بتعليم جبرائيل إياه إبطالا لتوهم القرامطة وغيرهم أنه تصوره فى نفسه إلهاما.

وقوله: ولا نقول بخلقه ولا نخالف جماعة المسلمين تنبيه على أن من قال بخلق القرآن فقد خالف جماعة المسلمين، فإن سلف الأمة كلهم متفقون على أنه كلام الله بالحقيقة غير مخلوق بل قوله ولا نخالف جماعة المسلمين مجرى على إطلاقه أنَّا لا نخالف جماعة المسلمين فى جميع ما اتفقوا عليه فإن خلافهم زيغ وضلال وبدعة.

❁ قوله: ولا نكفر أحدا من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله، ولا نقول لا يضر مع الإيمان ذنب لمن عمله:

ش: أراد بأهل القبلة الذين تقدم ذكرهم فى قوله ونسمى أهل قبلتنا مسلمين مؤمنين ما داموا بما جاء به النبى ﷺ معترفين، وله بكل ما قال وأخبر مصدقين، يشير الشيخ رحمه الله بهذا الكلام إلى الرد على الخوارج القائلين بالتكفير بكل ذنب.

واعلم رحمك الله وإيانا أن باب التكفير وعدم التكفير باب عظمت الفتنة والمحنة فيه وكثر فيه الافتراق وتشتتت فيه الأهواء والآراء وتعارضت فيه دلائلهم فالناس فيه فى جنس تكفير أهل المقالات والعقائد الفاسدة المخالفة للحق الذى بعث الله به رسوله فى نفس الأمر أو المخالفة لذلك فى اعتقادهم على طرفين ووسط من جنس الاختلاف فى تكفير أهل الكبائر العملية.

فطائفة تقول: لا نكفر من أهل القبلة أحدًا، فتنفى التكفير نفيًا عامًّا، مع العلم بأن فى أهل القبلة المنافقين الذين فيهم من هو أكفر من اليهود والنصارى بالكتاب والسنة والإجماع

(١) سورة الشعراء الآيات: ١٩٣ : ١٩٥.
(٢) سورة التكوير الآيات: ١٩ : ٢١.
(٣) سورة الحاقة الآيتان: ٤٠، ٤١.

وفيهم من قد يظهر بعض ذلك حيث يمكنهم وهم يتظاهرون بالشهادتين، وأيضا فلا خلاف بين المسلمين أن الرجل لو أظهر إنكار الواجبات الظاهرة المتواترة والمحرمات الظاهرة المتواترة ونحو ذلك فإنه يستتاب فإن تاب وإلا قتل كافرا مرتدا، والنفاق والردة مظنتها البدع والفجور كما ذكره الخلال فى كتاب السنة بسنده إلى محمد بن سيرين أنه قال: إن أسرع الناس ردة أهل الأهواء، وكان يرى هذه الآية نزلت فيهم: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ﴾[1] ولهذا امتنع كثير من الأئمة عن إطلاق القول بأنا لا نُكَفِّر أحدًا بذنب، بل يقال: لا نكفرهم بكل ذنب كما تفعله الخوارج، وفرق بين النفى العام ونفى العموم، والواجب إنما هو نفى العموم مناقضة لقول الخوارج الذين يكفرون بكل ذنب، ولهذا والله أعلم قيده الشيخ، رحمه الله، بقوله: ما لم يستحله.

وفى قوله: ما لم يستحله إشارة إلى أن مراده من هذا النفى العام لكل ذنب من الذنوب العملية لا العلمية، وفيه إشكال، فإن الشارع لم يكتف من المكلف فى العمليات بمجرد العمل دون العلم ولا فى العلميات بمجرد العلم دون العمل، وليس العمل مقصوراً على عمل الجوارح بل أعمال القلوب أصل لعمل الجوارح وأعمال الجوارح تبع، إلا أن يضمن قوله: يستحله بمعنى يعتقده أو نحو ذلك.

وقوله: ولا نقول لا يضر مع الإيمان ذنب لمن عمله . . . إلى آخر كلامه، رد على المرجئة، فإنهم يقولون: لا يضر مع الإيمان ذنب، كما لا ينفع مع الكفر طاعة، فهؤلاء فى طرف والخوارج فى طرف، فإنهم يقولون: نُكَفِّرُ المسلمَ بكل ذنب أو بكل ذنب كبير، وكذلك المعتزلة الذين يقولون: يحبط إيمانه كله بالكبيرة فلا يبقى معه شىء من الإيمان، لكن الخوارج يقولون: يخرج من الإيمان ويدخل فى الكفر، والمعتزلة يقولون: يخرج من الإيمان ولا يدخل فى الكفر، وهذه المنزلة بين المنزلتين، وبقولهم بخروجه من الإيمان أوجبوا له الخلود فى النار، وطوائف من أهل الكلام والفقه والحديث لا يقولون ذلك فى الأعمال لكن فى الاعتقادات البدعية، وإن كان صاحبها متأولا فيقولون: يكفر كل من قال هذا القول، لا يفرقون بين المجتهد المخطئ

(١) سورة الأنعام الآية: ٦٨.

وغيره، أو يقولون: يكفر كل مبتدع، وهؤلاء يدخل عليهم فى هذا الإثبات العام أمور عظيمة، فإن النصوص المتواترة قد دلت على أنه يخرج من النار من فى قلبه مثقال ذرة من إيمان، ونصوص الوعد التى يحتج بها هؤلاء تعارض نصوص الوعيد التى يحتج بها أولئك، والكلام فى الوعيد مبسوط فى موضعه، وسيأتى بعضه عند الكلام على قول الشيخ: وأهل الكبائر فى النار لا يخلدون إذا ماتوا، وهم موحدون.

والمقصود هنا أن البدع هى من هذا الجنس فإن الرجل يكون مؤمنا باطنا وظاهرا، لكن تأول تأويلا أخطأ فيه، إما مجتهدا وإما مفرطا مذنبا، فلا يقال: إن إيمانه حبط لمجرد ذلك، إلا أن يدل على ذلك دليل شرعى، بل هذا من جنس قول الخوارج والمعتزلة: ولا نقول: لا يكفر بل العدل هو الوسط، وهو أن الأقوال الباطلة المبتدعة المحرمة المتضمنة نفى ما أثبته الرسول أو إثبات ما نفاه، أو الأمر بما نهى عنه أو النهى عما أمر به، يقال فيها الحق ويثبت لها الوعيد الذى دلت عليه النصوص، ويبين أنها كفر، ويقال: من قالها فهو كافر، ونحو ذلك، كما يذكر من الوعيد فى الظلم فى النفس والأموال، وكما قد قال كثير من أهل السنة المشاهير بتكفير من قال بخلق القرآن، وأن الله لا يرى فى الآخرة ولا يعلم الأشياء قبل وقوعها.

وعن أبى يوسف رحمة الله أنه قال: ناظرت أبا حنيفة، رحمه الله، مدة حتى اتفق رأيى ورأيه أن من قال بخلق القرآن فهو كافر، وأما الشخص المعين إذا قيل: هل تشهدون أنه من أهل الوعيد وأنه كافر، فهذا لا نشهد عليه إلا بأمر تجوز معه الشهادة، فإنه من أعظم البغى أن يشهد على معين أن الله لا يغفر له ولا يرحمه بل يخلده فى النار، فإن هذا حكم الكافر بعد الموت، ولهذا ذكر أبو داود فى سننه فى كتاب الأدب باب النهى عن البغى وذكر فيه عن أبى هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "كان رجلان فى بنى إسرائيل متواخيين، فكان أحدهما يذنب والآخر مجتهد فى العبادة، فكان لا يزال المجتهد يرى الآخر على الذنب فيقول: أقصر، فوجده يوما على ذنب فقال له: أقصر، فقال: خلنى وربى، أبعثت على رقيبا، فقال: والله لا يغفر الله لك، أو لا يدخلك الله الجنة، فقبض أرواحهما، فاجتمعا عند رب العالمين، فقال لهذا المجتهد: أكنت بى عالما، أو كنت على ما فى يدى قادرا، وقال للمذنب: اذهب فادخل الجنة برحمتى،

وقال للآخر: اذهبوا به إلى النار" قال أبو هريرة: والذى نفسى بيده لتكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته[1]، وهو حديث حسن، ولأن الشخص المعين يمكن أن يكون مجتهدا مخطئا مغفورا له، ويمكن أن يكون ممن لم يبلغه ما وراء ذلك من النصوص، ويمكن أن يكون له إيمان عظيم وحسنات أوجبت له رحمة الله، كما غفر للذى قال: إذا مت فاسحقونى ثم اذرونى[2]، ثم غفر الله له لخشيته، وكان يظن أن الله لا يقدر على جمعه وإعادته، أو شك فى ذلك، لكن هذا التوقف فى أمر الآخرة لا يمنعنا أن نعاقبه فى الدنيا لمنع بدعته وأن نستتيبه، فإن تاب وإلا قتلناه، ثم إذا كان القول فى نفسه كفرا قيل: إنه كفر، والقائل له يكفر بشروط وانتفاء موانع، ولا يكون ذلك إلا إذا صار منافقا زنديقا، فلا يتصور أن يكفر أحد من أهل القبلة المظهرين الإسلام إلا من يكون منافقا زنديقا، وكتاب الله يبين ذلك، فإن الله صنف الخلق فيه ثلاثة أصناف: صنف كفار من المشركين ومن أهل الكتاب، وهم الذين لا يقرون بالشهادتين، وصنف المؤمنون باطنا وظاهرا، وصنف أقروا به ظاهرا لا باطنا، وهذه الأقسام الثلاثة مذكورة فى أول سورة البقرة، وكل من ثبت أنه كافر فى نفس الأمر، وكان مقرا بالشهادتين فإنه لا يكون إلا زنديقا، والزنديق هو المنافق.

وهنا يظهر غلط الطرفين، فإنه من كفر كل من قال القول المبتدع فى الباطن يلزمه أن يكفر أقواما ليسوا فى الباطن منافقين، بل هم فى الباطن يحبون الله ورسوله، ويؤمنون بالله ورسوله، وإن كانوا مذنبين، كما ثبت فى صحيح البخارى عن أسلم مولى عمر ﷺ عن عمر أن رجلا كان على عهد النبى ﷺ كان اسمه عبد الله، وكان يلقب حمارا، وكان يضحك رسول الله ﷺ وكان رسول الله ﷺ قد جلده فى الشراب، فأتى به يوما فأمر به فجلد، فقال رجل من القوم: اللهم العنه، ما أكثر ما يؤتى به، فقال رسول الله ﷺ "لا تلعنه، فوالله ما علمت إنه يحب الله

(١) حسن: أخرجه أبو داود فى "كتاب الأدب" حديث (٤٩٠١) والتبريزى فى "مشكاة المصابيح" حديث (٢٣٤٧) قال الشيخ الألبانى: حسن.

قلت: وهو كما قال، وإن كان فيه عكرمة بن عمار.

(٢) **صحيح:** أخرجه البخارى فى "كتاب أحاديث الأنبياء" حديث (٣٤٧٨) ومسلم فى "كتاب التوبة" حديث (٢٧٥٧).

ورسوله"(١) وهذا أمر متيقن به فى طوائف كثيرة وأئمة فى العلم والدين، وفيهم بعض مقالات الجهمية أو المرجئة أو القدرية أو الشيعة أو الخوارج، ولكن الأئمة فى العلم والدين لا يكونون قائمين بجملة تلك البدعة بل بفرع منها، ولهذا انتحل أهل هذه الأهواء لطوائف من السلف المشاهير، فمن عيوب أهل البدع تكفير بعضهم بعضًا، ومن ممادح أهل العلم أنّهم يُخَطّئون ولا يُكَفّرون.

ولكن بقى هنا إشكال يرد على كلام الشيخ، رحمه الله، وهو أن الشارع قد سمى بعض الذنوب كفرا، قال الله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾(٢) وقال ﷺ : "سباب المسلم فسوق وقتاله كفر"(٣) متفق عليه من حديث ابن مسعود ﷺ، وقال: ﷺ "لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض"(٤) و "إذا قال الرجل لأخيه: يا كافر فقد باء بها أحدهما"(٥) متفق عليهما من حديث ابن عمرو رضى الله عنهما، وقال: ﷺ "أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر"(٦) متفق عليه من حديث عبد الله بن عمر، رضى الله عنهما، وقال ﷺ "لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن،

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب الحدود" حديث (٦٧٨٠) والبغوى فى "شرح السنة" كتاب الحدود، حديث: (٢٦٠٦).

(٢) سورة المائدة الآية: ٤٤.

(٣) أخرجه البخارى فى "كتاب الإيمان" حديث (٤٨) وطرفاه فى (٦٠٤٤، ٧٠٧٦) ومسلم فى "كتاب الإيمان" حديث (٦٤) وأحمد فى "المسند" حديث (٣٩٠٣، ٣٦٤٧، ٤١٢٦، ٤١٧٨، ٤٢٦٢، ٤٣٤٥) والنسائى فى "كتاب تحريم الدم" حديث (٤١٠٧) وابن ماجه فى "المقدمة" حديث (٦٩).

(٤) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب المغازى" حديث (٤٤٠٣) ومسلم فى "كتاب الإيمان" حديث (٦٦) وأبو داود فى "كتاب السنة" حديث (٤٦٨٦) وابن ماجه فى "سننه" حديث (٣٩٤٣).

(٥) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب الأدب" حديث (٦١٠٤) ومسلم فى "كتاب الإيمان" حديث (٦٠) والترمذى فى "كتاب الإيمان" حديث (٢٦٣٧) والطيالسى فى "مسنده" حديث (١٨٤٢) وأحمد فى "المسند" حديث (٥٠٣٥).

(٦) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب الإيمان" حديث (٣٤) وطرفاه فى (٢٤٥٩، ٣١٧٨) ومسلم فى "كتاب الإيمان" حديث (٥٨) وأبو داود فى "كتاب السنة" حديث (٤٦٨٨) والترمذى فى "كتاب الإيمان" حديث (٢٦٣٢) والنسائى فى "كتاب الإيمان" حديث (٥٠٢٠).

ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربُها وهو مؤمن، والتوبة معروضة بعد"[١] وقال ﷺ "بين المسلم وبين الكفر ترك الصلاة"[٢] رواه مسلم عن جابر ﷺ، وقال: ﷺ "من أتى كاهنًا فصدقه، أو أتى امرأة فى دبرها فقد كفر بما أُنزل على محمد"[٣] وقال: ﷺ "من حلف بغير الله فقد كفر"[٤] رواه الحاكم بهذا اللفظ، وقال ﷺ "ثنتان فى أمتى بهم كفرٌ: الطعن فى الأنساب، والنياحة على الميت"[٥] ونظائر ذلك كثيرة.

والجواب: أن أهل السنة متفقون كلهم على أن مرتكب الكبيرة لا يكفر كفرا ينقل عن الملة بالكلية كما قالت الخوارج، إذ لو كفر كفرا ينقل عن الملة لكان مرتدًا يُقتل على كل حال، ولا يقبل عفو ولى القصاص، ولا تجرى الحدود فى الزنا والسرقة وشرب الخمر، وهذا القول معلوم بطلانه وفساده بالضرورة من دين الإسلام، ومتفقون على أنه لا يخرج من الإيمان والإسلام ولا يدخل فى الكفر ولا يستحق الخلود مع الكافرين، كما قالت المعتزلة، فإن قولهم باطل أيضًا، إذ قد جعل الله مرتكب الكبيرة من المؤمنين، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَى ﴾ إلى أن قال: ﴿ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ ﴾[٦] فلم يخرج القاتل من الذين آمنوا وجعله أخا لولى القصاص، والمراد أخوة الدين بلا ريب، وقال تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ ﴾ إلى أن قال: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ ﴾[٧] ونصوص الكتاب والسنة والإجماع تدل على أن الزانى والسارق والقاذف لا يُقتل، بل يُقام عليه الحد، فدل على أنه ليس بمرتد، وقد

---

(١) **صحيح:** أخرجه البخارى فى "كتاب المظالم" حديث (٢٢٧٥) ومسلم فى "كتاب الإيمان" حديث (٥٧) وأبو داود حديث (٤٦٨٩) والترمذى حديث (٢٦٢٥).

(٢) **صحيح:** أخرجه مسلم فى "كتاب الإيمان" حديث (٨٢) وأبو داود فى "كتاب السنة" حديث (٤٦٧٨) وابن ماجه فى "كتاب إقامة الصلاة" حديث (١٠٨٠).

(٣) **صحيح:** أخرجه أبو داود فى "كتاب الطب" حديث (٣٩٠٤) والترمذى فى "كتاب الطهارة" حديث (٦٣٩) وأحمد فى "المسند" حديث (٩٢٦١) وانظر "صحيح سنن أبى داود" حديث (٣٩٠٤).

(٤) **صحيح:** تقدم تخريجه.

(٥) **صحيح:** أخرجه مسلم فى "كتاب الإيمان" حديث (٦٧) وأحمد فى "المسند" حديث (١٠٣٨٣).

(٦) سورة البقرة الآية: ١٧٨.

(٧) سورة الحجرات الآيتان: ٩، ١٠.

ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال: "من كانت عنده لأخيه اليوم مظلمة من عرض أو شىء فليتحلله منه اليوم قبل أن لا يكون درهم ولا دينار، إن كان له عمل صالح أُخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم يكن له حسنات أُخذ من سيئات صاحبه فطُرحت عليه ثم ألقى فى النار"[1] أخرجاه فى الصحيحين، فثبت أن الظالم يكون له حسنات يستوفى المظلوم منها حقه، وكذلك ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال: "ما تعدون المفلس فيكم؟" قالوا: المفلس فينا من لا له درهم ولا دينار، قال: "المفلس من أتى يوم القيامة وله حسنات أمثال الجبال، فيأتى وقد شتم هذا، وأخذ مال هذا، وسفك دم هذا، وقذف هذا، وضرب هذا، فيقتص هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإذا فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أُخذ من خطاياهم فطُرحت عليه ثم طُرح فى النار"[2] رواه مسلم، وقد قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ﴾[3] فدل ذلك على أنه فى حال إساءة يعمل حسنات تمحو سيئاته، وهذا مبسوط فى موضعه.

والمعتزلة موافقون للخوارج هنا فى حكم الآخرة، فإنهم وافقوهم على أن مرتكب الكبيرة مخلد فى النار، لكن قالت الخوارج: نسميه كافرًا، وقالت المعتزلة: نسميه فاسقًا، فالخلاف بينهم لفظى فقط، وأهل السنة أيضًا متفقون على أنه يستحق الوعيد المرتب على ذلك الذنب، كما وردت به النصوص، لا كما يقوله المرجئة من أنه لا يضر مع الإيمان ذنب ولا ينفع مع الكفر طاعة، وإذا اجتمعت نصوص الوعد التى استدلت بها المرجئة، ونصوص الوعيد التى استدلت بها الخوارج والمعتزلة تبين لك فساد القولين، ولا فائدة فى كلام هؤلاء سوى أنك تستفيد من كلام كل طائفة فساد مذهب الطائفة الأخرى.

ثم بعد هذا الاتفاق تبين أن أهل السنة اختلفوا خلافًا لفظيًا لا يترتب عليه فساد، وهو أنه هل يكون الكفر على مراتب، كفرًا دون كفر، كما اختلفوا هل يكون الإيمان على مراتب، إيمانًا دون إيمان؟ وهذا الاختلاف نشا من اختلافهم فى مسمى الإيمان، هل هو قول وعمل يزيد

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب المظالم" حديث (٢٤٤٩) والترمذى فى "كتاب صفة القيامة" حديث (٢٤١٩) وأحمد فى "المسند" حديث (١٠٥٢١، ٩٥٨١).

(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم فى "كتاب البر والصلة" حديث (٢٥٨١) والترمذى فى "كتاب صفة القيامة" حديث (٢٤٨١) وابن حبان حديث (٤٤١٧) والطبرانى فى "الأوسط" حديث (٢٧٩٩).

(٣) سورة هود الآية: ١١٤.

وينقص أم لا؟ بعد اتفاقهم على أن من سماه الله تعالى ورسوله كافرا نسميه كافرا، إذ من الممتنع أن يسمى الله سبحانه الحاكم بغير ما أنزل الله كافرا، ويسمى رسوله من تقدم ذكره كـــافرا، ولا نطلق عليهما اسم الكفر، ولكن من قال: إن الإيمان قول وعمل يزيد وينقـــص قال: هـــو كفر عملى لا اعتقادى، والكفر عنده على مراتب: كفر دون كفر كالإيمان عنده، ومن قال: إن الإيمان هو التصديق ولا يدخل العمل فى مسمى الإيمان، والكفر هـــو الجحـــود ولا يزيـــدان ولا ينقصان قال: هو كفر مجازى غير حقيقي، إذ الكفر الحقيقي هو الذي ينقل عـــن الملـــة، وكذلك يقول فى تسمية بعض الأعمـــال بالإيمـــان كقولـــه تعـــالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡ ﴾[١] أى صلاتكم إلى بيت المقدس أنها سميت إيمانا مجازا لتوقف صحتها عن الإيمان، أو لدلالتها على الإيمان إذ هى دالة على كون مؤديها مؤمنا، ولهذا يحكم بإسلام الكافر إذا صلـــى صلاتنا، فليس بين فقهاء الأمة نزاع فى أصحاب الذنوب إذا كانوا مقرين باطنا وظاهرا بما جاء به الرسول وما تواتر عنهم أنهم من أهل الوعيد ولكن الأقوال المنحرفة قول من يقول بتخليدهم فى النار كالخوارج والمعتزلة ولكن أردأ ما فى ذلك التعصب على من يضادهم وإلزامه لمن يخالف قوله بما لا يلزمه والتشنيع عليه وإذا كنا مأمورين بالعدل فى مجادلة الكافرين وأن يجادلوا بـــالتى هى أحسن فكيف لا يعدل بعضنا على بعض فى مثل هذا الخـــلاف قـــال تعـــالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ ﴾[٢].

وهنا أمر يجب أن يتفطن له وهو أن الحكم بغير ما أنزل الله قد يكون كفرا ينقل عن الملـــة وقد يكون معصية كبيرة أو صغيرة ويكون كفرا إما مجازيا وإما كفرا أصغر، علـــى القولـــين المذكورين، وذلك بحسب حال الحاكم فإنه إن اعتقد أن الحكم بما أنزل الله غير واجب وأنه مخير فيه أو استهان به مع تيقنه أنه حكم الله فهذا كفر أكبر، وإن اعتقد وجوب الحكم بما أنـــزل الله وعلمه فى هذه الواقعة وعدل عنه مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة فهذا عاص ويسمى كـــافرا كفرا مجازيا أو كفرا أصغر، وإن جهل حكم الله فيها مع بذل جهده واستفراغ وسعه فى معرفـــة الحكم وأخطأه فهذا مخطئ له أجر على اجتهاده وخطؤه مغفور.

---

(١) سورة البقرة الآية: ١٤٣.

(٢) سورة المائدة الآية: ٨.

وأراد الشيخ رحمه الله بقوله: ولا نقول لا يضر مع الإيمان ذنب لمن عمله مخالفة المرجئة وشبهتهم كانت قد وقعت لبعض الأولين فاتفق الصحابة على قتلهم إن لم يتوبوا من ذلك فإن قدامة بن عبد الله شرب الخمر بعد تحريمها هو وطائفة وتأولوا قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾[1] فلما ذكروا ذلك لعمر بن الخطاب ﷺ اتفق هو وعلى بن أبى طالب وسائر الصحابة على أنَّهم إن اعترفوا بالتحريم جُلدوا وإن أصروا على استحلالها قتلوا، وقال عمر لقدامة: أخطأت استك الحفرة، أما إنك لو اتقيت وآمنت وعملت الصالحات لم تشرب الخمر، وذلك أن هذه الآية نزلت بسبب أن الله سبحانه لما حرم الخمر _ وكان تحريمها بعد وقعة أحد قال بعض الصحابة: فكيف بأصحابنا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر، فأنزل الله هذه الآية يبين فيها أن من طعم الشىء فى الحال التى لم يحرم فيها فلا جناح عليه إذا كان من المؤمنين المتقين المصلحين، كما كان من أمر استقبال بيت المقدس، ثم إن أولئك الذين فعلوا ذلك يذمون على أنَّهم أخطأوا وأيسوا من التوبة، فكتب عمر إلى قدامة يقول له: ﴿حمٓ ۝ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ﴾[2] ما أدرى أى ذنبيك أعظم: استحلالك المحرم أولا، أم يأسك من رحمة الله ثانيا؟ وهذا الذى اتفق عليه الصحابة هو متفق عليه بين أئمة الإسلام.

❁ قوله: ونرجو للمحسنين من المؤمنين أن يعفو عنهم ويدخلهم الجنة برحمته، ولا نأمن عليهم ولا نشهد لهم بالجنة، ونستغفر لمسيئهم ونخاف عليهم ولا نقنطهم:

ش: وعلى المؤمن أن يعتقد هذا الذى قاله الشيخ رحمه الله فى حق نفسه وفى حق غيره، قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾[3] وقال تعالى: ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[4] وقال تعالى: ﴿ وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴾[5] ﴿ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾[6]

---

(١) سورة المائدة الآية: ٩٣.
(٢) سورة غافر الآيات: ١ : ٣.
(٣) سورة الإسراء الآية: ٥٧.
(٤) سورة آل عمران الآية: ١٧٥.
(٥) سورة البقرة الآية: ٤١.
(٦) سورة البقرة الآية: ٤٠.

﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى ﴾(١) ومدح أهل الخوف فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝ ﴾ إلى قوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾(٢).

وفى المسند والترمذى عن عائشة رضى الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾(٣) هو الذي يزنى ويشرب الخمر ويسرق؟ قال: "لا يا ابنة الصديق، ولكنه الرجل يصوم ويصلى ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه"(٤) قال الحسن ﷺ عملوا والله بالطاعات واجتهدوا فيها وخافوا أن ترد عليهم، إن المؤمن جمع إحسانا وخشية، والمنافق جمع إساءة وأمنا. انتهى. وقد قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(٥) فتأمل كيف جعل رجاءهم مع إيمانهم بهذه الطاعات، فالرجاء إنما يكون مع الإتيان بالأسباب التى اقتضتها حكمة الله تعالى شرعه وقدرته وثوابه وكرامته، ولو أن رجلا له أرض يؤمل أن يعود عليه من مغلها ما ينفعه فأهملها و لم يحرثها و لم يبذرها ورجا أنه أتى من مغلها مثل ما أتى من حرث وزرع وتعاهد الأرض لعده الناس من أسفه السفهاء، وكذا لو رجا وحسن ظنه أن يجيئه ولد من غير جماع، أو يصير أعلم أهل زمانه من غير طلب العلم وحرص تام، وأمثال ذلك، فكذلك من حسن ظنه وقوى رجاؤه فى الفوز بالدرجات العلى والنعيم المقيم من غير طاعة ولا تقرب إلى الله تعالى بامتثال أوامره واجتناب نواهيه.

ومما ينبغى أن يعلم أن من رجا شيئا استلزم رجاؤه أمورا:

أحدها: محبة ما يرجوه.

---

(١) سورة البقرة الآية: ١٥٠.

(٢) سورة المؤمنون الآيات: ٥٧ : ٦١.

(٣) سورة المؤمنون الآية: ٦٠.

(٤) **حسن:** أخرجه الترمذى فى "كتاب التفسير" حديث (٣١٧٥) وابن ماجه فى "كتاب الزهد" حديث (٤١٩٨) وأحمد فى "المسند" حديث (٢٥٥٨١) والحاكم فى "المستدرك" (٢/ ٣٩٣) والمذى فى "تهذيب الكمال" (١٧/ ١٤٦).

(٥) سورة البقرة الآية: ٢١٨.

الثاني: خوفه من فواته.

الثالث: سعيه في تحصيله بحسب الإمكان.

وأما رجاءٌ لا يقارنه شيء من ذلك فهو من باب الأماني، والرجاء شيء والأماني شيء آخر، فكل راج خائف، والسائر على الطريق إذا خاف أسرع السير مخافة الفوات، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾[1] فالمشرك لا ترجى له المغفرة لأن الله نفى عنه المغفرة، وما سواه من الذنوب في مشيئة الله، إن شاء الله غفر له وإن شاء عذب.

في معجم الطبراني: "الدواوين عند الله يوم القيامة ثلاثة دواوين: ديوان لا يغفر الله منه شيئًا، وهو الشرك بالله، ثم قرأ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ ﴾ وديوان لا يترك الله منه شيئًا، وهو مظالم العباد بعضهم بعضًا، وديوان لا يعبأ الله به، وهو ظلم العبد نفسه بينه وبين ربه"[2].

وقد اختلفت عبارات العلماء في الفرق بين الكبائر والصغائر، وستأتي الإشارة إلى ذلك عند قول الشيخ رحمه الله: وأهل الكبائر من أمة محمد في النار لا يخلدون، ولكن ثَمَّ أمر ينبغي التفطن له وهو أن الكبيرة قد يقترن بها من الحياء والخوف والاستعظام لها ما يلحقها بالصغائر، وقد يقترن بالصغيرة من قلة الحياء وعدم المبالاة وترك الخوف والاستهانة بِها ما يلحقها بالكبائر، وهذا أمر مرجعه إلى ما يقوم بالقلب، وهو قدر زائد على مجرد الفعل، والإنسان يعرف ذلك من نفسه وغيره.

وأيضا فإنه قد يعفى لصاحب الإحسان العظيم ما لا يعفى لغيره، فإن فاعل السيئات يسقط عنه عقوبة جهنم بنحو عشرة أسباب عُرفت بالاستقراء من الكتاب والسنة:

السبب الأول: التوبة: قال تعالى: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ ﴾[3] ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ ﴾[4] وغيرها، والتوبة النصوح وهي الخالصة لا يختص بِها ذنب دون ذنب، لكن هل تتوقف صحتها على أن تكون عامة حتى لو تاب من ذنب وأصر على آخر لا تقبل؟ والصحيح أنّها تقبل.

---

(١) سورة النساء الآية: ٤٨.

(٢) **ضعيف:** أخرجه أحمد في "المسند" حديث (٢٥٥٠٩) والحاكم في "المستدرك" كتاب الأهوال، حديث (٨٧١٧) ضعفه الذهبي والشيخ أحمد شاكر والشيخ الألباني.

قلت: وهو كما قالوا، فإن فيه صدقة بن موسى، ضعفوه، وابن بابنوس فيه جهالة.

(٣) سورة مريم الآية: ٦٠.

(٤) سورة البقرة الآية: ١٦٠.

وهل يَجُبُّ الإسلام ما قبله من الشرك وغيره من الذنوب، وإن لم يتب منها، أم لا بد مع الإسلام من التوبة من غير الشرك، حتى لو أسلم وهو مُصِرٌّ على الزنا وشرب الخمر مثلا، هل يؤاخذ بما كان منه فى كفره من الزنا وشرب الخمر أم لا بد أن يتوب من ذلك الذنب مع إسلامه أو يتوب توبة عامة من كل ذنب؟ وهذا هو الأصح أنه لا بد من التوبة مع الإسلام، وكون التوبة سببًا لغفران الذنوب وعدم المؤاخذة بها مما لا خلاف فيه بين الأمة، وليس شىء يكون سببًا لغفران جميع الذنوب إلا التوبة، قال تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[1] وهذا لمن تاب، ولهذا قال: ﴿ لَا تَقْنَطُواْ ﴾ وقال بعدها: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ .

السبب الثانى: الاستغفار: قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾[2] لكن الاستغفار تارة يذكر وحده وتارة يقرن بالتوبة، فإن ذكره وحده دخلت معه التوبة، كما إذا ذكرت التوبة وحدها شملت الاستغفار، فالتوبة تتضمن الاستغفار والاستغفار يتضمن التوبة وكل واحد منهما يدخل فى مسمى الآخر عند الإطلاق، وأما عند اقتران إحدى اللفظتين بالأخرى فالاستغفار طلب وقاية شر ما مضى والتوبة الرجوع وطلب وقاية شر ما يخافه فى المستقبل من سيئات أعماله، ونظير هذا الفقير والمسكين إذا ذكر أحد اللفظين شمل الآخر، وإذا ذكرا معا كان لكل منهما معنى، قال تعالى: ﴿ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ ﴾[3] ﴿ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ﴾[4] ﴿ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾[5] لا خلاف أن كل واحد من الاسمين فى هذه الآيات لما أفرد شمل المقل والمعدم، ولما قرن أحدهما بالآخر فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ ﴾[6] وكان المراد بأحدهما المقل والآخر المعدم على خلاف فيه، وكذلك الإثم والعدوان، والبر والتقوى، والفسوق والعصيان، ويقرب من هذا المعنى

---

(١) سورة الزمر الآية: ٥٣.

(٢) سورة الأنفال الآية: ٣٣.

(٣) سورة المائدة الآية: ٨٩.

(٤) سورة المجادلة الآية: ٤.

(٥) سورة البقرة الآية: ٢٧١.

(٦) سورة التوبة الآية: ٦٠.

الكفر والنفاق، فإن الكفر أعم، فإذا ذكر الكفر شمل النفاق، وإن ذكرا معًا كان لكل منهما معنًى، وكذلك الإيمان والإسلام على ما يأتى الكلام فيه إن شاء الله تعالى.

السبب الثالث: الحسنات: فإن الحسنة بعشر أمثالها، والسيئة بمثلها، فالويل لمن غلبت آحاده عشراته، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾[1] وقال ﷺ: "وأتبع السيئة الحسنة تمحها"[2].

والسبب الرابع: المصائب الدنيوية: قال ﷺ: "ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا غم ولا هم ولا حزن حتى الشوكة يشاكها إلا كُفِّرَ بها من خطاياه"[3] وفى المسند أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ قال أبو بكر: يا رسول الله، نزلت قاصمة الظهر، وأينا لم يعمل سوءًا؟ فقال: "يا أبا بكر، ألست تنصب؟ ألست تحزن؟ ألست يصيبك اللأواء؟ فذلك ما تُجزون به"[4] فالمصائب نفسها مكفرة، وبالصبر عليها يثاب العبد، وبالسخط يأثم، والصبر والسخط أمر آخر غير المصيبة، فالمصيبة من فعل الله لا من فعل العبد، وهى جزاء من الله للعبد على ذنبه، ويكفر ذنبه بها، وإنما يثاب المرء ويأثم على فعله، والصبر والسخط من فعله، وإن كان الأجر قد يحصل بغير عمل من العبد بل هديه من الغير أو فضلا من الله من غير سبب،

---

(١) سورة هود الآية: ١١٤.

(٢) **حسن:** أخرجه الترمذى فى "كتاب البر والصلة" حديث (١٩٨٧) وأحمد فى "المسند" حديث (٢١٢٥١، ٢١٢٩٧) والحاكم فى "المستدرك" حديث (١٧٨) قال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه، وقال الشيخ الألبانى: حديث حسن.

(٣) **صحيح:** أخرجه البخارى فى "كتاب المرضى" حديث (٥٦٤١) ومسلم فى "كتاب البر والصلة" حديث (٢٥٧٣) والترمذى فى "كتاب الجنائز" حديث (٩٦٦) وأحمد فى "المسند" حديث (١١٣٨٨، ١١٧٠٩).

(٤) قال الشيخ أحمد شاكر: حديث أبى بكر هذا فى المسند، برقم (٦٨) بشرحنا، ولكن أوله هناك أن أبا بكر قال: يا رسول الله، كيف الصلاح بعد هذه الآية؟ . . . فكل سوء عملناه جزينا به؟ ليس فيه قوله هنا: نزلت قاصمة الظهر . . . وهو حديث ضعيف، إسناده منقطع، وكان الأحدر بالشارح أن يذكر حديث أبى هريرة فى المسند (٧٣٨٠) أنه لما نزلت هذه الآية شقت على المسلمين، وبلغت منهم ما شاء الله أن تبلغ، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ ، فقال لهم: "قاربوا وسددوا، فكل ما يصاب به المسلم كفارة، حتى النكبة ينكبها" وهو حديث صحيح رواه مسلم فى صحيحه (٢/ ٢٨٢) وزاد فى آخره: "والشوكة يشاكها" ولو رجع الشارح، رحمه الله، إلى تفسير ابن كثير فى هذه الآية (٢/ ٥٨٦ : ٥٩٠) لوجد حديث أبى هريرة وأحاديث أخر فى معناه، بعضها أصح إسنادًا من حديث أبى بكر.

قال تعالى: ﴿ وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[١] فنفس المرض جزاء وكفارة لما تقدم، وكثيرا ما يفهم من الأجر: غفران الذنوب وليس ذلك مدلوله وإنما يكون من لازمه.

السبب الخامس: عذاب القبر: وسيأتى الكلام عليه إن شاء الله تعالى.

السبب السادس: دعاء المؤمنين واستغفارهم فى الحياة وبعد الممات.

السبب السابع: ما يُهدَى إليه بعد الموت من ثواب صدقة أو قراءة أو حج ونحو ذلك، وسيأتى الكلام على ذلك إن شاء الله تعالى.

السبب الثامن: أهوال يوم القيامة وشدائده.

السبب التاسع: ما ثبت فى الصحيحين أن المؤمنين إذا عبروا الصراط وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض، فإذا هُذبوا ونُقوا أُذن لهم فى دخول الجنة[٢].

السبب العاشر: شفاعة الشافعين، كما تقدم عند ذكر الشفاعة وأقسامها.

السبب الحادى عشر: عفو أرحم الراحمين من غير شفاعة، كما قال تعالى: ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾[٣]، فإن كان ممن لم يشأ الله أن يغفر له لعظم جرمه فلا بد من دخوله إلى الكير ليخلص طيب إيمانه من خبث معاصيه، فلا يبقى فى النار من فى قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان، بل من قال لا إله إلا الله، كما تقدم من حديث أنس ﷺ، وإذا كان الأمر كذلك امتنع القطع لأحد معين من الأمة غير من شهد له الرسول ﷺ بالجنة، ولكن نرجو للمحسنين ونخاف عليهم.

❁ **قوله: والأمن واليأس ينقلان عن ملة الإسلام وسبيل الحق بينهما لأهل القبلة:**

ش: يجب أن يكون العبد خائفا راجيا، فإن الخوف المحمود الصادق ما حال بين صاحبه وبين محارم الله، فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط، والرجاء المحمود رجاء رجل عمل بطاعة الله على نور من الله، فهو راج لثوابه، أو رجل أذنب ذنبا ثم تاب منه إلى الله فهو راج لمغفرته، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ

---

(١) سورة النساء الآية: ٤٠.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب المظالم" حديث (٢٤٤٠).

(٣) سورة النساء الآية: ٤٨.

﴿يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(١) أما إذا كان الرجل متماديا فى التفريط والخطايا يرجو رحمة الله بلا عمل فهذا هو الغرور والتمنى والرجاء الكاذب، قال أبــو على الروذبارى، رحمه الله: الخوف والرجاء كجناحى الطائر إذا استوى الطير وتم طيرانه، وإذا نقص أحدهمـا وقع فيه النقص، وإذا ذهبا صار الطائر فى حد الموت، وقد مدح الله أهل الخوف والرجاء بقوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾(٢) وقــال: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾(٣) فالرجاء يستلزم الخــوف، ولولا ذلك لكان أمنا، والخوف يستلزم الرجاء، ولولا ذلك لكان قنوطا ويأسا، وكل أحــد إذا خفته هربت منه، إلا الله تعالى، فإنك إذا خفته هربت إليه، فالخائف هارب من ربه إلى ربــه، وقال صاحب منازل السائرين، رحمه الله: الرجاء أضعف منازل المريد، وفى كلامه نظر، بــل الرجاء والخوف على الوجه المذكور من أشرف منازل المريد، وفى الصحيح عن النبى ﷺ: "يقول الله عز وجل: أنا عند ظن عبدى بى فليظن بى ما شاء"(٤) وفى صحيح مسلم عن جابر رضي الله عنه قـال: سمعت رسول الله ﷺ يقول قبل موته بثلاث: "لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه"(٥).

ولهذا قيل: إن العبد ينبغى أن يكون رجاؤه فى مرضه أرجح من خوفه، بخلاف زمن الصحة فإنه يكون خوفه أرجح من رجائه، وقال بعضهم: من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومــن عبده بالخوف وحده فهو حرورى، وروى ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبــده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحد.

ولقد أحسن محمود الوراق فى قوله:

لو قد رأيت الصغير من عمل الخـــ ـــير ثوابـا عجبـت مـن كبره

أو قد رأيت الحقير من عمل الشـــ ـــشر جـزاء أشفقت من حـذره

(١) سورة البقرة الآية: ٢١٨.
(٢) سورة الزمر الآية: ٩.
(٣) سورة السجدة الآية: ١٦.
(٤) **صحيح**: تقدم تخريجه.
(٥) **صحيح**: أخرجه مسلم فى "كتاب الجنة" حديث (٢٨٧٧) وأبــو داود فى "كتــاب الجنــائز" حديــث (٣١١٣) وابن ماجه فى "كتاب الزهد" حديث (٤١٦٧) وانظر صحيح سنن أبى داود، حديث (٣١١٣) وصحيح سنن ابن ماجه، حديث (٣٣٧٨)

❁ قوله: ولا يخرج العبد من الإيمان إلا بجحود ما أدخله فيه:

ش: يشير الشيخ إلى الرد على الخوارج والمعتزلة فى قولهم بخروجه من الإيمان بارتكاب الكبيرة، وفيه تقرير لما قال أولا: لا نكفر أحدا من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله، وتقدم الكلام على هذا المعنى.

❁ قوله: والإيمان هو الإقرار باللسان والتصديق بالجنان وجميع ما صح عن رسول الله ﷺ من الشرع والبيان كله حق، والإيمان واحد، وأهله فى أصله سواء، والتفاضل بينهم بالخشية والتقى ومخالفة الهوى وملازمة الأولى:

ش: اختلف الناس فيما يقع عليه اسم الإيمان اختلافا كثيرا، فذهب مالك والشافعى وأحمد والأوزاعى وإسحاق بن راهويه وسائر أهل الحديث وأهل المدينة، رحمهم الله، وأهل الظاهر وجماعة من المتكلمين إلى أنه تصديق بالجنان وإقرار باللسان وعمل بالأركان، وذهب كثير من أصحابنا إلى ما ذكره الطحاوى، رحمه الله، أنه الإقرار باللسان والتصديق بالجنان، ومنهم من يقول: إن الإقرار باللسان ركن زائد، ليس بأصلى، وإلى هذا ذهب أبو منصور الماتريدى، رحمه الله، ويروى عن أبى حنيفة رضي الله عنه، وذهب الكرامية إلى أن الإيمان هو الإقرار باللسان فقط، فالمنافقون عندهم مؤمنون كاملو الإيمان، ولكنهم يقولون بأنهم يستحقون الوعيد الذي أوعدهم الله به، وقولهم ظاهر الفساد، وذهب الجهم بن صفوان وأبو الحسن الصالحى، أحد رؤساء القدرية إلى أن الإيمان هو المعرفة بالقلب، وهذا القول أظهر فسادا مما قبله، فإن لازمه أن فرعون وقومه كانوا مؤمنين، فإنهم عرفوا صدق موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام ولم يؤمنوا بهما، ولهذا قال موسى لفرعون: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ ﴾[1] وقال تعالى: ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[2] وأهل الكتاب كانوا يعرفون النبى ﷺ كما يعرفون أبناءهم، ولم يكونوا مؤمنين به، بل كافرين به معادين له، وكذلك أبو طالب عنده يكون مؤمنا، فإنه قال:

ولقد علمت بأن دين محمد　　من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذار مسبة　　لوجدتنى سمحا بذاك مبينا

---

(١) سورة الإسراء الآية: ١٠٢.

(٢) سورة النمل الآية: ١٤.

بل إبليس يكون عند الجهم مؤمنا كامل الإيمان، فإنه لم يجهل ربه، بل هو عارف به ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾(١) ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى ﴾(٢) ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾(٣) والكفر عند الجهم هو الجهل بالرب تعالى، ولا أحد أجهل منه بربه، فإنه جعله الوجود المطلق وسلب عنه جميع صفاته، ولا جهل أكبر من هذا، فيكون كافرا بشهادته على نفسه.

وبين هذه المذاهب مذهب آخر بتفاصيل وقيود أعرضت عن ذكرها اختصارا، ذكر هذه المذاهب أبو المعين النسفى فى تبصرة الأدلة وغيره.

وحاصل الكل يرجع إلى أن الإيمان إما أن يكون ما يقوم به القلب واللسان وسائر الجوارح، كما ذهب إليه جمهور السلف من الأئمة الثلاثة وغيرهم، رحمهم الله، كما تقدم، أو بالقلب واللسان دون الجوارح، كما ذكره الطحاوى عن أبى حنيفة وأصحابه، رحمهم الله، أو باللسان وحده، كما تقدم ذكره عن الكرامية، أو بالقلب وحده، وهو إما المعرفة، كما قاله الجهم، أو التصديق كما قاله أبو منصور الماتريدى، رحمه الله.

وفساد قول الكرامية والجهم بن صفوان ظاهر.

والاختلاف الذى بين أبى حنيفة والأئمة الباقين من أهل السنة اختلاف صورى، فإن كون أعمال الجوارح لازمة لإيمان القلب أو جزءا من الإيمان، مع الاتفاق على أن مرتكب الكبيرة لا يخرج من الإيمان، بل هو فى مشيئة الله، إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه، نزاع لفظى لا يترتب عليه فساد اعتقاد، والقائلون بتكفير تارك الصلاة ضموا إلى هذا الأصل أدلة أخرى، وإلا فقد نفى النبى ﷺ الإيمان عن الزانى والسارق وشارب الخمر والمنتهب، ولم يوجب ذلك زوال اسم الإيمان عنهم بالكلية اتفاقا، ولا خلاف بين أهل السنة أن الله تعالى أراد من العباد القول والعمل، وأعنى بالقول التصديق بالقلب والإقرار باللسان، وهذا الذى يعنى به عند إطلاق قولهم: الإيمان قول وعمل، لكن هذا المطلوب من العباد هل يشمله اسم الإيمان أم الإيمان

---

(١) سورة الحجر الآية: ٣٦.

(٢) سورة الحجر الآية: ٣٩.

(٣) سورة ص الآية: ٨٢.

أحدهما؟ وهو القول وحده، والعمل مغاير له، لا يشمله اسم الإيمان عند إفراده بـــالذكر، وإن أطلق عليهما كان مجازا؟ هذا محل النـــزاع.

وقد أجمعوا على أنه لو صدق بقلبه وأقر بلسانه وامتنع عن العمل بجوارحه أنه عـــاص لله ورسوله، مستحق للوعيد، لكن فيمن يقول: إن الأعمال غير داخلة فى مسمى الإيمان من قـــال: لما كان الإيمان شيئا واحدا فإيمانى كإيمان أبى بكر الصديق وعمر رضى الله عنهما، بـــل قـــال: كإيمان الأنبياء والمرسلين وجبرائيل وميكائيل عليهم السلام، وهذا غلو منه، فإن الكفر مع الإيمان كالعمى مع البصر، ولا شك أن البصراء يختلفون فى قوة البصر وضعفه، فمنـــهم: الأخفـــش والأعشى، ومن يرى الخط الثخين دون الدقيق إلا بزجاجة ونحوها، ومن يرى عن قرب زائـــد على العادة وآخر بضده.

ولهذا والله أعلم قـــال الشيخ، رحمه الله: وأهله فى أصله سواء، يشير إلى أن التساوى إنمـــا هو فى أصله، ولا يلزم منه بالتساوى من كل وجه بل تفاوت درجات نـــور لا إلـــه إلا الله فى قلوب أهلها لا يحصيها إلا الله تعالى، فمن الناس من نور لا إله إلا الله فى قلبه كالشمس، ومنهم من نورها فى قلبه كالكوكب الدرى، وآخر كالمشعل العظيم، وآخر كالسراج المضىء، وآخـــر كالسراج الضعيف، ولهذا تظهر الأنوار يوم القيامة بأيمانهم وبين أيديهم على هذا المقدار بحسب ما فى قلوبهم من نور الإيمان والتوحيد علما وعملا، وكلما اشتد نور هذه الكلمـــة وعظـــم أحرق من الشبهات والشهوات بحسب قوته بحيث إنه ربما وصل إلى حال لا يصادف شهوة ولا شبهة ولا ذنبا إلا أحرقه، وهذه حال الصادق فى توحيده، فسماء إيمانه قد حرس بالرجوم مـــن كل سارق، ومن عرف هذا عرف معنى قول النبى ﷺ: "إن الله حرم على النار من قال: لا إلـــه إلا الله يبتغى بذلك وجه الله"[(١)] وقوله: "لا يدخل النار من قال لا إله إلا الله"[(٢)] وما جاء مـــن هذا النوع من الأحاديث التى أشكلت على كثير من الناس حتى ظنها بعضهم منسوخة، وظنـــها بعضهم قبل ورود الأوامر والنواهى، وحملها بعضهم على نار المشركين والكفار، وأول بعضـــهم

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب الصلاة" حديث (٤٢٥) ومسلم فى "كتاب الإيمان" حديـــث (٣٣) وأحمد فى "المسند" (٤/ ٤٤).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب العلم" حديث (١٢٨) ومسلم فى "كتاب الإيمان" حديث (٣٢).

الدخول بالخلود، ونحو ذلك، والشارع صلوات الله وسلامه عليه لم يجعل ذلك حاصلا بمجرد قول اللسان فقط، فإن هذا من المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام، فإن المنافقين يقولونها بألسنتهم وهم تحت الجاحدين فى الدرك الأسفل من النار، فإن الأعمال لا تتفاضل بصورها وعددها، وإنما تتفاضل بتفاضل ما فى القلوب، وتأمل حديث البطاقة التى توضع فى كفة ويقابلها تسعة وتسعون سجلا، كل سجل منها مد البصر، فتثقل البطاقة[1] وتطيش السجلات، فلا يعذب صاحبها، ومعلوم أن كل موحد له مثل هذه البطاقة، وكثير منهم يدخل النار، وتأمل ما قام بقلب قاتل المائة من حقائق الإيمان التى لم تشغله عند السياق عن السير إلى القرية وحملته وهو فى تلك الحال أن جعل ينوء بصدره وهو يعالج سكرات الموت، وتأمل ما قام بقلب البغى من الإيمان حيث نزعت موقها وسقت الكلب من الركية فغفر لها، وهكذا العقل أيضا، فإنه يقبل التفاضل، وأهله فى أصله سواء متساوون فى أنهم عقلاء غير مجانين، وبعضهم أعقل من بعض، وكذلك الإيجاب والتحريم فيكون إيجاب دون إيجاب وتحريم دون تحريم، هذا هو الصحيح، وإن كان بعضهم قد طرد ذلك فى العقل والوجوب.

وأما زيادة الإيمان من جهة الإجمال والتفصيل فمعلوم أنه لا يجب فى أول الأمر ما وجب بعد نزول القرآن كله، ولا يجب على كل أحد من الإيمان المفصل مما أخبر به الرسول ما يجب على من بلغه خبره، كما فى حق النجاشى وأمثاله.

وأما الزيادة بالعمل والتصديق المستلزم لعمل القلب والجوارح فهو أكمل من التصديق الذى لا يستلزمه، فالعلم الذى يعمل به صاحبه أكمل من العلم الذى لا يعمل به، فإذا لم يحصل اللازم دل على ضعف الملزوم، ولهذا قال النبى ﷺ: "ليس المخبر كالمعاين"[2] وموسى عليه السلام لما أخبر أن قومه عبدوا العجل لم يلق الألواح، فلما رآهم قد عبدوه ألقاها، وليس ذلك لشك موسى فى خبر الله، لكن المخبر وإن جزم بصدق المخبر فقد لا يتصور المخبر به نفسه، كما يتصوره إذا عاينه، كما قال إبراهيم الخليل صلوات الله على نبينا محمد وعليه: ﴿ رَبِّ أَرِنِى

---

(١) **صحيح**: تقدم تخريجه.

(٢) **صحيح**: أخرجه الطبرانى فى "الكبير" (١٢/ ٥٤) حديث (١٢٤٥١) وفى "الأوسط" حديث (٢٨) وأحمد فى "المسند" حديث (٢٤٤٧) وابن حبان حديث (٢٠٨٧) قال الشيخ الألبانى: صحيح.

﴿كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[١] وأيضا فمن وجب عليه الحج والزكاة مثلا يجب عليه الإيمان أن يعلم ما أُمر به ويؤمن بأن الله أوجب عليه ما لا يجب على غيره الإيمان به إلا مجملا، وهذا يجب عليه فيه الإيمان المفصل، وكذلك الرجل أول ما يسلم إنما يجب عليه الإقرار المجمل ثم إذا جاء وقت الصلاة كان عليه أن يؤمن بوجوبها ويؤديها، فلم يتساو الناس فيما أمروا به من الإيمان.

ولا شك أن من قام بقلبه التصديق الجازم الذى لا يقوى على معارضته شهوة ولا شبهة لا تقع معه معصية، ولولا ما حصل له من الشهوة والشبهة أو إحداهما لما عصى، بل يشتغل قلبه ذلك الوقت بما يواقعه من المعصية فيغيب عنه التصديق والوعيد فيعصى، ولهذا، والله أعلم، قالﷺ : "لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن . . ."[٢] الحديث، فهو حين يزنى يغيب عنه تصديقه بحرمة الزنا، وإن بقى أصل التصديق فى قلبه، ثم يعاوده، فإن المتقين كما وصفهم الله بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾[٣] قال ليث عن مجاهد: هو الرجل يهم بالذنب فيذكر الله فيدعه، والشهوة والغضب مبدأ السيئات فإذا أبصر رجع، ثم قال تعالى: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾[٤] أى وإخوان الشياطين تمدهم الشياطين فى الغى ثم لا يقصرون، قال ابن عباس: لا الإنس تقصر عن السيئات ولا الشياطين تمسك عنهم، فإذا لم يبصر بقى قلبه فى عمًى، والشيطان يمده فى غيه، وإن كان التصديق فى قلبه لم يكذب فذلك النور والإبصار، وتلك الخشية والخوف تخرج من قلبه، وهذا كما أن الإنسان يغمض عينه فلا يرى وإن لم يكن أعمى، فكذلك القلب بما يغشاه من رين الذنوب لا يبصر الحق وإن لم يكن أعمًى كعمى الكافر، وجاء هذا المعنى مرفوعا إلى النبى ﷺ أنه قال: "إذا زنا العبد نزع منه الإيمان، فإذا تاب أعيد إليه"[٥].

(١) سورة البقرة الآية: ٢٦٠.
(٢) **صحيح**: تقدم تخريجه.
(٣) سورة الأعراف الآية: ٢٠١.
(٤) سورة الأعراف الآية: ٢٠٢.
(٥) **صحيح**: أخرجه أبو داود فى "كتاب السنة" حديث (٤٦٩٠) والحاكم فى "المستدرك" (١/ ٢٢) وقال الشيخ الألبانى: صحيح، انظر "صحيح سنن أبى داود" (٣/ ١٤٣) حديث (٤٦٩٠) و "مشكاة المصابيح" حديث (٦٠) و "السلسلة الصحيحة" (٢/ ٣٦) حديث (٥٠٩).

وإذا كان النــزاع فى هذه المسألة بين أهل السنة نزاعًا لفظيًّا فلا محذور فيه سوى ما يحصل من عدوان إحدى الطائفتين على الأخرى والافتراق بسبب ذلك، وأن يصير ذلك ذريعـــة إلى بدع أهل الكلام المذموم من أهل الإرجاء ونحوهم وإلى ظهور الفسق والمعاصى بأن يقول: أنـــا مؤمن مسلم حقًّا كامل الإيمان والإسلام، ولىٌّ من أولياء الله، فلا يبالى بما يكـــون منـــه مـــن المعاصى.

وبهذا المعنى قالت المرجئة: لا يضر مع الإيمان ذنب لمن عمله، وهذا باطل قطعًا، فالإمام أبو حنيفة ﷺ نظر إلى حقيقة الإيمان لغة، مع أدلة من كلام الشارع، وبقية الأئمة رحمهم الله نظروا إلى حقيقته فى عرف الشارع، فإن الشارع ضم إلى التصديق أوصافًا وشرائط كما فى الصـــلاة والصوم والحج ونحو ذلك.

فمن أدلة الأصحاب لأبى حنيفة، رحمه الله، أن الإيمان فى اللغة عبارة عن التصديق، قـــال تعالى خبرًا عن إخوة يوسف: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ ﴾[1] أى: بمصدق لنا، ومنهم من ادعى إجماع أهل اللغة على ذلك، ثم هذا المعنى اللغوى وهو التصديق بالقلب هو الواجب على العبد حقًّا لله، وهو أن يصدق الرسول ﷺ فيما جاء به من عند الله، فمن صدق الرسول فيما جاء به من عند الله فهو مؤمن فيما بينه وبين الله تعالى، والإقرار شرط إجراء أحكام الإسلام فى الدنيا، هذا على أحد القولين كما تقدم، ولأنه ضد الكفر وهو التكذيب والجحود وهما يكونان بالقلب فكـــذا ما يضادهما.

وقوله: ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾[2] يدل على أن القلب هـــو موضـــع الإيمان لا اللسان، ولأنه لو كان مركبا من قول وعمل لزال كله بزوال جزئه، ولأن العمل قـــد عطف على الإيمان، والعطف يقتضى المغايرة، قال تعـــالى: ﴿ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾[3] وغيرها فى مواضع من القرآن.

وقد اعترض على استدلالهم بأن الإيمان فى اللغة عبارة عن التصديق بمنع الـــترادف بـــين التصديق والإيمان، وهب أن الأمر يصح فى موضع فلم قلتم: إنه يوجـــب الـــترادف مطلقـــا؟

(١) سورة يوسف الآية: ١٧.
(٢) سورة النحل الآية: ١٠٦.
(٣) سورة البقرة الآية: ٢٥.

وكذلك اعترض على دعوى الترادف بين الإسلام والإيمان، ومما يدل على عدم الترادف أنه يقال للمخبر إذا صدق صدقه، ولا يقال: آمنه، ولا آمن به، بل يقال آمن له، كما قال تعالى: ﴿ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ ﴾(١) ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ ﴾(٢) وقال تعالى: ﴿ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾(٣) ففرق بين المعدى بالباء والمعدى باللام، فالأول يقال: للمخبر به، والثانى: للمخبر، ولا يرد كونه يجوز أن يقال: ما أنت بمصدق لنا، لأن دخول السلام لتقوية العامل، كما إذا تقدم المعمول أو كان العامل اسم فاعل أو مصدرا على ما عرف فى موضعه.

فالحاصل أنه لا يقال: قد آمنته، ولا صدقت له، إنما يقال: آمنت له، كما يقال: أقررت له، فكان تفسيره بأقررت أقرب من تفسيره بصدقت، مع الفرق بينهما، لأن الفرق بينهما ثابت فى المعنى، فإن كل مخبر عن مشاهد أو غيب يقال له فى اللغة: صدقت، كما يقال له: كذبت، فمن قال: السماء فوقنا، قيل له: صدقت.

وأما لفظ الإيمان فلا يستعمل إلا فى الخبر عن الغائب، فيقال لمن قال: طلعت الشمس: صدقناه، ولا يقال: آمنا له، فإن فيه أصل معنى الأمن والائتمان، إنما يكون فى الخبر عن الغائب، فالأمر الغائب هو الذى يؤتمن عليه المخبر، ولهذا لم يأت فى القرآن وغيره لفظ أمن له إلا فى هذا النوع، ولأنه لم يقابل لفظ الإيمان قط بالتكذيب، كما يقابل لفظ التصديق، وإنما يقابل بالكفر، والكفر لا يختص بالتكذيب، بل لو قال: أنا أعلم أنك صادق ولكن لا أتبعك، بل أعاديك وأبغضك وأخالفك لكان كفرا أعظم، فعلم أن الإيمان ليس التصديق فقط، ولا الكفر التكذيب فقط، بل إذا كان الكفر يكون تكذيبا، ويكون مخالفة ومعاداة، بل تكذيب، فكذلك الإيمان يكون تصديقا وموافقة وموالاة وانقيادا، ولا يكفى مجرد التصديق، فيكون الإسلام جزء مسمى الإيمان.

ولو سلم الترادف فالتصديق يكون بالأفعال أيضا، كما ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال: "العينان تزنيان وزناهما النظر، والأذن تزنى وزناها السمع" إلى أن قال: "والفرج يصدق

---

(١) سورة العنكبوت الآية: ٢٦.

(٢) سورة يونس الآية: ٨٣.

(٣) سورة التوبة الآية: ٦١.

ذلك ويكذبه"[١] وقال الحسن البصرى، رحمه الله: ليس الإيمان بالتحلى ولا بالتمنى، ولكنه ما وقر فى الصدور وصدقته الأعمال، ولو كان تصديقا فهو تصديق مخصوص، كما فى الصلاة ونحوها، كما قد تقدم، وليس هذا نقلا للفظ ولا تغييرا له، فإن الله لم يأمرنا بإيمان مطلق بل بإيمان خاص، وصفه وبينه، فالتصديق الذى هو الإيمان أدنى أحواله أن يكون نوعا من التصديق العام، فلا يكون مطابقا له فى العموم والخصوص من غير تغير اللسان ولا قلبه، بل يكون الإيمان فى كلام الشارع مؤلفا من العام والخاص كالإنسان الموصوف بأنه حيوان ناطق، ولأن التصديق التام القائم بالقلب مستلزم لما وجب من أعمال القلب والجوارح فإن هذه من لوازم الإيمان التام، وانتفاء اللازم دليل على انتفاء الملزوم.

ونقول: إن هذه لوازم تدخل فى مسمى اللفظ تارة، وتخرج عنه أخرى، أو إن اللفظ باق على معناه فى اللغة ولكن الشارع زاد فيه أحكاما، أو أن يكون الشارع استعمله فى معناه المجازى، فهو حقيقة شرعية، مجاز لغوى، أو أن يكون قد نقله الشارع، وهذه الأقوال لمن سلك الطريق وقالوا: إن الرسول قد وافقنا على معانى الإيمان، وعلمنا من مراده علما ضروريا أن من قيل: إنه صدق ولم يتكلم بلسانه بالإيمان مع قدرته على ذلك، ولا صلى ولا صام، ولا أحب الله ورسوله، ولا خاف الله، بل كان مبغضا للرسول معاديا له يقاتله أن هذا ليس بمؤمن، كما علمنا أنه رتب الفوز والفلاح على التكلم بالشهادتين مع الإخلاص والعمل بمقتضاهما، فقد قال ﷺ: "الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق"[٢] وقال أيضا ﷺ: "الحياء شعبة من الإيمان" وقال أيضا ﷺ: "أكمل المؤمنين إيمانا

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب الاستئذان" حديث (٦٢٤٣) وطرفه فى (٦٦١٢) ومسلم فى "كتاب القدر" حديث (٢٦٥٧) وأبو داود فى "كتاب "النكاح" حديث (٢١٥٢) وأحمد فى "المسند" حديث (٧٧٠٥).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب الإيمان" حديث (٩) ومسلم فى "كتاب الإيمان" حديث (٣٥) وأبو داود فى "كتاب السنة" حديث (٤٦٧٦) والنسائى فى "كتاب الإيمان" حديث (٥١٩) وابن ماجه فى "المقدمة" حديث (٥٧)

أحسنهم خلقا"(١) وقال أيضا ﷺ: "البذاذة من الإيمان"(٢) فإذا كان الإيمان أصلا لــــه شــعب متعددة وكل شعبة منها تسمى إيمانا فالصلاة من الإيمان، وكذلك الزكاة والصـــوم والحـــج، والأعمال الباطنة كالحياء والتوكل والخشية من الله والإنابة إليه، حتى تنتهى هذه الشـــعب إلى إماطة الأذى عن الطريق، فإنه من شعب الإيمان، وهذه الشعب منها ما يزول الإيمان بزوالهـــا إجماعا، كشعبة الشهادتين، ومنها ما لا يزول بزوالها إجماعا كترك إماطة الأذى عن الطريـــق، وبينهما شعب متفاوتة تفاوتا عظيما، منها ما يقرب من شعبة الشهادة، ومنها ما يقرب مـــن شعبة إماطة الأذى، وكما أن شعب الإيمان إيمان فكذا شعب الكفر كفر، فالحكم بما أنــزل الله مثلا من شعب الإيمان، والحكم بغير ما أنزل الله كفر، وقد قال ﷺ: "من رأى منكم منكـــرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعـــف الإيمـــان"(٣) رواه مسلم، وفى لفظ: "ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل"(٤) وروى الترمذى عن رســـول الله ﷺ أنه قال: "من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان"(٥) ومعناه، والله أعلم: أن الحب والبغض أصل حركة القلب، وبذل المال ومنعه هو كمال ذلك، فإن المال آخـر المتعلقات بالنفس، والبدن متوسط بين القلب والمال، فمن كان أول أمره وآخره كله لله كان الله إلهه فى كل شيء، فلم يكن فيه شيء من الشرك، وهو إرادة غير الله وقصده ورجاؤه، فيكـــون مستكملا الإيمان، إلى غير ذلك من الأحاديث الدالة على قوة الإيمان وضعفه بحسب العمل.

---

(١) **صحيح**: أخرجه أبو داود فى "كتاب السنة" حديث (٤٦٨٢) والترمذى فى "كتاب الرضـــاع" حديـــث (١١٦٢) قال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح، وقال الشيخ الألبانى: صحيح، انظر "صحيح ســـنن أبى داود" حديث (٤٦٨٢) و "صحيح سنن الترمذى" حديث (١١٦٢).

(٢) **حسن**: أخرجه أبو داود (٤١٦١) وابن ماجه فى "كتاب الزهد" حديث (٤١١٨) قال الشيخ الألبـــانى: حسن، انظر "صحيح سنن ابن ماجه" حديث (٤١٩٣) و "الصحيحة" (٣٤١).

(٣) **صحيح**: أخرجه مسلم فى "كتاب الإيمان" حديث (٤٩) وأبو داود فى "كتاب الصلاة" حديـــث (١١٤٠) والترمذى فى "كتاب الفتن" حديث (٤١٧٢) وابن ماجه حديث (١٢٧٥).

(٤) **صحيح**: أخرجه مسلم فى "كتاب الإيمان" حديث (٥٠) وأحمد فى "المسند" حديث (٤٣٧٩) والطـــبرانى فى "الكبير" حديث (٧٩٨٤).

(٥) **صحيح**: أخرجه أبو داود فى "كتاب السنة" حديث (٤٦٨١) والترمذى فى "صفـــة القيامـــة" حديـــث (٢٥٢١) وأحمد فى "المسند" حديث (١٥٤٨٦، ٢٢٠٣١، ٢٢٠٢٩) وصححه الألبانى، رحمه الله تعالى، انظر "صحيح سنن أبى داود" (٣/ ١٤٠) حديث (٤٦٨١).

وسيأتى فى كلام الشيخ رحمه الله فى شأن الصحابة ﷺ "وحبهم دين وإيمان وإحسان، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان" فسمى حب الصحابة إيمانا وبغضهم كفرا.

وما أعجب ما أجاب به أبو المعين النسفى وغيره عن استدلالهم بحديث شعب الإيمان المذكور وهو أن الراوى قال: "بضع وستون أو بضع وسبعون" فقد شهد الراوى بفعله نفسه حيث شك فقال: "بضع وستون أو بضع وسبعون" ولا يظن برسول الله ﷺ الشك فى ذلك وأن هذا الحديث مخالف للكتاب.

فطعن فيه بغفلة الراوى ومخالفته الكتاب، فانظر إلى هذا الطعن ما أعجبه، فإن تردد الراوى بين الستين والسبعين لا يلزم منه عدم ضبطه، مع أن البخارى، رحمه الله، إنما رواه "بضع وستون" من غير شك، وأما الطعن بمخالفة الكتاب فأين فى الكتاب ما يدل على خلافه، وإنما فيه ما يدل على وفاقه، وإنما هذا الطعن من ثمرة شؤم التقليد والتعصب.

وقالوا أيضا: وهنا أصل آخر وهو: أن القول قسمان: قول القلب، وهو الاعتقاد، وقول اللسان، وهو التكلم بكلمة الإسلام، والعمل قسمان: عمل القلب، وهو نيته وإخلاصه، وعمل الجوارح، فإذا زالت هذه الأربعة زال الإيمان بكماله، وإذا زال تصديق القلب لم ينفع بقية الأخر، فإن تصديق القلب شرط فى اعتبارها وكونها نافعة، وإذا بقى تصديق القلب وزال الباقى فهذا موضع المعركة.

ولا شك أنه يلزم من عدم طاعة الجوارح عدم طاعة القلب، إذ لو أطاع القلب وانقاد لأطاعت الجوارح وانقادت، ويلزم من عدم طاعة القلب وانقياده عدم التصديق المستلزم للطاعة، قال ﷺ: "إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد، ألا وهى القلب"[1] فمن صلح قلبه صلح جسده قطعا بخلاف العكس، وأما كونه يلزم من زوال جزئه زوال كله فإن أريد أن الهيئة الاجتماعية لم تبق مجتمعة كما كانت فمسلم، ولكن لا يلزم من زوال بعضها زوال سائر الأجزاء فيزول عنه الكمال فقط.

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب الإيمان" حديث (٥٢) وطرفه فى (٢٠٥١) ومسلم فى "كتاب المساقاة" حديث (١٥٩٩) وأبو داود فى "كتاب البيوع" حديث (٣٣٢٩) والترمذى فى "كتاب البيوع" حديث (١٢٠٥) والنسائى فى "كتاب البيوع" حديث (٤٤٥٣) وأحمد فى "المسند" حديث (١٨٢٨٨، ١٨٢٨٤) وابن ماجه فى "كتاب الفتن" حديث (٤٠٥٥).

والأدلة على زيادة الإيمان ونقصانه من الكتاب والسنة والآثار السلفية كثيرة جدًّا، منها قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾(١) ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ ﴾(٢) ﴿ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ ﴾(٣) ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ ﴾(٤) ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾(٥) وكيف يقال فى هذه الآية والتى قبلها: إن الزيادة باعتبار زيادة المؤمن به؟ فهل فى قول الناس: ﴿ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ ﴾ زيادة مشروع؟ وهل فى إنزال السكينة على قلوب المؤمنين زيادة مشروع؟ وإنما إنزال الله السكينة فى قلوب المؤمنين مرجعهم من الحديبية ليزدادوا طمأنينة ويقينًا، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ ﴾(٦) وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾(٧) وأما ما رواه الفقيه أبو الليث السمرقندى، رحمه الله، فى تفسيره عند هذه الآية فقال: حدثنا محمد بن الفضل وأبو القاسم الساباذى قالا: حدثنا فارس بن مردويه قال: حدثنا محمد بن الفضل بن العابد قال: حدثنا يحيى بن عيسى قال: حدثنا أبو مطيع عن حماد بن سلمة عن أبى المهزم عن أبى هريرة قال: جاء وفد ثقيف إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، الإيمان يزيد وينقص؟ فقال: "لا، الإيمان مكمل فى القلب، زيادته كفر ونقصانه شرك"(٨) فقد سئل شيخنا الشيخ عماد الدين ابن كثير، رحمه الله، عن هذا الحديث فأجاب بأن الإسناد من أبى الليث إلى أبى مطيع مجهولون لا يعرفون فى شيء من كتب التواريخ المشهورة، وأما أبو مطيع فهو الحكم بن عبد الله بن مسلمة البلخى ضعفه أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وعمرو بن

---

(١) سورة الأنفال الآية: ٢.

(٢) سورة مريم الآية: ٧٦.

(٣) سورة المدثر الآية: ٣١.

(٤) سورة الفتح الآية: ٤.

(٥) سورة آل عمران الآية: ١٧٣.

(٦) سورة آل عمران الآية: ١٦٧.

(٧) سورة التوبة الآيتان: ١٢٤، ١٢٥.

(٨) **موضوع**: أبو مطيع اتهمه الجوزقانى والذهبى بالوضع، والحديث به أكثر من علة.

على الفلاس والبخارى وأبو داود والنسائى وأبو حاتم الرازى وأبو حاتم محمد بن حبان البستى والعقيلى وابن عدى والدارقطنى وغيرهم، وأما أبو المهزم الراوى عن أبى هريرة، وقد تصحف على الكُتّاب واسمه يزيد بن سفيان، فقد ضعفه أيضًا غير واحد، وتركه شعبة بن الحجاج، وقال النسائى: متروك، وقد اتَّهمه شعبة بالوضع حيث قال: لو أعطوه فلسين لحدَّثهم سبعين حديثا.

وقد وصف النبى ﷺ النساء بنقصان العقل والدين، وقال ﷺ: "لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين"(١) والمراد نفى الكمال ونظائره كثيرة، وحديث شعب الإيمان وحديث الشفاعة وأنه يخرج من النار من فى قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان، فكيف يقال بعد هذا إن إيمان أهل السموات والأرض سواء، وإنما التفاضل بينهم بمعان أخر غير الإيمان، وكلام الصحابة ﷺ فى هذا المعنى كثير أيضًا، منه قول أبى الدرداء ﷺ من فقه العبد أن يتعاهد إيمانه وما نقص منه، ومن فقه العبد أن يعلم أيزداد هو أم ينتقص؟ وكان عمر ﷺ يقول لأصحابه: هلموا نزدد إيمانًا، فيذكرون الله تعالى عز وجل، وكان ابن مسعود ﷺ يقول فى دعائه: اللهم زدنا إيمانًا ويقينًا وفقهًا، وكان معاذ بن جبل ﷺ يقول لرجل: اجلس بنا نؤمن ساعة، ومثله عن عبد الله بن رواحة ﷺ، وصح عن عمار بن ياسر ﷺ أنه قال: ثلاث من كن فيه فقد استكمل الإيمان: إنصاف من نفسه، والإنفاق من إقتار، وبذل السلام للعالم، ذكره البخارى رحمه الله فى صحيحه.

وفى هذا المقدار كفاية وبالله التوفيق.

وأما كون عطف العمل على الإيمان يقتضى المغايرة فلا يكون العمل داخلا فى مسمى الإيمان فلا شك أن الإيمان تارة يذكر مطلقًا عن العمل وعن الإسلام، وتارة يقرن بالعمل الصالح، وتارة يقرن بالإسلام، فالمطلق مستلزم للأعمال، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾(٢) ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ ﴾(٣) ﴿ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾(٤).

(١) صحيح: أخرجه البخارى فى "كتاب الإيمان" حديث (١٥) ومسلم فى "كتاب الإيمان" حديث (٤٤) والنسائى "كتاب الإيمان" حديث (٥٠١٤) وابن ماجه فى "المقدمة" حديث (٦٧).

(٢) سورة الأنفال الآية: ٢.

(٣) سورة الحجرات الآية: ١٥.

(٤) سورة المائدة الآية: ٨١.

وقال ﷺ: "لا يزنى الزانـــى حين يزنى وهو مؤمن . . ."[١] الحديث، "لا تؤمنـــوا حـــتى تحابوا . . ."[٢] "من غشنا فليس منا"[٣] "من حمل علينا السلاح فليس منا"[٤] وما أبعـــد قـــول من قال: إن معنى قوله: "فليس منا" أى: فليس مثلنا، فليت شعرى فمن لم يغش يكون مثل النبى ﷺ وأصحابه؟.

أما إذا عطف عليه العمل الصالح فاعلم أن عطف الشيء على الشيء يقتضى المغايرة بـــين المعطوف والمعطوف عليه مع الاشتراك فى الحكم الذى ذكر لهما، والمغايرة على مراتب أعلاها:

أن يكونا متباينين، ليس أحدهما هو الآخر، ولا جزءا منه، ولا بينهما تلازم، كقوله تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾[٥] ﴿ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾[٦] وهذا هو الغالب.

ويليه أن يكون بينهما تلازم كقوله تعـــالى: ﴿ وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[٧] ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾[٨].

الثالث: عطف بعض الشيء عليه كقولـــه تعـــالى: ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾[٩] ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ ﴾[١٠] ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ ﴾[١١].

---

(١) **صحيح**: تقدم تخريجه.

(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم فى "كتاب الإيمان" حديث (٥٤) وأبو داود "كتاب الأدب" حديـــث (٥١٩٣) والترمذى "كتاب الاستئذان" حديث (٢٦٨٨) وابن ماجه فى "المقدمة" حديث (٦٨) وأحمد فى "المسند" حديث (٩٦٠١، ١٠١٣١).

(٣) **صحيح**: أخرجه مسلم فى "كتاب الإيمان" حديث (١٠) وأبو داود فى "كتاب البيوع" حديـــث (٣٤٥٢) والترمذى "كتاب البيوع" حديث (١٣١٥) وابن ماجه "كتاب التجارات" حديث (٢٢٥٤) وأحمـــد فى "المسند" حديث (٤٤٦٧، ٦٣٦٤، ٤٦٤٦).

(٤) **صحيح**: أخرجه البخارى "كتاب الديات" حديث (٦٨٧٤) وطرفه فى (٧٠٧٠)

(٥) سورة الأنعام الآية: ١.

(٦) سورة آل عمران الآية: ٣.

(٧) سورة البقرة الآية: ٤٢.

(٨) سورة المائدة الآية: ٩٢.

(٩) سورة البقرة الآية: ٢٣٨.

(١٠) سورة البقرة الآية: ٩٨.

(١١) سورة الأحزاب الآية: ٧.

وفى مثل هذا وجهان:

أحدهما: أن يكون داخلا فى الأول فيكون مذكورا مرتين.

والثانى: أن عطفه عليه يقتضى أنه ليس داخلا فيه هنا، وإن كان داخلا فيه منفردا، كما قيل مثل ذلك فى لفظ الفقراء والمساكين ونحوهما، تتنوع دلالته بالإفراد والاقتران.

الرابع: عطف الشيء على الشيء لاختلاف الصفتين كقوله تعالى: ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ ﴾[١].

وقد جاء فى الشعر العطف لاختلاف اللفظ فقط، كقوله:

❁ فألفى قولها كذبا ومينا ❁

ومن الناس من زعم أن فى القرآن من ذلك قوله تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةً وَمِنۡهَاجًاۚ ﴾[٢] والكلام على ذلك معروف فى موضعه.

فإذا كان العطف فى الكلام يكون على هذه الوجوه نظرنا فى كلام الشارع كيف ورد فيه الإيمان فوجدناه إذا أطلق يراد به ما يراد بلفظ البر والتقوى والدين ودين الإسلام ذكر فى أسباب النزول أنهم سألوا عن الإيمان فأنزل الله هذه الآية: ﴿ لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ ﴾[٣] الآيات.

قال محمد بن نصر: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا عبد الله بن يزيد المقرئ والملائى قالا: حدثنا المسعودى، عن القاسم قال: جاء رجل إلى أبى ذر ﷺ فسأله عن الإيمان فقرأ: ﴿ لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ ﴾ إلى آخر الآية، فقال الرجل: ليس عن هذا سألتك، فقال: جاء رجل إلى النبى ﷺ فسأله عن الذي سألتنى عنه فقرأ عليه الذي قرأت عليك فقال له الذي قلت لى، فلما أبى أن يرضى قال: "إن المؤمن الذى إذا عمل الحسنة سرته ورجا ثوابها، وإذا عمل السيئة ساءته وخاف عقابها"[٤] وكذلك أجاب جماعة من السلف بهذا الجواب.

---

(١) سورة غافر الآية: ٣.

(٢) سورة المائدة الآية: ٤٨.

(٣) سورة البقرة الآية: ١٧٧.

(٤) قال الشيخ أحمد: ذكره ابن كثير فى التفسير ١: ٣٨٦، ٣٨٧ من رواية ابن أبى حاتم، من طريق مجاهد عن أبى ذر، ومن كتاب ابن مردويه، من طريق المسعودى عن القاسم عن أبى ذر وأعلهما كليهما بالانقطاع، لأن أبا ذر مات قديما.

وفى الصحيح قوله لوفد عبد القيس: "آمركم بالإيمان بالله وحده، أتدرون ما الإيمان بالله؟ شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأن تؤدوا الخمس من المغنم"(١).

ومعلوم أنه لم يرد أن هذه الأعمال تكون إيمانا بالله بدون إيمان القلب لما قد أخبر فى مواضع أنه لا بد من إيمان القلب، فعلم أن هذه مع إيمان القلب هو الإيمان، وأى دليل على أن الأعمال داخلة فى مسمى الإيمان فوق هذا الدليل؟ فإنه فسر الإيمان بالأعمال و لم يذكر التصديق للعلم بأن هذه الأعمال لا تفيد مع الجحود.

وفى المسند عن أنس عن النبى ﷺ أنه قال: "الإسلام علانية، والإيمان فى القلب"(٢) وفى هذا الحديث دليل على المغايرة بين الإسلام والإيمان، ويؤيده قوله فى حديث سؤالات جبريل فى معنى الإسلام والإيمان، وقد قال فيه النبى ﷺ: "هذا جبرائيل أتاكم يعلمكم دينكم"(٣) فجعل الدين هو الإسلام والإيمان والإحسان، فتبين أن ديننا يجمع الثلاثة، لكن هو درجات ثلاثة: مسلم ثم مؤمن ثم محسن، والمراد بالإيمان ما ذكر مع الإسلام قطعا، كما أنه أريد بالإحسان ما ذكر مع الإيمان والإسلام لا أن الإحسان يكون مجردا عن الإيمان، هذا محال، وهذا ما قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾(٤) والمقتصد والسابق كلاهما يدخل الجنة بلا عقوبة بخلاف الظالم لنفسه فإنه معرض للوعيد، وهكذا من أتى بالإسلام الظاهر مع التصديق بالقلب لكن لم يقم بما يجب عليه من الإيمان الباطن فإنه معرض للوعيد، فأما الإحسان فهو أعم من جهة نفسه وأخص

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب الإيمان" حديث (٥٣) ومسلم "كتاب الإيمان" حديث (١٧) وأبو داود "كتاب الأشربة" حديث (٣٦٩٢) والترمذى "كتاب الإيمان" حديث (٢٦١١) والنسائى "كتاب الإيمان" حديث (٥٠٣١) وأحمد فى "المسند" حديث (١١١١٨).

(٢) **ضعيف**: أخرجه أحمد فى "المسند" (٣/ ١٣٤) والعقيلى فى "الضعفاء" (٣/ ٢٥٠) قال الشيخ الألبانى: ضعيف.

قلت: وهو كما قال فإن فيه على ابن مسعدة قال البخارى: فيه نظر وقال ابن عدى: أحاديثه غير محفوظة وقال أبو حاتم: لا بأس به وقال ابن معين: صالح انظر "ميزان الاعتدال" (٥/ ١٨٩).

(٣) **صحيح**: تقدم تخريجه.

(٤) سورة فاطر الآية: ٣٢.

من جهة أهله، والإيمان أعم من جهة نفسه وأخص من جهة أهله من الإسلام، فالإحسان يدخل فيه الإيمان، والإيمان يدخل فيه الإسلام، والمحسنون أخص من المؤمنين، والمؤمنون أخص من المسلمين، وهذا كالرسالة والنبوة، فالنبوة داخلة فى الرسالة، والرسالة أعم من جهة نفسها وأخص من جهة أهلها، فكل رسول نبى ولا ينعكس.

وقد صار الناس فى مسمى الإسلام على ثلاثة أقوال:

فطائفة جعلت الإسلام هو الكلمة، وطائفة أجابوا بما أجاب به النبى ﷺ حين سئل عن الإسلام والإيمان حيث فسر الإسلام بالأعمال الظاهرة، والإيمان بالإيمان بالأصول الخمسة، وطائفة جعلوا الإسلام مرادفا للإيمان، وجعلوا معنى قول الرسول ﷺ: "الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله وإقام الصلاة . . ."[1] الحديث، شعائر الإسلام، والأصل عدم التقدير، مع أنهم قالوا: إن الإيمان هو التصديق بالقلب، ثم قالوا الإسلام والإيمان شيء واحد، فيكون الإسلام هو التصديق، وهذا لم يقله أحد من أهل اللغة، وإنما هو الانقياد والطاعة، وقد قال النبى ﷺ: "اللهم لك أسلمت وبك آمنت"[2] وفسر الإسلام بالأعمال الظاهرة، والإيمان بالإيمان بالأصول الخمسة، فليس لنا إذا جمعنا بينهما أن نجيب بغير ما أجاب النبى ﷺ، وأما إذا أفرد اسم الإيمان فإنه يتضمن الإسلام، وإذا أفرد الإسلام فقد يكون مع الإسلام مؤمنا بلا نزاع، وهذا هو الواجب، وهل يكون مسلما ولا يقال له مؤمن؟ وقد تقدم الكلام فيه.

وكذلك هل يستلزم الإسلام الإيمان؟ فيه النزاع المذكور، وإنما وعد الله بالجنة فى القرآن وبالنجاة من النار باسم الإيمان، كما قال تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾[3] وقال تعالى: ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم "كتاب الإيمان" حديث ٨ وأبو داود "كتاب السنة" حديث (٤٦٩٥) والترمذى "كتاب الإيمان" حديث (٢٦١٠) والنسائى "كتاب الإيمان" حديث (٤٩٩٠) وابن ماجه "المقدمة" حديث (٦٣) وانظر "تحفة الأشراف" (٨/ ٧٤) رقم (١٠٥٧٢).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخارى "كتاب التهجد" حديث (١١٢٠) وأطرافه فى (٦٣١٧، ٧٣٨٥، ٧٤٤٢، ٧٤٩٩) ومسلم فى "كتاب صلاة المسافرين" حديث (٧٦٩) وأبو داود "كتاب الصلاة" حديث (٧٧١) والترمذى "كتاب الدعوات" حديث (٣٤١٨) والنسائى "كتاب قيام الليل" حديث (١٦١٩) وابن ماجه "كتاب إقامة الصلاة" حديث (١٣٥٥).

(٣) سورة يونس الآيتان: ٦٢، ٦٣.

مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾[١] وأما اسم الإسلام مجردا فما علق به فى القرآن دخول الجنة لكنه فرضه وأخبر أنه دينه الذي لا يقبل من أحد سواه، وبه بعث النبيين ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾[٢].

فالحاصل أن حالة اقتران الإسلام بالإيمان غير حالة إفراد أحدهما عن الآخر، فمثل الإسلام من الإيمان كمثل الشهادتين، إحداهما من الأخرى، فشهادة الرسالة غير شهادة الوحدانية، فهما شيئان فى الأعيان، وإحداهما مرتبطة بالأخرى فى المعنى، والحكم كشيء واحد، كذلك الإسلام والإيمان، لا إيمان لمن لا إسلام له، ولا إسلام لمن لا إيمان له، إذ لا يخلو المؤمن من إسلام به يتحقق إيمانه، ولا يخلو المسلم من إيمان به يصح إسلامه، ونظائر ذلك فى كلام الله ورسوله وفى كلام الناس كثيرة، أعنى فى الإفراد والاقتران، منها لفظ الكفر والنفاق، فالكفر إذا ذكر مفرداً فى وعيد الآخرة دخل فيه المنافقون كقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[٣] ونظائره كثيرة، وإذا قرن بينهما كان الكافر من أظهر كفره والمنافق من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه، وكذلك لفظ البر والتقوى، ولفظ الإثم والعدوان، ولفظ التوبة والاستغفار، ولفظ الفقير والمسكين، وأمثال ذلك.

ويشهد للفرق بين الإسلام والإيمان قوله تعالى: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا ﴾[٤] إلى آخر السورة، وقد اعترض على هذا بأن معنى الآية: قولوا: أسلمنا انقدنا بظواهرنا، فهم منافقون فى الحقيقة، وهذا أحد قولى المفسرين فى هذه الآية الكريمة، وأجيب بالقول الآخر ورجح وهو أنّهم ليسوا بمؤمنين كاملى الإيمان لا أنّهم منافقون، كما نفى الإيمان عن القاتل والزانى والسارق ومن لا أمانة له، ويؤيد هذا سياق الآية، فإن السورة من أولها إلى هنا فى النهى عن المعاصى وأحكام بعض العصاة ونحو ذلك، وليس فيها ذكر للمنافقين، ثم قال بعد ذلك: ﴿ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ﴾[٥] ولو كانوا منافقين

(١) سورة الحديد الآية: ٢١.
(٢) سورة آل عمران الآية: ٨٥.
(٣) سورة المائدة الآية: ٥.
(٤) سورة الحجرات الآية: ١٤.
(٥) سورة الحجرات الآية: ١٤.

ما نفعتهم الطاعة، ثم قال: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ ﴾(١) الآية، يعنى، والله أعلم: أن المؤمنين الكاملى الإيمان هم هؤلاء لا أنتم، بل أنتم منتف عنكم الإيمان الكامل، يؤيد هذا أنه أمرهم أو أذن لهم أن يقولوا: أسلمنا، والمنافق لا يقال له ذلك، ولو كانوا منافقين لنفى عنهم الإسلام كما نفى عنهم الإيمان ونهاهم أن يمنوا بإسلامهم، فأثبت لهم إسلاما ونهاهم أن يمنوا به على رسوله، ولو لم يكن إسلاما صحيحا لقال: لم تسلموا بل أنتم كاذبون، كما كذبهم فى قولهم: ﴿ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ﴾(٢)، والله أعلم بالصواب.

وينتفى بعد هذا التقدير والتفصيل دعوى الترادف وتشنيع من ألزم بأن الإسلام لو كان هو الأمور الظاهرة لكان ينبغى أن لا يقابل بذلك، ولا يقبل إيمان المخلص، وهذا ظاهر الفساد، فإنه قد تقدم تنظير الإيمان والإسلام بالشهادتين وغيرهما، وأن حالة الاقتران غير حالة الانفراد، فانظر إلى كلمة الشهادة، فإن النبى ﷺ قال: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله . . ."(٣) الحديث، فلو قالوا: لا إله إلا الله وأنكروا الرسالة ما كانوا يستحقون العصمة، بل لا بد أن يقولوا: لا إله إلا الله قائمين بحقها، ولا يكون قائما بـ "لا إله إلا الله" حق القيام إلا من صدق الرسالة، وكذا من شهد أن محمدا رسول الله لا يكون قائما بهذه الشهادة حق القيام إلا من صدق هذا الرسول فى كل ما جاء به، فتضمنت التوحيد، وإذا ضممت شهادة أن لا إله إلا الله إلى شهادة أن محمدا رسول الله كان المراد من شهادة أن لا إله إلا الله إثبات التوحيد، ومن شهادة أن محمدا رسول الله إثبات الرسالة، كذلك الإسلام والإيمان إذا قرن أحدهما بالآخر كما فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾(٤) وقوله ﷺ: "اللهم لك أسلمت وبك آمنت"(٥) كان المراد من أحدهما غير المراد من الآخر، وكما قال ﷺ: "الإسلام علانية، والإيمان فى القلب"(٦) وإذا انفرد أحدهما شمل معنى الآخر وحكمه، وكما فى الفقير

(١) سورة الحجرات الآية: ١٥.

(٢) سورة المنافقون الآية الأولى.

(٣) **صحيح**: تقدم تخريجه.

(٤) سورة الأحزاب الآية: ٣٥.

(٥) **صحيح**: تقدم تخريجه.

(٦) **ضعيف**: تقدم تخريجه.

والمسكين ونظائره، فإن لفظى الفقير والمسكين إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا، فهل يقال فى قوله تعالى: ﴿ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ ﴾(١) أنه يعطى المقل دون المعدم أو بالعكس؟ وكذا فى قوله تعالى: ﴿ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾(٢).

ويندفع أيضا تشنيع من قال: ما حكم من آمن ولم يسلم؟ أو أسلم ولم يؤمن فى الدنيا والآخرة؟ فمن أثبت لأحدهما حكما ليس بثابت للآخر ظهر بطلان قوله، ويقال له فى مقابلة تشنيعه: أنت تقول: المسلم هو المؤمن والله تعالى يقول: ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾(٣) فجعلهما غيرين، وقد قيل لرسول الله ﷺ: ما لك عن فلان، والله إنى لأراه مؤمنا، قال: "أو مسلما" قالها ثلاثا، فأثبت له الإسلام وتوقف فى اسم الإيمان، فمن قال: هما سواء كان مخالفا، والواجب رد موارد النزاع إلى الله ورسوله.

وقد يتراءى فى بعض النصوص معارضة ولا معارضة بحمد الله تعالى ولكن الشأن فى التوفيق، وبالله التوفيق.

وأما الاحتجاج بقوله تعالى: ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝ ﴾(٤) على ترادف الإسلام والإيمان فلا حجة فيه، لأن البيت المخرج كانوا متصفين بالإسلام والإيمان ولا يلزم من الإتصاف بهما ترادفهما.

والظاهر أن هذه المعارضات لم تثبت عن أبى حنيفة ﷺ وإنما هى من الأصحاب، فإن غالبها ساقط لا يرتضيه أبو حنيفة، وقد حكى الطحاوى حكاية أبى حنيفة مع حماد بن زيد وأن حماد بن زيد لما روى له حديث: "أى الإسلام أفضل . . ."(٥) إلى آخره، قال له: ألا تراه يقول: "أى الإسلام أفضل؟ قال: الإيمان" ثم جعل الهجرة والجهاد من الإيمان، فسكت أبو حنيفة فقال بعض أصحابه: ألا تجيبه يا أبا حنيفة؟ قال: بم أجيبه وهو يحدثنى بهذا عن رسول الله ﷺ.

ومن ثمرات هذا الاختلاف مسألة الاستثناء فى الإيمان وهو أن يقول، أى الرجل: أنا مؤمن إن شاء الله، والناس فيه على ثلاثة أقوال: طرفان ووسط، منهم من يوجبه، ومنهم من يحرمه، ومنهم من يجيزه باعتبار ويمنعه باعتبار، وهذا أصح الأقوال.

---

(١) سورة المائدة الآية: ٨٩.
(٢) سورة البقرة الآية: ٢٧١.
(٣) سورة الأحزاب الآية: ٣٥.
(٤) سورة الذاريات الآيتان: ٣٥، ٣٦.
(٥) صحيح: متفق عليه.

أما من يوجبه فلهم مأخذان:

أحدهما: أن الإيمان هو ما مات الإنسان عليه، والإنسان إنما يكون عند الله مؤمنا أو كافرا باعتبار الموافاة، وما سبق فى علم الله أنه يكون عليه، وما قبل ذلك لا عبرة به، قالوا: والإيمان الذى يعقبه الكفر فيموت صاحبه كافرا ليس بإيمان، كالصلاة التى أفسدها صاحبها قبل الكمال، والصيام الذى يفطر صاحبه قبل الغروب، وهذا مأخذ كثير من الكلابية وغيرهم، وعند هؤلاء أن الله يحب فى الأزل من كان كافرا إذا علم منه أنه يموت مؤمنا، فالصحابة ما زالوا محبوبين قبل إسلامهم، وإبليس ومن ارتد عن دينه ما زال الله يبغضه وإن كان لم يكفر بعد، وليس هذا قول السلف ولا كان يقول بهذا من يستثنى من السلف فى إيمانه، وهو فاسد، فإن الله تعالى قال: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾[1] فأخبر أنهم يحبهم إن اتبعوا الرسول فاتباع الرسول شرط المحبة والمشروط يتأخر عن الشرط وغير ذلك من الأدلة، ثم صار إلى هذا القول طائفة غلوا فيه حتى صار الرجل منهم يستثنى فى الأعمال الصالحة يقول: صليت إن شاء الله، ونحو ذلك، يعنى القبول، ثم صار كثير منهم يستثنون فى كل شيء فيقول أحدهم: هذا ثوب إن شاء الله، هذا حبل إن شاء الله، فإذا قيل لهم: هذا لا شك فيه يقولون: نعم، لكن إذا شاء الله أن يغيره غيره.

المأخذ الثانى: أن الإيمان المطلق يتضمن فعل ما أمر الله به عبده كله وترك ما نهاه عنه كله، فإذا قال الرجل مؤمن بهذا الاعتبار فقد شهد لنفسه أنه من الأبرار المتقين القائمين بجميع ما أمروا به وترك كل ما نهوا عنه فيكون من أولياء الله المقربين، وهذا مع تزكية الإنسان لنفسه ولو كانت هذه الشهادة صحيحة لكان ينبغى أن يشهد لنفسه بالجنة إن مات على هذه الحال، وهذا مأخذ عامة السلف الذين كانوا يستثنون، وإن جوزوا ترك الاستثناء بمعنى آخر، كما سنذكره إن شاء الله تعالى، ويحتجون أيضا بجواز الاستثناء فيما لا شك فيه كما قال تعالى: ﴿ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾[2] وقال ﷺ حين وقف على المقابر: "وإنا إن شاء الله بكم لاحقون"[3] وقال أيضا: "إنى لأرجو أن أكون أخشاكم لله"[4] ونظائر هذا.

---

(١) سورة آل عمران الآية: ٣١. (٢) سورة الفتح الآية: ٢٧.

(٣) **صحيح**: أخرجه مسلم "كتاب الطهارة" حديث (٢٤٩) وأبو داود فى "كتاب الجنائز" حديث (٣٢٣٧) والنسائى فى "كتاب الطهارة" حديث (١٥٠) وابن ماجه فى "كتاب الزهد" حديث (٤٣٠٦).

(٤) **صحيح**: أخرجه مسلم فى "كتاب الصيام" حديث (١١١٠) وأبو داود فى "كتاب الصيام" حديث (٢٣٨٩) وأحمد فى "المسند" حديث (٢٤٢٦٦، ٢٥٩٦١).

وأما من يحرمه فكل من جعل الإيمان شيئا واحدا فيقول: أنا أعلم أنى مؤمن كما أعلم أنى تكلمت بالشهادتين، فقولى: أنا مؤمن كقولى أنا مسلم، فمن استثنى فى إيمانه فهو شاك فيه، وسموا الذين يستثنون فى إيمانهم الشكاكة.

وأجابوا عن الاستثناء الذى فى قوله تعالى: ﴿ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾[1] بأنه يعود إلى الأمن والخوف، فأما الدخول فلا شك فيه، وقيل: لتدخلن جميعكم أو بعضكم لأنه علم أن بعضهم يموت، وفى كلا الجوابين نظر فإنهم وقعوا فيما فروا منه، فأما الأمن والخوف فقد أخبر أنهم يدخلون آمنين مع علمه بذلك، فلا شك فى الدخول ولا فى الأمن ولا فى دخول الجميع أو البعض فإن الله قد علم من يدخل فلا شك فيه أيضا، فكان قول: ﴿ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ هنا تحقيقا للدخول كما يقول الرجل فيما عزم على شيء أن يفعله لا محالة: والله لأفعلن كذا إن شاء الله، لا يقولها لشك فى إرادته وعزمه، ولكن إنما لا يحنث الحالف فى مثل هذه اليمين لأنه لا يجزم بحصول مراده.

وأجيب بجواب آخر لا بأس به وهو أنه قال ذلك تعليما لنا كيف نستثنى إذا أخبرنا عن مستقبل وفى كون هذا المعنى مرادا من النص نظر، فإنه ما سيق الكلام إلا أن يكون مرادا من إشارة النص.

وأجاب الزمخشرى بجوابين آخرين باطلين وهما أن يكون الملك قد قاله فأثبت قرآنا، أو أن الرسول قاله، فعند هذا المسكين يكون من القرآن ما هو غير كلام الله فيدخل فى وعيد من قال: ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ۝ ﴾[2] نسأل الله العافية.

وأما من يجوز الاستثناء وتركه فهم أسعد بالدليل من الفريقين وخير الأمور أوسطها فإن أراد المستثنى الشك فى أصل إيمانه منع من الاستثناء، وهذا مما لا خلاف فيه، وإن أراد أنه مؤمن من المؤمنين الذين وصفهم الله فى قوله: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ

(١) سورة الفتح الآية: ٢٧.
(٢) سورة المدثر الآية: ٢٥.

ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝ ﴾(١) وفى قوله: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝ ﴾(٢) فالاستثناء حينئذ جائز، وكذلك من استثنى وأراد عدم علمه بالعاقبة، وكذلك من استثنى تعليقا للأمر بمشيئة الله لا شكا فى إيمانه، وهذا القول فى القوة كما ترى.

قوله: وجميع ما صح عن رسول الله ﷺ من الشرع والبيان كله حق، يشير الشيخ رحمه الله بذلك إلى الرد على الجهمية والمعطلة والمعتزلة والرافضة القائلين بأن الأخبار قسمان: متواتر وآحاد، فالمتواتر وإن كان قطعى السند لكنه غير قطعى الدلالة، فإن الأدلة اللفظية لا تفيد اليقين، ولهذا قدحوا فى دلالة القرآن على الصفات، قالوا: والآحاد لا تفيد العلم ولا يحتج بها من جهة طريقها ولا من جهة متنها، فسدوا على القلوب معرفة الرب تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله من جهة الرسول، وأحالوا الناس على قضايا وهمية ومقدمات خيالية سموها قواطع عقلية وبراهين يقينية، وهى فى التحقيق ﴿ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ۝ ﴾(٣) ومن العجب أنهم قدموها على نصوص الوحى وعزلوا لأجلها النصوص فأقفرت قلوبهم من الاهتداء بالنصوص ولم يظفروا بالعقول الصحيحة المؤيدة بالفطرة السليمة والنصوص النبوية، ولو حكموا نصوص الوحى لفازوا بالمعقول الصحيح الموافق للفطرة السلمية.

بل كل فريق من أرباب البدع يعرض النصوص على بدعته وما ظنه معقولا، فما وافقه قال: إنه محكم وقبله واحتج به، وما خالفه قال: إنه متشابه ثم رده، وسمى رده تفويضا، أو حرفه وسمى تحريفه تأويلا، فلذلك اشتد إنكار أهل السنة عليهم.

وطريق أهل السنة أن لا يعدلوا عن النص الصحيح ولا يعارضوه بمعقول ولا قول فلان، كما أشار إليه الشيخ رحمه الله، وكما قال البخارى، رحمه الله: سمعت الحميدى يقول: كنا عند

(١) سورة الأنفال الآيات: ٢ : ٤.
(٢) سورة الحجرات الآية: ١٥.
(٣) سورة النور الآيتان: ٣٩، ٤٠.

الشافعي رحمه الله فأتاه رجل فسأله عن مسألة فقال: قضى فيها رسول الله ﷺ كذا وكذا، فقال رجل للشافعي: ما تقول أنت؟ فقال: سبحان الله! تراني في كنيسة؟ تراني في بيعة؟ تراني على وسطي زنار؟ أقول لك: قضى رسول الله ﷺ وأنت تقول: ما تقول أنت؟ ونظائر ذلك في كلام السلف كثير، وقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾[١].

وخبر الواحد إذا تلقته الأمة بالقبول عملا به وتصديقا له يفيد العلم اليقيني عند جماهير الأمة، وهو أحد قسمي المتواتر، ولم يكن بين سلف الأمة في ذلك نزاع كخبر عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "إنما الأعمال بالنيات"[٢] وخبر ابن عمر رضي الله عنهما: "من نهى عن بيع الولاء وهبته"[٣] وخبر أبي هريرة: "لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها"[٤] وكقوله: "يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب"[٥] وأمثال ذلك، وهو نظير خبر الذى أتى مسجد قباء وأخبر أن القبلة تحولت إلى الكعبة فاستداروا إليها.

وكان رسول الله ﷺ يرسل رسله آحادا ويرسل كتبه مع الآحاد ولم يكن المرسل إليهم يقولون: لا نقبله لأنه خبر واحد، وقد قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾[٦] فلا بد أن يحفظ الله حججه وبيناته على خلقه لئلا تبطل حججه وبيناته.

---

(١) سورة الأحزاب الآية: ٣٦.

(٢) **صحيح**: تقدم تخريجه.

(٣) **صحيح**: أخرجه البخاري في "كتاب العتق" حديث (٢٥٣٥) ومسلم في "كتاب العتق" حديث (١٥٠٦) وأبو داود في "كتاب الفرائض" حديث (٢٩١٩) والترمذي في "كتاب البيوع" حديث (١٢٣٦) وابن ماجه في "كتاب الفرائض" حديث (٢٧٤٧) وأحمد في "المسند" حديث (٥٤٩٦، ٥٨٥٠).

(٤) **صحيح**: أخرجه البخاري في "كتاب النكاح" حديث (٥١٠٩) ومسلم في "كتاب النكاح" حديث (١٤٠٨) وأبو داود في "كتاب النكاح" حديث (٢٠٦٥) والترمذي في "كتاب النكاح" حديث (١١٢٦) والنسائي في "كتاب النكاح" حديث (٣٢٩٦) وابن ماجه في "كتاب النكاح" حديث (١٩٢٩).

(٥) **صحيح**: أخرجه البخاري في "كتاب الشهادات" حديث (٢٦٤٥) وابن ماجه في "كتاب النكاح" حديث (١٩٣٨).

(٦) سورة التوبة الآية: ٣٣.

ولهذا فضح الله من كذب على رسوله فى حياته وبعد وفاته وبين حاله للناس، قال سفيان ابن عيينة: ما ستر الله أحدا يكذب فى الحديث، وقال عبد الله بن المبارك: لو هم رجل فى البحر أن يكذب فى الحديث لأصبح والناس يقولون: فلان كذاب، وخبر الواحد وإن كان يحتمل الصدق والكذب، ولكن التفريق بين صحيح الأخبار وسقيمها لا يناله أحد إلا بعد أن يكون معظم أوقاته مشتغلا بالحديث والبحث عن سير الرواة ليقف على أحوالهم وأقوالهم وشدة حذرهم من الطغيان والزلل، وكانوا بحيث لو قتلوا لم يسامحوا أحدا فى كلمة يتقولها على رسول الله ﷺ ولا فعلوا هم بأنفسهم ذلك.

وقد نقلوا هذا الدين إلينا كما نقل إليهم، فهم ترك الإسلام[1] وعصابة الإيمان وهم نقاد الأخبار وصيارفة الأحاديث، فإذا وقف المرء على هذا من شأنهم وعرف حالهم وخبر صدقهم وورعهم وأمانتهم ظهر له العلم فيما نقلوه ورووه، ومن له عقل ومعرفة يعلم أن أهل الحديث لهم من العلم بأحوال نبيهم وسيرته وأخباره ما ليس لغيرهم به شعور، فضلا أن يكون معلوما لهم أو مظنونا، كما أن النحاة عندهم من أخبار سيبويه والخليل وأقوالهما ما ليس عند غيرهم، وعند الأطباء من كلام بقراط وجالينوس ما ليس عند غيرهم، وكل ذى صنعة هو أخبر بها من غيره، فلو سألت البقال عن أمر العطر أو العطار عن البز ونحو ذلك لعد ذلك جهلا كبيرا.

ولكن النفاة قد جعلوا قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ﴾[2] مستندا لهم فى رد الأحاديث الصحيحة، فكلما جاءهم حديث يخالف قواعدهم وآراءهم وما وضعته خواطرهم وأفكارهم ردوه بـ ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ﴾ تلبسا منهم وتلبيسا على من هو أعمى قلبا منهم

---

(١) قال الشيخ أحمد شاكر: "ترك" بضم التاء المثناة والراء: جمع "تريكة" بفتح التاء وكسر الراء، وهى بيضة الحديد للرأس، يريد أنهم دروع الإسلام وحفظته، وفى المطبوعة "بزك" وهو تحريف لا معنى له، ويمكن أن تقرأ "بزل" بضم الباء الموحدة والزاى وآخرها لام، وهو جمع "بازل" وأصله وصف للبعير إذا بزل نابه، أى طلع، وهو أقصى أسنان البعير، قال فى اللسان: "وقد قالوا: رجل بازل، على التشبيه بالبعير، وربما قالوا ذلك يعنون به كماله فى عقله وتجربته، وفى حديث على:

❁ بازل عامين حديث سنى ❁

يقول: أنا مستجمع الشباب، مستكمل القوة" وليس بيدنا أصل مخطوط للشرح، حتى نستطيع أن نجزم أى اللفظين أرجح.

(٢) سورة الشورى الآية: ١١.

وتحريفا لمعنى الآى عن مواضعه، ففهموا من أخبار الصفات ما لم يرده الله ولا رسوله ولا فهمه أحد من أئمة الإسلام أنه يقتضى إثباتها التمثيل بما للمخلوقين، ثم استدلوا على بطلان ذلك ليس كمثله شيء تحريفا للنصين، ويصنفون الكتب ويقولون: هذا أصول دين الإسلام الذي أمر الله به وجاء من عنده، ويقرأون كثيرا من القرآن ويفوضون معناه إلى الله تعالى من غير تدبر لمعناه الذي بينه الرسول وأخبر أنه معناه الذي أراده الله، وقد ذم الله تعالى أهل الكتاب الأول على هذه الصفات الثلاث وقص ذلك علينا من خبرهم لنعتبر وننزجر عن مثل طريقتهم، فقال تعالى: ﴿ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ إلى أن قال: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾(١) والأماني التلاوة المجردة، ثم قال تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾(٢) فذمهم على نسبة ما كتبوه إلى الله وعلى اكتسابهم بذلك، فكلا الوصفين ذميم: أن ينسب إلى الله ما ليس من عنده، وأن يأخذ بذلك عوضا من الدنيا، مالا أو رياسة، نسأل الله أن يعصمنا من الزلل فى القول والعمل بمنه وكرمه.

ويشير الشيخ رحمه الله بقوله: من الشرع والبيان إلى أن ما صح عن النبى ﷺ نوعان: شرع ابتدائى، وبيان لما شرعه الله فى كتابه العزيز، وجميع ذلك حق واجب الاتباع.

وقوله: وأهله فى أصله سواء والتفاضل بينهم بالحقيقة ومخالفة الهوى وملازمة الأولى، وفى بعض النسخ: بالخشية والتقى بدل قوله: بالحقيقة، ففى العبارة الأولى يشير إلى أن الكل مشتركون فى أصل التصديق ولكن التصديق يكون بعضه أقوى من بعض وأثبت، كما تقدم نظيره بقوة البصر وضعفه، وفى العبارة الأخرى يشير إلى أن التفاوت بين المؤمنين بأعمال القلوب، وأما التصديق فلا تفاوت فيه، والمعنى الأول أظهر قوة، والله أعلم بالصواب.

---

(١) سورة البقرة الآيات: ٧٥: ٧٨.

(٢) سورة البقرة الآية: ٧٩.

❁ قوله: والمؤمنون كلهم أولياء الرحمن:

ش: قال تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝ ﴾(١) الولى من الولاية بفتح الواو، التى هى ضد العداوة، وقد قرأ حمزة: ﴿ مَا لَكُم مِّن وَلَـٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ ﴾(٢) بكسر الواو والباقون بفتحها، وقيل: هما لغتان، وقيل: بالفتح النصرة وبالكسر الإمارة، قال الزجاج: وجاز الكسر لأن فى تولى بعض القوم بعضا جنسا من الصناعة العمل، وكل ما كان كذلك مكسور مثل الخياطة ونحوها فالمؤمنون أولياء الله والله تعالى وليهم.

قال الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ ۗ ﴾(٣) وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾(٤) ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ ﴾(٥) وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَـٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ ﴾(٦) إلى آخر السورة، وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ۝ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ۝ ﴾(٧).

فهذه النصوص كلها ثبت فيها موالاة المؤمنين بعضهم لبعض وأنهم أولياء الله وأن الله وليهم ومولاهم، فالله يتولى عباده المؤمنين، فيحبهم ويحبونه، ويرضى عنهم ويرضون عنه، ومن عادى له وليا فقد بارزه بالمحاربة، وهذه الولاية من رحمته وإحسانه ليست كولاية المخلوق للمخلوق لحاجة إليه، قال تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ

---

(١) سورة يونس الآيتان: ٦٢، ٦٣.
(٢) سورة الأنفال الآية: ٧٢.
(٣) سورة البقرة الآية: ٢٥٧.
(٤) سورة محمد الآية: ١١.
(٥) سورة التوبة الآية: ٧١.
(٦) سورة الأنفال الآية: ٧٢.
(٧) سورة المائدة الآيتان: ٥٥، ٥٦.

﴿ شَرِيكٌ فِي ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾[١] فالله تعالى ليس له ولى من الذل، بل لله العزة جميعا خلاف الملوك وغيرهم ممن يتولاه لذله وحاجته إلى ولى ينصره.

والولاية أيضا نظير الإيمان، فيكون مراد الشيخ أن أهلها فى أصلها سواء، وتكون كاملة وناقصة، فالكاملة تكون للمؤمنين المتقين، كما قال تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ ﴾[٢] فـ ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ منصوب على أنه صفة ﴿ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ ﴾ أو بدل منه، أو بإضمار امدح، أو مرفوع بإضمار هم، أو خبر ثان لـ "إن" وأجيز فيه الجر بدلا من ضمير عليهم، وعلى هذه الوجوه كلها فالولاية لمن كان من الذين آمنوا وكانوا يتقون، وهم أهل الوعد المذكور فى الآيات الثلاث، وهى عبارة عن موافقة الولى الحميد فى محابه ومساخطه، ليس بكثرة صوم ولا صلاة ولا تملق ولا رياضة، وقيل: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ مبتدأ والخبر: ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ﴾ وهو بعيد لقطع الجملة عما قبلها وانتثار نظم الآية.

ويجتمع فى المؤمن ولاية من وجه وعداوة من وجه، كما قد يكون فيه كفر وإيمان وشرك وتوحيد وتقوى وفجور ونفاق وإيمان، وإن كان فى هذا الأصل نزاع لفظى بين أهل السنة ونزاع معنوى بينهم وبين أهل البدع، كما تقدم فى الإيمان، ولكن موافقة الشارع فى اللفظ والمعنى أولى من موافقته فى المعنى وحده، قال تعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾[٣] وقال تعالى: ﴿ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا ﴾[٤] الآية، وقد تقدم الكلام على هذه الآية وأنهم ليسوا منافقين على أصح القولين.

وقال ﷺ: "أربع من كن فيه كان منافقا خالصا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا وعد أخلف، وإذا خاصم فجر"[٥] وفى رواية: "وإذا ائتمن خان" بدل: "وإذا وعد أخلف" أخرجاه فى الصحيحين،

---

(١) سورة الإسراء الآية: ١١١.
(٢) سورة يونس الآية: ٦٢، ٦٣.
(٣) سورة يوسف الآية: ١٠٦.
(٤) سورة الحجرات الآية: ١٤.
(٥) **صحيح**: تقدم تخريجه.

وحديث شعب الإيمان تقدم، وقوله: ﷺ: "يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان"(١) فعلم أن من كان معه من الإيمان أقل القليل لم يخلد فى النار، وإن كان معه كثير من النفاق فهو يعذب فى النار على قدر ما معه من ذلك، ثم يخرج من النار، فالطاعات من شعب الإيمان والمعاصى من شعب الكفر، وإن كان رأس شعب الكفر الجحود ورأس شعب الإيمان التصديق، وأما ما يروى مرفوعا إلى النبى ﷺ أنه قال: "ما من جماعة اجتمعت إلا وفيهم ولى لله، لا هم يدرون به، ولا هو يدرى بنفسه"(٢) فلا أصل له وهو كلام باطل، فإن الجماعة قد يكونون كفارا، وقد يكونون فساقا يموتون على الفسق، وأما أولياء الله الكاملون فهم الموصوفون فى قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾(٣) والتقوى هى المذكورة فى قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ إلى قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾(٤).

وهم قسمان: مقتصدون ومقربون، فالمقتصدون الذين يتقربون الى الله بالفرائض من أعمال القلوب والجوارح، والسابقون الذين يتقربون الى الله بالنوافل بعد الفرائض، كما فى صحيح البخارى عن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "يقول الله تعالى: من عادى لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة، وما تقرب إلى عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، ولئن سألنى لأعطينه، ولئن استعاذنى لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددى عن قبض نفس عبدى المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته"(٥).

---

(١) **صحيح**: تقدم تخريجه.

(٢) باطل لا أصل له.

(٣) سورة يونس الآية: ٦٢.

(٤) سورة البقرة الآية: ١٧٧.

(٥) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب الرقاق" حديث (٦٥٠٣) والبغوى فى "كتاب الدعوات" حديث (١٢٤٨) وانظر "السلسلة الصحيحه" حديث (١٦٤٠).

والولى خلاف العدو، وهو مشتق من الولاء، وهو الدنو والتقرب، فولى الله هو من والى الله بموافقته محبوباته والتقرب إليه بمرضاته، وهؤلاء كما قال الله تعالى فيهم: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا ﴾[1] قال أبو ذر ﷺ لما نزلت الآية قال النبى ﷺ: "يا أبا ذر لو عمل الناس بهذه الآية لكفتهم"[2] فالمتقون يجعل الله لهم مخرجا مما ضاق على الناس، ويرزقهم من حيث لا يحتسبون، فيدفع الله عنهم المضار ويجلب لهم المنافع ويعطيهم الله أشياء يطول شرحها من المكاشفات والتأثيرات.

❁ قوله: وأكرمهم عند الله أطوعهم وأتبعهم للقرآن:

ش: أراد أكرم المؤمنين هو الأطوع لله والأتبع للقرآن، وهو الأتقى والأتقى هو الأكرم، قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾[3] وفى السنن عن النبى ﷺ أنه قال: "لا فضل لعربى على عجمى، ولا لعجمى على عربى، ولا لأبيض على أسود، ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى، الناس من آدم، وآدم من تراب"[4] وبهذا الدليل يظهر ضعف تنازعهم فى مسألة الفقير الصابر والغنى الشاكر وترجيح أحدهما على الآخر، وأن التحقيق أن التفضيل لا يرجع إلى ذات الفقر والغنى، وإنما يرجع إلى الأعمال والأحوال، والحقائق فالمسألة فاسدة فى نفسها، فإن التفضيل عند الله بالتقوى وحقائق الإيمان لا بفقر ولا غنى، ولهذا والله أعلم، قال عمر ﷺ: الغنى والفقر مطيتان لا أبالى أيهما ركبت والفقر، والغنى ابتلاء من الله تعالى لعبده، كما قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴾[5] فإن استويا: الفقير الصابر والغنى الشاكر فى التقوى استويا فى الدرجة، وإن فضل أحدهما فيها فهو الأفضل عند الله، فإن الفقر والغنى لا يوزنان، وإنما يوزن الصبر والشكر.

---

(١) سورة الطلاق الآيتان: ٢، ٣.

(٢) **ضعيف**: أخرجه أحمد فى "المسند" حديث (٢١٤٤٣) والحاكم فى "المستدرك" حديث (٣٨١٩) وابن ماجه فى "كتاب الزهد" حديث (٤٢٢٠) والتبريزى فى "المشكاة" حديث (٥٣٠٦) قال: الشيخ الألبانى ضعيف فى سنده انقطاع.

قلت: وهو كما قال فإن أبا السليل لم يدرك أبا ذر.

(٣) سورة الحجرات الآية: ١٣.

(٤) **صحيح**: أخرجه أحمد فى "المسند" حديث (٢٣٣٨١) قال الهيثمى: رجاله رجال الصحيح، وقال الشيخ الألبانى: صحيح لكن عزوه للسنن فيه وهم فإنه لم يروه أحد منهم.

(٥) سورة الفجر الآية: ١٥.

ومنهم من أحال المسألة من وجه آخر وهو أن الإيمان نصف صبر ونصف شكر، فكل منهما لا بد له من صبر وشكر، وإنما أخذ الناس فرعا من الصبر وفرعا من الشكر، وأخذوا فى الترجيح فجردوا غنيا منفقا متصدقا باذلا ماله فى وجوب القرب شاكرا لله عليه، وفقيرا متفرغا لطاعة الله ولأداء العبادات صابرا على فقره، وحينئذ يقال: إن أكملهما أطوعهما وأتبعهما، فإن تساويا تساوت درجتهما، والله أعلم.

ولو صح التجريد لصح أن يقال: أيما أفضل: معافى شاكر أو مريض صابر؟ أو مطاع شاكر أو مهان صابر؟ أو آمن شاكر أو خائف صابر؟ ونحو ذلك.

❁ **قوله: والإيمان هو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وحلوه ومره من الله تعالى:**

ش: تقدم أن هذه الخصال هى أصول الدين، وبها أجاب النبى ﷺ فى حديث جبرائيل المشهور، المتفق على صحته، حين جاء إلى النبى ﷺ على صورة رجل أعرابى وسأله عن الإسلام فقال: "أن تشهد لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا"[(١)] وسأله عن الإيمان فقال: "أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره" وسأله عن الإحسان فقال: "أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك"[(٢)].

وقد ثبت كذلك فى الصحيح عنه ﷺ أنه كان يقرأ فى ركعتى الفجر تارة بسورتى الإخلاص: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾[(٣)]، ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾[(٤)] وتارة بآيتى الإيمان والإسلام التى فى سورة البقرة: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا ﴾[(٥)] الآية، والتى فى آل عمران: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾[(٦)] وفسر ﷺ

(١) **صحيح:** تقدم تخريجه.
(٢) صحيح تقدم تخريجه.
(٣) سورة الكافرون الآية: ١.
(٤) سورة الإخلاص الآية: ١.
(٥) سورة البقرة الآية: ١٣٦.
(٦) سورة آل عمران الآية: ٦٤.

الإيمان فى حديث وفد عبد القيس المتفق على صحته حيث قال لهم: "آمركم بالإيمان بالله وحده، أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟ شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأن تؤدوا خمس ما غنمتم"(١).

ومعلوم أنه لم يرد أن هذه الأعمال تكون إيمانا بالله بدون إيمان القلب، لما قد أخبر فى غير موضع أنه لا بد من إيمان القلب فعلم أن هذه مع إيمان القلب هو الإيمان، وقد تقدم الكلام على هذا.

والكتاب والسنة مملوءان بما يدل على أن الرجل لا يثبت له حكم الإيمان إلا بالعمل مع التصديق، وهذا أكثر من معنى الصلاة والزكاة، فإن تلك إنما فسرتها السنة، والإيمان بين معناه الكتاب والسنة، فمن الكتاب قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾(٢) وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ ﴾(٣) وقوله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾(٤) فنفى الإيمان حتى توجد هذه الغاية دل على أن هذه الغاية فرض على الناس، فمن تركها كان من أهل الوعيد ولم يكن قد أتى بالإيمان الواجب الذى وعد أهله بدخول الجنة بلا عذاب، ولا يقال: إن بين تفسير النبى ﷺ الإيمان فى حديث جبرائيل وتفسيره إياه فى حديث وفد عبد القيس معارضة لأنه فسر الإيمان فى حديث جبرائيل بعد تفسير الإسلام فكان المعنى أنه الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر مع الأعمال التى ذكرها فى تفسير الإسلام، كما أن الإحسان متضمن للإيمان الذى قدم تفسيره قبل ذكره، بخلاف حديث وفد عبد القيس لأنه فسره ابتداء لم يتقدم قبله تفسير الإسلام.

ولكن هذا الجواب لا يتأتى على ما ذكره الشيخ رحمه الله من تفسير الإيمان فحديث وفد عبد القيس مشكل عليه.

---

(١) **صحيح**: تقدم تخريجه.
(٢) سورة الأنفال الآية: ٢.
(٣) سورة الحجرات الآية: ١٥.
(٤) سورة النساء الآية: ٦٥.

ومما يسأل عنه أنه إذا كان ما أوجبه الله من الأعمال الظاهرة أكثر من الخصال الخمس التى أجاب بها النبى ﷺ فى حديث جبرائيل المذكور، فلم قال: إن الإسلام هذه الخصال الخمس؟ وقد أجاب بعض الناس بأن هذه أظهر شعائر الإسلام وأعظمها وبقيامه بها يتم استسلامه، وتركه لها يشعر بانحلال قيد انقياده.

والتحقيق أن النبى ﷺ ذكر الدين الذى هو استسلام العبد لربه مطلقا الذى يجب لله على عباده محضه على الأعيان فيجب على كل من كان قادرا عليه ليعبد الله مخلصا له الدين، وهذه هى الخمس وما سوى ذلك فإنما يجب بأسباب مصالح فلا يعم وجوبها جميع الناس بل إما أن يكون فرضا على الكفاية كالجهاد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وما يتبع ذلك من إمارة وحكم وفتيا وإقراء وتحديث وغير ذلك، وأما ما يجب بسبب حق الآدميين فيختص به من وجب له وعليه، وقد يسقط بإسقاطه من قضاء الديون ورد الأمانات والغصوب والإنصاف من المظالم من الدماء والأموال والأعراض وحقوق الزوجة والأولاد وصلة الأرحام ونحو ذلك، فإن الواجب من ذلك على زيد غير الواجب على عمرو، بخلاف صوم رمضان وحج البيت والصلوات الخمس والزكاة، فإن الزكاة وإن كانت حقا ماليا فإنها واجبة لله والأصناف الثمانية مصارفها، ولهذا وجبت فيها النية، ولم يجز أن يفعلها الغير بلا إذنه، ولم تطلب من الكفار، وحقوق العباد لا يشترط لها النية ولو أداها غيره عنه بغير إذنه برئت ذمته، ويطالب بها الكفار، وما يجب حقا لله تعالى كالكفارات هو بسبب من العبد وفيها معنى العقوبة، ولهذا كان التكليف شرطا فى الزكاة، فلا تجب على الصغير والمجنون عند أبى حنيفة وأصحابه رحمهم الله تعالى على ما عرف فى موضعه.

وقوله: والقدر خيره وشره وحلوه ومره من الله تعالى، تقدم قوله ﷺ فى حديث جبرائيل: "وتؤمن بالقدر خيره وشره" وقال تعالى: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾[1] وقال تعالى: ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ

(١) سورة التوبة الآية: ٥١.

عندكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ ﴾[1] ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾[2].

فإن قيل: فكيف الجمع بين قوله: ﴿ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾[3] وبين قوله: ﴿ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾[4].

قيل: قوله: ﴿ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ الخصب والجدب والنصر والهزيمة كلها من عند الله، وقوله: ﴿ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ أى ما أصابك من سيئة من الله فبذنب نفسك عقوبة لك، كما قال: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾[5] يدل على ذلك ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قرأ: ﴿ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾[6] وأنا كتبتها عليك.

والمراد بالحسنة هنا النعمة وبالسيئة البلية فى أصح الأقوال، وقد قيل: الحسنة الطاعة والسيئة المعصية، وقيل: الحسنة ما أصابه يوم بدر والسيئة ما أصابه يوم أحد.

والقول الأول شامل لمعنى القول الثالث، والمعنى الثانى ليس مرادا دون الأول قطعا، ولكن لا منافاة بين أن تكون سيئة العمل وسيئة الجزاء من نفسه، مع أن الجميع مقدر فإن المعصية الثانية قد تكون عقوبة الأولى، فتكون من سيئات الجزاء مع أنها من سيئات العمل، والحسنة الثانية قد تكون من ثواب الأولى، كما دل على ذلك الكتاب والسنة، وليس للقدرية أن يحتجوا بقوله تعالى: ﴿ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ فإنهم يقولون: إن فعل العبد حسنة كان أو سيئة فهو منه لا من الله، والقرآن قد فرق بينهما وهم لا يفرقون، ولأنه قال تعالى: ﴿ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ فجعل الحسنات من عند الله كما جعل السيئات من عند الله، وهم لا يقولون بذلك فى الأعمال بل فى الجزاء، وقوله بعد هذا: ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ ﴾ و ﴿ مِن سَيِّئَةٍ ﴾ مثل قوله: ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ ﴾ و ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾.

---

(١) سورة النساء الآية: ٧٨.
(٢) سورة النساء الآية: ٧٩.
(٣) سورة النساء الآية: ٧٨.
(٤) سورة النساء الآية: ٧٩.
(٥) سورة الشورى الآية: ٣٠.
(٦) سورة النساء الآية: ٧٩.

وفرق سبحانه وتعالى بين الحسنات التى هى النعم وبين السيئات التى هى المصائب فجعل هذه من الله وهذه من نفس الإنسان، لأن الحسنة مضافة إلى الله إذ هو أحسن بها من كل وجه، فما من وجه من أوجهها إلا وهو يقتضى الإضافة إليه.

وأما السيئة فهو إنما يخلقها لحكمة وهى باعتبار تلك الحكمة من إحسانه، فإن الرب لا يفعل سيئة قط بل فعله كله حسن وخير.

ولهذا كان النبى ﷺ يقول فى الاستفتاح: "والخير كله بيدك، والشر ليس إليك" أى فإنك لا تخلق شرا محضا بل كل ما يخلقه ففيه حكمة هو باعتبارها خير، ولكن قد يكون فيه شر لبعض الناس، فهذا شر جزئى إضافى، فأما شر كلى أو شر مطلق فالرب سبحانه وتعالى منزه عنه، وهذا هو الشر الذي ليس إليه، ولهذا لا يضاف الشر إليه مفردا قط، بل إما أن يدخل فى عموم المخلوقات كقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾(١) ﴿ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾(٢) وإما أن يضاف إلى السبب كقوله: ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾(٣) وإما أن يحذف فاعله كقول الجن: ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾(٤) وليس إذا خلق ما يتأذى به بعض الحيوان لا يكون فيه حكمة، بل الله من الرحمة والحكمة لا يقدر قدره إلا الله تعالى، وليس إذا وقع فى المخلوقات ما هو شر جزئى بالإضافة يكون شرا كليا عاما، بل الأمور العامة الكلية لا تكون إلا خيرا أو مصلحة للعباد كالمطر العام وكإرسال رسول عام، وهذا مما يقتضى أنه لا يجوز أن يؤيد كذابا عليه بالمعجزات التى أيد بها الصادقين، فإن هذا شر عام للناس يضلهم فيفسد عليهم دينهم ودنياهم وأخراهم، وليس هذا كالملك الظالم والعدو، فإن الملك الظالم لا بد أن يدفع الله به من الشر أكثر من ظلمه، وقد قيل: ستون سنة بإمام ظالم خير من ليلة واحدة بلا إمام، وإذا قدر كثرة ظلمه فذاك خير فى الدين كالمصائب تكون كفارة لذنوبهم ويثابون على الصبر عليه ويرجعون فيه إلى الله ويستغفرونه ويتوبون إليه، وكذلك ما يسلط عليهم من العدو، ولهذا قد يمكن الله كثيرا من الملوك الظالمين مدة، وأما المتنبئون الكذابون فلا يطيل تمكينهم، بل

(١) سورة الرعد الآية: ١٦.

(٢) سورة النساء الآية: ٧٨.

(٣) سورة الفلق الآية: ٢.

(٤) سورة الجن الآية: ١٠.

لا بد أن يهلكهم، لأن فسادهم عام فى الدين والدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝ ﴾[(١)].

وفى قوله: ﴿ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ من الفوائد أن العبد لا يطمئن إلى نفسه ولا يسكن إليها، فإن الشر كامن فيها لا يجيء إلا منها، ولا يشتغل بملام الناس ولا ذمهم إذا أساءوا إليه، فإن ذلك من السيئات التى أصابته وهى إنما أصابته بذنوبه فيرجع إلى الذنوب ويستعيذ بالله من شر نفسه وسيئات عمله ويسأل الله أن يعينه على طاعته، فبذلك يحصل له كل خير ويندفع عنه كل شر.

ولهذا كان أنفع الدعاء وأعظمه وأحكمه دعاء الفاتحة: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝ ﴾ فإنه إذا هداه هذا الصراط أعانه على طاعته وترك معصيته فلم يصبه شر لا فى الدنيا ولا فى الآخرة، لكن الذنوب هى لوازم نفس الإنسان، وهو محتاج إلى الهدى كل لحظة، وهو إلى الهدى أحوج منه إلى الطعام والشراب، ليس كما يقوله بعض المفسرين أنه قد هداه فلماذا يسأل الهدى؟ وأن المراد التثبيت أو مزيد الهداية، بل العبد محتاج إلى أن يعلمه الله ما يفعله من تفاصيل أحواله وإلى ما يتركه من تفاصيل الأمور فى كل يوم وإلى أن يلهمه أن يعمل ذلك، فإنه لا يكفى مجرد علمه إن لم يجعله مريدا للعمل بما يعلمه، وإلا كان العلم حجة عليه، ولم يكن مهتديا ومحتاج إلى أن يجعله قادرا على العمل بتلك الإرادة الصالحة، فإن المجهول لنا من الحق أضعاف المعلوم، وما لا نريد فعله تهاونا وكسلا مثل ما نريده أو أكثر منه أو دونه، وما لا نقدر عليه مما نريده كذلك، وما نعرف جملته ولا نهتدى لتفاصيله فأمر يفوت الحصر، ونحن محتاجون إلى الهداية التامة، فمن كملت له هذه الأمور كان سؤاله سؤال تثبيت، وهى آخر الرتب، وبعد ذلك كله هداية أخرى وهى الهداية إلى طريق الجنة فى الآخرة، ولهذا كان الناس مأمورين بهذا الدعاء فى كل صلاة لفرط حاجتهم إليه، فليسوا إلى شيء أحوج منهم إلى هذا الدعاء، فيجب أن يعلم أن الله بفضل رحمته جعل هذا الدعاء من أعظم الأسباب المقتضية للخير المانعة من الشر، فقد بين القرآن أن السيئات من النفس، وإن كانت بقدر الله، وأن الحسنات كلها من الله تعالى، وإذا كان الأمر كذلك وجب أن يشكر سبحانه وأن يستغفره العبد من ذنوبه وألا يتوكل إلا عليه وحده،

---

(١) سورة الحاقة الآيات: ٤٤: ٤٦.

فلا يأتى بالحسنات إلا هو، فأوجب ذلك توحيده والتوكل عليه وحده والشكر لـــه وحـــده والاستغفار من الذنوب.

وهذه الأمور كان النبى ﷺ يجمعها فى الصلاة كما ثبت عنه فى الصحيح أنه كان إذا رفـع رأسه من الركوع يقول: "ربنا لك الحمد حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه، ملء السموات ومـــلء الأرض وملء ما شئت من شيء بعد، أهل الثناء والمجد، أحق ما قاله العبد وكلنا لك عبـــد"(١) فهذا حمد وهو شكر لله تعالى، وبيان أن حمده أحق ما قاله العبد، ثم يقول بعد ذلك: "لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد"(٢) وهذا تحقيق لوحدانيتـــه لتوحيـــد الربوبية خلقا وقدرا وبداية ونهاية، هو المعطى المانع، لا مانع لما أعطى ولا معطى لمـــا منـــع، ولتوحيد الإلهية شرعا وأمرا ونهيا وإن العباد وإن كانوا يعطون جدا ملكا وعظمة وبختا ورياسة فى الظاهر أو فى الباطن كأصحاب المكاشفات والتصرفات الخارقة فلا ينفع ذا الجد منك الجـــد، أى لا ينجيه ولا يخلصه، ولهذا قال لا ينفعه منك ولم يقل ولا ينفعه عندك، لأنه لو قيل ذلـــك أوهم أنه لا يتقرب به إليك لكن قد لا يضره، فتضمن هذا الكلام تحقيق التوحيد أو تحقيق قوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ فإنه لو قدر أن شيئا من الأسباب يكون مستقلا بـــالمطلوب وإنما يكون بمشيئة الله وتيسيره لكان الواجب أن لا يرجى إلا الله ولا يتوكل إلا عليه ولا يسأل إلا هو ولا يستغاث إلا به ولا يستعان إلا هو، فله الحمد وإليه المشتكى، وهو المستعان، وبـــه المستغاث ولا حول ولا قوة إلا به، فكيف وليس شيء من الأسباب مستقلا بمطلوب بل لا بـــد من انضمام أسباب أخر إليه، ولا بد أيضا من صرف الموانع والمعارضات عنه حـــتى يحصـــل المقصود، فكل سبب فله شريك وله ضد، فإن لم يعاونه شريكه ولم ينصرف عنه ضده لم يحصل مسببه، والمطر وحده لا ينبت النبات إلا بما يضم إليه من الهواء والتراب وغير ذلك، ثم الـــزرع لا يتم حتى تصرف عنه الآفات المفسدة له، والطعام والشراب لا يغذى إلا بما جعل فى البدن من الأعضاء والقوى، ومجموع ذلك لا يفيد إن لم تصرف عنه المفسدات.

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب الأذان" حديث (٧٩٩) وأبو داود فى "كتاب الصـــلاة" حديـــث (٧٧٠) والنسائى فى "كتاب التطبيق" حديث (١٠٦٣) وأحمد فى "المسند" حديث (٦٣٤٦).

(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم فى "كتاب الصلاة" حديث (٤٧٧) وأبو داود فى "كتاب الصلاة" حديث (٨٤٧) والنسائى فى "كتاب الصلاة" حديث (١٠٦٨) وابن ماجه فى "كتاب إقامة الصلاة" حديث (٨٨٦).

والمخلوق الذى يعطيك أو ينصرك فهو مع أن الله يجعل فيه الإرادة والقوة والفعل فلا يتم ما يفعله إلا بأسباب كثيرة خارجة عن قدرته تعاونه على مطلوبه، ولو كان ملكا مطاعا، ولا بد أن يصرف عن الأسباب المتعاونة ما يعارضها ويمانعها فلا يتم المطلوب إلا بوجود المقتضى وعدم المانع.

وكل سبب معين فإنما هو جزء من المقتضى فليس فى الوجود شيء واحد هو مقتضى تام وإن سمى مقتضيا، وسمى سائر ما يعينه شروطا فهذا نزاع لفظى، وأما أن يكون فى المخلوقات علة تامة تستلزم معلولها فهذا باطل.

ومن عرف هذا حق المعرفة انفتح له باب توحيد الله وعلم أنه لا يستحق أن يسأل غيره فضلا عن أن يعبد غيره، ولا يتوكل على غيره ولا يرجى غيره.

❁ قوله: ونحن مؤمنون بذلك كله لا نفرق بين أحد من رسله ونصدقهم كلهم على ما جاءوا به:

ش: الإشارة بذلك الى ما تقدم مما يجب الإيمان به تفصيلا، وقوله: لا نفرق بين أحد من رسله . . . إلى آخر كلامه، أى: لا نفرق بينهم بأن نؤمن ببعض ونكفر ببعض، بل نؤمن بهم ونصدقهم كلهم، فإن من آمن ببعض وكفر ببعض كافر بالكل، قال تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ﴾[1] فإن المعنى الذى لأجله آمن بمن آمن به منهم موجود فى الذى لم يؤمن به، وذلك الرسول الذى آمن به قد جاء بتصديق بقية المرسلين، فإذا لم يؤمن ببعض المرسلين كان كافرا بمن فى زعمه أنه مؤمن به، لأن ذلك الرسول قد جاء بتصديق المرسلين كلهم، فكان كافرا حقا، وهو يظن أنه مؤمن، فكان من الأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا.

❁ قوله: وأهل الكبائر من أمة محمد ﷺ فى النار لا يخلدون إذا ماتوا وهم موحدون، وإن لم يكونوا تائبين، بعد أن لقوا الله عارفين وهم فى مشيئته، وحكمه إن شاء غفر لهم وعفا عنهم بفضله كما ذكر عز وجل فى كتابه: ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾[2] وإن

---

(١) سورة النساء الآيتان: ١٥٠، ١٥١.

(٢) سورة النساء الآية: ٤٨.

شاء عذبهم فى النار بعدله، ثم يخرجهم منها برحمته وشفاعة الشافعين من أهل طاعته ثم يبعثهم إلى جنته، وذلك بأن الله تعالى تولى أهل معرفته ولم يجعلهم فى الدارين كأهل نكرته الذين خابوا من هدايته ولم ينالوا من ولايته، اللهم يا ولى الإسلام وأهله ثبتنا على الإسلام حتى نلقاك به.

ش: فقوله: وأهل الكبائر من أمة محمد ﷺ فى النار لا يخلدون إذا ماتوا، وهم موحدون رد لقول الخوارج والمعتزلة القائلين بتخليد أهل الكبائر فى النار، لكن الخوارج تقول بتكفيرهم، والمعتزلة بخروجهم عن الإيمان لا بدخولهم فى الكفر، بل لهم منزلة بين منزلتين، كما تقدم عند الكلام على قول الشيخ، رحمه الله: ولا نكفر أحدا من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله.

وقوله: وأهل الكبائر من أمة محمد، تخصيصه أمة محمد يفهم منه أن أهل الكبائر من أمة غير محمد ﷺ قبل نسخ تلك الشرائع به حكمهم مخالف لأهل الكبائر من أمة محمد، وفى ذاك نظر فإن النبى ﷺ أخبر أنه "يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان"[1] ولم يخص أمته بذلك بل ذكر الإيمان مطلقًا، فتأمله، وليس فى بعض النسخ ذكر الأمة، وقوله: "فى النار" معمول لقوله: "لا يخلدون" وإنما قدمه لأجل السجعة، لا أن يكون "فى النار" خبر لقوله: "وأهل الكبائر" كما ظنه بعض الشارحين.

واختلف العلماء فى الكبائر على أقوال فقيل: سبعة، وقيل: سبعة عشر، وقيل: ما اتفقت الشرائع على تحريمه، وقيل: ما يسد باب المعرفة بالله، وقيل: ذهاب الأموال والأبدان، وقيل: سميت كبائر بالنسبة والإضافة إلى ما دونها، وقيل: لا تعلم أصلا، أو أنَّها أُخفيت كليلة القدر، وقيل: إنَّها إلى السبعين أقرب، وقيل: كل ما نَهى الله عنه فهو كبيرة، وقيل: إنَّها ما يترتب عليها حد، أو توعد عليها بالنار أو اللعنة أو الغضب، وهذا أمثل الأقوال.

واختلفت عبارات السلف فى تعريف الصغائر، منهم من قال: الصغيرة ما دون الحدين: حد الدنيا وحد الآخرة، ومنهم من قال: كل ذنب لم يختم بلعنة أو غضب أو نار، ومنهم من قال: الصغيرة ما ليس فيها حد فى الدنيا ولا وعيد فى الآخرة، والمراد بالوعيد الوعيد الخاص بالنار أو اللعنة أو الغضب، فإن الوعيد الخاص فى الآخرة كالعقوبة الخاصة فى الدنيا، أعنى المقدرة،

(١) صحيح: متفق عليه.

فالتعزير فى الدنيا نظير الوعيد بغير النار أو اللعنة أو الغضب، وهذا الضابط يسلم من القــوادح الواردة على غيره فإنه يدخل فيه كل ما ثبت بالنص أنه كبيرة كالشرك والقتل والزنا والســحر وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات ونحو ذلك كالفرار من الزحف وأكل مال اليتيم وأكل الربا وعقوق الوالدين واليمين الغموس وشهادة الزور وأمثال ذلك.

وترجيح هذا القول من وجوه:

أحدها: أنه هو المأثور عن السلف كابن عباس وابن عيينة وابن حنبل ﷺ وغيرهم.

الثانى: أن الله تعــالى قــال: ﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾[1] فلا يستحق هذا الوعد الكريم من أوعد بغضــب الله ولعنتــه وناره وكذلك من استحق أن يقام عليه الحد لم تكن سيئاته مكفرة عنه باجتناب الكبائر.

الثالث: أن هذا الضابط مرجعه إلى ما ذكره الله ورسوله من الذنوب فهو حد متلقى مــن خطاب الشارع.

الرابع: أن هــذا الضابط يمكن الفرق به بين الكبائر والصغائر بخلاف تلك الأقوال، فــإن من قال: سبعة أو سبعة عشر أو إلى السبعين أقرب مجرد دعوى، ومن قال: ما اتفقت الشــرائع على تحريمه دون ما اختلفت فيه يقتضى أن شرب الخمر والفرار من الزحف والتزوج ببعــض المحارم والمحرم بالرضاعة والصهرية ونحو ذلك ليس من الكبائر، وأن الحبة من مال اليتيم والسرقة لها والكذبة الواحدة الخفيفة ونحو ذلك من الكبائر، وهذا فاسد، ومن قال: ما سد باب المعرفــة بالله أو ذهاب الأموال والأبدان يقتضى أن شرب الخمر وأكل الخنــزير والميتة والدم وقــذف المحصنات ليس من الكبائر، وهذا فاسد، ومن قال: إنها سميت كبائر بالنسبة إلى ما دونها أو كل ما نهى الله عنه فهو كبيرة يقتضى أن الذنوب فى نفسها لا تنقسم إلى صغائر وكبــائر، وهــذا فاسد لأنه خلاف النصوص الدالة على تقسيم الذنوب إلى صغائر وكبائر، ومن قــال: إنّــها لا تعلم أصلا، أو إنّها مبهمة فإنما أخبر عن نفسه أنه لا يعلمها فلا يمنع أن يكون قــد علمــها غيره، والله أعلم.

وقوله: وإن لم يكونوا تائبين، لأن التوبة لا خلاف أنّها تمحو الذنوب، وإنما الخلاف فى غير التائب.

---

(١) سورة النساء الآية: ٣١.

وقوله: بعد أن لقوا الله تعالى عارفين، لو قال مؤمنين بدل قوله عارفين كان أولى، لأن من عرف الله و لم يؤمن به فهو كافر، وإنما اكتفى بالمعرفة وحدها الجهم، وقوله مردود باطل، كما تقدم، فإن إبليس عارف بربه ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾(١) ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝ ﴾(٢) وكذلك فرعون وأكثر الكافرين، قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾(٣) ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾(٤) إلى غير ذلك من الآيات الدالة على هذا المعنى، وكأن الشيخ رحمه الله أراد المعرفة الكاملة المستلزمة للاهتداء التي يشير اليها أهل الطريقة، وحاشا أولئك أن يكونوا من أهل الكبائر بل هم سادة الناس وخاصتهم.

وقوله: وهم في مشيئة الله وحكمه إن شاء غفر لهم وعفا عنهم بفضله . . . إلى آخر كلامه، فصل الله تعالى بين الشرك وغيره، لأن الشرك أكبر الكبائر كما قال ﷺ، وأخبر الله تعالى أن الشرك غير مغفور، وعلق غفران ما دونه بالمشيئة، والجائز يعلق بالمشيئة دون الممتنع، ولو كان الكل سواء لما كان للتفصيل معنًى، ولأنه علق هذا الغفران بالمشيئة، وغفران الكبائر والصغائر بعد التوبة مقطوع به غير معلق بالمشيئة كما قال تعالى: ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾(٥) فوجب أن يكون الغفران المعلق بالمشيئة هو غفران الذنوب سوى الشرك بالله قبل التوبة.

وقوله: ذلك أن الله مولى أهل معرفته فيه مؤاخذة لطيفة، كما تقدم.

وقوله: اللهم يا ولي الإسلام وأهله مسكنا بالإسلام، وفي نسخة: ثبتنا على الإسلام حتى نلقاك به، روى شيخ الإسلام أبو إسماعيل الأنصاري في كتابه الفاروق بسنده عن أنس رضي الله عنه قال: كان من دعاء رسول الله ﷺ يقول: "يا ولي الإسلام وأهله مسكني بالإسلام حتى ألقاك عليه.

(١) سورة الحجر الآية: ٣٦.
(٢) سورة ص الآيتان: ٨٢، ٨٣.
(٣) سورة لقمان الآية: ٢٥.
(٤) سورة المؤمنون الآيتان: ٨٤، ٨٥.
(٥) سورة الزمر الآية: ٥٣.

ومناسبة ختم الكلام المتقدم بهذا الدعاء ظاهرة، وبمثل هذا الدعاء دعا يوسف الصديق عليه السلام، حيث قال: ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾(١) وبه دعا السحرة الذين كانوا أول من آمن بموسى صلوات الله على نبينا وعليه حيث قالوا: ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾(٢) ومن استدل بهاتين الآيتين على جواز تمنى الموت فلا دليل له فيه، فإن الدعاء إنما هو بالموت على الإسلام لا بمطلق الموت ولا بالموت الآن، والفرق ظاهر.

❁ قوله: ونرى الصلاة خلف كل بر وفاجر من أهل القبلة وعلى من مات منهم:

ش: قال ﷺ: "صلوا خلف كل بر وفاجر" رواه مكحول عن أبي هريرة ﷺ، وأخرجه الدارقطني، وقال: مكحول لم يلق أبا هريرة، وفى إسناده معاوية بن صالح، متكلم فيه، وقد احتج به مسلم فى صحيحه، وخرج له الدارقطنى أيضا، وأبو داود عن مكحول عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "الصلاة واجبة عليكم مع كل مسلم، برا كان أو فاجرا، وإن عمل بالكبائر"(٣) والجهاد واجب عليكم مع كل أمير برا كان أو فاجرا، وإن عمل الكبائر، وفى صحيح البخارى أن عبد الله بن عمر ﷺ كان يصلى خلف الحجاج بن يوسف الثقفى، وكذا أنس بن مالك، وكان الحجاج فاسقا ظالما، وفى صحيحه أيضا أن النبى ﷺ قال: "يصلون لكم فإن أصابوا فلكم ولهم، وإن أخطأوا فلكم وعليهم"(٤).

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: "صلوا خلف من قال: لا إله إلا الله، وصلوا على من مات من أهل لا إله إلا الله" أخرجه الدارقطنى من طرق وضعفها.

---

(١) سورة يوسف الآية: ١٠١.

(٢) سورة الأعراف الآية: ١٢٦.

(٣) قال الشيخ أحمد شاكر: الحديث رواه الدارقطنى ص ١٨٤، من طريق يزيد بن يزيد بن جابر عن مكحول عن أبي هريرة، مطولا، وكان لفظه فى المطبوعة ناقصا ومحرفا، وصححناه من الدارقطنى، ورواه أبو داود: ٢٥٣٣، من رواية ابن وهب: "حدثنى معاوية بن صالح ، عن العلاء بن الحارث، عن مكحول، عن أبي هريرة . . ." فذكره بنحوه، ورواه البيهقى ٣/ ١٢١، من طريق أبي داود، بإسناده، ورواه أيضا ٨/ ١٨٥ بإسناد آخر، من طريق ابن وهب، وعلته الانقطاع.

(٤) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب الأذان" حديث (٦٩٤) وأحمد فى "المسند" حديث (١٠٨٧٢، ٨٦٤٨).

اعلم رحمك الله وإيانا أنه يجوز للرجل أن يصلى خلف من لم يعلم منه بدعة ولا فسقا باتفاق الأئمة، وليس من شرط الائتمام أن يعلم المأموم اعتقاد إمامه ولا أن يمتحنه، فيقول: ماذا تعتقد؟ بل يصلى خلف المستور الحال، ولو صلى خلف مبتدع يدعو إلى بدعته أو فاسق ظاهر الفسق، وهو الإمام الراتب الذى لا يمكنه الصلاة إلا خلفه، كإمام الجمعة والعيدين، والإمام فى صلاة الحج بعرفة، ونحو ذلك، فإن المأموم يصلى خلفه عند عامة السلف والخلف، ومن ترك الجمعة والجماعة خلف الإمام الفاجر فهو مبتدع عند أكثر العلماء، والصحيح أنه يصليها ولا يعيدها، فإن الصحابة ﷺ كانوا يصلون الجمعة والجماعة خلف الأئمة الفجار، ولا يعيدون، كما كان عبد الله بن عمر يصلى خلف الحجاج بن يوسف، وكذلك أنس ﷺ، كما تقدم، وكذلك عبد الله بن مسعود ﷺ وغيره يصلون خلف الوليد بن عقبة بن أبى معيط، وكان يشرب الخمر، حتى إنه صلى بهم الصبح مرة أربعا، ثم قال: أزيدكم؟ فقال له ابن مسعود: ما زلنا معك منذ اليوم فى زيادة.

وفى الصحيح أن عثمان بن عفان ﷺ لما حصر صلى بالناس شخص فسأل سائل عثمان إنك إمام عامة، وهذا الذى صلى بالناس إمام فتنة، فقال: يا بن أخى، إن الصلاة من أحسن ما يعمل الناس، فإذا أحسنوا فأحسن معهم، وإذا أساءوا فاجتنب إساءتهم.

والفاسق والمبتدع صلاته فى نفسها صحيحة، فإذا صلى المأموم خلفه لم تبطل صلاته، لكن إنما كره من كره الصلاة خلفه لأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجب.

ومن ذلك أن من أظهر بدعة وفجورا لا يترتب إماما للمسلمين، فإنه يستحق التعزير حتى يتوب، فإن أمكن هجره حتى يتوب كان حسنا، وإذا كان بعض الناس إذا ترك الصلاة خلفه وصلى خلف غيره أثر ذلك فى إنكار المنكر حتى يتوب أو يعزل أو ينتهى الناس عن مثل ذنبه، فمثل هذا إذا ترك الصلاة خلفه كان فى ذلك مصلحة شرعية، ولم يفت المأموم الجمعة ولا جماعة، وأما إذا كان ترك الصلاة خلفه يفوت المأموم الجمعة والجماعة فهنا لا يترك الصلاة خلفه إلا مبتدع مخالف للصحابة ﷺ، وكذلك إذا كان الإمام قد رتبه ولاة الأمور، ليس فى ترك الصلاة خلفه مصلحة شرعية فهنا لا يترك الصلاة خلفه بل الصلاة خلفه أفضل، فإذا أمكن الإنسان أن لا يقدم مظهرا للمنكر فى الإمامة، وجب عليه ذلك لكن إذا ولاه غيره

ولم يمكنه صرفه عن الإمامة، أو كان لا يتمكن من صرفه عن الإمامة إلا بشر أعظم ضررا من ضرر ما أظهر من المنكر فلا يجوز دفع الفساد القليل بالفساد الكثير، ولا دفع أخف الضررين بحصول أعظمهما، فإن الشرائع جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها بحسن الإمكان، فتفويت الجمع والجماعات أعظم فسادا من الاقتداء فيهما بالإمام الفاجر، لا سيما إذا كان التخلف عنها لا يدفع فجورا فيبقى تعطيل المصلحة الشرعية بدون دفع تلك المفسدة.

وأما إذا أمكن فعل الجمعة والجماعة خلف البر فهذا أولى من فعلها خلف الفاجر وحينئذ فإذا صلى خلف الفاجر من غير عذر فهو موضع اجتهاد العلماء منهم من قال يعيد ومنهم من قال: لا يعيد وموضع بسط ذلك فى كتب الفروع.

وأما الإمام إذا نسى أو أخطأ ولم يعلم المأموم بحاله فلا إعادة على المأموم للحديث المتقدم وقد صلى عمر ﷺ وغيره وهو جنب ناسيا للجنابة فأعاد الصلاة ولم يأمر المؤمومين بالإعادة، ولو علم أن إمامه بعد فراغه كان على غير طهارة أعاد عند أبى حنيفة خلافا لمالك والشافعى وأحمد فى المشهور عنه، وكذلك لو فعل الإمام ما لا يسوغ عند المأموم وفيه تفاصيل موضعها كتب الفروع، ولو علم أن إمامه يصلى على غير وضوء فليس له أن يصلى خلفه لأنه لاعب وليس بمصل.

وقد دلت نصوص الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة أن ولى الأمر وإمام الصلاة والحاكم وأمير الحرب وعامل الصدقة يطاع فى مواضع الاجتهاد وليس عليه أن يطيع أتباعه فى موارد الاجتهاد بل عليهم طاعته فى ذلك وترك رأيهم لرأيه، فإن مصلحة الجماعة والائتلاف ومفسدة الفرقة والاختلاف أعظم من أمر المسائل الجزئية، ولهذا لم يجز للحكام أن ينقض بعضهم حكم بعض، والصواب المقطوع به صحة صلاة بعض هؤلاء خلف بعض.

يروى عن أبى يوسف أنه لما حج مع هرون الرشيد فاحتجم الخليفة وأفتاه مالك بأنه لا يتوضأ وصلى بالناس فقيل لأبى يوسف: أصليت خلفه؟ قال: سبحان الله! أمير المؤمنين! يريد بذلك أن ترك الصلاة خلف ولاة الأمور من فعل أهل البدع.

وحديث أبى هريرة والذى رواه البخارى أن رسول الله ﷺ قال: "يصلون لكم، فإن أصابوا فلكم ولهم، وإن أخطأوا فلكم وعليهم"(١) نص صحيح صريح فى أن الإمام إذا أخطأ فخطؤه عليه لا على المأموم، والمجتهد غايته أنه أخطأ بترك واجب اعتقد أنه ليس واجبًا، أو فعل محظورًا اعتقد أنه ليس محظورًا، ولا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يخالف هذا الحديث الصريح الصحيح بعد أن يبلغه، وهو حجة على من يطلق من الحنفية والشافعية والحنبلية أن الإمام إذا ترك ما يعتقد المأموم وجوبه لم يصح اقتداؤه به، فإن الاجتماع والائتلاف مما يجب رعايته وترك الخلاف المفضى إلى الفساد.

وقوله: وعلى من مات منهم، أى: ونرى الصلاة على من مات من الأبرار والفجار، وإن كان يستثنى من هذا العموم البغاة وقطاع الطريق، وكذا قاتل نفسه، خلافًا لأبى يوسف، لا الشهيد خلافا لمالك والشافعى، رحمهما الله، على ما عرف فى موضعه، لكن الشيخ إنما ساق هذا لبيان أنّا لا نترك الصلاة على من مات من أهل البدع والفجور، لا للعموم الكلى ولكن المظهرون للإسلام قسمان: إما مؤمن وإما منافق، فمن علم نفاقه لم تجز الصلاة عليه والاستغفار له، ومن لم يعلم ذلك منه صلى عليه، فإذا علم شخص نفاق شخص لم يصل هو عليه وصلى عليه من لم يعلم نفاقه، وكان عمر ﷺ لا يصلى على من لم يصل عليه حذيفة لأنه كان فى غزوة تبوك قد عرف المنافقين، وقد نهى الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ عن الصلاة على المنافقين وأخبر أنه لا يغفر لهم باستغفاره، وعلل ذلك بكفرهم بالله ورسوله، فمن كان مؤمنا بالله ورسوله لم ينه عن الصلاة عليه، ولو كان له من الذنوب الاعتقادية البدعية أو العملية أو الفجور ما له، بل قد أمره الله تعالى بالاستغفار للمؤمنين، فقال تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾(٢) فأمره سبحانه بالتوحيد والاستغفار لنفسه وللمؤمنين والمؤمنات، فالتوحيد أصل الدين والاستغفار له وللمؤمنين كماله، فالدعاء لهم بالمغفرة والرحمة وسائر الخيرات إما واجب وإما مستحب، وهو على نوعين: عام وخاص، أما العام فظاهر كما فى هذه الآية، وأما الدعاء الخاص فالصلاة على الميت، فما من مؤمن يموت إلا

(١) صحيح: تقدم تخريجه.

(٢) سورة محمد الآية: ١٩.

وقد أُمر المؤمنون أن يصلوا عليه صلاة الجنازة، وهم مأمورون فى صلاتِهم عليه أن يدعوا لـــه، كما روى أبو داود وابن ماجه عن أبى هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إذا صليتم على الميت فأخلصوا له الدعاء"(١).

❁ **قوله: ولا ننـــزل أحدًا منهم جنة ولا نارا:**

ش: يريد أنّا لا نقول عن أحد معين من أهل القبلة إنه من أهل الجنة أو من أهل النـــار إلا من أخبر الصادق ﷺ أنه من أهل الجنة كالعشرة ﷺ، وإن كنا نقول: إنه لا بد أن يدخل النـار من أهل الكبائر من شاء الله إدخاله النار ثم يخرج منها بشفاعة الشـــافعين، ولكنـــا نقـــف فى الشخص المعين فلا نشهد له بجنة ولا نار إلا عن علم، لأن الحقيقة باطنة وما مات عليه لا نحيط به، لكن نرجو للمحسنين ونخاف على المسيئين.

وللسلف فى الشهادة بالجنة ثلاثة أقوال:

أحدها: أن لا يشهد لأحد إلا للأنبياء، وهذا ينقل عن محمد ابن الحنفية والأوزاعى.

والثانى: أنه يشهد بالجنة لكل مؤمن جاء فيه النص، وهذا قول كثير من العلمـــاء وأهـــل الحديث.

والثالث: أنه يشهد بالجنة لهؤلاء ولمن شهد له المؤمنون، كما فى الصحيحين أنه مر بجنـازة فأثنوا عليها بخير فقال النبى ﷺ: "وجبت" ومر بأخرى فأثنى عليها بشر فقال: "وجبـــت" وفى رواية كرر "وجبت" ثلاث مرات، فقال عمر: يا رسول الله، ما وجبت؟ فقال رسول الله ﷺ: "هذا أثنيتم عليه خيرًا وجبت له الجنة، وهذا أثنيتم عليه شرًّا وجبت له النار، أنتم شهداء الله فى الأرض"(٢) وقال ﷺ: "توشكون أن تعلموا أهل الجنة من أهل النار" قالوا: بم يا رســـول الله؟ قال: "بالثناء الحسن والثناء السيئ"(٣) فأخبر أن ذلك مما يعلم به أهل الجنة وأهل النار.

---

(١) **صحيح:** أخرجه أبو داود فى "كتاب الجنائز" حديث (٣١٩٩) وابن ماجه "كتـــاب الجنـــائز" حديـــث (١٤٩٧) وابن حبان فى "صحيحه" (٤/ ٢٢) حديث (٣٠٧٢) قال الشيخ الألبـــانى: صحيـــح انظـــر "صحيح أبى داود حديث (٣١٩٩) و"صحيح ابن ماجه" (٣/ ١٧) حديث (١٥١٩).

(٢) **صحيح:** أخرجه البخارى فى "كتاب الجنائز" حديث (١٣٦٧) ومسلم فى "كتـــاب الجنـــائز" حديـــث (٩٤٩) والترمذى فـــى "كتاب الجنائز" حديث (١٠٥٨) والنسائى "كتاب الجنائز" حديـــث (١٩٣٢) وابن ماجه فى "كتاب الجنائز" حديث (١٤٩١).

(٣) **حسن:** أخرجه ابن ماجه فى "كتاب الزهد" حديث (٤٢٢١) قال الهيثمى: إسناده حسن رجاله ثقـــات وفى سنده أبو بكر، لم يرو عنه غير اثنين، ولم يوثقه غير ابن حبان، وانظر "صحيح ســـنن ابـــن ماجـــه" (٣/ ٣٧٤) حديث (٤٢٩٦).

❁ قوله: ولا نشهد عليهم بكفر ولا بشرك ولا بنفاق ما لم يظهر منهم شيء من ذلك، ونذر سرائرهم إلى الله تعالى:

ش: لأنّا قد أُمرنا بالحكم بالظاهر، ونُهينا عن الظن واتباع ما ليس لنا به علم، قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ ﴾(١) وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾(٢) وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾(٣).

❁ قوله: ولا نرى السيف على أحد من أمة محمد ﷺ إلا من وجب عليه السيف:

ش: في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: "لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة"(٤).

❁ قوله: ولا نرى الخروج على أئمتنا وولاة أمورنا، وإن جاروا، ولا ندعو عليهم ولا ننزع يدًا من طاعتهم، ونرى طاعتهم من طاعة الله، عز وجل، فريضة، ما لم يأمروا بمعصية وندعو لهم بالصلاح والمعافاة:

ش: قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾(٥) وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: "من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصا الله، ومن يطع الأمير فقد أطاعني، ومن يعص الأمير فقد عصاني"(٦) وعن أبي ذر ﷺ قال: إن خليلي

---

(١) سورة الحجرات الآية: ١١.

(٢) سورة الحجرات الآية: ١٢.

(٣) سورة الإسراء الآية: ٣٦.

(٤) **صحيح:** أخرجه البخاري في "كتاب الديات" حديث (٦٨٧٨) ومسلم في "كتاب القسامة" حديث (١٦٧٦) وأبو داود في "كتاب الحدود" حديث (٤٣٥٢) والترمذي في "كتاب الديات" حديث (١٤٠٢) والنسائي في "كتاب تحريم الدم" حديث (٤٠١٧) وابن ماجه في "كتاب الحدود" حديث (٢٥٣٤).

(٥) سورة النساء الآية: ٥٩.

(٦) **صحيح:** أخرجه البخاري في "كتاب الأحكام" حديث (٧١٣٧) ومسلم في "كتاب الإمارة" حديث (١٨٣٥) والنسائي في "كتاب البيعة" حديث (٤١٩٣) وابن ماجه في "كتاب الجهاد" حديث (٢٨٥٩) وأحمد في "المسند" حديث (٧٤٢٨، ٨١١٩).

أوصانى أن أسمع وأطيع وإن كان عبدًا حبشيًّا مجدع الأطراف"(١) وعند البخارى: "ولو لحبشى كأن رأسه زبيبة"(٢) وفى الصحيحين أيضا: "على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره" إلا أن يؤمر بمعصية فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة"(٣) وعن حذيفة بن اليمان قال: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركنى فقلت: يا رسول الله، إنا كنا فى جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: "نعم" فقلت: هل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: "نعم، وفيه دَخَنٌ" قال: قلت: وما دخنه؟ قال: "قوم يستنون بغير سنتى، ويهدون بغير هديى، تعرف منهم وتنكر" فقلت: هل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: "نعم، دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها" فقلت: يا رسول الله، صفهم لنا، قال: "نعم، قوم من جلدتنا يتكلمون بألسنتنا" قلت: يا رسول الله، فما ترى إذا أدركنى ذلك؟ قال: "تلزم جماعة المسلمين وإمامهم" فقلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: "فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض على أصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك"(٤).

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: "من رأى من أميره شيئا يكرهه فليصبر، فإنه من فارق الجماعة شبرا فمات فميتته جاهلية"(٥) وفى رواية: "فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه"(٦).

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم فى "كتاب الإمارة" حديث (١٨٣٧) وابن ماجه فى "كتاب الجهاد" حديث (٢٨٦٢).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب الأذان" حديث (٦٩٣) وابن ماجه فى "كتاب الجهاد" حديث (٢٨٦٠) وأحمد فى "المسند" حديث (١٢٠٦٥، ٢٧١٤١).

(٣) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب الجهاد والسير" حديث (٢٩٥٥) ومسلم فى "كتاب الإمارة" حديث (١٨٣٩) والترمذى فى "كتاب الجهاد" حديث (١٧٠٧) والنسائى فى "كتاب البيعة" حديث (٤٢١٧) وابن ماجه فى "كتاب الجهاد" حديث (٢٨٦٤) وأحمد فى "المسند" حديث (٤٦٦٨، ٦٢٧٨).

(٤) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب المناقب" حديث (٣٦٠٦) ومسلم فى "كتاب الإمارة" حديث (١٨٤٧) وابن ماجه فى "كتاب الفتن" حديث (٣٩٧٩).

(٥) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب الفتن" حديث (٧٠٥٣، ٧٠٥٤) ومسلم فى "كتاب الإمارة" حديث (١٨٤٩) وأحمد فى "المسند" حديث (٤٨٧، ٢٧٠٢).

(٦) **صحيح**: أخرجه الترمذى فى "كتاب الأمثال" حديث (٢٨٦٣) والحاكم فى "المستدرك" حديث (٤٠٦) وأحمد فى "المسند" حديث (١٧١٠٤، ١٧٧٢٧).

وعن أبي سعيد الخدرى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما"(١) وعن عوف بن مالك ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: "خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، وتصلون عليهم ويصلون عليكم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم" فقلنا: يا رسول الله، أفلا ننابذهم بالسيف عند ذلك؟ قال: "لا، ما أقاموا فيكم الصلاة، ألا من ولى عليه والٍ فرآه أتى شيئًا من معصية الله فليكره ما أتى من معصية الله ولا ينزعن يدًا من طاعته"(٢).

فقد دل الكتاب والسنة على وجوب طاعة أولى الأمر، ما لم يأمروا بمعصية، فتأمل قوله تعالى: ﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ ﴾(٣) كيف قال: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ و لم يقل: وأطيعوا أولى الأمر منكم، لأن أولى الأمر لا يُفردون بالطاعة، بل يُطاعون فيما هو طاعة الله ورسوله، وأعاد الفعل مع الرسول، لأن من يطع الرسول فقد أطاع الله فإن الرسول لا يأمر بغير طاعة الله، بل هو معصوم فى ذلك، وأما ولى الأمر فقد يأمر بغير طاعة الله، فلا يطاع إلا فيما هو طاعة لله ورسوله، وأما لزوم طاعتهم وإن جاروا فلأنه يترتب على الخروج من طاعتهم من المفاسد أضعاف ما يحصل من جورهم، بل فى الصبر على جورهم تكفير السيئات ومضاعفة الأجور، فإن الله تعالى ما سلطهم علينا إلا لفساد أعمالنا، والجزاء من جنس العمل، فعلينا الاجتهاد فى الاستغفار والتوبة وإصلاح العمل، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾(٤) وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ ﴾(٥) وقال تعالى: ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ ﴾(٦) وقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم فى "كتاب الإمارة" حديث (١٨٥٣).

(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم فى "كتاب الإمارة" حديث (١٨٥٥) وأحمد فى "المسند" حديث (٢٣٨٨١) والبيهقى فى "السنن الكبرى" (٨/ ٢٧٣) حديث (١٦٦٢٣) وابن حبان (٤٥٨٩).

(٣) سورة النساء الآية: ٥٩.

(٤) سورة الشورى الآية: ٣٠.

(٥) سورة آل عمران الآية: ١٦٥.

(٦) سورة النساء الآية: ٧٩.

بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾(١)، فإذا أراد الرعية أن يتخلصوا من ظلم الأمير الظالم فليتركوا الظلم.

وعن مالك بن دينار أنه جاء فى بعض كتب الله: أنا الله مالك الملك، قلوب الملوك بيدى، فمن أطاعنى جعلتهم عليه رحمة، ومن عصانى جعلتهم عليه نقمة، فلا تشغلوا أنفسكم بسب الملوك، لكن توبوا أعطفهم عليكم(٢).

❁ قوله: ونتبع السنة والجماعة ونجتنب الشذوذ والخلاف والفرقة:

ش: السنة طريقة الرسول ﷺ والجماعة جماعة المسلمين وهم الصحابة والتابعون لهم بإحسان إلى يوم الدين، فاتباعهم هدى وخلافهم ضلال، قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(٣) وقال: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾(٤) وقال: ﴿ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾(٥) وقال: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾(٦) وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾(٧) وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾(٨).

---

(١) سورة الأنعام الآية: ١٢٩.

(٢) قال الشيخ الألبانى: هذا من الإسرائيليات وقد رفعه بعض الضعفاء إلى النبى ﷺ رواه الطبرانى فى "الأوسط" عن أبى الدرداء، قال الهيثمى ٥/ ٢٤٩) وفيه إبراهيم بن راشد متروك.

(٣) سورة آل عمران الآية: ٣١.

(٤) سورة النساء الآية: ١١٥.

(٥) سورة النور الآية: ٥٤.

(٦) سورة الأنعام الآية: ١٥٣.

(٧) سورة آل عمران الآية: ١٠٥.

(٨) سورة الأنعام الآية: ١٥٩.

وثبت فى السنن الحديث الذى صححه الترمذى عن العرباض بن سارية قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله، كأن هذه موعظة مودع، فماذا تعهد إلينا؟ فقال: "أوصيكم بالسمع والطاعة، فإنه من يعش منكم بعدى فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة"(١) وقال ﷺ: "إن أهل الكتابين افترقوا فى دينهم على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة" يعنى الأهواء "كلها فى النار إلا واحدة، وهى الجماعة"(٢) وفى رواية قالوا: من هى يا رسول الله؟ قال: "ما أنا عليه وأصحابى"(٣) فبين ﷺ أن عامة المختلفين هالكون من الجانبين إلا أهل السنة والجماعة.

وما أحسن قول عبد الله بن مسعود ﷺ حيث قال: من كان منكم مستنًا فليستنَّ بمن قد مات، فإن الحى لا تؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمد ﷺ كانوا أفضل هذه الأمة، وأبرها قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلها تكلفًا، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم فى آثارهم وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم ودينهم، فإنَّهم كانوا على الهدى المستقيم.

وسيأتى لهذا المعنى زيادة بيان، إن شاء الله تعالى، عند قول الشيخ: ونرى الجماعة حقًّا وصوابًا والفرقة زيغًا وعذابًا.

❁ قوله: ونحب أهل العدل والأمانة ونبغض أهل الجور والخيانة:

ش: وهذا من كمال الإيمان وتمام العبودية، فإن العبادة تتضمن كمال المحبة ونهايتها وكمال الذل ونهايته، فمحبة رسل الله وأنبيائه وعباده المؤمنين من محبة الله، وإن كانت المحبة التى

---

(١) **صحيح**: أخرجه أبو داود فى "كتاب السنة" حديث (٤٦٠٧) والترمذى فى "كتاب العلم" حديث (٢٦٧٦) وابن ماجه فى "المقدمة" حديث (٤٢٠) قال الترمذى: حديث حسن صحيح وصححه الشيخ الألبانى رحمه الله انظر "صحيح سنن أبى داود" حديث (٤٦٠٧) و"صحيح سنن الترمذى" حديث (٢٦٧٦).

(٢) **صحيح**: تقدم تخريجه.

(٣) **حسن**: أخرجه الترمذى فى "كتاب الإيمان" حديث (٢٦٤١) والحاكم فى "المستدرك" حديث (١٥٥) وانظر "تحفة الأشراف" (٦/ ٣٠٤) حديث (٨٨٦٤) و"صحيح سنن الترمذى (٣/ ٥٣) حديث (٢٦٤١).

لله لا يستحقها غيره فغير الله يحب فى الله، لا مع الله، فإن المحب يحب ما يحب محبوبه، ويبغض ما يبغض، ويوالى من يواليه، ويعادى من يعاديه، ويرضى لرضائه، ويغضب لغضبه، ويأمر بما يأمر به، وينهى عما ينهى عنه، فهو موافق لمحبوبه فى كل حال، والله تعالى يحب المحسنين، ويحب المتقين، ويحب التوابين، ويحب المتطهرين، ونحن نحب من أحبه الله، والله لا يحب الخائنين، ولا يحب المفسدين، ولا يحب المستكبرين، ونحن لا نحبهم أيضا ونبغضهم موافقة له سبحانه وتعالى.

وفى الصحيحين عن النبى ﷺ: "ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان يكره أن يرجع فى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى فى النار"[١].

فالمحبة التامة مستلزمة لموافقة المحبوب فى محبوبه ومكروهه، وولايته وعداوته، ومن المعلوم أن من أحب الله المحبة الواجبة فلا بد أن يبغض أعداءه، ولا بد أن يحب ما يحبه من جهادهم، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾[٢] والحب والبغض بحسب ما فيهم من خصال الخير والشر، فإن العبد يجتمع فيه سبب الولاية وسبب العداوة، والحب والبغض، فيكون محبوبا من وجه ومبغوضا من وجه، والحكم للغالب، وكذلك حكم العبد عند الله، فإن الله قد يحب الشيء من وجه ويكرهه من وجه آخر، كما قال ﷺ فيما يروى عن ربه عز وجل: "وما ترددت فى شيء أنا فاعله ترددى عن قبض نفس عبدى المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته، ولا بد له منه"[٣] فبين أنه يتردد، لأن التردد تعارض إرادتين، وهو سبحانه يحب ما يحب عبده المؤمن ويكره ما يكرهه، وهو يكره الموت فهو يكرهه، كما قال: "وأنا أكره مساءته" وهو سبحانه قضى بالموت فهو يريد كونه، فسمى ذلك ترددا، ثم بين أنه لا بد من وقوع ذلك إذ هو يفضى إلى ما هو أحب منه.

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب الإيمان" حديث (١٦) ومسلم فى "كتاب الإيمان" حديث (٤٣) والترمذى فى "كتاب الأدب" حديث (٢٦٢٤) والنسائى فى "كتاب الإيمان" حديث (٤٩٨٧) وأحمد فى "المسند" حديث (١٣٣٤٠، ١٣٥٢٦).

(٢) سورة الصف الآية: ٤.

(٣) **صحيح**: تقدم تخريجه.

❁ قوله: ونقول: الله أعلم فيما اشتبه علينا علمه:

ش: تقدم فى كلام الشيخ رحمه الله أنه ما سلم فى دينه إلا من سلم لله عز وجل ولرسوله ﷺ ورد علم ما اشتبه عليه إلى عالمه، ومن تكلم بغير علم فإنما يتبع هواه، وقد قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ﴾(١) وقال: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝ ﴾(٢) وقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾(٣) وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ ﴾(٤).

وقد أمر الله نبيه ﷺ أن يرد علم ما لم يعلم إليه، فقال تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾(٥) ﴿ قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم ﴾(٦).

وقد قال ﷺ لما سئل عن أطفال المشركين: "الله أعلم بما كانوا عاملين"(٧).

وقال عمر رضي الله عنه: اتهموا الرأى فى الدين، فلو رأيتنى يوم أبى جندل، فلقد رأيتنى وإنى لأرد أمر رسول الله ﷺ برأيي فأجتهد ولا آلو، وذلك يوم أبى جندل، والكتاب يكتب، وقال: "اكتب بسم الله الرحمن الرحيم" قال: اكتب باسمك اللهم، فرضى رسول الله ﷺ وكتب،

(١) سورة القصص الآية: ٥٠.
(٢) سورة الحج الآيتان: ٣، ٤.
(٣) سورة غافر الآية: ٣٥.
(٤) سورة الأعراف الآية: ٣٣.
(٥) سورة الكهف الآية: ٢٦.
(٦) سورة الكهف الآية: ٢٢.
(٧) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب الجنائز" حديث (١٣٨٤) ومسلم فى "كتاب القدر" حديث (٢٦٥٩) وأبو داود فى "كتاب السنة" حديث (٤٧١١) والنسائى فى "كتاب الجنائز" حديث (١٩٤٩) وأحمد فى "المسند" حديث (١٨٤٥، ٧٣٢١).

وأبيت، فقال: "يا عمر، تراني قد رضيت وتأبى"(١)، وقال أيضًا ﷺ: السنة ما سنه الله ورسوله ﷺ، لا تجعلوا خطأ الرأى سنة للأمة.

وقال أبو بكر الصديق ﷺ: أى أرض تقلنى وأى سماء تظلنى إن قلت فى آية من كتاب الله برأيى، أو بما لا أعلم.

وذكر الحسن بن على الحلوانى حدثنا عارم حدثنا حماد بن زيد عن سعيد بن أبى صدقة عن ابن سيرين قال: لم يكن أحد أهيب لما لا يعلم من أبى بكر، و لم يكن بعد أبى بكر أهيب لما لا يعلم من عمر ﷺ، وإن أبا بكر نزلت به قضية فلم يجد فى كتاب الله منها أصلا ولا فى السنة أثرًا فاجتهد برأيه ثم قال: هذا رأيى، فإن يكن صوابًا فمن الله، وإن يكن خطأ فمنى، وأستغفر الله.

❁ **قوله: ونرى المسح على الخفين فى السفر والحضر كما جاء فى الأثر:**

ش: تواترت السنة عن رسول الله ﷺ بالمسح على الخفين وبغسل الرجلين، والرافضة تخالف هذه السنة المتواترة، فيقال لهم: الذين نقلوا عن النبى ﷺ الوضوء قولا وفعلا، والذين تعلموا الوضوء منه وتوضئوا على عهده وهو يراهم ويقرهم ونقلوه إلى من بعدهم أكثر عددًا من الذين نقلوا لفظ هذه الآية، فإن جميع المسلمين كانوا يتوضئون على عهده و لم يتعلموا الوضوء إلا منه، فإن هذا العمل لم يكن معهودًا عندهم فى الجاهلية، وهم قد رأوه يتوضأ ما لا يحصى عدده إلا الله تعالى، ونقلوا عنه ذكر غسل الرجلين فى ما شاء الله من الحديث حتى نقلوا عنه من غير وجه فى كتب الصحيح وغيرها أنه قال: "ويل للأعقاب وبطون الأقدام من النار"(٢) مع أن الفرض إذا كان مسح ظاهر القدم كان غسل الجميع كلفة لا تدعو إليها الطباع كما تدعو الطباع إلى طلب الرياسة والمال، فلو جاز الطعن فى تواتر صفة الوضوء لكان فى نقل لفظ آية الوضوء أقرب إلى الجواز، واذا قالوا لفظ الآية ثبت بالتواتر الذي لا يمكن فيه

---

(١) **حسن:** أخرجه الطبرانى فى "الكبير" (١/ ٧٢) حديث (٨٢).

(٢) **صحيح:** أخرجه البخارى ومسلم دون لفظ "وبطون الأقدام" وهو عند أحمد فى "المسند" حديث (١٧٦٣٦) وابن خزيمة (١/ ٨٤) حديث (١٦٣) والحاكم فى "المستدرك" حديث (٥٨٠) والترمذى فى "كتاب الطهارة" حديث (٤١) والدارقطنى فى "كتاب الطهارة" حديث (٣١٢).

الكذب ولا الخطأ فثبوت التواتر فى نقل الوضوء عنه أولى وأكمل، ولفظ الآية لا يخالف ما تواتر من السنة، فإن المسح كما يطلق ويراد به الإصابة، كذلك يطلق ويراد به الإسالة كما تقول العرب: تمسحت للصلاة، وفى الآية ما يدل على أنه لم يرد بمسح الرجلين المسح الذي هو قسيم الغسل بل المسح الذي الغسل قسم منه، فإنه قال: ﴿ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ﴾ و لم يقل إلى الكعاب، كما قال: ﴿ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ ﴾ فدل على أنه ليس فى كل رجل كعب واحد كما فى كل يد مرفق واحد، بل فى كل رجل كعبان، فيكون تعالى قد أمر بالمسح إلى العظمين الناتئين، وهذا هو الغسل، فإن من يمسح المسح الخاص يجعل المسح لظهور القدمين، وجعل الكعبين فى الآية غاية يرد قولهم، فدعواهم أن الفرض مسح الرجلين إلى الكعبين اللذين هما مجتمع الساق والقدم عند معقد الشراك مردود بالكتاب والسنة.

وفى الآية قراءتان مشهورتان: النصب والخفض، وتوجيه إعرابهما مبسوط فى موضعه، وقراءة النصب نص فى وجوب الغسل، لأن العطف على المحل إنما يكون إذا كان المعنى واحدا كقوله:

❁ فلسنا بالجبال ولا الحديدا ❁

وليس معنى مسحت برأسى ورجلى هو معنى مسحت رأسى ورجلى، بل ذكر الباء يفيد معنى زائدا على مجرد المسح، وهو إلصاق شيء من الماء بالرأس، فتعين العطف على قوله: ﴿ وَأَيْدِيَكُمْ ﴾ فالسنة المتواترة تقضى على ما يفهمه بعض الناس من ظاهر القرآن، فإن الرسول بين للناس لفظ القرآن ومعناه، كما قال أبو عبد الرحمن السلمى: حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن: عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبى ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا معناها، وفى ذكر المسح فى الرجلين تنبيه على قلة الصب فى الرجلين فإن السرف يعتاد فيهما كثيرا، والمسألة معروفة والكلام عليها فى كتب الفروع.

❁ قوله: والحج والجهاد ماضيان مع أولى الأمر من المسلمين، برهم وفاجرهم، إلى قيام الساعة، لا يبطلهما شيء ولا ينقضهما:

ش: يشير الشيخ، رحمه الله، إلى الرد على الرافضة حيث قالوا: لا جهاد فى سبيل الله حتى يخرج الرضى، من آل محمد، وينادى منادٍ من السماء: اتبعوه، وبطلان هذا القول أظهر من أن

يستدل عليه بدليل، وهم شرطوا فى الإمام أن يكون معصومًا اشتراطا من غير دليـــل، بـــل فى صحيح مسلم عن عوف بن مالك الأشجعى قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "خيار أئمتكـم الذين تحبونَهم ويحبونكم، وتصلون عليهم ويصلون عليكم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونَـــهم ويبغضونكم وتلعنونَهم ويلعنونكم" قال: قلت: يا رسول الله، أفلا ننابذهم عند ذلك؟ قال: "لا، ما أقاموا فيكم الصلاة، ألا من ولى عليه والٍ فرآه أتى شيئًا من معصية الله فليكره ما أتى مـــن معصية الله ولا ينـــزعن يدًا من طاعته"(١) وقد تقدم بعض نظائر هذا الحديث فى الإمامـــة، ولم يقل: إن الإمام يجب أن يكون معصومًا، والرافضة أخسر الناس صفقة فى هذه المسألة لأنَّـــهم جعلوا الإمام المعصوم هو الإمام المعدوم الذى لم ينفعهم فى دين ولا دنيا، فإنَّهم يدعـــون أنـــه الإمام المنتـــظر محمد بن الحسن العسكرى الذى دخل السرادب، فى زعمـــهم، ســـنة ســـتين ومائتين، أو قريبًا من ذلك، بسامرا، وقد يقيمون هناك دابة، إما بغلةً وإما فرسًا، ليركبـــها إذا خرج، ويقيمون هناك فى أوقات عينوا فيها من ينادى عليه بالخروج: يا مولانا اخرج، يا مولانا اخرج، ويشهرون السلاح، ولا أحد هناك يقاتلهم، إلى غير ذلك من الأمور التى يضحك عليهم منها العقلاء.

وقوله: مع أولى الأمر، برهم وفاجرهم، لأن الحج والجهاد فرضان يتعلقان بالسفر، فلا بد من سائس يسوس الناس فيهما، ويقاوم العدو، وهذا المعنى كما يحصل بالإمام البر يحصل بالإمام الفاجر.

❁ قوله: ونؤمن بالكرام الكاتبين فإن الله قد جعلهم علينا حافظين:

ش: قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ۝ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝ ﴾(٢) وقـــال: ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝ ﴾(٣) وقال تعالى: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَـٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾(٤) وقال: ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾(٥)

---

(١) **صحيح**: تقدم تخريجه.

(٢) سورة الانفطار الآيات: ١٠: ١٢.

(٣) سورة ق الآيتان: ١٧، ١٨.

(٤) سورة الرعد الآية: ١١.

(٥) سورة الزخرف الآية: ٨٠.

وقال تعالى: ﴿ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾[١] وقال تعالى: ﴿ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ ﴾[٢].

وفى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال: "يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون فى صلاة الصبح وصلاة العصر، فيصعد إليه الذين كانوا فيكم، فيسألهم، والله أعلم بهم: كيف تركتم عبادى؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون وفارقناهم وهم يصلون"[٣] وفى الحديث الآخر: "إن معكم من لا يفارقكم إلا عند الخلاء وعند الجماع، فاستحيوهم وأكرموهم"[٤].

جاء فى التفسير: اثنان عن اليمين وعن الشمال يكتبان الأعمال، صاحب اليمين يكتب الحسنات، وصاحب الشمال يكتب السيئات، وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه، واحد من ورائه وواحد أمامه، فهو بين أربعة أملاك بالنهار، وأربعة آخرين بالليل بدلا، حافظان وكاتبان، وقال عكرمة عن ابن عباس: ﴿ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ ﴾[٥] قال: ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه فإذا جاء قدر الله خلوا عنه.

وروى مسلم والإمام أحمد عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: "ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة" قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: "وإياى، لكن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرنى إلا بخير"[٦] الرواية بفتح الميم من "فأسلم" ومن رواه "فأسلم" برفع الميم فقد حرف لفظه، ومعنى "فأسلم" أى: فاستسلم وانقاد لى، فى أصح القولين، ولهذا

(١) سورة الجاثية الآية: ٢٩.

(٢) سورة يونس الآية: ٢١.

(٣) **صحيح:** تقدم تخريجه.

(٤) **ضعيف:** أخرجه الترمذى فى "كتاب الأدب" حديث (٢٨٠٠) قال الترمذى: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وقال الشيخ الألبانى: ضعيف، انظر "ضعيف سنن الترمذى" حديث (٢٨٠٠).

قلت: وهو كما قال، فإن فيه ليث بن أبى سليم، وهو ضعيف، قال يحى بن معين والنسائى: ضعيف وقال أبو عبد الله الحاكم: مجمع على سوء حفظه.

(٥) سورة الرعد الآية: ١١.

(٦) **صحيح:** أخرجه مسلم فى "كتاب صفة القيامة" حديث (٢٨١٤) والطبرانى فى "الكبير" (٧/ ٩٠٣) حديث (٧٢٢٢) والدارمى فى "كتاب الرقاق" حديث (٢٦٣٤) وأحمد فى "المسند" حديث (٣٧٧٩).

قال: "فلا يأمرنى إلا بخير" ومن قال: إن الشيطان صار مؤمنا فقد حرف معناه، فإن الشيطان لا يكون مؤمنا(١).

ومعنى: ﴿ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ (٢) قيل: حفظهم له من أمر الله أى: الله أمرهم بذلك، يشهد لذلك قراءة من قرأ: "يحفظونه بأمر الله".

ثم قد ثبت بالنصوص المذكورة أن الملائكة تكتب القول والفعل، وكذلك النية، لأنها فعل القلب، فدخلت فى عموم: ﴿ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾(٣).

ويشهد لذلك قوله ﷺ: "قال الله عز وجل: إذا هم عبدى بسيئة فلا تكتبوها عليه، فإن عملها فاكتبوها عليه سيئة، وإذا هم عبدى بحسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة، فإن عملها فاكتبوها عشرا"(٤) وقال رسول الله ﷺ: "قالت الملائكة ذاك عبد يريد أن يعمل سيئة، وهو

---

(١) قال الشيخ أحمد شاكر: والخلاف فى ضبط الميم من "فأسلم" خلاف قديم والراجح فيها الفتح، كما قال الشارح، ولكن المعنى الذى رجحه غير راجح، فقال القاضى عياض، فى مشارق الأنوار ٢: ٢١٨ "رويناه بالضم والفتح، فمن ضم رد ذلك إلى النبى ﷺ، أى: فأنا أسلم منه، ومن فتح رده إلى القرين، أى: أسلم من الإسلام، وقد روى فى غير هذه الأمهات: "فاستسلم" يريد بالأمهات: الموطأ والصحيحين، التى بنى عليها كتابه، وإن كان الحديث لم يروه مالك ولا البخارى.

وقال النووى فى شرح مسلم: "هما روايتان مشهورتان واختلفوا فى الأرجح منهما، فقال الخطابى: الصحيح المختار الرفع، ورجح القاضى عياض الفتح".

وأما الحافظ ابن حبان، فإنه روى الحديث فى صحيحه (٢: ٢٨٣، من المخطوطة المصورة) وجزم برواية فتح الميم، وقال: "فى هذا الخبر دليل على أن شيطان المصطفى ﷺ أسلم حتى لم يكن يأمره إلا بخير، لا أنه كان يسلم منه وإن كان كافرا" وهذا هو الصحيح الذى ترجحه الدلائل، وادعاء الشارح أن هذا تحريف للمعنى "فإن الشيطان لا يكون مؤمنا" انتقال نظر، فأولا: أن اللفظ فى الحديث "قرينه من الجن" لم يقل "شيطانه" وثانيا: أن الجن فيهم المؤمن والكافر، والشياطين هم كفارهم، فمن آمن منهم لم يسم شيطانا.

(٢) سورة الرعد الآية: ١١.

(٣) سورة الانفطار الآية: ١٢.

(٤) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب التوحيد" حديث (٧٥٠١) ومسلم فى "كتاب الإيمان" حديث (١٢٨) والترمذى فى "كتاب التفسير" حديث (٣٠٧٣) وأحمد فى "المسند" (٢/ ٢٤٢) وابن حبان (٣٨٠، ٣٨١).

أبصر به، فقال: ارقبوه، فإن عملها فاكتبوها بمثلها، وإن تركها فاكتبوها له حسنة، إنما تركها من جرائى"(١) خرجاهما فى الصحيحين واللفظ لمسلم.

❁ **قوله: ونؤمن بملك الموت الموكل بقبض أرواح العالمين:**

ش: قال تعالى: ﴿ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾(٢) ولا تعارض هذه الآية قوله: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾(٣) وقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ﴾(٤) لأن ملك الموت يتولى قبضها واستخراجها ثم يأخذها منه ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب ويتولونها بعده، كل ذلك بإذن الله وقضائه وقدره وحكمه وأمره، فصحت إضافة التوفى إلى كل بحسبه.

وقد اختلف فى حقيقة النفس ما هى؟ وهل هى جزء من أجزاء البدن، أو عرض من أعراضه؟ أو جسم ساكن له مودع فيه أو جوهر مجرد؟ وهل هى الروح أو غيرها؟ وهل الأمارة وهل اللوامة والمطمئنة نفس واحدة أم هى ثلاثة أنفس؟ وهل تموت الروح أو الموت للبدن وحده؟ وهذه المسألة تحتمل مجلدا، ولكن أشير إلى الكلام عليها مختصرا إن شاء الله تعالى.

فقيل: الروح قديمة، وقد أجمعت الرسل على أنها محدثة مخلوقة مصنوعة مربوبة مدبرة، وهذا معلوم بالضرورة من دينهم أن العالم محدث ومضى على هذا الصحابة والتابعون حتى نبغت نابغة ممن قصر فهمه فى الكتاب والسنة فزعم أنها قديمة، واحتج بأنها من أمر الله، وأمره غير مخلوق، وبأن الله أضافها إليه بقوله: ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾(٥) وبقوله: ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾(٦) كما أضاف إليه علمه وقدرته وسمعه وبصره ويده، وتوقف آخرون، واتفق أهل السنة والجماعة أنها مخلوقة، وممن نقل الإجماع على ذلك محمد بن نصر المروزى وابن قتيبة

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم فى "كتاب الإيمان" حديث (١٢٨) وأحمد فى "المسند" حديث (٨٢٠٣).

(٢) سورة السجدة الآية: ١١.

(٣) سورة الأنعام الآية: ٦١.

(٤) سورة الزمر الآية: ٤٢.

(٥) سورة الإسراء الآية: ٨٥.

(٦) سورة الحجر الآية: ٢٩.

وغيرهما، ومن الأدلة على أن الروح مخلوقة قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ ﴾[1] فهذا عـــام لا تخصيص فيه بوجه ما ولا يدخل فى ذلك صفات الله تعالى، فإنها داخلة فى مسمى اسمه، فالله تعالى هو الإله الموصوف بصفات الكمال، فعلمه وقدرته وحياته وسمعه وبصره وجميع صفاتـــه داخل فى مسمى اسمه، فهو سبحانه بذاته وصفاته الخالق وما سواه مخلوق، ومعلـــوم قطعـــا أن الروح ليست هى الله ولا صفة من صفاته، وإنما هى من مصنوعاتـــه، ومنـــها قولـــه تعـــالى: ﴿ هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ﴾[2] وقوله تعـــالى لزكريـــا: ﴿ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ﴾[3] والإنسان اسم لروحه وجسده والخطاب لزكريا لروحه وبدنه، والروح توصف بالوفاة والقبض والإمساك والإرسال، وهذا شــــأن المخلـــوق المحدث، وأما احتجاجهم بقوله: ﴿ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي ﴾[4] فليس المراد هنا بالأمر الطلب، بل المراد به المأمور، والمصدر يذكر ويراد به اسم المفعول، وهذا معلوم مشهور، وأما استدلالهم بإضافتها إليه بقوله: ﴿ مِن رُّوحِي ﴾[5] فينبغى أن يعلم أن المضاف إلى الله تعالى نوعان:

صفات لا تقوم بأنفسها، كالعلم والقدرة والكلام والسمع والبصر، فهذه إضافة صفـــة إلى الموصوف بها، فعلمه وكلامه وقدرته وحياته صفات له، وكذا وجهه ويده سبحانه.

والثانى: إضافة أعيان منفصلة عنه، كالبيت والناقة والعبد والرسول والروح، فهذه إضافـــة مخلوق إلى خالقه، لكن إضافة تقتضى تخصيصًا وتشريفًا يتميز به المضاف عن غيره.

واختلف فى الروح هل هى مخلوقة قبل الجسد أم بعده؟ وقد تقدم عند ذكر الميثاق الإشـاوة إلى ذلك.

واختلف فى الروح ما هى؟ فقيل: هى جسم، وقيل: عرض، وقيل: لا ندرى ما الـــــروح أجوهر أم عرض، وقيل: ليس الروح شيئًا أكثر من اعتدال الطبائع الأربع، وقيل: هـــى الـــدم الصافى الخالص من الكدرة والعفونات، وقيل: هى الحرارة الغريزية، وهى الحياة، وقيل: هـــو

---

(١) سورة الرعد الآية: ١٦.

(٢) سورة الإنسان الآية الأولى.

(٣) سورة مريم الآية: ٩.

(٤) سورة الإسراء الآية: ٨٥.

(٥) سورة الحجر الآية: ٢٩.

جوهر بسيط منبث فى العالم كله من الحيوان على جهة الإعمال له والتدبير، وهى على ما وصفت من الانبساط فى العالم غير منقسمة الذات والبنية، وأنها فى كل حيوان العالم بمعنى واحد لا غير، وقيل: النفس هى النسيم الداخل والخارج بالتنفس، وقيل غير ذلك.

وللناس فى مسمى الإنسان هل هو الروح فقط أو البدن فقط أو مجموعهما أو كل منهما، وهذه الأقوال الأربعة لهم فى كلامه هل هو اللفظ أو المعنى فقط، أو هما أو كل منهما، فالخلاف بينهم فى الناطق ونطقه، والحق أن الإنسان اسم لهما، وقد يطلق على أحدهما بقرينة، وكذا الكلام.

والذى يدل عليه الكتاب والسنة وإجماع الصحابة وأدلة العقل أن النفس جسم مخالف بالماهية لهذا الجسم المحسوس، وهو جسم نورانى علوى خفيف حى متحرك، ينفذ فى جوهر الأعضاء ويسرى فيها سريان الماء فى الورد، وسريان الدهن فى الزيتون، والنار فى الفحم، فما دامت هذه الأعضاء صالحة لقبول الآثار الفائضة عليها من هذا الجسم اللطيف بقى ذلك الجسم اللطيف ساريا فى هذه الأعضاء وأفادها هذه الآثار من الحس والحركة الإرادية، وإذا فسدت هذه بسبب استيلاء الأخلاط الغليظة عليها وخرجت عن قبول تلك الآثار فارق الروح البدن وانفصل إلى عالم الأرواح، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾(١) ففيها الإخبار بتوفيها وإمساكها وإرسالها، وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ﴾(٢) ففيها بسط الملائكة أيديهم لتناولها، ووصفها بالإخراج والخروج، والإخبار بعذابها ذلك اليوم، والإخبار عن مجيئها إلى ربها، وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ ﴾(٣) ففيها الإخبار بتوفى النفس بالليل وبعثها إلى أجسادها بالنهار، وتوفى الملائكة لها عند الموت، وقوله: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾ ﴾(٤) ففيها وصفها بالرجوع والدخول.

(١) سورة الزمر الآية: ٤٢.
(٢) سورة الأنعام الآية: ٩٣.
(٣) سورة الأنعام الآية: ٦٠.
(٤) سورة الفجر الآيات: ٢٧: ٣٠.

وقال ﷺ: "إن الروح إذا قبض تبعه البصر"(١) ففيه وصفه بالقبض وأن البصر يراه، وقال ﷺ في حديث بلال: "قبض أرواحكم وردها عليكم"(٢) وقال ﷺ: "نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة"(٣) وسيأتي في الكلام على عذاب القبر أدلة كثيرة من خطاب ملك الموت لها وأنها تخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء، وأنها تصعد ويوجد منها من المؤمن كأطيب ريح، ومن الكافر كأنتن ريح، إلى غير ذلك من الصفات، وعلى ذلك أجمع السلف ودل العقل، وليس مع من خالف سوى الظنون الكاذبة والشبه الفاسدة التي لا يعارض بها ما دل عليه نصوص الوحي والأدلة العقلية.

وأما اختلاف الناس في مسمى النفس والروح هل هما متغايران أو مسماهما واحد فالتحقيق أن النفس تطلق على أمور، وكذلك الروح، فيتحد مدلولها تارة، ويختلف تارة، فالنفس تطلق على الروح، ولكن غالب ما يسمى نفسا إذا كانت متصلة بالبدن، وأما إذا أخذت مجردة فتسمية الروح أغلب عليها، ويطلق على الدم، ففي الحديث: "ما لا نفس له سائلة لا ينجس الماء إذا مات فيه"(٤) والنفس: العين، يقال: أصابت فلانا نفس، أي عين، والنفس الذات ﴿ فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ ﴾(٥) ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾(٦) ونحو ذلك، وأما الروح فلا يطلق على البدن، لا بانفراده ولا مع النفس، وتطلق الروح على القرآن وعلى جبرائيل ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾(٧) ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴾(٨) ويطلق الروح على الهواء

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم في "كتاب الجنائز" حديث (٩٢٠) وأبو داود في "كتاب الجنائز" حديث (٣١١٨) وابن ماجه في "كتاب الجنائز" حديث (١٤٥٤).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري في "كتاب مواقيت الصلاة" حديث (٥٩٥) وأبو داود في "كتاب الصلاة" حديث (٤٣٩) وأحمد في "المسند" حديث (٢٢٥١٠).

(٣) **صحيح**: أخرجه النسائي في "كتاب الجنائز" حديث (٢٠٧٢) وابن ماجه في "كتاب الزهد" حديث (٤٢٧١) وأحمد في "المسند" حديث ١٥٧١٧) وصححه الشيخ الألباني انظر "صحيح سنن النسائي" (٢/ ٧٩) حديث (٢٠٧٢) و"الصحيحة" (٢/ ٦٩٤) حديث (٩٩٥).

(٤) هذا ليس بحديث وتقدم الكلام عليه.

(٥) سورة النور الآية: ٦١.

(٦) سورة النساء الآية: ٢٩.

(٧) سورة الشورى الآية: ٥٢.

(٨) سورة الشعراء الآية: ١٩٣.

المتردد فى بدن الإنسان أيضا، وأما ما يؤيد الله به أولياءه فهى روح أخرى، كما قال تعالى: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾[1] وكذلك القوى التى فى البدن فإنها أيضا تسمى أرواحا، فيقال: الروح الباصر والروح السامع والروح الشام، ويطلق الروح على أخص من هذا كله وهو قوة المعرفة بالله والإنابة إليه ومحبته وانبعاث الهمة إلى طلبه وإرادته، ونسبة هذا الروح إلى الروح كنسبة الروح إلى البدن، فالعلم روح والإحسان روح والمحبة روح والتوكل روح والصدق روح، والناس متفاوتون فى هذه الروح، فمن الناس من تغلب عليه هذه الأرواح فيصير روحانيا، ومنهم من يفقدها أو أكثرها فيصير أرضيا بهميا، وقد وقع فى كلام كثير من الناس أن لابن آدم ثلاثة أنفس: مطمئنة ولوامة وأمارة، قالوا: وإن منهم من تغلب عليه هذه، ومنهم من تغلب عليه هذه، كما قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴾[2] ﴿ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴾[3] ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾[4].

والتحقيق أنها نفس واحدة لها صفات، فهى أمارة بالسوء، فإذا عارضها الإيمان صارت لوامة، تفعل الذنب ثم تلوم صاحبها، وتلوم بين الفعل والترك، فإذا قوى الإيمان صارت مطمئنة، ولهذا قال النبى ﷺ: "من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن"[5] مع قوله: "لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن . . ."[6] الحديث.

واختلف الناس: هل تموت الروح أم لا؟ فقالت طائفة: تموت، لأنها نفس، وكل نفس ذائقة الموت، وقد قال تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ

(١) سورة المجادلة الآية: ٢٢.

(٢) سورة الفجر الآية: ٢٧.

(٣) سورة القيامة الآية: ٢.

(٤) سورة يوسف الآية: ٥٣.

(٥) **صحيح**: أخرجه الترمذى فى "كتاب الفتن" حيث (٢١٦٥) والنسائى فى "الكبرى" حديث (٩٢٢٥) والترمذى فى "العلل" حديث (٥٩٦) وابن أبى عاصم فى "السنة" حديث (٨٨) والحاكم فى "المستدرك" حديث (٣٨٧) وأحمد فى "المسند" (١/ ١٨) قال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبى، وصححه الشيخ الألبانى انظر "صحيح سنن الترمذى" حديث (٢١٦٥).

(٦) **صحيح**: تقدم.

وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾[١] وقال تعالى: ﴿ كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥ ﴾[٢] قالوا: وإذا كانت الملائكة تموت فالنفوس البشرية أولى بالموت، وقال آخرون: لا تموت الأرواح فإنها خلقت للبقاء، وإنما تموت الأبدان، قالوا: وقد دل على ذلك الأحاديث الدالة على نعيم الأرواح وعذابها بعد المفارقة إلى أن يرجعها الله فى أجسادها.

والصواب أن يقال: موت النفوس هو مفارقتها لأجسادها وخروجها منها، فإن أريد بموتها هذا القدر فهى ذائقة الموت، وإن أريد أنها تعدم وتفنى بالكلية فهى لا تموت بهذا الاعتبار، بل هى باقية بعد خلقها فى نعيم أو فى عذاب، كما سيأتى إن شاء الله تعالى.

وقد أخبر سبحانه أن أهل الجنة ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلۡمَوۡتَ إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰ ﴾[٣] وتلك الموتة هى مفارقة الروح للجسد، وأما قول أهل النار: ﴿ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ ﴾[٤] وقوله تعالى: ﴿ كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتًا فَأَحۡيَٰكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ﴾[٥] فالمراد أنهم كانوا أمواتا وهم نطف فى أصلاب آبائهم وفى أرحام أمهاتهم ثم أحياهم بعد ذلك ثم أماتهم ثم يحييهم يوم النشور، وليس فى ذلك إماتة أرواحهم قبل يوم القيامة، وإلا كانت ثلاث موتات، وصعق الأرواح عند النفخ فى الصور لا يلزم منه موتها فإن الناس يصعقون يوم القيامة إذا جاء الله لفصل الفضاء، وأشرقت الأرض بنوره، وليس ذلك بموت، وسيأتى ذكر ذلك إن شاء الله تعالى، وكذلك صعق موسى عليه السلام لم يكن موتا، والذى يدل عليه أن نفخة الصعق، والله أعلم، موت كل من لم يذق الموت قبلها من الخلائق، وأما من ذاق الموت أو لم يكتب عليه الموت من الحور والولدان وغيرهم، فلا تدل الآية على أنه يموت موتة ثانية، والله أعلم.

---

(١) سورة الرحمن الآيتان: ٢٦، ٢٧.

(٢) سورة القصص الآية: ٨٨.

(٣) سورة الدخان الآية: ٥٦.

(٤) سورة غافر الآية: ١١.

(٥) سورة البقرة الآية: ٢٨.

❁ **قوله: وبعذاب القبر لمن كان له أهلا، وسؤال منكر ونكير فى قبره عن ربه ودينه ونبيه على ما جاءت به الأخبار عن رسول الله ﷺ وعن الصحابة رضوان الله عليهم، والقبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران:**

ش: قال تعالى: ﴿ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ۝ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ۝ ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ۝ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۝ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝ ﴾(٢) وهذا يحتمل أن يراد به عذابهم بالقتل وغيره فى الدنيا، وأن يراد به عذابهم فى البرزخ، وهو أظهر لأن كثيرا منهم مات و لم يعذب فى الدنيا، أو المراد أعم من ذلك.

وعن البراء بن عازب ﷺ قال: كنا فى جنازة فى بقيع الغرقد فأتانا النبى ﷺ فقعد وقعدنا حوله كأن على رءوسنا الطير وهو يلحد له، فقال: "أعوذ بالله من عذاب القبر" ثلاث مرات، ثم قال: "إن العبد المؤمن إذا كان فى إقبال من الآخرة وانقطاع من الدنيا نزلت إليه الملائكة كأن على وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة فجلسوا منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: يأيتها النفس الطيبة اخرجى إلى مغفرة من الله ورضوان، قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فى السقاء فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها فى ذلك الكفن وذلك الحنوط ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض، قال: فيصعدون بها فلا يمرون بها ـــ يعنى على ملإ من الملائكة ـــ إلا قالوا: ما هذه الروح الطيبة؟ فيقولون: فلان ابن فلان ـــ بأحسن أسمائه التى كانوا يسمونه بها فى الدنيا حتى ينتهوا بها إلى السماء فيستفتحون له فيفتح له، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التى تليها، حتى ينتهى بها إلى السماء التى فيها الله، فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبدى فى عليين وأعيدوه إلى الأرض، فإنى منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى، قال: فتعاد روحه فى جسده، فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له:

---

(١) سورة غافر الآيتان: ٤٥، ٤٦.

(٢) سورة الطور الآيات: ٤٥: ٤٧.

من ربك؟ فيقول: ربى الله، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له: ما هـذا الرجل الذى بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله، فيقولان له: ما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت، فينادى مناد من السماء أن صدق عبدى فافرشوه من الجنة وافتحوا له بابا إلى الجنة، قال: فيأتيه من روحها وطيبها ويفسح له فى قبره مد بصره، قال: ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح فيقول: أبشر بالذى يسرك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول له: من أنت، فوجهك الوجه الذي يجيء بالخير، فيقول: أنا عملك الصالح، فيقول: يا رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلى ومالى، قال: وإن العبد الكافر إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه معهم المسوح، فيجلسون منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الخبيثة اخرجى إلى سخط من الله وغضب، قال: تتفرق فى جسده فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين حتى يجعلوها فى تلك المسوح، ويخرج منها كأنتن ريح خبيثة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملإ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟ فيقولون: فلان ابن فلان، بأقبح أسمائه التى كانوا يسمونه بها فى الدنيا حتى ينتهى بها إلى السماء الدنيا فيستفتح له فلا يفتح له، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ﴾(١) فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتابه فى سجين فى الأرض السفلى، فتطرح روحه طرحا، ثم قرأ: ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾(٢) فتعاد روحه فى جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه، لا أدرى، فيقولان له: ما هذا الرجل الذى بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه، لا أدرى، فينادى مناد من السماء أن كذب، فافرشوه من النار وافتحوا له بابا إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها، ويضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول: أبشر بالذى يسوءك، هذا يومك الذى كنت توعد، فيقول: من أنت؟ فوجهك

(١) سورة الأعراف الآية: ٤٠.

(٢) سورة الحج الآية: ٣١.

الوجه الذى يجيء بالشر؟ فيقـول: أنا عملك الخبيث، فيقول: رب لا تقم الســاعة"[١] رواه الامام أحمد وأبو داود، وروى النسائى وابن ماجه أوله، ورواه الحاكم وأبو عوانة الإسفرائينى فى صحيحهما وابن حبان، وذهب إلى موجب هذا الحديث جميع أهل السنة.

والحديث له شواهد من الصحيح فذكر البخارى رحمه الله عن سعيد عن قتادة عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: "إن العبد إذا وضع فى قبره وتولى عنه أصحابه إنه ليسمع قرع نعالهم فيأتيه ملكان فيقعدانه فيقولان له: ما كنت تقول فى هذا الرجل محمد ﷺ؟ فأما المؤمن فيقول: أشـهد أنه عبد الله ورسوله، فيقول له: انظر إلى مقعدك من النار أبدلك الله به مقعدًا من الجنة، فيراهما جميعا"[٢] قال قتادة: وروى لنا أنه يفسح له فى قبره . . . وذكر الحديث.

وفى الصحيحين عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ مر بقبرين فقـال: "إنـهما ليعذبان وما يعذبان فى كبير، أما أحدهما فكان لا يستبرئ من البول، وأما الآخر فكان يمشـى بالنميمة" فدعا بجريدة رطبة فشقها نصفين وقال: "لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا"[٣].

وفى صحيح أبى حاتم عن أبى هريرة قال: قال النبى ﷺ: "إذا قبر أحدكم ـ أو الإنسان ـ أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما: المنكر، وللآخر: النكير . . ."[٤] وذكر الحديث، إلخ.

وقد تواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ فى ثبوت عذاب القبر ونعيمه لمن كان لذلك أهلا، وسؤال الملكين، فيجب اعتقاد ثبوت ذلك والإيمان به، ولا نتكلم فى كيفيته، إذ ليس للعقـل

---

(١) **صحيح**: أخرجه أبو داود فى "كتاب السنة" حديث (٤٧٥٣) والنسائى فى "كتـاب الجنـائز" حديـث (٢٠٥٨) وأحمد فى "المسند" حديث (٢٦٦٧، ١٨٥٢١) وصححه الشيخ الألبانى فى "صحيح سـنن أبى داود" حديث (٤٧٥٣).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب الجنائز" حديث (١٣٣٨) وطرفه فى (١٣٧٤) ومسلم فى "كتـاب الجنة" حديث (٢٨٧٠) وأبو داود فى "كتاب السنة" حديث (٤٧٥٢) والنسائى فى "كتـاب الجنـائز" حديث (٢٠٤٩).

(٣) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب الوضوء" حديث (٢١٦) ومسلم فى "كتاب الطـهارة" حديـث (٢٩٢) وأبو داود فى "كتاب الطهارة" حديث (٢٠) والترمذى فى "كتاب الطـهارة" حديـث (٧٠) والنسائى فى "كتاب الطهارة" حديث (٣١) وابن ماجه فى "كتاب الطهارة" حديث (٣٤٧).

(٤) **حسن**: أخرجه الترمذى فى "كتاب الجنائز" حديث (١٠٧١) وابن حبان فى "كتاب أحوال الميت فى قبره" حديث (٣١١٣) وابن أبى عاصم فى "السنة" حديث (٨٦٤) قال الترمذى: هذا حديث حسن غريـب وقال الشيخ الألبانى: حسن وانظر: "صحيح سنن الترمذى" حديث (١٠٧١).

وقوف على كيفيته لكونه لا عهد له به فى هذا الدار، والشرع لا يأتى بما تحيله العقول، ولكنه قد يأتى بما تحار فيه العقول، فإن عود الروح الى الجسد ليس على الوجه المعهود فى الدنيا، بل تعاد الروح إليه إعادة غير الإعادة المألوفة فى الدنيا، فالروح لها بالبدن خمسة أنواع من التعلق متغايرة الأحكام:

أحدها: تعلقها به فى بطن الأم جنينا.

الثانى: تعلقها به بعد خروجه إلى وجه الأرض.

الثالث: تعلقها به فى حال النوم، فلها به تعلق من وجه ومفارقة من وجه.

الرابع: تعلقها به فى البرزخ، فإنها وإن فارقته وتجردت عنه فإنها لم تفارقه فراقا كليا بحيث لا يبقى لها إليه التفات ألبتة، فإنه ورد ردها إليه وقت سلام المسلم، وورد أنه يسمع خفق نعالهم حين يولون عنه، وهذا الرد إعادة خاصة لا يوجب حياة البدن قبل يوم القيامة.

الخامس: تعلقها به يوم بعث الأجساد، وهو أكمل أنواع تعلقها بالبدن ولا نسبة لما قبله من أنواع التعلق إليه، إذ هو تعلق لا يقبل البدن معه موتا ولا نوما ولا فسادا، فالنوم أخو الموت، فتأمل هذا يزح عنك إشكالات كثيرة.

وليس السؤال فى القبر للروح وحدها، كما قال ابن حزم وغيره، وأفسد منه قول من قال: إنه للبدن بلا روح، والأحاديث الصحيحة ترد القولين، وكذلك عذاب القبر يكون للنفس والبدن جميعا، باتفاق أهل السنة والجماعة، تنعم النفس وتعذب مفردة عن البدن ومتصلة به.

واعلم أن عذاب القبر هو عذاب البرزخ، فكل من مات وهو مستحق للعذاب ناله نصيبه منه، قبر أو لم يقبر، أكلته السباع، أو احترق حتى صار رمادا ونسف فى الهواء، أو صلب، أو غرق فى البحر، وصل إلى روحه وبدنه من العذاب ما يصل إلى المقبور.

وما ورد من إجلاسه واختلاف أضلاعه ونحو ذلك فيجب أن يفهم عن الرسول ﷺ مراده من غير غلو ولا تقصير، فلا يحمل كلامه ما لا يحتمله، ولا يقصر به عن مراده وما قصده من الهدى والبيان، فكم حصل بإهمال ذلك والعدول عنه من الضلال والعدول عن الصواب ما لا يعلمه إلا الله، بل سوء الفهم عن الله ورسوله أصل كل بدعة وضلالة نشأت فى الإسلام، وهو أصل كل خطأ فى الفروع والأصول، ولا سيما إن أضيف إليه سوء القصد، والله المستعان.

فالحاصل أن الدور ثلاث: دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار، وقد جعل الله لكل دار أحكاما تخصها، وركب هذا الإنسان من بدن ونفس، وجعل أحكام الدنيا على الأبدان والأرواح تبع لها، وجعل أحكام البرزخ على الأرواح والأبدان تبع لها، فإذا جاء يوم حشر الأجساد وقيام الناس من قبورهم صار الحكم والنعيم والعذاب على الأرواح والأجساد جميعا، فإذا تأملت هذا المعنى حق التأمل ظهر لك أن كون القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار مطابق للعقل، وأنه حق لا مرية فيه، وبذلك يتميز المؤمنون بالغيب من غيرهم.

ويجب أن يعلم أن النار التي فى القبر والنعيم ليس من جنس نار الدنيا ولا نعيمها، وإن كان الله تعالى يحمى عليه التراب والحجارة التي فوقه وتحته حتى يكون أعظم حرا من جمر الدنيا، ولو مسها أهل الدنيا لم يحسوا بها، بل أعجب من هذا أن الرجلين يدفن أحدهما إلى جنب صاحبه وهذا فى حفرة من النار وهذا فى روضة من رياض الجنة، لا يصل من هذا إلى جاره شيء من حر ناره، ولا من هذا إلى جاره شيء من نعيمه، وقدرة الله أوسع من ذلك وأعجب، ولكن النفوس مولعة بالتكذيب بما لم تحط به علما، وقد أرانا الله فى هذه الدار من عجائب قدرته ما هو أبلغ من هذا بكثير، وإذا شاء الله أن يطلع على ذلك بعض عباده أطلعه وغيبه عن غيره، ولو أطلع الله على ذلك العباد كلهم لزالت حكمة التكليف والإيمان بالغيب ولما تدافن الناس، كما فى الصحيح عنه ﷺ: "لولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر ما أسمع"(١) ولما كانت هذه الحكمة منتفية فى حق البهائم سمعته وأدركته.

وللناس فى سؤال منكر ونكير هل هو خاص بهذه الأمة أم لا، ثلاثة أقوال: الثالث التوقف، وهو قول جماعة منهم أبو عمر ابن عبد البر، فقال: وفى حديث زيد بن ثابت عن النبى ﷺ قال: "إن هذه الأمة تبتلى فى قبورها"(٢) منهم من يرويه: "تسأل".

وعلى هذا اللفظ يحتمل أن تكون هذه الأمة قد خصت بذلك، وهذا أمر لا يقطع به ويظهر عدم الاختصاص، والله أعلم.

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم فى "كتاب الجنة" حديث (٢٨٦٧) والنسائى فى "كتاب الجنائز" حديث (٢٠٥٨).

(٢) **صحيح**: تقدم.

وكذلك اختلف فى سؤال الأطفال أيضا، وهل يدوم عذاب القبر أو ينقطع؟ جوابه أنه نوعان:

منه ما هو دائم، كما قال تعالى: ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾(١) وكذلك فى حديث البراء بن عازب فى قصة الكافر: "ثم يفتح له باب إلى النار فينظر إلى مقعده فيها حتى تقوم الساعة"(٢) رواه الإمام أحمد فى بعض طرقه.

والنوع الثانى أنه مدة ثم ينقطع، وهو عذاب بعض العصاة الذين خفت جرائمهم، فيعذب بحسب جرمه ثم يخفف عنه، كما تقدم ذكره فى الممحصات العشرة.

وقد اختلف فى مستقر الأرواح ما بين الموت إلى قيام الساعة فقيل: أرواح المؤمنين فى الجنة، وأرواح الكافرين فى النار، وقيل: إن أرواح المؤمنين بفناء الجنة على بابها يأتيهم من روحها ونعيمها ورزقها، وقيل: على أفنية قبورهم، وقال مالك: بلغنى أن الروح مرسلة تذهب حيث شاءت، وقالت طائفة: بل أرواح المؤمنين عند الله عز وجل، ولم يزيدوا على ذلك، وقيل: إن أرواح المؤمنين بالجابية من دمشق، وأرواح الكافرين ببرهوت، بئر بحضرموت، وقال كعب: أرواح المؤمنين فى عليين، فى السماء السابعة، وأرواح الكافرين فى سجين، فى الأرض السابعة، تحت خد إبليس، وقيل أرواح المؤمنين ببئر زمزم وأرواح الكافرين ببئر برهوت، وقيل: أرواح المؤمنين عن يمين آدم، وأرواح الكفار عن شماله، قال ابن حزم وغيره: مستقرها حيث كانت قبل خلق أجسادها، وقال أبو عمر ابن عبد البر: أرواح الشهداء فى الجنة، وأرواح عامة المؤمنين على أفنية قبورهم، وعن ابن شهاب أنه قال: بلغنى أن أرواح الشهداء كطير خضر معلقة بالعرش تغدو وتروح إلى رياض الجنة، تأتى ربها كل يوم تسلم عليه، وقالت فرقة: مستقرها العدم المحض، وهذا قول من يقول: إن النفس عرض من أعراض البدن كحياته وإدراكه، وقولهم مخالف للكتاب والسنة، وقالت فرقة: مستقرها بعد الموت أبدان أخر تناسب أخلاقها وصفاتها التى اكتسبتها فى حال حياتها فتصير كل روح إلى بدن حيوان يشاكل تلك الروح، وهذا قول

(١) سورة غافر الآية: ٤٦.

(٢) تقدم

التناسخية منكرى المعاد، وهو قول خارج عن أهل الإسلام كلهم، ويضيق هذا المختصر عن بسط أدلة هذه الأقوال والكلام عليها.

ويتلخص من أدلتها أن الأرواح فى البرزخ متفاوتة أعظم تفاوت، فمنها أرواح فى أعلى عليين فى الملأ الأعلى، وهى أرواح الأنبياء، صلوات الله عليهم وسلامه، وهم متفاوتون فى منازلهم، ومنها أرواح فى حواصل طير خضر تسرح فى الجنة حيث شاءت، وهى أرواح بعض الشهداء، لا كلهم، بل من الشهداء من تحبس روحه عن دخول الجنة لدَيْنٍ عليه، كما فى المسند عن عبد الله بن جحش أن رجلا جاء إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله، ما لى إن قتلت فى سبيل الله؟ قال: "الجنة" فلما ولى قال: "إلا الدَّيْن، سارنى به جبرائيل آنفًا"[1] ومن الأرواح من يكون محبوسًا على باب الجنة، كما فى الحديث الذي قال فيه رسول الله ﷺ: "رأيت صاحبكم محبوسًا على باب الجنة" ومنهم من يكون محبوسًا فى قبره، ومنهم من يكون فى الأرض، ومنها أرواح تكون فى تنور الزناة والزوانى، وأرواح فى نهر الدم تسبح فيه وتلقم الحجارة، كل ذلك تشهد له السنة، والله أعلم.

وأما الحياة التى اختص بها الشهيد وامتاز بها عن غيره فى قوله: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾[2] وقوله: ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾[3] فهى أن الله تعالى جعل أرواحهم فى أجواف طير خضر، كما فى حديث عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أنه قال: قال رسول الله ﷺ "لما أصيب إخوانكم ــ يعنى يوم أحد ــ جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوى إلى قناديل من ذهب مظلة فى ظل العرش . . ."[4] الحديث،

(١) **صحيح:** أخرجه النسائى فى "كتاب البيوع" حديث (٤٦٨٤) وأحمد فى "المسند" حديث (١٧٣١٩، ١٧٣٢٠).

(٢) سورة آل عمران الآية: ١٦٩.

(٣) سورة البقرة الآية: ١٥٤.

(٤) **صحيح:** أخرجه الحاكم فى "المستدرك" حديث (٢٤٤٤) وأحمد فى "المسند" حديث (٢٣٨٨) وابن أبى شيبة فى "كتاب الجهاد" (٤/ ٥٦٥) حديث (٣٠) والتبريزى فى "المشكاة" حديث (٣٥٨٣) وصححه الشيخ الألبانى فى "المشكاة".

رواه الإمام أحمد وأبو داود، وبمعناه فى حديث ابن مسعود رواه مسلم فإنَّهم لما بذلوا أبدانَهم لله عز وجل حتى أتلفها أعداؤه فيه أعاضهم منها فى البرزخ أبدانًا خيرًا منها تكون فيها إلى يوم القيامة، ويكون تنعمها بواسطة تلك الأبدان أكمل من تنعم الأرواح المجردة عنها، ولهذا كانت نسمة المؤمن فى صورة طير أو كطير ونسمة الشهيد فى جوف طير.

وتأمل لفظ الحديثين، ففى الموطأ أن كعب بن مالك كان يحدث أن رسول الله ﷺ قال: "إن نسمة المؤمن طائر يعلق فى شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه"[(١)] فقوله: "نسمة المؤمن" تعم الشهيد وغيره، ثم خص الشهيد بأن قال: "هى فى جوف طير خضر" ومعلوم أنَّها إذا كانت فى جوف طير صدق عليها أنَّها طير فتدخل فى عموم الحديث الآخر بهذا الاعتبار فنصيبهم من النعيم فى البرزخ أكمل من نصيب غيرهم من الأموات على فرشهم، وإن كان الميت أعلى درجة من كثير منهم فلهم نعيم يختص به لا يشاركه فيه من هو دونه، والله أعلم.

وحرم الله على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء، كما روى فى السنن، وأما الشهداء فقد شوهد منهم بعد مدد من دفنه كما هو لم يتغير، فيحتمل بقاؤه كذلك فى تربته إلى يوم محشره، ويحتمل أنه يبلى مع طول المدة، والله أعلم، وكأنه، والله أعلم، كلما كانت الشهادة أكمل والشهيد أفضل كان بقاء جسده أطول.

❁ قوله: ونؤمن بالبعث وجزاء الأعمال يوم القيامة والعرض والحساب وقراءة الكتاب والثواب والعقاب والصراط والميزان:

ش: الإيمان بالمعاد مما دل عليه الكتاب والسنة والعقل والفطرة السليمة فأخبر الله سبحانه عنه فى كتابه العزيز، وأقام الدليل عليه ورد على منكريه فى غالب سور القرآن، وذلك أن الأنبياء عليهم السلام كلهم متفقون على الإيمان بالله، فإن الاقرار بالرب عام فى بنى آدم، وهو فطرى كلهم يقر بالرب، إلا من عاند كفرعون، بخلاف الإيمان باليوم الآخر فإن منكريه كثيرون، ومحمد ﷺ لما كان خاتم الأنبياء، وكان قد بعث هو والساعة كهاتين، وكان هو الحاشر المقفى بين تفصيل الآخرة بيانًا لا يوجد شيء من كتاب الأنبياء، ولهذا ظن طائفة من

(١) تقدم تخريجه.

المتفلسفة ونحوهم أنه لم يفصح بمعاد الأبدان إلا محمد ﷺ وجعلوا هذه حجة لهم فى أنه من باب التخييل والخطاب الجمهورى، والقرآن بين معاد النفس عند الموت ومعاد البدن عند القيامة الكبرى فى غير موضع وهؤلاء ينكرون القيامة الكبرى وينكرون معاد الأبدان، ويقول من يقول منهم: إنه لم يخبر به إلا محمد ﷺ على طريق التخيل، وهذا كذب، فإن القيامة الكبرى هى معروفة عند الأنبياء من آدم إلى نوح إلى إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم، عليهم السلام.

وقد أخبر الله بها من حين أهبط آدم فقال تعالى: ﴿ قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾(١) ﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾(٢) ولما قال إبليس اللعين: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ۝ ﴾(٣) وأما نوح عليه السلام فقال: ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۝ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۝ ﴾(٤) وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾(٥) إلى آخر القصة، وقال: ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾(٦) وقال: ﴿ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾(٧) وأما موسى عليه السلام فقال الله تعالى لما ناجاه: ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ۝ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ۝ ﴾(٨) بل مؤمن آل فرعون كان يعلم المعاد، وإنما آمن بموسى قال تعالى حكاية عنه: ﴿ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ۝ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ۝ ﴾ إلى قوله: ﴿ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْـَٔاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴾ إلى قوله: ﴿ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾(٩) وقال موسى: ﴿ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ﴾(١٠) وقد أخبر الله فى قصة البقرة: ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ

(١) سورة الأعراف الآية: ٢٤.
(٢) سورة الأعراف الآية: ٢٥.
(٣) سورة ص الآيات: ٧٩: ٨١.
(٤) سورة نوح الآيتان: ١٧، ١٨.
(٥) سورة الشعراء الآية: ٨٢.
(٦) سورة إبراهيم الآية: ٤١.
(٧) سورة البقرة الآية: ٢٦٠.
(٨) سورة طه الآيتان: ١٥، ١٦.
(٩) سورة غافر الآيات: ٣٢: ٤٦.
(١٠) سورة الأعراف الآية: ١٥٦.

﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[(١)] وقد أخبر الله أنه أرسل الرسل مبشرين ومنذرين، فى آيات من القرآن، وأخبر عن أهل النار أنهم إذا قال لهم خزنتها: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[(٢)] وهذا اعتراف من أصناف الكفار الداخلين جهنم أن الرسل أنذرتهم لقاء يومهم هذا.

فجميع الرسل أنذروا بما أنذر به خاتمهم من عقوبات المذنبين فى الدنيا والآخرة، فعامة سور القرآن التى فيها ذكر الوعد والوعيد يذكر ذلك فيها فى الدنيا والآخرة، وأمر نبيه أن يقسم به على المعاد فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ﴾[(٣)] الآيات، وقال تعالى: ﴿۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾[(٤)] وقال: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾[(٥)] وأخبر عن اقترابها فقال: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾[(٦)] ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾[(٧)] ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ إلى أن قال: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝﴾[(٨)] وذم للكنبين بالمعاد فقال: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾[(٩)] ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾[(١٠)] ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾[(١١)] ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ إلى أن قال: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ﴾[(١٢)] ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[(١٣)] ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ۝ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟

---

(١) سورة البقرة الآية: ٧٣.
(٢) سورة الزمر الآية: ٧١.
(٣) سورة سبأ الآية: ٣.
(٤) سورة يونس الآية: ٥٣.
(٥) سورة التغابن الآية: ٧.
(٦) سورة القمر الآية الأولى.
(٧) سورة الأنبياء الآية الأولى.
(٨) سورة المعارج الآيات: ١: ٧.
(٩) سورة الأنعام الآية: ٣١.
(١٠) سورة الشورى الآية: ١٨.
(١١) سورة النمل الآية: ٦٦.
(١٢) سورة النحل الآيتان: ٣٨، ٣٩.
(١٣) سورة غافر الآية: ٥٩.

بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٲتِ وَٱلۡأَرۡضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۡ وَجَعَلَ لَهُمۡ أَجَلًا لَّا رَيۡبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّـٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ ﴾[1] ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوۡ خَلۡقًا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِى صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ ﴾[2].

فتأمل ما أجيبوا به عن كل سؤال على التفصيل: فإنهم قالوا أولا: ﴿ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ﴾ فقيل لهم فى جواب هذا السؤال: إن كنتم تزعمون أنه لا خالق لكم ولا رب لكم فهلا كنتم خلقا لا يفنيه الموت كالحجارة والحديد وما هو أكبر فى صدوركم من ذلك، فإن قلتم: كنا خلقا على هذه الصفة التى لا تقبل البقاء فما الذى يحول بين خالقكم ومنشئكم وبين إعادتكم خلقا جديدا.

وللحجة تقدير آخر وهو: لو كنتم من حجارة أو حديد أو خلق أكبر منهما فإنه قادر على أن يفنيكم ويحيل ذواتكم وينقلها من حال إلى حال، ومن يقدر على التصرف فى هذه الأجسام مع شدتها وصلابتها بالإفناء والإحالة فما الذي يعجزه فيما دونها، ثم أخبر أنهم يسألون آخر بقولهم: ﴿ مَن يُعِيدُنَاۖ ﴾ إذا استحالت جسومنا وفنيت؟ فأجابهم بقوله: ﴿ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ ﴾ فلما أخذتهم الحجة ولزمهم حكمها انتقلوا إلى سؤال آخر يتعللون به بعلل المنقطع وهو قولهم: ﴿ مَتَىٰ هُوَۖ ﴾ فأجيبوا بقوله: ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾.

ومن هذا قوله: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡىِ ٱلۡعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴾[3] إلى آخر السورة، فلو رام أعلم البشر وأفصحهم وأقدرهم على البيان أن يأتى بأحسن من هذه الحجة أو بمثلها بألفاظ تشابه هذه الألفاظ فى الإيجاز ووضح الأدلة وصحة البرهان لما قدر، فإنه سبحانه افتتح هذه الحجة بسؤال أورده ملحد اقتضى جوابا، فكان فى قوله: ﴿ وَنَسِىَ خَلۡقَهُۥۖ ﴾

---

(١) سورة الإسراء الآيات: ٩٧: ٩٩.

(٢) سورة الإسراء الآيات: ٤٩: ٥٢.

(٣) سورة يس الآية: ٧٨.

ما وفى بالجواب وأقام الحجة وأزال الشبهة، لما أراد سبحانه من تأكيد الحجة وزيادة تقريرها فقال: ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾(١) فاحتج بالإبداء على الإعادة وبالنشأة الأولى على النشأة الأخرى، إذ كل عاقل يعلم ضروريا أن من قدر على هذه قدر على هذه، وأنه لو كان عاجزا عن الثانية لكان عن الأولى أعجز وأعجز، ولما كان الخلق يستلزم قدرة الخالق على المخلوق وعلمه بتفاصيل خلقه أتبع ذلك بقوله: ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾(٢) فهو عليم بتفاصيل الخلق الأول وجزئياته ومواده وصورته فكذلك الثانى، فإذا كان تام العلم كامل القدرة كيف يتعذر عليه أن يحيى العظام وهى رميم، ثم أكد الأمر بحجة قاهرة وبرهان ظاهر يتضمن جوابا عن سؤال ملحد آخر يقول: العظام إذا صارت رميما عادت طبيعتها باردة يابسة والحياة لا بد أن تكون مادتها وحاملها طبيعة حارة رطبة، بما يدل على أمر البعث ففيه الدليل والجواب معا، فقال: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾(٣) فأخبر سبحانه بإخراج هذا العنصر الذي هو فى غاية الحرارة واليبوسة من الشجر الأخضر الممتلئ بالرطوبة والبرودة، فالذى يخرج الشيء من ضده وتنقاد له مواد المخلوقات وعناصرها ولا تستعصى عليه هو الذي يفعل ما أنكره الملحد ودفعه من إحياء العظام وهى رميم، ثم أكد هذا بأخذ الدلالة من الشيء الأجل الأعظم على الأيسر الأصغر، فإن كل عاقل يعلم أن من قدر على العظيم الجليل فهو على ما دونه بكثير أقدر وأقدر، فمن قدر على حمل قنطار فهو على حمل أوقية أشد اقتدارا، فقال: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾(٤) فأخبر أن الذى أبدع السموات والأرض على جلالتهما وعظم شأنهما وكبر أجسامها وسعتهما وعجيب خلقهما أقدر على أن يحيى عظاما قد صارت رميما، فيردها إلى حالتها الأولى، كما قال فى موضع آخر: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾(٥) وقال: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ

---

(١) سورة يس الآية: ٧٩.

(٢) سورة يس الآية: ٧٩.

(٣) سورة يس الآية: ٨٠.

(٤) سورة يس الآية: ٨١.

(٥) سورة غافر الآية: ٥٧.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (١) ثم أكد سبحانه ذلك وبينه ببيان آخر وهو أنه ليس فعله بمنزلة غيره الذي يفعل بالآلآت والكلفة والنصب والمشقة، ولا يمكنه الاستقلال بالفعل، بل لا بد معه من آله ومعين، بل يكفى فى خلقه لما يريد أن يخلقه ويكونه نفس إرادته، وقوله للمكون: كن فإذا هو كائن كما شاءه وأراده، ثم ختم هذه الحجة بإخباره أن ملكوت كل شيء بيده فيتصرف فيه بفعله، وقوله: ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٢) ومن هذا قوله سبحانه: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾ (٣) فاحتج سبحانه على أنه لا يتركه مهملا عن الأمر والنهى والثواب والعقاب، وأن حكمته وقدرته تأبى ذلك أشد الإباء، كما قال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ (٤) إلى آخر السورة، فإن من نقله من النطفة إلى العلقة ثم إلى المضغة ثم شق سمعه وبصره وركب فيه الحواس والقوى والعظام والمنافع والأعصاب والرباطات، التي هى أشده وأحكم خلقه غاية الإحكام، وأخرجه على هذا الشكل والصورة التي هى أتم الصور وأحسن الأشكال، كيف يعجز عن إعادته وإنشائه مرة ثانية أم كيف تقتضى حكمته وعنايته أن يتركه سدى، فلا يليق ذلك بحكمته ولا تعجز عنه قدرته.

فانظر إلى هذا الاحتجاج العجيب بالقول الوجيز الذى لا يكون أوجز منه، والبيان الجليل الذى لا يتوهم أوضح منه، ومأخذه القريب الذى لا تقع الظنون على أقرب منه، وكم فى القرآن من مثل هذا الاحتجاج، كما فى قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ إلى أن قال: ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ (٥) وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ إلى أن قال: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ

(١) سورة يس الآية: ٨١.
(٢) سورة يس الآية: ٨٣.
(٣) سورة القيامة الآيات: ٣٦: ٤٠.
(٤) سورة المؤمنون الآية: ١١٥.
(٥) سورة الحج الآيات: ٥: ٧.

ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴾(١) وذكر قصة أصحاب الكهف وكيف أبقاهم موتى ثلاثمائة سنة شمسية وهى ثلاثمائة وتسع سنين قمرية، وقال فيها: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ ﴾(٢).

والقائلون بأن الأجسام مركبة من الجواهر المفردة لهم فى المعاد خبط واضطراب وهم فيه على قولين: منهم من يقول: تعدم الجواهر ثم تعاد، ومنهم من يقول: تفرق الأجزاء ثم تجمع، فأورد عليهم الإنسان الذى يأكله حيوان، وذلك الحيوان أكله إنسان، فإن أعيدت تلك الأجزاء من هذا لم تعد من هذا، وأورد عليهم أن الإنسان يتحلل دائما، فماذا الذى يعاد؟ أهو الذى كان وقت الموت؟ فإن قيل بذلك لزم أن يعاد على صورة ضعيفة وهو خلاف ما جاءت به النصوص، وإن كان غير ذلك فليس بعض الأبدان بأولى من بعض، فادعى بعضهم أن فى الإنسان أجزاء أصلية لا تتحلل ولا يكون فيها شيء من ذلك الحيوان الذى أكله الثانى، والعقلاء يعلمون أن بدن الإنسان نفسه كله يتحلل ليس فيه شيء باق، فصار ما ذكروه فى الميعاد مما قوى شبهة المتفلسفة فى إنكار معاد الأبدان.

والقول الذى عليه السلف وجمهور العقلاء أن الأجسام تنقلب من حال الى حال فتستحيل ترابا ثم ينشئها الله نشأة أخرى كما استحال فى النشأة الأولى، فإنه كان نطفة ثم صار علقة ثم صار مضغة ثم صار عظاما ولحما ثم أنشأه خلقا سويا، كذلك الإعادة يعيده الله بعد أن يبلى كله إلا عجب الذنب، كما ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال: "كل ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب، منه خلق ابن آدم ومنه يركب"(٣) وفى حديث آخر: "إن السماء تمطر مطرا كمنى الرجال ينبتون فى القبور كما ينبت النبات"(٤).

(١) سورة المؤمنون الآيات: ١٢: ١٦.

(٢) سورة الكهف الآية: ٢١.

(٣) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب التفسير" حديث (٤٨١٤) ومسلم فى "كتاب الفتن" حديث (٢٩٥٥).

(٤) **ضعيف**: أخرجه الطبرانى فى "الكبير" (٩/ ٣٥٤) حديث (٩٧٦١) والحاكم فى "المستدرك" (٤/ ٥٩٨) قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه وتعقبه الذهبى بقوله: قلت: ما احتجا بأبى الزعراء، وقال الشيخ الألبانى: **ضعيف**: منقطع بين أبى الزعراء واسمه يحيى بن الوليد، لم يرو عن أحد من الصحابة.

فالنشأتان نوعان تحت جنس يتفقان ويتماثلان من وجه ويفترقان ويتنوعان من وجه، والمعاد هو الأول بعينه، وإن كان بين لوازم الإعادة ولوازم البداءة فرق فعجب الذنب هو الذى يبقى وأما سائره فيستحيل فيعاد من المادة التى استحال إليها.

ومعلوم أن من رأى شخصا وهو صغير ثم رآه وقد صار شيخا علم أن هذا هو ذاك مع أنه دائما فى تحلل واستحالة، وكذلك سائر الحيوان والنبات، فمن رأى شجرة وهى صغيرة ثم رآها كبيرة قال: هذه تلك.

وليست صفة تلك النشأة الثانية مماثلة لصفة هذه النشأة حتى يقال: إن الصفات هى المغيرة لا سيما أهل الجنة إذا دخلوها فإنهم يدخلونها على صورة آدم: طوله ستون ذراعا، كما ثبت فى الصحيحين وغيرهما، وروى أن عرضه سبعة أذرع، وتلك نشأة باقية غير معرضة للآفات، وهذه النشأة فانية معرضة للآفات.

وقوله: وجزاء الأعمال، قال تعالى: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴾[١].

والدين: الجزاء، يقال: كما تدين تدان، أى كما تجازى تجازى.

وقال تعالى: ﴿ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[٢] ﴿ جَزَآءً وِفَاقًا ﴾[٣] ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾[٤] ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ۝ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ ﴾[٥] ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[٦] وأمثال ذلك.

---

(١) سورة النور الآية: ٢٥.

(٢) سورة السجدة الآية: ١٧.

(٣) سورة النبأ الآية: ٢٦.

(٤) سورة الأنعام الآية: ١٦٠.

(٥) سورة النمل الآيتان: ٨٩، ٩٠.

(٦) سورة القصص الآية: ٨٤.

وقال ﷺ فيما يروى عن ربه عز وجل من حديث أبى ذر الغفارى ﷺ: "يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه"(١) وسيأتى لذلك زيادة بيان عن قريب، إن شاء الله تعالى.

وقوله: والعرض والحساب وقراءة الكتاب والثواب والعقاب، قال تعالى: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۝ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ۝ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ۝ ﴾(٢) إلى آخر السورة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ۝ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ۝ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ۝ ﴾(٣) ﴿ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ۝ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ۝ ﴾(٤) ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ۝ ﴾(٥) إلى آخر السورة ﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ إلى قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾(٦) ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝ ﴾(٧).

وروى البخارى رحمه الله فى صحيحه عن عائشة أن النبى ﷺ قال: "ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك" فقلت: يا رسول الله، أليس قد قال الله: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝

(١) **صحيح**: تقدم تخريجه.

(٢) سورة الحاقة الآيات: ١٥: ١٨.

(٣) سورة الانشقاق الآيات: ٦: ١٥.

(٤) سورة الكهف الآيتان: ٤٨، ٤٩.

(٥) سورة إبراهيم الآية: ٤٨.

(٦) سورة غافر الآيات: ١٥: ١٧.

(٧) سورة البقرة الآية: ٢٨١.

فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾﴾[(١)] فقال رسول الله ﷺ: "إنما ذلك العرض، وليس أحد يناقش الحساب يوم القيامة إلا عذب"[(٢)] يعنى أنه لو ناقش فى حسابه لعبيده لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولكنه تعالى يعفو ويصفح، وسيأتى لذلك زيادة بيان إن شاء الله تعالى.

وفى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال: "إن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق، فإذا موسى آخذ بقائمة العرش، فلا أدرى أفاق قبلى أم جوزى بصعقة يوم الطور"[(٣)] وهذا صعق فى موقف القيامة إذا جاء الله لفصل القضاء وأشرقت الأرض بنوره، فحينئذ يصعق الخلائق كلهم.

فإن قيل: كيف تصنعون بقوله فى الحديث: "إن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من تنشق عنه الأرض فأجد موسى باطشا بقائمة العرش"[(٤)].

قيل: لا ريب أن هذا اللفظ قد ورد هكذا، ومنه نشأ الإشكال، ولكنه دخل فيه على الراوى حديث فى حديث، فركب بين اللفظين فجاء هذان الحديثان هكذا: أحدهما: أن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق، كما تقدم، والثانى: "أنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة"[(٥)] فدخل على الراوى هذا الحديث فى الآخر.

وممن نبه على هذا أبو الحجاج المزى وبعده الشيخ شمس الدين ابن القيم وشيخنا الشيخ عماد الدين ابن كثير، رحمهم الله، وكذلك اشتبه على بعض الرواة فقال: "فلا أدرى أفاق قبلى أم كان ممن استثنى الله عز وجل" والمحفوظ الذى تواطأت عليه الروايات الصحيحة هو الأول وعليه المعنى الصحيح، فإن الصعق يوم القيامة لتجلى الله لعباده إذا جاء لفصل القضاء،

---

(١) سورة الانشقاق الآيتان: ٧، ٨.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب العلم" حديث (١٠٣) وأطرافه فى (٤٩٣٩، ٦٥٣٦، ٦٥٣٧) ومسلم فى "كتاب الجنة" حديث (٢٨٧٦) وأبو داود فى "كتاب الجنائز" حديث (٣٠٩٣).

(٣) **صحيح**: تقدم.

(٤) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب الخصومات" حديث (٢٤١٢) ومسلم فى "كتاب الفضائل" حديث (٢٣٧٤) وأحمد فى "المسند" حديث (٧٥٧٦).

(٥) **صحيح**: أخرجه مسلم فى "كتاب الفضائل" حديث (٢٢٧٨) وأبو داود فى "كتاب السنة" حديث (٤٦٧٣) والترمذى فى "كتاب التفسير" حديث (٣١٤٨) وابن ماجه فى "كتاب الزهد" حديث (٤٣٠٨) وأحمد فى "المسند" حديث (١٠٩٤٢، ١٠٩٢٩).

فموسى، عليه السلام، إن كان لم يصعق معهم فيكون قد جوزى بصعقة يوم تجلى ربه للجبل فجعله دكا، فجعلت صعقة هذا التجلى عوضا عن صعقة الخلائق لتجلى ربه يوم القيامة، فتأمل هذا المعنى العظيم ولا تهمله.

وروى الإمام أحمد والترمذى وأبو بكر بن أبى الدنيا عن الحسن قال: سمعت أبا موسى الأشعرى يقول: قال رسول الله ﷺ: "يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات: فعرضتان جدال ومعاذير، وعرضة تطاير الصحف، فمن أوتى كتابه بيمينه وحوسب حسابا يسيرا دخل الجنة، ومن أوتى كتابه بشماله دخل النار"[1].

وقد روى ابن أبى الدنيا عن ابن المبارك أنه أنشد فى ذلك شعرا:

وطارت الصحف فى الأيدى منشرة ... فيها السرائر والأخبار تطلع

فكيف سهوك والأنباء واقعة ... عما قليل ولا تدرى بما تقع

أفى الجنان وفوز لا انقطاع له ... أم الجحيم فلا تبقى ولا تدع

تهوى بساكنها طورا وترفعهم ... إذا رجوا مخرجا من غمها قمعوا

طال البكاء فلم يرحم تضرعهم ... فيها ولا رقية تغنى ولا جزع

لينفع العلم قبل الموت عالمه ... قد سأل قوم بها الرجعى فما رجعوا

قوله: والصراط، أى ونؤمن بالصراط وهو جسر على جهنم إذا انتهى الناس بعد مفارقتهم مكان الموقف إلى الظلمة التى دون الصراط، كما قالت عائشة رضى الله عنها: إن رسول الله ﷺ سئل أين الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات؟ فقال: "هم فى الظلمة دون الجسر"[2] وفى هذا الموضع يفترق المنافقون على المؤمنين ويتخلفون عنهم ويسبقهم المؤمنون ويحال بينهم بسور يمنعهم من الوصول إليهم.

---

(١) **ضعيف**: أخرجه الترمذى فى "كتاب صفة القيامة" حديث (٢٤٢٥) من طريق الحسن البصرى عن أبى هريرة وأحمد فى "المسند" حديث (١٩٦٠٣) وابن ماجه فى "كتاب الزهد" حديث (٤٢٧٧) قال الترمذى: ولا يصح هذا الحديث من قبل أن الحسن لم يسمع من أبى هريرة، وقد رواه بعضهم عن على ابن على بن على وهو الرفاعى عن الحسن عن أبى موسى عن النبى ﷺ ولا يصح هذا الحديث من قبل أن الحسن لم يسمع من أبى موسى، وهذا الاختلاف علة أخرى فى الحديث، وقال الشيخ الألبانى: ضعيف، انظر "ضعيف سنن الترمذى" (٢٤٢٥).

(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم.

وروى البيهقى بسنده عن مسروق عن عبد الله قال: "يجمع الله الناس يوم القيامة" إلى أن قال: "فيعطون نورهم على قدر أعمالهم" وقال: "فمنهم من يعطى نوره مثل الجبل بين يديه، ومنهم من يعطى نوره فوق ذلك، ومنهم من يعطى نوره مثل النخلة بيمينه، ومنهم من يعطى دون ذلك بيمينه، حتى يكون آخر من يعطى نوره على إبهام قدمه، يضيء مرة ويطفأ مرة، إذا أضاء قدم قدمه، وإذا طفئ قام، قال: فيمر ويمرون على الصراط، والصراط كحد السيف دحض مزلة، فيقال لهم: امضوا على قدر نوركم، فمنهم من يمر كانقضاض الكوكب، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كالطرف، ومنهم من يمر كشد الرجل، يرمل رملا، فيمرون على قدر أعمالهم، حتى يمر الذى نوره على إبهام قدمه تخر يد وتعلق يد، وتخر رجل وتعلق رجل، وتصيب جوانبه النار، فيخلصون، فإذا خلصوا قالوا: الحمد لله الذى نجانا منك بعد أن أراناك، لقد أعطانا الله ما لم يعط أحد . . ."[١] الحديث.

واختلف المفسرون فى المراد بالورود المذكور فى قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾[٢] ما هو؟ والأظهر والأقوى أنه المرور على الصراط، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾[٣].

وفى الصحيح أنه ﷺ قال: "والذى نفسى بيده لا يلج النار أحد بايع تحت الشجرة" قالت حفصة: فقلت: يا رسول الله، أليس الله يقول: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ فقال: ألم تسمعيه قال: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾[٤] أشار ﷺ إلى أن ورود النار لا يستلزم دخولها، وأن النجاة من الشر لا تستلزم حصوله، بل تستلزم انعقاد سببه، فمن طلبه عدوه ليهلكوه و لم يتمكنوا منه يقال: نجاه الله منهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا ﴾[٥] ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا ﴾[٧] ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا ﴾[٧] ولم

(١) **صحيح**: أخرجه الحاكم فى "المستدرك" (٢/ ٣٧٦) والطبرانى فى "الكبير" حديث (٩٧٦٣) قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبى وقال الشيخ الألبانى: صحيح.

(٢) سورة مريم الآية: ٧١.
(٣) سورة مريم الآية: ٧٢.

(٤) **صحيح**: أخرجه مسلم حديث (٢٤٩٦) والآية من سورة مريم رقم: ٧٢.

(٥) سورة هود الآية: ٥٨.
(٦) سورة هود الآية: ٦٦.

(٧) سورة هود الآية: ٩٤.

يكن العذاب أصابَهم، ولكن أصاب غيرهم، ولولا ما خصهم الله به من أسباب النجاة لأصابَهم ما أصاب أولئك، وكذلك حال الوارد فى النار يمرون فوقها على الصراط ثم ينجى الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثيا، فقد بيَّن ﷺ فى حديث جابر المذكور أن الورود هو الورود على الصراط.

وروى الحافظ أبو نصر الوائلى عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال ﷺ: "علم الناس سنتى وإن كرهوا ذلك، وإن أحببت أن لا توقف على الصراط طرفة عين حتى تدخل الجنة فلا تحدثن فى دين الله حدثا برأيك"(١) أورده القرطبى.

وروى أبو بكر بن أحمد بن سليمان النجار عن يعلى بن منية عن رسول الله ﷺ قال: "تقول النار للمؤمن يوم القيامة: جُزْ يا مؤمن، فقد أطفأ نورك لهبى"(٢).

وقوله: والميزان، أى: ونؤمن بالميزان، قال تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾(٣) وقال تعالى: ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾(٤).

قال القرطبى: قال العلماء: إذا انقضى الحساب كان بعده وزن الأعمال، لأن الوزن للجزاء، فينبغى أن يكون بعد المحاسبة، فإن المحاسبة لتقرير الأعمال والوزن لإظهار مقاديرها ليكون الجزاء بحسبها، قال: وقوله تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ يحتمل أن

---

(١) **موضوع**: قال الشيخ الألبانى: أخرجه الطيب (٤/ ٣٨٠) وأبو الفرج بن المسلمة فى "مجلس من الأمالى" (١٢٠/ ٢) من طريق عبد الله بن صالح اليمانى حدثنى أبو همام القرشى عن سليمان بن المغيرة عن قيس ابن مسلم عن طاوس عن أبى هريرة مرفوعًا ومن هذا الوجه ذكره ابن الجوزى فى "الموضوعات" انظر "الضعيفة" حديث (٢٦٥).

(٢) **ضعيف**: أخرجه أبو نعيم كما فى "تقريب البغية بترتيب أحاديث الحلية" (٣/ ٤٥٠) حديث (٤٣٣٠) وابن عدى فى "الكامل" (٦/ ٣٩٤) والخطيب فى "تاريخ بغداد" (٥/ ١٩٤) قال الهيثمى: "رواه الطبرانى وفيه سليم بن منصور بن عمار، وهو ضعيف" وضعفه الشيخ أحمد شاكر، وقال الشيخ الألبانى: ضعيف.

(٣) سورة الأنبياء الآية: ٤٧.

(٤) سورة المؤمنون الآيتان: ١٠٢، ١٠٣.

يكون ثم موازين متعددة توزن فيها الأعمال، ويحتمل أن يكون المراد الموزونات فجمع باعتبار تنوع الأعمال الموزونة، والله أعلم.

والذى دلت عليه السنة أن ميزان الأعمال له كفتان حسيتان مشاهدتان.

روى الإمام أحمد من حديث أبى عبد الرحمن الحبلى قال: سمعت عبد الله بن عمرو يقول: قال رسول الله ﷺ: "إن الله سيخلص رجلا من أمتى على رءوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلا، كل سجل مد البصر، ثم يقول له: أتنكر من هذا شيئًا؟ أظلمتك كتبتى الحافظون؟ قال: لا يا رب، فيقول: ألك عذر أو حسنة؟ فيبهت الرجل فيقول: لا يا رب، فيقول: بلى، إن لك عندنا حسنة واحدة، لا ظلم اليوم عليك، فتخرج له بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، فيقول: أحضروه، فيقول: يا رب، وما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقال: إنك لا تُظلَم، قال: فتوضع السجلات فى كفة والبطاقة فى كفة، قال: فطاشت السجلات وثقلت البطاقة، ولا يثقل شيء بسم الله الرحمن الرحيم"(١).

وهكذا روى الترمذى وابن ماجه وابن أبى الدنيا من حديث الليث، زاد الترمذى: "ولا يثقل مع اسم الله شيء".

وفى سياق آخر: "توضع الموازين يوم القيامة فيؤتى بالرجل فيوضع فى كفة . . ." الحديث.

وفى هذا السياق فائدة جليلة وهى أن العامل يوزن مع عمله، ويشهد له ما روى البخارى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: "إنه ليأتى الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة، وقال: اقرءوا إن شئتم: ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴾(٢).

وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود أنه كان يجنى سواكا من الأراك وكان دقيق الساقين فجعلت الريح تكفؤه فضحك القوم منه، فقال رسول الله ﷺ: "مم تضحكون" قالوا: يا نبى الله، من دقة ساقيه، فقال: "والذى نفسى بيده لهما أثقل فى الميزان من أُحد"(٣).

---

(١) **صحيح**: أخرجه الترمذى رقم (٢٦٣٩) وابن ماجه رقم (٤٣٠٠) وأحمد فى "المستدرك" حديث (٦٩٩٤).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخارى رقم (٤٧٢٩) ومسلم رقم (٢٧٨٥) فى سورة الكهف رقم: ١٠٥.

(٣) **حسن**: أخرجه أحمد فى "المسند" (١/ ٤٢٠) رقم (٣٩٩١) والطبرانى فى "الكبير" حديث (٨٤٥٢) والبزار رقم (٢٦٧٨).

وقد وردت الأحاديث أيضا بوزن الأعمال أنفسها كما فى صحيح مسلم عن أبى مـــالك الأشعرى قال: قال رسول الله ﷺ: "الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان"(١).

وفى الصحيح وهو خاتمة كتاب البخارى قوله ﷺ: "كلمتان خفيفتان على اللسان حبيبتان إلى الرحمن ثقيلتان فى الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم"(٢).

وروى الحافظ أبو بكر البيهقى عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال: "يؤتى بـابن آدم يوم القيامة فيوقف بين كفتى الميزان ويوكل به ملك، فإن ثقل ميزانه نادى الملك بصوت يسـمع الخلائق: سعد فلان سعادة لا شقى بعدها أبدا، وإن خف ميزانه نادى الملك بصــوت يســمع الخلائق: شقى فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبدا"(٣).

فلا يلتفت إلى ملحد معاند يقول: الأعمال أعراض لا تقبل الوزن، وإنما يقبـــل الــوزن الأجسام، فإن الله يقلب الأعراض أجساما، كما تقدم، وكما روى الإمام أحمد عن أبى هريــرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "يؤتى بالموت كبشا أغر، فيوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهــل الجنة، فيشرئبون وينظرون، ويقال: يا أهل النار، فيشرئبون وينظرون، ويرون أن قد جاء الفرج، فيذبح ويقال: خلود لا موت"(٤) ورواه البخارى بمعناه.

فثبت وزن الأعمال والعامل وصحائف الأعمال، وثبت أن الميزان له كفتان والله تعـــالى أعلم بما وراء ذلك من الكيفيات.

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم فى "كتاب الطهارة" حديث (٢٢٣) والترمذى فى "كتاب الدعــوات" حديــث (٣٥١٢) وابن ماجه فى "كتاب الطهارة" حديث (٢٧٠).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخارى رقم (٦٤٠٦) ومسلم رقم (٢٦٩٤) والترمذى رقم (٣٤٦٣) وابن ماجه رقـم (٣٨٠٦).

(٣) **موضوع**: أخرجه أبو نعيم فى "حلية الأولياء" (٦/ ١٨٧) حديث (٨٢٤١) فيه داود بـن المحبر وهــو ضعيف، قال أبو داود: شبه لا شىء كان لا يدرى ذاك أيش الحديث، وقال أحمد بن حنبل: شبه لا شىء لا يدرى ما الحديث.

(٤) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب التفسير" حديث (٤٧٣٠) ومسلم فى "كتاب الجنـــة" (٩/ ١٥٦) حديث (٢٨٤٩) والترمذى فى "كتاب التفســير" (٥/ ٢٢١) حديــث (٣١٥٦) وابــن أبى شــيبة فى "المصنف" (١٤/ ٥٥١) وأحمد فى المسند حديث (٩٤٣٦، ١٠٦٠٤).

فعلينا الإيمان بالغيب كما أخبرنا الصادق ﷺ من غير زيادة ولا نقصان، ويا خيبة من ينفى وضع الموازين القسط ليوم القيامة، كما أخبر الشارع لخفاء الحكمة عليه، ويقدح فى النصوص بقوله: لا يحتاج إلى الميزان إلا البقال والفوال، وما أحراه بأن يكون من الذين لا يقيم الله لهم يوم القيامة وزنا، ولو لم يكن من الحكمة فى وزن الأعمال إلا ظهور عدله سبحانه لجميع عباده فإنه لا أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين، فكيف ووراء ذلك من الحكم ما لا اطلاع لنا عليه، فتأمل قول الملائكة لما قال الله لهم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[2].

وقد تقدم عند ذكر الحوض كلام القرطبى رحمه الله أن الحوض قبل الميزان والصراط بعد الميزان، ففى الصحيحين أن المؤمنين إذا عبروا الصراط وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض، فإذا هذبوا ونقوا أذن لهم فى دخول الجنة، وجعل القرطبى فى التذكرة هذه القنطرة صراطا ثانيا للمؤمنين خاصة، وليس يسقط منه أحد فى النار[3]، والله تعالى أعلم.

❁ **قوله: والجنة والنار مخلوقتان لا تفنيان أبدا ولا تبيدان، فإن الله تعالى خلق الجنة والنار قبل الخلق، وخلق لهما أهلا، فمن شاء منهم إلى الجنة فضلا منه، ومن شاء منهم إلى النار عدلا منه، وكل يعمل لما قد فرغ له، وصائر إلى ما خلق له، والخير والشر مقدران على العباد:**

ش: أما قوله: إن الجنة والنار مخلوقتان، فاتفق أهل السنة على أن الجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن، ولم يزل أهل السنة على ذلك حتى نبغت نابغة من المعتزلة والقدرية فأنكرت ذلك وقالت: بل ينشئهما الله يوم القيامة، وحملهم على ذلك أصلهم الفاسد الذى وضعوا به شريعة لما يفعله الله، وأنه ينبغى أن يفعل كذا ولا ينبغى له أن يفعل كذا، وقاسوه على خلقه فى أفعالهم، فهم مشبهة فى الأفعال، ودخل التجهم فيهم فصاروا مع ذلك معطلة، وقالوا: خلق الجنة

---

(١) سورة البقرة الآية: ٣٠.

(٢) سورة الإسراء الآية: ٨٥.

(٣) **صحيح:** تقدم تخريجه.

قبل الجزاء عبث لأنَّها تصير معطلة مددًا متطاولة، فردوا من النصوص ما خالف هذه الشريعة الباطلة التي وضعوها للرب تعالى، وحرفوا النصوص عن مواضعها، وضللوا وبدعوا من خالف شريعتهم.

فمن نصوص الكتاب قوله تعالى عن الجنة: ﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾(١) ﴿ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾(٢) وعن النار: ﴿ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾(٣) ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ۝ ﴾(٤) وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝ ﴾(٥).

وقد رأى النبي ﷺ سدرة المنتهى ورأى عندها جنة المأوى، كما في الصحيحين من حديث أنس رضي الله عنه في قصة الإسراء، وفي آخره: "ثم انطلق بي جبرائيل حتى أتى سدرة المنتهى فغشيها ألوان لا أدري ما هي، قال: ثم دخلت الجنة فإذا هي جنابذ اللؤلؤ، وإذا ترابُها المسك . . ."(٦).

وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: "إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، يقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة"(٧).

وتقدم حديث البراء بن عازب وفيه: "ينادي منادي من السماء أن صدق عبدي فأفرشوه من الجنة وافتحوا له بابًا إلى الجنة، قال: فيأتيه من روحها وطيبها"(٨).

وتقدم حديث أنس بمعنى حديث البراء.

---

(١) سورة آل عمران الآية: ١٣٣.
(٢) سورة الحديد الآية: ٢١.
(٣) سورة آل عمران الآية: ١٣١.
(٤) سورة النبأ الآيتان: ٢١، ٢٢.
(٥) سورة النجم الآيات: ١٣: ١٥.
(٦) **صحيح**: تقدم تخريجه.
(٧) **صحيح**: أخرجه البخاري في "كتاب الجنائز" (١٣٧٩) ومسلم في "كتاب الجنة" حديث (٢٨٦٦).
(٨) تقدم.

وفى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت: خسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ . . . فذكرت الحديث وفيه: وقال رسول الله ﷺ: "رأيت فى مقامى هذا كل شيء وعدتم به، حتى لقد رأيتنى آخذ قطفا من الجنة حين رأيتمونى تقدمت"(١).

وفى الصحيحين واللفظ للبخارى عن عبد الله بن عباس قال: "انخسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ . . ." فذكر الحديث وفيه: فقالوا: يا رسول الله، رأيناك تناولت شيئا فى مقامك ثم رأيناك تكعكعت، فقال: "إنى رأيت الجنة وتناولت عنقودا، ولو أصبته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا، ورأيت النار فلم أر منظرا كاليوم قط أفظع، ورأيت أكثر أهلها النساء" قالوا: بم يا رسول الله؟ قال: "بكفرهن" قيل: أيكفرن بالله؟ قال: "يكفرن العشير، ويكفرن الإحسان، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر كله ثم رأت منك شيئا قالت: ما رأيت خيرا قط".

وفى صحيح مسلم من حديث أنس: "وايم الذى نفسى بيده لو رأيتم ما رأيت لضحكتم قليلا وبكيتم كثيرا" قالوا: وما رأيت يا رسول الله، قال: "رأيت الجنة والنار"(٢) وفى الموطأ والسنن من حديث كعب بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: "إنما نسمة المؤمن طير تعلق فى شجر الجنة حتى يرجعها الله إلى جسده يوم القيامة" وهذا صريح فى دخول الروح الجنة قبل يوم القيامة(٣).

وفى صحيح مسلم والسنن والمسند من حديث أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "لما خلق الله الجنة والنار أرسل جبرائيل إلى الجنة فقال: اذهب فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها، فذهب فنظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها، فرجع فقال: وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها، فأمر بالجنة فحفت بالمكاره، فقال: ارجع فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها، قال: فنظر إليها ثم رجع فقال: وعزتك لقد خشيت أن لا يدخلها أحد، قال: ثم أرسله إلى النار، قال: اذهب فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها، قال: فنظر إليها فإذا هى يركب بعضها بعضا، ثم رجع فقال: وعزتك لا يدخلها أحد سمع بها، فأمر بها فحفت بالشهوات، ثم قال: اذهب

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب الكسوف" حديث (١٠٥٢) ومسلم فى "كتاب الكسوف" حديث (٩٠٧).

(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم فى "كتاب الصلاة" حديث (٤٢٦).

(٣) تقدم تخريجه.

فانظر إلى ما أعددت لأهلها فيها، فذهب فنظر إليها فرجع فقال: وعزتك لقد خشيت أن لا ينجو منها أحد إلا دخلها"[١] ونظائر ذلك فى السنة كثيرة.

وأما على قول من قال: إن الجنة الموعود بها هى الجنة التى كان فيها آدم ثم أُخرج منها فالقول بوجودها الآن ظاهر، والخلاف فى ذلك معروف.

وأما شبهة من قال: إنَّها لم تُخلق بعد وهى أنَّها لو كانت مخلوقة الآن لوجب اضطرارًا أن تفنى يوم القيامة وأن يهلك كل من فيها ويموت، لقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾[٢] و ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾[٣] وقد روى الترمذى فى جامعه من حديث ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "لقيت إبراهيم ليلة أسرى بى فقال: يا محمد أقرئ أمتك منى السلام وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة، عذبة الماء، وأنَّها قيعان، وأن غراسها: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر"[٤] قال: هذا حديث حسن غريب، وفيه أيضا من حديث أبى الزبير عن جابر عن النبى ﷺ أنه قال: "من قال: سبحان الله وبحمده غُرست له نخلة فى الجنة"[٥] قال: هذا حديث حسن صحيح.

قالوا: فلو كانت مخلوقة مفروغًا منها لم تكن قيعانًا، ولم يكن لهذا الغراس معنًى، قالوا: وكذا قوله تعالى عن امرأة فرعون أنَّها قالت: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾[٦].

فالجواب: إنكم إن أردتم بقولكم: إنَّها الآن معدومة بمنزلة النفخ فى الصور وقيام الناس من القبور، فهذا باطل يرده ما تقدم من الأدلة وأمثالها مما لم يذكر، وإن أردتم أنَّها لم يكمل

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم فى "كتاب الجنة" حديث (٢٨٢٤) وأبو داود فى "كتاب السنة" حديث (٤٧٤٤) والترمذى فى "كتاب صفة الجنة" حديث (٢٥٦٠) وأحمد فى "المسند" حديث (٨٣٧٩) والنسائى فى "كتاب الأيمان والنذور" حديث (٣٧٦٣) وابن حبان فى "صحيحه" حديث (٧٣٩٤) والبغوى فى "شرح السنة" حديث (٤١١٥) وأبو يعلى فى "مسنده" حديث (٥٩٤٠).

(٢) سورة القصص الآية: ٨٨.

(٣) سورة آل عمران الآية: ١٨٥.

(٤) **حسن**: أخرجه الترمذى فى "كتاب الدعوات" حديث (٣٤٦٢) و"الصحيحة" حديث (١٠٥) و"المسند الجامع" حديث (٩٢٤١).

(٥) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب الدعوات" حديث (٦٤٠٥) ومسلم فى "كتاب الذكر والدعاء" حديث (٢٦٩٢) بلفظ مقارب والبيهقى فى "شعب الإيمان" حديث (٦٠٠) وأبو يعلى فى "المسند" حديث (٧٢٣) والترمذى فى "كتاب الدعوات" حديث (٣٤٦٦).

(٦) سورة التحريم الآية: ١١.

خلق جميع ما أعد الله فيها لأهلها وأنّها لا يزال الله يحدث فيها شيئًا بعد شيء، وإذا دخلها المؤمنون أحدث الله فيها عند دخولهم أمورًا أخر فهذا حق لا يمكن رده، وأدلتكم هذه إنما تدل على هذا القدر، وأما احتجاجكم بقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ فأتيتم من سوء فهمكم معنى الآية واحتجاجكم بها على عدم وجود الجنة والنار الآن نظير احتجاج إخوانكم على فنائهما وخرابهما وموت أهلهما فلم توفقوا أنتم ولا إخوانكم لفهم معنى الآية، وإنما وفق لذلك أئمة الإسلام، فمن كلامهم أن المراد كل شيء مما كتب الله عليه الفناء والهلاك هالك، والجنة والنار خُلقتا للبقاء لا للفناء، وكذلك العرش، فإنه سقف الجنة، وقيل: المراد إلا ملكه، وقيل إلا ما أريد به وجهه، وقيل: إن الله تعالى أنزل: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾[1] فقالت الملائكة: هلك أهل الأرض، وطمعوا فى البقاء، فأخبر تعالى عن أهل السماء والأرض أنّهم يموتون فقال: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ لأنه حى لا يموت، فأيقنت الملائكة عند ذلك بالموت، وإنما قالوا ذلك توفيقًا بينها وبين النصوص المحكمة الدالة على بقاء الجنة وعلى بقاء النار أيضًا، على ما يذكر عن قريب إن شاء الله تعالى.

وقوله: لا تفنيان أبدا ولا تبيدان، هذا قول جمهور الأئمة من السلف والخلف، وقال ببقاء الجنة وبفناء النار جماعة من السلف والخلف، والقولان مذكوران فى كثير من كتب التفسير وغيرها، وقال بفناء الجنة والنار الجهم بن صفوان، إمام المعطلة، وليس له سلف قط لا من الصحابة ولا من التابعين لهم بإحسان ولا من أئمة المسلمين ولا من أهل السنة، وأنكره عليه عامة أهل السنة وكفّروه به وصاحوا به وبأتباعه من أقطار الأرض، وهذا قاله لأصله الفاسد الذى اعتقده وهو: امتناع وجود ما لا يتناهى من الحوادث وهو عمدة أهل الكلام المذموم التى استدلوا بها على حدوث الأجسام وحدوث ما لم يخل من الحوادث، وجعلوا ذلك عمدتهم فى حدوث العالم، فرأى جهم أن ما يمنع من حوادث لا أول لها فى الماضى يمنعه فى المستقبل فدوام الفعل عنده على الرب فى المستقبل ممتنع كما هو ممتنع عنده عليه فى الماضى، وأبو الهذيل العلاف، شيخ المعتزلة، وافقه على هذا الأصل لكن قال: إن هذا يقتضى فناء الحركات فقال بفناء حركات أهل الجنة حتى يصيروا فى سكون دائم، لا يقدر أحد منهم على حركة.

(١) سورة الرحمن الآية: ٢٦.

وقد تقدم الإشارة إلى اختلاف الناس فى تسلسل الحوادث فى الماضى والمستقبل، وهى مسألة دوام فاعلية الرب تعالى، وهو لم يزل ربا قادرا فعالا لما يريد، فإنه لم يزل حيا عليما قديرا، ومن المحال أن يكون الفعل ممتنعا عليه لذاته ثم ينقلب فيصير ممكنا لذاته من غير تجدد شيء، وليس للأول حد محدود حتى يصير الفعل ممكنا له عند ذلك الحد ويكون قبله ممتنعا عليه، فهذا القول تصوره كاف فى الجزم بفساده.

فأما أبدية الجنة وأنها لا تفنى ولا تبيد فهذا مما يعلم بالضرورة أن الرسول ﷺ أخبر به، قال تعالى: ﴿ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾(١) أى غير مقطوع، ولا ينافى ذلك قوله: ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾ واختلف السلف فى هذا الاستثناء فقيل معناه: إلا مدة مكثهم فى النار، وهذا يكون لمن دخل منهم إلى النار ثم أخرج منها، لا لكلهم، وقيل: إلا مدة مقامهم فى الموقف، وقيل: إلا مدة مقامهم فى القبور والموقف، وقيل: هو استثناء الرب ولا يفعله، كما تقول: والله لأضربنك إلا أن أرى غير ذلك، وأنت لا تراه، بل تجزم بضربه، وقيل: إلا بمعنى الواو، وهذا على قول بعض النحاة، وهو ضعيف، وسيبويه يجعل "إلا" بمعنى "لكن" فيكون الاستثناء منقطعًا، ورجحه ابن جرير، وقال: إن الله تعالى لا خلف لوعده، وقد وصل الاستثناء بقوله: ﴿ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ قالوا: ونظيره أن تقول: أسكنتك دارى حولا إلا ما شئت، أى: سوى ما شئت، ولكن ما شئت من الزيادة عليه، وقيل: الاستثناء لإعلامهم بأنهم مع خلودهم فى مشيئة الله لأنهم يخرجون عن مشيئته، ولا ينافى ذلك عزيمته وجزمه لهم بالخلود، كما فى قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴾(٢) وقوله تعالى: ﴿ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾(٣) وقوله: ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ﴾(٤) ونظائره كثيرة يخبر عباده سبحانه أن الأمور كلها بمشيئته، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وقيل: إن "ما" بمعنى "من" أى: إلا من شاء الله دخوله النار بذنوبه من السعداء، وقيل غير ذلك، وعلى كل تقدير فهذا الاستثناء من المتشابه.

---

(١) سورة هود الآية: ١٠٨.

(٢) سورة الإسراء الآية: ٨٦.

(٣) سورة الشورى الآية: ٢٤.

(٤) سورة يونس الآية: ١٦.

وقوله: ﴿ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ محكم، وكذلك قوله: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴾[٥] وقوله: ﴿ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ﴾[٦] وقوله: ﴿ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾[٧].

وقد أكد الله خلود أهل الجنة بالتأبيد فى عدة مواضع من القرآن وأخبر أنهم ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾[٨] وهذا الاستثناء منقطع، وإذا ضممته إلى الاستثناء فى قوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾ تبين أن المراد من الآيتين استثناء الوقت الذى لم يكونوا فيه فى الجنة من مدة الخلود كاستثناء الموتة الأولى من جملة الموت، فهذه موتة تقدمت على حياتهم الأبدية، وذلك مفارقة للجنة تقدمت على خلودهم فيها.

والأدلة من السنة على أبدية الجنة ودوامها كثيرة، كقوله ﷺ: "من يدخل الجنة ينعم ولا ييأس، ويخلد ولا يموت".

وقوله: يناد مناد: يا أهل الجنة إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدًا، وأن تشبوا فلا تهرموا أبدًا، وأن تحيوا فلا تموتوا أبدًا"[٩].

وتقدم ذكر ذبح الموت بين الجنة والنار ويقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت.

وأما أبدية النار ودوامها فللناس فى ذلك ثمانية أقوال:

أحدها: أن من دخلها لا يخرج منها أبد الآباد، وهذا قول الخوارج والمعتزلة.

والثانى: أن أهلها يعذبون فيها ثم تنقلب طبيعتهم وتبقى طبيعة النارية يتلذذون بها لموافقتها لطبعهم، وهذا قول إمام الاتحادية ابن عربى الطائى.

الثالث: أن أهلها يعذبون فيها إلى وقت محدود ثم يخرجون منها ويخلفهم فيها قوم آخرون، وهذا القول حكاه اليهود للنبى ﷺ وأكذبهم فيه، وقد أكذبهم الله تعالى فقال عز من قائل: ﴿ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ

(٥) سورة ص الآية: ٥٤..

(٦) سورة الرعد الآية: ٣٥.

(٧) سورة الحجر الآية: ٤٨.

(٨) سورة الدخان الآية: ٥٦.

(٩) **صحيح**: أخرجه مسلم فى (٢٨٣٧) والترمذى حديث (٣٢٤٦).

عَهْدَهُۥٓ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝ ﴾[1].

الرابع: يخرجون منها وتبقى على حالها ليس فيها أحد.

الخامس: أنَّها تفنى بنفسها لأنَّها حادثة، وما ثبت حدوثه استحال بقاؤه، وهذا قول الجهم وشيعته، ولا فرق عنده فى ذلك بين الجنة والنار، كما تقدم.

السادس: تفنى حركات أهلها ويصيرون جمادًا لا يحسون بألم، وهذا قول أبى الهذيل العلاف، كما تقدم.

السابع: أن الله يخرج منها من يشاء، كما ورد فى الحديث، ثم يبقيها شيئًا ثم يفنيها، فإنه جعل لها أمدًا تنتهى إليه.

الثامن: أن الله تعالى يخرج منها من شاء، كما ورد فى السنة ويبقى فيها الكفار بقاء لا انقضاء له، كما قال الشيخ، رحمه الله.

وما عدا هذين القولين الأخيرين ظاهر البطلان، وهذان القولان لأهل السنة ينظر فى أدلتهما.

فمن أدلة القول الأول منهما قوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ۝ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝ ﴾[3] ولم يأت بعد هذين الاستثناءين ما أتى بعد الاستثناء المذكور لأهل الجنة وهو قوله: ﴿ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾[4] وقوله تعالى: ﴿ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴾[5] وهذا القول، أعنى القول بفناء النار دون الجنة، منقول عن عمر وابن مسعود وأبى هريرة وأبى سعيد وغيرهم، وقد روى عبد بن حميد فى تفسيره المشهور بسنده إلى عمر ﷺ أنه قال: لو لبث أهل النار فى

(١) سورة البقرة الآيتان: ٨٠، ٨١.

(٢) سورة الأنعام الآية: ١٢٨.

(٣) سورة هود الآيتان: ١٠٦، ١٠٧.

(٤) سورة هود الآية: ١٠٨.

(٥) سورة النبأ الآية: ٢٣.

النار كقدر رمل عالج لكان لهم على ذلك وقت يخرجون فيه[١]، ذكر ذلك فى تفسير قوله تعالى: ﴿ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴾[٢] قالوا: والنار موجب غضبه، والجنة موجب رحمته، وقد قال ﷺ: "لما قضى الله الخلق كتب كتابًا فهو عنده فوق العرش: إن رحمتى سبقت غضبى" وفى رواية: "تغلب غضبى"[٣] رواه البخارى فى صحيحه من حديث أبى هريرة ﷺ قالوا: والله سبحانه يخبر عن العذاب أنه ﴿ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾[٤] و ﴿ أَلِيمٍ ﴾[٥] و ﴿ عَقِيمٍ ﴾[٦] ولم يخبر ولا فى موضع واحد عن النعيم أنه نعيم يوم، وقد قال تعالى: ﴿ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ ﴾[٧] وقال تعالى حكاية عن الملائكة: ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾[٨] فلا بد أن تسع رحمته هؤلاء المعذبين فلو بقوا فى العذاب لا إلى غاية لم تسعهم رحمته.

وقد ثبت فى الصحيح تقدير يوم القيامة بخمسين ألف سنة والمعذبون فيها متفاوتون فى مدة لبثهم فى العذاب بحسب جرائمهم، وليس فى حكمة أحكم الحاكمين، ورحمة أرحم الراحمين أن يخلق خلقًا يعذبُهم أبد الآباد عذابًا سرمدًا، لا نهاية له.

وأما أنه يخلق خلقا ينعم عليهم ويحسن إليهم نعيمًا سرمدًا، فمن مقتضى الحكمة والإحسان مراد لذاته، والانتقام مراد بالعرض.

قالوا: وما ورد من الخلود فيها والتأبيد وعدم الخروج وأن عذابَها مقيم وأنه غرام، كله حق مُسَلَّمٌ لا نزاع فيه وذلك يقتضى الخلود فى دار العذاب ما دامت باقية، وإنما يخرج منها فى حال بقائها أهل التوحيد، ففرق بين من يخرج من الحبس وهو حبس على حاله وبين من يبطل حبسه بخراب الحبس وانتقاضه.

---

(١) **ضعيف**: فإنه من رواية الحسن عن أبى هريرة، والحسن لم يسمع من أبى هريرة.
(٢) سورة النبأ الآية: ٢٣.
(٣) **صحيح**: متفق عليه، وتقدم تخريجه.
(٤) سورة الأنعام الآية: ١٥.
(٥) سورة هود الآية: ٢٦.
(٦) سورة الحج الآية: ٥٥.
(٧) سورة الأعراف الآية: ١٥٦.
(٨) سورة غافر الآية: ٧.

ومن أدلة القائلين ببقائها وعدم فنائها قوله: ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾(١) ﴿ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾(٢) ﴿ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾(٣) ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾(٤) ﴿ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾(٥) ﴿ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾(٦) ﴿ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ﴾(٧) ﴿ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ﴾(٨) ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾(٩) أى: مقيمًا لازمًا، وقد دلت السنة المستفيضة أنه يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله، وأحاديث الشفاعة صريحة فى خروج عصاة الموحدين من النار، وأن هذا حكم مختص بهم، فلو خرج الكفار منها لكانوا بمنزلتهم، ولم يختص الخروج بأهل الإيمان وبقاء الجنة والنار ليس لذاتِها بل بإبقاء الله لهما.

وقوله: وخلق لهما أهلا، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ﴾(١٠) الآية، وعن عائشة رضى الله عنها قالت: دُعى رسول الله ﷺ إلى جنازة صبى من الأنصار فقلت: يا رسول الله طوبى لهذا عصفور من عصافير الجنة لم يعمل سوءًا ولم يدركه فقال: "أو غير ذلك يا عائشة، إن الله خلق للجنة أهلا خلقهم لها وهم فى أصلاب آبائهم، وخلق للنار أهلا خلقهم لها وهم فى أصلاب آبائهم"(١١) رواه مسلم وأبو داود والنسائى، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝ ﴾(١٢) والمراد الهداية العامة، وأعم منها الهداية المذكورة فى قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾(١٣).

---

(١) سورة المائدة الآية: ٣٧.
(٢) سورة الزخرف الآية: ٧٥.
(٣) سورة النبأ الآية: ٣٠.
(٤) سورة البينة الآية: ٨.
(٥) سورة الحجر الآية: ٤٨.
(٦) سورة البقرة الآية: ١٦٧.
(٧) سورة الأعراف الآية: ٤٠.
(٨) سورة فاطر الآية: ٣٦.
(٩) سورة الفرقان الآية: ٦٥.
(١٠) سورة الأعراف الآية: ١٧٩.
(١١) **صحيح**: أخرجه مسلم فى "كتاب القدر" حديث (٢٦٦٢) وأبو داود فى "كتاب السنة" حديث (٤٧١٣) والنسائى فى "كتاب الجنائز" حديث (١٩٤٧) وابن ماجه فى "المقدمة" حديث (٨٢) وأحمد فى "المسند" حديث (٢٥٦١٨، ٢٤٠١٤).
(١٢) سورة الإنسان الآيتان: ٢، ٣.
(١٣) سورة طه الآية: ٥٠.

فالموجودات نوعان:

أحدهما: مسخر بطبعه، **والثانى**: متحرك بإرادته.

فهدى الأول لما سخره له طبيعة، وهدى الثانى هداية إرادية تابعة لشعوره وعلمه بما ينفعه ويضره.

ثم قسم هذا النوع إلى ثلاثة أنواع:

نوع لا يريد إلا الخير ولا يتأتى منه إرادة سواه كالملائكة، ونوع لا يريد إلا الشر ولا يتأتى منه إرادة سواه كالشياطين، ونوع يتأتى منه إرادة القسمين، كالإنسان.

ثم جعله ثلاثة أصناف: صنفا يغلب إيمانه ومعرفته وعقله هواه وشهوته، فيلتحق بالملائكة، وصنفا عكسه فيلتحق بالشياطين، وصنفا تغلب شهوته البهيمية عقله فيلتحق بالبهائم، والمقصود أنه سبحانه أعطى الوجودين العينى والعلمى، فكما أنه لا موجود إلا بإيجاده فلا هداية إلا بتعليمه، وذلك كله من الأدلة على كمال قدرته وثبوت وحدانيته وتحقيق ربوبيته سبحانه وتعالى.

وقوله: فمن شاء منهم إلى الجنة فضلا منه، ومن شاء منهم إلى النار عدلا منه . . . إلخ مما يجب أن يعلم أن الله تعالى لا يمنع الثواب إلا إذا منع سببه، وهو العمل الصالح، فإنه ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾(١) وكذلك لا يعاقب أحدا إلا بعد حصول سبب العقاب، فإن الله تعالى يقول: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴾(٢) وهو سبحانه المعطى المانع لا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع لكن إذا من على الإنسان بالإيمان والعمل الصالح فلا يمنعه موجب ذلك أصلا، بل يعطيه من الثواب والقرب ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وحيث منعه ذلك فلانتفاء سببه وهو العمل الصالح، ولا ريب أنه يهدى من يشاء ويضل من يشاء، لكن ذلك كله حكمة منه وعدل فمنعه للأسباب التى هى الأعمال الصالحة من حكمته وعدله، وأما المسببات بعد وجود أسبابها فلا يمنعها بحال إذا لم تكن أسبابا غير صالحة، إما لفساد فى العمل، وإما

(١) سورة طه الآية: ١١٢.

(٢) سورة الشورى الآية: ٣٠.

لسبب يعارض موجبه ومقتضاه فيكون ذلك لعدم المقتضى أو لوجود المانع، وإذا كـان منعـه وعقوبته من عدم الإيمان والعمل الصالح وهو لم يعط ذلك ابتلاء وابتداء إلا حكمة منه وعـدلا، فله الحمد فى الحالين، وهو المحمود على كل حال، كل عطاء منه فضل، وكل عقوبة منه عـدل، فإن الله تعالى حكيم يضع الأشياء فى مواضعها التى تصلح لها، كما قال تعـالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾[1] وكما قال تعـالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾[2] ونحو ذلك، وسيأتى لذلك زيادة إن شاء الله تعالى.

❁ **قوله: والاستطاعة آلتي يجب بها الفعل من نحو التوفيق الذي لا يجوز أن يوصف المخلوق به تكون مع الفعل، وأما الاستطاعة من جهة الصحة والوسع والتمكن وسلامة الآلات فهى قبل الفعل، وبها يتعلق الخطاب، وهو كما قال تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾[3]:**

ش: الاستطاعة والطاقة والقدرة والوسع ألفاظ متقاربة.

وتنقسم الاستطاعة إلى قسمين، كما ذكره الشيخ رحمه الله، وهو قول عامة أهل السنة وهو الوسط، وقالت القدرية والمعتزلة: لا تكون القدرة إلا قبل الفعل، وقابلهم طائفة من أهل السنة فقالوا: لا تكون إلا مع الفعل.

والذى قاله عامة أهل السنة أن للعبد قدرة هى مناط الأمر والنهى، وهذه قد تكون قبله لا يجب أن تكون معه، والقدرة التى بها الفعل لا بد أن تكون مع الفعل، لا يجوز أن يوجد الفعل بقدرة معدومة.

وأما القدرة التى من جهة الصحة والوسع والتمكن وسلامة الآلات فقد تتقدم الأفعال، وهذه القدرة المذكورة فى قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾[4] فأوجب الحج على المستطيع، فلو لم يستطع إلا من حج لم يكن الحج قد وجب إلا

---

(١) سورة الأنعام الآية: ١٢٤.

(٢) سورة الأنعام الآية: ٥٣.

(٣) سورة البقرة الآية: ٢٨٦.

(٤) سورة آل عمران الآية: ٩٧.

على من حج و لم يعاقب أحدا على ترك الحج وهذا خلاف المعلوم بالضرورة من دين الإسلام، وكذلك قوله تعالى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾(١) فأوجب التقوى بحسب الاستطاعة، فلو كان من لم يتق الله لم يستطع التقوى لم يكن قد أوجب التقوى إلا على من اتقى و لم يعاقب من لم يتق، وهذا معلوم الفساد، وكذا قوله تعالى: ﴿ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ﴾(٢) والمراد منه استطاعة الأسباب والآلات، وكذا ما حكاه سبحانه من قول المنافقين: ﴿ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ ﴾(٣) وكذبهم في ذلك القول، ولو كانوا أرادوا الاستطاعة التي هي حقيقة قدرة الفعل ما كانوا بنفيهم عن أنفسهم كاذبين، وحيث كذبهم دل على أنهم أرادوا بذلك المرض أو فقد المال على ما بين تعالى بقوله: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ ﴾ إلى أن قال: ﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ﴾(٤) وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم ﴾(٥) والمراد استطاعة الآلات والأسباب ومن ذلك قوله ﷺ لعمران بن حصين: "صل قائما، فإن لم تستطع فقاعدا، فإن لم تستطع فعلى جنب"(٦) إنما نفى استطاعة الفعل معها.

وأما ثبوت الاستطاعة التي هي حقيقة القدرة فقد ذكروا فيها قوله تعالى: ﴿ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴾(٧) والمراد نفي حقيقة القدرة لا نفي الأسباب والآلات لأنَّها كانت ثابتة.

وسيأتي لذلك زيادة بيان عند قوله: ولا يطيقون إلا ما كلفهم، إن شاء الله تعالى، وكذا قول صاحب موسى: ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾(٨) وقوله: ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ

---

(١) سورة التغابن الآية: ١٦.

(٢) سورة المجادلة الآية: ٤.

(٣) سورة التوبة الآية: ٤٢.

(٤) سورة التوبة الآيات: ٩١: ٩٣.

(٥) سورة النساء الآية: ٢٥.

(٦) **صحيح**: أخرجه البخاري في "كتاب تقصير الصلاة" حديث (١١١٧) وأبو داود في "كتاب الصلاة" حديث (٩٥٢) والترمذي في "كتاب الصلاة" حديث (٣٧٢) وابن ماجه "كتاب إقامة الصلاة" حديث (١٢٢٣).

(٧) سورة هود الآية: ٢٠.

(٨) سورة الكهف الآية: ٦٧.

﴿لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾[1] والمراد منه حقيقة قدرة الصبر لا أسباب الصبر وآلاته فإن تلك كانت ثابتة له، ألا ترى أنه عاتبه على ذلك ولا يلام من عدم آلات الفعل وأسبابه على عدم الفعل، وإنما يلام من امتنع من الفعل لتضييع قدرة الفعل لاشتغاله بغير ما أمر به أو لعدم شغله إياها بفعل ما أمر به، ومن قال: إن القدرة لا تكون إلا حين الفعل يقولون: إن القدرة لا تصلح للضدين، فإن القدرة المقارنة للفعل لا تصلح إلا لذلك الفعل، وهى مستلزمة له لا توجد بدونه، وما قالته القدرية بناء على أصلهم الفاسد وهو إقدار الله للمؤمن والكافر والبر والفاجر سواء، فلا يقولون: إن الله خص المؤمن المطيع بإعانة حصل بها الإيمان، بل هذا بنفسه رجح الطاعة، وهذا بنفسه رجح المعصية، كالوالد الذى أعطى كل واحد من بنيه سيفًا، فهذا جاهد به فى سبيل الله وهذا قطع به الطريق، وهذا القول فاسد باتفاق أهل السنة والجماعة المثبتين للقدر، فإنهم متفقون على أن لله على عبده المطيع نعمة دينية خصه بها دون الكافر، وأنه أعانه على الطاعة إعانة لم يعن بها الكافر، كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾[2] فالقدرية يقولون: إن هذا التحبيب والتزيين عام فى كل الخلق، وهو بمعنى البيان وإظهار دلائل الحق، والآية تقتضى أن هذا خاص بالمؤمن، ولهذا قال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾[3] والكفار ليسوا راشدين، وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[4] وأمثال هذه الآية فى القرآن كثير، يبين أن سبحانه هدى هذا وأضل هذا، قال تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾[5] وسيأتى لهذه المسألة زيادة بيان، إن شاء الله تعالى.

---

(١) سورة الكهف الآية: ٧٥.
(٢) سورة الحجرات الآية: ٧.
(٣) سورة الحجرات الآية: ٧.
(٤) سورة الأنعام الآية: ١٢٥.
(٥) سورة الكهف الآية: ١٧.

وأيضا فقول القائل: يرجح بلا مرجح إن كان لقوله يرجح معنى زائد على الفعل فذاك هو السبب المرجح، وإن لم يكن له معنى زائد كان حال الفاعل قبل وجود الفعل كحاله عند الفعل، ثم الفعل حصل فى إحدى الحالتين دون الأخرى بلا مرجح، وهذا مكابرة للعقل، فلما كان أصل قول القدرية أن فاعل الطاعات وتاركها كلاهما فى الإعانة والإقدار سواء، امتنع على أصلهم أن يكون مع الفعل قدرة تخصه لأن القدرة التى تخص الفعل لا تكون للتارك، وإنما تكون للفاعل ولا تكون القدرة إلا من الله تعالى، وهم لما رأوا أن القدرة لا بد أن تكون قبل الفعل قالوا لا تكون مع الفعل لأن القدرة هى التى يكون بها الفعل والترك، وحال وجود الفعل يمتنع الترك، فلهذا قالوا: القدرة لا تكون إلا قبل الفعل، وهذا باطل مطلقا، فإن وجود الأمر مع عدم بعض شروطه الوجودية موجودا عند الفعل، فنقيض قولهم حق وهو أن الفعل لا بد أن يكون معه قدرة.

لكن صار أهل الإثبات هنا حزبين: حزب قالوا: لا تكون القدرة إلا معه ظنا منهم أن القدرة نوع واحد لا يصلح للضدين وظنا من بعضهم أن القدرة عرض فلا تبقى زمانين فيمتنع وجودها قبل الفعل، والصواب أن القدرة نوعان، كما تقدم:

نوع مصحح للفعل يمكن معه الفعل والترك، وهذه هى التى يتعلق بها الأمر والنهى، وهذه تحصل للمطيع والعاصى، وتكون قبل الفعل، وهذه تبقى إلى حين الفعل إما بنفسها عند من يقول ببقاء الأعراض وإما بتجدد أمثالها عند من يقول: إن الأعراض لا تبقى زمانين، وهذه قد تصلح للضدين، وأمر الله مشروط بهذه الطاقة فلا يكلف الله من ليس معه هذه الطاقة.

وضد هذه العجز، كما تقدم.

وأيضا فالاستطاعة المشروطة فى الشرع أخص من الاستطاعة التى يمتنع الفعل مع عدمها، فإن الاستطاعة الشرعية قد تكون ما يتصور الفعل مع عدمها، وإن لم يعجز عنه فالشارع ييسر على عباده ويريد بهم اليسر ولا يريد بهم العسر ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ ﴾ والمريض قد يستطيع القيام مع زيادة المرض وتأخر برئه، فهذا فى الشرع غير مستطيع لأجل حصول الضرر عليه، وإن كان قد يسمى مستطيعا فالشارع لا ينظر فى الاستطاعة الشرعية إلى مجرد إمكان الفعل بل ينظر إلى لوازم ذلك، فإن كان الفعل ممكنا مع المفسدة الراجحة لم تكن

هذه استطاعة شرعية، كالذى يقدر على الحج مع ضرر يلحقه فى بدنه أو ماله، أو يصلى قائما مع زيادة مرضه، أو يصوم الشهرين مع انقطاعه عن معيشته، ونحو ذلك، فإذا كان الشارع قد اعتبر فى المكنة عدم المفسدة الراجحة فكيف يكلف مع العجز، ولكن هذه الاستطاعة مع بقائها إلى حين الفعل لا تكفى فى وجود الفعل، ولو كانت كافية لكان التارك كالفاعل، بل لا بد من إحداث إعانة أخرى تقارن مثل جعل الفاعل مريدا، فإن الفعل لا يتم إلا بقدرة وارادة، والاستطاعة المقارنة تدخل فيها الإرادة الجازمة، بخلاف المشروطة فى التكليف فإنه لا يشترط فيها الإرادة، فالله تعالى يأمر بالفعل من لا يريده لكن لا يأمر به من لو أراده لعجز عنه، وهكذا أمر الناس بعضهم لبعض فالإنسان يأمر عبده بما لا يريده العبد، لكن لا يأمره بما يعجز عنه العبد، وإذا اجتمعت الإرادة الجازمة والقوة التامة لزم وجود الفعل، وعلى هذا ينبنى تكليف ما لا يطاق، فإن من قال: القدرة لا تكون إلا مع الفعل يقول: كل كافر وفاسق قد كلف ما لا يطيق.

وما لا يطاق يفسر بشيئين:

بما يطاق للعجز عنه، فهذا لم يكلفه الله أحدا، ويفسر بما لا يطاق للاشتغال بضده، فهذا هو الذى وقع فيه التكليف، كما فى أمر العباد بعضهم بعضا، فإنهم يفرقون بين هذا وهذا، فلا يأمر السيد عبده الأعمى بنقط المصاحف، ويأمره إذا كان قاعدا أن يقوم، ويعلم الفرق بين الأمرين بالضرورة.

❁ قوله: وأفعال العباد هى خلق الله وكسب من العباد:

ش: اختلف الناس فى أفعال العباد الاختيارية فزعمت الجبرية ورئيسهم الجهم بن صفوان السمرقندى أن التدبير فى أفعال الخلق كلها لله تعالى، وهى كلها اضطرارية كحركات المرتعش والعروق النابضة وحركات الأشجار، وإضافتها إلى الخلق مجاز، وهى على حسب ما يضاف الشىء إلى محله، دون ما يضاف إلى محصله، وقابلتهم المعتزلة فقالوا: إن جميع الأفعال الاختيارية من جميع الحيوانات بخلقها لا تعلق لها بخلق الله تعالى، واختلفوا فيما بينهم أن الله تعالى يقدر على أفعال العباد أم لا؟.

وقال أهل الحق: أفعال العباد بها صاروا مطيعين وعصاة، وهى مخلوقة لله تعالى، والحق سبحانه وتعالى منفرد بخلق المخلوقات لا خالق لها سواه، فالجبرية غلوا فى إثبات القدر فنفوا صنع العبد أصلا كما عملت المشبهة فى إثبات الصفات فشبهوا، والقدرية نفاة القدر جعلوا العباد خالقين مع الله تعالى، ولهذا كانوا مجوس هذه الأمة، بل أردأ من المجوس من حيث إن المجوس أثبتوا خالقين، وهم أثبتوا خالقين، وهدى الله المؤمنين أهل السنة لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم، فكل دليل صحيح يقيمه الجبرى فإنما يدل على أن الله خالق كل شىء، وأنه على كل شىء قدير، وأن أفعال العباد من جملة مخلوقاته، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولا يدل على أن العبد ليس بفاعل فى الحقيقة ولا مريد ولا مختار وأن حركاته الاختيارية بمنزلة حركة المرتعش وهبوب الرياح وحركات الأشجار، وكل دليل صحيح يقيمه القدرى فإنما يدل على أن العبد فاعل لفعله حقيقة، وأنه مريد له مختار له حقيقة، وأن إضافته ونسبته إليه إضافة حق، ولا يدل على أنه غير مقدور لله تعالى، وأنه واقع بغير مشيئته وقدرته، فإذا ضممت ما مع كل طائفة منهما من الحق إلى حق الأخرى فإنما يدل ذلك على ما دل عليه القرآن وسائر كتب الله المنزلة من عموم قدرة الله ومشيئته لجميع ما فى الكون من الأعيان والأفعال، وأن العباد فاعلون لأفعالهم حقيقة، وأنهم يستوجبون عليها المدح والذم.

وهذا هو الواقع فى نفس الأمر، فإن أدلة الحق لا تتعارض، والحق يصدق بعضه بعضا، ويضيق هذا المختصر عن ذكر أدلة الفريقين ولكنها تتكافأ وتتساقط، ويستفاد من دليل كل فريق بطلان قول الآخر، ولكن أذكر شيئا مما استدل به كل من الفريقين، ثم أبين أنه لا يدل على ما استدل عليه من الباطل.

فما استدلت به الجبرية قوله تعالى: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾[1] فنفى الله عن نبيه الرمى وأثبته لنفسه سبحانه، فدل على أنه لا صنع للعبد، قالوا: والجزاء غير مرتب

(١) سورة الأنفال الآية: ١٧.

على الأعمال بدليل قوله ﷺ: "لن يدخل أحد الجنة بعمله" قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: "ولا ذأنا إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل"(١).

ومما استدل به القدرية قوله تعالى: ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾(٢) قالوا: والجزاء مرتب على الأعمال ترتب العوض، كما قال تعالى: ﴿ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾(٣) ﴿ تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾(٤) ونحو ذلك.

فأما ما استدلت به الجبرية من قوله تعالى: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ فهو دليل عليهم لأنه تعالى أثبت لرسوله ﷺ رميا بقوله: ﴿ إِذْ رَمَيْتَ ﴾ فعلم أن المثبت غير المنفى وذلك أن الرمى له ابتداء وانتهاء، فابتداؤه الحذف وانتهاؤه الإصابة، وكل منهما يسمى رميا، فالمعنى حينئذ والله تعالى أعلم: وما أصبت إذ حذفت، ولكن الله أصاب، وإلا فطرد قولهم: وما صليت إذ صليت ولكن الله صلى، وما صمت إذ صمت، وما زنيت إذ زنيت، وما سرقت إذ سرقت، وفساد هذا ظاهر.

وأما ترتب الجزاء على الأعمال فقد ضلت فيه الجبرية والقدرية وهدى الله أهل السنة، وله الحمد والمنة، فإن الباء التى فى النفى غير الباء التى فى الإثبات، فالمنفى فى قوله ﷺ: "لن يدخل الجنة أحد بعمله" باء العوض، وهو أن يكون العمل كالثمن لدخول الرجل إلى الجنة، كما زعمت المعتزلة أن العامل مستحق دخول الجنة على ربه بعمله، بل ذلك برحمة الله وفضله، والباء التى فى قوله تعالى: ﴿ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ وغيرها باء السبب، أى بسبب عملكم، والله تعالى هو خالق الأسباب والمسببات فرجع الكل إلى محض فضل الله ورحمته.

وأما استدلال المعتزلة بقوله تعالى: ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ فمعنى الآية أحسن المصورين المقدرين، والخلق يذكر ويراد به التقدير، وهو المراد هنا، بدليل قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب الرقاق" حديث (٦٤٦٣) ومسلم فى "كتاب صفة القيامة" حديث (٢٨١٦) وابن ماجه فى "كتاب الزهد" حديث (٤٢١٠) وأحمد فى "المسند" حديث (٧٥٧٧، ١٠٢٧٩).

(٢) سورة المؤمنون الآية: ١٤.

(٣) سورة السجدة الآية: ١٧.

(٤) سورة الأعراف الآية: ٤٣.

﴿ خَـٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾[١] أى الله خالق كل شيء مخلوق، فدخلت أفعال العباد فى عموم ﴿ كُلِّ ﴾ وما أفسد قولهم فى إدخال كلام الله تعالى فى عموم "كل" الذى هو صفة من صفاته يستحيل عليه أن يكون مخلوقًا، وأخرجوا أفعالهم التى هى مخلوقة من عموم "كل" وهل يدخل فى عموم "كل" إلا ما هو مخلوق؟ فذاته المقدسة وصفاته غير داخلة فى هذا العموم، ودخل سائر المخلوقات فى عمومها، وكذا قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾[٢] ولا نقول: إن "ما" مصدرية، أى خلقكم وعملكم، إذ سياق الآية يأباه، لأن إبراهيم عليه السلام إنما أنكر عليهم عبادة المنحوت لا النحت، والآية تدل على أن المنحوت مخلوق لله تعالى، وهو ما صار منحوتًا إلا بفعلهم، فيكون ما هو من آثار فعلهم مخلوقًا لله تعالى، ولو لم يكن النحت مخلوقا لله تعالى لم يكن المنحوت مخلوقًا له، بل الخشب أو الحجر لا غير.

وذكر أبو الحسين البصرى إمام المتأخرين من المعتزلة أن العلم بأن العبد يحدث فعله ضرورى، وذكر الرازى أن افتقار الفعل المحدث الممكن إلى مرجح يجب وجوده عنده ويمتنع عند عدمه ضرورى، وكلاهما صادق فيما ذكره من العلم الضرورى، ثم ادعاء كل منهما أن هذا العلم الضرورى يبطل ما ادعاه الآخر من الضرورة غير مسلم بل كلاهما صادق فيما ادعاه من العلم الضرورى وإنما وقع غلطه فى إنكاره ما مع الآخر من الحق فإنه لا منافاة بين كون العبد محدثا لفعله وكون هذا الإحداث وجب وجوده بمشيئة الله تعالى كما قال تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝ ﴾[٣].

فقوله: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ إثبات للقدر بقوله: ﴿ فَأَلْهَمَهَا ﴾ وإثبات لفعل العبد بإضافة الفجور والتقوى إلى نفسه، ليعلم أنها هى الفاجرة والمتقية، وقوله بعد ذلك: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝ ﴾[٤] إثبات أيضا لفعل العبد، ونظائر ذلك كثيرة.

وهذه شبهة أخرى من شبه القوم التى فرقتهم، بل مزقتهم كل ممزق، وهى أنهم قالوا: كيف يستقيم الحكم على قولكم بأن الله يعذب المكلفين على ذنوبهم وهو خلقها فيهم؟ فأين

---

(١) سورة الزمر الآية: ٦٢.

(٢) سورة الصافات الآية: ٩٦.

(٣) سورة الشمس الآيتان: ٧، ٨.

(٤) سورة الشمس الآيتان: ٩، ١٠.

العدل فى تعذيبهم على ما هو خالقه وفاعله فيهم؟ وهذا السؤال لم يزل مطروقًا فى العالم على ألسنة الناس، وكل منهم يتكلم فى جوابه بحسب علمه ومعرفته، وعنه تفرقت بهم الطرق، فطائفة أخرجت أفعالهم عن قدرة الله تعالى، وطائفة أنكرت الحكم والتعليل وسدت باب السؤال، وطائفة أثبتت كسبًا لا يُعقل، جعلت الثواب والعقاب عليه، وطائفة التزمت لأجله وقوع مقدور بين قادرين ومفعول بين فاعلين، وطائفة التزمت الجبر وأن الله يعذبُهم على ما لا يقدرون عليه، وهذا السؤال هو الذى أوجب التفرق والاختلاف.

والجواب الصحيح عنه أن يقال: إن ما يبتلى به العبد من الذنوب الوجودية، وإن كانت خلقا لله تعالى فهى عقوبة له على ذنوب قبلها، فالذنب يكسب الذنب، ومن عقاب السيئة السيئةُ بعدها، فالذنوب كالأمراض التى يورث بعضها بعضًا.

يبقى أن يقال: فالكلام فى الذنب الأول الجالب لما بعده من الذنوب يقال: هو عقوبة أيضًا على عدم فعل ما خلق له وفطر عليه، فإن الله سبحانه خلقه لعبادته وحده لا شريك له، وفطره على محبته وتأليهه والإنابة إليه، كما قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾(١).

فلما لم يفعل ما خلق له وفطر عليه من محبة الله وعبوديته والإنابة إليه عوقب على ذلك بأن زين له الشيطان ما يفعله من الشرك والمعاصى، فإنه صادف قلبا خاليا قابلا للخير والشر، ولو كان فيه الخير الذى يمنع ضده لم يتمكن منه الشر، كما قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾(٢) وقال إبليس: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝ ﴾(٣) وقال الله عز وجل: ﴿ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ۝ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾(٤) والإخلاص خلوص القلب من تأليه ما سوى الله تعالى وإرادته ومحبته، فخلص لله فلم يتمكن منه الشيطان، وأما إذا صادفه فارغًا من ذلك تمكن منه بحسب فراغه فيكون جعله مذنبا مسيئا فى هذه الحال عقوبة له على عدم هذا الإخلاص وهى محض العدل.

---

(١) سورة الروم الآية: ٣٠.

(٢) سورة يوسف الآية: ٢٤.

(٣) سورة ص الآيتان: ٨٢، ٨٣.

(٤) سورة الحجر الآيتان: ٤١، ٤٢.

فإن قلت: فذلك العدم من خلقه فيه.

قيل: هذا سؤال فاسد، فإن العدم كاسمه لا يفتقر إلى تعلق التكوين والإحداث به، فإن عدم الفعل ليس أمرا وجوديا حتى يضاف إلى الفاعل، بل هو شر محض، والشر ليس إلى الله سبحانه، كما قال ﷺ في حديث الاستفتاح: "لبيك وسعديك، والخير كله في يديك، والشر ليس إليك"[١] وكذا في حديث الشفاعة يوم القيامة حين يقول الله له: يا محمد فيقول: "لبيك وسعديك والخير في يديك والشر ليس إليك" وقد أخبر الله تعالى أن تسليط الشيطان إنما هو على الذين يتولونه والذين هم به مشركون، فلما تولوه دون الله وأشركوا به معه عوقبوا على ذلك بتسليطه عليهم، وكانت هذه الولاية والإشراك عقوبة خلو القلب وفراغه من الإخلاص، فإلهام البر والتقوى ثمرة هذا الإخلاص ونتيجته وإلهام الفجور عقوبة على خلوه من الإخلاص.

فإن قلت: إن كان هذا الترك أمرا وجوديا عاد السؤال جذعا، وإن كان أمرا عدميا فكيف يعاقب على العدم المحض.

قيل: ليس هنا ترك هو كف النفس ومنعها عما تريده وتحبه، فهذا قد يقال: إنه أمر وجودي وإنما هنا عدم وخلو من أسباب الخير، وهذا العدم هو محض خلوها مما هو أنفع شيء لها، والعقوبة على الأمر العدمي هي بفعل السيئات لا بالعقوبات التي تناله بعد إقامة الحجة عليه بالرسل، فلله فيه عقوبتان:

إحداهما: جعله مذنبا خاطئا، وهذه عقوبة عدم إخلاصه وإنابته وإقباله على الله، وهذه العقوبة قد لا يحس بألمها ومضرتها لموافقتها شهوته وإرادته، وهي في الحقيقة من أعظم العقوبات.

والثانية: العقوبات المؤلمة بعد فعله للسيئات.

وقد قرن الله تعالى بين هاتين العقوبتين في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ فهذه العقوبة الأولى، ثم قال: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً ﴾[٢] فهذه العقوبة الثانية.

(١) **صحيح:** تقدم تخريجه.

(٢) سورة الأنعام الآية: ٤٤.

فإن قيل: فهل كان يمكنهم أن يأتوا بالإخلاص والإنابة والمحبة له وحده من غير أن يخلق ذلك فى قلوبهم ويجعلهم مخلصين له منيبين له محبين له، أم ذلك محض جعله فى قلوبهم وإلقائه فيها؟.

قيل: لا، بل هو محض منته وفضله، وهو من أعظم الخير الذى هو بيده، والخير كله فى يديه، ولا يقدر أحد أن يأخذ من الخير إلا ما أعطاه ولا يتقى من الشر إلا ما وقاه.

فإن قيل: فإذا لم يخلق ذلك فى قلوبهم ولم يوفقوا له ولا سبيل لهم إليه بأنفسهم عاد السؤال، وكان منعهم منه ظلما، ولزمكم القول بأن العدل هو تصرف المالك فى ملكه بما يشاء لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

قيل: لا يكون سبحانه بمنعهم من ذلك ظالما، وإنما يكون المانع ظالما إذا منع غيره حقا لذلك الغير عليه، وهذا هو الذى حرمه الرب على نفسه، وأوجب على نفسه خلافه، وأما إذا منع غيره ما ليس بحق له بل هو محض فضله ومنته عليه لم يكن ظالما بمنعه، فمنع الحق ظلم، ومنع الفضل والإحسان عدل، وهو سبحانه العدل فى منعه، كما هو المحسن المنان بعطائه .

فإن قيل: فإذا كان العطاء والتوفيق إحسانا ورحمة، فهلا كان العمل له والغلبة كما أن رحمته تغلب غضبه.

قيل: المقصود فى هذا المقام بيان أن هذه العقوبة المترتبة على هذا المنع والمنع المستلزم للعقوبة ليس بظلم بل هو محض العدل، وهذا سؤال عن الحكمة التى أوجبت تقديم العدل على الفضل فى بعض المحال، وهلا سوى بين العباد فى الفضل؟ وهذا السؤال حاصله لم تفضل على هذا ولم يتفضل على الآخر؟ وقد تولى الله سبحانه الجواب عنه بقوله: ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾(١) وقوله: ﴿ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾(٢) ولما سأله اليهود والنصارى عن تخصيص هذه الأمة بأجرين وإعطائهم هم أجرا أجرا قال: "هل

---

(١) سورة الحديد الآية: ٢١.

(٢) سورة الحديد الآية: ٢٩.

ظلمتكم من حقكم شيئا؟ قالوا: لا، قال: فذلك فضلى أوتيه من أشاء"[١] وليس فى الحكمة إطلاع كل فرد من أفراد الناس على كمال حكمته فى عطائه ومنعه، بل إذا كشف الله عن بصيرة العبد حتى أبصر طرفا يسيرا من حكمته فى خلقه وأمره وثوابه وعقابه وتخصيصه وحرمانه وتأمل أحوال محال ذلك استدل بما علمه على ما لم يعلمه، ولما استشكل أعداؤه المشركون هذا التخصيص قالوا: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ﴾ قال تعالى مجيبا لهم: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾[٢] فتأمل هذا الجواب تر فى ضمنه أنه سبحانه أعلم بالمحل الذي يصلح لغرس شجرة النعمة فتثمر بالشكر من المحل الذي لا يصلح لغرسها، فلو غرست فيه لم تثمر فكان غرسها هناك ضائعا لا يليق بالحكمة، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾[٣].

فإن قيل: إذا حكمتم باستحالة الإيجاد من العبد فإذا لا فعل للعبد أصلا.

قيل: العبد فاعل لفعله حقيقة، وله قدرة حقيقية، قال تعالى: ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ﴾[٤] ﴿فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾[٥] وأمثال ذلك، وإذا ثبت كون العبد فاعلا فأفعاله نوعان:

نوع يكون منه من غير اقتران قدرته وإرادته، فيكون صفة له ولا يكون فعلا، كحركات المرتعش.

ونوع يكون منه مقارنا لإيجاد قدرته واختياره فيوصف بكونه صفة وفعلا وكسبا للعبد كالحركات الاختيارية.

والله تعالى هو الذى جعل العبد فاعلا مختارا، وهو الذى يقر على ذلك وحده لا شريك له، ولهذا أنكر السلف الجبر فإن الجبر لا يكون إلا من عاجز فلا يكون إلا مع الإكراه، يقال: للأب

---

(١) **صحيح:** أخرجه البخارى فى "كتاب مواقيت الصلاة" حديث (٥٥٧) والترمذى فى "كتاب الأدب" حديث (٢٨٧١) والطبرانى فى "الأوسط" حديث (١٦٤٢) وابن حبان رقم (٧٢٢١) والبغوى رقم (٤٠١٧) وعبد الرزاق فى "المصنف" حديث (٢٠٩١١).

(٢) سورة الأنعام الآية: ٥٣.

(٣) سورة الأنعام الآية: ١٢٤.

(٤) سورة البقرة الآية: ١٩٧.

(٥) سورة هود الآية: ٣٦.

ولاية إجبار البكر الصغيرة على النكاح، وليس له إجبار الثيب البالغ، أى ليس له أن يزوجها مكرهة، والله تعالى لا يوصف بالإجبار بهذا الاعتبار، لأنه سبحانه خالق الإرادة والمراد قادر على أن يجعله مختارا، بخلاف غيره.

ولهذا جاء فى ألفاظ الشارع الجبل دون الجبر، كما قال ﷺ لأشج عبد القيس: "إن فيك لخلتين يحبهما الله: الحلم والأناة" فقال أخلقين تخلقت بهما أم خلقين جبلت عليهما؟ فقال: "بل خلقان جبلت عليهما" فقال: الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما الله تعالى[1].

والله تعالى إنما يعذب عبده على فعله الاختيارى، والفرق بين العقاب على الفعل الاختيارى وغير الاختيارى مستقر فى الفطر والعقول.

وإذا قيل: خلق الفعل مع العقوبة عليه ظلم كان بمنزلة أن يقال: خلق أكل السم ثم حصول الموت به ظلم، فكما أن هذا سبب للموت فهذا سبب للعقوبة، ولا ظلم فيهما.

فالحاصل أن فعل العبد فعل له حقيقة ولكنه مخلوق لله تعالى ومفعول لله تعالى، ليس هو نفس فعل الله.

ففرق بين الفعل والمفعول والخلق والمخلوق.

وإلى هذا المعنى أشار الشيخ رحمه الله بقوله: وأفعال العباد خلق الله وكسب من العباد، أثبت للعباد فعلا وكسبا وأضاف الخلق لله تعالى، والكسب هو الفعل الذى يعود على فاعله منه نفع أو ضرر، كما قال تعالى: ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾[2].

❁ قوله: ولم يكلفهم الله تعالى إلا ما يطيقون، ولا يطيقون إلا ما كلفهم، وهو تفسير: لا حول ولا قوة إلا بالله، نقول: لا حيلة لأحد ولا تحول لأحد، ولا حركة لأحد عن معصية الله إلا بمعونة الله، ولا قوة لأحد على إقامة طاعة الله والثبات عليها إلا بتوفيق الله، وكل شيء يجرى بمشيئة الله تعالى وعلمه وقضائه وقدره، غلبت مشيئته المشيئات

---

(١) **صحيح:** أخرجه مسلم فى "كتاب الإيمان" حديث (١٧) والترمذى فى "كتاب البر" حديث (٢٠١١) والطبرانى فى "الكبير" حديث (١٢٩٦٩) وفى "الأوسط" حديث (٥٢٥٢).

(٢) سورة البقرة الآية: ٢٨٦.

كلها، وعكست إرادته الإرادات كلها، وغلب قضاؤه الحيل كلها، يفعل ما يشاء وهو غير ظالم أبدا، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون:

ش: فقوله: لم يكلفهم الله تعالى إلا ما يطيقون، قال تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾(١) ﴿ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾(٢) وعند أبى الحسن الأشعرى أن تكليف ما لا يطاق جائز عقلا، ثم تردد أصحابه أنه هل ورد به الشرع أم لا؟ واحتج من قال بوروده بأمر أبى لهب بالإيمان، فإنه تعالى أخبر بأنه لا يؤمن وأنه سيصلى نارا ذات لهب، فكان مأمورا بأن يؤمن بأنه لا يؤمن، وهذا تكليف بالجمع بين الضدين وهو محال.

والجواب عن هذا بالمنع، فلا نسلم بأنه مأمور بأن يؤمن بأنه لا يؤمن، والاستطاعة التى بها يقدر على الإيمان كانت حاصلة، فهو غير عاجز عن تحصيل الإيمان، فما كلف إلا ما يطيقه كما تقدم فى تفسير الاستطاعة، ولا يلزم قوله تعالى للملائكة: ﴿ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾(٣) مع عدم علمهم بذلك، ولا للمصورين يوم القيامة: أحيوا ما خلقتم، وأمثال ذلك لأنه ليس بتكليف طلب فعل يثاب فاعله ويعاقب تاركه، بل هو خطاب تعجيز، وكذا لا يلزم دعاء المؤمنين فى قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ﴾(٤) لأن تحميل ما لا يطاق ليس تكليفا، بل يجوز أن يحمله جبلا لا يطيقه فيموت، وقال ابن الأنبارى: أى لا تحملنا ما يثقل علينا أداؤه وإن كنا مطيقين له، على تجشم وتحمل مكروه، قال: فخاطب العرب على حسب ما تعقل، فإن الرجل منهم يقول للرجل يبغضه: ما أطيق النظر إليك، وهو مطيق لذلك، لكنه يثقل عليه.

ولا يجوز فى الحكمة أن يكلفه بحمل جبل بحيث لو فعل يثاب ولو امتنع يعاقب، كما أخبر سبحانه عن نفسه أنه لا يكلف نفسا إلا وسعها.

ومنهم من يقول: يجوز تكليف الممتنع عادة دون الممتنع لذاته، لأن ذلك لا يتصور وجوده فلا يعقل الأمر به بخلاف هذا.

---

(١) سورة البقرة الآية: ٢٨٦.

(٢) سورة الأنعام الآية: ١٥٢.

(٣) سورة البقرة الآية: ٣١.

(٤) سورة البقرة الآية: ٢٨٦.

ومنهم من يقول: ما لا يطاق للعجز عنه لا يجوز تكليفه بخلاف ما لا يطاق للاشتغال بضده، فإنه يجوز تكليفه، وهؤلاء موافقون للسلف والأئمة فى المعنى، لكن كونهم جعلوا ما يتركه العبد لا يطاق لكونه تاركا له مشتغلا بضده بدعة فى الشرع واللغة، فإن مضمونه أن فعل ما لا يفعله العبد لا يطيقه، وهم التزموا هذا لقولهم: إن الطاقة التى هى الاستطاعة، وهى القدرة لا تكون إلا مع الفعل، فقالوا: كل من لم يفعل فعلا فإنه لا يطيقه، وهذا خلاف الكتاب والسنة وإجماع السلف، وخلاف ما عليه عامة العقلاء، كما تقدمت الإشارة إليه عند ذكر الاستطاعة.

وأما ما لا يكون إلا مقارنا للفعل فذلك ليس شرطا فى التكليف مع أنه فى الحقيقة إنما هناك إرادة الفعل، وقد يحتجون بقوله تعالى: ﴿ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ ﴾[1] ﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴾[2] وليس فى ذلك إرادة ما سموه استطاعة، وهو ما لا يكون إلا مع الفعل، فإن الله ذم هؤلاء على كونهم لا يستطيعون السمع، ولو أراد بذلك المقارن لكان جميع الخلق لا يستطيعون السمع قبل السمع، فلم يكن لتخصيص هؤلاء بذلك معنى، ولكن هؤلاء لبغضهم الحق وثقله عليهم إما حسدا لصاحبه وإما اتباعا للهوى لا يستطيعون السمع، وموسى عليه السلام لا يستطيع الصبر لمخالفة ما يراه لظاهر الشرع، وليس عنده منه علم، وهذه لغة العرب وسائر الأمم، فمن يبغض غيره يقال: إنه لا يستطيع الإحسان إليه، ومن يحبه يقال إنه: لا يستطيع عقوبته لشدة محبته له، لا لعجزه عن عقوبته، فيقال ذلك للمبالغة كما تقول: لأضربنه حتى يموت، والمراد الضرب الشديد.

وليس هذا عذرا، فلو لم يأمر العباد إلا بما يهوونه لفسدت السموات والأرض، قال تعالى: ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾[3].

(١) سورة هود الآية: ٢٠.

(٢) سورة الكهف الآيات: ٦٧: ٧٥.

(٣) سورة المؤمنون الآية: ٧١.

وقوله: ولا يطيقون إلا ما كلفهم به . . . إلى آخر كلامه، أى: ولا يطيقون إلا ما أقدرهم عليه، وهذه الطاقة هى التى من نحو التوفيق لا التى من جهة الصحة والوسع والتمكن وسلامة الآلات، ولا حول ولا قوة إلا بالله دليل على إثبات القدر، وقد فسرها الشيخ بعدها.

ولكن فى كلام الشيخ إشكال:

فإن التكليف لا يستعمل بمعنى الإقدار وإنما يستعمل بمعنى الأمر والنهى، وهو قد قال: لا يكلفهم إلا ما يطيقون ولا يطيقون إلا ما كلفهم، وظاهره أنه يرجع إلى معنى واحد، ولا يصح ذلك لأنهم يطيقون فوق ما كلفهم به، لكنه سبحانه يريد بعباده اليسر والتخفيف، كما قال تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾[1] وقال تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ﴾[2] وقال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾[3] فلو زاد فيما كلفنا به لأطقناه، ولكنه تفضل علينا ورحمنا وخفف عنا ولم يجعل علينا فى الدين من حرج.

ويجاب عن هذا الإشكال بما تقدم أن المراد الطاقة التى من نحو التوفيق لا من جهة التمكن وسلامة الآلات، ففى العبارة قلق فتأمله.

وقوله: وكل شىء يجرى بمشيئة الله وعلمه وقضائه وقدره، يريد بقضائه:

القضاء الكونى لا الشرعى فإن القضاء يكون كونيا وشرعيا، وكذلك الإرادة والأمر والإذن والكتاب والحكم والتحريم والكلمات ونحو ذلك.

أما القضاء الكونى ففى قوله تعالى: ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ ﴾[4].

والقضاء الدينى الشرعى فى قوله تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾[5].

وأما الإرادة الكونية والدينية فقد تقدم ذكرها عند قول الشيخ ولا يكون إلا ما يريد.

(١) سورة البقرة الآية: ١٨٥.

(٢) سورة النساء الآية: ٢٨.

(٣) سورة الحج الآية: ٧٨.

(٤) سورة فصلت الآية: ١٢.

(٥) سورة الإسراء الآية: ٢٣.

وأما الأمر الكوني ففي قولـــه: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾(١) وكذا قولـــه تعـــالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾(٢) في أحد الأقوال، وهو أقواها.

والأمر الشرعي في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾(٣) وقولـــه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾(٤).

وأما الإذن الكوني ففي قوله تعالى: ﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾(٥).

والإذن الشرعي في قوله تعالى: ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾(٦).

وأما الكتاب الكوني ففي قوله تعـــلى: ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾(٧) وقوله تعـــالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾(٨).

والكتاب الشرعي الديني في قوله تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ ﴾(٩) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾(١٠).

وأمـــا الحكم الكوني ففي قوله تعالى عن ابن يعقوب عليـــه السلام:

﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾(١١).

وقوله تعالى: ﴿ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾(١٢).

والحكم الشرعي في قولـــه: ﴿ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾(١٣) وقال: ﴿ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ﴾(١٤).

---

(١) سورة يس الآية: ٨٢.
(٢) سورة الإسراء الآية: ١٦.
(٣) سورة النحل الآية: ٩٠.
(٤) سورة النساء الآية: ٥٨.
(٥) سورة البقرة الآية: ١٠٢.
(٦) سورة الحشر الآية: ٥.
(٧) سورة فاطر الآية: ١١.
(٨) سورة الأنبياء الآية: ١٠٥.
(٩) سورة المائدة الآية: ٤٥.
(١٠) سورة البقرة الآية: ١٨٣.
(١١) سورة يوسف الآية: ٨٠.
(١٢) سورة الأنبياء الآية: ١١٢.
(١٣) سورة المائدة الآية: ١.
(١٤) سورة الممتحنة الآية: ١٠.

وأما التحريم الكونى ففى قوله تعـالى: ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾(١) ﴿ وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾(٢).

والتحريم الشرعى فى قوله: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ ﴾(٣) و ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ ﴾(٤).

وأما الكلمات الكونية ففى قوله: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ﴾(٥) وفى قوله ﷺ: "أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر"(٦).

والكلمات الشرعية الدينية فى قوله تعالى: ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾(٧).

وقوله: يفعل ما يشاء وهو غير ظالم أبدًا، الذى دل عليه القرآن من تنـزيه الله نفسه عن ظلم العباد يقتضى قولا وسطا بين قولى القدرية والجبرية، فليس ما كان من بنى آدم ظلمًا وقبيحًا يكون منه ظلمًا وقبيحًا، كما تقوله القدرية والمعتزلة ونحوهم، فإن ذلك تمثيل لله بخلقه وقياس له عليهم، هو الرب الغنى القادر وهم العباد الفقراء المقهورون، وليس الظلم عبارة عن الممتنع الذي لا يدخل تحت القدرة كما يقوله من يقوله من المتكلمين وغيرهم، يقولون: إنه يمتنع أن يكون فى الممكن المقدور ظلم، بل كان ما كان ممكنًا فهو منه لو فعله عدل، إذ الظلم لا يكون إلا من مأمور من غيره منهى، والله ليس كذلك، فإن قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾(٨) وقوله تعالى: ﴿ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾(٩) وقوله تعالى: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴾(١٠) وقوله تعالى: ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾(١١) وقوله تعالى: ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾(١٢) يدل على نقيض هذا القول.

---

(١) سورة المائدة الآية: ٢٦.
(٢) سورة الأنبياء الآية: ٩٥.
(٣) سورة المائدة الآية: ٣.
(٤) سورة النساء الآية: ٢٣.
(٥) سورة الأعراف الآية: ١٣٧.
(٦) **صحيح**: تقدم تخريجه.
(٧) سورة البقرة الآية: ١٢٤.
(٨) سورة طه الآية: ١١٢.
(٩) سورة ق الآية: ٢٩.
(١٠) سورة الزخرف الآية: ٧٦.
(١١) سورة الكهف الآية: ٤٩.
(١٢) سورة غافر الآية ١٧.

ومنه قوله الذى رواه عنه رسوله: "يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا"(١).

فهذا دل على شيئين:

أحدهما: أنه حرم على نفسه الظلم، والممتنع لا يوصف بذلك.

الثانى: أنه أخبر أنه حرمه على نفسه، كما أخبر أنه كتب على نفسه الرحمة، وهذا يبطل احتجاجهم بأن الظلم لا يكون إلا من مأمور منهى، والله ليس كذلك، فيقال لهم: هو سبحانه كتب على نفسه الرحمة وحرم على نفسه الظلم، وإنما كتب على نفسه وحرم على نفسه ما هو قادر عليه، لا ما هو ممتنع عليه.

وأيضا فإن قوله: ﴿ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ قد فسره السلف بأن الظلم أن توضع عليه سيئات غيره، والهضم أن ينقص من حسناته، كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾(٢).

وأيضا فإن الإنسان لا يخاف الممتنع الذى لا يدخل تحت القدرة حتى يأمن من ذلك، وإنما يأمن مما يمكن، فلما آمنه من الظلم بقوله: ﴿ فَلَا يَخَافُ ﴾ علم أنه ممكن مقدور عليه، وكذا قوله: ﴿ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾(٣) لم يعن بها نفى ما لا يقدر عليه ولا يمكن منه، وإنما نفى ما هو مقدور عليه ممكن، وهو أن يجزوا بغير أعمالهم، فعلى قول هؤلاء ليس الله منزها عن شيء من الأفعال أصلا ولا مقدسا عن أن يفعله، بل كل ممكن فإنه لا ينزه عن فعله، بل فعله حسن، ولا حقيقة للفعل السوء، بل ذلك ممتنع والممتنع لا حقيقة له، والقرآن يدل على نقيض هذا القول فى مواضع نزه الله نفسه فيها عن فعل ما لا يصلح له ولا ينبغى له، فعلم أنه منزه مقدس عن فعل السوء والفعل المعيب المذموم، كما أنه منزه مقدس عن وصف السوء والوصف المعيب المذموم، وذلك كقوله تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾(٤) فإنه نزه نفسه عن خلق الخلق عبثا وأنكر

(١) **صحيح:** تقدم تخريجه.
(٢) سورة الإسراء الآية: ١٥.
(٣) سورة ق الآيات: ٢٨، ٢٩.
(٤) سورة المؤمنون الآية: ١١٥.

على من حسب ذلك، وهذا فعل، وقوله تعالى: ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴾(١) وقوله تعالى: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾(٢) إنكار منه على من جوز أن يسوى الله بين هذا وهذا، وكذا قوله: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾(٣) إنكار على من حسب أنه يفعل هذا، وإخبار أن هذا حكم سيئ قبيح، وهو مما ينزه الرب عنه.

وروى أبو داود والحاكم فى المستدرك من حديث ابن عباس وعبادة بن الصامت وزيد بن ثابت عن النبى ﷺ: "لو أن الله عذب أهل سمواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم كانت رحمته خيرا لهم من أعمالهم"(٤) وهذا الحديث مما يحتج به الجبرية، وأما القدرية فلا يتأتى على أصولهم الفاسدة، ولهذا قابلوه إما بالتكذيب أو بالتأويل، وأسعد الناس به أهل السنة الذين قابلوه بالتصديق وعلموا من عظمة الله وجلاله قدر نعم الله على خلقه وعدم قيام الخلق بحقوق نعمه عليهم، إما عجزا وإما جهلا وإما تفريطا وإضاعة، وإما تقصيرا فى المقدور من الشكر ولو من بعض الوجوه، فإن حقه على أهل السموات والأرض أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر، وتكون قوة الحب والإنابة والتوكل والخشية والمراقبة والخوف والرجاء جميعها متوجهة إليه، ومتعلقة به، بحيث يكون القلب عاكفا على محبته

---

(١) سورة القلم الآية: ٣٥.

(٢) سورة ص الآية: ٢٨.

(٣) سورة الجاثية الآية: ٢١.

(٤) **صحيح**: قال الشيخ أحمد شاكر: هذا جزء من حديث طويل، رواه أبو داود: ٤٦٩٩، ورواه ابن ماجه: ٧٧ بأطول منه، وروى بعضه أحمد فى "المسند ٥: ١٨٢، ١٨٣، ١٨٥، ١٨٩ (طبعة الحلبى) وخفى على موضعه فى مستدرك الحاكم، بعد طول البحث.

ولكن الشارح أخطأ فى ذكر الصحابة الذين رووه، فلم يروه ابن عباس، ولا عبادة بن الصامت، وإنما الثابت فى هذه الروايات: أن ابن الديلمى سأل أبي بن كعب عن شيء من القدر، فأجابه، ثم سأل ابن مسعود، فأجابه بمثله، ثم سأل حذيفة بن اليمان، فقال له مثل ما قالا، ثم سأل زيد بن ثابت، فأجابه كذلك، ولكنه ذكر له أنه سمع هذا من رسول الله ﷺ، فالحديث موقوف عن أولئك الثلاثة، مرفوع عن زيد بن ثابت وحده، ولكن الموقوف عنهم، هو موقوف لفظا، مرفوع حكما، لأنه مما لا يعلم بالرأى، وهو حديث صحيح، رجاله ثقات.

وتأليهه، بل على إفراده بذلك، واللسان محبوسا على ذكره، والجوارح وقفا على طاعته، ولا ريب أن هذا مقدور فى الجملة، ولكن النفوس تشح به، وهى فى الشح على مراتب لا يحصيها إلا الله تعالى، وأكثر المطيعين تشح به نفسه من وجه، وإن أتى به من وجه آخر، فأين الذي لا تقع منه إرادة تزاحم مراد الله وما يحبه منه، ومن ذا الذي لم يصدر منه خلاف ما خلق له، ولو فى وقت من الأوقات، فلو وضع الرب سبحانه عدله على أهل سمواته وأرضه لعذبهم بعدله، ولم يكن ظالما لهم، وغاية ما يقدر توبة العبد من ذلك واعترافه وقبول التوبة محض فضله وإحسانه، وإلا فلو عذب عبده على جنايته لم يكن ظالما، ولو قدر أنه تاب منها لكن أوجب على نفسه بمقتضى فضله ورحمته أنه لا يعذب من تاب وقد كتب على نفسه الرحمة فلا يسع الخلائق إلا رحمته وعفوه، ولا يبلغ عمل أحد منهم أن ينجو به من النار أو يدخل الجنة، كما قال أطوع الناس لربه وأفضلهم عملا وأشدهم تعظيما لربه وإجلالا: "لن ينجى أحدا منكم عمله" قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: "ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل"[(١)] وسأله الصديق دعاء يدعو به فى صلاته فقال: "قل: اللهم إنى ظلمت نفسى ظلما كثيرا، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لى مغفرة من عندك، وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم"[(٢)].

فإذا كان هذا حال الصديق الذى هو أفضل الناس بعد الأنبياء والمرسلين، فما الظن بسواه؟ بل إنما صار صديقا بتوفيته هذا المقام حقه الذي يتضمن معرفة ربه وحقه وعظمته وما ينبغى له وما يستحقه على عبده، ومعرفة تقصيره، فسحقا وبعدا لمن زعم أن المخلوق يستغنى عن مغفرة ربه ولا يكون به حاجة إليها، وليس وراء هذا الجهل بالله وحقه غاية، فإن لم يتسع فهمك لهذا فانزل إلى وطأة النعم وما عليها من الحقوق ووازن من شكرها وكفرها، فحينئذ تعلم أنه سبحانه لو عذب أهل سمواته وأرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم.

❁ **قوله: وفى دعاء الأحياء وصدقاتهم منفعة للأموات:**

ش: اتفق أهل السنة أن الأموات ينتفعون من سعى الأحياء بأمرين:

أحدهما: ما تسبب إليه الميت فى حياته.

---

(١) **صحيح:** تقدم تخرجه.

(٢) **صحيح:** أخرجه البخارى فى "كتاب التوحيد" حديث (٧٣٨٧) ومسلم فى "كتاب الذكر والدعاء" حديث (٢٧٠٥) والترمذى فى "كتاب الدعوات" حديث (٣٥١٣) وابن ماجه فى "كتاب الدعاء" حديث (٣٨٣٥) وابن حبان، رقم (١٩٧٢).

والثانى: دعاء المسلمين واستغفارهم له والصدقة والحج، على نزاع فيما يصل إليه من ثواب الحج.

فعن محمد بن الحسن أنه إنما يصل إلى الميت ثـواب النفقة والحج للحاج، وعنـد عامـة العلماء ثواب الحج للمحجوج عنه، وهو الصحيح.

واختلف فى العبادات البدنية كالصوم والصلاة وقراءة القرآن والذكر.

فذهب أبو حنيفة وأحمد وجمهور السلف إلى وصولها، والمشهور من مذهـب الشـافعى ومالك عدم وصولها.

وذهب بعض أهل البدع من أهل الكلام إلى عدم وصول شيء ألبتة، لا الدعاء ولا غـيره، وقولهم مردود بالكتاب والسنة، لكنهم استدلوا بالمتشابه من قوله تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾[1] وقوله: ﴿ وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[2] وقولـه: ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾[3].

وقد ثبت عن النبى ﷺ أنه قال:

"إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو ولد صالح يدعو له، أو علم ينتفع به من بعده"[4].

فأخبر أنه إنما ينتفع بما كان تسبب فيه فى الحياة، وما لم يكن تسبب فيه فى الحيـاة فـهو منقطع عنه.

واستدل المقتصرون على وصول العبادات التى لا تدخلها النيابة بحال كالإسلام والصـلاة والصوم وقراءة القرآن وأنه يختص ثوابُها بفاعله لا يتعداه، كما أنه فى الحياة لا يفعله أحد عـن أحد ولا ينوب فيه عن فاعله غيره بما روى النسائى بسنده عن ابن عباس عن النبى ﷺ أنه قال:

---

(١) سورة النجم الآية: ٣٩.

(٢) سورة يس الآية: ٥٤.

(٣) سورة البقرة الآية: ٢٨٦.

(٤) **صحيح**: أخرجه مسلم فى "كتاب الوصية" حديث (١٦٣١) وأبو داود فى "كتاب الوصايـا" حديـث (٢٨٨٠) والترمذى فى "كتاب الأحكام" حديث (١٣٧٦) وأحمد فى "المسند" حديث (٢٨٣٠٩).

"لا يصلى أحد عن أحد، ولا يصوم أحد عن أحد، ولكن يطعم عنه مكان كل يوم مدًّا من حنطة"[١].

والدليل على انتفاع الميت بغير ما تسبب فيه الكتاب والسنة والإجماع والقياس الصحيح:

أما الكتاب فقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ ﴾[٢] فأثنى عليهم باستغفارهم للمؤمنين قبلهم، فدل على انتفاعهم باستغفار الأحياء، وقد دل على انتفاع الميت بالدعاء إجماع الأمة على الدعاء له فى صلاة الجنازة، والأدعية التى وردت بها السنة فى صلاة الجنازة مستفيضة، وكذا الدعاء له بعد الدفن، ففى سنن أبى داود من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: كان النبى ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه فقال: "استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فإنه الآن يُسأل"[٣].

وكذلك الدعاء لهم عند زيارة قبورهم، كما فى صحيح مسلم من حديث بريدة بن الحصيب قال: كان رسول الله ﷺ يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقولوا: "السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، نسأل الله لنا ولكم العافية"[٤] وفى صحيح مسلم أيضا عن عائشة رضى الله عنها: سألت النبى ﷺ كيف تقول إذا استغفرت لأهل القبور قال: "قولى: السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ويرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين، وإنا ان شاء الله بكم لاحقون"[٥].

---

(١) **صحيح**: قال الشيخ أحمد شاكر: هكذا ذكره الشارح منسوبا للنسائى، من حديث ابن عباس، مرفوعا ورفعه وهم يقينا، إما من الشارح، وإما من الناسخ، وليس هو فى سنن النسائى التى فى أيدينا، ولكنه فى السنن الكبرى، موقوف على ابن عباس، نقله الحافظ الديلمى فى نصب الراية ٢: ٤٦٣، وكذلك جاء عن ابن عمر، ونحوه، موقوفا، ذكره مالك فى الموطأ "أنه بلغه" عن ابن عمر، ولم يذكر أحد من شارحيه من رواه موصولا، ولكن الحافظ الديلمى نقله من مصنف عبد الرزاق، بإسناد صحيح عن ابن عمر، وصرح الديلمى بما يفيد أنه لم يعرفه مرفوعا قط".

(٢) سورة الحشر الآية: ١٠.

(٣) **صحيح**: أخرجه أبو داود فى "كتاب الجنائز" حديث (٣٢٢١) والبغوى فى "شرح السنة" حديث (١٥٢٣) وصححه الشيخ الألبانى، انظر "صحيح سنن أبى داود" (٣٢٢١).

(٤) **صحيح**: تقدم تخريجه.

(٥) **صحيح**: تقدم تخريجه.

وأما وصول ثواب الصدقة ففى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها أن رجلا أتى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله، إن أمى افتلتت نفسها، ولم توص، وأظنها لو تكلمت تصدقت، أفلها أجر إن تصدقت عنها؟ قال: "نعم"(١) وفى صحيح البخارى عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أن سعد بن عبادة توفيت أمه وهو غائب عنها فأتى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله، إن أمى توفيت وأنا غائب عنها، فهل ينفعها إن تصدقت عنها؟ قال: "نعم"(٢) قال: فإنى أشهدك أن حائطى المخراف صدقة عنها. وأمثال ذلك كثيرة فى السنة.

وأما وصول ثواب الصوم ففى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: "من مات وعليه صيام صام عنه وليه"(٣) وله نظائر فى الصحيح، ولكن أبو حنيفة، رحمه الله، قال بالإطعام عن الميت دون الصيام عنه، لحديث ابن عباس المتقدم.

والكلام على ذلك معروف فى كتب الفروع.

وأما وصول ثواب الحج ففى صحيح البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن امرأة من جهينة جاءت إلى النبى ﷺ فقالت: إن أمى نذرت أن تحج فلم تحج حتى ماتت، أفأحج عنها؟ قال: "حجى عنها، أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضيته؟ اقضوا الله فالله أحق بالوفاء"(٤)، ونظائره أيضا كثيرة.

وأجمع المسلمون على أن قضاء الدين يسقطه من ذمة الميت، ولو كان من أجنبى، ومن غير تركته، وقد دل على ذلك حديث أبى قتادة حيث ضمن الدينارين عن الميت، فلما قضاهما

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب الجنائز" حديث (١٣٨٨) ومسلم فى "كتاب الزكاة" حديث (١٠٠٤) وأبو داود فى "كتاب الوصايا" حديث (٢٨٨١) والنسائى فى "كتاب الوصايا" حديث (٣٦٤٩) وابن ماجه فى "كتاب الوصايا" حديث (٢٧١٧).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب الوصايا" حديث (٢٨٨٢) والترمذى فى "كتاب الزكاة" حديث (٦٦٩) والنسائى فى "كتاب الوصايا" حديث (٣٦٥٥) والحاكم فى "المستدرك" حديث (١٥٣١) وابن خزيمة حديث (٢٥٠٢).

(٣) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب جزاء الصيد" حديث (١٩٥٢) ومسلم فى "كتاب الصيام" حديث (١١٤٧) وأبو داود فى "كتاب الصيام" حديث (٢٤٠٠) وأحمد فى "المسند" حديث (٢٤٢٨٢).

(٤) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب جزاء الصيد" حديث (١٨٥٢) والنسائى فى "كتاب مناسك الحج" حديث (٢٦٣٢).

قال النبى ﷺ: "الآن بردت عليه جلدته"(١) وكل ذلك جار على قواعد الشرع وهو محض القياس، فإن الثواب حق العامل، فإذا وهبه لأخيه المسلم لم يمنع من ذلك كما لم يمنع من هبة ماله فى حياته وإبرائه له منه بعد وفاته.

وقد نبه الشارع بوصول ثواب الصوم على وصول ثواب القراءة ونحوها من العبادات البدنية، يوضحه أن الصوم كف النفس عن المفطرات بالنية، وقد نص الشارع على وصول ثوابه إلى الميت، فكيف بالقراءة التى هى عمل ونية.

والجواب عما استدلوا به من قوله تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾(٢) قد أجاب العلماء بأجوبة، أصحها جوابان:

أحدهما: أن الإنسان بسعيه وحسن عشرته اكتسب الأصدقاء، وأولد الأولاد، ونكح الأزواج، وأسدى الخير، وتودد إلى الناس، فترحموا عليه ودعوا له وأهدوا له ثواب الطاعات، فكان ذلك أثر سعيه، بل دخول المسلم مع جملة المسلمين فى عقد الإسلام من أعظم الأسباب فى وصول نفع كل من المسلمين إلى صاحبه فى حياته وبعد مماته، ودعوة المسلمين تحيط من ورائهم، يوضحه أن الله تعالى جعل الإيمان سببًا لانتفاع صاحبه بدعاء إخوانه من المؤمنين وسعيهم، فإذا أتى به فقد سعى فى السبب الذى يوصل إليه ذلك.

الثانى: وهو أقوى منه أن القرآن لم ينف انتفاع الرجل بسعى غيره وإنما نفى ملكه لغير سعيه، وبين الأمرين فرق ما لا يخفى، فأخبر تعالى أنه لا يملك إلا سعيه وأما سعى غيره فهو ملك لساعيه فإن شاء أن يبذله لغيره وإن شاء أن يبقيه لنفسه.

وقوله سبحانه: ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۝ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝ ﴾(٣) آيتان محكمتان مقتضيتان عدل الرب تعالى، فالأولى تقتضى أنه لا يعاقب أحدًا بجرم غيره، ولا يؤاخذه بجريرة غيره، كما يفعله ملوك الدنيا، والثانية تقتضى أنه لا يفلح إلا بعمله، لينقطع

---

(١) **حسن:** أخرجه الحاكم فى "المستدرك" حديث (٢٣٤٦) قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الشيخ الألبانى: حسن.

(٢) سورة النجم الآية: ٣٩.

(٣) سورة النجم الآيتان: ٣٨، ٣٩.

طمعه من نجاته بعمل آبائه وسلفه ومشايخه، كما عليه أصحاب الطمع الكاذب، وهو سبحانه لم يقل: لا ينتفع إلا بما سعى.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ ﴾[1] وقوله: ﴿ وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[2] على أن سياق هذه الآية يدل على أن المنفى عقوبة العبد بعمل غيره فإنه تعالى قال: ﴿ فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

وأما استدلالهم بقوله ﷺ: "إذا مات ابن آدم انقطع عمله . . ."[3] فاستدلال ساقط، فإنه لم يقل انقطاع انتفاعه، وإنما أخبر عن انقطاع عمله، وأما عمل غيره فهو لعامله، فإن وهبه له وصل إليه ثواب عمل العامل، لا ثواب عمله هو، وهذا كالدَّيْن يوفيه الإنسان عن غيره فتبرأ ذمته، ولكن ليس له ما وفى به الدين.

وأما تفريق من فرق بين العبادات المالية والبدنية فقد شرع النبى ﷺ الصوم عن الميت، كما تقدم، مع أن الصوم لا تجزئ فيه النيابة، وكذلك حديث جابر رضي الله عنه قال: صليت مع رسول الله ﷺ عيد الأضحى فلما انصرف أتى بكبش فذبحه فقال: "باسم الله والله أكبر، اللهم هذا عنى وعمن لم يضح من أمتى"[4] رواه أحمد وأبو داود والترمذى، وحديث الكبشين اللذَيْن قال فى أحدهما: "اللهم هذا عن أمتى جميعًا" وفى الآخر: "اللهم هذا عن محمد وآل محمد" رواه أحمد، والقربة فى الأضحية إراقة الدم، وقد جعلها لغيره.

وكذلك عبادة الحج بدنية وليس المال ركنًا فيه، وإنما هو وسيلة، ألا ترى أن المكى يجب عليه الحج إذا قدر على المشى إلى عرفات، من غير شرط المال، وهذا هو الأظهر، أعنى أن الحج

---

(١) سورة البقرة الآية الأخيرة.

(٢) سورة يس الآية: ٥٤.

(٣) **صحيح**: تقدم تخريجه.

(٤) **صحيح**: أخرجه أبو داود فى "كتاب الضحايا" حديث (٢٨١٠) والترمذى فى "كتاب الأضاحى" حديث (١٥٢١) والدارقطنى فى "كتاب الأشربة" حديث (٤٧١٥) والحاكم فى "المستدرك" حديث (٧٥٥٣) وصححه الشيخ الألبانى، انظر "صحيح سنن أبى داود" حديث (٢٨١٠) و "صحيح سنن الترمذى" حديث (١٥٢١).

غير مركب من مال وبدن، بل بدنى محض، كما قد نص عليه جماعة من أصحاب أبى حنيفة المتأخرين.

وانظر إلى فروض الكفايات كيف قام فيها البعض عن الباقين، ولأن هذا إهداء ثواب وليس من باب النيابة، كما أن الأجير الخاص ليس له أن يستنيب عنه وله أن يعطى أجرته لمن شاء.

وأما استئجار قوم يقرءون القرآن ويهدونه للميت فهذا لم يفعله أحد من السلف ولا أمر به أحد من أئمة الدين ولا رخص فيه، والاستئجار على نفس التلاوة غير جائز بلا خلاف، وإنما اختلفوا فى جواز الاستئجار على التعليم ونحوه، مما فيه منفعة تصل إلى الغير، والثواب لا يصل إلى الميت إلا إذا كان العمل لله، وهذا لم يقع عبادة خالصة، فلا يكون له من ثوابه ما يهدى إلى الموتى، ولهذا لم يقل أحد: إنه يكترى من يصوم ويصلى ويهدى ثواب ذلك إلى الميت، لكن إذا أعطى لمن يقرأ القرآن ويعلمه ويتعلمه معونة لأهل القرآن على ذلك كان هذا من جنس الصدقة عنه فيجوز، وفى الاختيار لو أوصى بأن يعطى شىء من ماله لمن يقرأ القرآن على قبره فالوصية باطلة، لأنه فى معنى الأجرة. انتهى.

وذكر الزاهدى فى الغنية أنه لو وقف على من يقرأ عند قبره فالتعيين باطل.

وأما قراءة القرآن وإهداؤها له تطوعا بغير أجرة فهذا يصل إليه كما يصل ثواب الصوم والحج.

فإن قيل: هذا لم يكن معروفا فى السلف ولا أرشدهم إليه النبى ﷺ.

فالجواب: إن كان مورد هذا السؤال معترفا بوصول ثواب الحج والصيام والدعاء قيل له: ما الفرق بين ذلك وبين وصول ثواب قراءة القرآن، وليس كون السلف لم يفعلوه حجة فى عدم الوصول، ومن أين لنا هذا النفى العام.

فإن قيل: فرسول الله ﷺ أرشدهم الى الصوم والحج والصدقة دون القراءة.

قيل: هو ﷺ لم يبتدئهم بذلك بل خرج ذلك منه مخرج الجواب لهم، فهذا سأله عن الحج عن ميته فأذن له فيه، وهذا سأله عن الصوم عنه فأذن له فيه، ولم يمنعهم مما سوى ذلك، وأى فرق بين وصول ثواب الصوم الذى هو مجرد نية وإمساك وبين وصول ثواب القراءة والذكر.

فإن قيل: ما تقولون فى الإهداء إلى رسول الله ﷺ.

قيل: من المتأخرين من استحبه، ومنهم من رآه بدعة، لأن الصحابة لم يكونوا يفعلونه، ولأن النبى ﷺ له مثل أجر كل من عمل خيرًا من أمته من غير أن ينقص من أجر العامل شيء، لأنه هو الذى دل أمته على كل خير وأرشدهم إليه.

ومن قال: إن الميت ينتفع بقراءة القرآن عنده باعتبار سماعه كلام الله فهذا لم يصح عن أحد من الأئمة المشهورين، ولا شك فى سماعه، ولكن انتفاعه بالسماع لا يصح، فإن ثواب الاستماع مشروط بالحياة، فإنه عمل اختيارى، وقد انقطع بموته، بل ربما يتضرر ويتألم لكونه لم يمتثل أوامر الله ونواهيه، أو لكونه لم يزدد من الخير.

واختلف العلماء فى قراءة القرآن عند القبور على ثلاثة أقوال: هل تكره؟ أم لا بأس بها وقت الدفن وتكره بعده؟.

فمن قال بكراهتها كأبى حنيفة ومالك وأحمد فى رواية قالوا: لأنه محدث، لم ترد به السنة، والقراءة تشبه الصلاة، والصلاة عند القبور منهى عنها، فكذلك القراءة.

ومن قال: لا بأس بها كمحمد بن الحسن وأحمد فى رواية استدلوا بما نقل عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه أوصى أن يقرأ على قبره وقت الدفن بفواتح سورة البقرة وخواتمها، ونقل أيضا عن بعض المهاجرين قراءة سورة البقرة.

ومن قال: لا بأس بها وقت الدفن فقط، وهو رواية عن أحمد أخذ بما نقل عن ابن عمر وبعض المهاجرين، وأما بعد ذلك كالذين يتناوبون القبر للقراءة عنده فهذا مكروه، فإنه لم تأت به السنة ولم ينقل عن أحد من السلف مثل ذلك أصلا.

وهذا القول لعله أقوى من غيره لما فيه من التوفيق بين الدليلين.

❁ قوله: والله تعالى يستجيب الدعوات ويقضى الحاجات:

ش: قال تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾[(١)] ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾[(٢)].

---

(١) سورة غافر الآية: ٦٠.

(٢) سورة البقرة الآية: ١٨٦.

والذى عليه أكثر الخلق من المسلمين وسائر أهل الملل وغيرهم أن الدعاء من أقوى الأسباب فى جلب المنافع ودفع المضار، وقد أخبر تعالى عن الكفار أنهم إذا مسهم الضر فى البحر دعــوا الله مخلصين له الدين، وأن الإنسان إذا مسه الضر دعاه لجنبه أو قاعدا أو قائما، وإجابة الله لدعاء العبد مسلما كان أو كافرا وإعطاؤه سؤله من جنس رزقه لهم، ونصره لهم، وهو ممــا توجبــه الربوبية للعبد مطلقا، ثم قد يكون ذلك فتنة فى حقه ومضرة عليه، إذ كان كفره وفسوقه يقتضى ذلك.

وفى سنن ابن ماجه من حديث أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "مــن لم يســأل الله يغضب عليه"(١).

وقد نظم بعضهم هذا المعنى فقال:

الرب يغضب إن تركت سؤاله   وبنى آدم حيــن يسأل يغضب

قال ابن عقيل: قد ندب الله تعالى إلى الدعاء، وفى ذلك معان:

أحدها: الوجود، فإن من ليس بموجود لا يدعى.

الثانى: الغنى، فإن الفقير لا يدعى.

الثالث: السمع، فإن الأصم لا يدعى.

الرابع: الكرم، فإن البخيل لا يدعى.

الخامس: الرحمة، فإن القاسى لا يدعى.

السادس: القدرة، فإن العاجز لا يدعى.

ومن يقول بالطبائع يعلم أن النار لا يقال لها: كفى، ولا النجم يقال له: أصلح مزاجــى، لأن هذه عندهم مؤثرة طبعا لا اختيارا، فشرع الدعاء وصلاة الاستسقاء ليبين كــذب أهــل الطبائع.

---

(١) **ضعيف:** أخرجه الترمذى فى (٤/ ٢٢٤) وابن ماجه فى (٣٨٢٧) والحاكم فى "المســتدرك" (١/ ٤٩١) وأحمد فى "المسند" حديث (٩٦٩٩، ٩٧١٧، ١٠١٨١) قال الترمذى: لا نعرفه إلا من هذا الوجــه، وقال الحاكم: صحيح الإسناد، وسكت عنه الذهبى، وقال الشيخ الألبانى: التضعيف هو المعتمد. **قلت:** وهو كما قال، فإن فيه أبو صالح الخوزى، قال فى التقريب: لين الحديث، وضعفه يحيى بن معين.

وذهب قوم من المتفلسفة وغالية المتصوفة إلى أن الدعاء لا فائدة فيه، قالوا: لأن المشيئة الإلهية إن اقتضت وجود المطلوب فلا حاجة إلى الدعاء، وإن لم تقتضه فلا فائدة فى الدعاء، وقد يخص بعضهم بذلك خواص العارفين ويجعل الدعاء علة فى مقام الخواص، وهذا من غلطات بعض الشيوخ، فكما أنه معلوم الفساد بالاضطرار من دين الإسلام فهو معلوم الفساد بالضرورة العقلية، فإن منفعة الدعاء أمر أنشئت عليه تجارب الأمم حتى إن الفلاسفة تقول: ضجيج الأصوات فى هياكل العبادات بفنون اللغات تحلل ما عقدته الأفلاك المؤثرات! هذا وهم مشركون.

وجواب الشبهة بمنع المقدمتين، فإن قولهم عن المشيئة الإلهية إما أن تقتضيه أو لا، فثم قسم ثالث، وهو أن تقتضيه بشرط لا تقتضيه مع عدمه، وقد يكون الدعاء من شرطه كما توجب الثواب مع العمل الصالح ولا توجبه مع عدمه، وكما توجب الشبع والرى عند الأكل والشرب ولا توجبه مع عدمهما، وحصول الولد بالوطء والزرع بالبذر، فإذا قدر وقوع المدعو به بالدعاء لم يصح أن يقال: لا فائدة فى الدعاء، كما لا يقال: لا فائدة فى الأكل والشرب والبذر وسائر الأسباب، فقول هؤلاء كما أنه مخالف للشرع فهو مخالف للحس والفطرة.

ومما ينبغى أن يعلم ما قاله طائفة من العلماء وهو أن الالتفات إلى الأسباب شرك فى التوحيد ومحو الأسباب أن تكون أسبابا نقص فى العقل، والإعراض عن الأسباب الكلية قدح فى الشرع، ومعنى التوكل والرجاء يتألف من وجوب التوحيد والعقل والشرع.

وبيان ذلك أن الالتفات إلى السبب هو اعتماد القلب عليه ورجاؤه والاستناد إليه وليس فى المخلوقات ما يستحق هذا، لأنه ليس بمستقل ولا بد له من شركاء وأضداد مع هذا كله، فإن لم يسخره مسبب الأسباب لم يسخر.

وقولهم: إن اقتضت المشيئة المطلوب فلا حاجة إلى الدعاء، قلنا: بل قد تكون إليه حاجة من تحصيل مصلحة أخرى عاجلة وآجلة، ودفع مضرة أخرى عاجلة وآجلة، وكذلك قولهم: وإن لم تقتضه فلا فائدة فيه، قلنا: بل فيه فوائد عظيمة من جلب منافع ودفع مضار، كما نبه عليه النبى ﷺ بل ما يعجل للعبد من معرفته بربه وإقراره به وبأنه سميع قريب قدير عليم رحيم

وإقراره بفقره إليه واضطراره إليه وما يتبع ذلك من العلوم العلية والأحوال الزكية التي هي من أعظم المطالب.

فإن قيل: إذا كان إعطاء الله معللا بفعل العبد كما يعقل من إعطاء المال للسائل كان السائل قد أثر في المسئول حتى أعطاه.

قلنا: الرب سبحانه هو الذي حرك العبد إلى دعائه، فهذا الخير منه وتمامه عليه، كما قال عمر رضي الله عنه إني لا أحمل هم الإجابة وإنما أحمل هم الدعاء، ولكن إذا ألهمت الدعاء فإن الإجابة معه، وعلى هذا قوله تعالى: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾[1] فأخبر سبحانه أنه يبتدئ بتدبير الأمر ثم يصعد إليه الأمر الذي دبره، فالله سبحانه هو الذي يقذف في قلب العبد حركة الدعاء ويجعلها سببا للخير الذي يعطيه إياه، كما في العمل والثواب، فهو الذي وفق العبد للتوبة ثم قبلها، وهو الذي وفقه للعمل ثم أثابه، وهو الذي وفقه للدعاء ثم أجابه، فما أثر فيه شيء من المخلوقات بل هو جعل ما يفعله سببا لما يفعله.

قال مطرف بن عبد الله بن الشخير، أحد أئمة التابعين: نظرت في هذا الأمر فوجدت مبدأه من الله، وتمامه على الله، ووجدت ملاك ذلك الدعاء.

وهنا سؤال معروف وهو أن من الناس من قد يسأل الله فلا يعطى شيئا، أو يعطى غير ما سأل؟.

وقد أجيب عنه بأجوبة فيها ثلاثة أجوبة محققة:

أحدها: أن الآية لم تتضمن عطية السؤال مطلقا، وإنما تضمنت إجابة الداعي، والداعي أعم من السائل، وإجابة الداعي أعم من إعطاء السائل، ولهذا قال النبي ﷺ: "ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا فيقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له"[2]، ففرق بين الداعي والسائل، وبين الإجابة والإعطاء، وهو فرق بين العموم والخصوص، كما أتبع ذلك بالمستغفر، وهو نوع من السائل، فذكر العام ثم الخاص ثم الأخص، وإذا علم

(١) سورة السجدة الآية: ٥.

(٢) **صحيح:** تقدم تخريجه.

العباد أنه قريب يجيب دعوة الداعي وعلموا قربه منهم وتمكنهم من سؤاله، وعلموا علمه ورحمته وقدرته فدعوه دعاء العبادة فى حال، ودعاء المسألة فى حال، وجمعوا بينهما فى حال، إذ الدعاء اسم يجمع العبادة والاستعانة، وقد فسر قوله: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ بالدعاء الذي هو العبادة والدعاء الذي هو الطلب، وقوله بعد ذلك: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي ﴾[1] يؤيد المعنى الأول.

الجواب الثانى: أن إجابة دعاء السؤال أعم من إعطاء عين السؤال، كما فسره النبى ﷺ فيما رواه مسلم فى صحيحه أن النبي قال: "ما من رجل يدعو الله بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه بها إحدى ثلاث خصال: إما أن يعجل له دعوته، أو يدخر له من الخير مثلها، أو يصرف عنه من الشر مثلها" قالوا: يا رسول الله إذًا نُكثر، قال: "الله أكثر"[2].

فقد أخبر الصادق المصدوق أنه لا بد فى الدعوة الخالية عن العدوان من إعطاء السؤال معجلا، أو مثله من الخير مؤجلا، أو يصرف عنه من السوء مثله.

الجواب الثالث: أن الدعاء سبب مقتضٍ لنيل المطلوب، والسبب له شروط وموانع، فإذا حصلت شروطه وانتفت موانعه حصل المطلوب، وإلا فلا يحصل ذلك المطلوب، بل قد يحصل غيره، وهكذا سائر الكلمات الطيبات من الأذكار المأثورة المعلق عليها جلب منافع أو دفع مضار، فإن الكلمات بمنزلة الآلة فى يد الفاعل تختلف باختلاف قوته وما يعنيها وقد يعارضها مانع من الموانع ونصوص الوعد والوعيد المتعارضة فى الظاهر من هذا الباب، وكثيرًا ما تجد أدعية دعا بِها قوم فاستجيب لهم ويكون قد اقترن بالدعاء ضرورة صاحبه وإقباله على الله، أو حسنة تقدمت منه جعل الله سبحانه إجابة دعوته شكر الحسنة، أو صادف وقت إجابة، ونحو ذلك فأجيبت دعوته، فيظن أن السر فى ذلك الدعاء فيأخذه مجردًا عن تلك الأمور التي قارنته من ذلك الداعى، وهذا كما إذا استعمل رجل دواء نافعًا فى الوقت الذى ينبغى فانتفع به فظن آخر أن استعمال هذا الدواء بمجرده كافٍ فى حصول المطلوب، وكان غالطا، وكذا قد يدعو

---

(١) سورة غافر الآية: ٦٠.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "الأدب المفرد" (١/ ٣٧٤) حديث (٧١٠) والترمذى فى "كتاب الدعوات" وأحمد فى "المسند" حديث (١١٠٧٥) قال الشيخ الألبانى: صحيح، انظر "صحيح الأدب المفرد" حديث (٥٤٧) و "تخريج الترغيب" (٢/ ٢٧٢).

باضطرار عند قبر فيجاب فيظن أن السر للقبر، ولم يدر أن السر للاضطرار وصدق اللجء إلى الله تعالى، فإذا حصل ذلك فى بيت من بيوت الله تعالى كان أفضل وأحب إلى الله تعالى، فالأدعية والتعوذات والرقى بمنزلة السلاح، والسلاح بضاربه لا بحده فقط، فمتى كان السلاح سلاحا تاما والساعد ساعدا قويا والمحل قابلا والمانع مفقودا حصلت به النكاية فى العدو، ومتى تخلف واحد من هذه الثلاث تخلف التأثير، فإذا كان الدعاء فى نفسه غير صالح أو الداعى لم يجمع بين قلبه ولسانه فى الدعاء، أو كان ثم مانع من الإجابة لم يحصل الأثر.

❁ **قوله: ويملك كل شىء ولا يملكه شىء ولا غنى عن الله تعالى طرفة عين، ومن استغنى عن الله طرفة عين فقد كفر وصار من أهل الحين:**

ش: كلام حق ظاهر لا خفاء فيه، والحين بالفتح: الهلاك.

❁ **قوله: والله يغضب ويرضى لا كأحد من الورى:**

ش: قال: ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ﴾[١] ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾[٢] وقال: ﴿ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ ﴾[٣] ﴿ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ ﴾[٤] ﴿ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾[٥] ونظائر ذلك كثيرة، ومذهب السلف وسائر الأئمة إثبات صفة الغضب والرضا والعداوة والولاية والحب والبغض ونحو ذلك من الصفات التى ورد بها الكتاب والسنة، ومنع التأويل الذى يصرفها عن حقائقها اللائقة بالله تعالى، كما يقولون مثل ذلك فى السمع والبصر والكلام وسائر الصفات، كما أشار إليه الشيخ فيما تقدم بقوله: إذا كان تأويل الرؤية وتأويل كل معنى يضاف إلى الربوبية ترك التأويل ولزوم التسليم وعليه دين المسلمين، وانظر إلى جواب الإمام مالك ﷺ فى صفة الاستواء كيف قال: الاستواء معلوم والكيف مجهول، وروى أيضا عن أم سلمة رضى الله عنها موقوفا عليها ومرفوعا إلى النبى ﷺ، وكذلك قال الشيخ رحمه الله فيما تقدم: من لم يتوق النفى والتشبيه زل ولم يصب التنزيه، ويأتى فى

---

(١) سورة المائدة الآية: ١١٩.
(٢) سورة الفتح الآية: ١٨.
(٣) سورة المائدة الآية: ٦٠.
(٤) سورة النساء الآية: ٩٣.
(٥) سورة البقرة الآية: ٦١.

كلامه أن الإسلام بين الغلو والتقصير وبين التشبيه والتعطيل، فقول الشيخ رحمه الله: لا كـأحد من الورى نفى التشبيه، ولا يقال إن الرضا إرادة الإحسان والغضب إرادة الانتـقام فإن هـذا نفى للصفة، وقد اتفق أهل السنة على أن الله يأمر بما يحبه ويرضاه وإن كـان لا يريـده ولا يشاؤه، وينهى عما يسخطه ويكرهه ويبغضه ويغضب على فاعله وإن كان قد شـاءه وأراده، فقد يحب عندهم ويرضى ما لا يريده ويكره ويسخط لما أراده.

ويقال لمن تأول الغضب والرضى بإرادة الإحسان: لم تأولت ذلك؟ فلا بد أن يقـول: إن الغضب غليان دم القلب والرضى الميل والشهوة، وذلك لا يليق بالله تعالى فيقال له: غليـان دم القلب فى الآدمى أمر ينشأ عن صفة الغضب لا أنه الغضب، ويقال له أيضا كذلـك: الإرادة والمشيئة فينا فهى ميل الحى إلى الشيء أو إلى ما يلائمه ويناسبه، فإن الحى منـا لا يريـد إلا ما يجلب له منفعة أو يدفع عنه مضرة، وهو محتاج إلى ما يريده ومفتقر إليه، ويزداد بوجـوده وينتقص بعدمه، فالمعنى الذى صرفت إليه اللفظ كالمعنى الذى صرفته عنه سواء، فإن جاز هـذا جاز ذاك وإن امتنع هذا امتنع ذاك.

فإن قالوا: الإرادة التى يوصف الله بهـا مخالفة للإرادة التى يوصف بها العبد، وإن كـان كل منهما حقيقة.

قيل له: فقل: إن الغضب والرضا الذى يوصف الله به مخالف لما يوصف به العبد، وإن كان كل منهما حقيقة فإذا كان ما يقوله فى الإرادة يمكن أن يقال فى هذه الصفات لم يتعين التأويل، بل يجب تركه لأنك تسلم من التناقض وتسـلم أيضا من تعطيل معنى أسماء الله تعالى وصفاتـه بلا موجب، فإن صرف القرآن عن ظاهره وحقيقته بغير موجب حرام، ولا يكـون الموجـب للصرف ما دله عليه عقله، إذ العقول مختلفة فكل يقول: إن عقله دله على خلاف مـا يقولـه الآخر.

وهذا الكلام يقال لكل من نفى صفة من صفات الله تعالى لامتنـاع مسـمى ذلـك فى المخلوق فإنه لا بد أن يثبت شيئا لله تعالى على خلاف ما يعهده حتى فى صفة الوجود، فـإن وجود العبد كما يليق به ووجود البارى تعالى كما يليق به، فوجوده تعالى يستحيل عليه العـدم ووجود المخلوق لا يستحيل عليه العدم، وما سمى به الرب نفسه وسمى به مخلوقاته مثل الحـى

والعليم والقدير، أو سمى به بعض صفاته كالغضب والرضى، وسمى به بعض صفات عباده فنحن نعقل بقلوبنا معانى هذه الأسماء فى حق الله تعالى، وأنه حق ثابت موجود، ونعقل أيضا معانى هذه الأسماء فى حق المخلوق، ونعقل أن بين المعنيين قدرا مشتركا لكن هذا المعنى لا يوجد فى الخارج مشتركا إذ المعنى المشترك الكلى لا يوجد مشتركا إلا فى الأذهان ولا يوجد فى الخارج إلا معينا مختصا فيثبت فى كل منهما كما يليق به، بل لو قيل: غضب مالك خازن النار وغضب غيره من الملائكة لم يجب أن يكون مماثلا لكيفية غضب الآدميين، لأن الملائكة ليسوا من الأخلاط الأربعة حتى تغلى دماء قلوبهم كما يغلى دم قلب الإنسان عند غضبه، فغضب الله أولى.

وقد نفى الجهم ومن وافقه كل ما وصف الله به نفسه من كلامه ورضاه وغضبه وحبه وبغضه وأسفه ونحوه ذلك، وقالوا: إنما هى أمور مخلوقة منفصلة عنه ليس هو فى نفسه متصفا بشىء من ذلك، وعارض هؤلاء من الصفاتية ابن كلاب ومن وافقه، فقالوا: لا يوصف الله بشىء يتعلق بمشيئته وقدرته أصلا، بل جميع هذه الأمور صفات لازمة لذاته قديمة أزلية فلا يرضى فى وقت دون وقت ولا يغضب فى وقت دون وقت، كما قال فى حديث الشفاعة: "إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله"[(١)] وفى الصحيحين عن أبى سعيد الخدرى ﷺ عن النبى ﷺ: "إن الله تعالى يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك والخير فى يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحد من خلقك؟ فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب، وأى شىء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبدا"[(٢)].

فيستدل به على أنه يحل رضوانه فى وقت دون وقت وأنه قد يحل رضوانه ثم يسخط كما يحل السخط ثم يرضى، لكن هؤلاء أحل عليهم رضوانا لا يتعقبه سخط، وهم قالوا: لا يتكلم إذا شاء، ولا يضحك إذا شاء، ولا يغضب إذا شاء، ولا يرضى إذا شاء، بل إما أن يجعلوا الرضا

---

(١) **صحيح**: تقدم تخريجه.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب الرقاق" حديث (٦٥٤٩) ومسلم فى "كتاب الجنة" حديث (٢٨٢٩) والترمذى فى "كتاب صفة الجنة" حديث (٢٥٥٥) وأحمد فى "المسند" حديث (١١٧٧٤) وابن حبان حديث (٧٤٤٠).

والغضب والحب والبغض هو الإرادة أو يجعلوها صفات أخرى، وعلى التقديرين فلا يتعلق شيء من ذلك لا بمشيئته ولا بقدرته، إذ لو تعلق بذلك لكان محلا للحوادث، فنفى هؤلاء الصفات الفعلية الذاتية بهذا الأصل، كما نفى أولئك الصفات مطلقا بقولهم: ليس محلا للأعراض، وقد يقال: بل هى أفعال ولا تسمى حوادث كما سميت تلك صفات و لم تسم أعراضا، وقد تقدمت الإشارة إلى هذا المعنى، ولكن الشيخ، رحمه الله، لم يجمع الكلام فى الصفات فى المختصر فى مكان واحد، وكذلك الكلام فى القدر ونحو ذلك، و لم يعتن فيه بترتيب، وأحسن ما يرتب عليه كتاب أصول الدين ترتيب جواب النبى ﷺ لجبريل عليه السلام حين سأله عن الإيمان فقال: "أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره . . ."[١] الحديث، فيبدأ بالكلام على التوحيد والصفات وما يتعلق بذلك ثم بالكلام على الملائكة ثم وثم إلى آخره.

❁ قوله: ونحب اصحاب رسول الله ﷺ ولا نفرط فى حب أحد منهم ولا نتبرأ من أحد منهم ونبغض من يبغضهم وبغير الخير يذكرهم ولا نذكرهم إلا بخير، وحبهم دين وإيمان وإحسان، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان:

ش: يشير الشيخ رحمه الله إلى الرد على الروافض والنواصب وقد أثنى الله تعالى على الصحابة هو ورسوله ورضى عنهم ووعدهم الحسنى، كما قال: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[٢] وقال: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ﴾[٣] الى آخر السورة وقال تعالى: ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾[٤] وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ ﴾[٥] وقال: ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ

(١) **صحيح**: تقدم تخريجه.
(٢) سورة التوبة الآية: ١٠٠.
(٣) سورة الفتح الآية: ٢٩.
(٤) سورة الفتح الآية: ١٨.
(٥) سورة الأنفال الآية: ٧٢.

ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ أُوْلَـٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَـٰتَلُواْ وَكُلاًّ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾(١) وقال: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾(٢) وهذه الآيات تتضمن الثناء على المهاجرين والأنصار وعلى الذين جاءوا من بعدهم يستغفرون لهم ويسألون الله أن لا يجعل فى قلوبهم غلا لهم، وتتضمن أن هؤلاء هم المستحقون للفيء فمن كان فى قلبه غل للذين آمنوا ولم يستغفر لهم لا يستحق فى الفيء نصيبا بنص القرآن.

وفى الصحيحين عن أبى سعيد الخدرى ﷺ قال: كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن ابن عوف شيء فسبه خالد، فقال رسول الله ﷺ: "لا تسبوا أحدا من أصحابى فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهبا ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه"(٣) انفرد مسلم بذكر سب خالد لعبد الرحمن دون البخارى، فالنبى ﷺ يقول لخالد ونحوه: "لا تسبوا أصحابى" يعنى عبد الرحمن وأمثاله لأن عبد الرحمن ونحوه هم السابقون الأولون وهم الذين أسلموا من قبل الفتح وقاتلوا وهم أهل بيعة الرضوان فهم أفضل وأخص بصحبته ممن أسلم بعد بيعة الرضوان، وهم الذين أسلموا بعد الحديبية وبعد مصالحة النبى ﷺ أهل مكة ومنهم خالد بن الوليد وهؤلاء أسبق ممن تأخر إسلامهم الى فتح مكة وسموا الطلقاء منهم أبو سفيان وابناه يزيد ومعاوية.

والمقصود أنه نهى من له صحبة آخرا أن يسب من له صحبة أولا لامتيازهم عنهم من الصحبة بما لا يمكن أن يشركوهم فيه، حتى لو أنفق أحدهم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم

---

(١) سورة الحديد الآية: ١٠.

(٢) سورة الحشر الآيات: ٨: ١٠.

(٣) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب فضائل الصحابة" حديث (٣٦٧٣) ومسلم فى "كتاب فضائل الصحابة" حديث (٢٥٤١) وأبو داود فى "كتاب السنة" حديث (٤٦٥٨) والترمذى فى "كتاب المناقب" حديث (٣٨٦١) وأحمد فى "المسند" حديث (١١٠٢١، ١١٤٥٤، ١١٥٥١).

ولا نصيفه فإذا كان هذا حال الذين أسلموا بعد الحديبية وإن كان قبل فتح مكة فكيف حال من ليس من الصحابة بحال مع الصحابة، رضى الله عنهم أجمعين.

والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار هم الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا وأهل بيعة الرضوان كلهم منهم، وكانوا أكثر من ألف وأربعمائة.

وقيل: إن السابقين الأولين من صلى إلى القبلتين، وهذا ضعيف، فإن الصلاة إلى القبلة المنسوخة ليس بمجرده فضيلة لأن النسخ ليس من فعلهم و لم يدل على التفضيل به دليل شرعى كما دل على التفضيل بالسبق إلى الإنفاق والجهاد والمبايعة التى كانت تحت الشجرة.

وأما ما يروى عن النبى ﷺ أنه قال: "أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم"(١) فهو حديث ضعيف.

قال البزار: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ، وليس هو فى كتب الحديث المعتمدة.

وفى صحيح مسلم عن جابر قال: قيل لعائشة رضى الله عنها: إن ناسا يتناولون أصحاب رسول الله ﷺ حتى أبا بكر وعمر، فقالت: وما تعجبون من هذا؟ انقطع عنهم العمل فأحب الله أن لا يقطع عنهم الأجر(٢).

وروى ابن بطة بإسناد صحيح عن ابن عباس أنه قال: لا تسبوا أصحاب محمد ﷺ فلمقام أحدهم ساعة ــ يعنى مع النبى ﷺ ــ خير من عمل أحدكم أربعين سنة(٣)، وفى رواية وكيع خير من عبادة أحدكم عمره.

---

(١) **موضوع**: أخرجه ابن عبد البر فى "جامع بيان العلم" (٢/ ٩١) وابن حزم فى "الإحكام" قال ابن عبد البر: هذا إسناد لا تقوم به حجه، لأن فيه الحارث بن غصين مجهول وقال ابن حزم: هذه رواية ساقطة، أبو سفيان ضعيف والحارث بن غصين هذا هو أبو وهب الثقفى وسلام بن سليمان يروى الأحاديث الموضوعة، وهذا منها بلا شك، انظر "الضعيفة" (١/ ٧٨) حديث (٥٨).

(٢) لا أصل له، قاله الشيخ الألبانى رحمه الله.

(٣) **صحيح**: أخرجه ابن ماجه فى "المقدمة" رقم (١٦٢) وابن أبى عاصم فى "السنة" رقم (١٠٠٦) وانظر "صحيح سنن ابن ماجه" رقم (١٦١).

وفى الصحيحين من حديث عمران بن حصين وغيره أن رسول الله ﷺ قال: "خير الناس قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم" قال عمران: فلا أدرى أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة[١]، الحديث، وقد ثبت فى صحيح مسلم عن جابر أن النبى ﷺ قال: "لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة"[٢].

وقال تعالى: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ ﴾[٣] الآيات، ولقد صدق عبد الله بن مسعود ﷺ فى وصفهم حيث قال إن الله نظر فى قلوب العباد فوجد قلب محمد خير قلوب العباد فاصطفاه لنفسه وابتعثه برسالته، ثم نظر فى قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد فجعلهم وزراء نبيه يقاتلون على دينه، فما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن، وما رأوه سيئا فهو عند الله سيئ[٤]، وفى رواية: وقد رأى أصحاب محمد جميعا أن يستخلفوا أبا بكر، وتقدم قول ابن مسعود: من كان منكم مستنا فليستن بمن قد مات، عند قول الشيخ: ونتبع السنة والجماعة.

فمن أضل ممن يكون فى قلبه حقد على خيار المؤمنين وسادات أولياء الله تعالى بعد النبيين، بل قد فضلهم اليهود والنصارى بخصلة.

قيل لليهود: من خير أهل ملتكم؟ قالوا أصحاب موسى، وقيل للنصارى: من خير أهل ملتكم؟ قالوا: أصحاب عيسى، وقيل للرافضة: من شر أهل ملتكم؟ قالوا: أصحاب محمد، لم يستثنوا منهم إلا القليل، وفيمن سبوهم من هو خير ممن استثنوهم بأضعاف مضاعفة.

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب الشهادات" حديث (٢٦٥١) ومسلم "كتاب فضائل الصحابه" حديث (٢٥٣٥) وأبو داود فى "كتاب السنة" حديث (٤٦٥٧) والترمذى فى "كتاب الفتن" حديث (٢٢٢١) والنسائى فى "كتاب الأيمان والنذور" حديث (٣٨٠٩) وأحمد فى "المسند" حديث (٣٥٩٤).

(٢) **صحيح**: أخرجه أبو داود فى "كتاب السنة" حديث (٤٦٥٣) والترمذى فى "كتاب المناقب" حديث (٣٨٦٠) وانظر "صحيح سنن أبى داود" حديث (٤٦٥٣) و"صحيح سنن الترمذى" (٣/ ٥٦٨) حديث (٣٨٦٠).

(٣) سورة التوبة الآية: ١١٧.

(٤) **حسن**: أخرجه الطبرانى فى "الكبير" (٩/ ١١٢) حديث (٨٥٨٢) والبغوى فى "شرح السنة" (١/ ١٤٧) حديث (١٠٥).

قلت: ثبت موقوفا، والمرفوع لا يصح.

وقوله: ولا نفرط فى حب أحد منهم، أى: لا نتجاوز الحد فى حب أحد منهم، كما تفعل الشيعة فنكون من المعتدين، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ ﴾(١).

وقوله: ولا نتبرأ من أحد منهم كما فعلت الرافضة فعندهم لا ولاء إلا ببراء، أى لا يتولى أهل البيت حتى يتبرأ من أبى بكر وعمر رضى الله عنهما وأهل السنة يوالونهم كلهم وينزلونهم منازلهم آلتي يستحقونها بالعدل والإنصاف لا بالهوى والتعصب، فإن ذلك كله من البغى الذي هو مجاوزة الحد كما قال تعالى: ﴿ فَمَا ٱخۡتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ ﴾(٢).

وهذا معنى قول من قال من السلف: الشهادة بدعة والبراءة بدعة، يروى ذلك عن جماعة من السلف من الصحابة والتابعين منهم أبو سعيد الخدرى والحسن البصرى وإبراهيم النخعى والضحاك وغيرهم.

ومعنى الشهادة أن يشهد على معين من المسلمين أنه من أهل النار أو أنه كافر بدون العلم بما ختم الله له به.

وقوله: وحبهم دين وإيمان وإحسان لأنه امتثال لأمر الله فيما تقدم من النصوص.

وروى الترمذى عن عبد الله بن مغفل قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "الله الله فى أصحابى، لا تتخذوهم غرضا بعدى، فمن أحبهم فبحبى أحبهم، ومن أبغضهم فببغضى أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذانى، ومن آذانى فقد آذى الله تعالى، ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه"(٣).

وتسمية حب الصحابة إيمانا مشكل على الشيخ، رحمه الله، لأن الحب عمل القلب، وليس هو التصديق، فيكون العمل داخلا فى مسمى الإيمان، وقد تقدم فى كلامه أن الإيمان هو الإقرار باللسان والتصديق بالجنان و لم يجعل العمل داخلا فى مسمى الايمان وهذا هو المعروف من مذهب أهل السنة إلا أن تكون هذه التسمية مجازا.

---

(١) سورة النساء الآية: ١٧١.

(٢) سورة الجاثية الآية: ١٧.

(٣) **ضعيف**: أخرجه الترمذى فى المناقب" حديث (٣٨٦٢) وأحمد فى "المسند" حديث (٢٠٤٥٦، ٢٠٤٢٠) وانظر "ضعيف سنن الترمذى" حديث (٣٨٦٢) و"الضعيفة" رقم (٢٩٠١).

وقوله: وبغضهم كفر ونفاق وطغيان تقدم الكلام فى تكفير أهل البدع وهذا الكفر نظير الكفر المذكور فى قوله: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾(١) وقد تقدم الكلام فى ذلك.

❁ قوله: ونثبت الخلافة بعد رسول الله ﷺ أولا لأبى بكر الصديق ﷺ تفضيلا له وتقديما على جميع الأمة:

ش: اختلف أهل السنة فى خلافة الصديق ﷺ هل كانت بالنص أو بالاختيار فذهب الحسن البصرى وجماعة من أهل الحديث إلى أنَّها ثبتت بالنص الخفى والإشارة، ومنهم من قال بالنص الجلى، وذهب جماعة من أهل الحديث والمعتزلة والأشعرية إلى أنَّها ثبتت بالاختيار.

والدليل على إثباتِها بالنص أخبار، من ذلك ما أسنده البخارى عن جبير بن مطعم قال: أتت امرأة النبى ﷺ فأمرها أن ترجع إليه، قالت: أرأيت إن جئت فلم أجدك؟ كأنَّها تريد الموت قال: "إن لم تجدينى فأتى أبا بكر"(٢).

وذكر له سياق آخر وأحاديث أخر، وذلك نص على إمامته.

وحديث حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله ﷺ: "اقتدوا باللذيْن من بعدى: أبى بكر وعمر"(٣) ورواه أهل السنن.

وفى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها وعن أبيها قالت: دخل علىَّ رسول الله ﷺ فى اليوم الذى بدئ فيه فقال: "ادعى لى أباك وأخاك حتى أكتب لأبى بكر كتابا" ثم قال: "يأبى الله والمسلمون إلا أبا بكر"(٤) وفى رواية: "فلا يطمع فى هذا الأمر طامع" وفى رواية قال: "ادعى لى

---

(١) سورة المائدة الآية: ٤٤.

(٢) **صحيح:** أخرجه البخارى فى "كتاب الفضائل" حديث (٣٦٥٩) ومسلم فى "كتاب الفضائل" حديث (٢٣٨٦).

(٣) **صحيح:** أخرجه الترمذى فى "كتاب المناقب" حديث (٣٦٦٢) وابن ماجه فى "المقدمة" حديث (٩٧) والبغوى فى "شرح السنة" حديث (٣٨٩٥) والحاكم فى "المستدرك" حديث (٤٤٥١) وأحمد فى "المسند" حديث (٢٣١٣٨) وانظر "صحيح سنن الترمذى" (٣٦٦٢) و"صحيح سنن ابن ماجه" (٩٦).

(٤) **صحيح:** أخرجه مسلم فى "كتاب فضائل الصحابة" حديث (٢٣٨٧) وأحمد فى "المسند" حديث (٢٤٩٩٣) والبغوى فى "شرح السنة" حديث (١٤١١) وابن أبى عاصم فى "السنة" حديث (١١٥٦) وانظر "الصحيحة" (٦٩٠).

عبد الرحمن بن أبى بكر لأكتب لأبى بكر كتابا لا يختلف عليه" ثم قال: "معاذ الله أن يختلف المؤمنون فى أبى بكر".

وأحاديث تقديمه فى الصلاة مشهورة معروفة وهو يقول: "مروا أبا بكر فليصل بالناس"(١) وقد روجع فى ذلك مرة بعد مرة فصلى بهم مدة مرض النبى ﷺ.

وفى الصحيحين عن أبى هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "بينا أنا نائم رأيتنى على قليب عليها دلو فنزعت منها ماشاء الله، ثم أخذها ابن أبى قحافة فنزع منها ذنوبا أو ذنوبين، وفى نزعه ضعف، والله يغفر له، ثم استحالت غربا فأخذها ابن الخطاب، فلم أر عبقريا من الناس يفرى فريه، حتى ضرب الناس بعطن"(٢).

وفى الصحيح أنه ﷺ قال على منبره: "لو كنت متخذا من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا، لا يبقين فى المسجد خوخة إلا سدت، إلا خوخة أبى بكر"(٣).

وفى سنن أبى داود وغيره من حديث الأشعث عن الحسن عن أبى بكرة أن النبى ﷺ قال ذات يوم: "من رأى منكم رؤيا" فقال رجل: أنا رأيت ميزانا أنزل من السماء فوزنت أنت وأبو بكر فرجحت أنت بأبى بكر، ثم وزن عمر وأبو بكر فرجح أبو بكر، ووزن عمر وعثمان فرجح عمر، ثم رفع، فرأيت الكراهة فى وجه النبى ﷺ فقال: "خلافة نبوة، ثم يؤتى الله الملك من يشاء"(٤).

فبين رسول الله ﷺ أن ولاية هؤلاء خلافة نبوة ثم بعد ذلك ملك، وليس فيه ذكر على ﷺ لأنه لم يجتمع الناس فى زمانه، بل كانوا مختلفين، لم ينتظم فيه خلافة النبوة ولا الملك.

وروى أبو دواود أيضا عن جابر ﷺ أنه كان يحدث أن رسول الله ﷺ قال: "رأى الليلة رجل صالح أن أبا بكر نيط برسول الله ﷺ ونيط عمر بأبى بكر ونيط عثمان بعمر" قال جابر:

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب الأذان" حديث (٦٦٤) والترمذى فى "كتاب المناقب" حديث (٣٦٧٢) وأحمد فى "المسند" حديث (١٧٨٤) وابن ماجه فى "كتاب إقامة الصلاة" حديث (١٢٤٦).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخارى حديث (٣٦٦٤) ومسلم حديث (٢٣٩٢).

(٣) **صحيح**: تقدم.

(٤) **صحيح**: أخرجه أبو داود فى "كتاب السنة" حديث (٤٦٣٤) والترمذى فى "كتاب الرؤية" حديث (٢٢٨٧) وانظر: "صحيح سنن أبى داود" حديث (٤٦٣٤) و"صحيح سنن الترمذى" حديث (٢٢٨٧).

فلما قمنا من عند رسول الله ﷺ قلنا: أما الرجل الصالح فرسول الله ﷺ، وأما المنوط بعضهم ببعض فهم ولاة هذا الأمر الذى بعث الله به نبيه[1].

وروى أبو داود أيضا عن سمرة بن جندب أن رجلا قال: يا رسول الله، رأيت كأن دلوا دلى من السماء فجاء أبو بكر فأخذ بعراقيها فشرب شربا ضعيفا، ثم جاء عمر فأخذ بعراقيها فشرب حتى تضلع، ثم جاء عثمان فأخذ بعراقيها فشرب حتى تضلع، ثم جاء على فأخذ بعراقيها، فانتشطت منه، فانتضح عليه منها شيء[2].

وعن سعيد بن جمهان، عن سفينة قال: قال رسول الله ﷺ "خلافة النبوة ثلاثون سنة ثم يؤتى الله ملكه من يشاء أو الملك".

واحتج من قال لم يستخلف، بالخبر المأثور، عن عبد الله بن عمر عن عمر، رضى الله عنهما، أنه قال: إن أستخلف فقد استخلف من هو خير منى، يعنى أبا بكر، وإن لا أستخلف فلم يستخلف من هو خير منى، يعنى رسول الله ﷺ، قال عبد الله فعرفت أنه حين ذكر رسول الله ﷺ غير مستخلف[3].

والظاهر والله أعلم أن المراد أنه لم يستخلف بعهد مكتوب، ولو كتب عهدا لكتبه لأبى بكر، بل قد أراد كتابته ثم تركه وقال: "يأبى الله والمسلمون إلا أبا بكر"[4] فكان هذا أبلغ من مجرد العهد فإن النبى ﷺ دل المسلمين على استخلاف أبى بكر وأرشدهم إليه بأمور متعددة من أقواله وأفعاله، وأخبر بخلافته إخبار راض بذلك حامد له، وعزم على أن يكتب بذلك عهدا ثم علم أن المسلمين يجتمعون عليه فترك الكتاب اكتفاء بذلك، ثم عزم على ذلك فى مرضه يوم

(١) **ضعيف**: أخرجه أبو داود فى "كتاب السنة" حديث (٤٦٣٦) والحاكم فى "المستدرك" حديث (٤٤٣٩) وانظر "ضعيف سنن أبى داود" حديث (٤٦٣٦).
قلت: فيه عمرو بن أبان بن عثمان، مجهول الحال

(٢) **ضعيف**: أخرجه أبو داود فى "كتاب السنة" حديث (٤٦٣٧) والطبرانى فى "الكبير" حديث (٧٩٦٥) وابن أبى عاصم فى "السنة" حديث (١١٤١) قال الشيخ الألبانى: إسناده ضعيف ورجال موثقون غير عبد الرحمن والد الأشعث وهو الأزدى الجرحى فإنه مجهول، قال الذهبى: ما حدث عنه سوى ولده أشعث.

(٣) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب الأحكام" حديث (٧٢١٨) ومسلم فى "كتاب الإمارة" حديث (١٨٢٣) وأبو داود فى "كتاب الخراج" حديث (٢٩٣٩) والترمذى فى "كتاب الفتن" حديث (٢٢٢٥).

(٤) **صحيح**: تقدم تخريجه.

الخميس، ثم لما حصل لبعضهم شك هل ذلك القول من جهة المرض أو هو قول يجب اتباعه ترك الكتابة اكتفاء بما علم أن الله يختاره والمؤمنون من خلافة أبى بكر، فلو كان التعيين مما يشتبه على الأمة لبينه بيانا قاطعا للعذر لكن لما دلهم دلالات متعددة على أن أبا بكر المتعين وفهموا ذلك حصل المقصود، ولهذا قال عمر ﷺ فى خطبته التى خطبها بمحضر من المهاجرين والأنصار: أنت خيرنا وسيدنا وأحبنا إلى رسول الله ﷺ، ولم ينكر ذلك منهم أحد ولا قال أحد من الصحابة: إن غير أبى بكر من المهاجرين أحق بالخلافة منه، ولم ينازع أحد فى خلافته إلا بعض الأنصار طمعا فى أن يكون من الأنصار أمير ومن المهاجرين أمير، وهذا مما ثبت بالنصوص المتواترة عن النبى ﷺ بطلانه، ثم الأنصار كلهم بايعوا أبا بكر إلا سعد بن عبادة لكونه هو الذى كان يطلب الولاية، ولم يقل أحد من الصحابة قط أن النبى ﷺ نص على غير أبى بكر لا على ولا العباس ولا غيرهما، كما قد قال أهل البدع.

وروى ابن بطه بإسناده أن عمر بن عبد العزيز بعث محمد بن الزبير الحنظلى إلى الحسن فقال: هل كان النبى ﷺ استخلف أبا بكر؟ فقال: أوفى شك صاحبك؟ نعم، والله الذى لا إله إلا هو استخلفه، لهو كان أتقى لله من أن يتوثب عليها[1].

وفى الجملة فجميع من نقل عنه أنه طلب توليه غير أبى بكر لم يذكر حجة دينية شرعية، ولا ذكر أن غير أبى بكر أفضل منه أو أحق بها وإنما نشأ من حب قبيلته وقومه فقط وهم كانوا يعلمون فضل أبى بكر ﷺ وحب رسول الله ﷺ له.

ففى الصحيحين عن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ بعثه على جيش ذات السلاسل فأتيته فقلت: أى الناس أحب إليك؟ قال: "عائشة" قلت: من الرجال، قال: "أبوها" قلت: ثم من؟ قال: "عمر . . ." وعد رجالا[2].

وفيهما أيضا عن أبى الدرداء قال: كنت جالسا عند النبى ﷺ إذ أقبل أبو بكر آخذا بطرف ثوبه حتى أبدى عن ركبتيه فقال النبى ﷺ: "أما صاحبكم فقد غامر" فسلم وقال: يا رسول الله،

---

(١) قال الشيخ أحمد شاكر: هذا أثر ضعيف الإسناد جدا، محمد بن الزبير الحنظلى: قال البخارى فى كتاب الضعفاء، ص٣١: "منكر الحديث".

(٢) صحيح: تقدم تخريجه.

إنه كان بيني وبين ابن الخطاب شيء فأسرعت إليه، ثم ندمت، فسألته أن يغفر لى فأبى علـــى، فأقبلت إليك فقال: "يغفر الله لك يا أبا بكر" ثلاثا، ثم إن عمر ندم فأتى منـــزل أبى بكر فسأل: أثم أبو بكر؟ فقالوا: لا، فأتى إلى النبي ﷺ فسلم عليه، فجعل وجه النبي ﷺ يتمعر حتى أشـفق أبو بكر فجثا على ركبتيه فقال: يارسول الله، والله أنا كنت أظلم، مرتين، فقال النبي ﷺ: "إن الله بعثني إليكم فقلتم: كذبت، وقال أبو بكر: صدق، وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تـاركو لى صاحبى" مرتين، فما أوذى بعدها(١).

ومعنى غامر: غاضب وخاصم.

ويضيق هذا المختصر عن ذكر فضائله.

وفى الصحيحين أيضا عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ مات وأبو بكر بالسنح، فذكرت الحديث إلى أن قالت: واجتمعت الأنصار إلى سعد بن عبادة فى سقيفة بـــنى ســاعدة فقالوا: منا أمير ومنكم أمير، فذهب إليهم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة بـــن الجراح، فذهب عمر يتكلم فأسكته أبو بكر، وكان عمر يقول: والله ما أردت بذلك إلا أنى قد هيأت فى نفسى كلاما قد أعجبنى خشيت أن لا يبلغه أبو بكر، ثم تكلم أبو بكر فتكلم أبلـــغ الناس، فقال فى كلامه: نحن الأمراء وأنتم الوزراء، فقال حباب بن المنذر: لا والله لا نفعل، منـا أمير ومنكم أمير، فقال أبو بكر: لا، ولكنا الأمراء وأنتم الوزراء، هم أوسط العرب وأعزهــــم أحسابا، فبايعوا عمر بن الخطاب أو أبا عبيدة بن الجراح، فقال عمر: بل نبايعك، فأنت سـيدنا وخيرنا وأحبنا الى رسول الله ﷺ، فأخذ عمر بيده فبايعه وبايعه الناس، فقال قائل: قتلتم سـعد ابن عبادة، فقال عمر: قتله الله(٢).

والسنح: العالية، وهى: حديقة بالمدينة معروفة بها.

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى حديث (٣٦٦١) وطرفه فى (٤٦٤٠) و لم يخرجه مسلم قـال الشـيخ أحمـد شاكر: "وقد أوهم الشارح رحمه الله فى نسبته للصحيحين فإن مسلما لم يروه فى صحيحه، وقـــد نــص الحافظ فى الفتح (٧/ ١٢٣) على أنه من أفراد البخارى".

(٢) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب فضائل الصحابة" حديث (٣٦٦٨).

❁ قوله: ثم لعمر بن الخطاب ﷺ:

ش: أى وتثبت الخلافة بعد أبى بكر ﷺ لعمر ﷺ وذلك بتفويض أبى بكر الخلافة اليه واتفاق الأمة بعده عليه.

وفضائله ﷺ أشهر من أن تنكر، وأكثر من أن تذكر.

فقد روى عن محمد ابن الحنفية أنه قال قلت لأبى يا أبت من خير الناس بعد رسول الله ﷺ؟ فقال: يا بنى أوما تعرف؟ فقلت: لا، قال: أبو بكر، قلت: ثم من؟ قال: عمر، وخشيت أن يقول: ثم عثمان، فقلت: ثم أنت، فقال: ما أنا إلا رجل من المسلمين[(١)].

وتقدم قوله ﷺ: "اقتدوا باللذين من بعدى أبى بكر وعمر"[(٢)].

وفى صحيح مسلم عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: وضع عمر على سريره فتكنفه الناس يدعون ويثنون ويصلون عليه، قبل أن يرفع، وأنا فيهم، فلم يرعنى إلا برجل قد أخذ بمنكبى من ورائى، فالتفت إليه، فإذا هو علىٌّ، فترحم على عمر وقال: ما خلفت أحدا أحب إلىَّ أن ألقى الله بمثل عمله منك، وايم الله إن كنت لأظن أن يجعلك الله مع صاحبيك، وذلك أنى كنت كثيرا ما أسمع رسول الله ﷺ يقول: جئت أنا وأبو بكر وعمر، ودخلت أنا وأبو بكر وعمر، وخرجت أنا وأبو بكر وعمر، فإن كنت لأرجو، أو لأظن أن يجعلك الله معهما[(٣)].

وتقدم حديث أبى هريرة ﷺ فى رؤيا رسول الله ﷺ ونزعه من القليب ثم نزع أبى بكر ثم استحالت الدلو غربا، فأخذها ابن الخطاب فلم أر عبقريا من الناس ينزع نزع عمر، حتى ضرب الناس بعطن.

وفى الصحيحين من حديث سعد بن أبى وقاص قال: استأذن عمر بن الخطاب على رسول الله ﷺ وعنده نساء من قريش يكلمنه، عالية أصواتُهن . . . الحديث، وفيه: فقال رسول الله ﷺ: "إيه يا بن الخطاب، والذى نفسى بيده ما لقيك الشيطان سالكا فجا إلا سلك

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب فضائل الصحابة" حديث (٣٦٧١) وأبو داود فى "كتاب السنة" حديث (٤٦٢٩) وابن ماجه فى "المقدمة" حديث (١٠٦).

(٢) **صحيح**: تقدم.

(٣) **صحيح**: اخرجه البخارى فى "كتاب فضائل الصحابة" حديث (٣٦٧٧) ومسلم فى "كتاب الفضائل" حديث (٢٣٨٩) وابن ماجه فى "المقدمة" حديث (٣٨٩٠).

فجا غير فجك[١]، وفى الصحيحين أيضا عن النبى ﷺ أنه كان يقول: "قد كان فى الأمم قبلكم محدثون، فإن يكن فى أمتى منهم أحد فإن عمر بن الخطاب منهم"[٢] وقال ابن وهب: تفسير محدثون ملهمون.

❁ قوله: ثم لعثمان ﷺ:

ش: أى ونثبت الخلافة بعد عمر لعثمان رضى الله عنهما، وقد ساق البخارى، رحمه الله، قصة قتل عمر ﷺ وأمر الشورى والمبايعة لعثمان فى صحيحه فأحببت أن أسردها كما رواها بسنده عن عمرو بن ميمون قال:

رأيت عمر بن الخطاب ﷺ قبل أن يصاب بأيام بالمدينة وقف على حذيفة بن اليمان وعثمان بن حنيف فقال: كيف فعلتما؟ أتخافان أن تكونا قد حملتما الأرض ما لا تطيق؟ قالا: حملناها أمرا هى له مطيقة، ما فيها كبير فضل، قال: انظرا أن تكونا حملتما الأرض ما لا تطيق، قالا: لا، فقال عمر: لئن سلمنى الله لأدعن أرامل أهل العراق لا يحتجن إلى رجل بعدى أبدا، قال: فما أتت عليه إلا أربعة حتى أصيب.

قال: إنى لقائم، ما بينى وبينه إلا عبد الله بن عباس غداة أصيب، وكان إذا مر بين الصفين قال: استووا حتى إذا لم ير فيهن خللا تقدم فكبر، وربما قرأ سورة يوسف أو النحل أو نحو ذلك فى الركعة الأولى، حتى يجتمع الناس، فما هو إلا أن كبر فسمعته يقول: قتلنى أو أكلنى الكلب، حين طعنه، فطار العلج بسكين ذات طرفين لا يمر على أحد يمينا وشمالا إلا طعنه، حتى طعن ثلاثة عشر رجلا، مات منهم سبعة، فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه برنسا، فلما ظن العلج أنه مأخوذ نحر نفسه.

وتناول عمر يد عبد الرحمن بن عوف فقدمه، فمن يلى عمر فقد رأى الذى أرى، وأما نواحى المسجد فإنهم لا يدرون، غير أنهم قد فقدوا صوت عمر، وهم يقولون: سبحان الله

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب بدء الخلق" حديث (٣٢٩٤) ومسلم فى "كتاب فضائل الصحابة" حديث (٢٣٩٦).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب أحاديث الأنبياء" حديث (٣٤٦٩) ومسلم فى "كتاب فضائل الصحابة" حديث (٢٣٩٨) والترمذى فى "كتاب المناقب" حديث (٣٦٩٣) والبغوى فى "شرح السنة" حديث (٣٨٧٣).

سبحان الله، فصلى بهم عبد الرحمن صلاة خفيفة، فلما انصرفوا قال: يا بن عباس، انظر من قتلنى؟ فجال ساعة ثم جاء فقال: غلام المغيرة، قال: الصنع؟ قال: نعم، قال: قاتله الله، لقد أمرت به معروفا، الحمد لله الذى لم يجعل منيتى على يد رجل يدعى الإسلام، قد كنت أنت وأبوك تحبان أن تكثر العلوج بالمدينة، وكان العباس أكثرهم رقيقا، فقال: إن شئت فعلت، أى إن شئت قتلنا، قال: كذبت، بعدما تكلموا بلسانكم وصلُّوا قبلتكم وحجوا حجكم، فاحتُمل إلى بيته، فانطلقنا معه، وكأن الناس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ، فقائل يقول: لا بأس عليه، وقائل يقول: أخاف عليه، فأُتى بنبيذ فشربه فخرج من جوفه، ثم أُتى بلبن فشربه فخرج من جوفه، فعرفوا أنه ميت، فدخلنا عليه وجاء الناس يثنون عليه، وجاء رجل شاب فقال: أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى الله لك، من صحبة رسول الله ﷺ وقدم فى الإسلام ما قد علمت، ثم وليت فعدلت، ثم شهادة، قال: وددت أن ذلك كفاف، لا علىَّ ولا لىَّ، فلما أدبر إذا إزاره يمس الأرض، قال: ردوا علىَّ الغلام، قال: يا بن أخى، ارفع ثوبك، فإنه أنقى لثوبك وأتقى لربك.

يا عبد الله بن عمر، انظر ما علىَّ من الدَّيْنِ، فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين ألفا، أو نحوه، قال: إن وفَّى له مال آل عمر فأدِّه من أموالهم، وإلا فسل فى بنى عدى بن كعب، فإن لم تف أموالهم فسل فى قريش، ولا تعدهم إلى غيرهم، فأد عنى هذا المال.

انطلق إلى عائشة، أم المؤمنين، فقل: يقرأ عليك عمر السلام، ولا تقل: أمير المؤمنين، فإنى لست اليوم للمؤمنين أميرا، وقل: يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه، فسلم واستأذن ثم دخل عليها فوجدها قاعدة تبكى، فقال: يقرأ عليك عمر بن الخطاب السلام ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه، فقالت: كنت أريده لنفسى، ولأوثرن به اليوم على نفسى، فلما أقبل قيل: هذا عبد الله بن عمر قد جاء، قال: ارفعونى، فأسنده رجل إليه، قال: ما لديك؟ قال: الذى تحب يا أمير المؤمنين، أذنت، قال: الحمد لله، ما كان شيء أهم إلىَّ من ذلك، فإذا أنا قضيت فاحملونى ثم سلم فقل: يستأذن عمر بن الخطاب، فإن أذنت لى فأدخلونى، وإن ردتنى فردونى إلى مقابر المسلمين.

وجاءت أم المؤمنين حفصة والنساء يسترنْها، فلما رأيناها قمنا، فولجت عليه فبكت عنده ساعة، واستأذن الرجال فولجت داخلا لهم، فسمعنا بكاءها من الداخل، فقالوا: أوص يا أمير

المؤمنين، استخلف، قال: ما أحد أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر، أى الرهط، الذين توفى رسول الله ﷺ وهو عنهم راض، فسمى عليا وعثمان والزبير وطلحة وسعدا وعبد الرحمن، وقال: يشهدكم عبد الله بن عمر، وليس له من الأمر شيء، كهيئة التعزية له، فإن أصابت الإمارة سعدا فهو ذاك، وإلا فليستعن به أيكم ما أمر، فإنى لم أعزله من عجز ولا خيانة، وقال: أوصى الخليفة من بعدى بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم ويحفظ لهم حرمتهم، وأوصيه بالأنصار خيرا، الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم، أن يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم، وأوصيه بأهل الأمصار خيرا، فإنهم ردء الإسلام وجباة الأموال وغيظ العدو، وأن لا يأخذ منهم إلا فضلهم عن رضاهم، وأوصيه بالأعراب خيرا، فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام أن يأخذ من حواشى أموالهم وأن ترد على فقرائهم، وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله أن يوفى لهم بعدهم، وأن يقاتل من ورائهم، ولا يكلفوا إلا طاقتهم.

فلما قبض خرجنا به فانطلقنا نمشى، فسلم عبد الله بن عمر قال: يستأذن عمر بن الخطاب، قالت: أدخلوه، فأدخل فوضع هنالك مع صاحبيه.

فلما فرغ من دفنه اجتمع هؤلاء الرهط فقال عبد الرحمن: اجعلوا أمركم إلى ثلاثة منكم، قال الزبير: قد جعلت أمرى إلى على، فقال طلحة: قد جعلت أمرى إلى عثمان، وقال سعد: قد جعلت أمرى إلى عبد الرحمن بن عوف، فقال عبد الرحمن: أيكما تبرأ من هذا الأمر فنجعله إليه والله عليه والإسلام لينظرن أفضلهم فى نفسه، فأسكت الشيخان، فقال عبد الرحمن: أفتجعلونه إلى، والله على أن لا آلو عن أفضلكم؟ قالا: نعم، فأخذ بيد أحدهما فقال: لك قرابة من رسول الله ﷺ والقدم فى الإسلام ما قد علمت، فالله عليك لئن أمرتك لتعدلن، ولئن أمرت عثمان لتسمعن وتطيعن، ثم خلا بالآخر فقال له مثل ذلك، فلما أخذ الميثاق قال: ارفع يدك يا عثمان، فبايعه، فبايع له على، وولج أهل الدار فبايعوه[1].

وعن حميد بن عبد الرحمن أن المسور بن مخرمة أخبره أن الرهط الذين ولاهم عمر اجتمعوا فتشاوروا قال لهم عبد الرحمن: لست بالذى أنافسكم عن هذا الأمر، ولكنكم إن شئتم اخترت لكم منكم، فجعلوا ذلك إلى عبد الرحمن، فلما ولوا عبد الرحمن أمرهم فمال الناس على

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب فضائل أصحاب النبى ﷺ" حديث (٣٧٠٠) وطرفه فى (١٣٩٢).

عبد الرحمن حتى ما أرى أحدا من الناس يتبع أولئك الرهط ولا يطأ عقبه، ومال الناس على عبد الرحمن يشاورونه تلك الليالى، حتى إذا كانت تلك الليلة التى أصبحنا فيها فبايعنا عثمان، قال المسور بن مخرمة: طرقنى عبد الرحمن بعد هجع من الليل، فضرب الباب حتى استيقظت، فقال: أراك نائما، فوالله ما اكتحلت هذه الثلاث بكبير نوم، انطلق فادع لى الزبير وسعدا، فدعوتُهما له فشاورهما، ثم دعانى فقال: ادع لى عليا، فدعوته فناجاه حتى ابْهار الليل، ثم قام علىٌّ من عنده، وهو على طمع، وقد كان عبد الرحمن يخشى من علىٍّ شيئا، ثم قال: ادع لى عثمان، فدعوته فناجاه حتى فرق بينهما المؤذن بالصبح.

فلما صلى الناس الصبح واجتمع أولئك الرهط عند المنبر فأرسل إلى من كان حاضرا من المهاجرين والأنصار وأرسل إلى أمراء الأجناد، وكانوا وافوا تلك الحجة مع عمر، فلما اجتمعوا تشهَّد عبد الرحمن ثم قال:

أما بعد يا على، إنى قد نظرت فى أمر الناس فلم أرهم يعدلون بعثمان، فلا تجعلن على نفسك سبيلا، فقال لعثمان: أبايعك على سنة الله ورسوله ﷺ والخليفتين من بعده، فبايعه عبد الرحمن، وبايعه الناس والمهاجرون والأنصار وأمراء الأجناد والمسلمون.

ومن فضائل عثمان ﷺ الخاصة كونه ختن رسول الله ﷺ على ابنتيه.

وفى صحيح مسلم عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ مضطجعا فى بيته كاشفا عن فخذيه، أو ساقيه، فاستأذن أبو بكر فأذن له، وهو على تلك الحال، فتحدث، ثم استأذن عمر فأذن له، وهو كذلك، فتحدث، ثم استأذن عثمان فجلس رسول الله ﷺ وسوَّى ثيابه، فدخل فتحدث، فلما خرج قالت عائشة: دخل أبو بكر فلم تَهتش له و لم تباله، ثم دخل عمر فلم تَهتش و لم تباله، ثم دخل عثمان فجلست وسويت ثيابك، فقال: "ألا أستحى من رجل تستحى منه الملائكة"(١).

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم فى "كتاب فضائل الصحابة" حديث (٢٤٠٢) وأحمد فى "المسند" حديث (٥١٤، ٢٥٠٩٤، ٢٦٣٤٦) والبغوى فى "شرح السنة" حديث (٣٨٩٨).

وفى الصحيح: لما كان يوم بيعة الرضوان وأن عثمان ﷺ كان قد بعثه النبى ﷺ إلى مكة، وكانت بيعة الرضوان بعدما ذهب عثمان إلى مكة فقال رسول الله ﷺ بيده اليمنى: "هذه يد عثمان" فضرب بها على يده فقال: "هذه لعثمان"(١).

❁ قوله: ثم لعلى بن أبى طالب ﷺ:

ش: أى وتثبت الخلافة بعد عثمان لعلى رضى الله عنهما.

لما قتل عثمان وبايع الناس عليا صار إماما حقا واجب الطاعة، وهو الخليفة فى زمانه خلافة نبوة، كما دل عليه حديث سفينة المقدم ذكره أنه قال: قال رسول الله ﷺ: "خلافة النبوة ثلاثون سنة ثم يؤتى الله ملكه من يشاء"(٢)، وكانت خلافة أبى بكر الصديق سنتين وثلاثة أشهر، وخلافة عمر عشر سنين ونصفا، وخلافة عثمان اثنتى عشرة سنة، وخلافة على أربع سنين وتسعة أشهر، وخلافة الحسن ستة أشهر، وأول ملوك المسلمين معاوية ﷺ، وهو خير ملوك المسلمين، لكنه إنما صار إماما حقا لما فوض إليه الحسن بن على ﷺ الخلافة، فإن الحسن ﷺ بايعه أهل العراق بعد موت أبيه، ثم بعد ستة أشهر فوض الأمر إلى معاوية، فظهر صدق قول النبى ﷺ: "إن ابنى هذا سيد وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين"(٣) والقصة معروفة فى موضعها.

فالخلافة ثبتت لأمير المؤمنين على بن أبى طالب ﷺ بعد عثمان ﷺ بمبايعة الصحابة، سوى معاوية مع أهل الشام، والحق مع على ﷺ، فإن عثمان ﷺ لما قُتل كثر الكذب والافتراء على عثمان وعلى من كان بالمدينة من أكابر الصحابة، كعلى وطلحة والزبير، وعظمت الشبهة عند من لم يعرف الحال وقويت الشهوة فى نفوس ذوى الأهواء والأغراض ممن بعدت داره من أهل الشام، ويحمى الله عثمان أن يظن بالأكابر ظنون سوء ويبلغه عنهم أخبار منها ما هو كذب ومنها ما هو محرف ومنها ما لم يعرف وجهه، وانضم إلى ذلك أهواء أقوام يحبون العلو

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب فضائل أصحاب النبى ﷺ" حديث (٣٦٩٩) والترمذى فى "كتاب المناقب" حديث (٣٧٠٦) وانظر "تحفة الأشراف" (٦/ ٧) حديث (٧٣١٩).

(٢) **حسن**: تقدم تخريجه.

(٣) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب الصلح" حديث (٢٧٠٤) وأبو داود فى "كتاب السنة" حديث (٤٦٦٢) والترمذى رقم (٣٧٧٣).

فى الأرض، وكان فى عسكر على ﷺ من أولئك الطغاة الخوارج الذين قتلوا عثمان من لم يُعرف بعينه، ومن تنتصر له قبيلته، ومن لم تقم عليه حجة بما فعله، ومن فى قلبه نفاق لم يتمكن من إظهاره كله.

ورأى طلحة والزبير أنه إن لم ينتصر للشهيد المظلوم ويقمع أهل الفساد والعدوان وإلا استوجبوا غضب الله وعقابه، فجرت فتنة الجمل على غير اختيار من على ولا من طلحة والزبير، وإنما أثارها المفسدون بغير اختيار السابقين.

ثم جرت فتنة صفين لرأى، وهو أن أهل الشام لم يعدل عليهم، أو لا يتمكن من العدل عليهم وهم كافون حتى يجتمع أمر الأمة، وأنّهم يخافون طغيان من فى العسكر كما طغوا على الشهيد المظلوم، وعلى ﷺ هو الخليفة الراشد المهدى الذى تجب طاعته، ويجب أن يكون الناس مجتمعين عليه، فاعتقد أن الطاعة والجماعة الواجبتين عليهم تحصل بقتالهم بطلب الواجب عليهم بما اعتقد أنه يحصل به أداء الواجب، و لم يعتقد أن التأليف لهم كتأليف المؤلفة قلوبُهم على عهد النبى ﷺ والخليفتين من بعده، مما يسوغ فحمله ما رآه من أن الدين إقامة الحد عليهم، ومنعهم من الإثارة دون تأليفهم على القتال، وقعد عن القتال أكثر الأكابر لما سمعوه من النصوص فى الأمر بالقعود فى الفتنة، ولما رأوه من الفتنة التى تربو مفسدتُها على مصلحتها، ونقول فى الجميع بالحسنى: ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾(١) والفتن التى كانت فى أيامه قد صان الله عنها أيدينا فنسأل الله أن يصون عنها ألسنتنا بمنه وكرمه.

ومن فضائل أمير المؤمنين على بن أبى طالب ﷺ ما فى الصحيحين عن سعد بن أبى وقاص ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ لعلى: "أنت منى بمنزلة هرون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى"(٢).

وقال ﷺ يوم خيبر: "لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله" قال: فتطاولنا لها، فقال: "ادعوا لى عليا" فأتى به أرمد فبصق فى عينيه ودفع الراية إليه، ففتح الله

(١) سورة الحشر الآية: ١٠.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب فضائل الصحابة" حديث (٣٧٠٦) ومسلم فى "كتاب فضائل الصحابة" حديث (٢٤٠٤) والترمذى فى "كتاب المناقب" حديث (٣٧٢٤) وأحمد فى "المسند" حديث (١٤٩٠، ١٥٠٥، ١٥٠٩) وابن أبى عاصم فى السنة" حديث (١٣٣٥).

عليه[١]، ولما نزلت هذه الآية: ﴿ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ﴾[٢] دعا رسول الله ﷺ عليا وفاطمة وحسنا وحسينا فقال: "اللهم هؤلاء أهلى"[٣].

❁ **قوله: وهم الخلفاء الراشدون والأئمة المهديون:**

ش: تقدم الحديث الثابت فى السنن وصححه الترمذى عن العرباض بن سارية قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب فقال قائل: يا رسول الله، كأن هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا؟ فقال: "أوصيكم بالسمع والطاعة، فإنه من يعش منكم بعدى فسيرى اختلافا كثيرا، فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى، تمسكوا بها، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة"[٤].

وترتيب الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم أجمعين فى الفضل كترتيبهم فى الخلافة، ولأبى بكر وعمر رضى الله عنهما من المزية أن النبى ﷺ أمرنا باتباع سنة الخلفاء الراشدين و لم يأمرنا فى الاقتداء فى الأفعال إلا بأبى بكر وعمر، فقال: "اقتدوا باللذيْن من بعدى: أبى بكر وعمر"[٥].

وفرق بين اتباع سنتهم والاقتداء بِهم، فحال أبى بكر وعمر فوق حال عثمان وعلى رضى الله عنهم أجمعين.

وقد روى عن أبى حنيفة تقديم على على عثمان، ولكن ظاهر مذهبه تقديم عثمان على علىٍّ، وعلى هذا عامة أهل السنة.

وقد تقدم قول عبد الرحمن بن عوف لعلى رضى الله عنهما: إنى قد نظرت فى أمر الناس فلم أرهم يعدلون بعثمان.

وقال أيوب السختيانى من لم يقدم عثمان على علىٍّ فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار.

---

(١) انظر المتقدم.
(٢) سورة آل عمران الآية: ٦١.
(٣) **صحيح:** انظر المتقدم.
(٤) **صحيح:** تقدم تخريجه.
(٥) **صحيح:** تقدم تخريجه.

وفى الصحيحين عن ابن عمر قال: كنا نقول ورسول الله ﷺ حى: أفضل أمة النبى ﷺ بعده أبو بكر ثم عمر ثم عثمان[١].

❁ **قوله: وأن العشرة الذين سماهم رسول الله ﷺ وبشرهم بالجنة نشهد لهم بالجنة، على ما شهد لهم رسول الله ﷺ، وقوله الحق وهم:**

أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة بن الجراح، وهو أمين هذه الأمة، رضى الله عنهم أجمعين:

ش: تقدم ذكر بعض فضائل الخلفاء الأربعة ومن فضائل الستة الباقين من العشرة رضى الله عنهم أجمعين ما رواه مسلم عن عائشة رضى الله عنها: أرق رسول الله ﷺ ذات ليلة فقال: "ليت رجلا صالحا من أصحابى يحرسنى الليلة" قالت: وسمعنا صوت السلاح فقال النبى ﷺ: "من هذا؟" فقال سعد بن أبى وقاص: يا رسول الله، جئت أحرسك، وفى لفظ آخر وقع فى نفسى خوف على رسول الله ﷺ فجئت أحرسه، فدعا له رسول الله ﷺ ثم نام[٢].

وفى الصحيحين أن رسول الله ﷺ جمع لسعد بن أبى وقاص أبويه يوم أحد فقال: "ارم فداك أبى وأمى"[٣].

وفى صحيح مسلم عن قيس بن أبى حازم قال: رأيت يد طلحة التى وقى بها النبى ﷺ يوم أحد قد شلت[٤]، وفيه أيضا عن أبى عثمان النهدى قال: لم يبق مع رسول الله ﷺ فى بعض تلك الأيام التى قاتل فيها النبى ﷺ غير طلحة وسعد[٥].

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب فضائل الصحابة" حديث (٣٦٦٩٨) وليس فى مسلم، وأخرجه أبو داود فى "كتاب السنة" حديث (٤٦٢٨) والترمذى فى "كتاب المناقب" حديث (٣٦٠٧).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب الجهاد والسير" حديث (٢٨٨٥) ومسلم فى "كتاب فضائل الصحابة" حديث (٢٤١٠) والترمذى فى "كتاب المناقب" حديث (٣٧٥٦).

(٣) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب الجهاد والسير" حديث (٢٩٠٥) ومسلم فى "كتاب فضائل الصحابة" حديث (٢٤١١) والترمذى فى "كتاب المناقب" حديث (٣٧٥٥) وابن ماجه فى "كتاب فضائل الصحابة" حديث (١٢٩).

(٤) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب فضائل الصحابة" حديث (٣٧٢٤) وابن ماجه فى "المقدمة" حديث (١٢٨) وأحمد فى "المسند" حديث (١٣٨٥).

(٥) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "فضائل الصحابة" حديث (٣٧٢٢، ٣٧٢٣) ومسلم فى "كتاب فضائل الصحابة" حديث (٢٤١٤).

وفى الصحيحين واللفظ لمسلم عن جابر بن عبد الله قال ندب رسول الله ﷺ الناس يـــوم الخندق فانتدب الزبير، ثم ندبهم فانتدب الزبير، فقال النبى ﷺ: "لكل نبى حوارى وحـــواريى الزبير"(١)، وفيهما أيضا عن الزبير رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: "من يأتى بنى قريظة فيأتينى بخـــبرهم؟" فانطلقت فلما رجعت جمع لى رسول الله ﷺ أبويه فقال: "فداك أبى وأمى"(٢).

وفى صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: "إن لكل أمة أمينـــا، وإن أميننا أيتها الأمة أبو عبيدة بن الجراح"(٣).

وفى الصحيحين عن حذيفة بن اليمان قال: جاء أهل نجران إلى النبى ﷺ فقالوا: يا رسول الله، ابعث إلينا رجلا أمينا فقال: "لأبعثن إليكم رجلا أمينا حق أمين" قال: فاستشـــرف لهـــا الناس، قال: فبعث أبا عبيدة بن الجراح(٤).

وعن سعيد بن زيد رضي الله عنه قال: "أشهد على رسول الله ﷺ أنى سمعته يقـــول: "عشـــرة فى الجنة: النبى فى الجنة، وأبو بكر فى الجنة، وطلحة فى الجنة، وعمر فى الجنة، وعثمان فى الجنـــة، وسعد بن مالك فى الجنة، وعبد الرحمن بن عوف فى الجنة" ولو شئت لسميت العاشر، قـــال: فقالوا: من هو؟ قال: سعيد بن زيد، وقال: لمشهد رجل منهم مع رسول الله ﷺ يغـــبر منـــه وجهه خير من عمل أحدكم ولو عُمِّر عمر نوح، رواه أبـــو داود وابـــن ماجـــه والـــترمذى وصححه، ورواه الترمذى عن عبد الرحمن بن عوف وعن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أن النـــبى ﷺ قال: "أبو بكر فى الجنة، وعمر فى الجنة، وعلى فى الجنة، وعثمان فى الجنة، وطلحة فى الجنة، والزبير بن العوام فى الجنة، وعبد الرحمن بن عوف فى الجنة، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل فى

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى فى "كتاب الفتن" (٢٨٤٧) ومســـلم كتـــاب فضـــائل الصحابـــة (٢٤١٥) والترمذى كتاب المناقب (٢٧٤٤) وأحمد فى المسند (٦٨٠، ٦٨١).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخارى كتاب فضائل الصحابة (٢٤١٦) والترمذى كتاب المناقب (٣٧٤٣) ومســـلم كتاب فضائل الصحابة (٢٤١٦).

(٣) **صحيح**: أخرجه البخارى كتاب فضائل الصحابة (٣٧٤٤) مسلم كتاب فضـــائل الصحابـــة (٢٤١٩) والإمام أحمد فى المسند (١٠٨) والترمذى كتاب الفضائل (٣٧٩٠).

(٤) **صحيح**: أخرجه البخارى كتاب فضائل الصحابة (٣٧٤٥) ومسلم كتاب فضـــائل الصحابـــة (٢٤٢٠) والترمذى كتاب المناقب (٣٧٩٦).

الجنة وأبو عبيدة بن الجراح فى الجنة"[١]، رواه الإمام أحمد فى مسنده ورواه أبو بكر بن أبى خيثمة، وقدم فيه عثمان على على، رضى الله عنهما.

وعن أبى هريرة ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ على حراء هو وأبو بكر وعمر وعثمان وعلى وطلحة والزبير فتحركت الصخرة فقال رسول الله ﷺ: "اهدأ، فما عليك إلا نبى أو صديق أو شهيد"[٢] رواه مسلم والترمذى وغيرهما وروى من طرق.

وقد اتفق أهل السنة على تعظيم هؤلاء العشرة وتقديمهم لما اشتهر من فضائلهم ومناقبهم ومن أجهل ممن يكره التكلم بلفظ العشرة أو فعل شيء يكون عشرة لكونهم يبغضون خيار الصحابة، وهم العشرة المشهود لهم بالجنة، وهم يستثنون منهم عليا ﷺ.

فمن العجب أنهم يوالون لفظ التسعة، وهم يبغضون التسعة من العشرة ويبغضون سائر المهاجرين والأنصار من السابقين الأولين الذين بايعوا رسول الله تحت الشجرة، وكانوا ألفا وأربعمائة، وقد رضى الله عنهم كما قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾[٣].

وثبت فى صحيح مسلم عن جابر ﷺ عن النبى ﷺ أنه قال "لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة"[٤]، وفى صحيح مسلم أيضا عن جابر أن غلام حاطب بن أبى بلتعة قال: يا رسول الله ليدخلن حاطب النار فقال رسول الله ﷺ: "كذبت لا يدخلها فإنه شهد بدرا والحديبية[٥].

والرافضة يتبرءون من جمهور هؤلاء، بل يتبرءون من سائر أصحاب رسول الله ﷺ إلا من نفر قليل نحو بضعة عشر نفرا.

---

(١) **صحيح**: أخرجه أبو داود فى المسند كتاب السنة (٤٦٤٩) والترمذى كتاب المناقب (٣٧٤٧) وابن ماجة (١٣٣) بنحوه وظلال الجنة (١٤٣٥).

(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم كتاب فضائل الصحابة (٢٤١٧) والإمام أحمد فى المسند (٩٣٩٣) والترمذى كتاب المناقب (٣٦٩٧) والطبرانى فى الأوسط (٦٥٦٢).

(٣) سورة الفتح الآية: ١٨.

(٤) **صحيح**: تقدم تخريجه.

(٥) **صحيح**: أخرجه مسلم كتاب فضائل الصحابة (٢٤٩٥) وأحمد فى المسند (١٤٤٢١) والترمذى فى كتاب المناقب (٣٨٦٤).

ومعلوم أنه لو فرض فى العالم عشرة من أكفر الناس لم يهجر هذا الاسم لذلك كما أنـــه سبحانه لما قـال: ﴿ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾[١] لم يجب هجر اسم التسعة مطلقا بل اسم العشرة قد مدح الله مسماه فى مواضع من القـــرآن: ﴿ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾[٢] ﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ ﴾[٣] ﴿ وَٱلْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝ ﴾[٤] وكان ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان[٥] وكان فى ليلة القـدر يقول: "التمسوها فى العشر الأواخر من رمضان"[٦] وقال "ما من أيام العمل الصالح فيهن أحب إلى الله من أيام العشر"[٧] يعنى عشر ذى الحجة.

والرافضة توالى بدل العشرة المبشرين بالجنة اثنى عشر إماما أولهم على بن أبى طـالب ﷺ ويدعون أنه وصى النبى ﷺ دعوى مجردة عن الدليل، ثم الحسن ﷺ ثم الحسين ﷺ ثم على بـن الحسين زين العابدين، ثم محمد بن على الباقر، ثم جعفر بن محمد الصادق، ثم موسى بن جعفـر الكاظم، ثم على بن موسى الرضى، ثم محمد بن على الجواد، ثم على بن محمد، ثم الحسن بـن على العسكرى، ثم محمد بن الحسن، ويغالون فى محبتهم ويتجاوزون الحد، ولم يأت ذكر الأئمة الاثنى عشر إلا على صفة ترد قولهم وتبطله، وهو ما خرجاه فى الصحيحين عن جابر بن سمـرة قال دخلت مع أبى على النبى ﷺ فسمعته يقول: "لا يزال أمر الناس ماضيا ما وليهم اثنا عشـر رجلا".

---

(١) سورة النمل الآية: ٤٨.

(٢) سورة البقرة الآية: ١٩٦.

(٣) سورة الأعراف الآية: ١٤٢.

(٤) سورة الفجر الآيتان: ١، ٢.

(٥) **صحيح**: أخرجه البخارى كتاب الاعتكاف (٢٠٢٥) ومسلم كتاب الأعتكـاف (١١٧٢) وأحمـد فى المسند (٧٧٧١) والترمذى كتاب الصوم (٧٩٠).

(٦) **صحيح**: أخرجه البخارى كتاب القدر (٢٠١٧) ومسلم كتاب الصيام (١١٦٧) والترمذى كتاب الصوم (٧٩٢).

(٧) **صحيح**: أخرجه البخارى كتاب العيدين (٩٦٩) والترمذى كتاب الصوم (٧٥٧).وأبـو داود كتـاب الصيام (٢٤٣٨).

ثم تكلم النبى ﷺ بكلمة خفيت على فسألت أبى ماذا قال النبى ﷺ؟ قال: "كلهم من قريش" وفى لفظ: "لا يزال الإسلام عزيزا إلى اثنى عشر خليفة" وفى لفظ: "لا يزال هذا الأمر عزيزا إلى اثنى عشر خليفة" وكان الامر كما قال النبى ﷺ، والاثنا عشر: الخلفاء الراشدون الأربعة، ومعاوية، وابنه يزيد، وعبد الملك بن مروان، وأولاده الأربعة، وبينهم عمر بن عبد العزيز، ثم أخذ الأمر فى الانحلال.

وعند الرافضة أن أمر الأئمة لم يزل فى أيامة هؤلاء فاسدا منغصا يتولى عليهم الظالمون المعتدون، بل المنافقون الكافرون، وأهل الحق أذل من اليهود، وقولهم ظاهر البطلان بل لم يزل الإسلام عزيزا فى ازدياد فى أيام هؤلاء الاثنى عشر.

❁ قوله: ومن أحسن القول فى أصحاب رسول الله ﷺ وأزواجه الطاهرات من كل دنس وذرياته المقدسين من كل رجس فقد برئ من النفاق:

ش: تقدم بعض ما ورد فى الكتاب والسنة من فضائل الصحابة ﷺ، وفى صحيح مسلم عن زيد بن أرقم قال قام فينا رسول الله ﷺ خطيبا بماء يدعى خما بين مكة والمدينة فقال: "أما بعد، ألا أيها الناس، فإنما أنا بشر يوشك أن يأتى رسول ربى فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين، أولهما: كتاب الله، فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به، فحث على كتاب الله، ورغب فيه" ثم قال: "وأهل بيتى، أذكركم الله فى أهل بيتى" ثلاثا[1] وخرج البخارى عن أبى بكر الصديق ﷺ قال ارقبوا محمدا فى أهل بيته[2].

وإنما قال الشيخ، رحمه الله: فقد برئ من النفاق، لأن أصل الرفض إنما أحدثه منافق زنديق قصده إبطال دين الإسلام والقدح فى الرسول ﷺ، كما ذكر ذلك العلماء، فإن عبد الله بن سبأ لما أظهر الاسلام أراد أن يفسد دين الإسلام بمكره وخبثه، كما فعل بولس بدين النصرانية فأظهر التنسك، ثم أظهر الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، حتى سعى فى فتنة عثمان وقتله ثم لما قدم على الكوفة أظهر الغلو فى على والنصر له ليتمكن بذلك من أغراضه، وبلغ ذلك عليا فطلب قتله فهرب منه إلى قرقيس، وخبره معروف فى التاريخ.

---

(١) **صحيح:** أخرجه مسلم كتاب فضائل الصحابة (٢٤٠٨) وظلال الجنة (١٥٥٠) والطبرانى فى الكبير (٥٠٤٠).

(٢) **صحيح:** أخرجه البخارى كتاب فضائل الصحابة (٣٧١٣).

وتقدم أن من فضَّله على أبي بكر وعمر جلده جلد المفترى، وبقيت فى نفوس المبطلين خمائر بدعة الخوارج من الحرورية والشيعة، ولهذا كان الرفض باب الزندقة كما حكاه القاضى أبو بكر بن الطيب عن الباطنية وكيفية إفسادهم لدين الإسلام قال: فقالوا للداعى: يجب عليك إذا وجدت من تدعوه مسلما أن تجعل التشيع عنده دينك وشعارك، واجعل المدخل من جهة ظلم السلف لعلى وقتلهم الحسين والتبرى من تيم وعدى وبنى أمية وبنى العباس وأن عليا يعلم الغيب يفوض إليه خلق العالم، وما أشبه ذلك من أعاجيب الشيعة وجهلهم، فإذا أنست من بعض الشيعة عند الدعوة إجابة ورشدا أوقفته على مثالب على وولده ﷺ. انتهى.

ولا شك أنه يتطرق من سب الصحابة إلى سب أهل البيت ثم إلى سب الرسول ﷺ إذ أهل بيته وأصحابه مثل هؤلاء الفاعلين الضالين.

❁ قوله: وعلماء السلف من السابقين ومن بعدهم من التابعين أهل الخير والأثر وأهل الفقه والنظر لا يُذكرون إلا بالجميل ومن ذكرهم بسوء فهو على غير السبيل:

ش: قال تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴾[1] فيجب على كل مسلم بعد موالاة الله ورسوله موالاة المؤمنين كما نطق به القرآن، خصوصا الذين هم ورثة الأنبياء الذين جعلهم الله بمنزلة النجوم يهتدى بهم فى ظلمات البر والبحر.

وقد أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم إذ كل أمة قبل مبعث محمد ﷺ علماؤها شرارها إلا المسلمين، فإن علماءهم خيارهم، فإنَّهم خلفاء الرسول من أمته والمحيون لما مات من سنته، فبهم قام الكتاب وبه قاموا، وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا، وكلهم متفقون اتفاقا يقينا على وجوب اتباع الرسول ﷺ ولكن إذا وجد لواحد منهم قول قد جاء حديث صحيح بخلافة فلا بد له فى تركه من عذر، وجماع الأعذار ثلاثة أصناف:

أحدها: عدم اعتقاده أن النبى ﷺ قاله.

والثانى: عدم اعتقاده أنه أراد تلك المسألة بذلك القول.

والثالث: اعتقاده أن ذلك الحكم منسوخ.

---

(١) سورة النساء الآية: ١١٥.

فلهم الفضل علينا والمنة بالسبق وتبليغ ما أرسل به الرسول ﷺ إلينا وإيضاح ما كان منه يخفى علينا فرضى الله عنهم وأرضاهم ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[1].

❁ **قوله: ولا نفضل أحدا من الأولياء على أحد من الأنبياء عليهم السلام، ونقول: نبى واحد أفضل من جميع الأولياء:**

ش: يشير الشيخ رحمه الله إلى الرد على الاتحادية وجهلة المتصوفة، وإلا فأهل الاستقامة يوصون بمتابعة العلم ومتابعة الشرع، فقد أوجب الله على الخلق كلهم متابعة الرسل.

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ ﴾ إلى أن قال: ﴿ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[3].

قال أبو عثمان النيسابورى: من أمَّر السنة على نفسه قولا وفعلا نطق بالحكمة، ومن أمَّر الهوى على نفسه نطق بالبدعة.

وقال بعضهم: ما ترك بعضهم شيئا من السنة إلا لكبر فى نفسه، والأمر كما قال، فإنه إذا لم يكن متبعا للأمر الذى جاء به الرسول كان يعمل بإرادة نفسه فيكون متبعا لهواه بغير هدى من الله وهذا غش النفس وهو من الكبر، فإنه شبيه بقول الذين قالوا: ﴿ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾[4] وكثير من هؤلاء يظن أنه يصل برياسته واجتهاده فى العبادة وتصفية نفسه إلى ما وصلت إليه الأنبياء من غير اتباع لطريقتهم، ومنهم من يظن أنه قد صار أفضل من الانبياء ومنهم من يقول: إن الانبياء والرسل إنما يأخذون العلم بالله من مشكاة خاتم الأولياء ويدعى لنفسه أنه خاتم الأولياء، ويكون ذلك العلم هو حقيقة قول فرعون، وهو أن هذا الوجود المشهود واجب بنفسه ليس له صانع مباين له، لكن هذا يقول هو الله، وفرعون أظهر الإنكار بالكلية، لكن كان فرعون فى الباطن أعرف بالله

(١) سورة الحشر الآية: ١٠.
(٢) سورة النساء الآيتان: ٦٤، ٦٥.
(٣) سورة آل عمران الآية: ٣١.
(٤) سورة الأنعام الآية: ١٢٤.

منهم، فإنه كان مثبتا للصانع، وهؤلاء ظنوا أن الوجود المخلوق هو الوجود الخالق، كابن عربى وأمثاله وهو لما رأى أن الشرع الظاهر لا سبيل إلى تغييره قال: النبوة ختمت لكن الولاية لم تختم، وادعى من الولاية ما هو أعظم من النبوة وما يكون للأنبياء والمرسلين، وأن الانبياء مستفيدون منها، كما قال:

مقام النبوة فى برزخ فويق الرسول ودون الولى

وهذا قلب للشريعة، فإن الولاية ثابتة للمؤمنين المتقين كما قال تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝ ﴾(١) والنبوة أخص من الولاية والرسالة أخص من النبوة كما تقدم التنبيه على ذلك.

وقال ابن عربى أيضا فى فصوصه: ولما مثل النبى ﷺ النبوة بالحائط من اللبن فرآها قد كملت إلا موضع لبنة، فكان هو ﷺ موضع اللبنة، وأما خاتم الأولياء فلا بد له من هذه الرؤية، فيرى ما مثله النبى ﷺ ويرى نفسه فى الحائط فى موضع لبنتين ويرى نفسه تنطبع فى موضع اللبنتين فتكمل الحائط والسبب الموجب لكونه يراها لبنتين أن الحائط لبنة من فضة ولبنة من ذهب، واللبنة الفضة هى ظاهره وما يتبعه فيه من الأحكام كما هو أخذ عن الله فى الشرع ما هو فى الصورة الظاهرة متبع فيه، لأنه يرى الأمر على ما هو عليه، فلا بد أن يراه هكذا، وهو موضع اللبنة الذهبية فى الباطن، فإنه يأخذ من المعدن الذى يأخذ منه الملك الذى يوحى إليه إلى الرسول ﷺ قال: فإن فهمت ما أشرنا إليه فقد حصل لك العلم النافع، فمن أكفر ممن ضرب لنفسه المثل بلبنة ذهب وللرسل المثل بلبنة فضة فيجعل نفسه أعلى وأفضل من الرسل تلك أمانيهم ﴿ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ﴾(٢) وكيف يخفى كفر من هذا كلامه وله من الكلام أمثال هذا، وفيه ما يخفى منه الكفر ومنه ما يظهر، فلهذا يحتاج إلى نقد جيد ليظهر زيفه، فإن من الزغل ما يظهر لكل ناقد ومنه ما لا يظهر إلا للناقد الحاذق البصير، وكفر ابن عربى وأمثاله فوق كفر القائلين: ﴿ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ﴾(٣) ولكن

---

(١) سورة يونس الآيتان: ٦٢، ٦٣.

(٢) سورة غافر الآية: ٥٦.

(٣) سورة الأنعام الآية: ١٢٤.

ابن عربي وأمثاله منافقون زنادقة اتحادية فى الدرك الأسفل من النار، والمنافقون يعاملون معاملة المسلمين لإظهارهم الإسلام كما كان يظهره المنافقون فى حياة النبى ﷺ ويبطنون الكفر، وهو يعاملهم معاملة المسلمين لما يظهر منهم، فلو أنه ظهر من أحد منهم ما يبطنه من الكفر لأجرى عليه حكم المرتد، ولكن فى قبول توبته خلاف والصحيح عدم قبولها، وهى رواية معلى عن أبى حنيفة رضي الله عنه والله المستعان.

❁ **قوله: ونؤمن بما جاء من كراماتهم وصح عن الثقات من رواياتهم:**

ش: فالمعجزة فى اللغة تعم كل خارق للعادة وكذلك الكرامة فى عرف أئمة أهل العلم المتقدمين، ولكن كثير من المتأخرين يفرقون فى اللفظ بينهما فيجعلون المعجزة للنبى والكرامة للولى، وجماعها الأمر الخارق للعادة، فصفات الكمال ترجع إلى ثلاثة: العلم والقدرة والغنى، وهذه الثلاثة لا تصلح على الكمال إلا لله وحده، فإنه الذى أحاط بكل شيء علما وهو على كل شيء قدير، وهو غنى عن العالمين، ولهذا أمر النبى ﷺ أن يتبرأ من دعوى هذه الثلاثة بقوله: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾(١) وكذلك قال نوح عليه السلام، فهذا أول أولى العزم وأول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض، وهذا خاتم الرسل وخاتم أولى العزم، وكلاهما تبرأ من ذلك، وهذا لأنهم يطالبونهم تارة بعلم الغيب كقوله: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴾(٢) وتارة بالتأثير كقوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴾(٣) الآيات، وتارة يعيبون عليهم الحاجة البشرية كقوله: ﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾(٤) فأمر الرسول أن يخبرهم بأنه لا يملك ذلك وإنما ينال من تلك الثلاثة بقدر ما يعطيه الله، فيعلم ما علمه الله، إياه ويستغنى عما أغناه عنه، ويقدر على ما أقدره عليه من الأمور

---

(١) سورة الأنعام الآية: ٥٠.

(٢) سورة الأعراف الآية: ١٨٧.

(٣) سورة الإسراء الآية: ٩٠.

(٤) سورة الفرقان الآية: ٧.

المخالفة للعادة المطردة، أو لعادة أغلب الناس، فجميع المعجزات والكرامات ما تخرج عن هـذه الأنواع.

ثم الخارق إن حصل به فائدة مطلوبة فى الدين كان من الأعمال الصالحة المأمور بها دينا وشرعا، إما واجب أو مستحب، وإن حصل به أمر مباح كان من نعم الله الدنيوية التى تقتضى شكرا، وإن كان على وجه يتضمن ما هو منهى عنه نهى تحريم أو نهى تنزيه كان سببا للعذاب أو البغض، كالذى أوتى الآيات فانسلخ منها، بلعام بن باعورا، لاجتهاد أو تقليد أو نقص عقل أو علم أو غلبة حال أو عجز أو ضرورة.

فالخارق ثلاثة أنواع: محمود فى الدين ومذموم ومباح، فإن كان المباح فيه منفعة كان نعمة وإلا فهو كسائر المباحات التى لا منفعة فيها، قال أبو على الجوزجانى كن طالبا للاستقامة لا طالبا للكرامة فإن نفسك متحركة فى طلب الكرامة وربك يطلب منك الاستقامة.

قال الشيخ السهروردى فى عوارفه: وهذا أصل كبير فى الباب، فإن كثيرا من المجتهدين المتعبدين سمعوا السلف الصالحين المتقدمين وما منحوا به من الكرامات وخوارق العادات، فنفوسهم لا تزال تتطلع إلى شىء من ذلك ويحبون أن يرزقوا شيئا منه، ولعل أحدهم يبقى منكسر القلب متهما لنفسه فى صحة عمله حيث لم يحصل له خارق، ولو علموا بسر ذلك لهان عليهم الأمر، فيعلم أن الله يفتح على بعض المجاهدين الصادقين من ذلك بابا، والحكمة فيه أن يزداد بما يرى من خوارق العادات وآثار القدرة يقينا فيقوى عزمه على الزهد فى الدنيا والخروج عن دواعى الهوى، فسبيل الصادق مطالبة النفس بالاستقامة فى كل الكرامة.

ولا ريب لأن للقلوب من التأثير أعظم مما للأبدان لكن إن كانت صالحة كان تأثيرها صالحا وإن كانت فاسدة كان تأثيرها فاسدا فالاحوال يكون تأثيرها محبوبا لله تعالى تارة ومكروها لله أخرى.

وقد تكلم الفقهاء فى وجوب القود على من يقتل غيره فى الباطن وهؤلاء يشهدون بواطنهم وقلوبهم الأمر الكونى ويعدون بمجرد خرق العادة لأحدهم أنه كرامة من الله له ولا يعلمون أنه فى الحقيقة أنما الكرامة لزوم الاستقامة وأن الله تعالى لم يكرم عبدا بكرامة أعظم من موافقته فيما

يحبه ويرضاه وهو طاعته وطاعة رسوله وموالاة أوليائه ومعاداة أعدائه، وهؤلاء هم أوليـــاء الله الذين قال الله فيهم: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾.

وأما ما يبتلى الله به عبده من السر بخرق العادة أو بغيرها أو بالعز فليس ذلك لأجل كرامة العبد على ربه ولا هوانه عليه، بل قد سعد بها قوم إذا أطاعوه وشقى بها قوم إذا عصوه، كمـا قال تعـــالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ﴾.

ولهذا كان الناس فى هذه الأمور ثلاثة أقسام: قسم ترتفع درجتهم بخرق العـــادة، وقســـم يتعرضون بها لعذاب الله، وقسم يكون فى حقهم بمنـــزلة المباحات، كما تقدم.

وتنوع الكشف والتأثير باعتبار تنوع كلمات الله وكلمات الله نوعان كونيـــة ودينيـــة، فكلماته الكونية هى التى استعاذ بها النبى ﷺ فى قوله: "أعوذ بكلمـــات الله التامـــات الـــتى لا يجاوزهن بر ولا فـــاجر"[(١)]، قـــال تعـــالى: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[(٢)] وقـــال تعـــالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ ﴾[(٣)] والكون كله داخل تحت هذه الكلمات وسائر الخوارق.

والنوع الثانى الكلمات الدينية، وهى القرآن وشرع الله الذى بعث به رسوله، وهى أمـــره ونهيه وخبره، وحظ العبد منها العلم بها والعمل والأمر بما أمر الله به، كما أن حـــظ العبـــاد عموما وخصوصا العلم بالكونيات والتأثير فيها، أى بموجبها، فالأولى تدبيرية كونية، والثانيـــة شرعية دينية، فكشف الأولى العلم بالحوادث الكونية، وكشف الثانية العلم بالمأمورات الشرعية، وقدرة الأولى التأثير فى الكونيات، إما فى نفسه كمشيه على الماء وطيرانه فى الهواء وجلوســـه فى النار، وإما فى غيره بإصحاح وإهلاك وإغناء وإفقار، وقدرة الثانية التأثير فى الشرعيات، إمـــا فى نفسه بطاعة الله ورسوله والتمسك بكتاب الله وسنة رسوله باطنا وظاهرا، وإما فى غيره بـــأن يأمر بطاعة الله ورسوله فيطاع فى ذلك طاعة شرعية.

(١) **صحيح**: تقدم تخريجه.
(٢) سورة يس الآية: ٨٢.
(٣) سورة الأنعام الآية: ١١٥.

فإذا تقرر ذلك فاعلم أن عدم الخوارق علما وقدرة لا تضر المسلم فى دينه، فمن لم ينكشف له شيء من المغيبات ولم يسخر له شيء من الكونيات لا ينقص ذلك فى مرتبته عند الله بل قد يكون عدم ذلك أنفع له، فإنه إن اقترن به الدين وإلا هلك صاحبه فى الدنيا والآخرة، فإن الخارق قد يكون مع الدين وقد يكون مع عدمه أو فساده أو نقصه، فالخوارق النافعة تابعة للدين خادمة له كما أن الرياسة النافعة هى التابعة للدين، وكذلك المال النافع، كما كان السلطان والمال النافع بيد النبى ﷺ وأبى بكر وعمر، فمن جعلها هى المقصودة وجعل الدين تابعا لها ووسيلة إليها لا لأجل الدين فى الأصل فهو شبيه بمن يأكل الدنيا بالدين وليست حاله كحال من تدين خوف العذاب أو رجاء الجنة، فإن ذلك مأمور به، وهو على سبيل نجاة وشريعة صحيحة.

والعجب أن كثيرا ممن يزعم أن همه قد ارتفع عن أن يكون خوفا من النار أو طلبا للجنة يجعل همه بدينه أدنى خارق من خوارق الدنيا، ثم إن الدين إذا صح علما وعملا فلا بد أن يوجب خرق العادة إذا احتاج الى ذلك صاحبه، قال: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾[1] وقال: ﴿ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾[2] وقال: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ۝ وَإِذًا لَّأٓتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ۝ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝ ﴾[3] وقال تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾[4].

وقال رسول الله ﷺ: "اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله، ثم قرأ قوله: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾"[5] رواه الترمذى من رواية أبى سعيد الخدرى.

---

(١) سورة الطلاق الآيتان: ٢، ٣.

(٢) سورة الأنفال الآية: ٢٩.

(٣) سورة النساء الآيات: ٦٦ : ٦٨.

(٤) سورة يونس الآيات: ٦٢ : ٦٤.

(٥) **ضعيف**: أخرجه الترمذى فى الجامع الكبير كتاب التفسير (٣١٢٧) والخطيب البغدادى فى تاريخه (٣/ ١٩١) وفيه عطية العوفى، قال فيه النسائى: ضعيف، وقال العلامة الألبانى: ضعيف متدلس، والآية من سورة الحجر رقم: ٧٥.

وقال تعالى فيما يرويه عنه رسول الله ﷺ: "من عادى لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة، وما تقرب إلى عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، ولئن سألنى لأعطينه، ولئن استعاذنى لأعيذنه، وما ترددت فى شيء أنا فاعله ترددى فى قبض نفس عبدى المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته، ولا بد له منه"(١).

فظهر أن الاستقامة حظ الرب وطلب الكرامة حظ النفس، وبالله التوفيق.

وقول المعتزلة فى إنكار الكرامة ظاهر البطلان فإنه بمنزلة إنكار المحسوسات، وقولهم: لو صحت لأشبهت المعجزة فيؤدى إلى التباس النبى ﷺ بالولى وذلك لا يجوز، وهذه الدعوى إنما تصح إذا كان الولى أتى بالخارق ويدعى النبوة، وهذا لا يقع، ولو ادعى النبوة لم يكن وليا بل كان متنبئا كذابا، وقد تقدم الكلام فى الفرق بين النبى والمتنبئ عند قول الشيخ: وأن محمدا عبده المجتبى ونبيه المصطفى.

ومما ينبغى التنبيه عليه ههنا أن الفراسة ثلاثة أنواع:

إيمانية، وسببها نور يقذفه الله فى قلب عبده، وحقيقتها أنها خاطر يهجم على القلب يثب عليه كوثوب الأسد على الفريسة، ومنها اشتقاقها، وهذه الفراسة على حسب قوة الإيمان، فمن كان أقوى إيمانا فهو أحد فراسة.

قال أبو سليمان الدارانى، رحمه الله: الفراسة مكاشفة النفس ومعاينة الغيب، وهى من مقامات الإيمان. انتهى.

وفراسة رياضية، وهى التى تحصل بالجوع والسهر والتخلى، فإن النفس إذا تجردت عن العوائق صار لها من الفراسة والكشف بحسب تجردها، وهذه فراسة مشتركة بين المؤمن والكافر ولا تدل على إيمان ولا على ولاية، ولا تكشف عن حق نافع ولا عن طريق مستقيم، بل كشفها من جنس فراسة الولاة وأصحاب عبادة الرؤساء والأظناء ونحوهم.

وفراسة خلقية، وهى التى صنف فيها الأطباء وغيرهم واستدلوا بالخلق على الخلق لما بينهما من الارتباط الذى اقتضته حكمة الله، كالاستدلال بصغر الرأس الخارج عن العادة على صغر

---

(١) صحيح: تقدم تخريجه.

العقل وبكبيره على كبره، وسعة الصدر على سعة الخلق وبضيقه على ضيقه وبجمود العينين وكلال نظرهما على بلاده، صاحبهما وضعف حرارة قلبه ونحو ذلك.

❁ **قوله: ونؤمن باشراط الساعة من خروج الدجال ونزول عيسى ابن مريم ﷺ من السماء ونؤمن بطلوع الشمس من مغربها وخروج دابة الأرض من موضعها:**

ش: عن عوف بن مالك الأشجعي قال: أتيت النبي ﷺ في غزوة تبوك وهو في قبة من أدم فقال: "اعدد ستا بين يدى الساعة: موتى، ثم فتح بيت المقدس، ثم موتان يأخذ فيكم كقعاص الغنم، ثم استفاضة المال حتى يعطى الرجل مائة دينار فيظل ساخطا، ثم فتنة لا يبقى بيت من العرب إلا دخلته، ثم هدنة تكون بينكم وبين بنى الأصفر، فيغدرون فيأتونكم تحت ثمانين غاية تحت كل غاية اثنا عشر ألفا" وروى راية بالراء والغين، وهما بمعنى، رواه البخارى وأبو داود وابن ماجه والطبرانى.

وعن حذيفة بن أسيد قال: اطلع النبى ﷺ علينا ونحن نتذاكر الساعة فقال: "ما تذاكرون؟" قالوا: نذكر الساعة، فقال: "إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات . . . فذكر الدخان والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى ابن مريم ويأجوج ومأجوج وثلاثة خسوف خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم"(١)، رواه مسلم.

وفى الصحيحين واللفظ للبخارى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال "ذكر الدجال عند النبى ﷺ فقال: "إن الله لا يخفى عليكم، إن الله ليس بأعور" وأشار بيده إلى عينه "وإن المسيح الدجال أعور عين اليمنى كأن عينه عنبة طافية"(٢).

وعن أنس بن مالك ﷺ قال قال رسول الله ﷺ: "ما من نبى إلا وأنذر قومه الأعور الدجال ألا إنه أعور وإن ربكم ليس بأعور ومكتوب بين عينيه ك ف ر"(٣) فسره فى رواية أى كافر.

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم كتاب الفتن (٢٩٠١) وأحمد فى المسند (٧/ ١٦٠) وأبو داود فى السنن كتاب الملاحم (٤٣١١) والترمذى كتاب الفتن (٢١٨٣).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخارى فى كتاب أحاديث الأنبياء (٣٤٣٩) ومسلم كتاب الأيمان (١٦٩) وأبو داود فى السنن كتاب السنة (٤٧٥٧).

(٣) **صحيح**: أخرجه البخارى كتاب الفتن (٧١٣١)، (٧٤٠٨) ومسلم كتاب الفتن (٢٩٣٣) وأبو داود فى كتاب الملاحم (٤٣١٦).

وروى البخارى وغيره عن أبى هريرة ﷺ قال قال رسول الله ﷺ: "والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد حتى تكون السجدة خيرا من الدنيا وما فيها، ثم يقول أبو هريرة اقرءوا إن شئتم: ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾"[1].

وأحاديث الدجال وعيسى ابن مريم عليه السلام ينزل من السماء ويقتله ويخرج يأجوج ومأجوج فى أيامه بعد قتله الدجال فيهلكهم الله أجمعين فى ليلة واحدة ببركة دعائه عليهم يضيق هذا المختصر عن بسطها.

وأما خروج الدابة وطلوع الشمس من المغرب فقال تعالى: ﴿ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾[2] وقال تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾.

وروى البخارى عند تفسير الآية عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ: "لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا رآها الناس آمن من عليها فذلك حين لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل"[3].

وروى مسلم عن عبد الله بن عمرو قال: حفظت من رسول الله ﷺ حديثا لم أنسه بعد، سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى كتاب البيوع (٢٢٢) ومسلم كتاب الأيمان (١٥٥) والترمذى كتاب الفتن (٢٢٣٣) والآية من سورة النساء رقم ١٥٩.

(٢) سورة النمل الآية: ٨٢.

(٣) **صحيح**: أخرجه البخارى كتاب التفسير (٤٦٣٥) ومسلم كتاب الأيمان (١٥٧) وأبو داود كتاب الملاحم (٤٣١٢).

على الناس ضحى، وأيهما ما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على إثرها قريبا"[١] أى أول الآيات التى ليست مألوفة، وإن كان الدجال ونـزول عيسى عليه السلام من السماء قبل ذلك، وكذلك خروج يأجوج ومأجوج، كل ذلك أمور مألوفة لأنهم بشر، مشاهدة مثلهم مألوفة، وأما خروج الدابة بشكل غريب غير مألوف ثم مخاطبتها الناس ووسمها إياهم بالإيمان أو الكفر فأمر خارج عن مجارى العادات، وذلك أول الآيات الأرضية كما أن طلوع الشمس من مغربها على خلاف عادتها المألوفة، أول الآيات السماوية.

وقد أفرد الناس فى أحاديث أشراط الساعة مصنفات مشهورة يضيق على بسطها هذا المختصر.

❁ قوله: ولا نصدق كاهنا ولا عرافا ولا من يدعى شيئا يخالف الكتاب والسنة وإجماع الأمة:

ش: روى مسلم والإمام أحمد عن صفية بنت أبى عبيد عن بعض أزواج النبى ﷺ عن النبى ﷺ قال "من أتى عرافا فسأله عن شيء لم يقبل له صلاة أربعين ليلة"[٢].

وروى الإمام أحمد فى مسنده عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال "من أتى عرافا أو كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنـزل على محمد"[٣].

والمنجم يدخل فى اسم العراف عند بعض العلماء، وعند بعضهم هو فى معناه، فإذا كانت هذه حال السائل فكيف بالمسئول.

وفى الصحيحين مسند الامام أحمد عن عائشة قالت: سئل رسول الله ﷺ عن الكهان فقال: "ليسوا بشيء" فقالوا: يا رسول الله، إنهم يحدثون أحيانا بالشيء يكون حقا، فقال رسول الله ﷺ: "تلك الكلمة من الحق يخطفها الجنى فيقرها فى أذن وليه فيخلطون فيها أكثر من مائة كذبة"[٤].

---

(١) **صحيح:** أخرجه مسلم كتاب الفتن (٢٩٤١) وأبو داود كتاب الملاحم (٤٣١٠) وأحمد فى المسند (٦٨٨١).

(٢) **صحيح:** أخرجه مسلم كتاب السلام (٢٢٣٠) والإمام أحمد فى المسند (٩٥٠٢، ٢٣١١٥).

(٣) **صحيح:** تقدم تخريجه.

(٤) **صحيح:** أخرجه البخارى كتاب بدء الخلق (٣٢١٠، ٣٢١٨) ومسلم كتاب السلام (٢٢٢٨) والبغوى كتاب الطب والرقى (٣٢٥٨).

وفى الصحيح عنه ﷺ أنه قال: "ثمن الكلب خبيث، ومهر البغى خبيث، وحلوان الكاهن خبيث"(١) وحلوانه الذى تسميه العامة: حلاوته، ويدخل فى هذا المعنى ما تعاطاه المنجم وصاحب الأزلام التى يستقسم بها، مثل الخشبة المكتوب عليها ا ب ج د، والتضارب بالحصى، والذى يخط فى الرمل وما تعاطاه هؤلاء حرام.

وقد حكى الإجماع على تحريمه غير واحد من العلماء كالبغوى والقاضى عياض وغيرهما.

وفى الصحيحين عن زيد بن خالد قال: خطبنا رسول الله ﷺ بالحديبية على إثر سماء كانت من الليل فقال: "أتدرون ماذا قال ربكم الليلة؟" قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: "قال أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر، فأما من قال: مُطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بى كافر بالكوكب، وأما من قال: مُطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بى مؤمن بالكوكب"(٢).

وفى صحيح مسلم ومسند الإمام أحمد عن أبى مالك الأشعرى أن النبى ﷺ قال: "أربع فى أمتى من أمر الجاهلية لا يتركونَهن: الفخر فى الأحساب، والطعن فى الأنساب، والاستسقاء بالنجوم والنياحة"(٣).

والنصوص عن النبى ﷺ وأصحابه وسائر الأئمة بالنهى عن ذلك أكثر من أن يتسع هذا الموضع لذكرها.

وصناعة التنجيم التى مضمونُها الأحكام والتأثير وهو الاستدلال على الحوادث الأرضية صناعة محرمة بالكتاب والسنة، بل هى محرمة على لسان جميع المرسلين، قال تعالى: ﴿ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾(٤)، وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ ﴾(٥) قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه وغيره: الجبت: السحر.

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى كتاب البيوع حديث (٢٢٣٧) ومسلم كتاب المساقاة (١٥٦٧) وأبو داود فى كتاب الاجارات حديث (٣٤٢٨) والترمذى كتاب البيوع حديث (١٢٧٦).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخارى كتاب الآذان حديث (٨٤٦، ١٠٣٨) ومسلم كتاب الايمان (٧١) وأبو داود كتاب الطب (٣٩٠٦).

(٣) **صحيح**: أخرجه مسلم كتاب الجنائز حديث (٩٣٤) والإمام أحمد فى المسند (٧٨٩٥) وعبد الرزاق فى المصنف (٦٦٨٦).

(٤) سورة طه الآية: ٦٩.

(٥) سورة النساء الآية: ٥١.

وفى صحيح البخارى عن عائشة رضى الله عنه عنها قالت: كان لأبى بكر غلام يأكل من خراجه، فجاء يوما بشيء فأكل منه أبو بكر، فقال له الغلام: تدرى مم هذا؟ قال: وما هو؟ قال: كنت تكهنت لإنسان فى الجاهلية، وما أحسن الكهانة، إلا أنى خدعته فلقيني فأعطانى بذلك، فهذا الذى أكلت منه، فأدخل أبو بكر يده فقاء كل شيء فى بطنه(١).

والواجب على ولى الأمر وكل قادر أن يسعى فى إزالة هؤلاء المنجمين والكهان والعرافين وأصحاب الضرب بالرمل والحصى والقرع والقالات ومنعهم من الجلوس فى الحوانيت والطرقات أو يدخلوا على الناس فى منازلهم لذلك، ويكفى من يعلم تحريم ذلك ولا يسعى فى إزالته مع قدرته على ذلك قوله تعالى: ﴿ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾(٢)، وهؤلاء الملاعين يقولون الإثم ويأكلون السحت بإجماع المسلمين.

وثبت فى السنن عن النبى ﷺ برواية الصديق رضي الله عنه أنه قال: "إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه"(٣).

وهؤلاء الذين يفعلون هذه الأفعال الخارجة عن الكتاب والسنة أنواع:

نوع منهم أهل تلبيس وكذب وخداع، الذين يظهر أحدهم طاعة الجن له، أو يدعى الحال من أهل المحال، من المشايخ النصابين والفقراء الكاذبين والطرقية المكارين، فهؤلاء يستحقون العقوبة البليغة التى تردعهم وأمثالهم عن الكذب والتلبيس، وقد يكون فى هؤلاء من يستحق القتل كمن يدعى النبوة بمثل هذه الخزعبلات، أو يطلب تغيير شيء من الشريعة ونحو ذلك.

ونوع يتكلم فى هذه الأمور على سبيل الجد والحقيقة بأنواع السحر، وجمهور العلماء يوجبون قتل الساحر، كما هو مذهب أبى حنيفة ومالك وأحمد فى المنصوص عنه، وهذا هو المأثور عن الصحابة كعمر وابنه وعثمان وغيرهم.

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى كتاب مناقب الأنصار (٣٨٤٣).

(٢) سورة المائدة الآية: ٧٩.

(٣) **صحيح**: أخرجه أبو داود فى كتاب الملاحم (٤٣٣٨) والترمذى كتاب الفتن (٢١٦٨) وابن ماجه كتاب الفتن (٤٠٠٥) بنحوه.

ثم اختلف هؤلاء هل يستتاب أم لا وهل يكفر بالسحر أم يقتل لسعيه فى الأرض بالفساد وقال طائفة إن قتل بالسحر يقتل وإلا عوقب بدون القتل إذا لم يكن فى قوله وعمله كفر وهذا هو المنقول عن الشافعى وهو قول فى مذهب أحمد.

وقد تنازع العلماء فى حقيقة السحر وأنواعه والأكثرون يقولون: إنه قد يؤثر فى موت المسحور ومرضه من غير وصول شيء ظاهر إليه، وزعم بعضهم أنه مجرد تخييل، واتفقوا كلهم على أن ما كان من جنس دعوة الكواكب السبعة أو غيرها أو خطابها أو السجود لها والتقرب اليها بما يناسبها من اللباس والخواتم والبخور، ونحو ذلك، فإنه كفر، وهو من أعظم أبواب الشرك فيجب غلقه، بل سده، وهو من جنس فعل قوم إبراهيم عليه السلام ولهذا قال ما حكى الله عنه بقوله: ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ۝ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ۝ ﴾[1] وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ﴾ الآيات، إلى قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾[2] واتفقوا كلهم أيضا على أن كل رقية وتعزيم أو قسم فيه شرك بالله فإنه لا يجوز التكلم به، وإن أطاعته به الجن أو غيرهم، وكذلك كل كلام فيه كفر لا يجوز التكلم به، وكذلك الكلام الذى لا يعرف معناه لا يتكلم به لإمكان أن يكون فيه شرك لا يعرف، ولهذا قال النبى ﷺ: "لا بأس بالرقى ما لم تكن شركا"[3].

ولا يجوز الاستعاذة بالجن فقد ذم الله الكافرين على ذلك فقال تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾[4] قالوا: كان الإنسى إذا نزل بالوادى يقول: أعوذ بعظيم هذا الوادى من سفهائه فيبيت فى أمن وجوار حتى يصبح ﴿ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ يعنى الإنس للجن باستعاذتهم بهم رهقا، أى إثما وطغيانا وجراءة وشرا، وذلك أنهم قالوا: قد سدنا الجن والإنس، فالجن تعاظم فى أنفسها وتزداد كفرا إذا عاملتها الإنس بهذه المعاملة، وقد قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَهَـٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟

(١) سورة الصافات الآيتان: ٨٨، ٨٩.

(٢) سورة الأنعام الآيات: ٧٦ : ٨٢.

(٣) **صحيح**: أخرجه مسلم فى كتاب السلام (٢٢٠٠) وأبو داود فى السنة فى كتاب الطب (٣٨٨٦) وصحيح سنن أبى داود كتاب الطب حديث (٣٨٨٦).

(٤) سورة الجن الآية: ٦.

يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ ﴾(١)، فهؤلاء الذين يزعمون أنهم يدعون الملائكة ويخاطبونهم بهذه العزائم وأنها تنزل عليهم ضالون وإنما تنزل عليهم الشياطين، وقد قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾(٢).

فاستمتاع الإنسى بالجنى فى قضاء حوائجه وامتثال أوامره وإخباره بشيء من المغيبات ونحو ذلك، واستمتاع الجن بالإنس تعظيمه إياه واستعانته به واستغاثته وخضوعه له.

ونوع منهم بالأحوال الشيطانية والتسوف ومخاطبته رجال الغيب وأن لهم خوارق تقتضى أنهم أولياء الله، وكان من هؤلاء من يعين المشركين على المسلمين ويقول إن الرسول أمره بقتال المسلمين مع المشركين لكون المسلمين قد عصوا.

وهؤلاء فى الحقيقة إخوان المشركين، والناس من أهل العلم فيهم على ثلاثة أحزاب:

حزب يكذبون بوجود رجال الغيب ولكن قد عاينهم الناس وثبت عمن عاينهم أو حدثه الثقات بما رأوه، وهؤلاء إذا رأوهم وتيقنوا وجودهم خضعوا لهم.

وحزب عرفوهم ورجعوا إلى القدر واعتقدوا أن ثم فى الباطن طريقا إلى الله غير طريقة الأنبياء.

وحزب ما أمكنهم أن يجعلوا وليا خارجا عن دائرة الرسول فقالوا: يكون الرسول هو ممدا للطائفتين، فهؤلاء معظمون للرسول جاهلون بدينه وشرعه.

والحق أن هؤلاء من أتباع الشياطين وأن رجال الغيب هم الجن، ويسمون رجالا كما قال تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾(٣) وإلا فالإنس يؤنسون أى يشهدون ويرون، وإنما يحتجب الإنسى أحيانا لايكون دائما محتجبا عن أبصار الإنس، ومن ظنهم أنهم من الإنس فمن غلطه وجهله.

---

(١) سورة سبأ الآيتان: ٤٠، ٤١.

(٢) سورة الأنعام الآية: ١٢٨.

(٣) سورة الجن الآية: ٦.

وسبب الضلال فيهم وافتراق هذه الأحزاب الثلاثة عدم الفرقان بين أولياء الشيطان وأولياء الرحمن، ويقول بعض الناس الفقراء يسلم اليهم حالهم، وهذا كلام باطل بل الواجب عرض أفعالهم وأحوالهم على الشريعة المحمدية، فما وافقها قبل وما خالفها رد كما قال النبى ﷺ: "من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد"(١)، وفى رواية: "من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد" فلا طريقة إلا طريقة الرسول ﷺ، ولا حقيقة إلا حقيقته ولا شريعة إلا شريعته ولا عقيدة إلا عقيدته، ولا يصل أحد من الخلق بعده إلى الله وإلى رضوانه وجنته وكرامته إلا بمتابعته باطنا وظاهرا، ومن لم يكن له مصدقا فيما أخبر ملتزما لطاعته فيما أمر فى الأمور الباطنة التى فى القلوب والأعمال الظاهرة التى على الأبدان لم يكن مؤمنا، فضلا عن أن يكون وليا لله تعالى، ولو طار فى الهواء ومشى على الماء وأنفق من الغيب وأخرج الذهب من الخشب، ولو حصل له من الخوارق ماذا عسى أن يحصل، فإنه لا يكون مع تركه الفعل المأمور وعزل المحظور إلا من أهل الأحوال الشيطانية المبعدة لصاحبها عن الله تعالى المقربة إلى سخطه وعذابه، لكن من ليس يكلف من الأطفال والمجانين، قد رفع عنهم القلم، فلا يعاقبون، وليس لهم من الإيمان بالله والإقرار باطنا وظاهرا ما يكونون به من أولياء الله المقربين وحزبه المفلحين وجنده الغالبين، لكن يدخلون فى الإسلام تبعا لآبائهم كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ ٱمْرِىٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾(٢).

فمن اعتقد فى بعض البله أو المولعين مع تركه لمتابعة الرسول فى أقواله وأفعاله وأحواله أنه من أولياء الله ويفضله على متبعى طريقة الرسول ﷺ فهو ضال مبتدع مخطئ فى اعتقاده فإن ذاك الأبله إما أن يكون شيطانا زنديقا أو زوكاريا متحيلا، أو مجنونا معذورا فكيف يفضل على من هو من أولياء الله المتبعين لرسوله أو يساوى به، ولا يقال يمكن أن يكون هذا متبعا فى الباطن وإن كان تاركا للاتباع فى الظاهر، فإن هذا خطأ أيضا، بل الواجب متابعة الرسول ﷺ ظاهرا وباطنا.

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى كتاب الصلح حديث (٢٧٩٧) ومسلم كتاب الأقضية حديث (١٧١٨).
(٢) سورة الطور الآية: ٢١.

قال يونس بن عبد الأعلى الصدفى: قلت للشافعى: إن صاحبنا الليث كان يقول: إذا رأيتم الرجل يمشى على الماء فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة، فقال الشافعى: قصر الليث، رحمه الله، بل: إذا رأيتم الرجل يمشى على الماء ويطير فى الهواء فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب.

وأما ما يقوله بعض الناس عن رسول الله ﷺ أنه قال: "اطلعت على أهل الجنة فرأيت أكثر أهلها البله" فهذا لا يصح عن رسول الله ﷺ ولا ينبغى نسبته إليه، فإن الجنة إنما خلقت لأولى الألباب الذين أرشدتهم عقولهم وألبابهم إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وقد ذكر الله أهل الجنة بأوصافهم فى كتابه فلم يذكر فى أوصافهم البله، الذى هو ضعف العقل، وإنما قال النبى ﷺ: "اطلعت فى الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء"(١) ولم يقل البله.

والطائفة الملامية وهم الذين يفعلون ما يلامون عليه ويقولون نحن متبعون فى الباطن ويقصدون إخفاء المراسين ردوا باطلهم بباطل آخر والصراط المستقيم بين ذلك، وكذلك الذين يصعقون عند سماع الأنغام الحسنة مبتدعون ضالون وليس للإنسان أن يستدعى ما يكون سبب زوال عقله، ولم يكن فى الصحابة والتابعين من يفعل ذلك ولو عند سماع القرآن، بل كانوا كما وصفهم الله تعالى: ﴿ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾(٢)، وكما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾(٣).

وأما الذين ذكرهم العلماء بخير من عقلاء المجانين فأولئك كان فيهم خير ثم زالت عقولهم، ومن علامة هؤلاء أنه إذا حصل فى جنونهم نوع من الصحو تكلموا بما كان فى قلوبهم من الإيمان ويهتدون بذلك فى حال زوال عقلهم بخلاف من كان قبل جنونه كافرا أو فاسقا لم يكن حدوث جنونه مزيلا لما ثبت من كفره أو فسقه، وكذلك من جن من المؤمنين المتقين يكون

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى كتاب بدء الخلق حديث (٣٢٤١) عن عمران بن الحصين ومسلم من حديث ابن عباس كتاب الرقاق (٢٧٣٧) والإمام أحمد فى المسند (٣٣٨٦).

(٢) سورة الأنفال الآية: ٢.

(٣) سورة الزمر الآية: ٢٣.

محشورا مع المؤمنين المتقين وزوال العقل بجنون أو غيره سواء سمى صاحبه مولعا أو متولها لا يوجب مزيد حال بل حال صاحبه من الإيمان والتقوى يبقى على ما كان عليه من خير وشر، لا أنه يزيده أو ينقصه، ولكن جنونه يحرمه الزيادة من الخير كما أنه يمنع عقوبته على الشر ولا يمحو عنه ما كان عليه قبله.

وما يحصل لبعضهم عند سماع الأنغام المطربة من الهذيان والتكلم ببعض اللغات المخالفة للسانه المعروف منه فذلك شيطان يتكلم على لسانه كما يتكلم على لسان المصروع، وذلك كله من الأحوال الشيطانية، وكيف يكون زوال العقل سببا أو شرطا أو تقربا إلى ولاية الله كما يظنه كثير من أهل الضلال حتى قال قائلهم:

هم معشر حلوا النظام وخرقوا ... السياج فلا فرض لديهم ولا نفل

مجانين إلا أن سر جنونهم ... عزيز على أبوابه يسجد العقل

وهذا كلام ضال بل كافر يظن أن فى الجنون سرا يسجد العقل على بابه لما رآه من بعض المجانين من نوع مكاشفة أو تصرف عجيب خارق للعادة، ويكون ذلك سبب ما اقترن به من الشياطين كما يكون للسحرة والكهان فيظن هذا الضال أن كل من خبل أو خرق عادة كان وليا لله ومن اعتقد هذا فهو كافر، فقد قال تعالى: ﴿ هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ﴿٢٢٢﴾ ﴾[1] فكل من تنزل عليه الشياطين لا بد أن يكون عنده كذب وفجور.

وأما الذين يتعبدون بالرياضات والخلوات ويتركون الجمع والجماعات فهم الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، قد طبع الله على قلوبهم، كما قد ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال: "من ترك ثلاث جمع تهاونا من غير عذر طبع الله على قلبه"[2].

---

(١) سورة الشعراء الآيتان: ٢٢١، ٢٢٢.

(٢) **صحيح**: أخرجه الإمام أحمد فى المسند (١٥٤٣٧) وأبو داود كتاب الصلاة (١٠٥٢) والترمذى فى كتاب الصلاة (٥٠٠).

وكل من عدل عن اتباع سنة الرسول إن كان عالما بها فهو مغضوب عليه وإلا فهو ضال، ولهذا شرع الله لنا أن نسأله فى كل صلاة أن يهدينا الصراط المستقيم صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

وأما من يتعلق بقصة موسى مع الخضر عليه السلام فى تجويز الاستغناء عن الوحى بالعلم اللدنى الذى يدعيه بعض من عدم التوفيق فهو ملحد زنديق، فإن موسى عليه السلام لم يكن مبعوثا إلى الخضر، ولم يكن الخضر مأمورا بمتابعته، ولهذا قال له: أنت موسى بنى إسرائيل؟ قال: نعم، ومحمد ﷺ مبعوث إلى جميع الثقلين، ولو كان موسى وعيسى حيين لكانا من أتباعه، وإذا نزل عيسى عليه السلام إلى الأرض إنما يحكم بشريعة محمد، فمن ادعى أنه مع محمد ﷺ كالخضر مع موسى، أو جوز ذلك لأحد من الأمة فليجدد إسلامه وليشهد شهادة الحق، فإنه مفارق لدين الإسلام بالكلية فضلا عن أن يكون من أولياء الله، وإنما هو من أولياء الشيطان، وهذا الموضع مفرق بين زنادقة القوم وأهل الاستقامة، وكذا من يقول بأن الكعبة تطوف برجال منهم حيث كانوا، فهلا خرجت الكعبة إلى الحديبية فطافت برسول الله ﷺ حين أحصر عنها، وهو يود منها نظرة، وهؤلاء لهم شبه بالذين وصفهم الله تعالى حيث يقول: ﴿ بَلۡ يُرِيدُ كُلُّ ٱمۡرِيٍٕ مِّنۡهُمۡ أَن يُؤۡتَىٰ صُحُفٗا مُّنَشَّرَةٗ ﴾[1] إلى آخر السورة.

❁ **قوله: ونرى الجماعة حقا وصوابا والفرقة زيغا وعذابا:**

ش: قال الله: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ ﴾[2] وقال: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴾[3] وقال: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ ﴾[4] فجعل

(١) سورة المدثر الآية: ٥٢.
(٢) سورة آل عمران الآية: ١٠٣.
(٣) سورة الأنعام الآية: ١٥٩.
(٤) سورة هود الآيتان: ١١٨، ١١٩.

أهل الرحمة مستثنين من الاختلاف، وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾[(١)].

وقد تقدم قوله ﷺ: "إن أهل الكتابين افترقوا فى دينهم على ثنتين وسبعين ملة وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة، يعنى الأهواء، كلها فى النار إلا واحدة وهى الجماعة"[(٢)] وفى رواية قالوا: من هى يا رسول الله؟ قال: "ما أنا عليه وأصحابى" فبين أن عامة المختلفين هالكون إلا أهل السنة والجماعة، وأن الاختلاف واقع لا محالة.

وروى الإمام أحمد عن معاذ بن جبل أن النبى ﷺ قال: "إن الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم يأخذ الشاة القاصية والناحية، فإياكم والشعاب وعليكم بالجماعة والعامة والمسجد".

وفى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال: لما نزل قوله: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ قال: أعوذ بوجهك ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾[(٣)] قال: هاتان أهون"[(٤)] فدل على أنه لا بد أن يلبسهم شيعا ويذيق بعضهم بأس بعض مع براءة الرسول من هذه الحال، وهم فيها فى جاهلية، ولهذا قال الزهرى: وقعت الفتنة وأصحاب رسول الله ﷺ متوافرون فأجمعوا على أن كل دم أو مال أو قرح أصيب بتأويل القرآن فهو هدر، أنزلوهم منزلة الجاهلية، وقد روى مالك بإسناده الثابت عن عائشة رضى الله عنها أنها كانت تقول: ترك الناس العمل بهذه الآية، يعنى قوله: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ﴾[(٥)] فإن المسلمين لما اقتتلوا كان الواجب الإصلاح بينهم كما أمر الله تعالى فلما لم يعمل بذلك صارت فتنة وجاهلية، وهكذا تسلسل النزاع.

والأمور التى تتنازع فيها الأمة فى الأصول والفروع إذا لم تُرد إلى الله والرسول لم يتبين فيها الحق بل يصير فيها المتنازعون على غير بينة من أمرهم، فإن رحمهم الله أقر بعضهم بعضا و لم يبغ

---

(١) سورة البقرة الآية: ١٧٦.

(٢) **صحيح**: تقدم.

(٣) سورة الأنعام الآية: ٦٥.

(٤) **صحيح**: أخرجه البخارى كتاب التفسير حديث (٤٦٢٨) والترمذى كتاب التفسير حديث (٣٠٦٥) والبغوى فى شرح السنة كتاب فضائل الصحابة حديث (٤٠١٥).

(٥) سورة الحجرات الآية: ٩.

بعضهم على بعض، كما كان الصحابة فى خلافة عمر وعثمان يتنازعون فى بعض مسائل الاجتهاد فيقر بعضهم بعضا ولا يعتدى ولا يعتدى عليه، وإن لم يرحموا وقع بينهم الاختلاف المذموم، فبغى بعضهم على بعض، إما بالقول مثل تكفيره وتفسيقه، وإما بالفعل مثل حبسه وضربه وقتله، والذين امتحنوا الناس بخلق القرآن كانوا من هؤلاء، ابتدعوا بدعه وكفروا من خالفهم فيها واستحلوا منع حقه وعقوبته.

فالناس إذا خفى عليهم بعض ما بعث الله به الرسول إما عادلون وإما ظالمون، فالعادل فيهم الذى يعمل بما وصل إليه من آثار الأنبياء ولا يظلم غيره، والظالم الذى يعتدى على غيره، وأكثرهم إنما يظلمون مع علمهم بأنهم يظلمون، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ﴾[1] وإلا فلو سلكوا ما علموه من العدل أقر بعضهم بعضا كالمقلدين لأئمة العلم الذين يعرفون من أنفسهم أنهم عاجزون عن معرفة حكم الله ورسوله فى تلك المسائل فجعلوا أئمتهم نوابا عن الرسول وقالوا: هذا غاية ما قدرنا عليه، فالعادل منهم لا يظلم الآخر ولا يعتدى عليه بقول ولا فعل، مثل أن يدعى أن قول مقلده هو الصحيح بلا حجة يبديها ويذم من خالفه مع أنه معذور.

ثم إن أنواع الافتراق والاختلاف فى الأصل قسمان: اختلاف تنوع واختلاف تضاد، واختلاف التنوع على وجوه منه ما يكون كل واحد من القولين أو الفعلين حقا مشروعا كما فى القراءات التى اختلف فيها الصحابة ﷺ حتى زجرهم النبى ﷺ وقال: "كلاكما محسن" ومثله اختلاف الأنواع فى صفة الأذان والإقامة والاستفتاح ومحل سجود السهو والتشهد وصلاة الخوف وتكبيرات العيد، ونحو ذلك مما قد شرع جميعه، وإن كان بعض أنواعه أرجح أو أفضل، ثم تجد لكثير من الأمة فى ذلك الاختلاف ما أوجب اقتتال طوائف منهم على شفع الإقامة وإيتارها ونحو ذلك وهذا عين المحرم، وكذا تجد كثيرا منهم فى قلبه من الهوى لأحد هذه الأنواع والإعراض عن الآخر والنهى عنه ما دخل به فيما نهى عنه النبى ﷺ ومنه ما يكون كل من القولين هو فى المعنى القول الآخر، لكن العبارتان مختلفتان كما قد يختلف كثير من الناس فى

(١) سورة آل عمران الآية: ١٩.

ألفاظ الحدود وصيغ الأدلة والتعبير عن المسميات ونحو ذلك، ثم الجهل أو الظلم يحمل على حمد إحدى المقالتين وذم الأخرى والاعتداء على قائلها ونحو ذلك.

وأما اختلاف التضاد فهو القولان المتنافيان إما فى الأصول وإما فى الفروع عند الجمهور الذين يقولون المصيب واحد، والخطب فى هذا أشد لأن القولين يتنافيان، لكن نجد كثيرا من هؤلاء قد يكون القول الباطل الذى مع منازعه فيه حق ما أو معه دليل يقتضى حقا ما فيرد الحق مع الباطل حتى يبقى هذا مبطلا فى البعض كما كان الأول مبطلا فى الأصل وهذا يجرى كثير لأهل السنة.

وأما أهل البدعة فالأمر فيهم ظاهر، ومن جعل الله له هداية ونورا رأى من هذا ما تبين له منفعة ما جاء فى الكتاب والسنة من النهى عن هذا وأشباهه وإن كانت القلوب الصحيحة تنكر هذا لكن نور على نور.

والاختلاف الأول الذى هو اختلاف التنوع الذم فيه واقع على من بغى على الآخر فيه، وقد دل القرآن على حمد كل واحد من الطائفتين فى مثل ذلك إذا لم يحصل بغى، كما فى قوله تعالى: ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾[١] وقد كانوا اختلفوا فى قطع الأشجار، فقطع قوم وترك آخرون، وكما فى قوله تعالى: ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ ﴾[٢] فخص سليمان بالفهم وأثنى عليهما بالحكم والعلم وكما فى إقرار النبى ﷺ يوم بنى قريظة لمن صلى العصر فى وقتها ولمن أخرها إلى أن وصل إلى بنى قريظة، وكما فى قوله "إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر"[٣].

والاختلاف الثانى هو ما حمد فيه إحدى الطائفتين وذمت الأخرى كما فى قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟

---

(١) سورة الحشر الآية: ٥.

(٢) سورة الأنبياء الآيتان: ٧٨، ٧٩.

(٣) **صحيح**: أخرجه البخارى كتاب الاعتصام (٧٣٥٢) ومسلم كتاب الأقضية حديث (١٧١٦) وأحمد فى المسند (١٧٧٠٢).

فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ﴾[(١)] وقوله تعالى: ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴾[(٢)] الآيات.

وأكثر الاختلاف الذى يئول إلى الأهواء بين الأمة من القسم الأول، وكذلك إلى سفك الدماء واستباحة الأموال والعداوة والبغضاء لأن إحدى الطائفتين لا تعترف للأخرى بما معها من الحق ولا تنصفها، بل تزيد على ما مع نفسها من الحق زيادات من الباطل، والأخرى كذلك، ولذلك جعل الله مصدره البغى فى قوله: ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ﴾[(٣)] لأن البغى مجاوزة الحد، وذكر هذا فى غير موضع من القرآن ليكون عبرة لهذه الأمة.

وقريب من هذا الباب ما خرجاه فى الصحيحين عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال "ذرونى ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم"[(٤)]، فأمرهم بالإمساك عما لم يؤمروا به معللا بأن سبب هلاك الأولين إنما كان كثرة السؤال ثم الاختلاف على الرسل بالمعصية.

ثم الاختلاف فى الكتاب من الذين يقرون به على نوعين: أحدهما: اختلاف فى تنزيله، والثانى: اختلاف فى تأويله، وكلاهما فيه إيمان ببعض دون بعض.

فالأول كاختلافهم فى تكلم الله بالقرآن وتنزيله، فطائفة قالت: هذا الكلام حصل بقدرته ومشيئته لكونه مخلوقا فى غيره لم يقم به، وطائفة قالت: بل هو صفة له قائم بذاته ليس بمخلوق لكنه لا يتكلم بمشيئته وقدرته، وكل من الطائفتين جمعت فى كلامها بين حق وباطل فآمنت ببعض الحق وكذبت بما تقوله الأخرى من الحق، وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك.

---

(١) سورة البقرة الآية: ٢٥٤.

(٢) سورة الحج الآية: ١٩.

(٣) سورة البقرة الآية: ٢١٣.

(٤) **صحيح**: أخرجه البخارى كتاب الاعتصام (٧٢٨٨) ومسلم كتاب الحج (١٣٣٧) وأحمد فى المسند (٧٣٦١).

وأما الاختلاف فى تأويله الذى يتضمن الإيمان ببعضه دون بعض فكثير كما فى حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه ذات يوم وهم يختصمون فى القدر، هذا ينزع بآية، وهذا ينزع بآية، فكأنما فقئ فى وجهه حب الرمان، فقال: "أبهذا أمرتم؟ أم بهذا وكلتم أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض؟ انظروا ما أمرتم به فاتبعوه وما نهيتم عنه فانتهوا"(١).

وفى رواية: "يا قوم بهذا ضلت الأمم قبلكم باختلافهم على أنبيائهم وضربهم الكتاب بعضه ببعض، وإن القرآن لم ينزل لتضربوا بعضه ببعض، ولكن نزل القرآن يصدق بعضه بعضا، ما عرفتم منه فاعملوا به، وما تشابه فآمنوا به".

وفى رواية: فإن الأمم قبلكم لم يلعنوا حتى اختلفوا، وإن المراء فى القرآن كفر".

وهو حديث مشهور مخرج فى المسانيد والسنن، وقد روى أصل الحديث مسلم فى صحيحه من حديث عبد الله بن رباح الأنصارى أن عبد الله بن عمرو قال: هجرت إلى النبى ﷺ يوما فسمع أصوات رجلين اختلفا فى آية، فخرج علينا رسول الله ﷺ يعرف فى وجهه الغضب فقال: "إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم فى الكتاب"(٢).

وجميع أهل البدع مختلفون فى تأويله مؤمنون ببعضه دون بعض، يقرون بما يوافق رأيهم من الآيات، وما يخالفه إما أن يتأوله تأويلا يحرفون به الكلم عن مواضعه، وإما أن يقولوا: هذا متشابه لا يعلم أحد معناه فيجحدوا ما أنزله من معانيه، وهو فى معنى الكفر بذلك، لأن الإيمان باللفظ بلا معنى هو من جنس إيمان أهل الكتاب، كما قال:

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ ﴾(٤) أى إلا تلاوة من غير فهم

---

(١) **صحيح**: تقدم تخريجه.

(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم كتاب العلم حديث (٢٦٦٦) وقد تقدم تخريجه.

(٣) سورة الجمعة الآية: ٥.

(٤) سورة البقرة الآية: ٧٨.

معناه، وليس هذا كالمؤمن الذى فهم ما فهم من القرآن فعمل به، واشتبه عليه بعضه فوكل علمه إلى الله، كما أمره النبى ﷺ بقوله: "فما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه"[١] فامتثل ما أمر به ﷺ.

❁ قوله: ودين الله فى الأرض والسماء واحد، وهو دين الإسلام، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾[٢] وقال تعالى: ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾[٣] وهو بين الغلو والتقصير، وبين التشبيه والتعطيل، وبين الجبر والقدر، وبين الأمن والإياس:

ش: ثبت فى الصحيح عن أبى هريرة ؓ عن النبى ﷺ أنه قال: "إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد" وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾[٤] عام فى كل زمان، ولكن الشرائع تتنوع، كما قال تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾[٥] فدين الإسلام هو ما شرعه الله سبحانه وتعالى لعباده على ألسنة رسله، وأصل هذا الدين وفروعه روايته عن الرسل وهو ظاهر غاية الظهور يمكن كل مميز من صغير وكبير وفصيح وأعجم وذكى وبليد أن يدخل فيه بأقصر زمان، وإنه يقع الخروج منه بأسرع من ذلك من إنكار كلمة أو تكذيب أو معارضة أو كذب على الله أو ارتياب فى قول الله تعالى أو رد لما أنزل أو شك فيما نفى الله عنه الشك أو غير ذلك مما فى معناه، فقد دل الكتاب والسنة على ظهور دين الإسلام وسهولة تعلمه وأنه يتعلمه الوافد ثم يولى فى وقته، واختلاف تعليم النبى ﷺ فى بعض الألفاظ بحسب من يتعلم، فإن كان بعيد الوطن كضمام بن ثعلبة النجدى ووفد عبد القيس علمهم ما لم يسعهم جهله مع علمه أن دينه سينشر فى الآفاق ويرسل إليهم من يفقههم فى سائر ما يحتاجون إليه، ومن كان قريب الوطن يمكنه الإتيان كل وقت بحيث يتعلم على التدريج، أو كان قد علم فيه أنه قد عرف ما لا بد منه أجابه بحسب حاله وحاجته على ما تدل قرينة حال السائل كقوله: "قل آمنت بالله ثم استقم".

(١) **صحيح:** تقدم.
(٢) سورة آل عمران الآية: ١٩.
(٣) سورة المائدة الآية: ٣.
(٤) سورة آل عمران الآية: ٨٥.
(٥) سورة المائدة الآية: ٤٨.

وأما من شرع دينا لم يأذن به الله فمعلوم أن أصوله المستلزمة له لا يجوز أن تكون منقولة عن النبي ﷺ ولا عن غيره من المرسلين إذ هو باطل وملزوم الباطل باطل كما أن لازم الحق حق.

وقوله: بين الغلو والتقصير، قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾(٢).

وفى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها أن ناسا من أصحاب رسول الله ﷺ سألوا أزواج رسول الله ﷺ عن عمله فى السر فقال بعضهم: لا آكل اللحم، وقال بعضهم: لا أتزوج النساء، وقال بعضهم: لا أنام على فراش، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: "ما بال أقوام يقول أحدهم كذا وكذا، لكنى أصوم وأفطر، وأنام واقوم، وآكل اللحم وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتى فليس منى"(٣)، وفى غير الصحيحين: "سألوا عن عبادته فى السر فكأنهم تقالوها"(٤).

وذكر فى سبب نزول الآية الكريمة عن ابن جريج عن عكرمة أن عثمان بن مظعون وعلى بن أبى طالب وابن مسعود والمقداد بن الأسود وسالما مولى أبى حذيفة ﷺ فى أصحابه تبتلوا فجلسوا فى البيوت واعتزلوا النساء ولبسوا المسوح وحرموا طيبات الطعام واللباس إلا ما يأكل ويلبس أهل السياحة من بنى إسرائيل وهموا بالاختصاء، وأجمعوا لقيام الليل وصيام النهار فنزلت: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ يقول: لا تسيروا بغير سنة المسلمين، يريد ما حرموا من النساء والطعام واللباس وما أجمعوا له من قيام الليل وصيام النهار وما هموا به من الاختصاء، فلما نزلت فيهم

(١) سورة المائدة الآية: ٧٧.

(٢) سورة المائدة الآيتان: ٨٧، ٨٨.

(٣) **صحيح**: أخرجه مسلم كتاب النكاح حديث (١٤٠١) من حديث أنس بهذا اللفظ، والبخارى بنحوه كتاب النكاح (٥٠٦٣).

(٤) **صحيح**: أخرجه الإمام أحمد فى المسند (١٣٩٧٨) والسنن الكبرى للبيهقى والصغرى (٢٣٤٥) والبخارى بنحوه (٥٠٦٣).

بعث النبى ﷺ إليهم فقال: "إن لأنفسكم عليكم حقا، وإن لأعينكم حقا، صوموا وأفطروا، وصلوا وناموا، فليس منا من ترك سنتنا" فقالوا: اللهم سلمنا واتبعنا ما أنـزلت.

وقوله: وبين التشبيه والتعطيل، تقدم أن الله سبحانه وتعالى يجب أن يوصف بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله، من غير تشبيه، فلا يقال: سمع كسمعنا، ولا بصر كبصرنا، ونحوه، ومن غير تعطيل، فلا ينفى عنه ما وصف به نفسه، أو وصفه به أعرف الناس به، رسوله ﷺ، فإن ذلك تعطيل، وقد تقدم الكلام فى هذا المعنى.

ونظير هذا القول قوله: ومن لم يتوق النفى والتشبيه زل ولم يصب التنـزيه، وهذا المعنى مستفاد من قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[1] فقوله: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ ﴾ رد على المشبهة، وقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ رد على المعطلة.

وقوله: وبين الجبر والقدر، تقدم الكلام أيضا على هذا المعنى وأن العبد غير مجبور على أفعاله وأقواله، وأنها ليست بمنـزلة حركات المرتعش، وحركات الأشجار بالرياح وغيرها، وليست مخلوقة للعباد، بل هى فعل العبد وكسبه، وخلق الله تعالى.

وقوله: وبين الأمن والإياس، تقدم الكلام أيضا على هذا المعنى، وأنه يجب أن يكون العبد خائفا من عذاب ربه، راجيا رحمته، وأن الخوف والرجاء بمنـزلة الجناحين للعبد فى سيره إلى الله تعالى والدار الآخرة.

❁ **قوله: فهذا ديننا واعتقادنا ظاهرا وباطنا، ونحن برآء إلى الله تعالى من كل من خالف الذى ذكرناه وبيناه، ونسأل الله تعالى أن يثبتنا على الإيمان، ويختم لنا به، ويعصمنا من الأهواء المختلفة والآراء المتفرقة والمذاهب الردية مثل المشبهة والمعتزلة والجهمية والجبرية والقدرية وغيرهم من الذين خالفوا السنة والجماعة، وحالفوا الضلالة، ونحن منهم برآء، وهم عندنا ضلال وأردياء، وبالله العصمة والتوفيق:**

ش: الإشارة بقوله: "فهذا" كل ما تقدم من أول الكتاب إلى هنا، والمشبة هم الذين شبهوا الله سبحانه بالخلق فى صفاته، وقولهم عكس قول النصارى شبهوا المخلوق وهو عيسى عليه السلام بالخالق وجعلوه إلها، وهؤلاء شبهوا الخالق بالمخلوق كداود الجواربى وأشباهه.

---

(١) سورة الشورى الآية: ١١.

والمعتزلة هم: عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء الغزال وأصحابهما، سموا بذلك لما اعتزلوا الجماعة بعد موت الحسن البصرى، رحمه الله، فى أوائل المائة الثانية، وكانوا يجلسون معتزلين فيقول قتادة وغيره: أولئك المعتزلة.

وقيل: إن واصل بن عطاء هو الذى وضع أصول مذهب المعتزلة وتابعه عمرو بن عبيد، تلميذ الحسن البصرى، فلما كان زمن هارون الرشيد صنف لهم أبو الهذيل كتابين وبين مذهبهم وبنى مذهبهم على الأصول الخمسة التى سموها: العدل والتوحيد وإنفاذ الوعيد والمنزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ولبسوا فيها الحق بالباطل، إذ شأن البدع هذا اشتمالها على حق وباطل، وهم مشبهة الأفعال لأنهم قاسوا أفعال الله تعالى على أفعال عباده، وجعلوا ما يحسن من العباد يحسن منه، وما يقبح من العباد يقبح منه، وقالوا: يجب عليه أن يفعل كذا، ولا يجوز له أن يفعل كذا، بمقتضى ذلك القياس الفاسد، فإن السيد من بنى آدم لو رأى عبيده تزنى بإمائه ولا يمنعهم من ذلك لعد إما مستحسنا للقبيح وإما عاجزا، فكيف يصح قياس أفعاله سبحانه وتعالى على أفعال عباده، والكلام على هذا المعنى مبسوط فى موضعه.

فأما العدل فستروا تحته نفى القدر وقالوا: إن الله لا يخلق الشر ولا يقضى به، إذ لو خلقه ثم يعذبهم عليه يكون ذلك جورا، والله تعالى عادلا لا يجور، ويلزم على هذا الأصل الفاسد أن الله تعالى يكون فى ملكه ما لا يريده، فيريد الشيء ولا يكون، ولازمه وصفه بالعجز، تعالى الله عن ذلك.

وأما التوحيد فستروا تحته القول بخلق القرآن، إذ لو كان غير مخلوق لزم تعدد القدماء، ويلزمهم على هذا القول الفاسد أن علمه وقدرته وسائر صفاته مخلوقة والتناقض.

وأما الوعيد فقالوا إذا أوعد بعض عبيده وعيدا فلا يجوز أن لا يعذبهم ويخلف وعيده لأنه لا يخلف الميعاد، فلا يعفو عمن يشاء ولا يغفر لمن يريد عندهم.

وأما المنزلة بين المنزلتين فعندهم أن من ارتكب كبيرة يخرج من الإيمان ولا يدخل فى الكفر.

وأما الأمر بالمعروف فهو أنهم قالوا: علينا أن نأمر غيرنا بما أمرنا به وأن نلزمه بما يلزمنـــا، وذلك هو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وضمنوه أنه يجوز الخروج على الأئمة بالقتـــال إذا جاروا.

وقد تقدم جواب هذه الشبه الخمس فى مواضعها.

وعندهم أن التوحيد والعدل من الأصول العقلية التى لا يعلم صحة السمع إلا بعدهـك وإذا استدلوا على ذلك بأدلة سمعية فإنما يذكرونها للاعتضاد بها، لا للاعتماد عليها، فهم يقولـــون: لا نثبت هذه بالسمع بل العلم بها متقدم على العلم بصحة النقل، فمنهم مـــن لا يذكرهـــا فى الأصول، إذ لا فائدة فيها عندهم، ومنهم من يذكرها ليبين موافقة السمع للعقل ولإيناس الناس بها لا للاعتماد عليها، والقرآن والحديث فيه عندهم بمنـــزلة الشهود الزائدين على النصـــــاب والمدد اللاحق بعسكر مستغن عنهم، وبمنـــزلة من يتبع هواه واتفق أن الشرع ما يهواه، كمـــا قال عمر بن عبد العزيز: لا تكن ممن يتبع الحق إذا وافق هواه ويخالفه إذا خالف هواه، فإذا أنت لا تثاب على ما وافقته من الحق، وتعاقب على ما تركته منه، لأنك إنمـــا اتبعـــت هـــواك فى الموضعين.

وكما أن الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، والعمل يتبع قصد صاحبه وإرادتــــه، فالاعتقاد القوى يتبع أيضا علم ذلك وتصديقه، فإذا كان تابعا للإيمان كان من الإيمان، كما أن العمل الصالح إذا كان عن نية صالحة كان صالحا، وإلا فلا، فقول أهل الإيمان التابع لغير الإيمان كعمل أهل الصلاح التابع لغير قصد أهل الصلاح.

وفى المعتزلة زنادقة كثيرة وفيهم من ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا.

والجهمية هم المنتسبون إلى جهم بن صفوان السمرقندى، وهو الذى أظهر نفى الصفـــات والتعطيل، وهو أخذ ذلك عن الجعد بن درهم، الذى ضحى به خالد بن عبـــد الله القســـرى بواسط، فإنه خطب الناس فى يوم عيد الأضحى وقال: أيها الناس ضحوا، تقبل الله ضحايـاكم، فإنى مضح بالجعد بن درهم، إنه زعم ان الله لم يتخذ إبراهيم خليلا، ولم يكلم موسى تكليمـــا،

تعالى الله عما يقول الجعد علوا كبيرا، ثم نـــزل فذبحه، وكان ذلك بعد استفتاء علماء زمانـــه، وهم السلف الصالح رحمهم الله تعالى.

وكان جهم بعده بخراسان فأظهر مقالته هناك وتبعه عليها ناس بعد أن ترك الصلاة أربعين يوما، شكا فى ربه، وكان ذلك لمناظرته قوما من المشركين يقال لهم: السمنية من فلاسفة الهند الذين ينكرون من العلم ما سوى الحسيات، قالوا له: هذا ربك الذى تعبده هل يرى أو يشم أو يذاق أو يلمس؟ فقال: لا، فقالوا: هو معدوم، فبقى أربعين يوما لا يعبد شيئا، ثم لما خلا قلبـــه من معبود يؤلهه نقش الشيطان اعتقادا نحته فكره فقال: إنه الوجود المطلق، ونفى جميع الصفات، واتصل بالجعد.

وقد قيل: إن جعدا كان قد اتصل بالصابئة الفلاسفة من أهل حران، وأنه أيضا أخذ شيئا عن بعض اليهود المحرفين لدينهم المتصلين بلبيد بن الأعصم، الساحر الذى سحر النبى ﷺ فقتل جهم بخراسان، قتله سلم بن أحوز، ولكن كانت قد فشت مقالته فى الناس وتقلدهـــا بعـــده المعتزلة، ولكن كان جهم أدخل فى التعطيل منهم لأنه ينكر الأسماء حقيقة، وهم لا ينكـــرون الأسماء بل الصفات.

وقد تنازع العلماء فى الجهمية هل هم من الثنتين وسبعين فرقة أم لا؟ ولهم فى ذلك قولان، وممن قال إنهم ليسوا من الثنتين وسبعين فرقة عبد الله بن المبارك ويوسف بن أسباط.

وإنما اشتهرت مقالة الجهمية من حين محنة الإمام أحمد بن حنبل وغيره من علماء الســـنة، فإنه من إمارة المأمون قووا وكثروا، فإنه قد أقام بخراسان مدة واجتمع بهم، ثم كتب بالمحنة من طرطوس سنة ثمان عشرة ومائتين، وفيها مات، وردوا الإمام أحمد إلى الحبس ببغداد إلى ســـنة عشرين، وفيما كانت محنته مع المعتصم ومناظرته لهم بالكلام، فلما رد عليهم ما احتجوا به عليه وبين أنه لا حجة لهم فى شيء من ذلك، وأن طلبهم من الناس أن يوافقوهم وامتحانهم إيـــاهم جهل وظلم، ولما أراد المعتصم إطلاقه أشار عليه من أشار بأن المصلحة ضربه، لئلا تنكسر حرمة الخلافة من بعد مرة، فلما ضربوه قامت الشناعة فى العامة وخافوا فأطلقوه، وقصته مذكـورة فى كتب التاريخ.

ومما انفرد به جهم أن الجنة والنار تفنيان، وأن الإيمان هو المعرفة فقط والكفر هو الجهل فقط، وأنه لا فعل لأحد فى الحقيقة إلا لله وحده وأن الناس إنما تنسب إليهم أفعالهم على سبيل المجاز، كما يقال: تحركت الشجرة ودار الفلك وزالت الشمس، ولقد أحسن القائل:

عجبت لشيطان دعا الناس جهرة — إلى النار واشتق اسمه من جهنم

وقد نقل أن ابا حنيفة رحمه الله لما سئل عن الكلام فى الأعراض والأجسام فقال لعن الله عمرو بن عبيد هو فتح على الناس الكلام فى هذا.

والجبرية أصل قولهم من جهم بن صفوان، كما تقدم، وأن فعل العبد بمنزلة طوله ولونه، وهم عكس القدرية نفاه القدر، فإن القدرية إنما نسبوا إلى القدر لنفيهم إياه، كما سميت المرجئة لنفيهم الإرجاء، وأنه لا أحد مرجأ لأمر الله إما يعذبهم، وإما يتوب عليهم، وقد تسمى الجبرية قدرية لأنهم غلوا فى إثبات القدر، وكما يسمى الذين لا يجزمون بشىء من الوعد والوعيد بل يغلون فى إرجاء كل أمر حتى الأنواع، فلا يجزمون بثواب من تاب كما لا يجزمون بعقوبة من لم يتب، وكما لا يجزم لمعين، وكانت المرجئة الأولى يرجئون عثمان وعليا ولا يشهدون بإيمان ولا كفر.

وقد ورد فى ذم القدرية أحاديث فى السنن، منها ما روىٰ أبو داود فى سننه من حديث عبد العزيز بن أبى حازم عن أبيه عن ابن عمر عن النبى ﷺ قال: "القدرية مجوس هذه الأمة، إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم"[(١)].

وروى فى ذم القدرية أحاديث أخر كثيرة، تكلم أهل الحديث فى صحة رفعها، والصحيح أنها موقوفة، بخلاف الأحاديث الواردة فى ذم الخوارج، فإن فيهم فى الصحيح وحده عشرة أحاديث، أخرج البخارى منها ثلاثة، وأخرج مسلم سائرها، ولكن مشابهتهم للمجوس ظاهرة، بل قولهم أردأ من قول المجوس، فإن المجوس اعتقدوا وجود خالقين، والقدرية اعتقدوا خالقين.

وهذه البدع المتقابلة حدثت من الفتن المفرقة بين الأمة، كما ذكر البخارى فى صحيحه عن سعيد بن المسيب قال: وقعت الفتنة الأولى، يعنى مقتل عثمان، فلم تبق من أصحاب بدر

---

(١) تقدم تخريجه.

أحدًا، ثم وقعت الفتنة الثانية فلم تبق من أصحاب الحديبية أحدا، ثم وقعت الثالثة فلم ترتفع وللناس طَباخ، أى عقل وقوة.

فالخوارج والشيعة حدثوا فى الفتنة الأولى، والقدرية والمرجئة فى الفتنة الثانية، والجهمية ونحوهم بعد الفتنة الثالثة، فصار هؤلاء الذين فرقوا دينهم شيعا يقابلون البدعة بالبدعة، أولئك غلوا فى على، وأولئك كفروه، وأولئك غلوا فى الوعيد حتى خلدوا بعض المؤمنين، وأولئك غلو فى الوعيد حتى نفوا بعض الوعيد، أعنى المرجئة، وأولئك غلوا فى التنزيه حتى نفوا الصفات، وهؤلاء غلوا فى الإثبات حتى وقعوا فى التشبيه، وصاروا يبتدعون من الدلائل والمسائل ما ليس بمشروع ويعرضون عن الأمر المشروع، وفيهم من استعان على ذلك بشيء من كتب الأوائل اليهود والنصارى والمجوس والصابئين، فإنهم قرءوا كتبهم فصار عندهم من ضلالتهم ما أدخلوه فى مسائلهم ودلائلهم وغيروه، فى اللفظ تارة وفى المعنى أخرى، فلبسوا الحق بالباطل وكتموا حقا جاء به نبيهم، فتفرقوا واختلفوا، وتكلموا حينئذ فى الجسم والعرض والتجسيم نفيا وإثباتا.

وسبب ضلال هذه الفرق وأمثالهم عدولهم عن الصراط المستقيم الذى أمرنا الله باتباعه فقال تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ﴾[1] وقال تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ ﴾[2] فوحد لفظ صراطه وسبيله وجمع السبل المخالفة له.

وقال ابن مسعود ﷺ خط لنا رسول الله ﷺ خطا وقال: "هذا سبيل الله"[3] ثم خط خطوطا عن يمينه وعن يساره وقال: "هذه سبل على كل سبيل شيطان يدعو إليه" ثم قرأ: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾.

---

(١) سورة الأنعام الآية: ١٥٣.

(٢) سورة يوسف الآية: ١٠٨.

(٣) **صحيح**: أخرجه أحمد فى المسند (٤٤٣٧) والحاكم فى المستدرك كتاب التفسير (٣٢٤١) والدارمى فى كتاب المقدمة (٢٠٦) وقال الحاكم فى المستدرك هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه وشاهده لفظا واحدا حديث الشعبى عن جابر من وجه غير معتمد.

ومن هنا يعلم أن اضطرار العبد إلى سؤال هداية الصراط المستقيم فوق كل ضرورة، ولهذا شرع الله تعالى فى الصلاة قراءة أم القرآن فى كل ركعة، إما فرضا أو إيجابا على حسب اختلاف العلماء فى ذلك لاحتياج العبد إلى هذا الدعاء العظيم القدر المشتمل على أشرف المطالب وأجلها، فقد أمرنا الله تعالى أن نقول: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝ ﴾.

وقد ثبت عن النبى ﷺ أنه قال: "اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون"[١].

وثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه، قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: "فمن؟"[٢].

قال طائفة من السلف: من انحرف من العلماء ففيه شبه من اليهود، ومن انحرف من العباد ففيه شبه من النصارى، فلهذا تجد أكثر المنحرفين من أهل الكلام من المعتزلة ونحوهم فيه شبه من اليهود، حتى إن علماء اليهود يقرءون كتب شيوخ المعتزلة ويستحسنون طريقتهم، وكذا شيوخ المعتزلة يميلون إلى اليهود ويرجحونهم على النصارى، وأكثر المنحرفين من العباد من المتصوفة ونحوهم فيهم شبه من النصارى، ولهذا يميلون إلى نوع من الرهبانية والحلول والاتحاد ونحو ذلك، وشيوخ هؤلاء يذمون الكلام وأهله، وشيوخ أولئك يعيبون طريقة هؤلاء، ويصنفون فى ذم السماع والوجد، وكثير من الزهد والعبادة التى أحدثها هؤلاء.

ولفرق الضلال فى الوحى طريقتان: طريقة التبديل وطريقة التجهيل، أما أهل التبديل فهم نوعان: أهل الوهم والتخييل، وأهل التحريف والتأويل.

فأهل الوهم والتخييل هم الذين يقولون: إن الأنبياء أخبروا عن الله واليوم الآخر والجنة والنار بأمور غير مطابقة للأمر فى نفسه، لكنهم خاطبوهم بما يتخيلون به ويتوهمون به أن الله شيء عظيم كبير، وأن الأبدان تعاد، وأن لهم نعيما محسوسا وعقابا محسوسا، وإن كان الأمر

---

(١) **صحيح:** أخرجه الترمذى فى كتاب التفسير (٢٩٥٤) والطبرانى فى الكبير (١٧/ ٩٨) رقم (٢٣٦) وابن حبان (٢٢٧٩).

(٢) **صحيح:** أخرجه البخارى كتاب أحاديث الأنبياء حديث (٣٤٥٦) ومسلم كتاب العلم حديث (٢٦٦٩) وأحمد فى المسند (٣/ ٨٤).

ليس كذلك لأن مصلحة الجمهور فى ذلك، وإن كان كذبا فهو كذب لمصلحة الجمهور، وقد وضع ابن سينا وأمثاله قانونهم على هذا الأصل.

وأما أهل التحريف والتأويل فهم الذين يقولون: إن الأنبياء لم يقصدوا بهذه الأقوال ما هو الحق فى نفس الأمر، وأن الحق فى نفس الأمر هو ما علمناه بعقولنا ثم يجتهدون فى تأويل هذه الأقوال إلى ما يوافق رأيهم بأنواع التأويلات، ولهذا كان أكثرهم لا يجزمون بالتأويل، بل يقولون: يجوز أن يراد كذا، وغاية ما معهم إمكان احتمال اللفظ.

وأما أهل التجهيل والتضليل الذين حقيقة قولهم أن الأنبياء وأتباع الأنبياء جاهلون ضالون لا يعرفون ما أراد الله بما وصف به نفسه من الآيات وأقوال الأنبياء ويقولون يجوز أن يكون للنص تأويل لا يعلمه إلا الله، لا يعلمه جبرائيل ولا محمد ولا غيره من الأنبياء، فضلا عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وأن محمدا ﷺ كان يقرأ: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾[1] ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴾[2] ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾[3] وهو لا يعرف معانى هذه الآيات، بل معناها الذى دلت عليه لا يعرفه إلا الله تعالى، ويظنون أن هذه طريقة السلف.

ثم منهم من يقول: إن المراد بهذا خلاف مدلولها الظاهر المفهوم، ولا يعرفه أحد، كما لا يعلم وقت الساعة.

ومنهم من يقول: بل تجرى على ظاهرها، وهؤلاء يشتركون فى القول بأن الرسول لم يبين المراد بالنصوص التى يجعلونها مشكلة أو متشابهة، ولهذا يجعل كل فريق المشكل من نصوصه غير ما يجعله الفريق الآخر مشكلا.

ثم منهم من يقول: لم يعلم معانيها أيضا.

ومنهم من يقول علمها و لم يبينها، بل أحال فى بيانها على الأدلة العقلية، وعلى من يجتهد فى العلم بتأويل تلك النصوص.

---

(١) سورة طه الآية: ٥.

(٢) سورة فاطر الآية: ١٠.

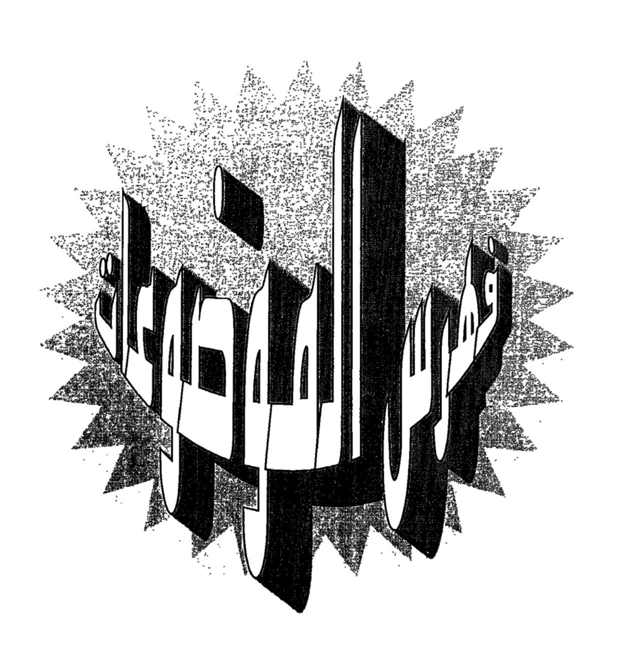
(٣) سورة ص الآية: ٧٥.

فهم مشتركون فى أن الرسول لم يعلم أو لم يعلم، بل نحن عرفنا الحق بعقولنا ثم اجتهدنا فى حمل كلام الرسول على ما يوافق عقولنا، وأن الأنبياء وأتباعهم لا يعرفون العقليات ولا يفهمون السمعيات، وكل ذلك ضلال وتضليل عن سواء السبيل.

نسأل الله السلامة والعافية من هذه الأقوال الواهية المفضية بقائلها إلى الهاوية.

﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾
وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾
وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾

❒ ❒ ❒
❒ ❒
❒


فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

الموضـــــوع	الصفحة

الموضــــــــــوع	الصفحة

الموضـــــــوع	الصفحة

الموضـــــــوع الصفحة

الموضـــــــــوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـــــــــوع | الصفحة

الموضـــــــوع | الصفحة

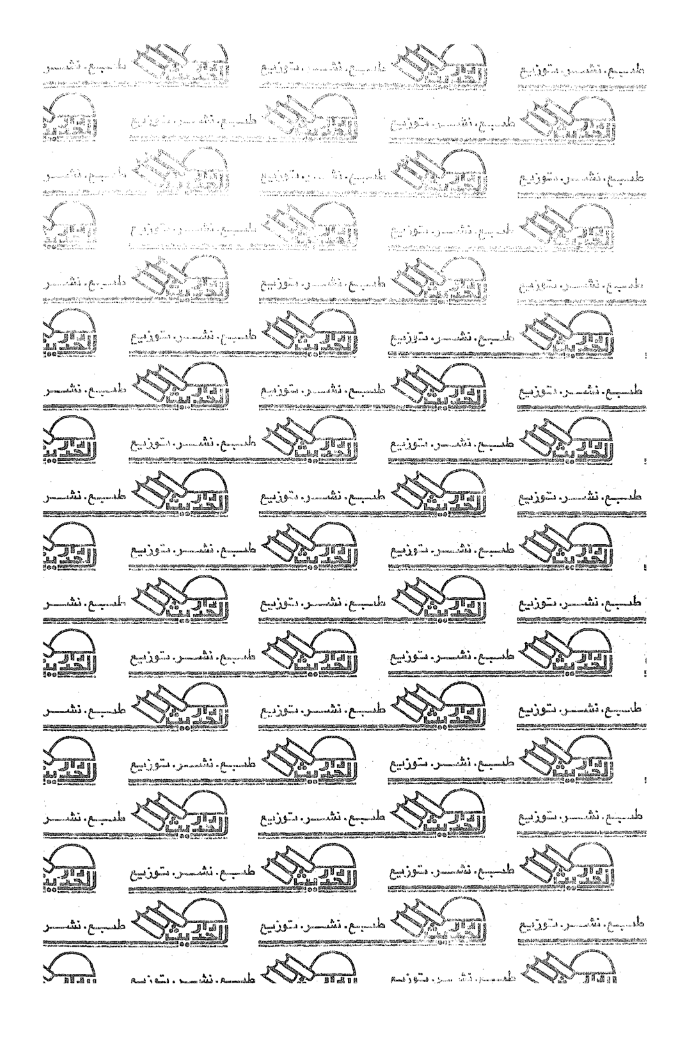
الموضـــــــوع | الصفحة

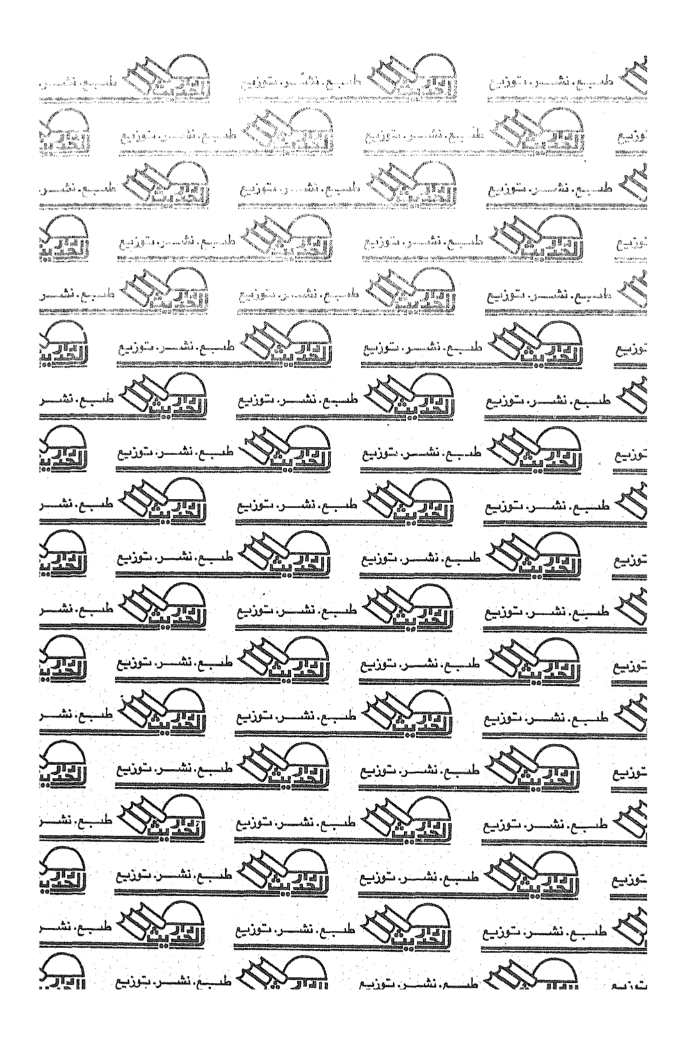
الموضـــــــــوع | الصفحة

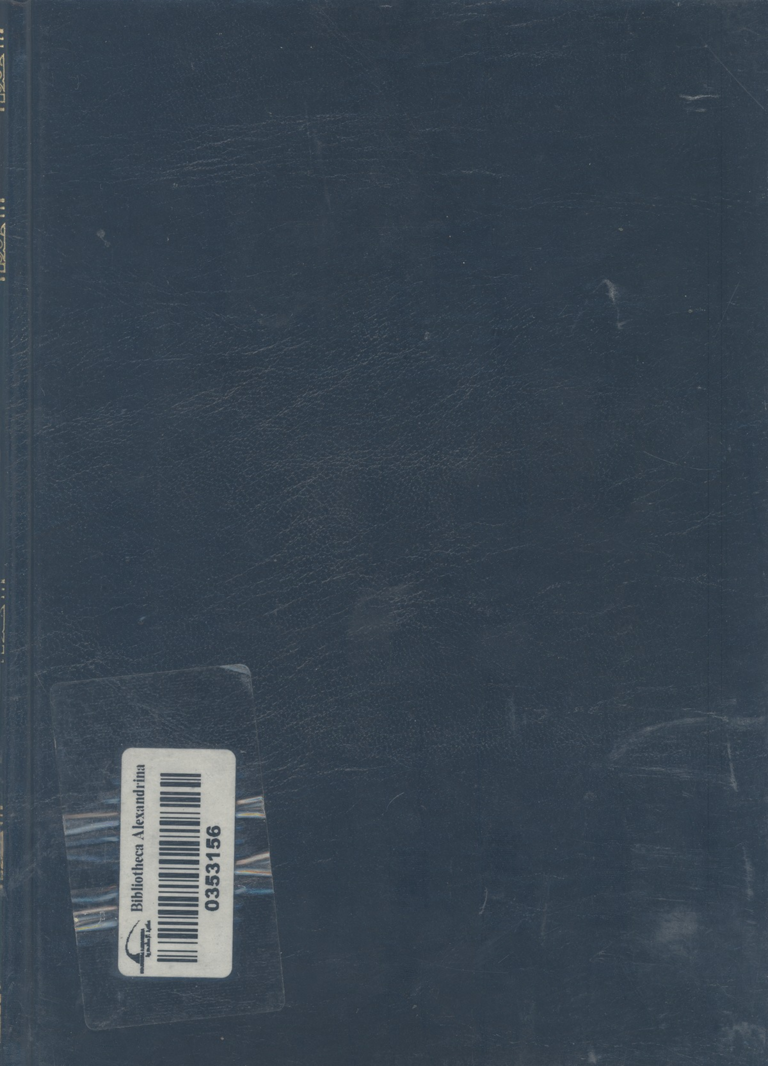
الموضـــــــوع الصفحة

الموضـــــــــوع | الصفحة

تمت الفهرسة


دار الحديث
طبع . نشر . توزيع


دار الحديث
طبع . نشر . توزيع


Bibliotheca Alexandrina
03353156